

المكتبة الفلسفية

مَسَائِكُ الْأَبْصَارِ فِي مَمَالِكِ الْأُمُصَارِ

(الْحُكَمَاءُ وَالْفَلَسِيفَةُ)

لَا بِنِ فَضَّلَ اللَّهِ الْعَمْرِي

تحقيق
الأستاذ الدكتور
عَامِرُ النَّجَّارِ

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ابن فضل الله العمري ، احمد بن يحيى بن فضل الله القرشي ، 1301-1349
ممالك الابصار في ممالك الامصار (الحكماء والفلاسفة) لابن فضل الله العمري ،

تحقيق : عامر النجار

- ط 1 - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية 2009

640 ص : 24 سم

1- الفلاسفة

2- النجار ، عامر (محقق)

أ-العنوان

ديوى : 921

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

ففي عام (١٩٩٨) أراد مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية تحقيق «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري، وبالفعل تكوّنت لجنة علمية كبرى لهذا الغرض، وقام العالم الأستاذ الدكتور حسين نصار المشرف العام على اللجان العلمية بمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية بتوزيع العمل، وكلفني بتحقيق الجزء التاسع من مسالك الأبصار الخاص بالحكماء والفلاسفة؛ نظراً لتخصصي في الفلسفة الإسلامية واهتمامي بتاريخ العلوم عند العرب وقيامي من قبل بتحقيق كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، ومشاركتي في جمعية التراث العلمي في الحضارة الإسلامية، وسعدت غاية السعادة بهذا التكليف، فقد عشت مع صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء ردحاً طويلاً من الزمن، وهذا الكتاب هو العمدة في نصوص الجزء التاسع من «مسالك الأبصار»، فقد اعتمد عليه كثيراً صاحب المسالك، فجُلّ مادة هذا الجزء مرجعه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، فكان سهلاً عليّ توثيق نصوص الجزء التاسع من المسالك، وبدأت أعمل بقوة من أجل تحقيق هذا النص تحقيقاً علمياً.

لكن بعد عام من التحقيق أبلغنا الأستاذ الدكتور حسين نصار أن المجمع الثقافي بالإمارات العربية المتحدة يقوم بتحقيق مسالك الأبصار، وأنه سيصدر قريباً في عدة

أسفار، ولهذا السبب توقف مشروع مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، ولم يخرج مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري المتوفى عام (٧٤٩هـ) للنور، لكن بالنسبة لي فبفضل من الله تعالى ومنه استطعتُ أن أنجزه بحب شديد للكتاب وصاحبه، ولما صدر هذا السفر بعد ذلك عام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) بتحقيق الأستاذ بسام محمد بارود رغبت في ظهور تحقيقي أيضاً فالتحقيقان يكمل بعضهما بعضاً، فالأستاذ بسام محمد بارود أحد العاملين في المجمع الثقافي في «أبوظبي» وله جهود علمية طيبة في التحقيق، ويكفيه أنه حقق جزءاً هاماً في موسوعة «مسالك الأبصار»، ولقد بذل مجهوداً طيباً في تحقيق هذا الجزء من مسالك الأبصار.

وقد عشت الكتاب من قبل من خلال نصوص عيون الأنباء في طبقات الأطباء، وكذلك في تعريف الأعلام وشرح المصطلحات العملية شرحاً دقيقاً، وكذلك تقديم دراسة وافية حول الكتاب وصاحبه.

الأمر الآخر أن الأستاذ الفاضل بسام بارود اعتمد في تحقيقه على نسخة واحدة هي نسخة العلامة فؤاد سزكين، أما أنا فقد عثرتُ على نسخة أخرى بالإضافة إلى نسخة الدكتور فؤاد سزكين هي نسخة دLR الكتب المصرية فكانت فرصة للمقابلة بين النسختين.

وبعد... فهذا عمل بشري، والكمال لله وحده، وهذا جهد المقل، وأبى الله أن يتم كتاب إلا كتابه، فالعجز والتقصير والخطأ من شيم الإنسان، ويكفي أن ننشد الصواب ونتحراه قدر ما نستطيع، وأختم كلامي بما قاله ابن القيم: «من كان عنده علم فليرشدنا إليه، ومن رأى في كلامنا زيفاً أو نقصاً أو خطأ فليهد إلينا الصواب، نشكر له سعيه، ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم»، والله أعلم، وهو الموفق.

هذا وبالله تعالى التوفيق والسداد.

أ.د/ عامر النجار

المبحث الأول العمرى: حياته ومؤلفاته

اسمه ونسبه:

لقد ذكر العمرى في مقدمة كتابه «مسالك الأبصار» اسمه ونسبه الذى يصل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: إنه أحمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلى بن دعجان بن خلف أبى الفضل نصر بن منصور بن عبد الله بن عدي بن محمد بن أبى بكر عبد الله بن عبيد الله بن أبى بكر بن عبد الله الصالح بن أبى سلمة عبد الله - وقيل: أسلمة - ابن عبد الله بن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى عفا الله ولطف به، آمين^(١).

وانتسابه لعمر بن الخطاب رضى الله عنه له موقع عظيم فى نفسه تمثل ذلك فى كتابه؛ حيث كرر مراراً انتسابه لعمر بن الخطاب وأنه سليل عشيرة عربية من قريش تنحدر من عمر بن الخطاب رضى الله عنه^(٢).

والعمرىون يتنسبون إلى بطن من بطون قريش، وهو عدي بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، وهم موجودون بكثرة فى بلاد الشام ومصر^(٣).

وكنيته أبو العباس، ولقبه شهاب الدين^(٤).

(١) العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، مخطوط رقم (٢٧٩٧/١) أحمد الثالث، استانبول، الورقة (٢).

(٢) العمرى: مسالك الأبصار (قبائل العرب القرنين السابع والثامن الهجريين) ح: دوروتيا كرافولكسي، المركز الإسلامى للبحوث بيروت (١٤٠٦هـ/١٩٨٥)، ص ١٥٦.

(٣) فلاتد الجمان لقبائل العرب عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الأبيارى، دار الكتب الإسلامية (١٤٠٢/١٩٨٢)، ص ٨٣.

(٤) الوافى بالوفيات: الصفدى (٢٦٨/٨).

مولده:

غالبًا ما يكون تحديد تاريخ الولادة محل خلاف بين العلماء إن لم يصرح المترجم بسنة ولادته، فابن فضل الله العمري اختلف في تاريخ مولده، لكن الذي عليه جُلَّةُ العلماء ومنهم الصفدي أن مولده كان في اليوم الثالث من شهر شوال سنة سبع مائة^(١).

وتبعه في ذلك المقرئ، وابن قاضي شهبة، وابن تغري بردي، والسيوطي، وكان مولده في دمشق.

حياته ونشأته:

نشأ الشهاب العمري في دمشق وقضى فترة صباه بها، وكانت دمشق حينها تزخر بالعلوم والمعارف، فكان الشهاب كالنخلة يتنقل بين أزهار العلوم، فتلقى تعليمه على أيدي كبار علمائها ومشايخها في ديوان الإنشاء بحكم والده القاضي محيي الدين في الجامع الأموي^(٢) وباقي مدارس دمشق^(٣).

وكان الشهاب مرتبطاً بوالده طوال هذه الفترة والتي تمتد من مولد ابن الشهاب سنة (٧٠٠هـ) وحتى سنة (٧٢٩هـ)، فتربى على يديه وكرع مناهل علمه، فكان له الأثر الأكبر في تعليمه وتثقيفه، خاصة على وظيفة ديوان الإنشاء وطبيعة عمله، وكذلك استفاد أيضًا من العاملين في ديوان الإنشاء إذ كان مجمع الأدباء وأصحاب المعارف والخبرات.

وكانت لرحلاته إلى مصر مع والده أثر كبير في إثراء معارفه وعلومه مما جعله موسوعة علمية مرتحلة متنوعة مع ما أوتي من فكر ثاقب، وذاكرة طيبة تحفظ كل ما تلقفه في طريقها،

(١) الوافي بالوفيات: الصفدي (٢٦٨/٨).

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب (٣/١٦٥)، ابن حجر: الدرر (٢/٤٣١).

(٣) ابن قاضي شهبة (٢/٣١٥).

فالرحلة في تاريخ العلوم كانت هي المحك والميزان الذي توزن به المعارف والعلوم، ورافد أصلي لها، حتى كان الشخص الذي لم يترحل في طلب العلم كان غالبًا مثار جدل واستخفاف لعلومه ومعارفه بين الناس، وبين الشام ومصر كانت توجد محطات كثيرة عبر الطريق، ومراكز علمية سجلتها الرحلات، والمشيخات، والسماعات، والبرامج، والفهارس، فكان المرتحل يخرج في علم ويمضي في علم ويستقر في علم، وكانت رحلات ابن فضل الله العمري في الشطر الأول من حياته في وقت صفاء الذهن وتعطش إلى المعرفة.

أما المرحلة الثانية من حياة الشهاب فتبدأ عام (٧٢٩هـ) عندما انتقل والده من دمشق إلى مصر ليتولى كتابة السر، فقد رافق والده إلى هناك وعمل معه مساعدًا في ديوان الإنشاء، واستمر العمري في عمله في القاهرة حتى سنة (٧٣٢هـ) حيث عاد مع والده إلى دمشق ولم يستمر في دمشق طويلاً حتى رجع إلى مصر مرة أخرى مع والده في العام التالي بأمر من السلطان الناصر محمد بن قلاوون^(١).

وفي المرحلة الأخيرة استقل العمري بالعمل في كتابة السر بسبب مرض والده^(٢)، واستمر في كتابة السر في مصر إلى أن ولّى السلطان الناصر أحد الأقباط النصاري كتابة السر في دمشق استجابة لطلب الأمير تنكر نائب الشام، مما جعل الشهاب يتكلم عليه لدى السلطان، ولأنه لا يصلح للكتابة في ديوان الإنشاء، فتجاهل السلطان كلامه مما أثار حفيظة الشهاب، ورفض كتابة أمر السلطان، ووجه كلامًا خشنًا للسلطان الناصر، ثم قام من مجلس السلطان مغضبًا فتوقع الأمراء أن يوقع به السلطان شرًا، لكن سرعان ما تدخل الوالد وقدم اعتذاره للسلطان عن موقف ابنه فقبل السلطان اعتذاره، وولّى أخاه علاء الدين كتابة السر بدلًا منه^(٣).

(١) المقرئ: المقفى (١/٧٣٤)، ابن تغري بردي: المنهل (٢/٢٤٦)، ابن حبيب (٢/٢٣٨).

(٢) المقرئ: الخطط (٣/١٠٦).

(٣) المقرئ: المقفى (١/٧٣٤)، تاريخ الملك الناصر وأولاده ص ٢٤، ٢٥.

ولقد مكث الشهاب أحمد في منزله بالقاهرة دون ممارسة أي عمل أو كلفة، فهزه الحنين إلى وطنه، فطلب الإذن من السلطان ليرجع إلى دمشق، لكن السلطان رفض ذلك بشدة، وتحرك غضب السلطان المستكن في صدره من موقفه السابق فأمر بالقبض عليه، وسجنه بقاعة الصاحب من قلعة الجبل، فنكل به وأذله بعد حياة ناعمة مترفة وكان هذا ستة (٧٣٩هـ)، وكانت مدة سجنه ستة أشهر وثمانية عشر يومًا، وأفرج عنه في ٣ ربيع الآخر (٧٤٠هـ)^(١).

وفي شهر محرم سنة (٧٤١هـ) استدعاه السلطان الناصر وولاه كتابة السر في دمشق فتوجه إلى دمشق ليقوم بوظيفته، واستمر فيها حتى مات السلطان الناصر رحمه الله^(٢).

نشأته العلمية وتكوينه العلمي:

لقد رأينا سابقًا نشأة الشهاب وأثرها في حياته العلمية، مما جعله من الأعلام الكبار في عصره مبررًا في علوم كثيرة في اللغة والأدب والعروض والبلاغة، متقنًا لفن الإنشاء، عارفًا لأسرار البلاغة، مسترسلًا في الكتابة الديوانية مما بهر عقول معاصريه، ولم يكن لأحد من أقرانه القدرة التي كان يملكها العمري؛ لأنه تلقى تعليمه على أيدي علماء عظام سارت بذكرهم الركبان نذكرهم على سبيل الترتيب الزمني لتلقيه العلوم: بداية تعليمه على والده محيي الدين بن فضل الله في دمشق حيث درس وتخرج على يديه في الأدب^(٣).

كما درس الأدب على يد الشهاب محمود؛ حيث قرأ عليه جملة من المعاني والبيان، ودرس عليه كثيرًا من تصانيفه وجملة من الدواوين وكتب الأدب^(٤).

(١) المقرئزي: الخطط (٣/١٠٧).

(٢) المقرئزي: المقفى (١/٧٣٥)، ابن حجر: الدرر (١/٣٣٣).

(٣) ابن قاضي شهبة (٣/١٧).

(٤) الصفدي: الوافي (٨/٢٥٥).

وتلقى علم العروض والأدب على يد الشيخ شمس الدين ابن الصائغ^(١).

وقرأ الفقه على الشيخ الزمكاني وبعضاً من العروض، وقرأ الفقه أيضاً على شهاب الدين ابن المجد قاضي القضاة والشيخ برهان الدين الفزاري وكان مُدرّساً في المدرسة البدرائية بدمشق^(٢).

ودرس الأصول على يد الشيخ شمس الدين بن محمد الأصفهاني وأذن له بالإفتاء على مذهب الشافعي^(٣).

ودرس على شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه الأحكام الصغرى^(٤)، كما قرأ العربية على الكمال قاضي شهبة في الجامع الأموي بدمشق، وقاضي القضاة شمس الدين بن مسلم في المدرسة الصالحية بدمشق^(٥)، وعلى أثير الدين بن حيان اللغة والنحو، وقد كان له أثر كبير في قوة الشهاب النحوية؛ إذ كان يلتزم أبو حيان منهجاً علمياً في تدريس النحو لطلبته، وهو لا يدرس النحو إلا إذا كان في سيوفيه وفي التسهيل لابن مالك أو في تصانيفه^(٦).

ومن شيوخه أحمد بن علي بن محمد بن يعقوب الجرائدي، والحجار، ومن النساء: ست الوزراء وست القضاة وغيرهم كثير^(٧).

(١) الصفدي: أعيان العصر (١/٤١٨).

(٢) ابن قاضي شهبة (٣/١٩).

(٣) المقرئ: المقفى (١/٧٣٣)، الصفدي (٨/٢٥٣).

(٤) أعيان العصر (١/٤١٨).

(٥) ابن حجر: الدرر (٤/٢٥٨).

(٦) المقرئ: المقفى (١/٧٣٣)، الصفدي: الوافي بالوفيات (٥/٢٦٨).

(٧) ابن تغري بردي: المنهل (٢/٢٦٢)، ابن حجر: الدرر (١/٣٣٢).

تلاميذه:

لم يتخذ العمري التدريس مهنة له؛ لأنه كان منشغلاً بالوظائف المنوطة به من قبل السلطان، لذلك لا نكاد نجد في المصادر ذكرًا لتلاميذ الشيخ الشهاب إلا ما كان من أمر محمد بن عبد الله الشبلي الذي رحل إلى القاهرة في سنة (٧٣٢هـ) لطلب العلم فالتقى بشهاب الدين هناك، فأخذ عنه العلم، وكتب كثيرًا من إنشائه^(١).

آثاره العلمية:

لقد ترك لنا العمري آثارًا عظيمة تدل على سعته في الاطلاع في ميادين شتى من علوم عصره، نحاول في هذه الترجمة أن نذكر ما وصلنا من تأليف هذا العالم الجليل التي يتصدرها كتابه الفذ الفريد «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار».

١- تذكرة الخاطر^(٢): وهو من أعمال العمري المفقودة.

٢- الجواهر الملتقطة^(٣): وهي مجموعة من المكاتبات من إنشاء العمري، نقل عنه القلقشندي في صبح الأعشى في نص كتابه السبعة.

٣- حسن الوفاء لمشاهير الخلفاء^(٤): وهي قصيدة رائية في مدح الخلفاء العبيدين.

٤- الدعوة المستجابة في مجلد واحد^(٥).

(١) الصفدي: الوافي (٣/ ٣٧٨)، ابن حجر: الدرر (٣/ ٤٨٧).

(٢) كشف الظنون (١/ ٣٢٦).

(٣) القلقشندي (٩/ ٣٢٠).

(٤) حاجي خليفة (١/ ٥١٥).

(٥) العمري: التعريف ص ٨، حاجي خليفة (١/ ٥٧٧).

٥٠- دمنة الباكي ويقظة الساهر^(١): وهو كتاب في الأدب يوجد نسخة منه في المكتبة الأحمدية بجامعة الزيتونة بتونس برقم (٥٤٣٢) تحت اسم «يقظة الساهر ورتبة الخاطر».

٦- الدرر الفرائد^(٢): وهو تراجم لطائفة من ملوك وزراء وقضاة وعلماء وأدباء وشعراء المغرب، ولا زال هذا الكتاب مخطوطاً، وتوجد نسخة منه بمعهد المخطوطات العربية بمصر تحت رقم (١٦٠٩ تاريخ).

٧- الشتويات^(٣): وهي رسائل إخوانية كتبها ابن فضل الله في فصل الشتاء.

٨- فواضل السمر في فضائل آل عمر^(٤): جمع فيه فضائل آل عمر، وهي عائلته المنتسبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم ذكر تاريخها ورجالاتها وانتسابها إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

٩- نفحة الروض^(٥): وهو كتاب في الأدب من أعمال ابن فضل الله العمري المفقودة.

١٠- النبذة الكافية لمعرفة الكتابة والقافية^(٦): وهو كتاب تعليمي لأساليب الكتابة الإنشائية وقول الشعر.

١١- للمبكتات^(٧): وهو أيضاً من مؤلفاته المفقودة.

(١) حاجي خليفة (١/ ٥٨٠).

(٢) العمري: التعريف ص ٨.

(٣) الزركلي: الأعلام (١/ ٣٥٤). يوجد نسخة من المخطوط مصورة بمعهد المخطوطات بمصر تحت رقم (٤٩٨ أدب).

(٤) العمري: مسالك الأبصار (قبائل العرب) ص ٣٨.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات (٨/ ٢٥٥).

(٦) الزركلي: الأعلام (١/ ٢٥٤).

(٧) المقرئ: المقفى (١/ ٧٣٣).

١٢- ذهبية العصر^(١): ترجم فيه لمشاهير شعراء المائة الثامنة نم معاصريه، وذكر فيه أشعارهم وأخبارهم على نهج يتيمة الدهر للثعالبي، ويوجد نسخة من ذهبية العصر في مكتبة أم القرى بمكة المكرمة تحت رقم (١٨٧٠).

١٣- التعريف بالمصطلح الشريف^(٢): وهو كتاب في مصطلح الكتابة الديوانية والقوانين التي يجب مراعاتها والطريقة التي يسير عليها كتبة الدواوين في المراسلات الخاصة بالدولة، وقد استفاد منه القلقشندي في كتاب «صبح الأعشى»، والخالدي في كتابه «المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء»^(٣).

١٤- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

(١) ابن حجر: الدرر (١/٣٢٠).

(٢) ابن حجر: الدرر (١/٣٣٣). طبع كتاب التعريف بالمصطلح الشريف طبعتين؛ الأولى بالقاهرة عام

(١٣١٢هـ)، وطبعة حديثة محققة عام (١٤٠٨هـ) بتحقيق: محمد حسين شمس الدين.

(٣) توجد نسخة مصورة من التعريف بالمصطلح الشريف بمعهد المخطوطات العربية بمصر برقم

(١٠٠١ تاريخ).

المبحث الثاني
كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
لابن فضل الله العمري

أولاً: لمحة سريعة حول الكتاب:

الكتاب موسوعة عظيمة القدر اعتمدها كثير من المؤرخين ممن عاصره ومن جاء بعده، وهي مصدر مهم لدراسة عصر سلاطين المماليك؛ سواء ما يتعلق بدولتهم، أو بالبلاد التي ارتبطت بهم في علاقات دبلوماسية منقطعة أو مستمرة.

وفي السفر التاسع من هذه الموسوعة الضخمة وهو الجزء الذي قمت بتحقيقه، تحدث ابن فضل الله العمري عن أبرز الحكماء والأطباء والفلاسفة منذ هرمس الأول، كما تناول أعلام الفلسفة اليونانية؛ فيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وكذا فلاسفة الإسلام؛ يعقوب الكندي، والفارابي، وابن سينا، وأيضاً أعلام الطب في الدولة الإسلامية؛ أبو بكر الرازي، وعبد اللطيف البغدادي، وعائلة بختيشوع بن جرجس النصراني، وثابت بن قرة الحراني، وابن بطلان، وعلي بن سهل بن ربن، وأبو الفرج يعقوب بن القف، وأبو العلاء زهر بن عبد الملك، وابن البيطار، وعلاء الدين بن النفيس، وغيرهم، وقد بلغ عدد تراجم الحكماء والفلاسفة في هذا السفر [السفر التاسع] من مسالك الأبصار في ممالك الأمصار مائة وثلاثة وتسعين علماً.

والكتاب يُعدُّ موسوعة عظيمة بحق تكشف عن رموز الحكمة والطب في تاريخ العلم الإنساني، ويعد مسالك الأبصار من أكبر الموسوعات الشاملة.

ثانياً: أسفار مسالك الأبصار وعددها:

اختلف الباحثون والعلماء في عدد أسفارها وأجزائها؛ فذكر الصفدي مرة أنه في عشرة

أجزاء كبيرة ولا يعلم أنه لأحد مثله^(١)، ومرة ثانية ذكر الصفدي بأن هذه الموسوعة تقع في أكثر من عشرين مجلدًا^(٢)، كذلك فإن الكتبي - وهو معاصر لابن فضل الله العمري - ذكر أن مسالك الأبصار تقع في أكثر من عشرين مجلدًا^(٣)، وقال ابن قاضي شعبة: إن الكتاب يقع في سبعة وعشرين مجلدًا^(٤).

والموسوعة تنقسم إلى قسمين كبيرين: القسم الأول يتناول فيه ابن فضل الله العمري الأرض، والثاني عن الإنسان، وكل قسم منها وزّعه على نوعين، وكل نوع قسّمه إلى أبواب، وكل باب قسّمه إلى عدة فصول.

فالقسم الأول تحدث فيه عن الأرض، وما اشتملت عليه في البر والبحر.

ففي الباب الأول تناول حال الأرض ومقدارها من خلال ستة فصول، بيّن من خلالها كيفية الأرض ومقدارها، وأسماء الأرض وصفاتها، وأسماء التراب وصفاته، والغبار وصفاته، وأسماء الرمال وصفاتها، وأحوال الأرض.

والباب الثاني في ذكر الأقاليم السبعة، وتتناول فصوله الثلاثة تقسيم الأقاليم، وما وقع في الأقاليم من المدن والجزائر العامرة برًا وبحرًا، وتصويرها بأشكالها، وبيان أطوال النهار في كل إقليم.

والباب الثالث في البحار وما يتعلق بها من رياح مع نبذة من عجائب البحر والبر.

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات (٨/ ٢٥٥)، دار صادر، بيروت (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

(٢) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر (١/ ٤٢٠)، تحقيق: علي أبو زيد مع آخرين، دار الفكر (١٤١٨هـ).

(٣) الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق: إحسان علي، دار الثقافة، بيروت (١٩٧٣).

(٤) ابن قاضي شعبة: طبقات الشافعية (٣/ ١٩)، تحقيق: الحافظ عبد العليم خان، الهند (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

والباب الرابع في القبلة والأدلة عليها من خلال ستة فصول حول أقوال الفقهاء في القبلة، والاستدلال عليها بالنجوم، والرياح، والجبال، والأنهار، وقبله كل أرض.

وخاتمة الباب فصل جامع يتضمن الحديث عن تداخل الشهور، والكواكب الثابتة، والسيارة، وصورة الأفلاك، والحديث عن الخسوف والكسوف.

والباب الخامس في دور حول الطرق وتعاريجها واستوائها.

أما النوع الثاني في ذكر الممالك فيشمل خمسة عشر باباً:

الباب الأول في مملكة الهند والسند.

الباب الثاني في ممالك بيت جنكيز خان.

الباب الثالث في ممالك الجبل.

الباب الرابع في مملكة الجبال.

الباب الخامس في مملكة الأتراك بالروم.

الباب السادس في مملكة مصر والشام والحجاز.

الباب السابع في مملكة اليمن.

الباب الثامن في ممالك المسلمين بالحبيشة.

الباب التاسع في ممالك ملسمي السودان على ضفة النيل الممتد إلى مصر.

الباب العاشر في مملكة مالي وما مغها.

الباب الحادي عشر في مملكة جبال البربر.

الباب الثاني عشر في مملكة إفريقية.

الباب الثالث عشر في مملكة بر العدو.

الباب الرابع عشر في مملكة الأندلس.

والباب الخامس عشر في ذكر العرب الموجودون في وقته وأماكنهم.

أما القسم الثاني من الكتاب؛ ففي سكان الأرض من طوائف الأمم، وهو أنواع:

النوع الأول يتناول ابن فضل الله العمري من خلاله مشاهير قراء المشرق والمحدثين فيه، ومشاهير قراء المغرب والمحدثين فيه، والفقهاء في الجانبين المشرق والمغرب، ومشاهير قراء ومحدثي وفقهاء الديار المصري والأئمة الأربعة وأصحابهم في الجانبين الشرقي والغربي.

وأصحاب الأئمة الأربعة في مصر، وأهل اللغة، وأرباب المعاني والبيان، والحكماء والفلاسفة والأطباء، وأهل علم الموسيقى، والوزراء في المشرق والمغرب وفي ديار مصر، وكُتَّاب الإنشاء ممن خدم الفقهاء والملوك في المشرق، والكُتَّاب المغاربة ومن تقدم منهم إلى مصر.

ثم تناول موضوع الخطابة قبل الإسلام، والخطباء بالشرق والمغرب ومصر، ثم الشعر الشعراء في الجاهلية والمخضرمين، والشعراء في دولة بني أمية، والشعراء في دولة بني العباس، وجماعة المخضرمين في الدولتين الأموية والعباسية، ثم ذكر شعراء الجانب الشرقي والغربي والشعراء في مصر.

وبعد الحديث عن الإنسان العالم والفقير واللغوي والحكيم والفيلسوف والطبيب والموسيقي والوزير والخطيب والشاعر انتقل إلى الحديث عن الحيوان والدواب والطيور والهوام والحشرات وحيوان الماء، ثم انتقل إلى الحديث عن النبات ثم النجوم ثم المعادن.

أما النوع الثاني من القسم الثاني من كتاب مسالك الأبصار فقد تناول من خلاله الكلام على الديانات والملل والنحل.

والنوع الثالث في الكلام على طوائف المتدينين.

والنوع الرابع في ذكر تاريخ الدول التي كانت قبل الإسلام، والدول الكائنة في الإسلام.

ومن هذا العرض السريع لموسوعة مسالك الأبصار نستطيع أن نلمس بوضوح تام مدى الجهد الذي بذله ابن فضل الله العمري في جمع مادته التي حوت بحرًا زاخرًا من المعلومات، ومن هنا كانت أهمية هذه الموسوعة التي عكف على نشرها وتحقيقها عدد من الباحثين والمستشرقين.

ولقد أخرج المجمع الثقافي بالإمارات العربية المتحدة أجزاء مختلفة من مسالك الأبصار في طبعات محققة فاخرة، فمثلاً السفر الأول الخاص بالمسالك والآثار والأقاليم قام بتحقيقه الأستاذ عبد الله بن يحيى السريحي ونُشر عام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

والسفر السابع الخاص بأهل اللغة والنحو والبيان قام بتحقيقه عبد العباس عبد الجاسم ونشره عام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣).

والسفر الثامن الخاص بطوائف الفقهاء - الصوفية قام بتحقيقه بسام محمد بارود ونُشر عام (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

والسفر التاسع الخاص بالحكماء والفلاسفة قام بتحقيقه من قبلي الأستاذ بسام محمد بارود.

والسفر السادس عشر الخاص بشعراء العصر العباسي قام بتحقيقه الدكتور محمد إبراهيم حُور عام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

وقبل ذلك كانت هناك جهود طيبة عملت على نشر هذه الموسوعة الكبيرة، فقد نشر الأستاذ أحمد زكي باشا الباب الأول من النوع الأول من القسم الأول من هذه الموسوعة نشرته دار الكتب المصرية بالقاهرة عام (١٩٢٤م).

ونشرت المستشرقة دوروتا كرافولكس الفصل الخاص بقبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، كذلك نشرت الفصل الخاص بدولة المماليك البحرية، نشره المركز الإسلامي للبحوث ببيروت عام (١٤٠٦-١٤٠٧هـ/١٩٨٥-١٩٨٦م).

ونشر الدكتور أيمن فؤاد سيد الفصل الخاص بمملكة اليمن، نشرته دار الاعتصام بالقاهرة عام (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

ونشر الدكتور محمد سالم العوفي الفصل الخاص بمملكة الهند والسند عام (١٤١١هـ/١٩٩٠).

ونشر محمد عيسى الحريري الجزء الخاص بالسيرة النبوية في مسالك الأبصار طبعة عالم الكتب، بيروت (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

ونشر عبد الحميد صالح حمدان الفصل الخاص بالحيوان والنبات والمعادن عام (١٤١٦/١٩٩٦) نشرته مكتبة مدبولي بالقاهرة.

كذلك قام محمد نايف الدليمي بنشر الجزء العشرين الخاص بالحيوان والنبات، نشر عالم الكتب، بيروت (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

والحقيقة أن المؤرخين والعلماء عرفوا قيمة مسالك الأبصار فأتوا على الكتاب ثناء كبيراً، منهم الصفدي الذي قال عن المسالك: «إنه كتاب حافل لا يعلم أن لأحد

مثله^(١).

وقال عنه ابن تغري بردي: «لو لم يكن له - أي للكتاب - إلا التسمية التي سُمي بها لكفاه»^(٢).

إن «مسالك الأبصار» دائرة معارف كبرى لا غنى عنها لكل باحث في التاريخ، وخاصة من يهتم بتاريخ الممالك، وجغرافية العالم الإسلامي، وتراجم العلماء والفلاسفة والأدباء والأطباء والفقهاء وغيرهم.

ثالثاً: أهمية موسوعة «مسالك الأبصار» ومصادرها:

ابن فضل الله العمري من المؤرخين الذين جمعوا تراثاً عربياً أصيلاً تاريخياً وحضارياً؛ لكونه عاش في مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي المفعمّة بالأحداث في شتى الميادين، وهو مؤرخ وكاتب يسير من طراز فريد، وحيث إنه في الجزء التاسع من موسوعته «مسالك الأبصار» يتناول في الأصل الحديث عن تاريخ علماء وحكماء، فحريّ بي أن أشير إلى منهجه في كتابة التاريخ بصفة عامة في هذه الموسوعة الكبرى، وبخاصة في القسم التاريخي من موسوعته.

والقسم التاريخي من موسوعته مصدر مهم لدراسة التاريخ الإسلامي عامة وعصر سلاطين الممالك خاصة، يتجلى ذلك فيما يحتويه من معلومات مهمة تتعلق بالبلاد التي ارتبطت مع الدولة المملوكية بعلاقات دبلوماسية، أو معلومات خاصة بوصف إقليم من أقاليم العالم المعاصر لهذه الدولة، وأمر مهم أيضاً يتعلق بالقيمة التاريخية أنها حفظت لنا هذه الموسوعة مادة تاريخية علمية غزيرة فقدت مصادرها الأصلية، فنقلت لنا الوضع الجاري في ذلك الوقت.

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات (٨/ ٢٥٥).

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي (٢/ ٢٦٥).

ويرجع السبب في تلك الأهمية إلى ما توفر للمؤلف من اطلاع على الوثائق الرسمية في الدولة، بالإضافة إلى لقاء كثير من سفراء ومندوبي تجار الدول الأخرى؛ وذلك بحكم وظيفته في ديوان الإنشاء، بالإضافة إلى أن ابن فضل الله العمري يعد شاهد عيان لمعظم الأحداث ومعاصرها ومشاركاً في صنع أحداثها، لذا فهو مصدر وثائقي هام في تلك الفترة التي عاصرها، ومما يزيد من أهمية القسم والمعلومات التاريخية للموسوعة العمرية ولا سيما الفترة التي عاشها؛ وكذا أصالة المصادر التي استقى منها معلوماته وهي:

١- إمّا وثائق رسمية ضمتها ملفات الدولة أو أرشيفاتها وهي لا تحتل الخطأ أو التشكيك.

٢- وإما شاهد للأحداث التقى به استقى منه معلوماته.

ولقد سلك ابن فضل الله العمري في تنظيم قسم التاريخ من موسوعته المنهج نفسه الذي اتبعه مؤلفو المصادر التي نقل منها مادته التاريخية؛ كالذهبي وأبي الفداء وغيرهما.

واتبع العمري طريقة أبي الفداء في عناوين الأخبار ذاكراً عنواناً لحكم ملك ثم يورد الأحداث المتعلقة بذلك الملك إلى أن ينتهي عند أخبار ملوك الهند حيث يبدأ النقل من المسعودي، والذي اتبع العمري أيضاً طريقته في ذكر عناوين بارزة للأخبار التي يكتب عنها.

وقد لجأ العمري إلى الدمج بين الأخبار المنقولة من مؤلف أبي الفداء وبين تلك المنقولة من مؤلف المسعودي فينقل من تلك تارة ومن الأخرى تارة أخرى مثلما هو الحال في أخبار ملوك الفرس.

وخالف العمري أبا الفداء والمسعودي في طريقة ترتيب الأخبار، بل اتبع طريقة أخرى ذكر فيها أخبار ملوك العجم أولاً على اختلافهم، ثم أخبار ملوك العرب، ثم أيام العرب وحروبهم، مختتماً بذلك الأخبار لما قبل الهجرة النبوية لتكون كالمقدمة أو الممهدة

للتاريخ الإسلامي.

رابعًا: مصادر مسالك الأبصار:

لقد اتسم عصر ابن فضل الله بالموسوعية، ومن أبرز سماتها الاعتماد على السابقين فيما كتبوا بصورة واضحة، وكان العمري أحد هؤلاء الذين اعتمدوا على المؤرخين الأوائل وكتب التراجم وغيرهم.

والقسم التاريخي يعكس نصية النقل الذي لجأ إليه ملتزمًا الأمانة العلمية في النقل؛ حيث لم يهمل ذكر مؤلفي المصادر التي نقل عنها أو ذكر مؤلفاتهم، بالإضافة إلى إيراد المصادر التي اعتمد عليها أولئك المؤرخون في أحيان أخرى كما هو مكتوب في المصادر التي ينقل عنها.

ولقد استقى العمري مادة كتابه من مصادر عديدة ومنها:

(أ) المشاركة في صناعة الأحداث التي يكتب عنها، فهو من أقرب الأشخاص للسلطان المملوكي رأس الدولة؛ حيث كان يكتب الوثائق بنفسه أو يشرف عليها مما أتاح له معرفة كثير من أسرار الدولة ومعرفة كثير من رجالها وعلماؤها البارزين فيها.

(ب) ومنها المصادر الشفوية: ولقد أوضح الأسلوب الذي اتبعه في الرواية الشفوية حيث قال:

«ويأخذ في هذا الباب على التحرير في أكثر ما عرفنا والتحقيق لأكثر مما نعرف بتكرار السؤال واحدًا بعد واحد عما يعلمه من أحوال بلده وما فيها وما اشتملت عليه في الغالب، ونواحيها، وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر والآخر لأقف على الحق فما اتفقت عليه أقوالهم أو تقاربت أثبتته، وما اختلفت فيه أقوالهم أو اضطربت تركته، ثم تراني أترك الرجل المسئول مدة أناسيه فيها عما قال ثم أعيد عليه السؤال على

بعض ما كنت سألت فإن ثبت قوله الأول أثبت مقاله، وإن تزلزل أذهبت في الريح أقواله، كل هذه لأتروى في الرواية وأتوثق في التصحيح»^(١).

ولقد اعتمد العمري على رواة ثقات كما ذكر في نصه البديع على اختلاف أنواعهم، منهم إما رحالة أو تجار وفدوا إلى الدولة المملوكية فالتقى بهم واستفاد منهم، وكان من هؤلاء يحيى بن الحكم الذي سافر إلى إيران فلما رجع روى لابن فضل الله العمري ما شاهد وخبر من أحوالها.

ومنها المصادر المكتوبة:

١- الوثائق الرسمية الخاصة بالدولة المملوكية؛ حيث حظى بكتابتها والإشراف على إصدارها والاطلاع عليها بحكم عمله كافيًا للسرد في ديوان الإنشاء.

٢- وإلى جانب الوثائق الرسمية أوضح ابن فضل الله في مقدمته للموسوعة أنه نقل من الكتب التي صنفت والموثوق فيها ما يتعلق بتقسيم الأقاليم، وأقوال القدماء واختلاف آراء الحكماء، وأخبار الدول والملل ومشاهير الأعلام، والتواريخ موضحة بأنه لا ينقل إلا عن أعيان الثقات والذين عُرِفوا في ذلك العصر بالتدقيق في النظر والتحقيق في الرواية^(٢).

فمن المصادر الذي نقل عنها تاريخ أبي الفداء المسمى «المختصر في أخبار البشر» وقد أوضح العمري في بداية الجزء الخامس والعشرين أنه اعتمد بصورة كبيرة على ما كتبه أبو الفداء بالإضافة إلى اقتطافه بعض الأخبار والأحداث عن غيره أو ما ذيل به كتابه، وكان نقل العمري عن أبي الفداء من أول ذلك الجزء مع تغييرات بسيطة في ترتيب بعض

(١) مسالك الأبصار (٢/١).

(٢) مسالك الأبصار (٢/١).

الكلمات وترتيب بعض الجمل إضافة إلى حذفه بعض الكلمات والأخبار^(١).

٢- أما المصدر الثاني الذي اعتمد عليه في نقل مادته التاريخية فهو كتاب: «دول الإسلام» للذهبي، فيبدأ النقل عنه مع بداية أحداث سنة (٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م)، حتى نهاية الجزء السابع والعشرين وبالتحديد أحداث شهر جمادى الآخرة سنة (٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م).

وكان نقله عن الذهبي بنصية واضحة جداً فلم يضيف إلى ما نقله عنه شيئاً يُذكر^(٢).

٣- ومن المصادر المكتوبة أيضاً التي نقل عنها «مروج الذهب ومعادن الجواهر» للمسعودي الذي نقل عنه في الجزء الخامس والعشرين الكثير من الأخبار، مثل: أخبار ملوك الهند والصين والترك والفرس وغيرهم، واتسم نقله عن المسعودي بالاختصار والإيجاز^(٣).

والحقيقة أن ابن فضل الله العمري لم ينقل إلا عن ثقات وهذا ما ذكره في مقدمة مسالك الأبصار؛ حيث يقول: «ولم أنقل إلا عن أعيان الثقات من ذوي التدقيق في النظر والتحقيق للرواية... فإن نقلت عن بعض الكتب المصنفة في هذا الشأن فهو من الموثوق به فيما لا بد منه»^(٤).

ومن هنا تبدو الثقة فيما نقله عن علماء ثقات، ولعل ذلك سر من أسرار انتشار كتاب مسالك الأبصار لدى الباحثين والمؤرخين والعلماء.

(١) مسالك الأبصار (٢٥/ ٢-٣٦).

(٢) مسالك الأبصار (٢٧/ ٣٧٥-٣٨٣، ٤٠٠-٤٠٩).

(٣) مسالك الأبصار (٢٥/ ٢٥-٥٩).

(٤) مسالك الأبصار (١/ المقدمة).

تأثيره في المؤرخين الذين أتوا بعده:

بقدر ما تأثر العمري بأبي الفداء والذهبي والمسعودي وغيرهم فقد كان للعمري ومؤلفاته تأثير واضح في المؤرخين اللاحقين ومناهجهم في التأليف وأساليبهم في الكتابة الموسوعية.

من هؤلاء المؤلفين الذين تأثروا بالعمري في مؤلفاتهم القلقشندي صاحب موسوعة «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» التي كان موضوعها الرئيسي الكتابة الديوانية، فقد تأثر بمؤلفات العمري عامة والمسالك خاصة، فنراه في تقسيمه للكتاب وتبويبه وترتيبه تأثر بالعمري في كتابه «التعريف بالمصطلح الشريف»؛ حيث قسمه إلى مقدمة وعشر مقالات وخاتمة متبعا للعمري في ذلك، كما استفاد من الموسوعة العمرية «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» في المقالة الثانية الخاصة بذكر الممالك وهي في القسم الأول من موسوعة العمري، وأشار القلقشندي إلى نقله في ذلك الموضوع.

وكان للعمري ومؤلفاته تأثير كبير في مؤرخي العصر المملوكي، وكان عمدتهم في الكتابة التاريخية في هذه الفترة، ومن استفاد منه المقرئ في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» والمعروف بالخطط المقرئية، فقد نقل عنه وصفه لقلعة الجبل كما نقل عنه أيضا الخلع والأزياء الخاصة بالممالك حتى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون^(١).

وهكذا استمر تأثير العمري فيمن بعده متخذين من كتابه المفيد الكبير هذا مصدرا تاريخيا مهما لا يكاد يستغني عنه من يريد الكتابة عن هذا العصر في شتى المجالات والميادين.

(١) مسالك الأبصار ممالك مصر والشام والحجاز واليمن ص ٧٩-٨٤، وانظر: المقرئ، الخطط

أما بالنسبة للجزء التاسع من «مسالك الأبصار» الذي قمت بتحقيقه، ففيه يتناول العمري التعريف بثلاثة وتسعين ومائة عالم وحكيم من حكماء العالم في الشرق والغرب، ومصدره الأعظم في التعريف بهذه الكوكبة من الأعلام هو - كما أشرت من قبل - ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» الذي قمت بتحقيقه من قبل، وفي مسالك الأبصار يتحدث ابن فضل الله العمري بأسلوب رشيق، وعبارات بليغة رائعة عن هؤلاء العلماء وأهم أعمالهم.

رحم الله العمري، فقد كان مفخرة عظيمة لتراثنا وشامة لامعة في جبين هذه الأمة، فقد استفاد وأفاد وبقيت كتبه العظيمة منهجاً ثرياً وبحراً زاخراً يأخذ منه العلماء والباحثون ما أرادوا.

نسخة المخطوط:

كان اعتمادي على الله تعالى، ثم على نسخة دار الكتب المصرية الموجودة برقم (٥٥٩) معارف عامة وجعلتها هي الأصل.

والنسخة الثانية النسخة التي قام بإصدارها العلامة فؤاد سزكين ورمزت لها بـ «ف» وهي نسخة معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت الألمانية (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

ومن المعروف أن ابن فضل الله العمري اعتمد كثيراً في هذا الجزء على كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» كما ذكرت من قبل.

ولهذا أشرت حين المقابلة، وقلت: ما بين الخاصرتين ساقط من الأصل ومثبت من عيون الأنباء أو ساقط من النسخة «ف» ومثبت من عيون الأنباء.

عملي في المخطوط:

- المقابلة بين نسخة دار الكتب المصرية ورمزت لها بالأصل وبين نسخة قواد سزكين ورمزت لها بـ«ف».

- عزو الآيات القرآنية الشريفة إلى سورها، وبيان أرقامها في سورها.

- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة، وهي قليلة في هذا السفر.

- التعريف بالأعلام والفرق والأماكن.

وعلى ابن النفيس أكثر ومن مدد واستكثر أنفق الحكمة والطب واخذ
 من كل فن مطرف وأدعن كل فاضل له واعترف وكان يحفظ غالب
 ديوان جليد الطيب المندقي بكل هذه وينشذ منه ويتشبه به في موضعه
 إذا تلم وحكم السلطان وتقدر لذم فضله واستقر في كل خاطره لا
 نظيره في الدهر وتنافس الأمراء والكابر الدولة في معالجته وكانت
 الأطباء إذا اختلفت في حكم مرض أو وصف دواء عادوا إلى دأبه
 ورجعوا إلى قوله فلا قال سكت كل قائل وسلم كل منازع وكان إذا عرض للسلطان
 مرض وحضر وأعدته تقدم السيد فامسك يد السلطان وجتر نحيبه
 قبل الرئيس وقبل كل أحد وكان الرئيس هو السائل عن الأعراض يحضونه
 ثم تحمل الشوري بينهم على ما يوصف ويكون مدارا للجل على كلام الشدي
 واعتماد السلطان عليه دون الكل وكان الشدي رجلا عاقلا ساجدا
 ينادي بكلامه حتى إذا تلم بأن الجهر الزاخر والشيل الفخري والمضام المنفرد
 والأسد الصول إلى لقول ليحضرها ويحوت نجرها ونجارب بذكرها
 وكانت له يد في علم الموسيقى والطرب راسخا بن كتر بصقة ولحن على
 علمه وبهيفة وكان يحا هذا الفضل الخبير والمدد القافر لا يوشك في العلم
 للأعلاء ولا يخرج عن الجادة ولا يعدل عن المعهود ولا يرى النقص في
 الطب فأن عليه فرج الله بن صغير وكان الشدي أجهل من الشدي
 وفرج الله أجهل من العليل على أن السيد كان إذا لم يشا من علمه
 آخر ليطب طبيا مستغنى وإن لم يوسع طاقا إذا استوردت
 ومعدا كمن يقول المشاركة وإن كان عند في الباطن من العلم
 بأن من الأبرار ومن يقدم إذا حضر من الأفاضل الأبرار

رَحَقَل النعم الجمة والاموال الجزيلة وَخَدَمَ بَنُو السُلْطَان وَتَفَدَّوْا فِي الْحَدَمِ
وَمَحَبَّ ابْنِهِ بِجَمَالِ الدِّينِ السُّلْطَانِ حِينَ هَمَّ بِالْحَجِّ أَيَّامَ سَلْطَنَتِهِ الثَّانِيَةِ
فَلَمَّا أَقَامَ بِالْعُكْرُكِ أَقَامَ مَعَهُ وَتَرَكَ اسْبَابَهُ وَرَأَاهُ بِمَصْرٍ مُنْقَطَعَةٍ فُرِعِيَ لَهُ
السُّلْطَانُ حَتَّى انْقَطَاعُهُ وَزَادَ فِي قَدَرِ أَقْطَاعِهِ وَوَلَّاهُ الرِّيَاسَةَ حَتَّى تَجَاوَزَ
قَدْرَ الرُّوسَاءِ وَقَرِيَةَ حَتَّى كَانَ مِنْ اخْصَاءِ الْجَلَسَاءِ وَكَانَ لَا يَزَالُ يَتَقَاوَضُهُ
فِي كُلِّ حَدِيثٍ وَيُطْلِعُهُ عَلَى أَكْثَرِ الْأُمُورِ وَرَفَعَ إِلَيْهِ يَوْمًا الصَّلَاحُ بْنُ الْهَرَا
قِصَّةً يَسَّالُ فِيهَا الْأَعْيَاءَ مِيزَ وَظِيْفَتَهُ فِي الطَّبِّ بِالْخِدْمَةِ وَكَتَبْتُ سَفِيرَهُ
فِيهَا فَقَالَ لِي السُّلْطَانُ هَذَا الصَّلَاحُ أَفْضَلُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ يَعْنِي ابْنَ الْهَرَبِيِّ وَمَا
يَطْلُبُ تَرْكَ الْخِدْمَةِ إِلَّا لِأَجَلِهِ لَكُنْهُ مُقَدِّمًا عِنْدَنَا عَلَيْهِ فَقُلْ لَهُ مَعْنَى نَعْرِفُ
فَضِيلَتَكَ وَكِبَرَ قَدْرِكَ وَإِنَّكَ أَفْضَلُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَأكْبَرُ وَلَكِنْ إِبْرَاهِيمُ كَدَّ عَلَيْنَا
حَقَّ خِدْمَةٍ مِنْ وَقْتِ كُنَّا فِي الْعُكْرُكِ وَهُوَ صَاحِبُنَا مَا هُوَ طَبِيبٌ عِنْدَنَا
فَبَلَّغْنَاهُ الرِّسَالَةَ بِنَصِّهَا فَسَكَتَ عَلَيَّ مُصْفِرٌ قُلْتُ هَذَا قَوْلُ
السُّلْطَانِ وَأَمَّا الرَّئِيسُ بِجَمَالِ الدِّينِ إِبْرَاهِيمَ فَانَّهُ مِنْ أَعْيَانِ الْأَطْبَاءِ وَاهِلِ
الْعُضَلِ وَالْمُتَفَدِّمِ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي الطَّبِّ وَصَنَاعَتِهِ وَالْإِجْتِهَادِ دَائِمًا فِي
تَوْفِيرِ بَضَائِعِهِ وَلِهَذَا انْكَشَفَتْ عَنْ أَفْرَادِهِ بِزُرْجَةٍ

وَمِنْهُمْ السَّيِّدُ الدِّمِيَاطِيُّ الْيَهُودِيُّ نَعْرِفُ بِابْنِ كُوجَا
وَبَنُو كُوجَا وَبَنُو صَغِيرِ أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدٍ وَهُمْ مِنْ يَهُودِ بِلَادِ الْعِجَمِ وَكُلُّهُمْ
كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا بَنِي كُوجَا وَكُوجَا بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ صَغِيرٌ فَلَمَّا
قَدَّمُوا بِمِصْرَ عَرَّبَ فَرَبَّقَ مِنْهُمْ اسْمَ جَدِّهِمُ الْمُنْشَوِّينَ إِلَيْهِ وَبَقِيَ فَرَبَّقٌ عَلَى
اسْمِهِ الْأَعْجَمِيِّ وَكَانَ السَّيِّدُ شَدِيدُ الْمَقَالِ مَرِيدُ الْمَجَالِ كَالْيُنُوسِ نَمَانَهُ
فِي الطَّبِّ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْ وَالْعِلْمِ الَّذِي لَمْ يَذْكُرْ قَرَأَ عَلَى ابْنِ النُّفَيْرِ وَالنَّابِلِيِّ

منهم شيخنا أبي الفتح الميعري قال كان ابن النفيس علي وفور علمه بالطب
والفائه لغزوه واموله قليل البصر بالعلاج فاذا وصف لا يخرج بلحده عن
ما لوفيه ولا يصف دواء ما أمكنه ان يصف غذا ولا مرقبا ما أمكنه
الاستيحاء بمفرده وكان ربما وصف الفحمة لمن شها العرجة والتطاع لمن
شها هواءا والحروب والقضامة لمن شها اسهالا ومن هذا ومثله ولعل ما
يلزم ما ليه ويشاكلها حتي قال له الحطار الشرائي الذي كان يجلن
عنده اذا اردت انك تصف مثل هذه الوصفات اقتدي علي دكان الحام واما
اذا قدمت عندي فلا تصف الا الشكر والشراب والادوية وحيث اني
لي شيخنا ابو التثاء الجليي الكاتب قال شحوت الي ابن النفيس فقال في يدي
تعال لي وانا واسوي عقال فقلت له فباي شيء اداويه فقال لي والله ما يعرف
باي شيء اداويه ثم لم يزد لي علي هذا

ومنهم احمد المصري شيخ شهاب الدين والد الرئيس جمال الدين ابراهيم
ابن المصري رئيس الأطباء بمصر والشام واليه انتهت المشقة والاختصاص
كوكب الفضائل الطالع نيرا والمشرق قمر الممورا اخذ من كل العلوم
الحكمية بنصيب موقر الاجزاء موقر الجباب يعزاليه بالاعتناء قدم مصر
واسوطنها وقطع بعقله من فطنها وكان فريذا في انواع العلم الا انه
عرف بالطب احقر من يقبه ما عرف به من الطارف وحصل من الملك
والطارف وخدم السلطان وتقدم الرضا وتقدم في جملة الاطباء
العلم واقاد وياشر المرضي واحسن العلاج ومثل من عرف طه من
وايز الحظ من السلطان والامراء والوزراء وسائر السعراء وكان يروى
بالجامعة متقدما في علمها وكان يتلم منها مع السلطان وازاب الدولة

قلت له يا سيدي لو شرحت الشفاء لابن سينا كان خير من شرح القانون
لنورق الناس لئلا قال الشفا على فيه مواضع يريد أنها قلت يريد
أنه ما فهم تلك المواضع لأن عبارة الرئيس في الشفاء غلغلة قال — واخبرني
آخر قال دخل الشيخ علا الدين مرة إلى الحمام التي في باب الزهومة فلما كان
في بعض تغسيله خرج إلى مسلح الحمام واستدعى بدواة وقلم وورق وأخذ في
تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهاها ثم عاد ودخل الحمام وكمل تغسيله
وقيل أنه قال لولم ألم أن تصانيفي بقي بيدي عشرة آلاف سنة ما وضعها
والعمدة في ذلك على من نقله عنه . . . وعلى الجملة كان اماماً عظيماً وكبيراً
من الأفاضل جسيماً وكان يقال هو ابن سينا الثاني قال — ونقل من
ترجمه في مكان لا يعرف من هو الذي وضعه قال شرح القانون في عشرين
مجلداً شرحاً جليلاً فيه المواضع الحكيمه ورئت فيه القياسات المنطقية
وبين فيه الاشكالات الطبية ولم يسبق إلى هذا الشرع لأن قصاري كل من
شرحه ان يقتصر على العليات إلى نبض الجبال ولا يجري فيه ذكر الطب
الانادرا وشرح مكتب بقراط طها ولا كثرها شرحاً مطولاً ومختصراً
وشرح الاشارات وكان يحفظ طيات القانون ويعظم كلام بقراط ولا يشير
على مستغل بعبر القانون وهو الذي جسر الناس على هذا الكتاب
وكان لا يحب نفسه عن الافادة لئلا ولا نهاراً وكان محضراً جلسة في داره
جامعة من الامراء والمهذب ابن له خليفة رئيس الأطباء وشرف الدين ابن
صغير واكابر الأطباء ومجلس الناس في طبقاتهم ومن تلاميذ الاعيان البدر
حسن الرئيس وامير الدولة ابن لغف والسديد الدمياطي وابي الفرج
الاسكندري وابي الفرج ابن صغير وحسن بن عترة وغير واحد

ومنهم فينا غورس وهو من خرق الفجاج حيث ينشكي طالع الباع
 المسري ونراي طوالع الرماح حشري وقد بان يروح الليل وتغزأ فقه
 أشب وحز مفرقه مقب وبغاي البيدوجالها قد كسرت له اتياب
 اغوال ورمالها قد حطت له ثواب الهوال لا يرد قول مؤتب ولا صد
 لبل يا فاقه منطب ولا يني عزمانه الموقته من يارقه سوحها ولا من مطوقه
 في حصر العضون جرحها قال ابو القسيم صاعدا انه اخذ الحكمة عن
 سليمان عليه السلام بمصر حين دخلوا اليها من بلاد الشام وكان قد اخذ الهندسة
 من المصريين ثم رجع إلى بلاد اليونان وادخل عندهم علم الهندسة وعلم الطبيعة
 وعلم الدين واستخرج علم الألمان وترفيع السهم وله رموز عجيبه وافراض يدعيه
 وله في المعاد مذهب فارك فيها بندليس وكان يري السياحة واجتناب
 بآسة القائل والمفسول وكان يقول أنه امر بتقدير الخواص وتعلم العلم
 بالحدك ونجم الفضائل والكف عن الخطايا والبحث عن طبيعة كل شيء والنجاة
 والناذب لشرح العلوم العلوية ومجاهدة المعاصي وعصمة النفوس وتعلم الجهاد
 واكثر الصيام والقعود على الكراهي ومواعظ الملوك وقراءة الكتب
 وان يحلم الرجال الرجال والنساء النساء وكان قد اتخذ اكلا غير مجروح ولا يعطش
 لا يشده ولم يكن يترخ بافراط ولا يجزن بافراط وعجبي انه اول من
 قال ان اموال الاخلاء مشاعة غير مقسومة وكان يامر يا ذا الأمانة في الدنيا
 وصدق الوعد وكان يتكهن فلا يخطئ وكان يرمز حكمتها ومنصها قوله
 لا تلبس ثياب الملايكة علي فصور الخواصم اي لا تحمد بدلائك واسرار العلوم
 الالهية عند الجهال وكان ممن استوطن انطايا بعد ان سافر الي بلاد شتى
 طلبا للعلم واخذ عن الصلواتيين والمصريين وغيرهم واخذ عن الصحنه وآخر

وقد مررتي ذكره ما فيه غنى واما هرمس الثاني فانه من اهل بابل
 قال — ابن ابي اصيبعة سكن مدينة الكلدانيين بابل وكان بعد
 الطوفان في زمن بابل الذي هو اول من بني بابل بعد نمرود بن كوش وكان
 بارعا في علم الطب والفلسفة عارفا بطبائع الاعذار وكان فياغورس
 الارمناطيقي وهرمس هذا جدد من هذه العلوم ما كان قد درسه الطوفان
 قال — وهذه يعني بابل مدينة الفلاسفة من اهل الشرق وفلاسفتهم اول
 من جدد الحدود ورثت العوائين واما هرمس الثالث فانه سكن مدينة
 مصر وكان بعد الطوفان قال — ابن ابي اصيبعة وهو صاحب كتاب الحيوان
 ذوات السموم وكان طبيبا فيلسوفا عالما بطبائع الادوية الفعالة والحيوانات
 المؤذية وكان جوالا في البلاد طوافا بها عالما بنسبة المذابن وطبائعها وطبائع
 اهلها وله كلام حسن نفيس في صناعة الكيمياء ينقل منه الى صناعات كثيرة
 كالزجاج والحديد والخضار وكان له تلميذ يقال له اسقيلينوس وكان سكنه
 بارض الشام واما فلاسفة اليونان فاعظم قدر احمدة وهم
 بندفليس وفناغورس وسقراط وافلاطون وارسطو طاليس وهو ابن سقراط
 فاولهم بندفليس وهو اول من خاض منهم اللبح وخاصة بالبحر الا انه زل
 به العقل واصدا منهذه كثرة الصقل قال — ابو العباس صاعدي
 احمد بن صاعدي انه كان في زمان داود عليه السلام واخذ الحكمة عن لقمان الحكيم
 بالشام ثم اضرى الى بلاد اليونان فتكلم في خلق العالم باشيائه يتدخلكا هيرفا
 في امر المعاد فنجده يجمعهم ولطائف من الباطنية سئل الى حكمته وترغم ان له
 رموزا قل ما يوقف عليها قال — ابن ابي اصيبعة والي قوله في الصفات
 ذهب ابو الهذيل العلامة

فهرست مافيه من الاسماء

المراسم الثلاثة ولاسعة اليونان الحنة يعقوب بن اعين الكندي احمد بن الطيب
 السرخسي منجمل الهندي ابوسيف الفارابي يحيى بن عدي ابو بكر محمد بن زكريا الرازي
 ابوسلمان النيسابوري ابو الخير بن الحارث ابو الفرج ابن هندو ابو علي ابن سينا ابو الذرع
 عبد الله بن المطيب ابوالمويد بن الصايغ الجملي فخر الدين الرازي القطب المصري عبد العظيم
 البغدادي ابن الخوارق الزنجي البجلي الشهير وردى المقتول شمس الدين الحنوري شايخ
 سيف الدين الاميري البديع ابو مظفر لاد ابن شبل البغدادية نصير الدين الطوسي
 القطب المشيرازي صفي الدين الهندي الشيخ علا الدين القونوي قاضي القضاة شمس الدين
 القزويني برفهان الدين العمري الشيخ شمس الدين الاصفهاني المستملون من
 المغاربة والمصريين يحيى ابن السمينة ابوالقاسم المرحلي ابوالقاسم ابن
 السج ابو الحكم الطبرستاني ابن داود ابونصر ابن باجة المبرورين فاذك الحفيد
 ابونكيون زهرة ركن الدين ابن القواع صلاح الدين ابن البرهان شمس الدين
 ابن الاصفهاني الاطباء اسقلينيون ابلق اطباء العرب الحرف
 ابن كلثوم الشافعي المقريش الحرف عبد الملا بن بحر ابن اناة ابو الحكم حكم
 الدمشقي عيسى بن حكم الدمشقي باذوق زينب طيبة بني اود اطباء
 النشريان التاميين طه ابداء الدولة العباسية جرجين بن جبريل الطبرسي
 ابن جرجين جبريل بن كنجشوع كنجشوع بن جبريل جبريل بن عبد الله الطبرسي
 خصيب النصراني عيسى المعروف بالقرشي ابن الطلاج عمدة اساطير الطبرسي
 اسرائيل بن زكريا الطبرسي يربد بن يوحنا ابن اسحاق البغدادي بن زكريا
 ماسرجويه طبيب مصر ماسويه بن هان ابو يعقوب بن قزوين ابو عبد الله بن
 الابريش ماسويه بن يوحنا ماسويه بن ماسويه بن ماسويه بن ماسويه
 يوحنا بن كنجشوع ماسويه بن ماسويه بن ماسويه بن ماسويه بن ماسويه

مسالك الأبطال في مهالك الأمصار

فهرس المحتويات

١	الحكام
١	الهرامات الثلاثة
٢	ثلاثة الجوانب الخمسة
١٧	الثلاثة والحكام
١٢٥	من ثلاثة الفارة ركنها ومكتسبها من كان بالاندلس
١٥٨	الأطباء
١٦٠	أهل الجنب الشرقي
١٦٠	أطباء العرب
١٧١	أطباء السرائير الكاثين في ابتداء الدولة العباسية
٢٥٢	طبقات الأطباء قبل المجمع
٢٥٩	أطباء الهند
٢٦٢	أطباء الشام
٢٠٧	أطباء الغرب بما وقع في جانب من مصر والإسكندرية
٢٢٠	أطباء مصر

طبع في ٢٠٠٠ سنة

نشر معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية

بفراנקفورت - جمهورية ألمانيا الاتحادية

طبع في سلسلة شتراوس - هيرشبرج، ألمانيا الاتحادية

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

تأليف

أبى فضل الله العمري

شهاب الدين أحمد بن يحيى

القول ٧٤١ هـ

الطبعة التاسعة

بمدره

فؤاد سزكين

بالتعاون مع

معلم الدين جوهر شا، إيكهاره توفياور

١٤٤٠ هـ - ١٩٨٨ م

مقهة تاريخ العلوم العربية والإسلامية

في إطار جامعة فرانكفورت - ألمانيا الاتحادية

تبدأ المسطرة من اللوحة ١٧٩
وتنتهي بقى الزينة

ينظر الزائر إلى
آخر الجزء التاسع

منشورات

معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية

يصدره

فؤاد سركين

سنة ج

عبرين ثروت

لحد ١٤٠٠

مسند الأبحار في ممالك الأمصار

السفر التاسع

طبع بالتصوير من مخطوطة ٢٤٢٢

أياصوليا، مكتبة السليمانية

استانبول

عاليه طيبه المعتمد فتيه بن شيرين بن عيسى بن كليم. طبيب القصر الرومي ابن بلطان
 اعلم ابن بلطان الاشعث ابو سهل النيلي ابن الواسطي طبيب المشطهره ابو الهيثم ابو غالب
 ابن صفية السمراني امير الدولة ابن التلمذ معتمد الملك ابن معاوية ابو الزكيات البلخي
 هبة الله بن الفضل الجعادي خزانة الملك المارديني ابو نصر المسيحي ابو الفرج ابن توما
 طبقات الاطباء وبلاد العجم ما ذكره ابن الطبري علي بن سهل الطبري
 احمد بن محمد الطبري ابو منصور ابن زوج ابو سهل المسيحي السني ابو عبد الله الانباري
 ابو عبد الله البغدادي ابن مذكويه الاصمعي ابن له مذكور السموال بن يحيى
 الشريف اسمعيل اطباء الهند شافق الهندي معتمد الهندي صالح ابن
 بهله الهندي اطباء الشام ابو الفرج البغدادي طاف بن جابر السكري
 ابو الحكم الباهلي ابنه ابو الجدا بن الحكم ابن البدرج ابو الفضائل العسافي
 المذهب ابن النفاثي شجرة اليهودي الجليي اخذ ابن المطران ابن اللبودي الرضي
 الرضي بن ابو الحسن عمران الاسراي يعقوب بن صفالاب النضاري الرشيد
 السروي السدي بن دقيقه صدقه الشافعي المذهب يوسف السامري امير الدولة
 المذهب الدجوار الرشيد بن حليقه ابن قاضي بطائيه العاذا الدينوري العزازي
 الحوق السامري ابو الفرج ابن الغب المذهب يوسف كاب الررداس النقيس
 الشافعي الامين سليمان ابو الفرج الشافعي غصام السامري اطباء العرب
 اعني ابن عمران اعني بن سليمان الاسراي ابو جعفر ابن الجزار الغيري وابو جعفر
 يحيى بن اسحق ابو داود ابن خطله ابو جعفر ابن حسان ابو جعفر الخاقني امية
 ابن سينا الصلي السمرقندي بن هبة ابنه ابو العلا ابنه ابو مسروق ابو محمد ابن الجعدي
 ابو جعفر ابن الخزالي ابو الجاسر ابن الرومي ابن الاصح اطباء مصر بلطان
 سجد بن زوقيل سجد ابن البطريق ابو عبد الله القمي ابن الهيثم علي بن رضوان
 افراسيم الاسراي سلامة بن حمز بن مظفر بن معروف اولاد ابي الحوا ابن ثناء الخوخي
 ابوسليم ابن فاته ابنه الحوق الرشيد ابو حليقه ابنه المذهب ابو حيدر الرشيد ابو حيدر
 ابن الميضا وعلو الدين ابن النقيس شهاب الدين المغربي السيد الدسوقي فرج ابنه بن صغير ناصر الدين صغير

٥

مناجاة وبغيرها ، وكان يفقد بالهيات الوافرة ، والصلات
 المتوازية ، وكان يدخل في جميع قلايدها ، كما لا يزال ثم استجبه عنده
 بقلعة الجبل ، وركبه العادل مرة بغلته التي كانت قد شئت في الويه
 له وركب ووقف بين العصرين ينظر حتى جاءته أخديده وجعل يحدت
 معه إلى أن ابتادار الوزاره ، وكان العادل تسبها وهو معه را
 والامراء ومن سواهم مشاهير الخدمه ، وفيه يقول من شرب

كب

٥

الوصف من النمل والصلح وفي أيامه توفي والده
 وسيد الممثلة زاد على أبيه فضله وزان غلاته
 قال ابن الأثير أصبغة منه جمع بين المصالح وتميز على الأثر
 والأول علامة وميز في خط الصفة ومراعاة ما وأزالة الأمراض
 وملاها من أقصى شجرة أبيه وفاق نظراء في مته وأما به
 وبيت المكاد من أبيه وحده كالريح انبثا على الربوب
 وأما من سواهم فمنه الخرجي محمد بن أمارة أصل

منه من نسله من الأشراف من الأشراف من الأشراف
 من الأشراف من الأشراف من الأشراف من الأشراف
 من الأشراف من الأشراف من الأشراف من الأشراف
 من الأشراف من الأشراف من الأشراف من الأشراف

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلّى الله على سيدنا محمد

بسم الله الرحمن الرحيم
ربّ أعن

وإذا انتهت بنا الأوبة في العلماء إلى نوبة الحكماء، فلنطبق بذكرهم المفصل، ونطلق من عمود اللحد المناصل، وننبه منهم عيوننا طالما طال نومها، ونأتي بفوائد فيئة^(١) كم كثر حسادها، ونقتصر على المشاهير والأعيان الذين يكادون يعدون من المشاهير، ونأتي منهم بمن تكلم في العلوم الثلاثة: الطبيعي^(٢) والرياضي والإلهي^(٣)، أو أحدها وأجاد في جميعها أو مفردا، فنذكرهم على اختلاف فرق مللهم، ونحلهم، وبلادهم، وتلادهم^(٤)، كل فرقه على حدتها، بما وقع في قسمة الجانين، ولم نسمّ منهم إلا من لم يسامت في أفقه، ولا

(١) فيئة: الفيء: الغنيمة والخراج، وتقول منه أفاء الله على المسلمين مال الكفار يُفِيءُ إفاءةً، وقد تكرر في الحديث ذكر الفيء على اختلاف تصرفه، وهو ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد، وأصل الفيء: الرجوع، كأنه كان في الأصل لهم فرجع إليهم، ويقال لنوى التمر إذا كان صلباً: ذو فيئة، وذلك أنه تعلفه الدواب فتأكله ثم يخرج من بطونها كما كان ندياً. لسان العرب، مادة (فِيء).

(٢) العلم الطبيعي: هو العلم الباحث عن الجسم الطبيعي من جهة ما يصبح عليه من الحركة والسكون، فالعلم الطبيعي هو العلم الذي يبحث في أحوال الأجسام الطبيعية. انظر: التعريفات، ص ٢٠١.

(٣) العلم الإلهي: هو علم باحث عن أحوال الموجودات التي لا تفتقر في وجودها إلى المادة، وقيل: هو الذي لا يفتقر في وجوده إلى الهوليو، العلم الإلهي هو الباحث في ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته. انظر: التعريفات، ص ٢٠٠.

(٤) التلاد: هو الميلاد والمقصود هي اختلاف أماكن ميلادهم. انظر: تاج العروس، مادة (تلد).

يساهم أدنى^(١) كوكبه إلى سمائه، أو أخلد ضبة إلى نفقه ممن له في علم الكلام^(٢) إقدام لا يدانيه ليث الشرى، وتلطف لا يحاكيه طيف الكرى، قصر على طلبه الأشغال، وقصد في التزيد من مكسبه الإيغال، ومن هو بالطب طب بتقصي أحوال المزاج، لا تخفي عليه نبضة عرق، ولا يموه عليه ومضة حذق، ولا يدق مدخل سقام إلا ودواؤه يتبعه، وسقاؤه سوس يذل له سبُّه.

وأولهم: الهرامسة الثلاثة^(٣):

وإليهم تنسب أصول هذه العلوم، وقال ذلك أبو معشر البلخي^(٤) وقال: إن اسقليسيوس^(٥) -الذي يزعم أكثر الحكماء أنه أول من استنبط الحكمة وسيأتي ذكره- لم

(١) في «ف»: أولى.

(٢) ساقط من الأصل، والمثبت في «ف» وعلم الكلام: هو العلم الذي يقتدر معه على إثبات العقائد الإسلامية بإيراد الحجج ودفع الشبه. وموضوعه هو ذات الله وصفاته وأفعاله في الدنيا؛ كحدوث العالم، وفي الآخرة؛ كالحشر، وأحكامه فيها؛ كبعث الرسول، ونصب الإمام، والثواب والعقاب. [الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٤٦٨].

(٣) الهرامسة الثلاثة: هم هرمس المثلث بالنعم، وهرمس بابل، وهرمس الثالث، «وزعم أبو معشر أن أولهم الذي كان قبل الطوفان، وهو أخنوخ عند العبرانيين وإدريس عند العرب، وهرمس الثاني بابل سكن مدينة الكلدانيين، وكان بعد الطوفان، وهو أول من بنى مدينة بابل بعد نمرود الجبار، وهرمس الثالث كان بعد الطوفان، وكان فيلسوفاً طبيعياً جوالاً في البلاد». انظر: شمس الدين الشهرزوري: تاريخ الحكماء، ص ٦٠، ٦١.

(٤) هو: جعفر بن محمد البلخي أبو معشر المنجم، صاحب التصانيف في النجوم والهندسة. قيل: كان محدثاً، فمكر به ودخل في النجوم، وقد ضربه المستعين لكونه أصاب في أمر قبل أن يقع، وصنّف كثيراً من الكتب منها: كتاب الزيج، وكتاب الموالييد، وكتاب القرائات، وكتاب طبائع البلدان، وقد توفي في رمضان سنة (٢٧٢). انظر: الفهرست للنديم -المقالة السابعة- الفن الثاني؛ وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٣٥٨، ٣٥٩)، البداية والنهاية لابن كثير (١١/٥١)، شذرات الذهب لابن المعاد الحنبلي (٢/١٦١).

(٥) في الأصل إقليتوس، والمثبت من عيون الأنباء بتحقيقنا، ص ١٥٥.

يكن بالمتأله^(١) الأول في صناعة الطب، ولا بالمبتدئ بها؛ بل إنه عن غيره أخذ، ولنهج^(٢) من سبقه سلك. وقال: إنه كان تلميذ هرمس المصري^(٣).

قال ابن المطران^(٤) في اختصار كتاب الأدوية للكسدانيين: هرمس^(٥) المثلث بالنعم^(٦).

[وقال في معنى تسميته بالمثلث^(٧): إنه كان ملكاً عمت مملكته أكثر المعمورة ونيًا ذكره الله تعالى وقال: هو إدريس عليه السلام وهو عند اليهود: خنوخ، وقيل: أخنوخ. وحكيًا فيلسوفًا له تصانيف كثيرة في أيدي الناس باقية إلى اليوم: كتاب الطول وكتاب

(١) أي لم يكن عاشقًا لهذا الفن.

(٢) في «ف»: وعلى نهج.

(٣) هو: أحد الهرامسة الثلاثة، قيل: هو حكيم مصري خرافي ليس له وجود، وكثرت فيه الخرافات بين العرب في عهد الإسلام، فمنهم من قال: هو أخنوخ المذكور في التوراة، ومنهم من قال: هو إدريس عليه السلام. وهرمس المصري هو الذي كان قبل الطوفان وهو أول من تكلم في الأشياء العلوية ومن الحركات النجومية، وهو أول من بنى الهياكل وألف لأهل زمانه قصائد موزونة وأشعارًا معلومة في الأشياء الأرضية والعلوية، وهو أول من أنذر بالطوفان، وكان يسكن صعيد مصر، وقيل: هو أول من درس الكتب ونظر في العلوم، وأنزل عليه ثلاثون صحيفة وأول من خاط الثياب. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل ص ٥٠، ٦٠، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري، ص ٦٠، ٦١، عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة، ص ١٥٥ في الهامش.

(٤) هو: أسعد بن إلياس بن جرجس، موفق الدين ابن المطران، طبيب باحث، من أهل دمشق، كان نصرانيًا وأسلم في أيام صلاح الدين الأيوبي، وعلت مكانته عنده، وقد اجتمعت له خزانة كتب حافلة، وصنّف كتبًا قيمة، منها: كتاب بستان الأطباء وروضة الألباء، وكتاب المقالة الناصرية في التدابير الصحية. وتوفي ابن المطران سنة (٥٨٧هـ / ١١٩١م). انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل (١٧٨/٢) مرآة الزمان (٤١١/٨)، الأعلام للزركلي (٣٠٠/١).

(٥) انظر: ترجمته في تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٦١، ٦٢، طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل ص ١٠٠، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٢٧.

(٦) في «ف»: بالنعمة.

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من «ف» يقتضيها السياق.

العرض وكتاب قضيب الذهب وغير ذلك.

قال: فهذه ثلاث نعم اجتمعت له لم يسمع أنها اجتمعت لغيره من الأمم، ورفع الله في عمود من نور، والهند^(١) والصابئة^(٢) يزعمون أنه وقع في نار بعثها الله إليه، ولهذا الهند تحرق أجسادها بعد الموت، ومنهم من يحرقها قبل الموت ويزعم أنه تقرب إلى الله وعبادة له^(٣)!

قال ابن أبي أصيبعة^(٤):

(١) أرض في آسيا الوسطى تجاوز فارس والصين، فتحها محمد بن القاسم الثقفي سنة (٩٤هـ)، بإيعاز من الحجاج بن يوسف الثقفي، وبالهند بحار ومضايق وهضاب كثيرة، وبها قيلة كثيرة، وينقسم سكان الهند إلى سبعة أجناس منها: الساكهرية وهم الأشراف والملوك، والبراهمة وهم العباد والرهبان، ويعبد أهل الهند النار والشمس والشجر والناعيين وغير ذلك. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٥٩٦، الموسوعة العربية الميسرة (٢/١٩٠٣، ١٩٠٤).

(٢) اللفظة آرامية الأصل تدل على التطهير والتعميد، وتطلق على فرقتين:

١ - جماعة المدائين أتباع يوحنا المعمدان.

٢ - صابئة حران الذين عاشوا زمناً في كنف الإسلام، ولهم عقائدهم وعلماؤهم، عاشوا متفرقين في وسط العراق مركزهم الرئيسي حران ولغتهم السريانية، واشتهروا بعبادة الأجرام السماوية، وتعصبون للروحانيين، ويقولون: إن للعالم صانعاً فاطراً حكماً مقدساً عن سمات الحدثان يُعجز عن الوصول إلى جلاله، فيتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المقدسون جوهرًا وفعلاً وحالة. والصابئة المندائيون الحاليون ينتشرون على ضفاف دجلة والفرات في العراق، وكذلك إيران. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٢/٧٦) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣١٧-٣٢٩.

(٣) ساقط من «ف».

(٤) هو: أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي، طبيب ومؤرخ، ولد بدمشق سنة (٦٠٠هـ/١٠٢٣م) في بيت علم وأدب، فقد كان والده من أشهر الكحالين (أطباء العيون) بدمشق، تعلم الطب على يد أبيه، وتخصص في علومه، وبرع في طب العيون، فسافر إلى مصر سنة (٦٣٤هـ/١٢٢٦م) والتحق بالبيمارستان الناصري بالقاهرة، واشتهر بحسن مداواته لمرضى

١- أما (هرمس الأول)

وهو المثلث بالنعم فإنه كان قبل الطوفان، وهرمس: لقب كما يقال: كسرى وقيصر. وتسميه الفرس في سيرها: اللهجد، وتفسرها^(١): ذو عدل، وهو الذي تذكر الحرائية - يعنى: الصابئة - نبوته.

ويقول الفرس: إن جده كيومرث وهو آدم عليه السلام. ويقول العبرانيون: إنه أخنوخ وهو بالعربية: إدريس. قال أبو معشر: هو أول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية وأن جده كيومرث - وهو آدم - علمه ساعات الليل والنهار، وهو أول من بنى الهياكل ومجدد الله تعالى فيها، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه، وأنه ألف لأهل زمانه كتباً كثيرة بأشعار موزونة وقواف معلومة في الأشياء الأرضية والعلوية، وهو أول من أُنذر بالطوفان ورأى أن آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار.

وكان مسكنه صعيد مصر فبنى هنالك الأهرام ومدائن التراب وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي^(٢) وهو^(٣) الجبل المعروف ببرياه أخميم^(٤) وصور فيها جميع

العيون؛ فعينه عز الدين أيك أمير صرخد - إحدى مدن جبل حوران بسورية - طبيباً خاصاً له. ومن أهم مؤلفاته: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، وحكايات الأطباء في علاجات الأدوية، وإصابات المنجمين، والتجارب والفوائد، وقد كان له شعر كثير واهتمام باللغة وعلومها والأدب، وتوفي ابن أبي أصيبعة سنة (٦٦٨هـ / ١٢٧٠م). انظر: عيون الأنبياء لابن أبي أصيبعة، تحقيق د/ عامر النجار - المقدمة، دائرة المعارف الإسلامية، ط. دار الشعب، القاهرة، (١/ ١٩٦).

(١) في «ف»: تفسيره.

(٢) اسم لموضع العبادة أو البناء المحكم أو موضع السحر، كانت في مواضع عديدة من صعيد مصر، في إخميم وغيرها. انظر: معجم البلدان (١/ ٣٦٢).

(٣) ساقط من «ف».

(٤) مدينة عظيمة في الجانب الشرقي من نهر النيل بالبلاد المصرية، بها أسواق وحمامات ومساجد كثيرة، ومن كبار العلماء الذين خرجوا منها ذو النون المصري الأخميمي الزاهد. انظر: الروض المعطار للحميري ص ١٥، معجم ما استعجم للبكري (١/ ١٢٥).

الصناعات، وأشار إلى صفات العلوم لمن يعدد حرصاً منه^(١) على تخليد العلوم [للمن]^(٢) بعده، وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم.

قال: وفي الأثر أن إدريس أول من درس الكتب ونظر في العلوم وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، ورفع الله مكاناً علياً. قلت: وقد مر في ذكره ما فيه غنى.

٢- وأما (هرمس الثاني)^(٣)

فإنه من أهل بابل^(٤).

(١) ساقط من «ف».

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من «ف» لمقتضى السياق.

(٣) هرمس من بابل وسكن مدينة الكلدانيين، وكان بعد الطوفان في زمن نبريزباني، كان بارعاً في الطب والفلسفة عارفاً بطبائع الأعداد، تتلمذ على يديه فيثاغورس الأريثمطيقي. وهرمس هذا الذي جدد في علم الطب والفلسفة والعدد ما دثر منه بالطوفان بابل. انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٦١، طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل ص ٩٢٨، عيون الأنباء في طبقات الأطباء (١/ ١٨٦).

(٤) مدينة عراقية قديمة، تقع على ضفتي نهر الفرات، وتبعد عن بغداد ٩٠ كم، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: {وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت} [البقرة: ١٠٢]. وأصل كلمة بابل في اللغة الكلدانية باب أيلو أي: باب الإله، ويعود تاريخ بابل إلى آلاف السنين قبل الميلاد، وقيل: إن السومريين من أوائل من سكنها، ثم وفد إليها الأموريون فاستقروا بها وأطلقوا عليها اسم بابل.

وقد أحسن البابليون استغلال موقع المدينة الزراعي والتجاري، فهي تقع في منطقة خصبة يتقارب فيها نهر دجلة والفرات، وأشهر ملوك هذه الدولة هو: الملك حمورابي، وقد اتسعت في حكمه الدولة اتساعاً كبيراً وشهدت ازدهاراً في جميع نواحيها، ثم خضعت بعد ذلك بابل لحكم الآشوريين الذين أقاموا إمبراطورية كبيرة ظلت تحت حكمهم حتى سنة (٦٢٦ ق.م) عندما ظهر عندما ظهر أحد ملوك بابل ويدعى نابو بولامر قضى على حكم الآشوريين وأعاد الإمبراطورية البابلية مرة ثانية إلى ازدهارها، وخلفه ابنه نبوخذ نصر، وفي عهده اتسعت الإمبراطورية فضممت سوريا وفلسطين، ولقد تدهورت مدينة بابل ولم يبق

قال ابن أبي أصيبعة: سكن مدينة الكلدانيين^(١) وهي^(٢) بابل، وكان بعد الطوفان بزمان [تزيروبال]^(٣)، الذي هو أول من بنى بابل بعد نمروود بن كوش^(٤)، وكان بارعاً في علم الطب والفلسفة عارفاً بطبائع الأعداد وكان [تلميذه]^(٥) فيثاغورس^(٦) الأرثماطيقي.

وهرمس هذا جدد من هذه العلوم ما كان قد درس بالطوفان. قال: وهذه -يعنى: بابل- مدينة الفلاسفة من أهل الشرق، وفلاسفتهم أول من حدد الحدود ورتب القوانين.

بها الآن إلا أطلالها وأهمها: قصر نبوخذ نصر، وبرز بابل، وحدائق بابل المعلقة. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٣٠٩/١) الروض المعطار للحميري ص ٧٣، ٧٤. وانظر أيضاً: تاريخ بابل وآشور لجميل أفندي نخلة المدور.

(١) هم سكان كلدانيا وهو اسم كان قديماً في الأغلب على القسم الجنوبي الأقصى من وادي دجلة والفرات، وكان يتسع ملكهم أحياناً ليشمل بابل، وتسمى مملكة بابل الثانية أحياناً الإمبراطورية الكلدانية، والكلدانيون هم الذين اخترعوا الكتابة المسهارية التي تكتب بالقلم المسهاري. انظر: عيون الأنباء وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١٥٦/١) طبقات الأمم لصاعد بن أحمد الأندلسي ص ٦.

(٢) ساقط من الأصل و«ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) في الأصل و«ف»: بابل، وهو خطأ، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) هو: نمروود بن كنعان بن كوش أول الملوك النماردة بعد الطوفان، وينسب إليه بناء برج بابل ويسمى المجدل، وقد أشار إليه القرآن الكريم في قصة إبراهيم عليه السلام دون أن يذكر اسمه. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٩، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١٨٦/١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (١٤٩/١).

(٥) ساقط من الأصل و«ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٦) فيثاغورس: فيلسوف يوناني ولد في ساموس، أسس جماعة دينية في كروتونا، كان يؤمن بتناسخ الأرواح، وضرورة الحياة المطهرة من الشهوات، وكان يرى أن جوهر الأشياء هو العدد، وأن العلاقات يمكن التعبير عنها بالعدد، وله نظرية هندسية مدونة باسمه، وكان يرى أن الغاية من تعليم الرياضيات والموسيقى هي بلوغ الانسجام بين الروح والجسد، وتوفي سنة (٥٠٧ ق.م) ومن كتبه: كتاب الأرثماطيقي، وكتاب الألواح، وكتاب في النوم واليقظة، وكتاب في كيفية النفس والجسد. انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٩٩، عيون الأنباء وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٢٣١/١) الموسوعة الفلسفية ص ٢٣٨، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٧٠.

٣- وأما (هرمس الثالث)

فإنه سكن مدينة مصر^(١) وكان بعد الطوفان.

قال ابن أبي أصيبعة: وهو صاحب كتاب [الحيوانات]^(٢) ذات السموم، وكان طبيباً فيلسوفاً وعالماً بطبائع الأدوية القتالة والحيوانات المؤذية، وكان جوالاً في البلاد طوافاً بها عالماً بنصبه المدائن وطبائعها وطبائع أهلها، وله كلام حسن نفيس في صناعة الكيمياء ينتقل منه إلى صناعات كثيرة؛ كالزجاج والخرز والغضار، وكان له [تلميذ]^(٣) يقال له: اسقليوس^(٤)، وكان سكنه بأرض الشام^(٥).

(١) كانت تطلق على فسطاط مصر، وتعني: الأراضي المصرية، وكان يحكمها الفراعنة القدماء ثم الرومان البيزنطيون، والفرس، والإسكندر، ثم فتحها العرب المسلمون بقيادة عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب، وأخرج منها الرومان. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤٤٢، ٥٥٣، معجم البلدان لياقوت الحموي (٥/ ١٣٧-١٤٣).

(٢) في الأصل، «ف»: الحيوان، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف»، وهو يوافق عيون الأنباء.

(٤) وينطق اسقليوس، واسقلياديس، واسقليايوس، وهو تلميذ هرمس المصري وكان يسكن أرض الشام، ويطلق عليه الملك والنبي والحكيم والإلهي، وترجمة اسقليوس بالعربي: منع اليس، وقيل: إن أصل الاسم في لسان اليونانيين مشتق من البهاء والنور. كان اسقليوس ذكي الطبع قوي الفهم حريصاً مجتهداً في علم صناعة الطب، وروي أنه كان ماهراً في صناعة الطب، وروي أنه أبرأ المرضى الذين يشن الناس من برئهم، وقد ظن الناس بفعله هذا أنه يحيي الموتى، وقيل: إنه عاش تسعين سنة، ومن آدابه وحكمه قوله: من عرف الأيام لم يغفل الاستعداد، وقوله: فوت الحاجة خير من طلبها من غير أهلها. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جليجل ص ١١-١٤، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٨٠-٨٢، عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (١/ ١٨١-١٩٦).

(٥) الشام: إقليم واسع في شمال الجزيرة العربية، وتسمى أيضاً الشام، وسميت الشام بهذا الاسم نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام، وذلك أنه أول من نزلها فجعلت السين شيئاً لتغيير اللفظ الأعجمي. وبالشام بلاد كثيرة وممالك عظيمة؛ منها: فلسطين، وغزة، والرملة، وطبرية، واليرموك، ودمشق، وطرابلس الشام، وحمص وقسرين وحلب وأنطاكية، ويمتد حدود إقليم الشام من ملطية حتى رفح. انظر: الروض المعطار ص ٣٣٥.

وأما فلاسفة اليونان: فأعظمهم قدرًا خمسة وهم: بندقليس^(١) وفيثاغورس وسقراط^(٢) وأفلاطون^(٣) -----

(١) ويسمى أنبأذقلس، كما يسمى أيذقلس، وهو من كبار الحكماء، كان في زمن داود النبي عليه السلام، وكان قد أخذ الحكمة عن لقمان الحكيم بالشام، وقيل: عن سليمان، ثم انصرف إلى بلاد اليونانيين فتكلم في خلقه العالم بأشياء حتى هجره بعضهم وطائفة من الباطنية بتتبعهم إلى حكمته، وتزعم أن له رموزًا قل ما يوقف عليها، وهو أول من ذهب إلى الجمع بين صفات الله تعالى، وأنها كلها تؤدي إلى شيء واحد، وليس له معاني متميزة يختص بهذه الأسماء المختلفة بل هو الواحد بالحقيقة الذي لا يتكرر أصلًا بخلاف باقي الأشياء الموجودة، ومن لطائف كلماته قوله: «إن في طلب الفلسفة شرفًا وإن مرتبتها العالية عظيمة». ومن كتبه: كتاب فيما بعد الطبيعة، وكتاب أطيامر. انظر: عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (١/ ٢٣٠، ٢٣١) تاريخ الحكماء للشهرزوري ص ٢٨٤-٢٨٧.

(٢) فيلسوف يوناني من أثينا ولد سنة (٤٦٩ ق.م) كان من تلاميذ فيثاغورث واقتصر من الفلسفة على العلوم الإلهية، وأعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها، وأعلن مخالفة اليونانيين في عبادتهم للأصنام، وقاتل رؤساءهم بالحجج والأدلة، فتوڑوا العامة عليه، فحبسه ملكهم، ثم سقاه السم. له وصايا شريفة وآداب فاضلة وحكم مشهورة ومذاهب في الصفات قريبة من مذاهب فيثاغورث وبندقليس، ولم يصنف كتابًا ولا أمل على أحد من تلاميذه ما أثبتته في قرطاس، وإنما كان يلقيهم علمه تلقينًا لا غير، وتعلم ذلك من أستاذه طيمائوس، ومن آدابه قوله: «عجبًا لمن عرف فناء الدنيا كيف تلهمه عما ليس به له فناء»، وقوله: «اتقوا من تبغضه قلوبكم». توفي سقراط سنة (٣٩٩ ق.م). انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١/ ٣٤٥) طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل ص ٣٠، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوي ص ١٠٧، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٣٥، الموسوعة الفلسفية ص ١٨٦-١٩٠.

(٣) فيلسوف يوناني كبير، ولد سنة (٤٢٧ ق.م)، وكان سليل عائلة أثينية كبيرة، هيأت له التفرغ للاشتغال بالفلسفة، وقد بدأ بدراسة الرياضيات والشعر، وحين بلغ سن العشرين اتصل بسقراط ودرس عليه وأعجب به، ولازمه في الأعوام الثمانية الأخيرة من حياته، ثم رحل عن أثينا وأقام في ميغاري وأقام عند إقليدس ثم رحل إلى مصر ودرس الرياضيات، وعاد إلى أثينا بعد ثلاث سنوات ف قضى بها فترة الحرب بين أثينا وإسبرطة، ثم سافر إلى إيطاليا فدرس بها المذهب الفيثاغورثي، واستقر به المقام في أثينا، وأسس مدرسة هناك سميت بالأكاديمية، وظل قائمًا على أمرها مدة حياته

= وأرسطو طاليس^(١) وهو ابن نيقوماخس.

فأولهم بندقليس: وهو أول من خاض [منهم]^(٢) اللجج، وخاصم بالحجج، إلا أنه زلَّ به العقل، وأصدأ مهنده كثرة الصقل.

حتى مات سنة (٣٤٧ ق.م). وقد ألف أفلاطون ثمانية وعشرين كتاباً سموها بالمحاورات؛ لأنه انتهج فيهم أسلوب الحوار، وقد أجرى الحوار على السنة شخصيات تاريخية حقيقية أهمها سقراط. ومن كتبه: كتاب احتجاج سقراط على أهل أثينا، وكتاب السياسة المدنية، وكتاب طيباوس الطبيعي، وكتاب طيباوس الروحاني، وكانت فلسفة أفلاطون تقوم على ثلاثة أقسام هي: الجدل، الطبيعة، الأخلاق. انظر: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١/ ٢٦١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلدجل ص ٢٣، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٤٤٠، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٤١، الموسوعة الفلسفية ص ٤٥.

(١) أحد أعلام الفلسفة اليونانية، ولد سنة (٣٨٤ ق.م) في بلدة أسطاغيرا من أعمال مقدونيا، وبعد وفاة والده رحل إلى الريف، وكان هذا له أثر بالغ في إرهاب حسه ورقة ملاحظته، وقد أقام في أثينا بعد سنة (٣٦٧ ق.م) واستمع إلى البلغاء والخطباء، ولاحظ مواقفهم في الخطابة، وعرف طرقهم في الإعداد لأفكارهم، وقد التحق أرسطو بمدرسة أفلاطون وتلمذ على يديه، فكان أحسن تلاميذه، وأشهرهم على الإطلاق، وفي أخريات حياته أسس كأستاذه أفلاطون مدرسة في أثينا سنة (٣٢٥ ق.م) سميت بالمدرسة المشائية، قدم فيها مذهباً متكاملاً، ينتقد فيه مذاهب السابقين من الفلاسفة الإغريقين، وقد ألف أرسطو كتباً كثيرة، وقد بلغت مؤلفاته مرحلة النضج خلال السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته، ومن كتبه: كتاب الأرجانون أو المنطق، وكتاب الطبيعة ووظائف الأعضاء، وكتاب التاريخ الطبيعي، وكتاب ما وراء الطبيعة (المتافيزيقا)، وكتاب الرياضيات، وتوفي أرسطو عام (٣٢٢ ق.م) إثر اعتلال صحته بسبب مرض مُعِدِّ أَلَمَ به. انظر: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١/ ٢٧١-٣٠١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلدجل ص ٢٥-٣٤، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢١، الموسوعة الفلسفية ص ٣٢-٤٣.

(٢) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

قال أبو القاسم^(١) صاعد بن أحمد بن صاعد: إنه كان في زمن^(٢) داود عليه السلام، وأخذ الحكمة عن لقمان الحكيم بالشام ثم انصرف إلى بلاد اليونان، فتكلم في خلق العالم بأشياء يقدح ظاهرها في أمر المعاد فهجره بعضهم، ولطائفة من الباطنية^(٣) ميل إلى حكمته وتزعم أن له رموزًا قل ما يُوقف عليها.

قال ابن أبي أصيبعة: وإلى قوله في الصفات ذهب أبو الهذيل العلاف^(٤).

(١) هو: أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد، القاضي، ولد بالمريه بالأندلس سنة (١٠٣٠م) واستقر في طليطلة من سنة (١٠٤٦م)، وقضى بها بقية حياته متقلداً الوظائف العامة، وهو من أهم المؤرخين جيعاً، فله كتاب طبقات الأمم الذي كان مرجعاً لكثير من مشاهير رجال التراجم، والكتاب هو نوع من التلخيص للتاريخ العام للعلم يتناول فيه الشعوب القديمة والحديثة في عصره، وقد قام صاعد بعمل أرساد فلكية استخدمها الزرقالي مع غيرها في جميع ألواح، وتوفي صاعد سنة (١٠٧٠م). انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٢٢٩، طبقات الأمم لصاعد بن أحمد ص ١١، العلم عند العرب للدوميلي ص ٣٦١.

(٢) في «ف»: زمان.

(٣) الباطنية: مصطلح يطلق على الذين يأخذون بالمعنى الباطن للقرآن الكريم، ويحصلون لكل تنزيل تأويلاً، لاعتقادهم أن للشرية ظاهراً وباطناً، وتتعدد طوائف الباطنية إلى عدة فرق، منها الإسماعيلية والماتوية والمزدكية، وقد تعددت مصادر الفكر الباطني في الإسلام نتيجة لاختلاطهم بالمذاهب الدينية والفلسفات الفارسية والرومانية واليهودية، وكانت الباطنية تحاول من خلال التأويل والباطن أن تحل المذهب العقلي الباطني محل القرآن الكريم، وذلك من خلال التزامهم بالمذهب الأفلاطوني الحديث. انظر: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي لمحمد أحمد الخطيب، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام لمحمد علي أبو ريان.

(٤) هو: محمد بن الهذيل العلاف البصري ابن عبد الله بن مكحول، مولى عبد القيس، وهو من أهل البصرة يعده البعض رأس المعتزلة، وكان قد أخذها عن عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء، وكان يزعم أن نعيم الجنة وعذاب النار يتتبعان؛ بحيث إن حركات أهل الجنة تسكن حتى لا ينطقون بكلمة، له عدة تصنيفات في الاعتزال، وقد كف بصره في آخر عمره، وتوفي سنة (٢٢٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/٥٤٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣/٣٦٦) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢/٨٥).

ومنهم:

٤- فيشاغورث

وهو ممن خرق الفجاج؛ حيث يتشكى طالع الصباح المسرى، وتترامى طوابع الرياح حسرى؛ وقد كان يروع الليل وثرر أفاقه أشنب، وفجر مفرقه مقنب، ويفاجئ البدو حياتها قد كسرت له أنياب أغوال، ورمالها قد حطت له نواشب أهوال، لا يرده قول مؤنب ولا يصده ليل بأفاقه مطنب، ولا يثني عزماته الموقنة من بارقة سوحها، ولا من مطوقة في حصر الغصون جنوحها.

قال أبو القاسم صاعد: إنه أخذ الحكمة عن [أصحاب]^(١) سليمان عليه السلام بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام، وكان قد أخذ الهندسة [قبلهم]^(٢) عن المصريين، ثم رجع إلى بلاد اليونان وأدخل عندهم علم الهندسة، وعلم الطبيعة، وعلم الدين واستخرج علم الألحان وتوقيع النغم، وله رموز عجيبة وأغراض بدیعة^(٣)، وله في [شأن]^(٤) المعاد مذاهب قارب فيها بندقليس، وكان يرى السياحة واجتناب مماسة القاتل والمقتول، وكان يقول: إنه أمر بتقديس الخواص وتعلم [العمل]^(٥) بالعدل و[جميع]^(٦) الفضائل، والكف عن الخطايا والبحث عن طبيعة كل شيء، والتحاب والتأدب بشرح العلوم العلوية، ومجاهدة المعاصي وعصمة النفوس، وتعلم الجهاد، وإكثار الصيام، والقعود على الكراسي، ومواعظ الملوك، وقراءة الكتب، وأن يُعلّم الرجال الرجال

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من طبقات الأمم لابن صاعد ص ٧٤.

(٢) ساقط في الأصل، والمثبت من طبقات الأمم.

(٣) في عيون الأنباء: بعيدة.

(٤) ساقط من الأصل، و«ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٥) في الأصل، و«ف»: العلم، والمثبت من عيون الأنباء.

(٦) في الأصل، و«ف»: جمع، والمثبت من عيون الأنباء.

والنساء النساء، وكان قد اتخذ أكلاً غير مجوع ولا معطش لا يتعداه، ولم يكن يفرح بإفراط ولا يحزن بإفراط، ويحكى أنه أول من قال: إن أموال الأخلاء مشاعة غير مقسومة، وكان يأمر بأداء الأمانة في الوديعة، وصدق الوعد، وكان يتكهن فلا يخطئ، وكان يرمز حكمته، ومنها قوله: لا تلبس تماثيل الملائكة على فصوص الخواتيم؛ أي: لا تجهز بديانتك و[تدع]^(١) أسرار العلوم الإلهية عند [الجهال]^(٢).

وكان ممن استوطن أنطاكيا^(٣) بعد أن سافر إلى بلاد شتى طلباً للعلم، وأخذ عن الكلدانيين والمصريين وغيرهم، وأخذ عن الكهنة.

وأخر أمره أنه كفر، فبقي مذبذباً لا تليقه بلد، ثم انحاز إلى هيكل تحصن فيه ولبث فيه أربعين يوماً لا يتغذى، فأطيف به، وأحرق عليه الهيكل فهلك هو ومن معه.

ومن كلامه: قوله: الأقوال الكثيرة في الله - سبحانه - علامة تقصير الإنسان عن

(١) ساقط من الأصل، و«ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف» وهو يوافق عيون الأنباء.

(٣) مدينة تركية في قارة آسيا على حافة وادٍ خصيب، يمتد على طول مجرى نهر العاصي وتبعد عن البحر المتوسط مسافة ٢٢٢ كم، على خط عرض ١٠ و ٣٦ شمالاً وخط طول ٦ و ٣٦ شرقاً. وقد أسس أنطاكية الإمبراطور الروماني سيليفكوس الأول سنة (٣٠٠ ق.م) ولم يمض وقت كبير حتى أصبحت مركزاً تجارياً كبيراً، ومن ثم أصبحت من أكثر المدن الرمانية جذباً للسكان، ويبدأ التاريخ الإسلامي لأنطاكيا سنة (١٧ هـ / ٦٣٨ م) عندما قام الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح بحصارها؛ استجابة لأمر عمر بن الخطاب بعدم الدخول مع أهلها في اشتباكات حربية، ولم يلبث أهل أنطاكيا أن استسلموا للمسلمين، وقبلوا دفع الجزية لهم، ثم نقضوا العهد بعد خروج أبي عبيدة منها، ولكنهم عادوا وأعلنوا طاعتهم وأدوا الجزية مرة أخرى. وقد قامت في أنطاكيا صناعات كثيرة منها: صناعة المنسوجات الحريرية. وأهم الآثار الموجودة بها: أسوار بلغت ثلاثين ألف متر، وبعض الأطلال المائلة لقناطر معلقة، وقبر حبيب النجار. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة (أنطاكيا)، معجم البلدان لياقوت الحسوي (١/ ٢٦٧) الروض المعطار للحميري ص ٢٨.

معرفته.

وقوله: ما أنفع للإنسان أن يتكلم بالأشياء النفيسة^(١) فإن لم يمكنه فليسمع قائلها.

وقوله: [احذر أن ترتكب قبيحًا من الأمر لا في خلوة ولا مع غيرك]^(٢) وليكن استحيائك من نفسك أكثر من استحيائك من كل أحد.

وقوله: ليكن قصدك من المال^(٣) في اكتسابه من حلال وإنفاقه في مثله.

وقوله: إذا سمعت كذبًا فهوّن على نفسك الصبر عليه.

وقوله: ما لا ينبغي أن تفعل احذر أن تخطره ببالك.

وقوله: لا تدنس لسانك بالقذف ولا تصغ بأذنك إليه^(٤).

وقوله: الأشكال المزخرفة والأموار المموهة في أقصر الزمان تتبهرج.

وقوله: متى التمتست أمرًا^(٥) ابدأ إلى ربك بالابتغال في النجح فيه.

وقوله: الإنسان الذي اختبرته بالتجربة فوجدته لا يصلح أن يكون صديقًا وخلصًا احذر من أن تجعله عدوًا.

وقوله: الأخلق بالإنسان أن يفعل ما ينبغي لا ما يشتهي^(٦).

(١) في عيون الأنبياء: بالأشياء الجليلة النفيسة.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنبياء لمقتضى السياق.

(٣) في عيون الأنبياء: بالمال.

(٤) في عيون الأنبياء: إلى مثل ذلك.

(٥) في عيون الأنبياء: فعلًا من الأفعال.

(٦) غير مذكور في عيون الأنبياء.

وقوله: ما أحسن بالإنسان أن يخطئ فإن أخطأ فما أكثر انتفاعه بأن يعلم بأنه أخطأ ويجرّص [في] ^(١) ألا يعاود.

وقوله: الدنيا دول مرة لك وأخرى عليك، فإن توليت فأحسن وإن تولوك فلن.

وقوله: ليس الحكيم من حمل عليه بقدر ما يطيق فصبر واحتمل، ولكن الحكيم من حمل عليه أكثر مما يحتمل ^(٢) فصبر.

وقوله: إن أكثر الآفات إنما تعرض للحيوانات لعدمها الكلام، وتعرض للإنسان من قبل الكلام.

وقوله: استعمل الفكر قبل العمل.

وقوله وقد نظر إلى شيخ يحب النظر في العلم ويستحي أن يرى متعلماً: يا هذا! أتستحي أن تُرى في آخر عمرك أفضل منك في أوله!؟ ^(٣).

وقوله وقد قيل له: ما أحلى الأشياء؟ قال: ما يشتهي الإنسان.

ومنهم:

٥- سقراط

وهو المعروف بسقراط الحب، والحب ^(٤): وعاء من فخار كان يجلس فيه ويستغني

(١) إضافة من عيون الأنباء.

(٢) في عيون الأنباء: تحتمل الطبيعة.

(٣) غير مذكور في عيون الأنباء.

(٤) الحب: الخابية فارسي وأصلها الهمز؛ لأنها من خبأت إلا أنهم كرهوا همزها. انظر: مختار الصحاح

عن اللباس، اتخذها رياشاً دون اللباس، أعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها وفرغ منها يديه ونفضها، وتجرد من الدنيا إلا حُب يستره، وحُب يشهره، كأنها يتوقى من ماطل الفجر أشراكاً خاتلة، ومن روائق^(١) النجوم نبألاً قاتلة، فكان لا يستطيع من دياره مقيلاً، ولا يستطيع لعثاره مقيلاً، فلم يأوِ جداراً، ولا أطماً^(٢) ولا أجم رأسه عذاراً^(٣) ولا خطماً^(٤)، حتى انتهى إلى ما بلغ، وشفي كلب الموت من دمه ما ولغ.

قال أبو القاسم صاعد: هو من تلاميذ فيثاغورث، واقتصر على العلوم الإلهية وخالف اليونان في عبادة الأصنام، وحاج رؤساءهم بالأدلة فنقدوا العالم عليه^(٥)، واضطروا ملكهم إلى قتله، فأودعه السجن ثم سقاه السم.

وله وصايا شريفة وآداب فاضلة، وحكم مشهورة ومذاهب قريبة من فيثاغورس وبندقليس، إلا أن له في [المعاد]^(٦) آراء ضعيفة بعيدة عن محض الفلسفة، خارجة عن المذاهب المحققة، وكان لا يستودع الحكم الصحف والقراطيس تنزيهاً لها، ويقول: الحكمة طاهرة مقدسة غير فاسدة ولا دنسة، فلا ينبغي أن نستودعها إلا الأنفس الحية وننزهاها عن الجلود الميتة، ونصونها عن القلوب المتمردة.

ولم يصنف كتاباً ولا أملى على أحد من تلاميذه ما أثبتته في قرطاس، وإنما كان يلقنهم علمه تلقيناً.

(١) في «ف»: رواشق.

(٢) الأطم - بالضم - وهو: الحصن.

(٣) العذار: العذار من اللجام بالكسر: ما سال على خد الفرس، وهو نص المحكم، وفي التهذيب: ما وقع منه على خدي الدابة، وقيل هو: السيران اللذان يجيمان عند القفا. انظر: تاج العروس مادة (عذر).

(٤) الخطم: جمع خطام، وهو كل ما وضع في أنف البعير ليقاد به. انظر: لسان العرب مادة (خطم).

(٥) في عيون الأنبياء: فتوراً العامة عليه.

(٦) في الأصل، و«ف»: العدد، والمثبت من عيون الأنبياء.

وكان من عادة ملوك اليونان إذا حاربوا أخرجوا معهم حكماءهم، فأخرج الملك سقراط معه في سفرة خرج فيها، وكان سقراط يأوي إلى زير مكسور، يسكن فيه من البرد، وإذا طلعت الشمس خرج منه فجلس عليه يستدفئ بالشمس، ولهذا سمي سقراط الحب.

ومن كلامه: قوله: املأ الوعاء طيبًا؛ أي: حكمة^(١).

وقوله: لا تأكل الأسود الذئب؛ أي: احذر الخطيئة.

وقوله: لا تتجاوز الميزان؛ أي: لا تتجاوز الحق.

وقوله: ازرع بالأسود واحصد بالأبيض؛ أي: ازرع بالبكاء واحصد بالسرور.

وقوله: لاتشيلن الإكليل [وتهتكه]^(٢)؛ أي: السنن الجميلة لا ترفضها؛ لأنها تحوط جميع الأمم كحياطة الإكليل للرأس.

وقوله: عجبًا لمن علم فناء الدنيا كيف تلهيه عما ليس له فناء!

وقوله: اتفاق النفوس باتفاق هممها، واختلافها باختلاف مرادها.

وقوله: من يخل على نفسه فهو على غيره أبخل.

وقوله: ما ضاع من عرف نفسه وما أضيع من جهل نفسه!

وقوله: ستة لا تفارقهم الكآبة: الحقد، والحسود، وحديث عهد بغنى، وغنى يخاف الفقر، وطالب رتبة يقصر قدرة عنها، وجليس أهل الأدب وليس منهم.

(١) إضافة من عيون الأنباء.

(٢) إضافة من عيون الأنباء.

وقوله: العقول مواهب والعلوم مكاسب.

وقوله: اتقوا من تبغضه قلوبكم.

وقوله: إذا وليت أمرًا فأبعد عنك الأشرار فإن جميع عيوبهم منسوبة إليك.

وقوله: إنما أهل الدنيا كصور في صحيفة كلما نشر بعضها طوي بعضها.

وقوله: ينبغي للعاقل أن يخاطب الجاهل مخاطبة الطبيب للمريض.

وقوله: طالب الدنيا قصير العمر كثير الفكر.

وقوله: من كان شريرًا فالموت سبب راحة الناس من شره.

وقوله: إنما جعل للإنسان لسان واحد وأذنان ليكون ما يسمعه أكثر مما يتكلمه.

وسئل: أي الأشياء ألد؟ فقال: استفادة الأدب واستماع أخبار لم تكن سمعت.

وقوله: أنفع ما اقتناه الإنسان: الصديق المخلص.

وقوله: الصامت يُنسب إلى العي ويسلم، والساكت يُنسب إلى الفضول ويندم.

وقوله: من سره الزمان في حالة ساء في أخرى.

وقوله: لا ضرر أضر من الجهل، ولا شر أشر من النساء.

وقوله لتلميذه: يا بني، أن كان لا بد لك من النساء فاجعل لقاءك لهن كأكل الميتة

لا تأكلها إلا عند الضرورة.

وقوله وقد قيل له: ما تقول في النساء؟ فقال: هن كشجر الدفل^(١) له رونق وبهاء فإذا أكله الغر قتله.

وقوله: لا يصدنك عن الإحسان جحود جاحد النعمة.

وقوله: الجاهل من عثر بحجر مرتين.

وقوله: اعلم أنك في أثر من مضى سائر، وفي محل من مات مقيم، وإلى العنصر الذي بدأت منه تعود.

وقوله: رب متحرز من الشيء تكون منه آفته.

وقوله: داووا الغضب بالصمت.

وقوله: لأهل الاعتبار في صروف الدهر كفاية، وكل يوم يأتي عليك منه علم جديد.

وله شعر باليونانية عرّب فكان شعراً وهو:

إنما الدنيا وإن ومسقت خطرة من لحظ ملتفت^(٢)

(١) شجر الدفل: شجرة لا يزيد ارتفاعها على المترين، دائمة الخضرة، أوراقها سهمية وأزهارها كبيرة حمراء أو بيضاء عديمة الرائحة، والشجيرة مقاومة لجميع الظروف المناخية وتزهر في جميع فصول السنة. انظر: المنصوري في الطب ص ٦٠٢.

(٢) ذكر حنين بن إسحاق في كتابه آداب الفلاسفة نصوص ووصايا وآداب وحكم سقراط، ولعل جُل من جاء بعد حنين اقتبسها منه أو اختصرها، ولعل ابن فضل الله العمري أخذها من كتاب حنين المتوفي (٢٦٠هـ/ ٨٧٣م)، وقد اختصر كتاب آداب الفلاسفة لحنين بن إسحاق: محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري، وحققه الدكتور عبد الرحمن بدوي، والنص أطول عند حنين.

ومنه:

٦- أفلاطون

رجل ترى النجوم لديه أسافل، والخصوم بين يديه جوافل^(١)، والغيوم معتذرة إليه إذا أتته حوافل، يطأ الأراقم، ويطاول الخطب المتفاقم، ويكف بعقله النوازي بعقائد الجوازي، وتقصّر رؤية الأفكار إذا ارتجل، وتقصى إذا ارتحل، وتقدم النظراء إليه ثم لا ترى إلا مبلسة، وتقدم الآراء ثم لا تنفذ إلا وسهامها مرسله.

قال ابن جلجل^(٢): هو من مدينة أثينا^(٣)، رومي فلسفي، يوناني، طبي عالم

(١) جوافل: انجفل القوم: أي انهزموا بسرعة. انظر: تاج العروس مادة (جفل) والمقصود هنا: أن خصومه يهزمون.

(٢) هو: أبو دوداد سليمان بن حسان، المعروف بابن جلجل، ولد سنة (٣٣٢هـ)، وهو من أهل قرطبة، سمع الحديث وهو ابن عشر سنوات من أبي بكر أحمد بن الفضل الدينوري، وأبي الحزم وهب بن مسرة، ترعرع وسمع من أحمد بن سعيد الصديقي، وأخذ العربية عن محمد بن يحيى الرباحي. عني ابن جلجل بطلب الطب فغلب عليه وعرف به، وبلغ منه الغاية، وقد أفتى فيه وهو ابن أربع وعشرين سنة، ألف كتابًا حسنًا في طبقات الأطباء والحكماء، كما كان شديد العناية بتحصيل العلوم المختلفة فقد سمع الحديث على أساتذة عصره من المحدثين، وكان طبيب المؤيد بالله هشام، وله من الكتب: كتاب طبقات الأطباء والحكماء، وكتاب تفسير الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس، وقد توفي ابن جلجل بعد سنة (٣٧٢هـ). انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل - المقدمة، مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١٥٧/٢) أخبار العلماء بأخبار الحكماء للمقفي ص ١٣٠، معجم الأطباء لأحمد عيسى بك ص ٢٠٧.

(٣) هي عاصمة اليونان، مناخها حار جاف صيفًا عطر شتاءً، وأهم الأنشطة الاقتصادية فيها صناعة المنسوجات والآلات، وأثينا من أقدم مدن العالم، وقد ارتبط هذا الاسم بظاهرة وثنية قديمة اتسمت بها العقائد الإغريقية؛ وهي تعدد الآلهة، وقد أسست هذه المدينة التاريخية في أثناء حكم ميكرويسن الذي بدأ سنة (١٥٨٢ ق.م)، واشتهرت أثينا منذ القرن الثامن قبل الميلاد بعلومها

بالهندسة وطبائع الأعداد، وله في الطب كتاب بعثه إلى طيماوس^(١) تلميذه، وله في الفلسفة كتب وأشعار، وله في التأليف كلام لم يسبقه أحد إليه اسنبت به صناعة الديباج، وهو الكلام المنسوب إلى الخمس نسب التأليفية التي لا سبيل إلى وجود غيرها، ثم استشرى إلى علم العالم كله، وعرف موانع الأجزاء المؤتلفات المتمزجات باختلاف ألوانها وأصباغها واتلافها على قدر [النسبة]^(٢)، فوصل إلى علم التصوير [فوضع أول حركة جامعة لجميع الحركات ثم صنفها بالنسبة العددية، فوضع الأجزاء المؤتلفة على ذلك فصار إلى علم تصوير التصويرات]^(٣) فقامت له صناعة الديباج وصناعة كل مؤلف به.

وله في الفلسفة كلام عجيب، وكان قد أخذ في أول أمره في تعلم علم الشعر واللغة فبلغ من ذلك مبلغاً عظيماً، إلى أن حضر يوماً سقراطيس وهو يثلب صناعة الشعر

وفنونها وآدابها، وارتبطت بها أسماء كثيرة من الفلاسفة والأدباء أمثال: سقراط، وأفلاطون، وأرسطوطاليس، وسوفوكليس وغيرهم، وكان أول اتصال بين أثينا والمسلمين عام (٢٨٣هـ/ ٨٩٦م) حين دخلها المسلمون لأول مرة، ولم يقيموا فيها إلا فترة قصيرة، لكن الإسلام استقر فيها في أيام السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح الذي دخلها سنة (٨٦١هـ/ ١٤٥٦م). وطبقت تعاليم الإسلام ونعمت أثينا بنور الإسلام قرابة أربعة قرون، وفي عام (١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م) نجحت المؤامرة البصلية التي اتفق عليها في مؤتمر لندن (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م) في فصل اليونان وأثينا عن الدولة العثمانية. انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لجمال السامرائي (١/ ٨٠).

(١) أحد فلاسفة اليونان وهو تلميذ أفلاطون وأستاذ سقراط، وقد أوصى سقراطاً بوصايا متعددة، من ذلك أن سقراط قال له: لم لا تدعني أدون ما أسمع منك من الحكمة؟ فقال له: ما أوثقك بجلود البهائم الميتة، وأزهدك في الخواطر الحية، هب أن إنساناً لقيك في الطريق فسألك عن شيء من العلم هل كان يحسن أن تحمله إلى الرجوع إلى منزلك والنظر في كتبك، فالزم الحفظ، فلزمه سقراط. انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ١٤٥، طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل ص ٣٢.

(٢) في الأصل: الشبه، والمثبت من طبقات الأطباء لابن جليل.

(٣) ساقط من الأصل والمثبت من طبقات الأطباء لابن جليل.

فأعجبه ما سمعه منه وزهد فيها كان عنده منه، ولزم سقراط وسمع منه خمس سنين، ثم مات سقراط فقصده مصر للقاء أصحاب فيثاغورس، وكان يتبع سقراط في الأشياء المحسوسة ويتبع فيثاغورس في الأشياء المعقولة، وكان يتبع سقراطيس في أمور التدبير.

ثم رجع إلى بلده ونصب فيها بيتي حكمة، وعلم الناس وفعل الجميل وأعان الضعفاء، وكان حسن الأخلاق، كريم الأفعال، كثير الإحسان إلى كل ذي قرابة منه وإلى الغرباء، ثباتاً، حكيماً، صبوراً، وكان يرمز حكمته ويشير إليها ويتكلم بها ملغوزة؛ حتى لا يظهر مقصده إلا لذوي الحكمة.

وصنف عدة كتب، وكتبه يتصل بعضها ببعض، أربعة أربعة، يجمعها غرض واحد، ويخص كل واحد منها غرض خاص يشتمل عليه ذلك الغرض العام، ويسمى كل واحد منها رابوعاً، وكل رابوع منها يتصل بالذي قبله.

وكان محباً للفلوات والصحارى والوحدة، وكان في الأكثر لا يستدل على موضعه إلا بصوت بكائه وكان يُسمع على ميلين، وكان منقوشاً على خاتمه: تحريك الساكن أسهل من تسكين المتحرك.

ومن كلامه: قوله: للعادة^(١) على كل شيء سلطان.

قوله وقد قيل له: لم لا تجمع الحكمة والمال؟ فقال: لعز الكمال.

وقوله: غاية الأدب أن يستحي المرء من نفسه.

وقوله: إذا خبث الزمان كسدت الفضائل وضرت، ونفقت الرذائل ونفعت، وكان خوف الموبس أشد من خوف المعسر.

(١) في طبقات ابن جليل: للفلوات.

وقوله: العزيز النفس هو الذي لا يذل للفاقة.

وقوله: الحسن الخلق من صبر على السيئ الخلق.

وقوله: أشرف الناس من شرفته الفضائل لا من تشرف بالفضائل.

وقوله: الأمل خداع النفوس. وقوله: المشورة تريك طبع المستشار.

وقوله: اطلب في حياتك العلم والمال والعمل الصالح فإن الخاصة تفضلك بما تحسن، والعامة بما تملك، والجميع بما تعمل.

وقوله وقد سئل عند موته عن الدنيا؟ فقال: خرجت إليها مضطراً، وعشت فيها متحيراً، وها أنا أخرج منها كارهاً، ولم أعلم فيها إلا أنني لا أعلم!! وعاش ثمانين سنة^(١).

ومنهم:

٧- أرسطوطاليس

وهو ابن نيقوماخس ذهب مذهب فيثاغورس، رجل لا يقاس به أحد، ولا يقال: إن مثله البحر فيخص بحد. أنواع العلماء عليه ضيوف، وأقوال الحكماء لديه زيوف، طلع صباحه، فظمى جدوله على الكواكب وطمسها، وطم جرف نهاره المنهار حفر الغياهب ودمسها، وعرف فضله بالضرورة، وفعله بالمآثر المبرورة، وعني بمداواة الأفهام، فأبرأ سقيمها، وأنتج عقيمها، فشفي من لم، وأسمع من صمم، وحاز بانضواء الإسكندر^(٢)

(١) معظم هذه الوصايا والأقوال موجودة في آداب الفلاسفة لحنين بن إسحاق ص ٧٤-٧٩، ويمكن الرجوع إليها.

(٢) هو: الإسكندر بن فيليب بن أمنطس يلقب الإسكندري الأكبر المقدوني، ولد الإسكندر سنة

الذي هو أحد ملوك العالم إليه فخراً، أصبح به نده يفخم، وضده يرغم، إذ كان لا تناط لديه إشاراته بإهمال ولا تنال عنده إلا بالتعويل عليه أعمال، وحسب واصفه أن لا يجد غير قائل، ولا يجد إلا ثلب الناس قائل.

ذكره أبو القاسم بن صاعد وقال: [انتهت إليه^(١)] فلسفة اليونان، وكان خاتم حكمائهم وسيد علمائهم، وهو أول من خلص [صناعة^(٢)] البرهان من [سائر^(٣)] الصناعات المنطقية، وصورها بالأشكال الثلاثة، وجعلها آلة العلوم النظرية، حتى لُقّب بصاحب المنطق، وله في جميع العلوم الفلسفية كتب شريفة كلية وجزئية.

قال ابن جليجل: كان فيلسوف الروم، وعالمها، وجهبذها ونحريها وخطيها وطبيها، وكان أوحد في الطب، وغلب عليه علم الفلسفة.

قال المبشر بن فاتك^(٤): كان أرسطو كثير التلاميذ، من الملوك وأبناء الملوك

(٣٥٦ق.م) وهو بطل إغريقي مات في ريعان شبابه بعد أن فتح معظم العالم القديم، وقد أسس مدينة الإسكندرية بمصر سنة (٣٢٣ق.م) وعندما انقسمت إمبراطورية الإسكندر بين قواده، كانت مصر من نصيب بطليموس سونير، وظلت في أيدي البطالة إلى أن انتقلت إلى الرومان بين (٣٣٦-٣٢٣ق.م)، وكانت وفاة الإسكندر المقدوني سنة (٣٢٣ق.م). انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١/ ٢٧٥) تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٢١٧، علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب لدي لاس أوليري ص ٨، ١١، ٢٣.

(١) إضافة من طبقات الأمم لابن جليجل:

(٢) إضافة من طبقات الأمم لابن جليجل.

(٣) إضافة من طبقات الأمم لابن جليجل:

(٤) هو: أبو الوفا مبشر بن فاتك، حكيم، وأديب، أصله من دمشق، وموطنه مصر، وله تأليف في علوم الأوائل، وملك من الكتب ما لا يحصى عدده كثرة، ومن كتبه: كتاب سيرة المنتصر، وكتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم، وهو مطبوع، وتوفي سنة (٥٠٠هـ / ١١٦٠م). انظر: أخبار الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ١٧٦، طبقات الأطباء والحكماء لابن جليجل (١/ ٤١) كشف الظنون لحاجي خليفة ص ١٦٢٢، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٧٦.

وغيرهم، وعد منهم أناسي منهم: الإسكندر، وسماه الإسكندروس.

قال ابن أبي أصيبعة: كان نيقوماخس أبو أرسطوطاليس طيبب [أمنطس أبي فيليس، وفيليس^(١) هذا هو أبو الإسكندر]^(٢)، وكان كل من أبيه وأمه من ولد [اسقليبوس]^(٣) وأخذ أرسطو عن أفلاطون وكان أرسطو خليفته على دار التعليم.

ولما قدم أفلاطون من صقلية^(٤) انتقل أرسطو إلى لوقيون^(٥)، واتخذ هناك دار التعليم المنسوبة إلى [الفلاسفة] المشائين، ثم رجع إلى مدينة الحكماء، ثم صار إلى مقدونيا^(٦) يعلم إلى أن تجاوز الإسكندر بلاد آسيا ثم استخلف في مقدونيا، فسعى إليه

(١) هو: فيليس بن أفطيس أبو الإسكندر المقدوني، يعتبر من أشهر ملوك مقدونيا، وقد اعتلى العرش (٣٥٩-٣٣٦ ق.م) ووسع عرش بلاده فأصبحت أقوى دولة في شبه جزيرة البلقان وذلك بعد انتصاره على الإغريق في موقعة خابدونيا سنة (٣٣٨ ق.م)، فأصبح سيد بلاد الإغريق، وقد مات مقتولاً، وكان سبب قتله أن رجلاً من عظماء أصحابه يقال له: قلويس عشق امرأته أم الإسكندر فراسلها واستألفها فامتنعت عليه فعمل على أن يقتل فيليس، وقد جمع قلويس من وافقه على غرضه من الرجال، ووثب على فيليس فضربه ضربات كثيرة بالسيف، وقبل موته ضرب فيليس قوس بالسيف فقلته، وباع لابنه الإسكندر بالملك. انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٢١٧، عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة، تحقيق د/ عامر النجار ص ٢٧٣ هامش ١.

(٢) ما بين الحاصرتين في الأصل، و«ف»: طيبب فيليس أبي الأسكندر، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) ما بين الحاصرتين في الأصل، و«ف»: قلينوس، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) جزيرة في البحر المتوسط تقابل الساحل الشمالي لإفريقيا، كثيرة القلاع والحصون، غزيرة الأنهار، والمتنزهات والقصور الشاهقة، كثيرة الحيوانات والمعادن والفواكه، فتحت في عهد بني الأغلب على يد القاضي أسد بن الفرات في عهد هارون الرشيد سنة (٢١٢ هـ) وسميت باسم سيقلو أخو إيطال الذي سميت باسمه إيطاليا، ومن خرج منها: فورفوريوس الفيلسوف الشهير. انظر: معجم البلدان لياقوت (٤١٦/٣) الروض المعطار للحميري ص ٣٦٦-٣٦٨.

(٥) لوقيون: اسم مدرسة أنشأها أرسطو بأثينا بمكان يسمى لوقيون فسميت المدرسة بهذا الاسم وسمي أتباعه بعد ذلك بالمشائين. انظر: زكي نجيب محمود، أحمد أمين: قصة الفلسفة، ص ١٥٢.

(٦) دولة قديمة شمال جزيرة البلقان، كان سكانها خليطاً يضمون شعوباً تتصل بالألبانيين المحدثين

بعض الكهنة في أرسطو، ونسبه إلى الكفر؛ لكونه كان لا يعظم الأصنام التي كانت تُعبداً، فشخص أرسطو إلى بلاده وبقي بها إلى أن مات وهو ابن ثمانين سنة.

ثم إن أهل [أسطاغيرا]^(١) نقلوا بدنه وصيروه في الموضع المعروف بالأرسطوطاليسي، وصيروا عنده مجتمعهم للمشاورة في جلائل الأمور وكانوا يرون عنده تفريج أحزانهم، وإذا صعب عليهم شيء من فنون العلم أتوا إلى مكان قبره فتناظروا ما بينهم فيظهر لهم ما أشكل، وكانوا يرون اجتماعهم عنده يذكى عقولهم ويصحح فكرهم، وكانوا لا يزالون في أسف لفراقه، وحزن لما فقدوه من ينابيع حكمته.

وذكر المسعودي^(٢): أنه في ملرم^(٣) من صقلية، وكان جليل القدر في الناس، مكرماً

وبعض الشعوب الإغريقية، خضعت للفرس في القرن الخامس ق.م، واهتم ملوك مقدونيا من عهد الإسكندر الأول بفتح بلادهم للحضارة الإغريقية، ومن أشهر ملوكها الملك فيليبس والد الإسكندر، الذي اعتلى العرش (٣٥٩-٣٣٦ ق.م) والذي وسع بلاده فأصبحت أقوى دولة في شبه جزيرة البلقان، وخلفه ابنه الإسكندر في حكمها، وبعد أن توفي الإسكندر الأكبر وكان قد توسع في مملكته إلى آسيا وأفريقيا وبلاد الصين والهند، خلفه قواده الذين قاموا بتقسيم المملكة فيما بينهم. انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/٢٤٥) قصة.

(١) ما بين الحاصرتين في الأصل، و«ف»: أسطا، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) هو: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل، مؤرخ وصاحب كتاب مروج الذهب، كان إخبارياً صاحب مُلَح وغرائب وعجائب وفنون، وكان معتزلياً، وقد أخذ عنه أبي خليفة الجهمص، ونفطويه، وغيرهما، ومن كتبه: مروج الذهب، وأخبار الزمان من أبادته الخلدان، والتنبية والإشراف، وأخبار الخوارج، وذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/٥٦٩) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٣/٩٠-٩٤) العبر في أخبار من غُيِّرَ للذهبي (٢/٢٦٩) فوات الوفيات للكتبي (٢/٩٤) طبقات الشافعية للسبكي (٣/٤٥٦، ٤٥٧).

(٣) أعظم مدينة في جزيرة صقلية، كان بها نحو ٣٠٠ معلم، وتقع على بحر المغرب، وكان بها أرسطوطاليس، بها كثير من المساجد، ويظف بها كثير من العيون والأنهار العذبة، وكان إبراهيم بن أحمد بن الأغلب أمير إفريقية قد نزل عليها ففتحها سنة (٢٨٧هـ). انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (١/٤٨٣) الروض المعطار للحميري ص ١٠١.

عند ملوك زمانه، وكان يحسن السفارة عندهم للرعية، حتى اتخذوا عمودًا ونقشوا عليه اسمه، وحسن ما كان يصنعه معهم إلا فرد رجل غاب عن رأيهم في هذا العمود وعاب أرسطو وهم بإزالة نقش العمود، فأمسك وقتل ثم عمدوا إلى عمود آخر^(١) بالبناء عليه كالأول، وذكروا المتعرض المخالف الذي قتل، ولعنوه وتبرءوا منه.

قال ابن أبي أصيبعة: إن الإسكندر لما ملك صار أرسطو إلى التبتل والتخلي مما كان فيه من الاتصال بالملوك والملازمة لهم، ولزم موضع التعليم وهو رواق المشائين، وأقبل على العناية بمصالح الناس ورغد الضعفاء، وأهل الفاقة، وتزويج الأيتام، وعول اليتامى، ورغد طلبة العلم والتأديب من كانوا، وأي نوع من العلم والأدب طلبوا، والصدقة على الفقراء، ولم يزل في غاية لين الجانب والتواضع وحسن اللقاء للمصغير وللكبير والقوي والضعيف، وأما قيامه بأمر أصدقائه فلا يوصف^(٢).

قال المبشر بن فاتك: إن أرسطو لما بلغ ثماني سنين حمله أبوه إلى بلد الحكماء، وضمه أبوه إلى الشعراء والبلغاء والنحويين، فأقام متعلِّمًا منهم تسع سنين، وكان اسم هذا العلم عندهم: المحيط - أعنى: علم اللسان - لحاجة جميع الناس إليه؛ لأنه المؤدي لكل حكمة، وبه يتحصل كل علم، ثم بلغه أن قومًا من الحكماء أزرؤا بعلم البلغاء واللغويين وعنفوا المتشاغلين به، وزعموا أنه لا تحتاج إليه الحكمة؛ لأن النحويين معلمي الصبيان والشعراء أصحاب أباطيل وكذب، والبلغاء أصحاب تمحل ومراء، فأدرسته الحفيظة لهم، فناضل عنهم واحتج لهم وقال: إن فضل الإنسان على البهائم بالنطق، وأحقهم بالإنسية أبلغهم في منطقته، وإذا كانت الحكمة أشرف الأشياء فينبغي أن تكون العبارة عنها بأشرف المنطق؛ لأن العي يذهب بنور الحكمة، ويقطع عن الأداء، ويقصر عن الحاجة، ويلبس على المستمع، ويفسد المعاني، فيورث الشبهة.

(١) كلمة غير واضحة بالأصل، «ف».

(٢) انظر عيون الأنباء (١/ ٢٧٥) ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ثم انتقل أرسطو إلى أفلاطون لتعلم العلوم الأخلاقية والسياسية والطبيعية والتعليمية والإلهية، وكان أفلاطون إذا استدعي منه الكلام يقول: اصبروا حتى يحضر الناس! فإذا جاء أرسطو قال: تكلموا، فقد حضر^(١) الناس، وربما كان يقول: اصبروا حتى يحضر العقل، فإذا حضر أرسطو قال: تعلموا فقد حضر العقل!.

وقال حنين: كان منقوشاً على خاتم أرسطو: المنكر لما يعلم أعلم من المقر بما لا يعلم^(٢)!

ومن كلامه: قوله: بالفكر الثاقب يدرك الرأي العازب، وبالتالي تسهل المطالب، ويلين الكلم تدوم المودة في الصدور، وبخفض الجناح تتم الأمور، وبسعة الأخلاق يطيب العيش ويكمل السرور، وبالإنصاف يحب التواصل، وبالتواضع تكثر المحبة، وبالعفاف تزكو الأعمال، وبالعدل يقهر العدو، وبالحلم تكثر الأنصار، وبالرفق تستخدم القلوب، وبالوفاء يدوم الإخاء، وبالصدق يتم الفضل، [وبحسن الاعتبار تضرب الأمثال]^(٣) والأيام تفيدكم.

ومن الساعات تتولد الآفات، وبالعافية يوجد طيب الطعام والشراب، وبحلول المكاره تتكدر النعم، وبالمثل يدحض «الإنسان»^(٤)، وبالجهود يستوجب الحرمان، والبخل ذليل وإن كان غنياً، والجواد عزيز وإن كان مقللاً، والطمع الفقر الحاضر، واليأس الغنى الظاهر، «لا أدري» نصف العلم، والأدب يغني عن الحسب، والتقوى شعار العالم، والرياء لباس الجاهل، ومقاساة الأحق عذاب الروح، والاشتغال بالفائت يضيع الأوقات، والتمني سبب الحسرة، والصبر تأييد العزم.

(١) انظر: عيون الأنباء (١/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) انظر: آداب الفلاسفة ص ٤٦.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) في عيون الأنباء: يكفر بالإحسان.

صديق الجاهل مغرور والمخاطر خائب. من عرف نفسه لم يضع. المجرب أحكم من الطبيب. إذا فاتك الأدب فالزم الصمت. من لم ينفعه العلم لم يأمن من ضرر الجهل. من افتخر ارتطم. من عجل تورط. من تفكر سلم. من سأل عليم. للعادة على كل أحد سلطان^(١). كل شيء يستطيع نقله إلا الطباع. كل شيء يحتال له إلا القضاء. من عرف الحكمة لحظته العيون بالوقار. لا يؤتى الناطق إلا من سوء فهم السامع.

الجزع عند مصائب الأحزان أحمد من الصبر، وصبر المرء على مصيبته أحمد من الجزع.

ليس شيء أقرب إلى تغيير النعم من الإقامة على الظلم.

من طلب خدمة السلطان بلا أدب خرج من السلامة إلى العطب.

إذا أردت الغنى فاطلبه بالقناعة، فإن من لم يكن له قناعة لا يغنيه المال وإن كثر.

لا تبطل لك عمرًا في غير نفع، ولا تضع لك مالًا في غير حق، ولا تصرف لك قوة في غنى ولا رأيًا في غير رشد.

العالم يعرف الجاهل؛ لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم؛ لأنه لم يكن عالمًا.

اطلب الغنى الذي لا يفنى، والحياة التي لا تتغير، والمملك الذي لا يزول، والبقاء الذي لا يضمحل.

أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعًا لك، واقترض من عدوك الفرصة، واعمل على أن الدهر ذو دول.

لا تصادم من كان على الحق، ولا تجاذب من كان متمسكاً بالدين.

لا فخر فيها يزول ولا غنى فيها لا يثبت. لا تغفل فإن الغفلة تورث الندامة.

لا ترجُ السلامة لنفسك حتى يسلم الناس من جورك، ولا تعاقب غيرك على أمر ترخص فيه لنفسك.

اعتبر ممن تقدم، واحفظ ما مضى، والزم الصحة يلزمك النصر.

الصدق قوام أمر الخلائق. الكذب داء لا ينجو من نزل به.

من تجبر على الناس [أحب الناس]^(١) ذلته. من أفرط في اللوم كرهت حياته. من مات محموداً كان أحسن حالاً ممن عاش مذموماً.

من نازع السلطان مات قبل يومه. أي ملك نازع السوق هتك شرفه. من مات قل حاسده. الحكمة شرف من لا قديم له. سوء الأدب يهدم ما بناه الأب. الجهل شر الأصحاب. النيمة تهدي إلى القلوب البغضاء. ومن واجهك فقد شتمك، ومن نقل إليك نقل عنك. الجاهل عدو لنفسه فكيف يكون صديقاً لغيره؟

الوفاء نتيجة الكرم. لسان الجاهل مفتاح حتفه. الحاجة تفتح باب الحيلة. بترك ما لا يعينك يتم لك الفضل. ليس زيادة القوة بكثرة ما يرد البدن من الغذاء ولكن بكثرة ما يقبل منه.

امتحن المرء في وقت غضبه لا في وقت رضاه، وفي وقت قدرته لا في وقت ذلته.

خير الأشياء أجدها إلا المودات خيرها أقدمها.

(١) ساقطة من الأصل، والمثبت من «ف».

وكتب إلى الإسكندر: إذا أعطاك الله الظفر فافعل بما أحب من العفو.

وكتب إليه: الأردياء ينقادون بالخوف، والخيار ينقادون بالحياء، فميز بين الطبقتين واستعمل في أولئك البطش والخوف، وفي هؤلاء الإفضال والإحسان.

وكتب إليه: ليكن غضبك بين المنزلتين: لا شديدًا فاشيًا ولا فاترًا ضعيفًا، فإن هذه من أخلاق السباع وهذه من أخلاق الصبيان.
ومنهم:

٨- يعقوب بن إسحاق الكندي^(١)

أبو يوسف فيلسوف العرب، من ولد الأشعث بن قيس^(٢)، والأشعث من ولد

(١) هو: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي، ويرجع نسبه إلى الصحابي الجليل الأشعث بن قيس، والكندي فيلسوف العرب، ومن كبار علماء المسلمين، كان ممن اطلع على فلسفة اليونان، وقرأ كتبهم، وسار على نهج بعضهم، وخاصة على نهج أرسطوطاليس في كتاباته، وكان الكندي على علم كبير بعلوم الطب والتنجيم، وله مؤلفات عديدة في كل مجالات العلوم الإسلامية، ومن أهم مؤلفاته: رسالة في الموسيقى والأدوية المركبة، السيوف وأجناسها، أقسام العلم الإلهي، رسالته الكبرى في التأليف وكتاب ترتيب النظم، والمدخل الموسيقي، رسالة في أن رؤية الهلال لا تضبط بالتحقيق وإنما القول فيه بالتقريب، واصطلاح إقليدس، واختلاف المناظر، وغيرها كثير، وكانت وفاته سنة (٢٦٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٣٧/١٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١٠٦/١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٤٠، طبقات الأطباء والحكماء لابن جلدل ص ٧٣، تاريخ حكماء الإسلام لليهقي ٤١، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٠٥، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب لمحمد كامل حسين ص ٣٨٣، أعلام العرب في الكيمياء: فاضل أحمد الطائي ص ٥٨-٦٤.

(٢) هو: الأشعث بن قيس بن معديكرب بن معاوية بن جبلة بن عدي بن ربيعة بن معاوية، أمير صحابي، راوية، كان يروي عنه الإمام الشعبي وأبي وائل، وابن أبي حازم، وغيرهم، وكان يحارب مع الإمام علي في صفين، وكان ممن ارتد من العرب في عهد الصديق أبي بكر، ثم أسلم وحسن إسلامه، وتوفي سنة (٤٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٧/٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١١٨/١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٤٠.

معاوية الأكبر ابن الحارث الأصغر، ابن معاوية بن الحارث الأكبر.

وكان الأشعث ملكًا على كندة^(١)، وله صحبة، وللأعشى^(٢) فيه مدائح، وكان من أبائه ملوك بالمشقر^(٣) واليهامة^(٤) والبحرين^(٥).

(١) قبيلة عربية تنسب إلى كند أو ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، وسمي كند؛ لأنه كفر أباه؛ أي كفر بنعمته، وتقع بلاد كندة باليمن قبلي حضر موت، وكان لهم ملك الحجاز واليمن، ويوجد منهم بقايا قليلة باليمن حتى اليوم، ومن كندة امرؤ القيس بن عابس الكندي الصحابي الجليل - رضي الله تعالى عنه وأرضه - انظر: فلائد الجبان في التعريف بقبائل الزمان للقلقشندي ص ٧١.

(٢) هو: أعشى قيس، ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل، أدرك الإسلام ولكنه لم يسلم. انظر: الأغاني للأصفهاني، معجم الشعراء ص ٣٢٥-٣٢٧.

(٣) حصن بين نجران والبحرين بناء طسم، وقيل: بناء سليمان عليه السلام، على قلة جبل ويقابله حصن بني سدوس، وقيل عن المشقر: جبل لهديل، وقيل: هي مدينة هجر، وقيل: بناء معاوية بن الحارث بن معاوية الملك الكندي، وهي مدينة عظيمة في وسطها قلعة، وفيها آبار. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (١٣٤/٥) معجم ما استعجم لعبد الله البكري (١٢٣٣/٤) الروض المعطار للحميري ص ٥٦٠.

(٤) مدينة في اليمن أو نجد، أخذ اسمها من النيام (حيوان طائر)، وقيل: سميت باسم زرقاء النيام، وفتحت بعد مقتل مسيلمة الكذاب سنة (١٢ هـ)، والذي كان قد ادعى النبوة وكثر أتباعه، فقتله فيروز الديلمي، ثم فتحها خالد بن الوليد عنوة، وكانت جرهم تسكنها قبل الإسلام، ومن ينسب إلى اليهامة: رجاء بن حيوة، ويعلى بن شداد، وعطاء، والحسن البصري، وغيرهم. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٤٤١-٤٤٧/٥) الروض المعطار للحميري ص ٦١٩-٦٢١.

(٥) دولة عربية إسلامية، تقع في منتصف الخليج العربي بين رأس الخليج عند البصرة ومدخله عند مضيق هرمز، وهي على شكل أرخبيل جزري في مدخل خليج سنوي، وعندما ظهر الإسلام دخل أهل البحرين فيه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، حينما بعث إليهم العلاء بن الحضرمي يدعوهم إلى الإسلام، وبعد وفاة النبي ارتد بعضهم فأرسل إليهم أبو بكر الصديق جيشًا بقيادة العلاء، فتعاون معه من بقوا على إسلامهم، فتمكن من القضاء على المرتدين فيها وصار واليًا عليها. وأهم المدن في البحرين: النامة، والمحرق، وعيس، وأهم المحاصيل بها: التمور والفواكه والخضراوات والمواالح والحبوب. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٨٢، معجم البلدان لياقوت الحموي (٣٤٦/١).

وكان إسحاق بن الصباح على الكوفة للمهدي^(١) والرشيد، وكان ابنه يعقوب هذا عظيم المنزلة عند المأمون^(٢) والمعتصم^(٣)، وابنه أحمد^(٤) أملاكه

(١) هو: هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله بن المنصور، أبو جعفر، أمير المؤمنين، تولى الخلافة بعد أخيه الهادي، وكان قد ولد سنة (١٤٩هـ) في مدينة الري، وكان فاضلاً عفيفاً، شجاعاً، ذا هيئة وسطوة، نُشر العدل على عهده، وكان يحج عامًا ويغزو عامًا آخر، وفي عهده قضى على البرامكة وقتلهم شر قتلة، وسلب أموالهم، وكانت وفاته في طوس إحدى مدن خراسان سنة (١٩٣هـ)، وعمره ٤٤ سنة. انظر: الجواهر الثمين لابن دقاق (١/١٢٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٨٦/٩).

(٢) هو: الخليفة أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد، ولد سنة (١٧٠هـ)، وقرأ العلم والأدب وعلوم الأوائل والأخبار، وسمع من هشيم، وعبيد بن العوام، ويوسف بن عطية، وروى عنه ولده الفضل، ويحيى بن أكثم، وغيرهما، وكان من رجال بني العباس حزمًا وعزماً ورأيًا وعقلًا وهيبة ومحاسن كثيرة، أنه وفاة أبيه وهو بمرور سائرًا لغزو ما وراء النهر، فبايع من قبله الأمين، ثم جرت بينهما أمور وخطوب وحروب، إلى أن قتل الأمين وبويع للمأمون سنة (١٩٨هـ)، وكان المأمون عالمًا فصيحًا مفوهًا، وقيل: إنه تلا في رمضان ثلاثًا وثلاثين ختمة. انظر: المعارف لابن قتيبة ص ٣٨٧؛ تاريخ اليعقوبي (٣/١٧٢) تاريخ الطبري (٨/٤٧٨) مروج الذهب للمسعودي (٢/٢٤٧-٢٦٩) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/٢٧٢).

(٣) هو: أبو إسحاق، محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، أمير المؤمنين، تولى الخلافة بعد أخيه المأمون سنة (٢١٨هـ)، وكان ولي عهده، وكان قد طلب العلم صغيرًا، وكان يروي عن أبيه وأخيه المأمون، وروى عنه إسحاق الموصلي، وحمدون بن إسماعيل وغيرهما، وكان كثير الفتوحات والحروب، فتح عمورية وبابل، والزط، وقلعة الأجراف، وديار معز، وديار ربيعة، وأذربيجان وأرمينية، وخلف الكثير من الأموال والجواري والغلمان، وبنى عدة مدن منها: سر من أرى والقاطول وغير ذلك، وكان شجاعًا مهيبًا، كريمًا، أبيض، قوى البدن، وقيل: كان ظالمًا جبارًا فيه عسف، وكانت وفاته سنة (٢٢٧هـ) وعمره ٤٧ سنة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/٢٩٠) الجواهر الثمين لابن دقاق (١/١٣٧) المعارف لابن قتيبة ص ٣٩٢.

(٤) هو: أمير المؤمنين أحمد بن المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بن المهدي العباسي، ولد سنة (٢٢١هـ)، تولى بعد أخيه المنتصر بالله سنة (٢٤٨هـ)، وكان متلافًا للبال، اضطربت في عهده

بالبصرة^(١)، وتأدب ببغداد^(٢)، وكان عالماً بالطب، والفلسفة، والحساب، والمنطق، واللحن، والهندسة، وطبائع الأعداد، والنجوم، ولم نجد في الإسلام فيلسوفاً خلف أرسطو سواه!

له تصانيف كثيرة في فنون العلم، وخدم الملوك وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وبين ما جمجم على أهل المعرفة، وأحجم عن مئاورته كل قسورة، وخاتل دون مساورته كل ابن بهاء مقفرة، وأثرى بعلمه كل مملق، وأربى في يمه كل محملق، وقصر لديه حجة كل مناظر، ودرس محجة كل خاطر، ورد من عادى كندة من كنود الأبطال، وأكبد بفضلها كبود أهل المطال، حتى خشى من كاد كندة، وخزى بالقبيح لحسن ما عنده، فلو

الأمر، وكان أحر الوجه، خفيف العارضين، وكان يحب العلم على أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، وكان الكندي قد أرسل عدة رسائل شهيرة، وقتل سنة (٢٥٢) بقادسية سمراء. انظر: تاريخ حكماء الإسلام لليبي ص ٤١، سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٦/١٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١٢٤/٢) تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٠٥.

(١) البصرة: مدينة كبيرة بالعراق، بُنيت في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سنة (١٤هـ) واحتط عتبة بن غزوان المنازل بها، وبنى مسجدها الجامع، وبها تجري عدة أنهار وبها عدة بساتين، وزراعات جيدة، وكان عمر بن الخطاب قد أمر سعد بن أبي وقاص أن يبنى مدينة في العراق لما رأى تغيير لحوم وألوان الجنود الإسلامية التي في حروب فارس، بسبب وخومة مدنهم، فاختر عدة أماكن ثم اختار مكان البصرة، وتشتهر مدينة البصرة بالنخيل والحمام والشيء وكلها أشياء لا توجد كما هي بالبصرة. انظر: الروض المعطار للحميري ص ١٠٥.

(٢) بغداد: عاصمة العراق، وكبرى مدنها، كانت عاصمة للدولة العباسية بعد أن سلبها أبو جعفر المنصور، وجعلها عاصمة ملكه سنة (١٤٥هـ)، وأطلق عليها مدينة السلام لمرور دجلة بها، وهي مدينة كثيرة المساجد والزروع والبساتين والعمارات والحمامات والسكك، جيدة الهواء والسكن، نزها كثير من سكان الأمصار واستقروا بها، وظلت بغداد عاصمة للدولة العباسية حتى بنى المعتصم بالله سامراء، وانتقل إليها وجعلها العاصمة بدلاً من بغداد، وفي العصر الحديث أصبحت بغداد هي عاصمة العراق مرة أخرى وكبرى مدن العراق. انظر: تاريخ بغداد للبغدادي (٢٥/١) معجم ما استعجم للبكري (٢٦١/١) الروض المعطار للحميري ص ١٠٩.

نشر ملكها الضليل^(١) لما فخر بلسانه قدر ما فخر بإحسانه، ولما حمل راية الشعراء بيده إلا بعد أخذ أمانه، ولا طلب ثأر أبيه ولو قدر عليه إلى زمانه.

ذكره ابن أبي أصيبعة، وذكر من كلامه قوله في وصية:

قوله: وليتق الله المتطعب، ولا يخاطر، فليس عن الأنفس عوض.

وقوله: [وكما]^(٢) يجب أن يقال [له]^(٣): [إنه]^(٤) كان سبب عافية العليل وبرئه [احذر أن] أن يقال: إنه كان سبب تلفه وموته.

وقوله - مما أوصى به ولده -: يا بني، الأب رب، والأخ فخ، والعم غم، والخال وبال، والولد كمد، والأقارب عقارب. وقول: «لا» يصرف البلاء، وقول: «نعم» يزيل

(١) هو: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية الكندي، الملك الضليل، شاعر عربي، وأمير الشعراء الجاهليين، ولد بأرض نجد في ديار بني أسد سنة (٤٩٧م)، وخاله كليب ومهلhel ابني ربيعة، نشأ امرؤ القيس في كنف والده ملك كندة وأسد وغطفان في عيشة مترفة، بعيداً عن خشونة الحياة وبدائها، وقال الشعر صغيراً، وشبب بإحدى نساء أبيه؛ مما جعله يطرده بعيداً عنه، وكاد أن يقتله، فقال امرؤ القيس إلى حياة اللهو والمجون وشرب الخمر، وترك الجلد، فلما ثارت قبيلة أسد على أبيه قتلوه، وعلق دمه بامرئ القيس والأخذ بشأره، فاستنصر عليهم ملك الروم، الذي كساه حلة مسمومة، مات على أثر لبسها، وحظي امرؤ القيس بدراسة العلماء لشعره الذي تنوع في معظم الأغراض الشعرية؛ من هجاء ورثاء ووصف وغزل، ومن العلماء الذين تناولوه بالدراسة: ابن السكيت، والأصمعي، والمفضل الضبي، وغيرهم، وكانت وفاته في أنقرة سنة (٥٣٠ أو ٥٤٠م). انظر: امرؤ القيس حياته وشعره للطاهر أحمد مكي، امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين لمحمد دياب، ديوان امرؤ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، امرؤ القيس حياته وشعره: علي الجندي.

(٢) في الأصل، «ف»: كلما، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

النعم، وسام الغناء برسام حاد؛ لأن الإنسان يسمع فيطرب وينفق فيسرف، فيفتقر فيعتل فيموت، والدينار محموم، فإن صرفته مات، والدرهم محبوس فإن أخرجه فر. والناس سخرة فخذ شيتهم واحفظ شيتك، ولا تقبل ممن قال اليمين الفاجرة [فإنها]^(١) تذر الديار بلاقع.

قلت: وهذا الكندي هو الذي حضر أبا تمام^(٢) حين أنشد أحمد بن المعتصم قوله فيه:

ما في وقوفك ساعة من بام^(٣)

وهو صاحب الواقعة معه فيها، وهي في موضعها من ذكر أبي تمام أشبه.

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) هو: حبيب بن أوس الطائي، المشهور بأبي تمام، فحل من فحول شعراء الجزيرة العربية، في القرن الثالث الهجري، ولد في قرية من قرى دمشق بسوريا سنة (١٨٨ هـ) في أرجح الأقوال، ونشأ فقيراً، اضطرت له الحياة إلى العمل كخياط ثم ناسجاً، ثم رحل إلى مصر، وعمل سقاءً في مسجد عمرو بن العاص، ثم طلب العلم فنهل من الشعر العربي، والتاريخ، والفقه، والفلسفة وعلم الكلام، وغير ذلك، وأبدع أبو تمام في كل مجالات الشعر العربي من مدح وهجاء ووصف، وجمع لأشعار العرب، فكانت له عدة مؤلفات ضخمة منها: ديوان الحماسة أو الحماسة الكبرى، والحماسة الصغرى، وديوان شعر ضخم، حظي بالعديد من الدراسات وكانت وفاته سنة (٢٣١ هـ) بالموصل. انظر: أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره لنجيب محمد، في الشعر العباسي نحو منهج جديد: يوسف خليف.

(٣) هذا شطر من بيت تمامه:

ومنهم:

٩- أحمد بن الطيب السرخسي^(١)

أبو العباس، مُفَتِّنٌ جليل المفاخر، متقن لعلوم الأوائل^(٢) وطرف من علوم الأواخر، هذا إلى خشن مناظرة، وحسن محاضرة، وبنادر أجوبة حاضرة، وبنادر ما أتت بحرازها أهل بادية ولا حاضرة، ومع هذا كله يزن عقله الجبال ويوفر فضله الجمال، ويقتضي بفيضه البحر، إلا أنه لا يمر، والسحاب إلا أنه الذي ينسكب ولا يدر.

قال ابن أبي أصيبعة: هو ممن ينتمي إلى الكندي وعليه قرأ، وكان متفنتاً في علوم القدماء والعرب، حسن المعرفة، جيد القريحة، بليغ اللسان، مليح التصنيف والتأليف،

(١) هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن الطيب السرخسي، أحد كبار فلاسفة الإسلام، وله معرفة وتأليف كثيرة في علم الموسيقى والنطق، وهو تلميذ أبي يعقوب الكندي، وكان أحمد بن الطيب السرخسي طبيب الكلام، حلوا المحاضرة، بليغ اللسان، جيد التصنيف، وكان يُعَلِّمُ أبناء المعتضد بالله، ثم اصطفاه لنفسه وجعله نديمه، حتى أوقع بينهما فقتله المعتضد، وقال ذلك؛ لحبث عقيدته، وقيل: غلبت عليه الصفراء فجنى فمات بعد ذلك بقليل، وكان يتعلم عليه أحمد بن إسحاق ومحمد بن أبي الظاهر وآخرون كثيرون، وكانت وفاته سنة (٢٨٦هـ) وكان له من التصنيف: كتاب الموسيقى الصغير، وكتاب المدخل إلى علم الموسيقى، وكتاب النمش والكلف، وكتاب وصف مذهب الصابئين، وكتاب الجلساء والمجالسة، وغيرها من الكتب التي ترجمها. انظر: الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٥/٧) معجم الأبناء لياقوت الحموي (٣/٩٨) سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٤٨/١٣) تاريخ العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٥٣، تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقي ص ١٧، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٢٣.

(٢) علوم الأوائل: يقصد بها -على الأخص- علوم اليونان التي نقلها ترجمة العرب والمسلمين؛ كالنطق والفلسفة بمباحثها: الإلهيات، والطبيعات، والأخلاق والسياسة.

[أوحد]^(١) في النحو والشعر، فصيح الشعر مليح النادرة وسمع الحديث، وكان خليعاً ظريفاً.

وولي حسبة بغداد أيام المعتضد^(٢)، وكان قبل هذا يعلمه ويناديه، وكان يفضي إليه بأسراره ويستشير في أمور ملكه، وكان يغلب علم السرخسي على عقله، وقتله بحيلة دبها الوزير عليه، حتى أخذ خط المعتضد بقتل رجال دسه بينهم، فلما قتل سأل عنه المعتضد، فأخبره القاسم^(٣) أنه قتل، فأنكر، فأراه خطه فسكت، ومضى بعد أن بلغ السماء رفعة^(٤).

(١) ما بين الحاصرتين في الأصل، و«ف»: وأخذنا، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) هو: أبو العباس أحمد بن طلحة بن جعفر المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، أمير المؤمنين، كان عادلاً، باذلاً للمال، مصلحاً للأمور، ومحباً للعلم والعلماء، يجالسهم وينفق عليهم، بويع للخلافة سنة (٢٧٩هـ)، فنظم أمور البلاد بعد أن كانت في فوضى كبيرة، وملا خزائن البلاد بعد أن كانت خاوية، دامت خلافته عشر سنين وتسعة أشهر، وكانت وفاته سنة (٢٨٨هـ) في بغداد. انظر: الجواهر الثمين لابن دقماق (١٥٩/١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٦٣/١٣).

(٣) هو: القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي، وزير من الكتاب الشعراء، وله غزل رقيق، ولد سنة (٢٥٨هـ/٨٧٢م)، وقد استوزره المعتضد العباسي بعد أبيه عبيد الله سنة (٢٨٨هـ) ولما مات المعتضد سنة (٢٨٩هـ) قام القاسم بأعباء الخلافة وعقد البيعة للمكتفي في غيبته بالرقعة، ووزر له، وتزوج ابنه محمد بينت المكتفي، ولقب القاسم بولي الدولة، وتوفي القاسم سنة (٢٩١هـ/٩٠٤م). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/١٤).

(٤) انظر: عيون الأنباء (١٩٣/٢).

ومنه:

١٠- كنهه الهندي^(١)

من أقدم الحكماء، وأقدم القوم، يثبت ما أنزل في الأرض من خير السماء، وأعلم الكل بما ينبت من العقاقير ذوات الأسماء، أخذ عنه الأسماء أصحاب النواميس، واستمد اليونان مما وصل من كتبه إلى أرسطوطاليس، وهو الذي لا يرفع معه ذكر نابه، ولا يقاومه قدر مثابه.

قال ابن أبي أصيبعة: إنه حكيم بارع من متقدمي حكماء الهند وأكابرهم، وله نظر في صناعة الطب وقوى الأدوية والطبائع المولدات، وخواص الموجودات، وكان من أعلم الناس بهيئة العالم وتركيب الأفلاك وحركات النجوم^(٢).

وقال أبو مشعر: إن كنهه هو المتقدم في علم النجوم عند علماء الهند في سالف الدهر^(٣).

قلت: ومنها كتاب في أحداث العالم والدور في القرآن، وهذا كتاب مُجَدِّ لو وجد وهيئات!!.

(١) حكيم بارع من متقدمي حكماء الهند وأكابرهم، وله نظر في صناعة الطب، وقوى الأدوية وطبائع المولدات وخواص الموجودات، وكان من أعلم الناس بهيئة العالم وتركيب الأفلاك وحركات النجوم، وله من الكتب: كتاب أسرار الموالي، وكتاب القرانات الصغير، وكتاب القرانات الكبير، وكتاب النمو دار في الأعمار. انظر: عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (٤٧٣/١) الفهرست لابن النديم ص ٥٤٥، ٥٤٦، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٧٤.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء (٣/١٥٩).

(٣) المرجع السابق (٣/١٥٩).

ومنهم:

١١- صنجهل الهندي^(١)

وهو ثانيه في الرتبة وثالثه في صعود الهضبة، فلو نطق النجوم لما عدت شكره، أو العلوم لما عدت إلا به.

قال ابن أبي أصيبعة: كان من علماء الهند وفضلائهم، الخبيرين بعلم الطب والنجوم.

(١) كان من علماء الهند وفضلائهم، وكان خبيرًا بعلم الطب والنجوم، وله من الكتب: كتاب الموالييد الكبير، وكتاب أسرار المسائل. انظر: عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (٣/ ١٦٠) الفهرست لابن التديم ص ٥٤٦، مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١/ ٣٥٦).

ومنهم:

٢- أبو نصر الفارابي^(١)

محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان، من أهل مدينة فاراب^(٢) من مدن الترك في أرض خراسان^(٣)، وكان أبوه قائد جيش وهو فارسي المنتسب، وكان ببغداد مدة ثم انتقل إلى الشام وأقام به إلى حين وفاته.

وكان - رحمه الله - فيلسوفًا كاملاً، وإمامًا فاضلاً، بحرًا منه يُعرف، وحرًا له

(١) هو: محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان، أبو نصر الفارابي، أكبر فلاسفة المسلمين، ويُعرف بالمعلم الثاني، وهو تركي الأصل، ولد في فاراب (على نهر جيحون) سنة (٢٦٠هـ / ٨٧٤م)، وانتقل إلى بغداد، فنشأ فيها وألف بها أكثر كتبه، ورحل إلى مصر والشام، واتصل بسيف الدولة ابن حمدان. وكان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره، ويقال: إن الآلة المعروفة بالقانون من وضعه، وعرف بالمعلم الثاني لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول)، وكان زاهدًا في الزخارف، لا يحفل بأمر مسكن أو مكسب، وله نحو مائة كتاب؛ منها: كتاب الفصوص، وكتاب إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها، وكتاب آراء المدينة الفاضلة، وكتاب إحصاء الإيقاعات، وكتاب المدخل إلى صناعة الموسيقى، وكتاب جوامع السياسة. توفي أبو نصر الفارابي سنة (٣٣٩هـ / ٩٥٠م). انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٧٦/٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٤١٦/١٥) تاريخ حكماء الإسلام لليبهي ص ٣٠، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٤٠٩، إحصاء العلوم للفارابي - المقدمة.

(٢) ولاية وراء نهر سيحون، في تخوم بلاد الترك، ذات أرض سبخة. انظر: معجم البلدان (٢٥٥/٤).

(٣) إقليم في البلاد الفارسية، به العديد من المدن والبلاد العظيمة، ويجاورها بلاد سجستان والهند من الشرق، وجرجان من الغرب، وبلاد ما وراء النهر، وبلاد الترك من الشمال، وفارس وقوس من الجنوب، وكانت خراسان مبعث كثير من العلماء والقواد والمحدثين والنساک، فمنها خرج البرامكة ووزراء الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد، وخرج أيضًا عبد الله بن طاهر، وأبو مسلم الخراساني القائد الأول الذي أقام الدولة العباسية على أكتافه، وابن المقفع الكاتب المشهور. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٢١٤، معجم البلدان لياقوت الحموي (٢/٢٥٠).

يُعرف، قد أتقن العلوم الرياضية، زكي النفس، قوي الذكاء، متجنباً عن الدنيا، مقتنعاً منها بما يقوم به أوده، ويسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكان له قوة في صناعة الطب، وعلم بالأمر الكلية منها، ولم يباشر أعمالها ولا حاول جزئياتها.

قال ابن أبي أصيبعة: وحدثني سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي الآمدي^(١) - رحمه الله تعالى -: أن الفارابي كان في أول أمره ناظوراً^(٢) في بستان بدمشق^(٣)، وهو على

(١) هو: علي بن علي بن أبي علي السيف الآمدي، إمام وعامل بعلم الجدل والمناظرة، ولد سنة (٥٥٠هـ) في مدينة آمد، وطلب العلم صغيراً، ورحل في طلبه إلى العراق والكرخ، ومصر، والشام، ودمشق، ودرس على كبار علماء عصره خاصة على علماء المذهب الشافعي، ودرس المناظرة على جماعة من نصارى الكرخ، وكان يصحب ابن بنت المكفوف وأخذ عنه، وكان يدرس في مدرسة منازل العز في مصر، ناظر في مصر، ثم خرج منها إلى دمشق والشام واستوطنها وكاد أن يتولى قضاء آمد من قبل الملك الكامل لولا أنه قد توفي، وله كثير من التأليف منها: أبقار الأفكار في أصول الدين، وكتاب الحقائق في علوم الأوائل، وكتاب المأخذ على فخر الدين بن خطيب الري، وكانت وفاته سنة (٦٣١هـ). انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٦١، سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢/٣٦٤) وفيات الأعيان (٣/٢٩٣) النجوم الزاهرة (٦/٢٨٥).

(٢) الناظور أو الناظر: هو حافظ الكرّم في البستان والجمع (الناظرون) أو (النواظير). مختار الصحاح ص ٦٦٥.

(٣) عاصمة سوريا، وإحدى كبرى المدن التاريخية المهمة، وهي مدينة كأنها واحة خضراء وسط الصحراء السورية، بالقرب من البحر المتوسط، وهي إحدى كبرى المدن الصناعية والثقافية والأثرية المهمة في سوريا، فهي تشتهر بالمنسوجات، وصناعة المواد الكيميائية، وتضم أكبر المتاحف السورية، ومن أشهر الآثار بها: قلعة دمشق التي بناها الناصر صلاح الدين الأيوبي، والجامع الأموي، وغير ذلك من الآثار الإسلامية، وقد فتح المسلمون العرب دمشق سنة (٦٣٥م/١٤هـ) بعد معركة اليرموك بين الجيوش الإسلامية بقيادة خالد بن الوليد وجيوش الروم، وذلك بعد حصار دام طويلاً، كما كان لدمشق مكانة عالية في العالم الإسلامي، فخرج منها كبار العلماء؛ منهم: ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وشمس الدين الذهبي، وابن كثير، وابن أبيك الصفدي، وابن فضل الله العمري. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٢/٤٦٣) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء الأول، الروض المعطار للحميري ص ٢٣٧.

ذلك دائم الاشتغال بالحكمة والنظر فيها، والتطلع إلى آراء المتقدمين وشرح معانيها، وكان ضعيف الحال، حتى إنه كان بالليل يسهر بالمطالعة والتصنيف، ويستضيء بالقنديل الذي للحارس وبقي كذلك مدة.

ثم إنه عظم شأنه، وظهر فضله، واشتهرت تصانيفه، وكثرت تلاميذه، وصار أوجد زمانه، وعلامة وقته، واجتمع به الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي^(١) وأكرمه إكرامًا كثيرًا، وعظمت منزلته عنده، وكان له مؤثرًا.

ونقلت من خط بعض المشايخ أن أبا نصر الفارابي سافر إلى مصر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة [ورجع إلى دمشق وتوفي بها سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة] عند سيف الدولة علي بن حمدان، وفي خلافة الرازي^(٢)، وصلى عليه سيف الدولة في خمسة عشر رجلًا من

(١) هو: أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان صاحب حلب وفارس الإسلام، وحامل لواء الجهاد، كان أديبًا مليح النظم، وكان متشيعًا يحب آل البيت، أخذ حلب من الكلابي نائب الأخشيدي في سنة (٣٣٣هـ)، وقبلها أخذ واسط، وتملك دمشق مدة، ويقال: تم له من الروم أربعون وقعة أكثرها ينصرة الله عليهم، وكان يضرب بشجاعته المثل، وكانت دولته نيفًا وعشرين سنة، ومات بالفالج، وقيل: بعسر البول في صفر سنة (٣٥٠هـ). انظر: الكامل لابن الأثير (٨/٣٩٦-٣٩٩، ٥٤٤-٥٥٢) وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٤٠١-٤٠٦) البداية والنهاية لابن كثير (١١/٢٦٤)؛ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣/٢٠، ٢١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/١٨٧).

(٢) هو: أبو العباس محمد بن جعفر بن أحمد المعروف بالرازي بالله، الخليفة العشرون من خلفاء الدولة العباسية، ولد في سنة (٢٩٧هـ/٩١٠م)، ونشأ في رعاية أبيه جعفر (المقتدر) الخليفة، فدفع به وبأخيه هارون إلى الصولي، فشب الرازي أديبًا شاعرًا حسن البيان، محبًا للعلماء مجالسًا لهم، ويومع بالخلافة بعد عمه القاهر بالله سنة (٣٢٢هـ/٩٣٤م)؛ وكانت دولته واقعة تحت سيطرة الأتراك، وكانت له فضائل كثيرة منها: أنه آخر خليفة خطب يوم الجمعة، وآخر خليفة جالس النداء، وآخر خليفة له شعر مدون، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش، وتوفي سنة (٣٢٩هـ/٩٤٠م). انظر: أخبار الرازي والمقتضي للصولي (١/١٨٥) مروج الذهب للمسعودي (٢/٥١٩) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/١٤٢-١٤٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/١٠٣، ١٠٤).

خاصته.

ويذكر أنه لم [يكن]^(١) يتناول من سيف الدين من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضة في اليوم، يخرجها قيميا يحتاجه من ضروري عيشه، ولم يكن معتنياً بهيئة ولا [منزل]^(٢) ولا مكسب، ويذكر أنه كان يتغذى بهاء قلوب الحملان مع الخمر الريحاني فقط، ويذكر أنه كان في أول أمره قاضياً، فلما شعر بالمعارف نبذ ذلك، وأقبل بكلية على تعليمها، ولم يسكن إلى نحو من أمور الدنيا البتة.

ويذكر أنه كان يخرج إلى الحراس في الليل من منزله يستضيء بمصابيحهم فيما يقرؤه، وكان في علم صناعة الموسيقى وعملها قد وصل إلى غاياتها وأتقنها إتقاناً لا مزيد [عليه]^(٣)، ويذكر أنه صنع آلة غربية يسمع منها ألحان بديعة يحرك بها الانفعالات.

ويذكر أن سبب قراءته للحكمة أن رجل أودع عنده جملة من كتب أرسطوطاليس، فاتفق أنه نظر فيها، فوافقت منه قبولاً، وتحرك إلى قراءتها، ولم يزل إلى أن أتقنها فهماً، وصار فيلسوفاً بالحقيقة.

ونقلت من كلام لأبي نصر الفارابي في معنى الفلسفة قال: اسم الفلسفة يوناني، وهو دخيل إلى العربية وهو على مذهب لسانهم فيلسوفاً ومعناه: إشار الحكمة، وهو مركب من (فيل) ومن (سوفيا) ففيلاً: الإيثار، وسوفيا: الحكمة، والفيلسوف مشتق من الفلسفة، وهو على مذهب لسانهم: فيلسوفوس. فإن هذا التغيير هو تغيير كثير من الاشتقاقات عندهم ومعناه: المؤثر للحكمة، والمؤثر للحكمة هو الذي يجعل الوكد^(٤) من حياته، وغرضه من عمره الحكمة.

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) في الأصل، «ف»: عليها، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) الوكد: السعي والغرض.

وحكى أبو نصر الفارابي في ظهور الفلسفة ما هذا نصه، قال: إن أمر الفلسفة اشتهر في عصر اليونانيين بعد وفاة أرسطوطاليس بالإسكندرية^(١) إلى آخر أيام المرأة^(٢)، وإنه لما توفي بقي التعليم بحاله فيها إلى أن ملك ثلاثة عشر ملكًا، وتولى في مدة ملكهم من معلمي الفلسفة اثنا عشر معلمًا أحدهم المعروف بـ«أندرونيقوس»^(٣)، وكان آخر هؤلاء الملوك المرأة، فغلبها أغسطس الملك من أهل رومية، وقتلها، واستحوذ على الملك، فلما استقر له نظر في خزائن الكتب وصنعتها، فوجد فيها نسخًا من كتب أرسطوطاليس قد نسخت في أيامه وأيام ثاوفرسطس^(٤)، ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتبًا في المعاني

(١) هي كبرى موانئ مصر وإفريقيا، والمدينة الثانية في مصر بعد القاهرة، وقد نسبت إلى اسم الإسكندر الأكبر المقدوني الذي أمر بإنشائها سنة (٣٣٢ ق.م) وتقع في الجزء الشمالي الغربي من مصر، ويحيط بها من الشمال البحر المتوسط، ومن الجنوب بحيرة مريوط، وتبعد عن القاهرة ٢٢١ كليو مترًا تقريبًا. وفتح المسلمون الإسكندرية سنة (٢٠هـ/ ٦٤١م) بعد حصار دام ستة أشهر على يد عمرو بن العاص، وبنيت فيها مساجد عديدة: أشهرها مسجد عمرو بن العاص الذي عرف باسم مسجد الرحمة، ومسجد سليمان، ومسجد الخضر، وقد زار الإسكندرية عدد من الرحالة والمؤرخين من أهمهم: عبد اللطيف البغدادي، وأبو شامة، وسبط ابن الجوزي، وبالإسكندرية عدد من المتاحف والمزارات التاريخية مثل: المتحف اليوناني الروماني، والمتحف البحري، ومعهد الأحياء المائية، والمسرح الروماني، وتتميز الإسكندرية بكثرة حدائقها العامة، مثل: حديقة الحيوان وحديقة الورد، وحديقة قصر المنتزه. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (١/ ١٨٣) الروض المعطار للحميري ص ٥٤-٥٦، تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي لجمال الدين الشيال.

(٢) يقصد بها: كليوباترا.

(٣) هو: أحد أساتذة معهد الليقوم الفلسفي، من القرن الأول الميلادي، وقد أعد أول طبعة علمية لكتب أرسطو وثيوفراستوس، حين أمره «سلا» أن يحرر مؤلفات أرسطو حوالي سنة (٨٠م)، وكانت نسخته تشمل آثار أرسطو وآثار ثيوفراستوس أيضًا والتي بوبها بحسب الموضوعات. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١/ ٣٠١) تاريخ العلم لسارتون (٥/ ٧٤) (١٩٢، ٨٤/٦).

(٤) أحد تلاميذ أرسطوطاليس وابن خالته، وهو فيلسوف يوناني عاش في القرن الرابع ق.م، وقد أنشأ

التي عمل فيها أرسطو [فأمر أن تنسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام أرسطو]^(١) وتلاميذه وأن يكون التعليم منها وأن ينصرف على الباقي.

وحكم أندرونيقوس في تدبير ذلك وأمره أن ينسخ نسخًا يحملها معه إلى رومية [ونسخًا يبقيا في موضع التعليم في الإسكندرية، وأمره أن يستخلف معلمًا يقوم مقامه في الإسكندرية ويسير معه إلى رومية]^(٢) فصار التعليم في موضعين وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومية، وبقي بالإسكندرية إلى أن نظر ملك النصرانية في ذلك، واجتمعت الأساقفة وتشاوروا فيما يترك من هذا العلم وما يبطل؛ فرءوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية ولا يعلم ما بعده؛ لأنهم رأوا أن في ذلك ضررًا على النصرانية، وأن فيما أطلقوا تعليمه [ما]^(٣) يستعان به على نصرته دينهم، فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار وما ينظر فيه من الباقي مستورًا، إلى أن كان

مدرسة للفنون والآداب في أثينا؛ تخليدًا للذكرى أرسطو، سهاها موسيون، ويعد ثاوفرسطس من أشهر تلاميذ أرسطو، وقد خلفه على دار التعليم بعد وفاته، لكنه كان ينقد أرسطو في نقاط معينة، وقد ألف ثاوفرسطس كتابًا كثيرة وقد فقد أغلبها، ومن آثاره التي وجدت: كتاب في النبات، وقد وضع فيه أسس علم النبات، وكتاب الميتافيزيقا، وقد أثار فيه مشكلات حول نظريات أرسطو الميتافيزيقية، وبخاصة حول نظرية المحرك الأول، كما ألف مؤلفًا كبيرًا يحتوي على آراء فلاسفة اليونان السابقين في الطبيعة والله... إلخ. انظر: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٣٠٣/١) تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ١٧٤، الموسوعة الفلسفية ص ١٢٣.

(١) ما بين الحاصرتين ساقط في الأصل، المثبت من عيون الأنبياء بتحقيقنا (١٦/٤).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنبياء.

(٣) إقليم من أقاليم بلاد الروم وهي عاصمة بلادهم ومسكن ملوكهم، واسمها الأصلي رومانس، وتقع شمالي غربي القسطنطينية، وبها مكتبة بابا النصارى، وهي كثيرة المباني كثيرة الخلق وكثيرة الحمامات والتجارات، وبها يكثر الذهب والفضة، ويعدّها العلماء من عجائب الدنيا. انظر: معجم البلدان لياقوت (١٠١/٣) الروض المعطار للحميري ص ٢٧٥، ٢٧٦.

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنبياء.

(٥) في الأصل، «ف»: إلا، والمثبت من عيون الأنبياء.

الإسلام بعده بمدة طويلة فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية، وبقي بها زمناً طويلاً إلى أن بقي معلم واحد، فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب، وكان أحدهما من أهل حران^(١)، والآخر من أهل مرو^(٢)، فأما الذي من أهل مرو فتعلم منه رجلان، أحدهما: إبراهيم المروزي^(٣)، والآخر: يوحنا بن حيلان.

وتعلم من الحراني [إسرائيل]^(٤) الأسقف وقويري^(٥)، وساروا إلى بغداد فتشغل

(١) بلدة في ديار مصر العربية، سميت باسم حرّان بن أذر، أخيه إبراهيم عليه السلام، وهي مدينة الصابئين، ولهم بئتل يصلّون عليه، وهي بلدة قليلة الماء والشجر، كثيرة المباني والدور، لها سور عظيم، وبها مسجد جامع، ولها أربعة أبواب، وعدة قرى يتصلون بها. وكان عياض بن غنم رضي الله عنه قد فتحها على صلح أهل مرو، وكان بها العديد من قبائل نزار وقحطان. انظر: الروض المعطار للحميري ص ١٩١، معجم ما استعجم للبكري (٢/٤٣٥).

(٢) من أشهر مدن خراسان، بناها ذو القرنين، وفتحها بريدة بن الخصيب، وسكنها إلى أن مات، وسكنها من العلماء عبد الله بن المبارك وإبراهيم بن شماس الطالقاني، وأخرجت من العلماء: أحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، وإسحاق بن راهويه، وبها دفن عدد من الصحابة منهم: بريدة بن الخصيب، والحكم بن عمرو الغفاري، وسليمان بن بريدة. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٥٣٢، معجم البلدان لياقوت (٥/١١٢، ١١٦).

(٣) شيخ الشافعية وفقه بغداد، أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المروزي اشتغل ببغداد زمناً وصنف التصانيف وتخرج به أئمة كأبي زيد المروزي والقاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروزي مفتي البصرة، شرح المذهب وخصه، وانتهت إليه رئاسة المذهب، وفي أواخر عمره تحول إلى مصر فتوفي بها في رجب سنة (٣٤٠هـ) ودفن عند ضريح الإمام الشافعي. انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦/١١) وفيات الأعيان لابن خلكان (١/٢٦، ٢٧) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/٤٢٩، ٤٣٠).

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٥) هو: إبراهيم قويري، أبو إسحاق، عالم فاضل في علوم الحكمة والمنطق، قرأ عليه مسند بن يونس، له عدة كتب منها: تفسير قاطيغورياس مستجر، وكتاب أنالوجيث الثانية؛ وكتاب بارغينياس. انظر: عيون الأنباء (٢/٢٢٦).

إبراهيم بالدين، وأخذ قويري في التعليم، وأما يوحنا بن حيلان فإنه تشاغل أيضًا بدينه.

وانحدر إبراهيم المروزي إلى بغداد، فأقام بها وتعلم من المروزي متى بن يونان.

[وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت إلى] ^(١) آخر الأشكال الوجودية.

قال أبو نصر الفارابي عن نفسه: إنه تعلم من يوحنا بن حيلان إلى آخر كتاب البرهان. وكان يسمى ما بعد الأشكال الوجودية الجزء الذي لا يُقرأ، إلى أن قرئ بعد ذلك، وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر إلى معلمي الإسلام أن يقرأ من الأشكال الوجودية إلى حيث قدر الإنسان أن يقرأ. فقال أبو نصر: إنه قرأ إلى آخر كتاب البرهان.

وحدثني عمي رشيد الدين أبو الحسن علي بن خليفة ^(٢): أن الفارابي توفي عند سيف الدولة ابن حمدان في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وكان أخذ الصناعة عن يوحنا بن حيلان ببغداد، وكان في أيام المقتدر ^(٣)، وكان في زمانه أبو البشر متى بن

(١) ما بين الحاصرتين في الأصل: وكذلك يتعلم في آخر. والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) هو: رشيد الدين أبو الحسن علي بن خليفة بن يونس الخزرجي الأنصاري المعروف برشيد الدين أبو خليفة، عالم بالطب والرياضيات والفنون، ولد في حلب سنة (٥٧٩هـ/١١٧٣م)، ثم انتقل مع أبيه إلى القاهرة ونشأ فيها وحفظ القرآن وتعلم الحساب على يد الشيخ صالح بن أحمد المقدسي، وبدأ دراسة الطب على يد أبيه خليفة بن يونس، وقد اهتم إلى جانب الطب بدراسة بعض العلوم مثل: الفلسفة والنجوم والموسيقى، كما كان له اهتمام بالأدب، وقد ذاعت شهرته في الشام وحسن موقعه عند الملوك فولاه الملك العادل رئاسة البيمارستانيين بدمشق، وخصص له راتبًا مجزيًا. وله من الكتب: كتاب المورج المفيد في علم الحساب، وكتاب المساحة في الهندسة، وكتاب طب السوق. وتوفي رشيد الدين سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م). انظر: طبقات الأطباء (٤٧٧/٣) وروضات الجنان ص ٤٨٧، معجم المؤلفين لكحالة (٨٧/٧) إيضاح المكنون (٢/٢٦٧، ٣١١).

(٣) هو: الخليفة المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتض بالله أحمد بن أبي أحمد طلحة ابن المتوكل، بُوع بعد أخيه المكتفي في سنة (٢٩٥هـ)، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وما ولي أحد قبله أصغر منه، وانخرم نظام الإمامة في أيامه، وصغر منصب الخليفة، وقد خُلع في أوائل دولته، وبايعوا ابن المعتز،

يونان^(١)، وكان أسن من أبي نصر، وكان أبو نصر أحدَ ذَهَنًا منه، وأعذب كلامًا، وتعلم أبو البشر متى من إبراهيم المروزي، وتوفي أبو البشر في خلافة الرازي فيما بين سنة ثلاث وعشرين إلى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. وكان يوحنا بن حيلان وإبراهيم المروزي قد تعلمًا جميعًا من رجل من أهل مرو.

وقال الشيخ محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني^(٢) في معلقاته: إن يحيى بن عدي^(٣)

ثم لم يتم ذلك، وقتل ابن المعتز وجاعة، ثم إنه خلع مرة ثانية في سنة سبع عشرة وبذل خطة بعزل نفسه، وبايعوا أخاه القاهر، ثم بعد ثلاث سنوات أعيد المقتدر، ثم في المرة الثالثة قتل. وكان جيد العقل صحيح الرأي، ولكنه كان مؤثرًا للشهوات. انظر: مروج الذهب للمسعودي (٥٠١/٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢١٣-٢١٩/٧) البداية والنهاية لابن كثير (١٦٩/١١) الكامل لابن الأثير (٨/٨) سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٣/١٥).

(١) هو: أبو بشر متى بن يونس، وهو يوناني من أهل ديرقني، ممن نشأ في أسكول مرماري، قرأ على قويري وعلى دوفيل وبنامين، وعلى أبي أحمد بن كريب، وله تفسير من السرياني إلى العربي، وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره، وكان نصرانيًا، ومن كتبه: كتاب نقل اعتبار الحكم وتعقب المواضع، وكتاب نقل كتاب البرهان، وكتاب نقل كتاب الشعر. انظر: الفهرست لابن النديم ص ٥٣٤، عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (١/٢٣٣).

(٢) هو: أبو محمد سليمان بن طاهر بن بهرام السجستاني، حكيم فيلسوف، ومصنف كتاب صوان الحكمة، أكثر مؤلفاته في المعقولات؛ منها: رسالة في اقتصاص طرق الفضائل، ورسالة في المحرك الأول، ومن كلامه: الحسود لا ترجي الاستمتاع به وكيف ترجي الاستمتاع من مضرتة. تنال القريب فضلًا عن الغريب، وقد صحب أبا جعفر بن بابويه ملك سجستان. انظر: تاريخ الحكماء، ص ٣٥٥-٣٥٩.

(٣) هو: أبو زكريا بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي، أحد الفلاسفة الحكماء، وعالم بالمنطق، ولد في تكريت سنة (٢٨٠هـ/٨٩٤م)، وسكن بغداد، وتوفي بها، وله من الكتب: رسالة في تحليل القياسات، ورسالة فيما تحقق من اعتقاد الحكماء، وشرح مقالة الإسكندر، وتهذيب الأخلاق، وتوفي يوم الخميس الثالث عشر من ذي الحجة سنة (٣٦٤هـ) ودفن في بيعة القטיפية في بغداد. انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٤١٣، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفاي ص ٢٣٧.

أخبره أن متى قرأ إيساغوجي^(١) على إنسان نصراني، وقرأ قاطيغوريوس^(٢) وبارمينياس^(٣) على إنسان يسمى روبييل^(٤)، وقرأ كتاب القياس على أبي يحيى المروزي^(٥).

وقال القاضي صاعد بن أحمد بن صاعد في كتاب التعريف بطبقات الأمم: إن الفارابي أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن حيلان المتوفي في مدينة السلام في أيام المقتدر، فبز جميع أهل الإسلام فيها، وأربى عليهم في التحقيق بها، وشرح غامضها، وكشف

(١) إيساغوجي لفظ يوناني معناه: المدخل؛ أي المدخل إلى المنطق.

(٢) قاطيغوريوس: هذا الكتاب الأول من كتب أرسطو في المنطق، وأما إيساغوجي فإنه لفورفوريوس صنفه، مدخلها إلى كتب المنطق ومعنى قاطيغوريوس باليونانية «يقع على المقولات» والمقولات عشر، وتسمى القاطيغوريات، وهي الجوهر، والكم، والكيف، والإضافة، ومتى، وأين، والوضع، وله أو «ذو»، وينفعل وأصله الانفعال، والمقولة العاشرة يفعل، وهو التأثير في الشيء الذي يقبل الأثر، مثل: التسخين، أما الإنفعال فهو مثل التسخن. انظر عبد الأمير الأعسم، المصطلح الفلسفي عند العرب ص ٢١٧-٢١٩.

(٣) بارمينياس: الصحيح باري أرمينياس، وهو الكتاب الثاني؛ ومعناه يدل على التفسير، فمما يذكر فيه الاسم، والكلمة، والرباطات، فالاسم هو كل لفظ مفرد يدل على معنى ولا يدل على زمانه المحدود؛ كزيد وخالد. والكلمة التي يسميها أهل اللغة العربية «الفعل»؛ وحدها عند المنطقيين: كل لفظ مفرد يدل على معنى، ويدل على زمانه المحدود، مثل: مشى، ويمشي، وسيمشي، وهو ماشي. والرباطات هي التي يسميها النحويون حروف المعاني، وبعضهم يسميها الأدوات. مرجع سابق ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٤) هو: الحسن بن يحيى بن روبييل الأبار الدمشقي، يكنى بأبي محمد، من أهل مدينة دمشق، وكان رجلاً صالحاً نفيًا شاعرًا، فصيحًا، له أشعار جيدة في مدح الأمراء والحكام. وكانت وفاته سنة (٥٣٢هـ) وقيل: (٥٣١هـ). انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٩٧/٤) أعلام الفكر في دمشق لإحسان بنت سعيد خلوصي ص ١١٩.

(٥) كان طبيبًا بمدينة السلام، قرأ عليه أبو بشر متى بن يونس، وكان فاضلاً، وكان سريانيًا، وجميع ما له من المنطق وغيره بالسريانية. انظر: الفهرست للنديم ص ٥٣٤، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٨٤.

سرّها، وقرب تناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة، منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل، وإيجاء التعاليم، وأوضح القول فيها [على^(١)] مواد المنطق الخمس^(٢)، وإفادة وجوه الأتفاع بها، وعرف طرق استعمالها، وكيف تصرف صورة القياس^(٣) في كل مادة منها، فجاءت كتبه في ذلك الغاية القصوى، الكافية والناحية الفاضلة.

ثم له بعد ذلك كتاب شريف في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه، لا يستغني طلاب [العلوم]^(٤) كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه.

وله كتاب في أغراض أفلاطون وأرسطوطاليس، يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة والتحقيق بفنون الحكمة، وهو أكبر عون في تعلم طريق النظر، وتعرف وجوه الطلب، اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علمًا [علمًا] ويّين كيف التدرج من بعضها إلى بعض [شيئًا فشيئًا].

ثم بدأ بفلسفة أفلاطون، فعرّف غرضه منها، وسمي تواليفه فيها، ثم أتبع ذلك بفلسفة أرسطو، فقدم له مقدمة جليّة، عرّف فيها بتدرجه إلى فلسفته، ثم بدأ بوصف أغراضه في تواليفه المنطقية والطبيعية، كتابًا كتابًا، حتى انتهى به القول في النسخة الواصلة إلينا إلى أول العلم الإلهي والاستدلال بالعلم الطبيعي عليه، ولا أعلم كتابًا

(١) في «ف»: عن.

(٢) يقصد الكليات الخمس وهي: الجنس، والنوع، والفصل، والخاصة، والعرض العام.

(٣) القياس: عبارة عن قول مؤلف من أقوال يلزم عن تسليمها - لذاتها - قول آخر، فإن كان المطلوب

أو نقضيه مذكورًا فيه سمي استثنائيًا، وإن كان غير مذكور فيه - بالفعل - سمي اقترائيًا. انظر: المين

في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين ص ٨١، التعريفات ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٤) في الأصل: العقول، والمثبت من «ف».

أجدى على طالب فلسفة منه؛ فإنه يعرف بالمعاني المشتركة لجميع العلوم والمعاني المختصة بعلم علم منها، ولا سبيل إلى معاني قاطيقورياس وكيف هي بين الأوائل الموضوعات لجميع العلوم.

ثم له بعد ذلك كتابان في العلم الإلهي والعلم المدني، كتابان لا نظير لهما؛ أحدهما المعروف بـ«السياسة المدنية»، والآخر المعروف بـ«السيرة الفاضلة»، عرف فيهما بجمل عظمة في العلم الإلهي على مذهب أرسطوطاليس في المبادئ الستة الروحانية، وكيف يأخذ عنها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة، وعرف فيها مراتب الإنسان وقواه النفسانية، وفرق بين الوحي والفلسفة، ووصف أصناف المدن الفاضلة، واحتياج المدينة إلى السيرة الملكية والنواميس النبوية.

أقول: وفي التاريخ أن الفارابي كان يجتمع بأبي بكر بن السراج^(١) يقرأ عليه صناعة المنطق، وكان الفارابي يشعر أيضًا، وسأل بعضهم أبا نصر: أيما أعلم أنت أم أرسطو؟ فقال: لو أدركته لكنت أكبر تلامذته! ويذكر عنه أنه قال: قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة وأرى أنني محتاج إلى معاودته.

ومن شعر أبي نصر: [البسيط]

لما رأيت الزمان تُكسِّمًا وليس في الصحبة انتفاع

(١) هو: أبو بكر محمد بن السري البغدادي النحوي ابن السراج، إمام النحو، صاحب المبرد، قد انتهى إليه علم اللسان، أخذ عنه أبو القاسم الزجاجي، وأبو سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى الرُّماني، وغيرهم، وله شعر رائع، وكان مكبًا على الغناء واللذة، وله كتب كثيرة؛ منها: أصول العربية، وشرح سيوبه، واحتجاج القراء، والهواء والنار، والجمال، والشعر والشعراء، وتوفي سنة (٣١٦هـ). انظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ١١٢-١١٤، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣١٩/٥، ٣٢٠) الأنساب للسمعاني (٢٩٥/أ) وفيات الأعيان لابن خلكان (٣٣٩/٤) إنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي (١٤٥-١٤٩).

كل رئيس به ملال وكل رأس به صداع
لزمت بيتي وصنت عرضاً به من العزة انتفاع^(١)
أشرب مما اقتنيت راحاً لها على راحتي شعاع
لي من قواريرها ندامى ومن قراقيرها سماع
وأجتبني من حديث قوم قد أقفرت منهم البقاع

وقال أيضاً: [المتقارب]

أخي خُلّ حيز ذي باطل وكن للحق سائق في حيز
فما الدار دار خلود لنا ولا المنى في الأرض كالمعجز^(٢)
وهل نحن إلا خطوط وقعن على قره وقع مستوفز
ينافس هذا لهذا على أقل من الكلم الموجز
محيط السموات أولى بنا فكم ذا التزاحم في المركز
ومنهم:

١٣- يحيى بن عدي

أبو زكريا المنطقي، حكيم علمه والودق شينان، وقلمه والبرق سيان، كان أول حاله علماً في ملته ومعلماً لأهل قبلته، وعرف بالمنطق مع أنه بعض علومه، ومن جملة ما دخل من الخصائص في عمومته، وأضاءت له من الأدب لمع تمت فضائله، ونمت هلاله، والبدور الكوامل متضائلة.

(١) في عيون الأنباء: اقتناع.

(٢) في عيون الأنباء: بالمعجز.

قال ابن أبي أصيبعة: انتهت إليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته، وكان أوحده دهره في مذهب النصارى اليعقوبية، وكان كثير الكتابة، وكتب تفسير الطبري مرتين. وقال: لعهدي بنفسي أكتب في اليوم واللييلة مائة ورقة وأقل^(١)!!

وأوصى أن يكتب على قبره: [الخفيف]

رب ميت قد صار في العلم حيًّا وميتي قد مات جهلاً وعيًّا
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلودًا لا تعدوا الحياة في الجهل شيئاً^(٢)

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٣٣-٢٣٥).

(٢) مرجع سابق (٢/ ٢٣٤).

ومنهم:

٤١- أبو بكر محمد بن زكرياء الرازي^(١)

لم يبق علم ما أتى منه بجذوة، ولا عالم إلا ولديه حبة، تفنن في أنواع العلوم فقراً منها ما أقر حمل خاطره، وملاً إناء ماطره، وكان فكره المقترح شرر زناد، ونظره الملتصق شرك أزدیاد، وفضله المنوع جم المذاهب، وجماع المحاسن الذواهب، وأكثر النقل ية ف عنده سلسلته، وأعمق المشكل به تعرف مسألته.

قال ابن أبي أصيبعة: مولده و منشؤه بالري^(٢) وسافر إلى بغداد وأقام بها مدة، وكان

(١) هو: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، فيلسوف وطبيب عربي من أهل بغداد، والري، ولد سنة (٢٥١هـ) في الري، ورحل في طلب العلم صغيراً، وكانت بغداد هي مدرسته الأولى تلقى بها علومه على كبار علمائها، ومارس بها الغناء ونظم الشعر، ثم أخذ في تلقي علوم الطب والكيمياء، حتى أصبح من كبار أطباء عصره شهرة وعلمًا، وأصبح رئيساً لبيهارستان بغداد في عهد المقتدر، وكان الرازي فيلسوفاً مقتدرًا إلا أنه اتصل ببعض أصحاب المذاهب الغريبة التي كانت سائدة في عصره، مثل: الحلاج، والقرامطة، وكان ينتقد مذهب أهل السنة والمعتزلة، ويعيب على الأولياء والأنبياء، وعلماء عصره كالبيروني وستان بن ثابت بن قرة، وابن ميمون القرطبي، والفارابي وابن الهيثم، وغيرهم، وكان أبو بكر الرازي كثير التأليف في الطب والكيمياء وسائر العلوم، ومن هذه المؤلفات: كتاب الحاوي في الطب، وكتاب الطب المنصوري، وكتاب الفصول أو المرشد، وكتاب المدخل إلى الطب، وكتاب براء ساعة، وغيرها من المؤلفات التي زادت على ٢٣٠ كتاباً في مختلف العلوم، وكانت وفاته سنة (٣١٣هـ). انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ١٧٨، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٥٤/١٤) وفيات الأعيان لابن خلكان (١٥٧/٥) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢٦٣/٢) مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٤٣٧/١) طبقات الحكماء والأطباء لابن جليل ص ٧٧.

(٢) مدينة من مدن الفرس بالقرب من نيسابور وقزوين، قيل: بناها فيروز بن يزدجر وسماها رام فيروز، وكانت كثيرة البناء والبساتين، وبها من الخنفة والشافعية والشيعة والسنة، ووقع بينهم كثير من

نهما في العلوم العقلية مشتغلاً بها، وتعلم الأدب ونظم الشعر. قال: وكان سبب تعلمه الطب أنه لما أتى مدينه السلام دخل البيمارستان العضدي^(١) فرأى الصيدلاني به فسأله عن الأدوية ومن كان المظهر لها؟ فقال له: إن أول ما عزف منها: حي العالم^(٢)، وذلك أن رجلاً كان به ورم حار في ذراعه، فلما أشفي منه ارتاح إلى الخروج إلى شاطئ نهر، فحمل إليه وكان عليه نباته، فوضع يده عليه تبرداً به، فخف ألمه بذلك، فاستطال وضعها عليه ثم أصبح ففعل ذلك، فبرأ، فلما رأى الناس سرعة برئه علموا أنه إنما كان لما وضع يده عليه فسموه: حياة العالم ثم جفوه. ثم لم يزل الرازي يسأل حتى حسن له التعلم فتعلم. قال: والذي صح عندي أن الرازي كان أقدم زماناً من عضد الدولة بن بويه^(٣)، وإنما كان

الحروب فيها، وفتحها عروة بن زيد الخيل في عهد عمر بن الخطاب بعد فتح نهاوند سنة (٢٠هـ) ثم بنى بها المهدي في خلافة أبي جعفر المنصور المباني، وأقام حولها خندقاً ومسجداً وأحاطها بسور ثم عمله سنة (١٥٨هـ)، ومما ينسب إليها: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، وعبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن أبي حاتم الرازي، وفخر الدين الرازي، وغيرهم كثير. انظر: معجم البلدان لياقوت (١١٦/٣) الروض المعطار للحميري ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(١) من أشهر بيهارستانات الدولة العباسية وأوسعها، بناه عضد الدولة بن بويه في مدينة بغداد، في الجانب الغربي منها وجهز له الأدوية والعقاقير، وما يلزم له من الخدم والوكلاء والأطباء وأوقف عليه الأموال الكثيرة، ومن أشهر الأطباء الذين عملوا به: أبو الحسن بن سنان بن ثابت بن قرة، وأبو الحسن هبة الله بن صاعد بن إبراهيم بن التلميذ، وهارون بن صاعد بن هارون الصائبي، وحسون بن علي المرزبان، وغيرهم. انظر: العلوم الإسلامية في العصور الإسلامية، عمر رضا كحالة ص ١١٧، مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١/٥٤٢).

(٢) حي العالم: نبات شجري لا يزيد ارتفاعه عن ثلاث أقدام، ينبت في المناطق الحارة، أوراقه لحمية ثخينة، وساقه مستقيمة شقراء اللون تستعمل في العلاج ولا تؤكل. انظر: المنصوري في الطب ص ٥٩٩.

(٣) هو: السلطان عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو ابن السلطان ركن الدولة حسن بن بويه الديلمي تملك بفارس بعد عمه عماد الدولة، ثم كثرت بلاده واتسعت مملكته، وصار إليه المتنبي ومدحه، وكان بطلاً شجاعاً مهيباً نحوياً أدبياً عالماً، وله صنف أبو علي الفارسي كتابي الإيضاح والتكملة، تملك العراق خمسة أعوام ونصفاً، وكان يقظاً شهماً، له عيون وقصاد، وكان شيعياً جليلاً، وقد أنشأ

تردده إلى المارستان قبل أن يجدد^(١).

وقال ابن جليجل: إن الرازي كان في ابتداء أمره يضرب بالعود، ثم أكب على النظر في الفلسفة والطب فبرع براعة المتقدمين.

وقال ابن صاعد: إنما لم يوغل في العلم الإلهي ولا فهم غرضه الأقصى فاضطرب رأيه، وتقلد آراء سخيفة، وانتحل مذاهب خبيثة، وذم أقوامًا لم يفهم عنهم ولا اهتدى لسبيلهم.

[وكان ينتقل في البلدان]^(٢)، وكان كريماً، متفضلاً، باراً بالناس، محسناً إلى الفقراء، يجري عليهم الخيرات^(٣) الواسعة، ويمرضهم، وكان لا يفارق التسويد والتبييض، وكان في بصره رطوبة لكثرة أكل الباقلاء، ثم عُمي آخر عمره.

قال التنوخي: إن غلاماً قدم الري وهو ينث الدم، فأحضر إليه الرازي، فلم تظهر له علائم سل ولا قرحة، فسأله: متى بدأ به المرض؟ فقال: من الطريق. فسأله عن المياه التي شربها في طريقه؟ فأخبره أنها من الصهاريج ومستنقعات الأرض، فوقع في نفس الرازي أنه ابتلع علقه وأن نفث الدم منها، فقال له: إذا كان في غد جئتك فداويتك ثم لا أنصرف عنك حتى تبرأ بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعوني فيك بما أمرهم. فقال: نعم. فلما أصبح أتاه بطحلب كثير وقال له: ابتلع هذا! فابتلع يسيراً، ثم قال: لا أستطيع. فأمر

بيغداد البيمارستان العضدي، وقد مات بعلة الصرع سنة (٣٧٢هـ)، وعند وفاته قرأ قوله تعالى: {ما أغنى عني مالي} هلك عني سلطانيه. انظر: يتيمة الدهر للشعالبي (٢/٢١٦-٢١٨) وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/٥٠-٥٥) بغية الوعاة للسيوطي (٢/٢٤٧، ٢٤٨) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/٢٤٩).

(١) عيون الأنباء (٣/١٤).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٣) في «ف»: الجرايات.

الغلمان بأن ينيموه على قفاه ويفتحوا فاه، ثم جعل يبليعه الطحلب كرهًا ويطلبه ببليعه والرجل يستغيث! والرازي لا يكف إلى أن ذرع الرجل القيء، فقذف ما في جوفه، وإذا به قد اعتلقت به علقه؛ لأن الطحلب لما وصل إليها [قرمت]^(١) إليه بالطبع والتفت عليه، ثم قام الرجل معافي.

وقال ابن معروف^(٢): كان الرازي يقول: أنا لا أسمى فيلسوفًا إلا من علم صناعة الكيمياء؛ لأنه يكون قد استغنى عن الناس وتنزه عما في أيديهم. وحكي أن الوزير أكل عند الرازي أطعمة استطابها فتحيل في مشترى طباعته ثم لم يجد بطبيخها له ما في نفسه فسألها عن السبب؟ فأخبرته أن قدور الرازي وماعونه كله ذهب وفضة! فسأله أن يعلمه علم الكيمياء، فأنكره فخنقه بوتر.

ومن كلامه قوله: الحقيقة في الطب غاية لا تدرك [والعلاج بما تنصه الكتب دون أعمال الماهر الحكيم برأيه خطر]^(٣).

وقوله: العمر يقصر على الوقوف على فعل كل نبات في الأرض، فعليك بالأشهر مما أجمع عليه واقتصر على ما جربت.

وقوله: الأمراض الحارة أقتل من الباردة لسرعة حركة النار.

(١) ما بين الحاصرتين في الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) هو: أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف البغدادي، شيخ المعتزلة سمع من ابن حامد الحضرمي ومحمد بن نوح وابن نيروز الأنطاقي وكان من أجداد الرجال وألباء القضاة، روى عنه أبو محمد الخلال، والعتيقي وعبد الواحد بن شيطا، وتوفي سنة (٣٨١هـ). انظر: يتيمة الدهر للشعالبي (٣/١٠٥-١٠٩) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٠/٣٦٥-٣٦٨) ميزان الاعتدال لابن حجر العسقلاني (٣/٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/٤٢٦، ٦٢٧).

(٣) ما بين الحاصرتين في الأصل، «ف»: والعلاج بالكتب دون عمل الحكيم الماهر برأيه خطر، والمثبت من عيون الأنباء.

وقوله: ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً الصحة وإن كان غير واثق بها، فمزاج البدن تابع لأخلاق النفس.

وقوله: ينبغي للمريض أن يقتصر على واحد [ممن]^(١) يثق به من الأطباء فخطؤه في جنب صوابه يسير جداً.

وقوله: من يتطبب عند كثير من الأطباء يوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم.

وقوله: بانتقال الكواكب الثابتة في الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات.

وقوله: إن استطاع الحكيم أن يعالج [بالأغذية]^(٢) دون الأدوية فقد وافق السعادة.

ومن شعره: [الطويل]

لعمري ما أدري وقد آذن البلى [بعاجل]^(٣) ترحال إلى أين ترحالي
وأين محل الروح بعد خروجه من الهيكل المنحل والجسد البالي

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط في الأصل: يعالج، والمثبت من «ف»، وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

ومنهم:

٥١- أبو سليمان السجستاني^(١)

حكيم حُكي من فضله العجائب، وجيء من سجله بالسحائب، ويعد في العلم
الجم قليه، وسعد بالسقيا به بعيدة وقريبه، انبعث طبه في العلل انبعث النفوس في
الأبدان، والشموس في البلدان، ولم يزل حتى اطلع بعلم، واضطلع من كل مهم،
فاستعطفت الأجسام أرواحها، واستكفت المنايا رماحها، فأضحت به الصحة مضمونة،
والسلامة محققة وكانت مظنونة، اللهم إلا ما آن لبقية أنظرت، وآجال بها علمت نفس ما
أحضرت، وتلك العقرب التي لا يتوقى لها ديب، والداء الذي أعيا دواؤه كل طبيب.

قال ابن أبي أصيبعة: هو أبو سليمان محمد بن بهرام المنطقي، كان متقناً للعلوم
الحكمية، مطلعاً على دقائقها، واجتمع بيحيى بن عدي وأخذ عنه، وكان له نظر في الأدب
والشعر.

ومنه قوله: [الكامل]

لا تحسدن على تظاهر نعمة	شخصاً تبيت له المنون بمرصد
أوليس بعد بلوغه آماله	يفضي إلى عدم كأن لم يوجد؟
لو كنت أحسد ما تجاوز خاطري	حسد النجوم على «البقاء السرمدي» ^(٢)

(١) انظر: ترجمته في أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٨٥، تاريخ الحكماء للشهرزوري
ص ٣٠٣، سير أعلام النبلاء (٣٠٣/١٣) عيون الأنباء (٣/٥١، ٥٢).

(٢) في عيون الأنباء: بقاء مرصد.

وقوله: [الكامل]

الجوع يدفع بالرغيف اليابس والموت أنصف حين ساوى حكمه
فعلام أكثر حسرتي ووساوسي بين الخليفة والفقير البائس

وقوله: [الخفيف]

أصبحت رمة تزايل عنها وتلاشى كيانها الحيواني
فصلها الجوهرى والعرضي والحواس الخمس التي كن فيها
وأودى بنيانها^(١) المنطقي ذهبت^(٢) تلكم الصفات جميعاً
ولإدراكهن فعل وحسي ومحال أن يذهب^(٣) الأزلي

(١) في عيون الأنباء: تميزها.

(٢) في عيون الأنباء: بطلت.

(٣) في عيون الأنباء: يبطل.

ومنهم:

٦-١ ابن الحُمَار^(١)

وهو أبو الخير الحسن بن سوار بن بابا [بن بهنام]^(٢)، طبيب شفي طبه الأمراض، وكفي قربه منافياً للأعراض، لم يوجد في كلامه الفضول ولم يوجد إلا الفصول، وقع بخدمه الصائب على [الوجع]^(٣)، [استعاد ذاهب الصحة وارتجع، وأحسن الاستدلال بالعلامات]^(٤)، واستقلال^(٥) بعلاج من حيا ومات، ولم يزل وما إن طر شاربه، ولا استقل بحبله غاربه، مكباً على الطلب، وقد وكل به طرفاً لا يهجع، وإنسان عين بسوى فقد النظر لا يفجع، حتى انتقلت إلى أحناء صدره تلك الأوقار، وبقي على هذا حتى تقضت تلك اللبانات والأوطار.

قال ابن أبي أصيبعة: كان نصرانياً عالماً بأصول صناعة الطب وفروعها، خبيراً

(١) هو: أبو الخير الحسين بن سوار بن بابا بن بهنام، من علماء المنطق، وكان على معرفة كبيرة بالعلوم، وكان نصرانياً ثم أسلم، وحمله السلطان محمود بك سبستكين إلى غزنة، ولد سنة (٣٣١هـ) وله العديد من الكتب منها: كتاب تفسير إيساغوجي، وكتاب سيرة الفيلسوف، وكتاب الوفاق بين رأي الفلاسفة والنصارى، وكتاب اللينس في الكتب الأربعة في المنطق الموجود من ذلك، وكتاب الصديق والصدقة، وكتاب الحوامل. ومن كلامه: من طلب ما في أيدي الناس حقروه، ومن صنع خيراً أو شراً فبنفسه ابتداءً. انظر: تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ٢٦، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٢٩٦، الماثور من كلام الأطباء لأحمد عيسى بك ص ٢٧، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١١٣، ١١٤، الفهرست ص ٥٣٦.

(٢) ما بين الخاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٣) ما بين الخاصرتين في الأصل: الرجوع، والمثبت من «ف».

(٤) ما بين الخاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٥) في «ف»: الاستقلال.

بغوامضها، كثير الدراية لها، ماهرًا في الحكمة، وكان في نهاية الذكاء والفطنة^(١).

قال ابن رضوان^(٢) في «حل شكوك الرازي على جالينوس»^(٣) ما هذا نصه: كما فعل في [عصرنا]^(٤) هذا الحسن بن بابا المعروف بابن الخمار، فإنه وصل بالطب إلى أن قيل له: محمود الملك^(٥) للأرض، وكان محمود عظيمًا جدًّا، وذلك أن هذا الرجل فيلسوف

(١) عيون الأنباء (٣/٥٣).

(٢) هو: أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر المصري، فيلسوف ماهر، كان صبيًّا فقيرًا، يتكسب بالتنجيم، فاشتغل في الطب ففاق فيه، وأحكم الفلسفة ومذهب الأوائل، وكان أبوه خبازًا وقد خدم الحاكم بأمر الله بالطب فصيره رئيس الأطباء، وكان مسلمًا موحدًا، ومن أقواله: «أفضل الطاعات النظر في الملكوت وتمجيد المالك»، وله كتب كثيرة: منها: مقالة في رفع المضار بمصر عن الأبدان، ورسالة في علاج داء الفيل، ورسالة في الفالج، ورسالة في بقاء النفس بعد الموت، وتوفي ابن رضوان سنة (٤٥٣هـ). انظر: تاريخ الحكماء للشهرزوري ص ٤٤٣، ٤٤٤، عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (٣/٤٠٢-٤٢٠) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣/٢٩١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/١٠٥).

(٣) هو: جالينوس الطبيب كان بعد المسيح بنحو مائتي سنة، ولد سنة (١٣٠م) ودرس الطب في اليونان وآسيا الصغرى والإسكندرية، ثم أقام بروما حيث اشتهر شهرة فائقة، وكان أحد الأطباء الثمانية المقدمين والمرجوع إليهم في صناعة الطب، وقد جدد في علم أبقراط، وكان شارحًا لكتبه التي درسها وغمضت على أهل زمانه، كما برع في الفلسفة أيضًا وجميع العلوم الرياضية وهو ابن سبع عشرة سنة، وأفتى وهو ابن أربع وعشرين سنة، وكانت له دراسات عديدة فقدت معظمها، فلم يبق من مؤلفاته الطبية سوى ثلاثة وثلاثين مؤلفًا، منها: الفرق، الصناعة الصغيرة، العظام، ومن حكمه قوله: «من رغب عن الحقائق نافس في العظام» وتوفي جالينوس سنة (٢٠٠م). انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١/٣٠٧-٣٣٧) تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٢٧٤، طبقات الأطباء والحكماء لابن جلدجل ص ٤١، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ٨٥، مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١/٧٦).

(٤) في الأصل، «ف»: عصرها، والمثبت من عيون الأنباء.

(٥) هو: محمود بن سبكتكين الغزنوي السلطان يمين الدولة أبو القاسم، أحد كبار القادة، امتدت سلطته من أفاصي الهند إلى نيسابور، وكانت عاصمته غزنة، وفيها ولادته ووفاته، مات أبوه

حسن العقل، حسن المعرفة، حسن السياسة لفقهاء الناس، ورؤساء العوام، والعظماء، والملوك، وكان إذا دعاه زاهد مشى إليه راجلاً، وقال له: جعلت هذا المشي كفارة لمروري إلى أهل الفسق والجبايرة. وإذا دعاه السلطان ركب إليه في زي الملوك والعظماء، حتى ربما حجه ثلاثمائة غلام، يركب الخيل الجياد بالملابس البهية، وفي الصناعة حقها في اللين للضعفاء، والتعاضم على العظماء، وهذه كانت طريقة أبقرات^(١) وجالينوس وغيرهما من الحكماء^(٢).

سبكتكين سنة (٣٨٧هـ)، وخلف ثلاثة أولاد؛ هم: محمود، وإسماعيل، ونصر، وجرت بينهم حروب ظفر بها محمود واستولى على الإمارة سنة (٣٨٩هـ)، وأرسل إليه القادر بالله العباسي خلعة السلطنة، فقصده بلاد خراسان فاستلب مكلها من أيدي السامانية، وصمد لقتال الترك، وجعل دأبه غزو الهند مرة كل عام، فافتتح بلاداً شاسعة، واستمر إلى أن أصيب بمرض عاناه مدة سنتين حتى مات وكانت وفاته سنة (٤٢١هـ / ١٠٣٠م). انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٩/ ١٣٩) البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٢٧) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ٨٤) تاريخ ابن خلدون (٤/ ٣٦٣).

(١) هو: أبقرات بن إيراقليدس بن أبقرات بن غنوسيد يقوس، ولد في جزيرة كوس حوالي سنة (٦٤٠ق.م)، وهو من أشرف أهل بيته وأعلامهم نسباً، وهو الذي تكلم في الطب وألف فيه الكتب الكثيرة، وكان فاضلاً متأهلاً ناسكاً يعالج المرضى بالمجان، وقد نظر أبقرات في صناعة الطب ووجدتها كادت تبيد، لقلّة الأبناء المتوارثين لها من آل اسقليوس، رأى أن يذيعها في جميع الأرض وينقلها إلى سائر الناس حتى لا تبيد، ومن كتبه: كتاب الفصول، وتقدمة المعرفة، والأمراض الحادة، والأجنة، والغذاء. انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ١٩٦-٢٠٢، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١/ ٢٠٢-٢٢٤) طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل ص ١٦-٢٠، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٦٤.

(٢) عيون الأنباء (٣/ ٥٣، ٥٤).

ومنهم:

١٧- أبو الفرج بن هندو^(١)

منقب عن البيان، يكشف خبائه ويبعث له في كل معنى نشاء، وينث في روحاً كأنه يحس لكل فكرة نباءه، ويفتق أحكام الأدب فقل كزرع أخرج شطأه، له سر دقيق فتن الناس، وخمر رحيق يذهب بالبأس، لا كالتى تدخل بالالتباس على الحواس، وسحر يستلذه الذوق وينقطع عنده القياس، لو أن للذهر رفته لان قاسيه، أو للجاني ذكر العهد ناسيه، أو للأمل ألقى إلى قبضة اليد مراسيه، وما أعيره شهادة، ولا أميره الحسنى إلا امتاز بزياده.

وكانت بضاعته من الطب غير مزجاة، وصناعته تحقق للمتطبب ما يترجاه، لفضل تجلبب بشعاره، وجلب زيادة الحكمة إلى إشعاره، وعلو همته إلى علومها، وقراءة مادة كل علم [على]^(٢) عليهمها، إلى أن جنى ثمر الفنون، وجرب كل شيء ولم يقدر على دفع المنون، وكان له بالحزم في صناعة الكتابة ارتزاق، وبثت بضاعة أرزاق، إلا أنه لم يقدر عليه بها

(١) هو: علي بن الحسين بن محمد بن هندو، أبو الفرج الحكيم، كان أديباً فاضلاً حكيماً من تلامذة أبي الخير بن سوار، نشأ بنيسابور، وكان من كتّاب الإنشاء في ديوان عضد الدولة، وتوفي بجرجان سنة (٤٢٠هـ/١٠٢٩م)، وله كتب منها: الكلم الروحانية من الحكم اليونانية، وأنموذج الحكمة، والرسالة المشرقية ومفتح الطب، كما له بعض الأشعار منها قوله في الخث على الحركة والسعي:

خليلي ليس الرأي ما تريان فشانكما أني ذهبـت لشأنـي
خليلي لولا أن في السعي رفعة لما كان يوماً يدأب العمراني

انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٣/٥٧-٦٤) تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوي ص ٣١٤، تاريخ الحكماء لإسلام البيهقي ص ٩٣، مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٢/٤٦٦).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

قوته، وما كان للمرء لا يفوته، وبقي على تعلاته واختلاف علاته، إلى أن أتاه هادم
الأعمار، ووفاه قادم الموت مبسوط الأعذار.

قال ابن أبي أصيبعة: هو الأستاذ السيد الجليل^(١) أبو الفرج علي بن الحسين بن
هندو، من الأكابر المتميزين في علوم الحكمة والأمور الطبية والفنون الأدبية، له الألفاظ
الرائقة والأشعار الفائقة، والتصانيف المشهورة، والفضائل المذكورة، وكان يخدم
بالكتابة، واشتغل على ابن الخمار، وكان من أفضل المشتغلين عليه^(٢).

وقال الثعالبي^(٣) في تمة اليتيمة فيه: هو من ضربه في الآداب والعلوم بالسهم
الفائز، وملكه رق البراعة في البلاغة، فرد الدهر في الشعر، وواحد أهل الفضل في صيد
المعاني الشوارد، ونظم القلائد وترصيع الفرائد، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب
الأغراض البعيدة، تذكير الذين يسمعون ويروون: {أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون}
[الطور: ١٥].

وأشده: [الطويل]

يقولون لي ما بال عينيك مذرأت محاسن هذا الطيبي أدمعها هطل
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه فكان لها من صواب أدمعها غسل

(١) في عيون الأنباء: الفاضل.

(٢) عيون الأنباء (٣/ ٥٧).

(٣) هو: أبو منصور عبد الملك بن محمود بن إسماعيل الثعالبي، أحد كبار علماء وفقهاء اللغة والأدب في
العالم الإسلامي، ولد في نيسابور سنة (٣٥٠هـ) وتعلم بها، واشتغل بالأدب واللغة والتاريخ، وله
العديد من المؤلفات والكتب؛ منها: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، وفقه اللغة، وسحر البلاغة،
والإعجاز والإيجاز، ومكارم الأخلاق، وثمار القلوب في المضاف والمنسوب، والتمثيل والمحاضرة،
والشكوى والعتاب، وغيرها، وكانت وفاته سنة (٤٢٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي
(١٧/ ٤٣٧) وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/ ١٧٨) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي
(٣/ ٢٤٦).

وقوله: [البسيط]

قَوَّضَ خيامك عن أرض تضام بها وجانب الذل إن الذل مجتنب
وارحل إذا كانت الأوطان منقضة فالمنذل [الرطب في أوطانه]^(١)

وقوله: [المنسرح]

إن رحلت عن بلدة غدوت إلى آخر ررى فما تستقر أحمالي
كأنني فكرة الموسوس لا يبقى مدى لحظة على حال

وقوله: [الكامل]

ما للمعيل وللمعالي إنما [يسمو]^(٢) إليهن الوحيد الفارد
فالشمس تجتاب السماء وحيدة وأبو بنات النعش فيها راكد

وقوله: [البسيط]

قبالوا اشتغل عنهم حيناً بغيرهم وخادع النفس إن النفس تنخدع
قد صيغ قلبي على مقدار حبهم فما لحب سواهم فيه متسع

وقوله: [المنسرح]

عارض ورد [الخدود]^(٣) وجنته فاتفقا في الجمال واختلفا
يزداد بالقطف ورد وجنته وينقص الورد كلما قطفنا

(١) ما بين الحاصرتين في الأصل: العرف في أرجائه، والمثبت من معجم الأدباء.

(٢) كذا في الأصل ورواية الكشكول للعالمي وللوافي بالوفيات، ورواية يتيمة الدهر: يسعى.

(٣) في يتيمة الدهر: الغصون.

وقوله: [الطويل]

تَنَيْتُ مِنْ أَهْوَى فَلَمَّا لَقَيْتَهُ بَهْتَ فَلَمْ أَمْلِكْ لِسَانًا وَلَا طَرْفًا
وَقَدْ كَانَ فِي قَلْبِي أُمُورٌ كَثِيرَةٌ فَلَمَّا التَقِينَا مَا نَطَقْتُ وَلَا حَرْفًا

وقوله: [مخلع البسيط]

عَابَوْهُ لَمَّا التَحَى فَعَلْنَا عِبْتُمْ وَغَبْتُمْ عَنْ الْجَمَالِ
هَذَا غَزَالٌ وَلَا^(١) عَجِيبٌ تُولَدُ الْمَسْكُ مِنَ الْغَزَالِ

وقوله: [البسيط]

لَا يُؤَيِّسُنْكَ مِنْ مَجْدِ تَبَاعُدِهِ فَإِنْ لِلْمَجْدِ تَدْرِيجًا وَتَرْتِيبًا
إِنْ الْقَنَاءُ الَّتِي أَبْصَرْتَ رَفَعَتْهَا تَنْمِي وَتَصْعَدُ أَنْبُوبًا فَأَنْبُوبًا^(٢)

وقوله: [المنسرح]

تَقُولُ لَوْ كَانَ عَاشِقًا دَنَفْنَا إِذَا بَدَتْ صَفْرَةٌ بِخَدَيْهِ
لَا تَنْكِرِيهِ فَإِنْ صَفَرْتَهُ غَطَّتْ عَلَيْهَا دُمَاءُ عَيْنَيْهِ

وقوله: [مخلع البسيط]

كَمْ مِنْ مُلِحٍّ عَلَى أَذَاهُ يَسْتَلُّ مِنْ فَكِهِ حَسَامًا
صَبَّ قَذَى الْقَوْلِ فِي صِمَاخِي فَصَارَ حَلْسَمِي لَهُ فِدَامًا

(١) في يتيمة الدهر: ما، وفي الإعجاز والإيجاز: هل، وكلاهما للثعالبي.

(٢) ورد هذين البيتين بروايات عديدة في يتيمة الدهر لباب الأبداء، الإعجاز والإيجاز وكلهم للثعالبي.

وقوله: [الطويل]

يسر زماني أن أنسا بآهله وأنف أن أعزى إليه بجسهله
ويعجبني أن أخرتني صروفه فتأخيرها الإنسان برهان فضله
فإننا رأينا قائم السيف كلما تقلده الأبطال قدام نصله

وقوله: [الكامل المرفل]

أرعى لعارضه العذار فما أبقى على ورعي ولا نسكي
فكأن ثملاً قد دببن به غمست أكارعهن في مسك

وقوله: [المنسرح]

يا شعرات جميعها فتن تيه في وصف كنهها الفطن
ما عيروا من عذاره سفهاً قد كان غصناً فأورق الغصن

وقوله: [الرملي]

رب روض خللت آذريه ونه^(١) لما توقد
ذهباً أشعل مسكاً في كوانين زبرجد

وقوله: [المتقارب]

عجبت لقولنج هذا الوزير رأنى ومن أين قد جاء؟
وفي كل يوم له حقنة تنظف بالسزيت أمعاءه

(١) الأذريون: نوعان بستاني وبري، فالبستاني ورقه كورق الخيري الأبيض إلا أنها أعرض وأمتن وأطول، وقضبانها مرتفعة تشبه ساق الباقلاء إلا أنها أصغر، وهي بجوفة رقيقة، أما البري: فهو أصغر ورقاً وأرق غصناً وأدق نوراً. انظر: عمدة الطبيب في معرفة النبات (١/٤٠، ٤١).

ومنه:

٨- الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن علي بن سينا^(١)

رجل الدنيا وواحدتها، وعديم النظراء وواجدتها، ولَّد المعاني وولدها، وعقم القرائح ووأدها، لا يحىء أرسطو منه سینه، ولا أفلاطون في جبلته طينه، لو أنه في زمن اليونان لجلس في صدر الرواق، ولاستقلت طرائف المشائين حوله المشي على الأحداق، لعلم جمع بين علوم الإسلام واليونان، ووقع على ما يلقط مثله في^(٢) الأفنان ولم يقنع إلا بكل عباب، ولا رضي من جنات التصانيف حتى دُعي إليها من كل باب، لو قرن به الفارابي لفر، أو الكندي لما كد نفسه ولا كر، بل لو تقدم في عصور الأوائل لتكلم

(١) هو: أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، ولد حوالي سنة (٣٧٠هـ / ٩٨٠م)، وكان والده صيرفيًا من بلخ وانتقل منها إلى بخارى، ويقال: لما بلغ من العمر عشر سنين أتقن حفظ القرآن الكريم وألم ببعض العلوم الشرعية والرياضية، ثم تتلمذ على يد الحكيم أبي عبد الله الناطلي، فقرأ عليه كتاب إيساغوجي، ثم بدأ الاهتمام بدراسة الطب وأخذه عن أبي منصور الحسن بن نوح القميري، وأبي سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني، وانصرف ابن سينا بعد العشرين من عمره إلى التأليف والكتابة والاشتغال بالفلسفة والطب، وكان في الثانية والعشرين من عمره أشهر أطباء عصره، وأسند إليه منصب رئيس الوزراء شمس الدولة أمير ولاية همذان، وابن سينا يعد من أبرز فلاسفة الإسلام ولقب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، وقد أقام مذهبًا في الوجدانية في محاولة تركيبيه للتأليف بين مبادئ الإسلام وتعاليم أفلاطون وأرسطو أو بين الفلسفة والدين. ومن أهم كتبه: الشفاء، والنجاة، والقانون في الطب، والمحصول، والأدوية القلبية، وكتاب المبدأ والمعاد، ومن رسائله: رسالة القضاء والقدر، والحدود، والأجرام السماوية، ورسالة في النبض، والآلة الرصدية، وغيرها. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (١/ ٨٤) تاريخ الحكماء للشهرزوري ص ٢٦٧، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٦٨، تاريخ حكماء الإسلام لليهقي ص ٥٢، طبقات الأطباء والحكماء لابن جلدل ص ١٤، ٢٢، أعلام العرب في الكيمياء لفاضل أحمد الطائي ص ١٨٥، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب لمحمد كامل حسين ص ٤٠٣.

(٢) في «ف»: من.

وسكت كل قائل، وأقر كل طائر الصيت بأنه ما هو عنده طائل.

علم أعلام، وعلمي كلام، ومالئ طروس وأقلام، شعلة ذكاء لم يبق شرق ولا غرب حتى أضاء فيها شعاعها، وامتد إليه شراعها، وأشرقت عليه شمسها، وانبسطت به شمسها، وغلب عليها صيتها، وغل به عفريتها، ومشت فيها الحكماء على قانونه، ورأت الشفاء بمضمونه، وعرفت الحكماء بإشاراته، وسلكت مثل النحل سبلها ذللاً بعباراته، وعلمت أنه فيلسوف الإسلام، والمسلم إليه في كل علم بسلام، والمقدم في سائر الطبقات، والمعظم على الأوقات، والمحرم من العلم المحرم إليه في الميقات.

كان ندرة في العالم، وزهرة في بنى آدم، والمفاض عليه من العلوم ما لا تزجر بحاره، ولا يزخر إلا لجُج فوائده فرائده، وصدره محاره، منبع العلم، وموضع الحلم، ومرتع الفضائل، ومربع الكرم، ووسمي الربيع متضائل، أعجوبة الزمان وغريبة آل سامان.

فخرت دوله ما وراء النهر منه بوزير شرف دستها، وصرف بجمعه لجهات الممالك شتها، وتقلد أمورها، وقلد المنة بولايتة أميرها، وتزيا بزى أرباب الدول، وأصبح في أصحاب الخول، واقتنى الغلمان الأتراك، ووقع بالحب في الأشرار، وكان غلمانهم يلبسون الديباج المنسوج بالذهب، ويشدون مناطق الذهب المرصعة بالجواهر، ويزهر بهم جلوته، وتعمر خلوته، يبيت معهم الليالي في الحمام، ويبادر بتنعمهم به صروف الحمام، حتى قال له ملكه: كيف تنهانا عن الإتيان في الحمام؟ فقال: لأن الملك يجب أن يعيش طويلاً، وأنا أحب أن أعيش طيباً.

وكان لا يملك صبراً عن غلمانهم، ولا يشغل إلا بهم فراغ زمانه، حتى كانوا سبب حمامه وجلب سامه، وكان السبب في فعلتهم ومرشدهم في هذا إلى ضلتهم أنهم سرقوا له مالاً جليلاً، ثم خافوه وستموا فعله الطويل بهم وعافوه، فشابوا له درياق مثرود يطوس، كان يستعمله بسم أبى إلا أن يقتله، فتعلل به عامه حتى ساق الأجل إليه حمامه،

وكانت الوزارة نقصاً عيب به وأطلقت الحكماء ألبستها فيه بسببها وقالوا: أذل العلم ورضي من الفانية بالاستكثار! فقال: لي أسوة بأرسطو في صحبة الإسكندر. وفيما قاله نظر؛ لأن أرسطو كان معلماً للإسكندر ومشيراً، وابن سينا مكلفاً ووزيراً.

قال ابن أبي أصيبعة: هو أشهر من أن يذكر، وفضائله أعظم^(١) من تسطر، ونحن نفتصر من وصفه على قدر ما ذكره [عن نفسه، ووصفه أبو عبيد الجوزجاني^(٢) صاحبه من أحواله والذي]^(٣) ذكره هو قال: كان أبي رجلاً من أهل بلخ^(٤)، وانتقل إلى بخارى^(٥) في

(١) في عيون الأنباء: أظهر.

(٢) هو: عبد الواحد أبو عبيد، وقيل: أبو عبيدة الجوزجاني، أحد العلماء والفقهاء، كان أبو علي الحسين بن سينا البخاري يملئ عليه كتاب المختصر الأوسط في المنطق، ويقرأ أبو عبيد كتاب المجسطي لبطليموس عليه كل يوم، وهو الذي فسر كتاب القانون لابن سينا، وشرح رسالة حي بن يقظان. انظر: تاريخ الحكماء للشهرزوري ص ٣٧، تاريخ حكماء الإسلام لليهقي ص ٥٨.

(٣) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٤) مدينة كبيرة من مدن خراسان، مستوية الأرض، ولها سبعة أبواب، وعدة أسواق ومسجد جامع في وسطها، وبها مدارس للعلوم ومبانٍ ويساتين، ومقامات للطلاب ولهم أرزاق تجري عليهم، ويتبعها كور ومدن أخرى صغيرة، ويسكن مدينة بلخ الأتراك، وبها العساكر والجنود والقواد والعمال، وكان عبد الله بن سمره قد فتحها في عهد معاوية بن أبي سفيان، وظل المسلمون بها يحكمونها حتى هزمهم التتار سنة (٦١٨هـ)، وقتلوا ما وجدوه بها من المسلمين. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٩٦، معجم ما استعجم للبكري (١/٢٧٨).

(٥) مدينة كبيرة تتبع إقليم خراسان، كثيرة الأشجار والقرى، مستوية الأرض وبها مسجد جامع، ويشق أرضها نهر الصفد، وكان سعيد بن عثمان بن عفان قد افتتحها في عهد معاوية بن أبي سفيان، فلما خرج منها تحصن بها أهلها، ففتحها مسلم بن زياد في عهد يزيد بن معاوية، فشارت وأخرجت المسلمين، حتى فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي في عهد الوليد بن عبد الملك، ولم تزل في أيدي المسلمين وحكامهم حتى هجم عليها التتار ودمروا الحرث وقتلوا النسل سنة (٦١٦هـ)، ومن أشهر العلماء الذين خرجوا من بخارى الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، صاحب صحيح البخاري (ت سنة ٢٥٦هـ). انظر: الروض المعطار للحميري ص ٨٣، معجم ما استعجم للبكري (١/٢٢٩).

أيام نوح بن منصور^(١)، واشتغل بالتصرف^(٢)، وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها: [خرميث]^(٣) من ضياع بخارى، وهي من أمهات القرى، وبقرها قرية يقال لها: أفشنة، وتزوج منها بوالدتي، وقطن بها، وسكن، وولدت منها بها، ثم أولدت أخي بها، ثم انتقلنا إلى بخارى وأحضرت معلم القرآن والأدب، وأكملت العشرة من العمر، وقد أتيت على القرآن وعليكثير من الأدب، حتى كان يقتضي مني العجب.

وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين، تقبل مذهب^(٤) الإسماعيلية وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل علي الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم، وكذلك أخي، وربما كانوا يذكرونه بينهم وأنا أسمع وأدرك ما يقولونه، ولا تقبله نفسي، وابتدءوا يدعونني إليه ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة، وحساب الهند، وأخذ يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتي أتعلمه منه، ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناطلي^(٥) وكان يُدعى المتفلسف، وأنزله أبي إلى دارنا، رجاء تعليمي منه، وقبل قدومه

(١) هو: نوح بن منصور بن نوح بن عبد الملك بن نصر بن أحمد، سلطان بخارى وسمرقند وابن سلاطينها، تملك خراسان وغزنة وما وراء النهر، ثم ولي بعده ابنه بقي سنة وتسعة أشهر، ثم قبض عليه الأمراء وملكوا أخاه عبد الملك، فقصدهم السلطان محمود بن سبكتكين فالتقاهم فهزمهم إلى بخارى وانقرضت دولة السامانيين، وتوفي نوح بن منصور في رجب سنة (٣٨٧هـ). انظر: الكامل لابن الأثير (٨/٥٦٤)، (٩/١٠-١٢، ٩٨-١٠٢) البداية والنهاية لابن كثير (١١/٣٢٣، ٣٢٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣/١٢٦، ١٢٧) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/٤١٥، ٥١٥).

(٢) أي: أن والده كان صيرفيًا.

(٣) ما بين الحاصرتين في الأصل، «ف»: خرمين، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) في عيون الأنباء: يعد من.

(٥) هو: عبد الله بن ناتلي، نسبة إلى بلد ناتل (إحدى مدن طبرستان ببلاد فارس)، وهو حكيم عالم بالمنطق والرياضيات والمصطلحات، والمخروطات، وقيل: إن ابن سينا الفيلسوف قد تعلم عليه قوانين المنطق، ولأبي عبد الله رسالة في واجب الوجود وشرح اسمه، وله رسالة في علم الإكسير. انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٠٤، تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ٣٧.

كنت أشتغل بالفقه والتردد إلى إسماعيل الزاهد^(١)، وكنت من أجود السالكين، وقد ألفت طرق المطالبة^(٢)، ووجوه الاعتراض على المجيب علي الوجه الذي جرت عادة القوم به.

ثم ابتدأت بكتاب «إيساغوجي» علي الناطلي، ولما ذكر لي أن حد الجنس: إنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو، فأخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله، وتعجّب مني كل التعجب، وحذّر والدي من شغلي بغير العلم.

وكان أي مسألة قالها لي أتصورها خيرًا منه، حتي قرأت ظواهر المنطق عليه، وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبر.

ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق^(٣)، وكذلك كتاب «إقليدس» فقرأت من أوله إلى خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسني حل بقية الكتاب بأسره.

ثم انتقلت إلى «المجسطي»^(٤) ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال الناطلي: تولّ قراءتها وحلها بنفسك، ثم عرضها عليّ لأبين لك صوابه من

(١) إسماعيل الزاهد: إمام فقيه، كان يدرس عليه ابن سينا الفقه في بلاد فارس. انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٦٧، تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ٥٣.

(٢) لعلها المناظرة.

(٣) المنطق: آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر فهو علم عملي آلي، كما أن الحكمة علم نظري غير آلي، فالآلة بمنزلة الجنس، والقانونية، تخرج الآلات الجزئية لأرباب الصنائع، وقوله: يعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر يخرج العلوم القانونية التي لا تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر بل في المقال؛ كالعلوم العربية. انظر: التعريفات ص ٣٠١.

(٤) المجسطي هو: كتاب من كتب بطليموس، في علم الهيئة والنجوم وحركات الكواكب والأفلاك ويقع الكتاب في ثلاث عشرة مقالة، وكان أول من اعتنى بهذا الكتاب هو يحيى بن خالد بن برمك، ثم اعتنى به العلماء بعد ذلك، فمنهم من فسر، ومنهم من ترجمه، أو اختصره. انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٦٩، طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل ص ٣٧.

خطئه، وما كان الرجل يقوم بالكتاب فأخذت أحل ذلك الكتاب فكم من شكل ما عرفه إلا وقت ما عرضته عليه، وفهمته إياه.

ثم فارقتي الناتلي متوجهًا إلى كركانج^(١)، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب في الفصوص والشروح، من الطبيعي والإلهي، وصارت أبواب العلم تنفتح عليّ.

ثم رغبت في علم الطب، وصرت أقرأ الكتب الصعبة فيه، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون عليّ علم الطب. وتعاهدت المرضى فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة، ثم توفرت على العلم والقراءات سنة ونصف، فأعدت قراءة المنطق، وسائر أجزاء الفلسفة، وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها، ولا اشتغلت في النهار بغيره، وجمعت بين يدي ظهورًا فكل حجة أنظر فيها أثبت مقدمات قياساته، وربتها في [تلك]^(٢) الظهور، ثم نظرت فيما عساها تنتج، وراعت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة، وكلما كنت أتحير في مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع، وصليت، وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المنغلق، وتيسر المتعسر^(٣).

(١) كركانج أو الجرجانية: مدينة عظيمة وكبيرة في إقليم خوارزم ببلاد فارس، وهي عاصمتها وتتكون من مدينتين كبيرتين على ضفة النهر؛ الأولى تسمى درغاسين، والأخرى الجرجانية وبها أسواق كثيرة، وريض، وكان الملك ينزل بها، واستولى عليها المسلمون الأوائل في حركة الفتوحات الإسلامية، وظلت تحت سيطرتهم حتى هجم عليها التتار سنة (٦١٨هـ) ودمروا ما بها من عمران، وقتلوا ما بها من المسلمين ولم ينج منها أحد، وكان يسكنها أبو علي بن سينا الفيلسوف فترة من الزمن. انظر: تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ٥٨، الروض المعطار للحميري ص ١٦٢.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) عيون الأنباء (٣/ ٧٢، ٧٣).

وكننت أرجع بالليل إلى داري، وأدع^(١) السراج بين يدي، وأشتغل بالقراءة والدرس، والكتابة، فمهما غلبني النوم، أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلي قوتي، ثم أرجع إلى القراءة، ومهما أخذني أدنى نوم، أحلم بتلك المسائل اتضح لي وجوهاها في المنام، وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني، وكل ما علمته في ذلك الوقت «فهو الذي علمته»^(٢) ولم أزد فيه إلى اليوم، حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي، والرياضي، ثم عدلت إلى الإلهي وقرأت كتاب «ما بعد الطبيعة» فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليّ غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين مرة^(٣)، وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهم المقصود به، وأيست من نفسي، وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه، وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين وبيد الدلال مجلد ينادي عليه، فعرضه عليّ، فرددته [رد]^(٤) متبرم، معتقد أن لا فائدة في هذا العلم. فقال لي: اشتر مني هذا فإنه رخيص! أبيعك بثلاثة دراهم!، وصاحبه محتاج إلى ثمنه.

فاشتريته، وإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في «أغراض كتاب ما بعد الطبيعة»! فرجعت إلى بيتي، فأسرعت قراءته، فانفتح عليّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي محفوظاً على ظهر القلب، وفرجت بذلك، وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شكراً لله عز وجل.

وكان سلطان بخارى في ذلك الوقت نوح بن منصور واتفق له مرض [تُلج]^(٥)

(١) في عيون الأنباء: أضع.

(٢) في عيون الأنباء: فهو كما علمته الآن.

(٣) في طبعة عيون الأنباء [أربعين يوماً] وذكر مرة أخرى: أربعين مرة، ولعل الأصح: أربعين مرة. انظر: عيون الأنباء (٧٤/٣).

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٥) لعله: تخير بدلاً من تُلج، والتولج هو كناس الظبي أو الكناس الذي يلج فيه الظبي وغيره من الوحوش. لسان العرب مادة (تُلج).

الأطباء فيه، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر على العلم والقراءة، فأجروا ذكرى بين يديه، وسألوه إحضاري، فحضرت وشاركتهم في مداواته، وتوسمت بخدمته، فسألته يوماً الإذن لي في دخول دار كتبهم، ومطالعتها، وقراءة ما فيها من كتب الطب، فأذن لي، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة، في كل بيت صناديق من الكتب منضدة بعضها على بعض، في بيت منها كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد.

وظالعت فهرست كتب الأوائل، وطلبت ما احتجت إليه منها، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط، وما كنت رأيته من قبل، ولا رأيته أيضاً من بعد، فقرأت تلك الكتب، وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه.

فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها، وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ، ولكنه اليوم معي أنضج، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء!

وكان في جوارى رجل يقال له: أبو الحسن العروضي^(١)، فسألني أن أصنف له كتاباً جامعاً في هذا العلم فصنفت له: المجموع، وسميته به، وأتيت فيه على سائر العلوم، سوى الرياضي، ولي إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمري!

وكان في جوارى أيضاً رجل يُقال له: أبو بكر البرقي الخوارزمي، فقيه النفس، متوجه في الفقه والتفسير والزهد، مائل إلى هذه العلوم، فسألني شرح الكتب [له] فصنفت له [كتاب: «الحاصل والمحصل» في قريب من عشرين مجلداً، وصنفت له في الأخلاق كتاباً سميته: كتاب^(٢) «البر والإثم» وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده، ولم

(١) رجل كان يجاور أبا علي بن سينا في المنزل، وكان قد سأل ابن سينا أن يُصنّف له كتاباً جامعاً له في علوم الأوائل وعلم الطب، فصنّف له أبو علي بن سينا كتاب «المجموع»: انظر: تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ٥٧، الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى (١/ ٥٩) عيون الأنباء (٣/ ٧٥).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف»، وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

يعر أحداً أن ينسخ منه^(١).

ثم مات والدي، وتصرفت بي الأحوال وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان، ودعنتي الضرورة إلى الإحلال ببخارى، والانتقال إلى «كركانج»، وكان أبو الحسن [السهي]^(٢)، المحب لهذه العلوم بها وزيراً، وقدمت على الأمير بها وهو علي بن المأمون^(٣) وكنت على زي الفقهاء، إذ ذاك بطليسان تحت الحنك، وأثبتوا لي [مشاهرة]^(٤) دارة تقوم بكفاية مثلي.

ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى «نسا»^(٥) ومنها إلى «مازر»^(٦) ومنها إلى «طوس» ومنها إلى «سمسقان»^(٧) ومنها إلى «جاجرم»^(٨)، رأس حد خراسان، ومنها إلى جرجان^(٩)،

(١) عيون الأنباء (٣/ ٧٥).

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء، وفيه أنه أبو الحسين.

(٣) هو: الأمير خوارزم شاه علي بن مأمون بن محمد أمير بلاد خراسان، وكان أميراً محباً للعلم والعلماء ويقدمهم، وكان العلماء يقدون إليه، وكان من أشهر هؤلاء العلماء أبو علي بن سينا الفيلسوف. انظر: تاريخ حكماء الإسلام لليهقي ص ٥٨.

(٤) ما بين الحاصرتين في الأصل، «ف»: شارفه، والمثبت من عيون الأنباء.

(٥) قرية من قرى نيسابور، بأرض فارس، وهي كثيرة البساتين والزروع والمياه، واسعة حصينة الأسوار، ينسب إليها العديد من العلماء والقواد؛ كالنسائي صاحب السنن، وزهير بن حرب أبو خيثمة محدث بغداد، والإمام مسلم صاحب الصحيح. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٥٧٩، معجم البلدان لياقوت الحموي (٥/ ٢٨١).

(٦) في عيون الأنباء: بارود. ومازر وبادر وهي أبيورد، بلد بخراسان بين سرخس ونسا. انظر: معجم البلدان (١/ ٣٣٣).

(٧) سمسقان أو سميقان أو سمنقان: بلدة بالقرب من جاجرم، من أعمال مدينة نيسابور في بلاد فارس. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٣٢٢، تاريخ حكماء الإسلام لليهقي ص ٥٨.

(٨) مدينة من أعمال نيسابور ببلاد فارس. انظر: تاريخ حكماء الإسلام لليهقي ص ٥٨.

(٩) مدينة تابعة لإقليم خراسان ببلاد فارس، أرضها يكثر بها الجبال والمضارب والقلاع، وأعمالها تتبع طبرستان، يشقها نهر كبير، وبها كثير من البساتين والزروع والفواكه والزيتون والتين وقصب

وكان قصدي الأمير قابوس^(١)، فاتفق في أثناء هذا أخذ قابوس وحبسه في بعض القلاع وموته هناك.

ثم مضيت إلى «دهستان»^(٢)، ومرضت به مرضاً صعباً، وعدت إلى جرجان، فاتصل [بي]^(٣) أبو عبيد الجوزجاني، وأنشد^(٤) في حالي قصيدة فيها بيت القائل: [الكامل]
لما عظمت فليس مصر واسعي لما غلا ثمني عدمت المشتري

قال أبو عبيد الجوزجاني: فهذا ما حكاه لي الشيخ من لفظه.

ومن هاهنا شاهدت أنا من أحواله كان بجرجان رجل يُقال له: أبو محمد

السكر، وكان القائد سويد بن مقرن قد غزاها سنة (١٨هـ)، ثم رجع عنها، فغزاها سعيد بن العاص في عهد عثمان بن عفان فصالح أهلها على جزية، ثم غزاها يزيد بن المهلب فهزم الأتراك في عهد سليمان بن عبد الملك، ومن جرجان خرج كثير من العلماء والفقهاء مثل: سفيان بن عيينة، والجرجاني أبو الحسن علي بن عبد العزيز. انظر: الروض المعطار للحميري ص ١٦٠.

(١) هو: قابوس بن وشمكير بن زياد بن وردان شاه الجيلي، أبو الحسن، الملقب شمس المعالي، أمير جرجان، وبلاد الجبل وطبرستان وليها سنة (٣٦٦هـ)، وأخرجه منها عضد الدولة البويهية سنة (٣٧١هـ) ثم استعادها قابوس سنة (٣٨٨هـ)، واشتد في معاقبة من خذلوه في حربه مع عضد الدولة، فنفر منه شعبه وقامت ثورة، فخلعه القواد، ولولوا ابتاً له ورضوا بإقامته في إحدى القلاع إلى أن مات، ودفن بظاهر جرجان سنة (٤٠٣هـ / ١٠١٢م)، وله شعر جيد بالعربية والفارسية. انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٤/ ٢٣٣) وفيات الأعيان (١/ ٤٢٥) الكامل في التاريخ (٩/ ٨٢) يتيمة الدهر (٣/ ٢٨٨).

(٢) مدينة على الضفة الشرقية من بحيرة طبرستان، وتقع في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان، بناها عبد الله بن طاهر في خلافة المهدي، ونسب إليها عمر بن عبد الكريم بن سعدويه أبو الفتيان، ومحمد بن أحمد بن أبي الحجاج الدهستاني المروي. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٢/ ٤٩٢) الروض المعطار للحميري ص ٢٤٤.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٤) في «ف»: أنشدت. في عيون الأنباء: وأنشأت.

الشيرازي، يحب هذا العلم، وقد اشترى للشيخ دارًا في جواره، أنزله بها، وأنا أختلف إليه في كل يوم، أقرأ «المجسطي» وأستملي المنطق.

وصنّف لأبي محمد الشيرازي كتاب «المبدأ والمعاد»، وكتاب «الأرصاء الكلية»، وصنّف هناك كتبًا كثيرة: كـ «أول القانون»، و«مختصر المجسطي»، وكثيرًا من الرسائل، ثم صنّف في أرض الجبل بقية كتبه^(١).

كتاب «المجموع» مجلد، «الحاصل والمحصول» عشرون مجلدًا، «الإنصاف» عشرون مجلدًا، «البر والإثم» مجلدان، «الشفاء» ثمانية عشر مجلدًا، «الأرصاء الكلية» مجلد، «النجاة» ثلاث مجلدات، «الهداية» مجلد، «المختصر المتوسط» مجلد، «العلائي» مجلد، «القولنج» مجلد، «لسان العرب» عشر مجلدات، «الأدوية القلبية» مجلد، «بعض الحكم الشرقية» مجلد، «بيان ذوات الجهة» مجلد، كتاب «المبدأ والمعاد» مجلد.

ومن رسائله: «القضاء والقدر»، «الآلة الرصدية»، «غرض قاطيغورياس»، «المنطق بالشعر»، «قصائد في العظة والحكمة» في الحروف، «تعقب المواضع الجدلية»، «مختصر أوكليدس»، «مختصر في النبض» بالعجمية، «الحدود»، «الأجرام السماوية»، «الإشارة إلى علم المنطق»، «أقسام الحكمة في النهاية»، «واللانهاية»، وعهد كتبه لنفسه، «حي بن يقظان»، «في أن أبعاد الجسم غير ذاتية له»، «خطب الكلام في الهندباء»، «في أن الشيء الواحد لا يكون جوهريًا وعرضيًا»، «في أن علم زيد غير علم عمرو»، «ورسائل له إخوانية وسلطانية»، «مسائل جرت بينه وبين [بعض]^(٢) الفضلاء»^(٣).

ثم انتقل إلى الري بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة^(٤)، وعرفوه بسبب كتب

(١) انظر: نص ما حكاه أبو عبيد الجرجاني في عيون الأنباء (٧٠-٧٧).

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٣) انظر: عيون الأنباء (٧٧-٨٠).

(٤) هو: الملك مجد الدولة أبي طالب رستم بن فخر الدولة علي أمير الري، وكان قد مرض بمرض

وصلت معه تتضمن تعريف قدره، وكان مجد الدولة إذ ذاك قد غلبته السوداء^(١)، فاشتغل بمداواته وصنف كتاب «المبدأ والمعاد»، وأقام بها إلى أن قصد شمس الدولة بعد قتل هلال بن زيد بن حسويه، وهزيمة عسكر بغداد.

ثم اتفقت له أسباب أوجبت بالضرورة خروجه إلى قزوين^(٢) ومنها إلى همدان^(٣) واتصاله بخدمة «كديانويه» والنظر في أسبابها.

ثم اتفق معرفة شمس الدولة وإحضاره مجلسه بسبب قولنج قد أصابه، وعالجه حتى شفاه الله وفاز من ذلك المجلس بخلع كثيرة، ورجع إلى داره بعد ما أقام هناك

الماليخوليا، فطلبوا من الشيخ أبو علي بن سينا الطبيب الفيلسوف أن يعالجه، فاشتغل بعلاجه فترة وصنف عنده كتابه المعاد، وكانت وفاته سنة (٣٨٧هـ). انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٧٠، تاريخ حكماء الإسلام لليهقي ص ٦٠.

(١) السوداء: مرض نفسي (ماليخوليا انطوائية)، هذا المرض قد يلازم مرحلة العمر الانحدارية، ما بين سني الأربعين والستين، ويميز بطرود حالة فجائية من الانقباض العاطفي الشديد والقلق ورغبة الانتحار، وهو يعتري من لم يصابوا من قبل باضطرابات عقلية. [الموسوعة العربية الميسرة ص ١٠٢٩].

(٢) مدينة من بلاد الديلم بالقرب من الري، وكان عثمان بن عفان قد ولّى البراء بن عازب الري سنة (٢٤هـ)، فسار منها إلى أهر ففتحها ورحل عنها إلى قزوين فطلب أهلها الصلح وأسلموا، ولما ولي سعيد بن العاص بن أمية الكوفة غزا الديلم وقدم قزوين فمصرها، وجعلها مغزى أهل الكوفة إلى الديلم، وينسب إلى قزوين خلق كثيرون منهم: الخليل بن عبد الله بن الخليل القزويني، ومحمد بن يزيد بن ماجه القزويني صاحب السنن. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤٦٥، معجم البلدان لياقوت الحموي (٤/٣٤٢).

(٣) مدينة من مدن عراق العجم كثيرة الزروع والثمار والبساتين، ولها أربعة أبواب، وكان الإسكندر المقدوني قد مر بها وبأهلها في حركة فتوحاته في الشرق، وقد فتحها المسلمون سنة (٢٣هـ) على يد بديل بن عبد الله بن وراق، وظلت تحت حكم المسلمين حتى هزمهم التتار سنة (٦١٨هـ) وقتلوا من بها من المسلمين، ثم حرقوا المدينة. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٥/٤١٠) الروض المعطار للحميري ص ٥٩٦.

أربعين يوماً بلياليها وصار من ندماء الأمير.

ثم اتفق نهوض الأمير إلى قرمسين^(١) لحرب عناز^(٢)، وخرج الشيخ في خدمته، ثم توجه نحو همدان منهزمًا راجعًا.

ثم سأله تقلد الوزارة، فتقلدها، ثم اتفق تشويش العسكر عليه وإشفاقهم منه على أنفسهم، فكبسوا داره وأخذوه إلى الحبس، وأغاروا على أسبانه، وأخذوا جميع ما كان يملكه، وسألوا الأمير قتله، فامتنع منه، وعدل إلى عز الدولة^(٣) طلبًا لمرضايتهم، فتواري في دار الشيخ أبي سعيد بن دخدوك^(٤) أربعين يومًا، فعاولد الأمير شمس الدولة

(١) بلد من كور الجبل، بينه وبين آمد ثلاثة مراحل، وإليها ينسب عبد السلام بن الحسين القرمسيني. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤٥٦.

(٢) هو الأمير أبو الشوك فارس بن محمد بن عناز، ثار في قرمسين ببلاد فارس، فخرج الأمير مجد الدولة أبي طالب رستم بن فخر الدولة علي، أمير الري لحربه، وقيل في اسمه: جناز وعناد، وعباز، وعيَّار، والأصح أنه عناز. انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٧١، تاريخ حكماء الإسلام لليهقي ص ٦١.

(٣) هو: أبو منصور بختيار ابن الملك معز الدولة أمد بن بويه بن فناخسرو الديلمي، صاحب العراق وملكها، كان شديد البأس يمسك ثورًا بقرنيه، فيصرعه، وكان مسرفًا مبذرًا، تسلطن بعد أبيه، وقد خرج عليه ابن عمه عضد الدولة، وجرت بينهما حروب، وأسر مملوك بديع الجمال لعز الدولة، فجنى عليه، وترك الأكل وبكى، وكتب إلى عضد الدولة، وبذل في فدائه عوديتين، ثمن إحداها مائة ألف، وقال: رضيت برده وأدع الملك فردة، والتقى هو وعضد الدولة في شوال سنة (٣٦٧هـ) فقتل في المصاف، فندم عضد الدولة، وبكى لما جيء برأسه، وقد عاش سنًا وثلاثين سنة. انظر: يتيمة الدهر للثعالبي (٢/ ٢١٨، ٢١٩) المنتظم لابن الجوزي (٧/ ٨١، ٨٢) وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٢٦٧، ٢٦٨) البداية والنهاية لابن كثير (١١/ ٢٩١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٤) هو: أبو سعيد بن دخدوك، شيخ من شيوخ أهل همدان، كان الرئيس ابن سينا قد هرب عنده وتواري لديه من عسكر الأمير شمس الدين، وذلك عقب هزيمتهم. انظر: تاريخ حكماء الإسلام لليهقي ص ٦١.

القولنج^(١)، وطلب الشيخ يحضر مجلسه، فاعتذر الأمير إليه بكل الأعذار^(٢)، فاشتغل بمعالجته، فأقام عنده مكرماً مبعجلاً وأعيدت الوزارة إليه ثانيًا.

ثم سأله أنا شرح كتب أرسطوطاليس، فذكر أنه لا فراغ له في ذلك الوقت، ولكن إن رضيت مني بتصنيف كتاب أورد فيه ما صح عندي من هذه العلوم بلا مناظرة مع المخالفين، ولا الاشتغال بالرد عليهم، فعلت ذلك، فرضيت به، فابتدأ بالطبيعات من كتاب سماه: «كتاب الشفاء»، وكان قد صنف الكتاب الأول من «القانون» وكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم، وكنت أقرأ من «الشفاء» نوبة، وكان يقرأ غيري من «القانون» نوبة، فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم وهيم مجلس الشراب بآلاته، وكنا نشتغل به، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ [بالنهار]^(٣) خدمة للأمير.

ففضينا على ذلك زمانًا، ثم توجه شمس الدولة إلى طارم^(٤) لحرب الأمير بهاء الدولة^(٥)، وعاوده القولنج قريب ذلك الموضع، واشتد عليه وانضاف إلى ذلك أمراض

(١) قولنج: لفظ معرب أطلقوه بالأصل على التهاب القولون الحاد أو المغص المعوي، ثم عمَّ الاسم فأصبح يطلق على كل ألم ممنص شديد يحس به الإنسان، سواء أكان ناتجًا عن التهاب الزائدة الدودية أو المصران الأعور أو التهاب الكلية أو غير ذلك. انظر: المنصوري في الطب، ملحق الأمراض ص ٦٦٢.

(٢) في عيون الأنباء: الاعتذار.

(٣) في الأصل، «ف»: من النهار، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) قلعة بأرض فارس ومن حدود كرمان بليدة تسمى تارم. انظر: تاريخ حكماء الإسلام لليهقي ص ٦٢.

(٥) هو: أبو المظفر بركياروق ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، يلقب بهاء الدولة، تملك بعد أبيه، وناب عنه على خراسان أخوه السلطان سنجر، وكان بركياروق شابًا شهيدًا شجاعًا فيه كرم وحكم، وكان مدمنًا للخمر، تسلطن وهو حدث له ثلاث عشرة سنة، فكانت دولته ثلاث عشرة سنة في حروب بينه وبين أخيه محمد، وقد توفي بهرورد في شهر ربيع الأول سنة (٤٩٨ هـ) بعلة السل والبواسير، وكان في أواخر ملكه قد توطد ملكه وعظم شأنه. انظر: وفيات الأعيان لابن

آخر جلبها سوء تدبير وقلة القبول من الشيخ، فخاف العسكر وفاته، فرجعوا طالبين به همدان في المهدي، فتوفي في الطريق في المهدي.

ثم بويغ ابن شمس الدولة، وطلبوا استيزار الشيخ، فأبى عليهم، وكاتب علاء الدولة^(١) سرًا يطلب خدمته والمصير إليه والانضمام إلى جوانبه، وأقام في دار أبي غالب العطار متواريًا، وطلبت منه إتمام كتاب «الشفاء» فاستحضر أبا غالب وطلب الكاغد والمحبرة، فأحضرهما، وكتب الشيخ في عشرين جزءًا على الثمن بخطه رءوس المسائل، وبقي فيه يومين حتى كتب رءوس المسائل كلها بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع إليه، بل من حفظه وعن ظهر قلبه.

ثم ترك الشيخ تلك الأجزاء بين يديه وأخذ الكاغد فكان ينظر في كل مسألة ويكتب شرحها، وكان يكتب في كل يومين خمسين ورقة حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات ما خلا كتابي: الحيوان والنبات.

وابتدا بالمنطق، فكتب منه جزءًا، ثم اتهمه تاج الملك^(٢) بمكاتبته علاء الدولة فأنكر

خلكان (٢٦٨/١) الوفي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (١٢١/١١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٦٨/١٠) المنتظم لابن الجوزي (١٤١/٩).

(١) هو: الملك علاء الدولة فرامز بن علي بن فرامز ملك الري وخراسان، وكان ملكًا عادلاً، وعالمًا عارفًا بأخلاق الحكماء متخلقًا بها، كان له مؤلفًا أطلق عليه «مهجة التوحيد» ويذب فيه عن الحكيم أبي البركات بن ملكان الطبيب البغدادي، ومن أشهر كلماته: من لا يكمل في صناعته التي تليق به فليس له أن يطلب صناعة أخرى، فإن رضي بالنقص والنقصان صار محجوبًا عن نيل الكمال في جميع الأحوال. انظر: تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ١١٧.

(٢) هو: تاج الدولة تمشين ابن السلطان أبي شعجاع ألب أرسلان بن ذود بن ميكال السلجوقي، ملك شعجاع مهيب جبار، ذو سطوة، وله العديد من الفتوحات والحروب، وتملك العديد من المدن، حتى أنه قد خطب له في بغداد، وكان يتغالي في حب الشيخ أبي الفرج الحنبلي، ويحضر مجالسه، وكان يحارب المصريين كثيرًا، وكان خرج في سنة (٤٨٨ هـ) إلى بلاد العجم ليضمها إلى ملكه، ولكنه قُتل

عليه ذلك، وحث في طلبه، فدل عليه بعض أعدائه، فأخذوه، وأدوه وأرسلوه إلى قلعة يُقال لها: فردجان^(١)، وأنشد هناك قصيدة منها: [الوافر]

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

وبقي فيها أربعة أشهر، ثم قصد علاء الدولة همذان فأخذها، وانهمز تاج الملك ومر إلى تلك القلعة بعينها، ثم رجع علاء الدولة عن همذان وعاد تاج الملك وابن شمس الدولة إلى همذان، [وحملوا معهم الشيخ إلى همذان]^(٢) ونزل في دار العلوي، واشتغل هناك بتصنيف المنطق من كتاب الشفاء.

وكان قد صنف بالقلعة كتاب «الهدايات»^(٣)، ورسالة «حي بن يقظان»، وكتاب «القولنج»، وأما «الأدوية القلبية» فإنه صنفها أول وروده إلى همذان، وكان قد تقضى على هذا زماناً، وتاج الملك في أثناء هذا يمينه بمواعيد جميلة.

ثم عنَّ للشيخ التوجه إلى أصفهان^(٤)، فخرج متنكراً، وأنا وأخوه غلامان له في زي الصوفية، إلى أن وصلنا طبران^(٥) على باب أصفهان، بعد أن قاسينا شدائد في الطريق،

في الري. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٩٥ / ١) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٣٧٨ / ١٠) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣ / ٣٨٤).

(١) فردجان: قلعة بناحية همذان من ناحية فارس، ويقال لها: براهان. انظر: معجم البلدان (٤ / ٢٨١).

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٣) لعله كتاب الهداية.

(٤) مدينة كبيرة في بلاد فارس، سميت باسم أصفهان بن نوح عليه السلام، وهو الذي بناها، ويشتهر أهل أصفهان بالقوة والشجاعة، ويشتهرون بطلب العلم، فمنها داود بن علي بن خلف الأصفهاني، وأبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، وأصفهان مدينة كبيرة يتبعها عدة قرى كثيرة، وتشتهر بالثياب المسماة: العتابي والوشى والإبريسيم، وكحل الإثمد. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤٣.

(٥) مدينة من مدن طوس بإقليم خراسان، وإليها ينسب الإمام الطبراني المفسر المشهور. انظر: الروض

المعطار للحميري ص ٣٨٦.

فاستقبلنا أصدقاء الشيخ وندماء الأمير علاء الدولة وخواصه، وحمل إليه الثياب والمراكب الخاصة، وأنزل في محلة يقال لها: كون كبير^(١) في دار عبد الله بن بابي، وفيها من الآلات والفرش ما يحتاج إليه، وحضر مجلس علاء الدولة، فصادف [في مجلسه]^(٢) الإكرام والإعزاز اللذين يستحقه مثله، ثم رسم الأمير علاء الدولة ليأتي الجماعات مجلس النظر بين يديه، بحضرة سائر العلماء على اختلاف طبقاتهم والشيخ في جملتهم فما كان يطاق في شيء من العلوم.

واشتغل بأصفهان بتتيميم كتاب «الشفاء»، ففرغ من «المنطق» و«المجسطي»، وكان قد اختصر أوقليدس والأرثاطيقي والموسيقى، وأورد في كل كتاب من الرياضات زيادات رأى أن الحاجة إليها داعية.

أما في «المجسطي» فأورد عشرة أشكال في اختلاف القطر، وأورد في آخر المجسطي في علم الهيئة أشياء لم يسبق إليها.

وأورد في أوقليدس شبهًا، وفي الأرثاطيقي خواص حسنة، وفي الموسيقى مسائل غفل عنها الأولون، وتم الكتاب المعروف بالشفاء ما خلا كتابي النبات والحيوان فإنها صنفهما في السنة التي توجه فيها علاء الدولة إلى سابور خواست^(٣) في الطريق.

وصنّف أيضًا في الطريق كتاب النجاة، واختص بعلاء الدولة، وصار من ندمائه، إلى أن عزم علاء الدولة قصد همذان، وخرج الشيخ في الصحبة، فجرى ليلة بين يدي

(١) قال ظهير الدين البيهقي: محلة كونكنبز. انظر: تاريخ الحكماء للبيهقي ص ٦٣.

(٢) ما بين الحاصرتين في الأصل، «ف»: من منزلة، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) مدينة من مدن فارس، بناها سابور أحد ملوك الفرس الساسانيين، وكان الخوارج الأزارقة يجتمعون في نواحيها ويحاربون المهلب بن أبي صفرة قائد الحجاج بن يوسف الثقفي، وكانت على أرضها معظم معاركهم معه. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (١٦٧/٣) الروض المعطار للحميري ص ٢٩٩.

علاء الدولة ذكر الخلل الواقع في التقاويم المعمولة بحسب الأرصاد القديمة فأمر الأمير الشيخ بالاشتغال برصد هذه الكواكب، وأطلق له من الأموال ما يحتاج إليه، وابتدأ الشيخ به، وولاني اتخاذ آلاتها واستخدام صناعاتها، حتى ظهر كثير من المسائل، فكان يقع الخلل في أمر الرصد لكثرة الأسفار وعوائقها، وصنف الشيخ بأصفهان الكتاب «العلائي».

وكان من عجائب أمر الشيخ أني صحبته وخدمته خمساً وعشرين سنة، فما رأيته إذا وقع له كتاب مجدّد ينظر فيه على الولاء، بل كان يقصد المواضع الصعبة منه، والمسائل المشكلة، فينظر ما قاله مصنفه، فيتبين مرتبته في العلم، ودرجته في الفهم.

وكان الشيخ جالساً يوماً من الأيام بين يدي الأمير، وأبو منصور الجبائي^(١) حاضر، فجري في اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها بما حضره، فالتفت أبو منصور إلى الشيخ وقال له: أنت تقول: إنك فيلسوف وحكيم، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها.

فاستنكف الشيخ من هذا الكلام، وتوفر على درس كتب اللغة ثلاث سنين، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان، تصنيف أبي منصور الأزهري^(٢)، فبلغ الشيخ

(١) قال البيهقي والقفطي: أبو منصور الحبان. انظر: تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ٦٥، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٧٥.

(٢) هو: أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري، عالم من علماء اللغة، ارتحل في طلب العلم بعد أن سمع ببلده من الحسين بن إدريس ومحمد بن عبد الرحمن السامي، وغيرهما، وسمع ببغداد من أبي القاسم البغوي، وابن أبي داود وإبراهيم بن عرفة، وروى عنه: أبو عبيد الهروي، وأبو يعقوب القزّاب، وأبو ذر عبد بن أحمد الحافظ، وسعيد بن عثمان القرشي، وكان الأزهري رأساً في اللغة والفقه، ومن أهم كتبه: كتاب تهذيب اللغة، وكتاب التفسير، وكتاب تفسير ألفاظ المدني، وكتاب علل القراءات، وكتاب الروح، وكتاب الأسماء الحسنی، وتوفي سنة (٣٧٠هـ). انظر: الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٢/ ٤٥) وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٣٣٤) بغية الوعاة للسيوطي (١/ ١٩) تهذيب اللغة للأزهري - المقدمة.

في اللغة طبقة قل ما يتفق مثلها.

وأنشأ ثلاث قصائد، وضمنها ألفاظاً غريبة في اللغة، وكتب ثلاثة كتب؛ أحدها: على طريقة ابن العميد^(١)، والآخر: على طريقة الصاحب^(٢)، والآخر: على طريقة الصابئ^(٣)، وأمر بتجليدها وإخلاق جلدها.

(١) هو: أبو الفضل محمد بن الحسين بن محمد الكاتب، وزير الملك ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي، كان عجباً في الترسل والإنشاء والبلاغة، يُضرب به المثل، وكان يقال له: الجاحظ الثاني، وقيل: بدت الكتابة بعد الحميد وختمت بابن العميد، وكان متفلسفاً بمذهب الأوائل، وكان لا يدري ما الشرع، وكان ابن عباد يصحبه، ولذلك لقب ابن عباد الصاحب، وكان ابن العميد ذكياً غزير الأدب، ولقب ذا الكفتين، وله نظم رائع، وتوفي سنة (٣٦٠هـ). انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١٠٣/٥) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٣٨١/٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣١/٣) يتيمة الدهر للثعالبي (١٥٤/٣).

(٢) هو: الوزير الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن عباس الطالقاني، الأديب الكاتب وزير الملك مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة، وسمي بالصاحب؛ لأنه صحب الوزير أبا الفضل بن العميد، سمع من أبي محمد بن فارس بأصبهان، وأحمد بن كامل القاضي، وغيرهما، وروى عنه أبو العلا محمد بن حسّول، وعبد الملك بن علي الرازي، وأبو بكر بن أبي علي الذكواني، وأبو الطيب الطبري، له مؤلفات كثيرة منها: كتاب المجيد، والكافي، والإمامة، وكان شيعياً معتزلياً مبتدعاً، وقد نُكِبَ ونفي ثم رد إلى الوزارة ودام فيها ثمان عشرة سنة، وكان يتفقد علماء بغداد وأدباءها، وكان يبغض من يدخل في الفلسفة، وتوفي الصاحب في صفر سنة (٣٨٥هـ) عن تسع وخمسين سنة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥١١/١٣) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٢٨/١) الإمتاع والمؤانسة (٥٣/١) يتيمة الدهر للثعالبي (١٨٨/٣).

(٣) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ الحرائي، الأديب البليغ، كان مشركاً وحرصوا على أن يسلم فأبى، وكان يصوم رمضان ويحفظ القرآن، وكان له نظم رائع، ولما تملك عضد الدولة همّ بقتله وسجنه، ثم أطلق سراحه سنة (٣٧١هـ)، فألف له كتاب التاجي في أخبار بني بويه، وتوفي سنة (٣٨٤هـ). انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٥٢/١) يتيمة الدهر للثعالبي (٢٤١/٢) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (١٥٨/٦).

ثم أوعز الأمير فعرض تلك المجلدة على أبي منصور الجبائي، وذكر أنا ظفرنا بهذه المجلدة في الصحراء وقت الصيد فنحب أن نتفقدتها ونقول لنا ما فيها، فنظر فيها أبو منصور وأشكل عليه كثير مما فيها.

فقال الشيخ: إن ما تجهله من هذا الكتاب فهو مذكور في الموضع الفلاني من كتب اللغة، وذكر له كثيرًا من الكتب المعروفة في اللغة.

ففطن أبو منصور أن تلك الرسائل من تصنيف الشيخ، وأن الذي حملة عليه ما جبهه به ذلك اليوم، فتصل واعتذر إليه.

ثم صنف الشيخ كتابًا في اللغة سماه «لسان العرب»، لم يصنف في اللغة مثله، ولم ينقله إلى البياض حتى توفي، فبقي على مسودته لا يهتدي أحد إلى ترتيبه.

وكان قد حصل للشيخ تجارب كثيرة فيما باشر من المعالجات عزم على تدوينها في كتاب «القانون»، من ذلك: أنه صدع يومًا، فتصور أن مادة تريد النزول إلى حجاب رأسه، وأنه لا يأمن من ورم يحصل فيه، فأمر بإحضار ثلج كثير ودقه ولفه في خرقة، وأمر بتغطية رأسه بها، ففعل ذلك حتى قوي الموضع وامتنع عن قبول تلك المادة، وعوفي.

ومن ذلك: [أن] امرأة مسلوقة بخوارزم^(١) أمرها أن لا تتناول من الأدوية سوى الجلنجبين السكري^(٢) حتى تناولت على الأيام نحو مائة من، وشفيت المرأة.

(١) مدينة كبيرة تتبع إقليم خراسان ببلاد فارس وتحيط بها الصحاري والجبال، ومدنها كثيرة واسعة، بالقرب من نهر جيحون، ولهذا فهي كثيرة الفواكه والزروع والطعام، ويكثر بها صناعة القطن والصوف، وكان المسلمون قد فتحوا الإقليم وحكموه حتى هجم عليهم التتار سنة (٦١٧هـ) فدمروها وجعلوا منها قاعدة لهم. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٣٩٥/٢) الروض المعطار للحميري ص ٢٢٤.

(٢) الجلنجبين السكري: هو الورد المربى بالعسل والسكر، وأجوده ما اتخذ من ورد أحمر. انظر: المعتمد في الأدوية المفردة ص ٧٢.

وكان الشيخ قد صنف بجرجان «المختصر الأصغر» في المنطق، وهو الذي وضعه بعد ذلك في «النجاة» ووقعت نسخة إلى شيراز^(١)، فنظر فيها جماعة من أهل العلم هناك، فوَقَّعت لهم الشبهة في مسائل منها، فكتبوها على جزء، وكان القاضي بشيراز من جملة القوم، فأنفذ بالجزء إلى أبي القاسم الكرمانى^(٢) صاحب إبراهيم بن بابا الديلمي المشتغل بعلم [التناظر]^(٣)، وأضاف إليه كتاباً إلى الشيخ أبي القاسم، وأنفذها على يدي ركاى قاصد، وسأله عرض الجزء على الشيخ أبي القاسم، فدخل على الشيخ عند اصفرار الشمس في يوم صائف، وعرض عليه الكتاب والجزء، فقرأ الكتاب ورده عليه، وترك الجزء بين يديه، وهو ينظر فيه والناس يتحدثون، ثم رجع أبو القاسم، وأمرني الشيخ بإحضار البياض وقطع أجزاء منها، فشددت خمسة أجزاء كل واحد منها عشرة أوراق بالربيع الفرعوني، وصلينا العشاء، فأمر بإحضار الشراب، وأجلسني وأخاه وأمرنا بتناول الشراب، وابتدأ هو بجواب تلك المسائل، وكان يكتب ويشرب إلى نصف الليل، حتى غلبني وأخاه النوم، فأمرنا بالانصراف.

(١) مدينة عظيمة كانت عاصمة الدولة الفارسية ويسكنها العمال والولاة، محصنة البناء لا سور لها ولا أسواق ولا عمارة، وقد سميت جوف الأسد، لأنها تجلب الميرة من كل مكان ولا تخرج منها، وقد افتتحها محمد بن القاسم الثقفي بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي، وسكنها العديد من المسلمين، وخرج منها الإمام المصنف أبو إسحاق الشيرازي الفقيه. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/ ٣٨٠) الروض المعطار للحميري ص ٣٥١.

(٢) هو: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرمانى، ويعرف بتاج القراء، عالم بالقراءات نقل في التفسير آراء مستنكرة، في معرض التحذير منها كان الأولى أهمالها، من ذلك أنه نقل قول أبي مسلم في (حم عسق): إن الحاء حرب عليّ ومعاوية، والميم ولاية مروانية، والعين ولاية العباسية، والسين ولاية السفينية، والقاف قدرة مهدي، وقد أثنى عليه الجزري، وذكر بعض كتبه، ومنها: خط المصاحف، لباب التأويل، البرهان في متشابه القرآن، شرح للمع لابن جني، وتوفي أبو القاسم سنة (٥٠٥ هـ/ ١١١٠ م). انظر: الإقتان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٢٢١) إرشاد الظنون (٧/ ١٤٦) كشف الظنون لحاجي خليفة ١٣١، ١٥٦٢.

(٣) في الأصل، «ف»: المناظر، والمثبت من عيون الأنباء.

فعند الصباح قُرِع الباب فإذا رسول الشيخ يستحضرني، فحضرته وهو على المصلى وبين يديه الأجزاء الخمسة، فقال: خذها وصر بها إلى الشيخ أبي القاسم الكرمانى، وقل له: استعجلت في الإجابة عنها لثلا يتعوق الركابي.

فلما حملته، تعجب كل العجب، وصرف الفيج^(١)، وأعلمهم بهذه الحالة، وصار هذا الحديث تاريخاً بين الناس.

ووضع في [حال] الرصد آلات ما لم يسبق إليه وصنف فيها رسالة، وبقيت أنا ثنائي سنين مشغولاً بالرصد، وكان غرضي تبين ما يحكيه بطليموس عن قصته في الإرصاء، فتبين لي بعضها، وصنف الشيخ كتاب الإنصاف، واليوم الذي قصد فيه السلطان مسعود^(٢) إلى أصفهان، نهب عسكره [رحل] الشيخ، وكان الكتاب في جملة النهب وما وقف له على أثر.

وكان الشيخ قوي القوى كلها، وكانت قوة المجامعة من قواه الشهوانية أقوى وأغلب [وكان كثيراً ما يشتغل به فأثر في مزاجه]^(٣)، وكان الشيخ يعتمد على قوة مزاجه

(١) الفيج: فارسي مُعَرَّب، والجمع فيوج، وقيل: هو رسول السلطان على رجله.

(٢) هو: مسعود بن محمود بن سيكتكين، أمير أصبهان والري وأرمينية، تولى بعد وفاة والده الشاه محمود بن سيكتكين، وكان الأمير مسعود محباً للعلم والعلماء؛ ولهذا فقد صنفوا له العديد من الكتب الجيدة في مختلف الفنون، ودفعت بينه وبين أخيه محمد عدة مراسلات حول السلطنة، قبض على أخيه محمد في نهايتها، وخطب لنفسه في أصبهان والري وأرمينية، ومالت إليه الأمراء وكبار القواد، ثم ما لبث أن وقع اختلاف بينه وبين جنده فكانوا يتحدثون عليه فأخذ الغز منه بلاد نيسابور، فاستجار بملك ما وراء النهر، ونشبت عدة معارك هرب بعدها إلى غزنة، ولم يعد يفوق من السكر، ولا ينتهي من الملهذات، ثم أراد أن يسكن بلاد الهند، فلما خرج إليها خلفه الجنود، فعاش هناك ذليلاً حتى قتله بعض خدم أخيه محمد خنقاً. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٤٩٥) وفيات الأعيان لابن خلكان (٥/ ١٨١).

(٣) مابين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

حتى صار أمره في السنة التي حارب فيها علاء الدولة تاش فراش^(١) على باب الكرخ^(٢)، إلى أن أخذ الشيخ قولنج، ومن حرصه على برئه إشفاقاً من هزيمة يدفع إليها، ولا يتأتى له المسير فيها مع المرض، حقن نفسه في يوم واحد ثمان مرات، فتفرح بعض أمعائه، وظهر به سحج، وأحوج إلى المسير مع علاء الدولة، فأسرعوا نحو إينج^(٣)، فظهر به هناك الصرع^(٤) الذي كان يتبع علة القولنج، ومع ذلك كان يدبر نفسه، ويحقن نفسه لأجل السحج، ولبقية القولنج.

فأمر يوماً باتخاذ دانيقين^(٥) من بزر الكرفس، في جملة ما يحتقن به، وخلطه به طلباً لكسر الرياح، فقصد بعض الأطباء الذين كان يتقدم هو إليهم بمعالجته، فطرح من بزر الكرفس خمسة دراهم، لست أدري عمداً فعله أم خطأ؟ لأنني لم أكن معه فإزداد السحج به من حدة ذلك البزر.

وكان يتناول المثرذيطوس^(٦) لأجل الصرع، فقام بعض علمائه وطرح شيئاً كثيراً

(١) قال البيهقي: هو حسام الدولة أبو العباس تاش فراش. انظر: تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ٦٨.

(٢) مدينة صغيرة على نهر دجلة في الجانب الشرقي منه، وعلى الجانب الغربي من مدينة بغداد، وينسب إليها الإمام الزاهد معروف الكرخي، وأبو جعفر الكرخي، وغيرهما. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٤/٤٤٧) الروض المعطار للحميري ص ٤٩٠.

(٣) إينج: بلد بين خوزستان وأصبهان. انظر: معجم البلدان (١/٣٤٢، ٣٤٣).

(٤) مرض عصبي يتصف بنوبات اختلاجية يفقد المريض خلالها إدراكه ويغيب عن الوعي؛ إذ يصرخ ثم يهوي على الأرض، فيتصلب بدنه ويتشنج ويزرق وجهه وربما يعض لسانه، ثم يتهيج ويخرج زبد من فمه ويعد فترة قصيرة تزول الحالة فيصحو من غير أن يتذكر أي شيء مما جرى له. انظر: المنصوري في الطب، ملحق الأمراض ص ٦٥٩.

(٥) الدائق: سدس الدرهم.

(٦) مثرذيطوس ويقال له: مثرأ اختصاراً، ومعناه: المنقذ من السحر، ومثرذيطوس هو اسم الحكيم الذي ركب هذا المعجون ونبّه إليه، وهذا الترياق ينفع من لسع الأفاعي زيادة على منفعة المستقرة

من الأفيون فيه، وناولوه فأكله، وكان سبب ذلك خيانتهم في مال كثير من خزائنه، فتمنوا هلاكه ليأمنوا عاقبة أعمالهم، فنقل الشيخ كما هو إلى أصبهان فلم يزل يعالج نفسه حتى قدر على المشي وحضر مجلس علاء الدولة، لكنه مع ذلك لا يتحفظ ويكثر التخليط في أمر المعالجة، ولم يبرأ من العلة كل البرء فكان ينتكس ويبرأ كل وقت.

ثم قصد علاء الدولة همذان فسار معه الشيخ، فعاودته في الطريق تلك العلة إلى أن وصل إلى همذان، وعلم أن قوته قد سقطت، وأنها لا تفي بدفع المرض، فأهمل مداواة نفسه، وأخذ يقول: المدبر الذي كان يدبرني قد عجز عن التدبير، والآن فلا تنفع المعالجة، وبقي على هذا أيامًا ثم انتقل إلى جوار ربه، وكان عمره ثلاثًا وخمسين سنة، وكان موته في سنة ثمان وعشرين وأربع مائة، وكانت ولادته في سنة خمس وسبعين وثلاثمائة.

هذا آخر ما ذكره أبو عبيد من أحوال الشيخ الرئيس رحمه الله.

وقبره تحت سور من جانب القبلة من همذان، وقيل: إنه نقل إلى أصبهان ودفن في موضع على باب كونكند^(١).

ولما مات ابن سينا من القولنج الذي [عرض له]^(٢) قال فيه بعض أهل زمانه:

[المتقارب]

رأيت ابن سينا يعادي الرجال وبالحبس مات أخس الممات
فلم يشف ما ناله بالشفاء ولم ينج من موته بالنجاة

وهي العلاج من السموم، ويشمل هذا الترياق على ٥٤ عنصرًا، وهذا الحكيم هو مثرديطوس الملك السادس، أحد ملوك مملكة نهبس الواقعة على البحر الأسود، وكان يحكم ما بين ستي (١٢٣-١٦٣) قبل الميلاد. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ٣٥، تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ٦٩.

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٨٥-٩٠).

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

وقوله: «بالحبس» يعني: انحباس البطن من القولنج الذي أصابه.

و«الشفاء» و«النجاة» يريد الكتابين من تأليفه وقصد بهما [الجناس في الشعر]^(١).

[وصية ابن سينا]:

[ومن كلام الشيخ الرئيس وصية أوصى بها]^(٢) بعض أصدقائه وهو سعيد بن أبي الخير الصوفي الميهني ومن كلامه قال: «ليكن الله تعالى أول فكرك وآخره، وباطن اعتبارك وظاهره، ولتكن عين نفس الرجل مكحولة بالنظر إليه، وقدمها موقوف على المثول بين يديه، مسافراً بعقله في الملكوت الأعلى، وما فيه من آيات ربه الكبرى، وإذا انحط إلى قراره فلينزله الله تعالى في آثاره، فإنه باطن ظاهر، تجلى لكل شيء بكل شيء». [المقارب]

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فإذا صارت هذه الحال له ملكة، تنطبع فيها نقش الملكوت، وتجلي له قدس اللاهوت، فألف الأنس الأعلى، وذاق اللذة القصوى، وأخذته عن نفسه من هو بها أولى، وفاضت عليه السكينة، وحقت له الطمأنينة، وتطلع على العالم الأدنى اطلاع راحم لأهله، مستوهن لحبله، مستخف لثقله، مستحسن به لعقله، مستضل لطرقه، وتذكر نفسه وهي بها لهجة، ويبهجتها بهجة، فيعجب منها ومنهم تعجبهم منه، وقد ودعها، وكان معها كأن ليس معها.

وليعلم أن أفضل الحركات الصلاة، وأمثل السكينات الصيام، وأنفع البر الصدقة، وأزكى العمل [الاحتمال]^(٣)، وأبطل السعى المراءاة، ولن تخلص النفس عن الدرن ما

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٣) ما بين الحاصرتين في الأصل، «ف»: الاحتلام، والمثبت من عيون الأنباء.

التفت إلى قيل وقال، ومنافسة وجدال، وانفعلت بحال من الأحوال.

وخير العمل ما صدر عن خالص نية، وخير النية ما ينفرج عن جناب علم،
والحكمة أم الفضائل، ومعرفة الله - تعالى - أول الأوائل: {إليه يصعد الكلم الطيب
والعمل الصالح يرفعه} [فاطر: ١٠].

ثم يقبل على هذه النفس المؤمنة بكمالها الذاتي، فيحرسها عن التلطيخ بما يشينها من
الهيئات الانقيادية للنفوس الموادية، التي إذا بقيت في النفس المزينة كان حالها عند
الانفضال كحالها عند الاتصال؛ إذ جوهرها غير مشاوب ولا مخالط، وإنما يذنسها هيئة
الانقياد لتلك الصواحب بل تفيدها هيئات الاستيلاء والاستعلاء والرياسة.

وكذلك يهجر الكذب قولاً وفعلًا، حتى يحدث للنفس هيئة صدوقة، فتصدق
الأحلام والرؤيا، وأما اللذات فيستعملها على إصلاح الطبيعة، وإبقاء الشخص والنوع،
والسياسة.

أما المشروب: فإنه يهجر شربه تلهيًا بل تشفيًا وتداويًا، ويعاشر كل فرقة بعادته
ورسمه، ويسمح بالمقدور والتقدير من المال، ويركب لمساعدة الناس كثيرًا مما هو خلاف
طبعه، ثم لا يقصر في الأوضاع الشرعية، ويعظم السنن الإلهية، والمواظبات على
التعبات البدنية، ويكون دوام عمره إذا خلا وخلص من المعاشرين تطربه الزينة في
النفس، والفكرة في الملك الأول وملكه، وكيس النفس عن عثار الناس من حيث لا يقف
عليه الناس، عاهد الله أنه يسير بهذه السيرة ويدين بهذه الديانة، والله ولي الذين آمنوا،
وحسبنا الله ونعم الوكيل».

ومن شعر الشيخ الرئيس قاله في النفس، وهي من أحسن قصائده وأشرفها:

[الكامل]

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وهي التي سبقت فلم تبرقع
 كرهت فراقك وهي ذات تفجع
 ألقت مجاورة الخراب البلقع
 ومنازلاً بفراقها لم تقنع
 من ميم مركزها بذات الأجرع
 بين المعالم والظلول الخضع
 بمدامع تهمني ولما تقطع
 درست بتكرار الرياح الأربع
 قفص عن الأوج الفسيح الأرفع
 دنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
 فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع
 عنها حليف الترب غير مشبع
 والعلم يرفع كل من لم يرفع
 سام إلى قعر الحضيض الأوضع
 طويت عن الفطن الليب الأورع
 لتكون سامعة لما^(١) لم تسمع
 في العالمين فخرقتها لم ترقع^(٢)
 حتى لقد غربت بغير المطلع

محجوبة عن كل مقلة عارف
 وصلت على كره إليك وربما
 أنفت وما أنست فلما واصلت
 وأظنها نسيت عهداً بالحمى
 حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها
 علفت بهاء الثقل فأصبحت
 تبكي إذا ذكرت دياراً بالحمى
 وتظل ساجدة على الدمن التي
 إذ عاقها الشوك الكثيف وصددها
 حتى إذا قرب المسير من الحمى
 وهجعت وقد كشف الغطاء
 وغدت مفارقة لكل مخالف
 وبدت تغرد فوق ذروة شاهق
 فلأي شيء أهبطت من شاهق
 إن كان أرسلها إليه لحكمة
 فهبوطها إن كان لازب
 وتعود عالمة بكل خفية
 وهي [التي]^(٣) قطع الزمان طريقها

(١) في عيون الأنباء: بها.

(٢) في عيون الأنباء: يرتع.

(٣) ساقطة من الأصل، والمثبت من «ف»، وهو يوافق عيون الأنباء.

فكانها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكانه لم يلمع

وقال في الشيب، والحكمة، والزهد: [الوافر]

أما أصبحت عن ليل التصابي وقد أصبحت عن ليل الشباب
تنفس في عذارك صبح شيب وعسعس ليله فكم التصابي
شبابك كان شيطاناً مريداً فرجم [في] ^(١) منشيك بالشهاب
وأسرب ^(٢) من بزة الدهر خوى على فودي فالماً بالغراب
عفا رسم الشباب ورسم دار لهم عهدى بها يعني ^(٣) رباب
فذاك أبيض من قطرات دمعي وذاك أخضر من قطر السحاب
فذا ينعي إليك النفس نعيًا وذلكم نشور للروابي
كذا دنياءك تأرب لانصداع مغالطة وتبني للخراب
ويعلق مشمئز النفس عنها بأشراك تعوق عن اضطراب
فلولاها لعجلت انسلاخي عن الدنيا وإن كانت إهابي
عرفت عقوقها فسلوت عنها فلما عفتها أغريتها بي
بليت بعالم يعلم أذاه سوى صبري ويسفل عن عتاي
وسيل للصواب خللا قوم وكم كان الصواب سوى الصواب
أخالطهم ونفسي في مكان من العلياء عنهم في حجاب
ولست بمن [يلطخه] ^(٤) خللا

(١) في عيون الأنباء: من.

(٢) في عيون الأنباء: أشهب.

(٣) في عيون الأنباء: مغني.

(٤) في الأصل: يلطخه، والمثبت من «ف»، وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

إذا ما لحت الأبصار نالت خيالاً واشمأزت عن لباب

. وقال أيضاً: [الكامل]

خير النفوس العارفات ذواتها وحقيق كيميات ماهياتها
وبم الذي حلت ومم تكونت أعضاء بنينها على هيئاتها
نفس النبات ونفس حس ركبها هلا كذاك سماته كسماتها
يا للرجال لعظم رزء لم تزل منه النفوس تحب في ظلماتها

وقال أيضاً: [الخفيف]

هذب النفس بالعلوم لترقى وذو الكل فهي للكل بيت
إنما النفس كالزجاجة والعلـم سراج وحكمة الله زيت^(١)

وقال أيضاً: [مجزوء الرمل]

صبها في الكاس صـرفاً غلبت ضوء السراج
ظنها في الكاس نـاراً فطفأها بالمزاج

وقال أيضاً: [الكامل]

قم فأسقنيها قهوة كدم الطلا يا صاح بالقده الملايين الملا
خمرًا تظل لها النصارى سجداً ولها بنو عمران أخلصت الولا
لو أنها يوماً وقد ولعت بهم قالت ألسن بربكم قالوا بلى^(٢)

(١) بعده في عيون الأنباء:

فلإذا أشرقت فإنك حي وإذا أظلمت فإنك ميت

(٢) نظر إلى قوله تعالى في سورة الأعراف: {ألسن بربكم قالوا بلى} [الأعراف: ١٧٢].

وقال أيضًا: [الرمل]

نزل اللاهوت في ناسوتها^(١) كنزول الشمس في أبراج يوح
قال فيها بعض من هام بها مثل ما [قال]^(٢) النصرى في المسيح
هي والكاس وما مازجها كأب متحد وابن روح

وقال أيضًا: [الطويل]

شربنا على الصوت القديم قديمة لكل قديم أول هي أول
ولو لم تكن في حيز قلت إنها هي العلة الأولى التي لا تعلل

وقال أيضًا - وقيل: إنها للطغرائي^(٣) -: [الكامل]

عجبًا لقوم يحسدون فضائلي ما بين عاني إلى عذال
عتبوا على فضلي وذموا حكمتي واستوحشوا من نقصهم وكهالي
إني وكيدهم وما عتبوا به كالطود يحقر نطحة الأوعال^(٤)

وقال أيضًا: [الكامل]

(١) اللاهوت والناسوت، هنا نلاحظ فكرة الاتحاد عند غلاة الصوفية.

(٢) في الأصل، «ف»: قالوا، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) الطغرائي: شاعر معروف وهو أبو إسماعيل الحسين بن علي عبد الصمد الأصهباني الطغرائي، الملقب بمؤيد الدين، شاعر وأديب وله من الكتب كتاب تراكيب الزنونات، وغيره (ت ٥١٤ هـ).
انظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٨٥).

(٤) بعده في عيون الأنباء:

وإذا الفتى عرف المرشاد لنفسه هانت عليه ملامسة الجهال

أشكو إلى الله الزمان بصرفه أبلى جديد قواي وهو جديد^(١)

وقال أيضًا: [الطويل]

عطارد قد - والله - طال ترددي مساءً وصباحاً كي أراك فأغنيا
فها أنت فامددي كي أدرك المنى وحدي والعلوم الغامضات تكرماً^(٢)
وقتي المحذور والشرك كله بأمر ملك خالق الأرض والسماء^(٣)

(١) بعده في عيون الأنباء:

محسن إليّ توجهت فكأنني قد صرت مغناطيس وهى حديد

(٢) الشطر في عيون الأنباء:

بها والعلوم الغامضات تكرماً

(٣) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٧٨-١١٧) فقد حفظ لنا ابن فضل الله العمري النص الخاص بترجمة ابن سينا كاملاً ونقله من عيون الأنباء.

ومنهم:

٩-١ أبو الفرج عبد الله بن الطيب^(١)

كاتب الجائليق، كان مع توسعه في الحكمة، وتبعه لسرجها المضئ في كل ظلمة، مُصِرَّ على نصرانيته، معظمًا لأُمور رهبانيته، ينقاد إلى خُدعها، ولا يخفي عليه أنها ضلال، ويتردد إلى بيعها، ولا يعتريه ملال، ويعظم صورها الممثلة، ويظل عليها عاكفًا، وإليها عاطفًا، وهو على يقين من أنها لا تنطق، ولا تمسك عليه من خزائن رزقها ولا تنفق، على أنه كان إمامًا [في]^(٢) الطبيعى لا يعدو علمه، ولا يخاف عدمه، فأما من ذكر سواه فكثيرًا ما يجد من واساه.

ذكره ابن أبي أصيبعة، وقال: هو الفيلسوف الإمام العالم [أبو الفرج عبد الله بن الطيب]^(٣)، وكان كاتب الجائليق ومتميزًا بين النصارى ببغداد، ويقرئ الطب في البيمارستان العضدى ... جليل المقدار، واسع العلم، شرح كثيرًا من كتب أرسطو، وأبقراط، وجالينوس، وكانت له [قوة]^(٤) في التصنيف، وأكثر ما كانت تؤخذ [عنه]^(٥)

(١) هو: أبو الفرج بن الطيب الجائليق، كان حكيماً من أهل بغداد، كثير التصنيف يعرف الرومية واليونانية، كان طبيباً ماهراً، ولكنه لم يكن فصيحاً في كلامه، وله كتب في علل الأشياء، وتصانيف في علم المنطق، وعدة رسائل أخرى، ومن كلامه: من مدحك بما ليس فيك فهو مخاطب غيرك. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل ص ٧٠-٧٢، تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ٤٣، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٠٨.

(٢) في الأصل: على، والمثبت من «ف».

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف»، وفي عيون الأنباء: وكانت له مقدرة قوية.

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف»، وفي عيون الأنباء: وأكثر ما يوجد من تصانيفه كانت تنقل عنه إملاء عن لفظه.

إملاء من لفظه، وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا وكان الرئيس يحمده في الطب، ويذمه في الحكمة، وقال فيه: «وكان يقع إلينا كتب يعملها الشيخ أبو الفرج بن الطيب [في الطب]^(١)، ونجدها صحيحة مرضية، خلاف تصانيفه في المنطق والطبيعات، وما يجري معها^(٢)».

وحكى ابن القف^(٣): أن رجلين أتيا من بلاد العجم للقراءة على ابن الطيب، فقبل لهما: إنه في الكنيسة للصلاة، فأتيا عليه، فوجداه لابسا ثوب صوف، مكشوف الرأس، ويده مبخرة فيها بخور، وهو يدور في الكنيسة، يبخرها، فتأملاه، وتحدثا بالفارسية، وأداما النظر إليه، والتعجب من فعله! وهو من أجل الحكماء، فكأنه رأهما، وفهم عنهما ما هما فيه، فلما فرغ من شأنه، لبس ثيابه المعتادة، وقربت له البغلة فركبها، ومشت الغلمان حوله، فتبعاه، وسألاه أن يقرئهما، فقال لهما: أحججتهما قط؟

فقالا: لا.

فقال: لا أقرئكما حتى تحجا.

فحجا، ثم أتياه وقد علاهما الشحوب، ورءوسهما محلقة، فسألهما عن مناسك

(١) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف» وهو ويوافق عيون الأنباء.

(٢) ابن أبي أصيبعة (٢/٢٤٢، ٢٤٣).

(٣) هو: أبو الفرج أمين الدولة بن موفق الدين يعقوب بن إسحاق بن القف، طبيب نصراني من أهل الكرك بلبنان، كان والده حكيماً شاعراً، وقد تعلم ابن القف على ابن أبي أصيبعة، فقرأ عليه فصولاً من كتاب أبقراط ومسائل حنين بن إسحاق، وبعضاً من كتب الرازي، وكان يعمل في البيارستان النوري، وله من المؤلفات: كتاب الشافي في الطب، وشرح الكليات من كتب القانون لابن سينا، والعمدة في صناعة الجراحة، توفي ابن القف في دمشق سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م). انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٢/١١٩) معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٣/١٦) (٢٤٥/١٣).

الحج، وما فعلاه فيها؟ فأخبراه بها.

فقال لهما: لما رميتما الجمار بقيتما عراة موشحين، وبأيديكما الحجارة وأنتما تهرولان وترميان بها؟

قالا: نعم.

فقال: هكذا الأمور الشرعية تؤخذ نقلاً لا عقلاً!

فعرفا قصده، وعجبا منه، ثم اشتغلا عليه، وكانا من أجل تلامذته.

ومنهم:

٢٠- [أبو المؤيد]^(١) محمد بن محمد بن المجلي الجزري

المعروف بابن الصايغ^(٢)

أثرى بالفضائل وما كنزها، وأثار علوم الأوائل وما ركزها، هذا مع أدب لا يرنق وطلب ليس له ثوب غر لا ينبق، وشعر هو شعاع بنت الزرجون^(٣)، وشعاع الفجر

(١) في الأصل، «ف»: الوليد، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) هو: أبو الفتح أحمد بن أبي الوفاء بن عبد الرحمن البغدادي الحنبلي، المعروف بابن الصايغ، الإمام المفتي، عُرف بغلام أبي الخطاب؛ لأنه خدمه، واشتغل عليه، ولد سنة (٤٩٠هـ) وحدث بخران وحلب عن أبي القاسم بن بنان، وحدث عنه: يوسف بن أحمد الشيرازي، والحافظ عبد الغني، وأبو القاسم بن صصري، وإبراهيم بن أبي الحسن الزيات، وغيرهم، وتوفي سنة (٥٧٦هـ). انظر: الذيل لابن رجب الحنبلي (٣٤٧/١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢٤٩/٤) تاريخ الإسلام للذهبي ص ٦٤، العبر في أخبار من غبر للذهبي (٢٢٢/٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠٣/٢١).

(٣) الزرجون: الخمر.

المتفرق تحت أزر الدجون.

قال ابن أبي أصيبعة: كان إمامًا مشهورًا، وعالمًا مذكورًا، وفيلسوفًا عظيمًا، وأديبًا مبرزًا، ويعرف بالعنبري؛ لأنه كان في صباه يكتب أحاديث عنبرة العبسي^(١).

ومن كلامه قوله: تعلم العلم، فإنه لو لم ينل به الدنيا إلا الغنى عمن يستعبدك بحق أو باطل.

وقوله: بني! إن الحكمة العقلية تريك العالم يقادون بأزمة الجهل إلى الخطأ والصواب.

وقال: الجاهل عبد لا يعتق إلا بالمعرفة.

وقال: الحكمة سراج النفس فمتى عدمتها عميت عن الحق.

وقال: الحكمة دواء من الموت الأبدي.

وقال: [كون]^(٢) الشخص بلا علم كالجسد بلا روح.

وقال: من أحب أن ينطق باسمه فليكثر من العناية بعلمه.

وقال: العالم المحروم أشرف من الجاهل المزوق.

وقال: الجاهل يطلب المال، والعالم يطلب الكمال.

وقال: الغم ليل القلب، والسرور نهاره، وشرب السم أهون من معاناة الهم^(٣).

(١) عيون الأنباء (٢/ ٣٣٣).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) مرجع سابق (٢/ ٣٣٤).

ومن شعره قوله: [الكامل]

لو كنت تعلم كل ما علم الورى
لكن جهلت فصرت تحسب كل
استحي أن العقل أصبح ضاحكاً
حقاً لكنت صديق كل العالم
من يهوى خلاف هواك ليس بعالم
مما تقول وأنت مثل النائم^(١)

وقوله^(٢): [الخفيف]

قد كشفت الأشياء بالعقل^(٣) حتى
وعرفت الرجال بالعلم لما
ظهرت لي وليس فيها التباس
عرف العلم بالرجال الناس

وقوله: [الكامل]

لا تدنين فتى يودك ظاهراً
واهجر صديقك إن تنكر وده
منه وضد وداده في طبعه
فالعضو يحسم داؤه في قطعه

وقوله: [الكامل]

عدل مزاجك ما استطعت ولا تكن
كمسوف أودى به التخليط

(١) ورد بعده في عيون الأنباء:

لو كنت تسمع ما سمعت وعالمًا
وضع الإله الخلف في كل الورى
ما قد علمت خجلت خجلة نادم
بالطبع حتى صار ضربة لازم

(٢) ورد قبل البيتين في عيون الأنباء بيت هو:

أبلغ العالمين عني بأني
كل علمي تصور وقياس

(٣) في «ف»، و«عيون الأنباء» بالفعل.

واحفظ عليك حرارة برطوبة تبقى فتركك حفظها تفريط^(١)
واعلم بأنك كالسراج بقاؤه ما دام في طرف الذبال سلبط

وقوله في ملبح تنقل بالرمال على الخمر: [السريع]

[وشادن أبلج كالبدر نادته ليلاً إلى الفجر
بات به يصرف عنه الأذى بنهل كاسات من الخمر^(٢)
ينتقل الرمان في الطلا^(٣) مخافة من ضرر السكر
كأنه وهو خبير به يكسر الياقوت بالدر

وقوله: [مخلع البسيط]

رأيت فوق الرئيس علجاً أسود يعلوه كالخمار
يدفن في العجاج أبوساً ويولج الليل في النهار

وقوله في المرأة: [مخلع البسيط]

قد أقبلت غولة الصبايا تنظر من معلم النقاب
فقلت من أعظم الرزايا قفل على منزل خراب^(٤)

وقال: [الكامل]

(١) ساقط من «ف».

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٣) في عيون الأنباء: أثرها.

(٤) ما بعده في عيون الأنباء:

حسن ما كنت في عبادة ملفوفة السراس في جراب

احفظ بني وصيتي واعمل بها
 قدّم على طب المريض عناية
 فالشبه تحفظ صحة موجودة
 قلل نكاحك ما استطعت فإنه
 واجعل طعامك كل يوم مرة
 لا تحقر المريض اليسير فإنه
 وإذا تغير منك حال ظاهر
 لا تهجرن القيء واهجر كل ما
 إن الحمى عون الطبيعة مسعد
 لا تشربن عقيب أكل عاجلاً
 والقيء يقطع والقيام كلاهما
 وخذ الدواء إذا الطبيعة كدرت
 إياك تلزم أكل شيء واحد
 وإذا الطبيعة منك نقت باطناً
 وتزيد في الأخطا إن نقصت به
 والطب جلتة إذا حققته
 ولعقل تدبير المزاج فضيلة

فالطب مجموع بنص كلامي
 في حفظ قوته مع الأيام
 والصد فيه شفاء كل سقام
 ماء الحياة يراق في الأرحام
 واحذر طعامك قبل هضم طعام
 كالنار يصبح [وهي]^(١) ذات ضرام
 فاحتل لرجعة حل عقد نظام
 كيموسه^(٢) سبب إلى الأسقام
 شاف من الأمراض والآلام
 أو تأكلن عقيب شرب مدام
 بهما وليس بنوع كل قيام
 بالاحتلام وكثرة الأحلام
 فتقود نفسك للأذى بزمام
 فدواء ما في الجلد بالحمام
 زادت فنقص فضلها بقوام
 حل وعقد طبيعة الأجسام
 يشفي المريض بها وبالأوهام

(١) في الأصل: وهو، والمثبت من «ف» لمناسبة السياق.

(٢) الكيموس: كلمة معربة تعني الخلاصة الغذائية، وهي الكيسلوس بعد أن يدخل الأمعاء الدقيقة، فيكون بشكل مادة لبنية بيضاء صالحة للامتصاص، وإن ما تستمده الأمعاء من هذه المواد هي الكيموس.

وهي تروى للرئيس ابن سينا، ولابن بطلان^(١)، والصحيح أنها لأبي المؤيد.

(١) هو: المختار بن الحسن بن عبدون بن بطلان، أبو الحسن، طبيب باحث، من أهل بغداد، سافر يريد مصر، فمر بحلب فأكرمه معز الدولة ثمال بن صالح، ودخل مصر سنة (٤٤١هـ) فأقام بها ثلاث سنوات، ورحل إلى القسطنطينية، ثم إلى أنطاكية، فترهب - وكان مسيحياً - وسمي يوانيس، ومن كتبه: دعوة الأطباء، وتقويم الصحة، والأمراض العارضة، والمدخل إلى الطب، وعمدة الطبيب في معرفة النبات، توفي ابن بطلان سنة (٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م). انظر: طبقات الأطباء لابن جليل (١/ ٢٤١-٢٤٣) أخبار الحكماء للشهرزوري ص ١٩٢-٢٠٧، دائرة المعارف الإسلامية (١/ ٩٨) آداب اللغة العربية لجورجي زيدان (٣/ ١٠٥).

ومنهم:

٢١- ابن الخطيب الرازي، ابن خطيب الري، وهو:

محمد بن عمر بن الحسين أبو عبدالله - الإمام فخر الدين^(١)

حبر الأعلام، وبحر الكلام، طالما أغض المناظر، وخص بالعجب كل ناظر، وقطف الكلام مُنَوَّرًا، وجلا سُدَف^(٢) الظلام مُنَوَّرًا، ونظر في كل فن، وحضر له تحقيق في كل ظن، وجاء بحلية المناقب، وزينة النجوم الثواقب، وطاب بذكره كل سمر، وصدق منه حديث ابن عمر^(٣).

(١) هو: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرستاني الرازي، أصولي ومفسر وكبير الأذكياء والحكماء والمصنفين، وهو قرشي النسب أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسب، ولد سنة (٥٤٤هـ) وتعلم على يد أبيه ضياء الدين خطيب الري، وانتشرت تأليفه في البلاد شرقًا وغربًا، وكان يتوقد ذكاء، وكان أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، وكان يهتم بعلوم القرآن، وكان يقول: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي غليلًا ولا تروي غليلًا»، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن»، ومن أهم كتبه كتابه في التفسير المسمى مفاتيح الغيب، أو تفسير الرازي، وكتاب المحصول في علم الأصول، وكتاب تفسير أسساء الله الحسنی، وكتاب النبض، وكتاب السر المكتوم، وكتاب المباحث المشرقية، وكتاب شرح عيون الحكمة، وكتاب تنبيه الإشارة في الأصول، وكتاب الجامع الكبير الملكي في الطب، وكتاب الطريقة في الجدل، وكتاب الرسالة الصحابية، وكتاب القضاء والقدر، وغيرها من المؤلفات الكثيرة، وكانت وفاته سنة (٦٠٦هـ) في مدينة هراة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/ ٥٠٠) أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٩٠، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٩٢، تاريخ العلوم عند العرب لعمر فروخ ص ٢٤٠.

(٢) سُدَف: السُدَف - بالتحريك -: ظلمة الليل. وقيل: اختلاط الضوء والظلمة جميعًا، الوقت ما بين صلاة الفجر إلى أول الأسفار. لسان العرب، مادة (سدف).

(٣) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن رزاح بن عدي القرشي العدوي، صحابي من صغار الصحابة أسلم صغيرًا وهاجر إلى المدينة المنورة، وكان ممن بايع تحت

هذا إلى توفير الملوك لجناحه، وتوفير خاطره الذي لو شاء لجنى به، وتعظيم حل به الذرى، وحلي ببعضه الورى، وخلا سهلاً ما بين الثريا والثرى، ولعلم قصر من لبيه، ومسك الناس بسببه، وجال ما بين الخافقين وجاب به، فامتدت الجداول من منبعه، وعدت يد الأنواء دون إصبعه، وسرى صيته والرياح رواكد، وشرق في البلاد وغرب والنجوم إلى الصباح رواصد، وقطع في التصانيف النافعة شقق الأيام العريضة، وجعل جناح النسر في الليالي الطوال مثل جناح البعوضة، حتى طافت الأقطار وطارت في كل مطار، وما هي الآن ملتزمة في الأيدي مثل خطوط الراح، وفي نظر العيون مثل فلق الصباح.

وحدثني شيخنا قاضي القضاة جلال الدين القزويني^(١) - وقد جرى ذكره - قال: كانت الملوك تتقي حد لسانه، حتى احتاج صاحب الأموت^(٢) إلى إعمال الحيلة في مداراته، وتسبب لمال قبله منه أقوله، وأخافه لاستصلاح خاطره؛ لأنه كان لا يزال يبحث في فساد

الشجرة وكان يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة، وعن كثير من كبار الصحابة منهم: والده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وأخته أم المؤمنين حفصة، وأم المؤمنين عائشة وغيرهم. وروى عنه كثير من التابعين منهم: سعيد بن جبير، وسعيد بن الحارث الأنصاري، والحسن البصري، وحيد بن عبد الرحمن الزهري، وسعيد بن المسيب، وأنس وبشر بن حرب، وثابت البناني، وجبير بن أبي سليمان، وأمية بن عبد الله الأموي، وعبد الله بن بريدة، وعبد الله بن كيسان، وعطاء بن أبي رباح، وأبو جعفر الباقري، وابن شهاب الزهري، ومولاه نافع، وأبو حاتم الأعرج، ويونس بن جبير، ومحمد بن سيرين، وقيس بن عباد، وعون بن عبد الله بن عتبة، وابن أبي مليكة، وعبد الله بن نافع، وعبيد بن جريح، وغيرهم، وكانت وفاته سنة (٧٤هـ) وعمره ٨٤ سنة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠٣/٣) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٨١/١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١٩٢/١).

- (١) هو: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني، ولد بالموصل، ولي قضاء دمشق سنة (٧٢٤هـ) ثم قضاء مصر سنة (٧٢٧هـ). انظر ترجمته في البداية والنهاية (٤/١٨٥).
- (٢) الأموت: قلعة حصينة ببلاد الشام.

عقيدته، وتزييف أقواله، فينفر الناس عن دعائه، ويرد بالحرمان مساعي سعاته.

وإذا كان هذا فعله بصاحب الأملوت، وهو الذي كان من عاداه يموت، فكيف كان من يتهيب الأجل، وما عنده إلا نساء في زي رجال؟

ذكره ابن أبي أصيبعة فقال: «أفضل المتأخرين، وسيد الحكماء المتقدمين، قد أشرعت سيادته، واشتهرت في الآفاق مصنفاته وتلامذته، وكان إذا ركب يمشي حوله ثلاثمائة تلميذ من الفقهاء، وغيرهم، وكان خوارزم شاه يأتي إليه.

وكان ابن الخطيب شديد الحرص على تحصيل العلوم الشرعية والحكومية، جيد الفطرة، حاد الذهن، حسن العبارة، كثير البراعة، قوي النظر في منازع الطب ومباحثه، عارفاً بالأدب وشعوبه، وله شعر بالعربي والفارسي.

وكان عبل البدن^(١)، ربع القامة، كبير اللحية، وكان في صوته فخامة، وكان يخطب في بلده الري، وغيرها من البلاد، ويتكلم على المنبر بأنواع من الحكمة، وكان الناس يقصدونه من البلاد، ويهاجرون إليه من كل ناحية على اختلاف مطالبهم في العلوم، وتفننهم فيما يشتغلون به، فكان كل منهم يجد عنده النهاية القصوى فيما يرومه.

وكان الإمام فخر الدين قد قرأ الحكمة على مجد الدين الجيلي^(٢) بمراغة^(٣)، وكان

(١) عبل البدن: أي ضخم البدن.

(٢) هو: عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل رفيع الدين، قاضي القضاة بدمشق، وطبيب باحث من أهل جيلان بطبرستان، كان فقيهاً مناظراً متكلماً متفلسفاً، قدم الشام وولي القضاء بعلبك أيام أصحابها الصالح إسماعيل ووزيره أمين الدولة السامري، فلما ملك الصالح دمشق، ولاه القضاء بدمشق، وقد ساءت سيرته، وقبض عليه في دمشق، وقتل بالقرب من بعلبك سنة (٦٤١هـ/ ١٢٤٤م)، ومن كتبه: شرح الإشارات والتنبيهات، واختصار الكليات. انظر: فوات الوفيات للكتبي (٢/ ٣٥٢، ٣٥٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٦٢) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة (٤/ ١١٧) شذرات الذهب لعماد الدين الحنبلي (٥/ ٢١٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٦/ ٣٥٠).

(٣) مراغة: تتبع إقليم الرقة بالقرب من الرصافة العراقية، ولكن المراغة تقع طرف بادية العرب، وهي

مجد الدين هذا من الأفاضل العظماء في زمانه، وله تصانيف جلية^(١).

وحكى لنا القاضي شمس الدين الخوئي عن الشيخ فخر الدين ابن الخطيب أنه قال: والله إنني لأتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم [في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز]^(٢).

وحدثني محيي الدين قاضي مرند قال: كان الشيخ فخر الدين بمرند أقام بالمدرسة التي كان أبي مدرستها، وكان يشتغل عنده بالفقه، ثم اشتغل بعد ذلك لنفسه بالعلوم الحكمية، وتميز حتى لم يكن أحد يضاهيه، واجتمعت به أيضًا بهمدان، واشتغلت عليه.

قال: وكان لمجلسه جلالة عظيمة، وكان يتعاضم حتى على الملوك، وكان إذا جلس للتدريس يكون قريبًا منه جماعة من تلاميذه الكبار، مثل: زين الدين الكشي، و[القطب^(٣) المصري]^(٤)، وشهاب الدين النيسابوري، ثم يليهم بقية التلامذة، وسائر الخلق على قدر مراتبهم، فكان من يتكلم في شيء من العلوم يباحثونه أولئك التلامذة الكبار، فإن جرى بحث مشكل أو معنى غريب شاركهم الشيخ فيما هم فيه، ويتكلم في ذلك المعنى بما

مدينة كبيرة الفواكه والزروع، كان التار قد اجتاحتها أرضها سنة (٦١٨ هـ)، وقتلوا من بها من المسلمين ودمروا أرضها. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٥٣٥، معجم ما استعجم للبكري (٧٦١/٤).

(١) انظر عيون الأنباء (٣/١٢٩، ١٣٠).

(٢) في الأصل، «ف»: في وقت الأكل والزمان عزيز، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) هو: إبراهيم بن علي بن محمد السلمي المعروف بالقطب المصري، طبيب مغربي الأصل أقام بمصر مدة ورحل إلى خراسان فتلمذ للفخر الرازي، وصنف كتبًا في الطب والفلسفة وقد شرح الكليات من كتاب القانون لابن سينا، وقتل بنيسابور لما استباحها التار سنة (٦١٨ هـ/١٢٢١ م). انظر: طبقات الأطباء لابن جلجل (٢/٣٠) معجم الأطباء لأحمد عيسى بك ص ٥٨، هدية العارفين (١١/١).

(٤) ما بين الحاصرتين في الأصل، «ف»: والمصري والقطب، والمثبت من عيون الأنباء.

يفوق الوصف.

وحدثني شمس الدين محمد الوتار الموصلی قال: كنت في بلد هراة^(١) في سنة ست وستمائة، وقد كان قصدها فخر الدين ابن الخطيب من بلد باميان^(٢) وهو في أبهة عظيمة، وحشم كبير، فلما ورد إليها تلقاه السلطان بها، وهو حسين بن خرمين، وأكرمه إكرامًا كثيرًا، ونصب له بعد ذلك منبرًا وسجادة في صدر الإيوان ليجلس في ذلك الموضع، ويكون له يوم مشهود يراه فيه سائر الناس، ويسمعون كلامه، وكنت ذلك اليوم حاضرًا مع جماعة من الناس، وإلى جانبي شرف الدين ابن عنين^(٣)، والشاعر - رحمه الله - وذلك المجلس حفل جدًا بكثرة الناس، والشيخ فخر الدين في صدر الإيوان، وعن جانبيه يمنة ويسرة صفان من مماليكه الترك متكئين على السيوف، وجاء إليه السلطان حسين بن خرمين - صاحب هراة - فسلم، وأمره الشيخ بالجلوس إلى جانبه، أو قريبًا، منه وجاء إليه أيضًا السلطان محمود ابن أخت شهاب الدين الغوري صاحب فيروز كوه^(٤) فسلم، وأشار إليه الشيخ بالجلوس في موضع آخر قريبًا منه من الناحية الأخرى، وتكلم الشيخ في النفس بكلام عظيم، وفصاحة بليغة.

(١) هراة: مديمة تتبع إقليم خراسان بالقرب من مدينة بوشنج، وهي مدينة عامرة يدخلها نهر عليه بسايتين وزورع كثرة، وبها مساجد ودور عامرة وأسواق واسعة، وبها العديد من فقهاء المسلمين والعلماء، وكان المسلمون قد فتحوها في عهد عثمان بن عفان على يد الأحنف بن قيس، وظلت تحت سيطرة المسلمين حتى دمرها التتار سنة (٦١٨هـ) وقتلوا من بها من المسلمين وعلمائها. انظر: معجم ما استعجم للبكري (٤/ ١٠٤٢) الروض المعطار للحميري ص ٥٩٤.

(٢) بلدة في الجبال بين بلخ وهراة وغزنة بها قلعة حصينة، ويتبعها عدة قرى منها: كابل. انظر: معجم البلدان (١/ ٣٩٣).

(٣) شرف الدين ابن عنين، شاعر كان به جرب؛ اضطره إلى أن يلزم داره. انظر: فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي (٣/ ١١٢).

(٤) قلعة حصينة بالغور بين هراة وغزاتين، كانت دار ملك بني سام غياث الدين عمر بن سام، وأخيه شهاب الدين محمد بن سام ملك الهند وغزنة. انظر: قصد السبيل للمحبي (٢/ ٣٥٠).

قال: وبينما نحن عنده في ذلك الوقت، وإذا بحمامة تدور في الجامع، وخلفها صقر يكاد أن يقتنصها، وهي تطير في جوانب الجامع إلى أن أعيت فدخلت الإيوان الذي فيه الشيخ، ومرت طائرة بين الصفيين إلى أن رمت بنفسها عنده، فذكر لي شرف الدين ابن عنين أنه عمل شعراً على البديهة، ثم نهض لوقته واستأذنه في أن يورد ما قاله في المعنى، فأمره الشيخ [بذلك] ^(١٢١).

فقال: [الكامل]

جاءت سليمان الزمان حمامة ^(١٢٢) والموت يلعب من جناحي خاطف
من نبال الورقاء أن محلكم حرم وأنك ملجأ للخائف
فطرب لها الشيخ فخر الدين، وأدناه وأجلسه قريباً منه، وبعث إليه بعد ما قام من مجلسه خلعة كاملة، ودنانير كثيرة، وبقي دائماً يحسن إليه.

قال لي شمس الدين البتار: لم ينشد قدامي لابن خطيب الري سوى هذين البيتين، وإنما بعد ذلك زاد فيها أبياتاً آخر، هذا قوله ^(١٢٣).

وقد وجدت هذه الأبيات المزايدة في ديوانه على هذا المثال: [الكامل]

يابن الكرام المطعمين إذا شتوا في كل خمصة وثلج خاشف
العاصمين إذا النفوس تطايرت بين الصوارم والوشيج الراءف
من نبال الورقاء أن محلكم حرم وأنك ملجأ للخائف

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٢) عيون الأنباء (٣/ ١٣٠-١٣٣).

(٣) في عيون الأنباء: يشجوها.

(٤) في عيون الأنباء (٣/ ١٣٣): بشجوها.

(٥) مرجع سابق (٣/ ١٣٣).

وفدت إليك وقد تداني حتفها فحبوتها ببقائها المستأنف
ولو أنها تحبى بهال لانتنت من راحتك بنائل متضاعف
جاءت سليمان الزمان بشكواها والموت يلمع من جناحي خاطف
قِرْم لواء القوت حتى ظله بإزائه يجري بقلب واجف

قال: ومما حكاه شرف الدين ابن عنين أنه حصل من جهة فخر الدين ابن خطيب الري، وبجأه في بلاد العجم نحو ثلاثين ألف دينار.

وقال: ومن شعره فيه قوله، وسيرها إليه من نيسابور^(١) إلى هراة ويهنيه فيها يكون السلطان محمود خوارزم شاه ولاه أمور الأوقاف والمدارس في سائر بلاد السلطان وهي مدن كثيرة. يقول: [الكامل]

ريح الشمال عساك أن تتحملي خدمني إلى صدر الإمام الأفضل
وقفي بواديه المقدس وانظري نور الهدى متألّقا لا يأتي
من دوحة فخريّة عمريّة طابت مغارس مجدها المتألّ^(٢)
مكية الأنساب زالك أصلها وفروعها فوق السماك الأعزل
واستمطري جدوى لديه فطالما خلف الحيا في كل عام محل
تغدو سحائبها تعم كما بدت لا يعرف الوسمي منها والولي

(١) مدينة في فارس تقع بين جيحون إلى القادسية ومن الري إلى نيسابور، وبالقرب من سرخس ومرو، وهي بلاد كثيرة المياه والفواكه والخيرات، فتحت في عهد عثمان بن عفان على يد عبد الله بن كريب سنة (٣٢٢هـ)، وبنى بها جامعاً، وقيل: فُتحت في عهد عمر على يد الأحنف بن قيس، وقامت فيها فتنة في عهد عثمان بن عفان، فأرسل إليها عبد الله بن عامر فقضى على الفتنة بها، ومن أشهر العلماء الذين ظهروا بها: أبو علي الحسين بن علي بن زيد النيسابوري، وغيرهم. انظر: معجم البلدان لياقوت (٣٣١/٥) الروض المعطار للحميري ص ٥٨٨.

(٢) المتألّ: أي الأصيل.

بحر تصدر في العلوم^(١) ومن رأى
ومتيم في الله يسحب للتقى
ماتت به بدع تمادى عمرها
فعلا به الإسلام أرفع هضبة^(٢)
غلط امرؤ بأي على قاسه
لو أن رسطاليس يسمع لفظة
ويحار بطليموس لولا قاه من
فلو أنهم جمعوا إليه^(٣) تيقنوا
وبه يبيت الحلم معتصمًا إذا
يعفو عن الذنب العظيم تكرمًا
أرضى الإله بفضلته ودفاعه
يأيهما المولى الذى درجاته
ما منصب إلا وقدرك فوقه
فمتى أراد الله رفعه منصب
لا زال ربعك للوفود محطة

بحرًا تصدر قبله في محفل؟
والدين سربال العفاف المسبل
دهرًا وكان ظلامها لا ينجلي
ورسا سواه في الحضيض الأسفل
هيئات قصر عن مداه أبو علي
من لفظه لعرته هزة أفكل^(٣)
برهانه في كل شكل مشكل
أن الفضيلة لم تكن للأول
هزت رياح الطيش صفحة يذبل
ويجود مستولًا وإن لم يسأل
عن دينه وأقر عين المرسل
ترنو إلى فلك الثوابت من عل
فبمجدك السامي يهني ما تلي
أفضى إليك فنال أشرف منزل
أبدًا وجودك كهف كل مؤمل^(٥)

(١) في عيون الأنبياء: للعلوم.

(٢) في نسخة عيون الأنبياء: هيضة. انظر: عيون الأنبياء (٣/ ١٣٥).

(٣) أفكل: من فكل، والأفكل الرعد. أخذ فلاي أفكل إذا أخذته رعدة، فارتعد من خوف أو برد.
لسان العرب، مادة (فكل).

(٤) في عيون الأنبياء: لديه.

(٥) عيون الأنبياء (٣/ ١٣٤، ١٣٥).

وحدثني نجم الدين يوسف بن شرف الدين علي بن محمد الإسفرائيني قال: وكان الشيخ الإمام ضياء الدين عمر - والد الإمام فخر الدين - من الري، وتفقه واشتغل بعلم الخلاف والأصول، حتى تميز تميزًا كثيرًا، وصار قليل المثل، وكان يُدرّس بالري، ويخطب في أوقات معلومة هنالك، ويجمع عنده خلق كثير من حسن ما يورده في نطقه وبلاغته، حتى اشتهر بذلك بين الخاص والعام في تلك النواحي، وله تصانيف عدة توجد في الأصول، والوعظ، وغير ذلك، وخلف ولدين: أحدهما الإمام فخر الدين، والآخر: هو الأكبر سنًا كان يلقب بالركن، وكان هذا الركن قد قرأ شيئًا من الخلاف، والفقه، والأصول، إلا أنه كان أهوج كثير الاختلال، فكان أبدًا لا يزال يسير خلف أخيه الإمام فخر الدين، ويتوجه إليه في أي بلد قصده، ويشنع عليه، ويسفه المشتغلين بكتبه، والناظرين في أقواله، ويقول: ألسنت أكبر منه، وأكثر معرفة بالخلاف والأصول؟ فلم يقول الناس: فخر الدين، فخر الدين، ولا أسمعهم يقولون: ركن الدين، ركن الدين؟ وكان ربما صنف شيئًا بزعمه، ويقول: هذا من كلام فخر الدين، والجماعة يعجبون منه، وكثير منهم يصفونه ويهزون منه.

وكان الإمام فخر الدين كلما بلغه شيء من ذلك صعب عليه، ولم يؤثر أن أخاه بتلك الحالة، ولا أحد يسمع قوله، وكان دائم الإحسان إليه، وربما يسأله المقام في الري، أو في غيره، وهو يتفقده، ويصله بكل ما يقدر عليه، فكان كلما سأله ذلك يزيد في فعله، ولا ينقص من حاله، ولم يزل كذلك لا ينقطع عنه، ولا يسكت عما هو فيه إلى أن اجتمع الإمام فخر الدين بالسلطان خوارزم شاه، وأنهى إليه حال أخيه، وما يقاسي منه، والتمس منه أن يتركه في بعض المواضع، ويوصي عليه أن لا يُمكن من الخروج والانتقال عن ذلك الموضع، وأن يكون له ما يقوم بأوده^(١) من كل ما يحتاج، فجعله السلطان في بعض القلاع التي له، وأطلق له إقطاعًا يقوم به كل سنة بما مبلغه ألف دينار، ولم يزل هناك مقيمًا حتى قضى الله فيه أمره.

(١) في عيون الأنباء: بكفائته.

قال: وكان الإمام فخر الدين علامة وقته في كل العلوم، وكان الخلق يأتون إليه من كل ناحية، وكان الخطيب أيضًا بالري، وكان له مجلس عظيم للتدريس، فإذا تكلم يز القائلين، وكان عبل البدن باعتدال، عظيم الصدر والرأس، كث اللحية، ومات وهو في سن الكهولة، أشمط^(١) شعر اللحية، وكان كثيرًا ما يذكر الله تعالى ويستغفره، ويسأله الرحمة والقبول، والتجاوز عن زلله، ويقول: إنني حصلت من العلوم ما يمكن تحصيله بحسب الطاقة البشرية، وما بقيت. أوثر إلا لقاء الله تعالى، والنظر إلى وجهه الكريم^(٢).

قال: وخلف فخر الدين ولدين ذكورًا، أكبرهما: يلقب بضياء الدين، وله اشتغال ونظر في العلوم، والآخر - وهو الصغير - لقبه: شمس الدين، وله فطرة فائقة، وذكاء حاذق، وكان كثيرًا ما يصفه الإمام فخر الدين بالذكاء ويقول: «إن عاش هذا فإنه يكون أعلم مني» وكانت النجاة تتبين فيه من الصغر.

ولما توفي الإمام فخر الدين بقيت أولاده مقيمين في هراة، ولقب ولده الصغير بعد ذلك فخر الدين، لقب والده، وكان الوزير علاء الملك العلوي متقلدًا لوزارة السلطان خوارزم شاه، وكان علاء الملك عالمًا فاضلاً متقنًا لعلوم الأدب، ويشعر بالعربية والفارسية، وكان قد تزوج بابنة الشيخ فخر الدين، [ولما جرى أن جنكيز خان^(٣) ملك

(١) أشمط: من الشَّمط، وهو بياض شعر الرأس يخالطه سواده.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٣٥، ١٣٦).

(٣) هو: تموجين بن يسوكاي بهادر بن برتان بهادر، القائد المغولي الملقب بجنكيز خان مؤسس واحدة من أعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم، ولد في منغوليا سنة (٥٤٩هـ/ ١١٥٥م)، وكان أبوه رئيسًا لقبيلة قيات، وقد سماه أبوه تموجين تيمناً بمولده في يوم انتصاره على إحدى قبائل التار، ولما بلغ التاسعة سافر مع والده لبحث له عن فتاة ليتزوجها فقابل أحد أقاربه الذي رحب بأن يزوج ابنته من تموجين، وتركه أبوه عند صهره وعند عودته قتل مسوماً على أيدي التار، وبعد وفاة أبيه تعرضت الأسرة للتشرذم والضياع ولكن الأم صبرت إلى أن كبر الأبناء وصاروا شهاباً أقوياء، وخاصة جنكيز الذي سيطر على القبيلة وهو لم يبلغ العشرين من عمره، توفي جنكيز خان سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م). انظر: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، عصام الدين عبد الرؤوف الفقفي

التار قهر خوارزم شاه، توجه علاء الملك قاصداً إلى جنكيز خان، ومعتصماً به^(١)، فلما وصل إليه أكرمه، وجعله من جملة حرسه، وعندما استولى التار على بلاد العجم وخربوا قلاعها ومدنها، وكانوا يقتلون في كل مدينة من بها، ولا يبقون أحداً بها تقدم علاء الملك إلى جنكيز خان، وقد توجهت فرقة من عساكره إلى مدينة هراة ليخربوها، ويقتلوا من بها، فسأله أن يعطيه أماناً لأولاد الشيخ فخر الدين ابن خطيب الري، وأن يجيئوا بهم مكرمين إليه، فوهب لهم ذلك وأعطاهم أموالهم، ولما ذهب أصحابه إلى هراة وشارفوا أخذها، نادوا فيها بأن لأولاد فخر الدين ابن الخطيب الأمان، فلينزلوا ناحية في مكان، ويكون هذا الأمان معهم.

وكان في هراة دار الشيخ فخر الدين هي دار السلطنة، كان خوارزم شاه قد أعطاهم له، وهي أعظم دار تكون وأكبرها وأبهاها زخرفة واحتفالاً، فلما بلغ أولاد فخر الدين ذلك أقاموا بها مأمونين والتحق بهم خلق كثير من أهاليهم، وأقربائهم، وأعيان الدولة، وكبراء البلد، وجماعة كثيرين من الفقهاء، وغيرهم، ظناً أن يكونوا في أمان لاتصالهم بأولاد فخر الدين ولكونهم خصيصين بهم، وفي دارهم، وكانوا خلقاً عظيماً، فلما دخل التار إلى البلاد وقتلوا من وجدوا بها، وانتهوا إلى الدار، نادوا بأولاد فخر الدين أن يروههم فلما شاهدوهم أخذوهم، وهم: ضياء الدين، وشمس الدين، وأختهم، ثم شرعوا بسائر من كان في الدار فقتلوهم عن آخرهم بالسيف، وتوجهوا بأولاد الشيخ فخر الدين من هراة إلى سمرقند^(٢)؛ لأن ملك التار جنكيز خان في ذلك الوقت بها،

ص ٤٣٨، الكامل في التاريخ لابن الأثير (حوادث سنة ٦١٧-٦٢٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٤٣/١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١١٣/٥).

(١) في الأصل: ولما جرى أن جنكلي خان ملك قاصداً إلى جنكل خان ومعتصماً به، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) مدينة كبيرة من مدن فارس تتبع منطقة خراسان غزاها شمر ملك اليمن فهدمها فسميت شمر كند ثم عُرِّبَت وقيل: سمرقند، ويقال: إنها بنيت أيام الإسكندر على يد قائده شمر، فسميت باسمه. وتقع على جنوب وادي الصفد، وبها شوارع ومبانٍ وقصور عالية وحمامات كثيرة، وهي مدينة كثيرة

وعنده علاء الملك.

قال: ولست أعلم ما [من حالهم]^(١) تم لهم بعد ذلك.

قال: وكان [أكثر]^(٢) مقام الشيخ - رحمه الله تعالى - بالري، وتوجه أيضًا إلى بلد خوارزم، ومرض بها، وتوفي في عقابيله ببلدة هراة.

وأمل في شدة مرضه وصية على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر بن علي الأصفهاني، وذلك في يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر المحرم سنة ست وستائة، وامتد مرضه إلى أن توفي يوم العيد غرة شوال من السنة المذكورة، وانتقل إلى جوار ربه - رحمه الله تعالى - وهذه نسخة الوصية:

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الراجي رحمة ربه، الواصل بكرم مولاه، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، وهو في آخر عمره وعهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاسٍ، ويتوجه إلى مولاه كل [أبقي]^(٣): إني أحمد الله تعالى بالمحامد التي ذكرها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجه، ونطق بها أعظم أنبيائه في أكمل أوقات مشاهدتهم، بل أقول كل ذلك من نتائج الحدوث والإمكان.

فأحمده بالمحامد التي تستحقها إلهيته، ويستوجبها لكمال ألوهيته، عرفتها أو لم

الخصب والفواكه، وبها مسجد جامع بأسفلها، وأسواق واسعة مزدهمة، وهي من المدن التي أصابها العدوان التتاري الغاشم، فأهلك ما كان فيها من إنسان، ودمروا ما بها من زروع ونبات. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/ ٧٥٤) الروض المعطار للحميري ص ٣٢٢.

(١) غير موجودة بعيون الأنباء.

(٢) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف» وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

(٣) في الأصل: وابق، والمثبت من عيون الأنباء.

أعرفها؛ لأنه لا مناسبة للتراب مع جلال رب الأرباب.

وأصلي على الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وجميع عباد الله الصالحين، ثم أقول بعد ذلك:

اعلموا إخواني في الدين، وإخواني في طلب اليقين، أن الناس يقولون: إن الإنسان إذا مات انقطع تعلقه عن الخلق، وهذا العالم [بوجهين مخصوصون]^(١):

الأول: أنه إن بقي منه عمل صالح صار ذلك سبباً للدعاء، والدعاء له أثر عند الله تعالى.

والثاني: ما يتعلق بمصالح الأطفال، والأولاد، والمعارف، وأداء المظالم والجنايات.

أما الأول: فاعلم أنني كنت رجلاً محباً للعلوم، فكنت أكتب في كل شيء شيئاً لا أقف على كميته، وكيفيته، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو غثاً أو سميناً.

إلا أن الذي نظرت في الكتب المعتمدة لي أن هذا العالم محسوس تحت تدبير مدبر منزّه عن مماثلة المتحيزات، والأعراض، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة، وقد اخترت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدت في القرآن العظيم؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك الأودية العميقة، والمناهج الخفية، فلهذا أقول:

كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته، وبرأته عن الشركاء في القدم، والأزلية، والتدبير، والفعالية، فذاك هو الذي أقول به، وألقى الله تعالى به، وأما

(١) في عيون الأنبياء: مخصوص من وجهين.

ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض، فكل ما ورد في القرآن، والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأمة، المتبعين للمعنى الواحد، فهو كما هو، والذي لم يكن كذلك أقول: يا إله العالمين! إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، فلك ما مر به قلبي، وخطر ببالي، فأستشهد علمك، وأقول: إن علمت مني أني أردت به تحقيق باطل، أو إبطال حق، فافعل بي ما أنا أهله، وإن علمت مني أني ما سعت إلا في تقرير ما اعتقدت أنه هو حق، وتصورت أنه هو الصدق، فلتكن رحمتك معي، فذلك جهد المقل، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في الزلة، فأعني، وارحمي، واستر زلتي، وامحُ حوبتي، يا من لا يزيد ملكه عرفان العارفين، ولا ينتقص بخطأ المجرمين!.

وأقول: ديني متابعة سيد المرسلين محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وكتابي: هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما.

اللهم يا سامع الأصوات، ويا مجيب الدعوات، ويا مقيل العثرات، ويا راحم العبرات، ويا قيام المحدثات والممكنات، أنا كنت حسن الظن بك، عظيم الرجاء في رحمتك، وأنت قلت: «أنا عند ظن عبدي بي»^(١).

وأنت قلت: {أمن يجيب المضطر إذا دعاه} [النمل: ٦٢].

وأنت قلت: {وإذا سألَكَ عبادي عني فإني قريب} [البقرة: ١٨٦].

وهب أني ما جئت بشيء فأنت الغني الكريم، وأنا المحتاج اللئيم، وأعلم أنه ليس لي أحد سواك، ولا أجد أكرم منك، ولا أجد محسنًا سواك، وأنا معترف بالزلة والقصور، والعيب والفتور، فلا تخيب رجائي، ولا ترد دعائي، واجعلني آمنًا من عذابك قبل الموت وعند الموت، وبعد الموت، وسهل عليَّ سكرات الموت، وجفف عني نزول الموت، ولا تضيق عليَّ سبب الآلام والأسقام، فأنت أرحم الراحمين.

وأما الكتب العلمية التي صنفتها أو استكثرت من إيراد السؤالات على المتقدمين فيها، فمن نظر في شيء منها، فإن طابت له تلك السؤالات فليذكرني في صالح دعائه على سبيل التفضل والإنعام، وليحذف القول السيئ، فإني ما أردت إلا تكثير البحث، وتشجيع الخواطر، والاعتماد في الكل على الله تعالى.

وأما المهم الثاني: وهو إصلاح أمر الأطفال، والعورات، والاعتناء به على الله تعالى، ثم على نائبه في أرضه السلطان محمد - اللهم اجعله قرين محمد الأكبر في الدين والعلو - إلا أن السلطان الأعظم لا يمكنه أن يشتغل بمهمات الأطفال، فرأيت أن أفوض وصاية ولدي إلى فلان، وأمرته بتقوى الله تعالى {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} [النحل: ١٢٨] وسرد الوصية إلى آخرها ثم قال: وأوصيه ثم أوصيه بأن يبالغ في تربية ولدي أبي بكر، فإن آثار الذكاء والفطنة ظاهرة عليه، ولعل الله تعالى يوصله إلى خير.

وأمرته وأمرت تلامذتي وكل من لي عليه الحق، أني إذا مت يبالغون في إخفاء موتي، ولا يخبرون أحداً به، ويكفونني، ويدفنونني على الوجه الشرعي، ويحملونني إلى الجبل المصائب لقرية مزداخان^(١)، ويدفنونني هناك، وإذا وضعوني في اللحد قرءوا عليّ ما قدروا عليه من آيات القرآن، ثم يثرون عليّ التراب بعد الإتمام، ويقولون: يا كريم! جاءك الفقير المحتاج اليك، فأحسن إليه.

وهذا منتهى وصيتي من هذا الباب، والله تعالى الفعال لما يشاء وهو على ما يشاء قدير، وبالإجابة [وبالإحسان]^(٢) جدير^(٣).

(١) درجين أو درجان آخر البلاد الجريدية، وهي مدينة قديمة تشتهر بالكساء الدرجيني الذي يشبه الكساء

السجلجاسي، في ثوبه ولونه، ولكنه دونه في الجودة. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٢٣٦.

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٣) عيون الأنباء (٣/ ١٤٢، ١٤٤).

ومن شعر فخر الدين ابن الخطيب: أنشدني بديع الدين السكري^(١): بما سمعه من الشيخ فخر الدين ابن خطيب الري لنفسه، فمن ذلك قال: [الطويل]

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في غفلة من جسوننا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قدرأنا من رجال ودولة فبادوا جميعًا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها فزالوا جميعًا والجبال^(٢) جبال

وقال: [الطويل]

فلو قنعت نفسي بميسور بلغة لما سبقت في المكرمات رجالها
ولو كانت الدنيا مناسبة لها لما استحققت نقصانها وكمالها
ولا أرمق الدنيا بعين كرامة ولا أتوقى سوءها واختلالها
وذلك أني عارف بفنائها ومستيقن ترحالها وانحلالها
أروم أمورًا يصغر الدهر عندها وتستعظم الأفلاك طرًا وصالها^(٣)

وقال أيضًا: [البسيط]

أرواحنا ليس ندري أين مذهبها وفي التراب توارى هذه الجثث
كون يرى وفساد جاء يتبعه الله أعلم ما في خلقه عبث^(٤)

(١) في عيون الأنباء: البندهي.

(٢) مرجع سابق (٣/ ١٤٥).

(٣) مرجع سابق (٣/ ١٤٥).

(٤) عيون الأنباء (٣/ ١٤٥).

ومنهم:

٢٢- القطب المصري وهو:

إبراهيم بن علي بن محمد السلمي أبو إسحاق

الإمام قطب الدين، وكان قطب دائرة، ومركز شهب سائرة، ومظهر عجائب، ومشهر غرائب، ومبين فضائل، ومفطن خبايل، وآية فضل تدرس ومعالمها واضحة، [وعلموها ناضحة]^(١)، وهو - وإن كان من الغرب مرماه - فإن في المشرق^(٢) منها، وهكذا صاحب تاريخ الأطباء سباه، وما عدا في هذا واجباً، ولا نكب عن الحق جانباً، إذ كان إنها استفاد المشرق وغاية العلم الذي به ذكر، والفضل الذي عليه قصر.

قال ابن أبي أصيبعة: أصله مغربي، وأتى مصر، وأقام بها مدة، ثم سافر إلى بلاد العجم، ولقي الإمام الرازي فلزمه، واشتغل عليه، واشتهر هناك، وكان من أجل تلاميذ ابن الخطيب وأميزهم.

وصنّف كتباً كثيرة في الطب والحكمة، وشرح الكليات بأسرها، قال: ووجدته في كتابه هذا يفضل المسيحي^(٣) وابن الخطيب على ابن سينا^(٤).

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٢) في «ف»: المشرق.

(٣) هو: أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني، طبيب في علم الطب، كان أستاذاً للطبيب أبي علي بن سينا في الطب، وكان يعيش في خراسان، مقدماً عند مليكها، وظل بها إلى أن توفي عن عمر يناهز ٤٠ سنة. وله عدة كتب منها: كتاب المائة في الطب، وكتاب إظهار حكمة الله تعالى في خلق الإنسان، وكتاب العلم الطبيعي، وكتاب الطب الكلي، اختصار كتاب المجسطي، وكتاب تعبير الرؤيا، وكتاب في الوباء وغيرها كثير. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٢/ ٣٧٠).

(٤) عيون الأنباء (٣/ ١٥٢).

وهذا نص قوله: «والمسيحي أعلم بصناعة الطب من أبي علي، فإن مشايخنا كانوا يرجحونه على جمع عظيم ممن هم أفضل من أبي علي في هذا الفن».

وقال أيضًا: «عبارة المسيحي أوضح وأبين مما قاله الشيخ، وغرضه في كتبه تقييد العبارة من غير فائدة».

وقال في تفضيل ابن الخطيب على ابن سينا: «فهذا مما تنحل من كلام الإمامين الفاضلين العظمين، الإمام المتقدم، والإمام المتأخر عنه زمانًا، الراجح عليه علمًا وعملاً، واعتقادًا، ومذهبًا»^(١).

وقُتل القطب المصري في نيسابور فيمن قتله التتار بها، رحمة الله تعالى عليه.

ومنهم:

٢٣- عبد اللطيف البغدادي^(١)

هو ابن يوسف محمد بن علي بن أبي سعيد^(٢)، عرف بابن اللباد، موفق الدين، أبو محمد، الموصل الأصل، البغدادي المولد، ويعرف بالجدي المطجن، مسرح أمل، ومطمح علم وعمل، وزينة أرض ما هي في السماء لجدي ولا حمل، ناطح جديه الكباش فكسرها، ومزقها بظلفه ونشرها، إلى أن أخلى منها المظان، وأبدل بسواد المعز بياض الضان.

وأعطاه أهل زمانه حقه في التعظيم، وغمط وناظر كل قرين، وهو الجدي، وغيره

(١) هو: موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد المعروف بابن اللباد، طبيب موسوعي، وعالم كبير من كبار مفكري الإسلام في القرن السادس الهجري، تلقى علومه صغيراً من علماء الأدب والفقه والمنطق في مدينة الموصل، ومن أشهر من درس عليهم أمين الدولة ابن التلميذ البغدادي، وأبي زرعة المقدسي، ويحيى بن ثابت، وأبي بكر بن النقور، وغيرهم، ويتنقل في البلاد، فدخل فلسطين وسوريا، ومصر ودمشق وعكا وحلب وحران، وروى عنه العلم البرزالي، وعبد الوهاب بن عساكر، والأمين أحمد بن الأثير، وعلي بن السيف التيمي، وست الدار بنت بحر الدين ابن تيمية، وغيرهم، وكان ابن اللباد مشهوراً بالعلم، كثير الاطلاع، والتجريب ليلاً ونهاراً، يحترم أساتذته ويحلبهم، وكان كثير التأليف، ومن أشهر مؤلفاته التي أنتجها في مختلف العلوم في المعادن والحساب، والتاريخ، والسحر، والمنطق، والطب: كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر، ومقالة في الخواص، وكتاب الترياق، وكتاب الرد على ابن الخطيب في شرحه بعض كليات القانون لابن سينا، وكتاب تعقيب حواشي بن جميع على القانون، ومقالة في الشراب والكروم، وأخرى في الرواند، وثالثة في الخنطة وكتاب اختصار الأدوية المفردة ومختصراته. انظر: تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١٠١/٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/٣٢٠) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٥/٣١٢) فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٢/١٦).

(٢) في عيون الأبناء: سعد.

الذي سُمط^(١)، فهادنته جناة الذئاب، وهابته جناة القرظ، وطال عليهم الإياب، وجال في الجيل الأول وقد شمع بقرنه، وسمح^(٢) لقرنه، وجل فلم يتسب إليه كل عنزي من عنزة، ولا حسب كفؤا لقرنه كبش كتيبة ولا جديدة عنزة، وأنسى كل من تقدمه هديا، وفخر به كل بلد قدمه وقدمت دمشق جديا، وعلم العلم أنه له منتصب، وقامت قامة بلده وقد قيل لها: حديبا، لأنها تصحيفه إذا نصب.

قال ابن أبي أصيبعة: كان مشهورا بالعلوم، متحليا بالفضائل، مليح العبارة، جيد التصنيف، وكان متميزا في النحو واللغة، والعربية، عارفا بعلم الكلام، والطب، وكان قد اعتنى كثيرا بصناعة الطب لما كان بدمشق، واشتهر بعلمها، وكان يتردد إليه جماعة من التلاميذ، وغيرهم من الأطباء، للقراءة عليه، وكان والده قد أشغله بصناعة الحديث في [صباه، وكان يوسف والد الشيخ موفق الدين مشغلا بعلم الحديث، بارعا]^(٣) في علوم القرآن، والقراءات، محمودا في المذاهب والخلاف، والأصول^(٤).

وكان الشيخ موفق الدين عبد اللطيف كثير الاشتغال، لا يخلي وقتا من أوقاته من النظر في الكتب، والتصنيف والكتابة، والذي وجدته من خطه أشياء كثيرة جدا؛ بحيث إنه يكتب من مصنفاته نسخا متعددة، وكذلك أيضا كتب كتبا كثيرة من تصانيف الفقهاء، وكان صديقا لجدي، وبينهما صحبة أكيدة بالديار المصرية لما كان بها، وكان أبي وعمي اشتغلا عليه بعلم الأدب، واشتغل عليه عمي أيضا بكتب أرسطوطاليس، وكان الشيخ موفق الدين كثير العناية بها، والفهم لمعانيها.

(١) سمط: سمط الجدي والحمل: تنف عنه الصوف، ونظفه من الشعر بالماء الحار ليشويه. لسان العرب، مادة (سمط).

(٢) سمج: سُمج الشيء: قُبِح. لسان العرب، مادة (سمج).

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف» وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

(٤) عيون الأنباء (٤/ ٢١١، ٢١٢).

وأتى إلى دمشق من الديار المصرية، وأقام بها مدة، وكثر انتفاع الناس بعلمه، ورأيته في آخر مرة بدمشق وهو شيخ نحيف الجسم، ربع القامة، حسن الكلام، جيد العبارة، وكانت مسطرته أبلغ من لفظه، وكان -رحمه الله تعالى- ربها تجاوز في الكلام لكثرة ما يرى في نفسه، وكان يتنقص الفضلاء الذين في زمانه، وكثيراً من المتقدمين، وكان وقوعه كثيراً جداً في علماء العجم ومصنفاتهم، وخصوصاً الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه.

ونقلت من خطه في سيرته التي ألفها^(١) ما هذا مثاله، قال: إني ولدت بدار لجدي في درب الفالوذج، في سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وتربيت في حجر الشيخ [أبي النجيب]^(٢) لا أعرف اللهو واللعب، وأكثر زماني مصروف في سماع الحديث، وأخذت لي إجازات من مشايخ بغداد، وخراسان، والشام، ومصر.

وقال لي والدي يوماً: قد سمعتك جميع عوالي بغداد، [وألحقتك في الرواية بالشيوخ، وكنت]^(٣) في أثناء ذلك أتعلم الخط، وأحفظ القرآن، والفصيح، والمقامات، وديوان المتنبي، ونحو ذلك، ومختصراً في الفقه، ومختصراً في النحو.

فلما ترعرعت، حملني والدي إلى كمال الدين عبد الرحمن الأنباري^(٤)، وكان يومئذ

(١) الكلام لابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء (٤/ ٢١٣، ٢١٤).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) هو: أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد محمد بن الحسين بن سليمان الأنباري، إمام في علم النحو، وفقه شافعي كبير، تعلم على أبي منصور بن الجواليقي، وصحب ابن الشجري أبو السعادات هبة الله، وكان تعليمه في المدرسة النظامية في بغداد، وسكن فيها فترة، وتصدر للإفتاء والتدريس فتعلم عليه كثيرون، وله من المؤلفات: كتاب الميزان، وكتاب طبقات الأدباء، وكتاب أسرار العربية في علم النحو، وكانت ولادته سنة (٥١٣هـ)، وتوفي سنة (٥٧٧هـ) في بغداد. انظر: وفیات الأعيان لابن خلكان (٣/ ١٣٩).

شيخ بغداد، وله بوالدي صحبة قديمة. أيام التفقه بالنظامية، فقرأت عليه خطبة الفصيح^(١)، فهذر كلامًا كثيرًا متتابعًا لم أفهم منه شيئًا لكن التلاميذ حوله تعجبوا منه.

ثم قال: أنا أجفو عن تعليم الصبيان، أحمله إلى تلميذي الوجيه [الواسطي، يقرأ عليه، فإذا توسطت حاله يقرأ عليّ، وكان الوجيه]^(٢) عند بعض أولاد الرؤساء، وكان رجلًا أعمى من أهل الثروة والمروءة، فأخذني بكفتي يديه، وجعل يعلمني من أول النهار إلى آخره بوجوه كثيرة من التلطف^(٣).

وكننت أحضر بحلقته بمسجد المظفرية، ويجعل جميع الشروحات لي، ويخاطبني بها، وفي آخر الأمر أقرأ درسي، ويخصني بشرحه، ثم نخرج من المسجد فيذاكرني في الطريق، فإذا بلغنا منزله، أخرج الكتب التي يشتغل بها مع نفسه، فأحفظ له، وأحفظ معه، ثم يذهب إلى الشيخ كمال الدين فيقرأ درسه، ويشرح له، وأنا أسمع.

وتخرجت إلى أن صرت أسبقه في الحفظ والفهم، وأصرف أكثر الليل في الحفظ والتكرار، وأقمنا على ذلك برهة، كلما جاء حفطي كثر وزاد، وفهمي قوي واستنار، وذهنِي احتد واستقام، وأنا أأزم الشيخ، وشيخ الشيخ^(٤).

وأول ما بدأت حفظت «اللمع»^(٥) في ثمانية أشهر، أسمع كل يوم شرح أكثرها، مما يقرؤه غيري، وأنقلب إلى بيتي فأطالع شرح الفارسي، وشرح الشريف عمر بن حمزة، وشرح ابن برهان^(٦)، وكل ما أجد من شروحه، وأشرحها لتلاميذ يختصون بي، إلى أن

(١) يقصد «فصيح ثعلب» في اللغة المنسوب إلى ثعلب الكوفي النحوي (ت ٢٩١ هـ).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) عيون الأنباء (٤/ ٢١٤، ٢١٥).

(٤) عيون الأنباء (٤/ ٢١٥).

(٥) يقصد كتاب «اللمع» في النحو لابن جني الموصل.

(٦) هو: شيخ العربية أبو القاسم عبد الواحد بن علي بن برهان العُكبري، سمع الكثير من أبي عبد الله

صرت أتكلم على كل باب كرارس، ولا ينفد ما عندي.

وحفظت «أدب الكاتب» لابن قتيبة^(١)، حفظًا متقنًا، أما النصف الأول ففي شهور، وأما تقويم اللسان ففي أربعة عشر يومًا؛ لأنه كان أربع عشرة كراسة.

ثم حفظت «مشكل القرآن» له، و«غريب القرآن» له، وكان ذلك في مدة يسيرة.

ثم انتقلت إلى «الإيضاح» لأبي علي الفارسي^(٢)، فحفظته في شهور كثيرة، ولازمت

بن بطة، وكان ابن برهان مضطلعًا في علوم كثيرة منها: النحو واللغة والأنساب وأم العرب والمتقدمين، وله أنس شديد بعلم الحديث، وكان يميل إلى مذهب مرجئة المعتزلة، ويعتمد أن الكفار لا يخلدون في النار، وتوفي سنة (٤٥٦هـ) وقد جاوز الثمانين. انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١١/١٧) الكامل لابن الأثير (١٠/٤٢، ٤٣) فوات الوفيات لشاكر الكتبي (٢/٤١٤).

(١) هو: أبو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة بن زيادة اللخمي القسطلاني، إمام، محدث ثقة، وأديب كبير، سمع من صفوان بن صالح، وإبراهيم بن هشام الغساني، ومحمد بن رمح، وعيسى بن حماد، ومحمد بن يحيى الزمي، وهشام بن عمار وغيرهم، وروى عنه أبو علي النيسابوري، ويوسف بن القاسم، وأبو بكر بن المقرئ، وأبو أحمد بن عدي، وغيرهم، ومن أشهر مؤلفاته: عيون الأخبار، وأدب الكتاب، وغريب الحديث، وغريب القرآن، وغيرها؛ وكانت وفاته سنة (٣١٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/٢٩٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢/٢٦٠).

(٢) هو: أبو علي الحسين بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النسوي، إمام النحو واللغة في عصره، كان يسمع الحديث الشريف من إسحاق بن راهويه، كما رحل في طلب العلم فتعلم على كبار علماء عصره في اللغة؛ كأبي بكر السراج وأبي بكر مبرحان، والزجاج، وتعلم عليه كبار العلماء: عبيد الله الأزهرى، وأبو القاسم التنوخي، والأزهري، وأبو الفتح بن جني، وغيرهم، وكان أبو علي الفارسي كثير التنقل والترحال، فرحل إلى بغداد وسكن طرابلس مدة، وحلب واتصل بكبار رجال عصره كالأمير سيف الدولة بن حمدان، ولأبي علي الفارسي من المؤلفات: كتاب الإيضاح، وكتاب التكملة، وكتاب الحجة وهو في علل القراءات، وكانت وفاته سنة (٣٧٧هـ). انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي (٧/٢٣٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٧/٢٧٥) إنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطي (١/٢٧٣) طبقات النحويين واللغويين للسيرافي ص ١٣٠.

شروجه، وتتبعته التتبع التام، وتبحرت فيه، وجمعت ما قال الشراح، وأما «التكملة»^(١) فحفظتها في أيام يسيرة، كل يوم كراساً.

وطالعت الكتب المبسوبة، والمختصرات، وواظبت على «المقتضب» للمبرد^(٢) وكتاب ابن درستويه^(٣)، في أثناء ذلك لا أغفل عن سماع الحديث والفقه على شيخنا ابن فضال^(٤)، بدار الذهب، وهي مدرسة معلقة بناها فخر الدولة ابن المطلب.

قال: وللشيخ كمال الدين مائة تصنيف وثلاثون تصنيفاً، أكثرها في النحو، وبعضها في الفقه، وفي الأصولين، وفي التصوف، والزهد، وأتيت على أكثر تصانيفه، سماعاً وقراءة وحفظاً، وشرع في تصنيفين كبيرين؛ أحدهما في اللغة، والآخر في الفقه، ولم يتفق له إتمامهما.

(١) يقصد كتاب «التكملة» في النحو لأبي علي الفارسي.

(٢) هو: محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، أديب ولغوي معروف، وُلد بالبصرة عام (٨٢٦م)، ومات ببغداد عام (٨٩٨م)، وكان إمام البصريين في اللغة، أخذ عنه الزجاج والسراج ونفطويه، وأشهر كتب المبرد «الكامل» الذي يُعد أحد أصول الأدب القديمة، ويمثل منهج اللغويين القدماء، والمعارف العربية المختلفة في عصره، ومن كتبه أيضاً المشهورة: «المقتضب» في النحو، و«معاني القرآن» و«الرد على سيبويه» [الموسوعة الميسرة، ط. مؤسسة فرانكلين، القاهرة (١٩٦٤م) ص ١٦٤].

(٣) هو: عبد الله بن جعفر بن محمد بن درستويه بن المرزبان، أبو محمد من علماء اللغة البازرين، له مؤلفات عديدة أشهرها: «الكتاب»، و«الإرشاد» في النحو، و«أخبار النحويين»، و«تصحيح الفصيح» المعروف بشرح فصيح ثعلب. انظر: بغية الوعاة ص ٢٧٩، والوفيات (٢٥١/١).

(٤) هو: يحيى بن علي بن الفضل بن هبة الله بن بركة، أبو القاسم، جمال الدين المعروف بابن فضال، مناظر، من فقهاء الشافعية، بغدادي المولد والوفاة، تفقه بنيسابور، وسمع الحديث وحدث، له نظم حسن. قال اليافعي: كان من أئمة علم الخلاف والجدل، وقال ابن كثير: ساد أهل بغداد، وانتفع به الطلبة والفقهاء، وبنيت له مدرسة فدرس بها وبُعد صيته، وفضالان لقب جده الفضل. انظر: الأعلام للزركلي، (٣/١٥٩).

وحفظت عليه طائفة من كتاب سيبويه^(١)، وأُكبت على المقتضب فأتمته، وبعد وفاة الشيخ تجردت لكتاب سيبويه، ولشرحه للسيرافي^(٢).

ثم قرأت على أبي عبيدة الكرخي كتباً كثيرة، منها: كتاب «الأصول» لابن السراج، والنسخة في وقف ابن الخشاب برباط المأمونية، وقرأت عليه الفرائض، والعروض، للخطيب التبريزي^(٣)، وهو من خواص تلاميذ ابن الشجري^(٤).

(١) هو: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، فارسي الأصل، بصري المسكن، إمام فقيه نحوي لغوي، تعلم على حمادة بن سلمة، وعيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، والخليل والأخفش وغيرهم، وله في النحو: الكتاب، وكانت وفاته سنة (١٨٨ هـ) عن ٣٢ سنة. انظر: سير أعلام النبلاء للمذهبي (٣٥١/٨) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢٥٢/١).

(٢) هو: أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، إمام النحو في بغداد، حدث عن أبي بكر بن دريد، وابن زياد النيسابوري، ومحمد بن أبي الأزهر، وحدث عنه علي بن أيوب القمي، ومحمد بن عبد الواحد بن رزمة، وكان أبوه مجوسياً فأسلم، وكان السيرافي صاحب فنون، من أعيان الخنفية رأساً في نحو البصريين، تصدر لإقراء القراءات، واللغة، والفقه، والفرائض، والعربية، والعروض، وكان ديناً ورعاً لا يأكل إلا من كسب يده، وولي القضاء ببعض بغداد، وكان ينسخ كل يوم كراساً أجرته عشرة دراهم لحسن خطه، ومن أهم كتبه: أخبار النحويين البصريين، وتوفي سنة (٣٦٨ هـ). انظر: طبقات النحويين واللغويين ص ١٢٩-١٣٠، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣٤١/٧)، (٣٤٢) إنباه الرواة للقفطي (٣١٣-٣١٥) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٧٤/٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٤٥/٨).

(٣) هو: أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن، المعروف بالخطيب التبريزي، أحد أعلام القرن الخامس الهجري في اللغة والأدب، ولد سنة (٤٢١ هـ) في مدينة تبريز الواقعة في بلاد فارس، وتلقى علومه صغيراً بعد عدة رحلات علمية في عدة مدن إسلامية أشهرها مدينة بغداد، وتلقى على أبي العلاء المعري، وعبد الظاهر الجرجاني، وابن الدهمان، وابن بابشاذ، والخطيب البغدادي، والطبري، وأبي القاسم وغيرهم، وتعلم عليه الجواليقي، وأبو طاهر السلفي، وأبو بكر بن العربي، وغيرهم، وكان له العديد من المؤلفات منها: شرح القصائد العشر، وشرح ديوان الحماسة لأبي تمام، وتهذيب إصلاح المنطق لابن السكيت، وكانت وفاته سنة (٥٠٢ هـ) في بغداد. انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي، وفيات الأعيان لابن خلكان (١٩١/٦).

(٤) هو: أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة علي البغدادي العلوي، عالم وإمام في النحو

وأما ابن الخشاب^(١): فسمعت بقراءته «معاني الزجاج»^(٢)، على الكاتبة شهدة بنت الأبري^(٣)، وسمعت منه الحديث المسلسل وهو: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في

والأدب، تعلم على كبار علماء عصره؛ كأبي الحسن المبارك بن الطيوري، وابن الخشاب، والتاج الكندي، وأبي الحسن ابن الزاهدة، وروى عنه كل من سليمان بن محمد الموصلي، وعبد الله بن عثمان البيع، وأحمد بن يحيى بن الربيع، وغيرهم، وكان ابن الشجري حسن الخلق، فريد عصره في اللغة والنحو والأدب، له من التصانيف: كتاب الأمالي كان يمليه على تلاميذه، وله كتاب الانتصار، ولد سنة (٤٤٥) وتوفي سنة (٥٤٢هـ) ودفن. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩٤/٢٠) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٤/١٣٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٩/٢٨٢).

(١) هو: أبو الفرج أحمد بن القاسم بن عبيد الله بن مهدي البغداد ابن الخشاب، الحافظ، حدث بدمشق وغيرها عن محمد بن محمد بن محمد بن الباغندي، ومحمد بن جديد، وعبد الله بن إسحاق المدائني، وأبي القاسم البغوي، وأبي جعفر الطحاوي، وحدث عنه تمام الرازي، وبقاء الخولاني، وعبد الوهاب الميداني، ومكي بن الغمر، ومحمد بن عوف المزني، وقد روى عنه بالإجازة عيسى بن علي الوزير، وتوفي سنة (٣٦٤هـ). انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغداد (٤/٣٥٣، ٣٥٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣/٤٨) الوافي بالوفيات للصفدي (٧/٢٩٢، ٢٩٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦/١٥١، ١٥٢).

(٢) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغداد، إمام لغوي، تعلم على أبي علي الفارسي اللغوي وغيره، كان ينادم المعتضد بالله أمير المؤمنين، ومؤدب القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد، له من المؤلفات: كتاب معاني القرآن، والإنسان وأعضائه، والنوادر، والفرس، وغيرها، وكانت وفاته سنة (٣١١هـ)، وقيل: (٣١٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤/٣٦٠) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢/٢٥٩).

(٣) هي: شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج الدينوري البغداد، كاتبة محدثة من أهل بغداد، سمعت من ابن طلحة النعالي، وعبد الواحد بن علوان، وثابت بن بندار، ومنصور بن حيد، وجعفر السراج، وغيرهم، وحدث عنها ابن عساكر، والسمعاني، وابن الجوزي، وابن الأخضر، وتاج الدين عبد الله بن حمويه، وبهاء الدين بن الجميزي، وأبو القاسم بن قميرة، والبهاء بن عبد الرحمن، وغيرهم، وكانت وفاتها سنة (٥٧٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/٥٤٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٤/٢٤٨).

الأرض يرحمكم من في السماء»^(١).

وقال أيضًا موفق الدين البغدادي: إن من مشايخه الذين انتفع بهم - كما زعم - ولد أمين الدولة^(٢) ابن التلميذ، وبالع في وصفه، وكثر، وهذا لكثرة تعصبه للعراقيين وإلا فولد أمين الدولة لم يكن بهذه المثابة، ولا قريبًا منها.

وقال: إنه ورد إلى بغداد رجل مغربي طوال في زي التصوف، له أبهة وليس بمقبول الصورة، عليه [مسحة]^(٣) الدين، وهيئة السياحة، يفعل لصورته من رآه قبل أن يخبره، يعرف بابن ناثلي، يزعم أنه من أولاد المتلثة، خرج من المغرب لما استولى عليها عبد المؤمن^(٤)، فلما استقر ببغداد واجتمع عليه جماعة من الأكابر والأعيان، وحضره الرضي القزويني، [وشيخ]^(٥) الشيوخ ابن سكتنة.

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) هو: هبة الله بن صاعد بن هبة الله بن إبراهيم، أبو الحسن المعروف بابن التلميذ، عالم بالطب والأدب، له شعر كله ملح ولطائف وابتكارات في بيتين أو ثلاثة، ومولده ووفاته ببغداد، خدم الخلفاء من بني العباس، وانتهت إليه رئاسة الأطباء في العراق، وكان عارفًا بالفارسية واليونانية والسريانية، وتولى البيمارستان العضدي إلى أن توفي، كما كان رئيسًا للنصارى ببغداد، ومن كتبه: حاشية على القانون لابن سينا، وحاشية على المنهاج لابن جزلة، وشرح مسائل حنين، وشرح أحاديث نبوية تشتمل على مسائل طبية، وله ديوان رسائل، وديوان شعر، وتوفي سنة (٥٦٠هـ/ ١١٦٥م). انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ١٩١٠) تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ١٤٤، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٢٢.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٤) هو: أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي، صاحب بلاد المغرب، كان شجاعًا مهيبًا، حلو الكلام فصيحًا، عالمًا باللغة والأدب، راوية للحديث الشريف، وله علم بالطب والفلسفة، استطاع أن ييسر نفوذه وسلطانه على بلاد المغرب ويمد سلطانه على الأندلس وبلاد السوس وغزا بلاد الروم وغيرها. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/ ٩٨).

(٥) ما بين الحاصرتين في الأصل: مشايخ الشيوخ، والمثبت من عيون الأنباء.

وكنت واحدًا من حضره فأقراني مقدمة الحساب، ومقدمة ابن بابشاذ^(١) في النحو، وكان له طريق في التعليم عجيب، ومن يحضره يظن أنه متبحر، وإنما كان متطرقًا، لكنه قد أمعن في كتب الكيمياء، والطلسمات، وما جرى مجراها، وأتى على كتب جابر بأسرها^(٢)، وعلى كتب ابن وحشية^(٣).

وكان يجلب القلوب بصورته ومنطقه، وإيمانه، فملاً قلبي شوقًا إلى العلوم كلها،

(١) هو: أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ المصري، إمام في النحو، قدم بغداد تاجرًا في اللؤلؤ وأخذ عن علمائها، ثم قرّر له الذهب في ديوان الإنشاء، ليحرّر عربية الترس، أخذ عنه أبو القاسم بن الفحام، ومحمد بن بركات السعيد، وقد تزهّد في أخريات حياته وتعبّد ولزم جامع مصر، وتوفي سنة (٤٦٩هـ). انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٧/١٢) وفيات الأعيان لابن خلكان (٥١٥/٢) إنباه الرواة للقفطي ٢ (٩٥/٩٥) بغية الوعاة للسيوطي (١٧/٢).

(٢) هو: جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي أبو موسى، فيلسوف كيميائي، كان يعرف بالصوفي، وهو من أهل الكوفة، وأصله من خراسان، اتصل بالبرامكة، وانقطع إلى أحدهم وهو جعفر بن يحيى، وجابر بن حيان هو أول من استخرج حامض الكبريتيك وسماه زيت الزاج، وأول من اكتشف الصودا الكاوية، وأول من استحضر ماء الذهب، وينسب إليه استحضر مركبات أخرى مثل: كربونات البوتاسيوم وكربونات الصوديوم، ومن أهم كتبه: أسرار الكيمياء، وعلم الهيئة، وأصول الكيمياء، والمكسب وتصحيحات كتب أفلاطون، وصندوق الحكمة، والخواص، المعروف بالمقالات الكبرى والرسائل السبعين، وتوفي جابر بن حيان سنة (٢٠٠هـ/٨١٥م). انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١١١، الفهرست لابن النديم ص ٦٨٢، تاريخ العلوم عند العرب لعمر فروخ ص ٢٤٣، أعلام العرب في الكيمياء، فاضل أحمد الطائي ص ٣٦.

(٣) هو: أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن المختار بن عبد الكريم بن حريث الكسداني، أحد فصحاء النبط بلغه الكسدانيين، وهو من أهل قيسين، ولد سنة (١٩٤هـ/٨٠٩م)، وكان يدّعي أنه ساحر ويعمل أعمال الطلسمات، ويعمل الصنعة، وكان عالمًا بالفلاحة والكيمياء والسحر والسموم، وغير ذلك، ومن كتبه في صنعة الكيمياء: كتاب الأصول الصغير، وكتاب الأصول الكبير، وكتاب المدرجة، وكتاب المذاكرات، وتوفي ابن وحشية سنة (٢٩٦هـ/٩٠٨م). انظر: الفهرست لابن النديم ص ٦٩٢، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه لعبد الحلّيم متصر ص ٢٢٦.

واجتمع بالإمام الناصر لدين الله^(١)، وأعجبه، ثم سافر، وأقبلت على الاشتغال، وشمرت ذيل الجد والاجتهاد، وهجرت النوم واللذات، وأكبت على كتب الغزالي^(٢): «المقاصد، والمعيار، والميزان، وعك النظر».

ثم انتقلت إلى كتب ابن سينا، صغارها وكبارها، وحفظت كتاب «النجاة» وكتبت «الشفاء» وبحثت فيه، وحصلت كتاب «التحصيل» لبهمنيار^(٣) - تلميذ ابن سينا.

(١) هو: أبو العباس أحمد ابن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي محمد ابن المستظهر بالله، الخليفة العباسي البغدادي، ولد سنة (٥٥٣هـ) وتولى خلافة المؤمنين سنة ٥٧٥هـ تعلم على كبار علماء عصره كآبي الحسن اليوسفي، وعلي بن عساكر البطائحي وأجازا له، كما أجاز للعديد من الأئمة، وأعاد للخلافة الإسلامية هيبتها، وكانت الرعية تخافه وتحشاه، وكان أبيض معتدل القامة، رقيقاً، أنور الجبهة، يشق الدروب والأسواق في الليل، ودانت له السلاطين والملوك، وخطب له بالأندلس والصين، وكان أطول خلفاء بني العباس حكماً، توفي سنة (٦٢٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢/١٩٢) فوات الوفيات للكتبي (١/٦٢) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٦/٣١٠) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٥/٩٧).

(٢) هو: زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي، حجة الإسلام وأعجوبة الزمان، تفقه ببلده أولاً ثم تحول إلى نيسابور مرافقة جماعة من الطلبة فلأزم إمام الحرمين فبرع في الفقه، ومهر في الكلام والجدل، وقد تولى التدريس في نظامية بغداد، وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة، ومن كتبه: إحياء علوم الدين، كيمياء السعادة، الجوامع العوام، الرد على الباطنية، جواهر القرآن، الغاية القصوى، فضائح الباطنية، وتوفي سنة (٥٠٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/٣٢٢-٣٤٤) الكامل لابن الأثير (١٠/٤٩١) وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/٢١٦) الوافي بالوفيات للصفدي (١/٢٧٤-٢٧٧) طبقات الشافعية للسبكي (٦/١٩١-٢٨٩).

(٣) هو: بهمنيار بن الرزبان الأذريجاني أبو الحسن، من الحكماء، وهو تلميذ ابن سينا، كان مجوسياً فأسلم، وله تأليف منها: كتاب ما بعد الطبيعة، وكتاب مراتب الموجودات، وكتاب التحصيل، وتوفي سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٦م). انظر: هدية العارفين (١/٢٤٤) طبقات الأطباء لابن جلجل (٢/١٩، ٢٠٤) تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣١٦.

وحصلت كثيرًا من كتب جابر بن حيان الصوفي، وابن وحشية، وباشرت [عمل]^(١) الصنعة الباطلة، وتجارب الضلال الفارغة، وأقوى من أضلني ابن سينا بكتابه في الصنعة، الذي تم به فلسفته التي لا تزاد بالتهام إلا نقصًا.

قال: ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة، حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملاً عيني، ويحل ما يشكل عليّ، دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتي، لكن وجدت الكمال ابن يونس^(٢) جيدًا في الرياضيات، والفقه، متطرقًا في باقى أجزاء الحكمة، قد استغرق عقله وحسه [حب]^(٣) الكيمياء، وعملها، حتى [صار]^(٤) يستخف ما عداها.

واجتمع إليّ جماعة كثيرة، وعرضت عليّ مناصب، فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر^(٥) المعلقة، ودار الحديث^(٦) التي تحتها.

(١) في الأصل: على، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) هو: أبو الفتح موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك الملقب بكمال الدين بن يونس الموصل، إمام فقيه بليغ، شافعي المذهب، درس على الكمال الأنباري، ويحيى بن سعدون القرطبي، وغيرهم، وكان ذكيًا في العلم، تعلم عليه ابن خلكان، والأبهري، وغيرهما، وكان يعزف علم السيمياء وتفسير القرآن، والفقه، وعلم النجوم وكانت وفاته سنة (٦٣٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٨٥/٢٣) وفيات الأعيان لابن خلكان (٣١٦/٥) فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي (٢٤٩/٣) تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٩٧.

(٣) ما بين الحاصرتين في الأصل: حسرة، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٥) إحدى مدارس الموصل، بناها أبناء أبي القاسم علوان بن مهاجر، الذي كان أحد أعلام القرن السادس الهجري، وكانت وفاته سنة (٦١٥هـ). انظر: تاريخ الموصل، سعيد الديوه جي ص ٣٥٠.

(٦) وهي: دار الحديث التي أقامها أبناء ابن مهاجر سنة (٥٥٢هـ)، ثم بنوا عليها المدرسة، ومن أقام بهذه الدار ودرس بها الكمال بن يونس وعبد اللطيف البغدادى. انظر: تاريخ الموصل، سعيد الديوه جي ص ٣٥٠.

وسمعت الناس يلهجون في حديث الشهاب السهروردي^(١) «المتفلسف» ويعتقدون أنه قد فاق الأولين والآخرين، وأن تصانيفه فوق تصانيف القدماء، فهممت لقصده، ثم أدركني التوفيق وطلبت من ابن يونس شيئاً من تصانيفه، وكان أيضاً معتقداً عليه، فوقفت على «التلويحات، واللمحة، والمعارج»، فصادفت فيها ما يدل على جهل أهل الزمان، ووجدت لي تعاليق كثيرة لا أرتضيها هي خير من كلام هذا الأنوك^(٢)، وفي أثناء كلامه يثبت حروفاً مقطعة يوهم بها أمثاله أنها أسرار إلهية!

قال: ولما دخلت دمشق وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الإحسان الصلاحي، جمعاً كثيراً، منهم: جمال الدين عبد اللطيف، ولد الشيخ أبي النجيب^(٣)، وجماعة بقيت من بيت رئيس الرؤساء، وابن طلحة الكاتب^(٤)، وبيت ابن جهير^(٥)، وابن

(١) هو: شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي، حكيم من الأوائل، وفيلسوف كبير، يشتهر بالذكاء والفتنة، طلبه السلطان الظاهر ملك حلب واختصه بنفسه، فحكيت ضده الدسائس، حتى أمر السلطان بقتله سنة (٥٨٦هـ)، وقيل: (٥٨٧هـ)، وعمره ٣٦ سنة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/٢٠٧)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٦/٢٦٨)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٤/٢٩٠).

(٢) في الأصل: الأنول، والتصحيح من عيون الانباء (٤/٢٢١).

(٣) هو: أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عموية بن سعد بن الحسن بن القاسم بن علقمة بن النضر بن معاد بن عبد الرحمن... ابن أبي بكر الصديق، إمام حافظ، وزاهد عابد من أهل بغداد، ولد في سهروردية سنة (٤٩٠هـ)، ثم رحل إلى بغداد في طلب العلم، فسمع على زاهر الشحامي، وأبي بكر الأنصاري، وآخرين، وكان عالماً يعظ الناس ويدعوهم إلى الله، ورحل إلى كثير من البلدان وبنى مدرسة ورباطين، وتولى التدريس في المدرسة النظامية، وكانت وفاته سنة (٥٦٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/٤٧٥) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٤/٢٠٨) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٥/٣٨٠).

(٤) ابن طلحة الكاتب: صاحب «مفتاح الفلاح في اعتقاد أهل الصلاح، ومطالب السؤال في مناقب آل الرسول»، توفي بحلب (٦٥٢هـ).

(٥) هو: أبو نصر المظفر بن علي بن محمد بن محمد بن جهير، فخر الدولة الوزير، من بيت علم وأدب

العطار المقتول الوزير.

واجتمعت بالكندي البغدادي النحوي، وجرى بيننا مباحثات، وكان شيخاً ذكياً، مثرياً، له جانب من السلطان، لكنه كان معجباً بنفسه، مؤذياً لجليسه، وجرت بيننا مباحثات فأظهرني الله تعالى عليه في مسائل كثيرة، ثم إني أهملت جانبه، فكان يتأذى بإهمالي له أكثر مما يتأذى الناس منه.

وعملت بدمشق تصانيف جمّة؛ منها: «غريب الحديث» الكبير، وجمعت فيه غريب أبي عبيد القاسم بن سلام، وغريب ابن شتية، وغريب الخطابي، وكنت ابتدأته بالموصل، وعملت له مختصراً سمّيته: «المجرد»، وعملت كتاب «الواضحة في إعراب الفاتحة» نحو عشرين كراساً، وكتاب: «رب»، وكتاباً في [الذات]^(١) والصفات الذاتية الجارية على السنة المتكلمين، وقصدت بهذه المسألة الرد على الكندي^(٢).

ووجدت بدمشق الشيخ عبد الله بن نائلي نازلاً بالمثدنة الغربية، وقد عكف عليه جماعة، وتحدث الناس فيه؛ له وعليه، وكان الخطيب الدولعي^(٣) عليه، وكان من الأعيان، له منزلة وناموس.

ثم خلط ابن نائلي على نفسه، فأعان عدوه عليه، وصار يتكلم في الكيمياء

وفضل وسيادة، كان جده وزيراً أيضاً، كان وزيراً للمقتفي سبع سنين، ثم خلع من الوزارة، وكان فاضلاً نبيلاً، سمع الحديث، وكانت وفاته سنة (٥٤٩هـ). انظر: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٣١٨/٥).

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٢) ذكر ابن أبي اصبيعة مؤلفات عبد اللطيف البغدادي. انظر: عيون الأنباء (٤/ ٢٤٢ وما بعدها).

(٣) هو: عبد الملك بن زيد بن ياسين الثعلبي الدولعي، أبو القاسم، فقيه شافعي أصله من قرية «الدولية» بالموصل، وانتقل إلى دمشق، وتولى الخطابة، ودروس الفقه الشافعي وعرف باسم الخطيب الدولعي. انظر: مرآة الزمان (٨/ ٥١١).

والفلسفة، وكثر التشنيع عليه، واجتمعت به، وصار يسألني عن أعمال أعتقد أنها خسية، نزرة، فيعظمها، ويحتفل بها، ويكتبها مني، فكاشفته فلم أجده كما كان في نفسي، فساء به ظني، وبطريقته.

ثم باحثته في العلوم، فوجدت عنده منها أطرافاً نزرة، فقلت له يوماً: لو صرفت زمانك الذي ضيعته في طلب الصنعة إلى بعض العلوم الشرعية، أو العقلية، كنت اليوم فريد عصرك. مخدوماً طوال عمرك، وهذا هو الكيمياء، لا ما تطلبه.

ثم اعتبرت بحاله، وانزجرت بسوء مآله، والسعيد من وعظ بغيره، فأقلعت [ولكن]^(١) لا كل الإقلاع.

ثم إنه توجه إلى صلاح الدين^(٢) بظاهر عكا، وشكا إليه الدولعي، وعاد مريضاً وحمل إلى البهارستان، فمات به، وأخذ كتبه المعتمد [شحنه]^(٣) دمشق، وكان متيماً

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٢) هو: الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بن حروان بن يعقوب الدينوري التكريتي، ملك مصر والشام، ولد سنة (٥٣٢هـ)، وطلب العلم صغيراً من أبي طاهر السلفي، وعلي ابن بنت أبي سعد، وأبي الطاهر بن عوف، والقطب النيسابوري، وكان مع عمه أسد الدين شريكه عندما كلف بحكم مصر من قبل نور الدين محمود، فلما توفي عمه أسد الدين تولى صلاح الدين مكانه، فأنشأ سوراً حول القاهرة، وكون الجيوش، وعندما توفي نور الدين محمود أعلن انفصاله بحكم مصر، وحصنها، ثم استولى على معظم مدن الشام والموصل، وأمد ونصيبين والرقه والرها وغيرها من الإمارات، وعندما بدأت الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي، كان صلاح الدين الأيوبي في طليعة من قاومهم، حتى استطاع أن يقضي على معظم إماراتهم في بلاد الشام، ثم استطاع أن يحرر القدس من أيديهم، وكان صلاح الدين مهيباً، شجاعاً، حازماً، مجاهداً في سبيل الله، حكم ما يقرب من عشرين سنة، وكانت وفاته سنة (٥٨٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٧٨/٢١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣٦٩/١١) وفيات الأعيان لابن خلكان (١٤٣/٧).

(٣) في الأصل: مشيخة، والمثبت من عيون الأنباء.

بالصنعة.

ثم إنني توجهت إلى زيارة البيت المقدس، ثم إلى صلاح الدين بظاهر عكا، واجتمعت ببهاء الدين بن شداد^(١) قاضي العسكر يومئذ، وكان قد اتصل به خبري بالموصل، فانبسط إليّ وأقبل عليّ، وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب، [فقمنا إليه]^(٢) وخيمته إلى خيمة بهاء الدين، فوجدته يكتب كتابًا إلى الديوان العزيز، بقلم الثلث من غير مسودة، وقال: هذا كتاب إلى بلدكم. وذاكرني في مسائل من علم الكلام، وقال: قوموا بنا إلى القاضي^(٣) الفاضل، فدخلنا عليه، فرأيت شيخًا ضئيلاً كله رأس وقلب، وهو يكتب ويملي على اثنين، ووجهه وشفاته تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام، وكأنه يكتب بجملته أعضائه.

وسألني القاضي الفاضل عن قوله تعالى: {حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها} [الزمر: ٧٣]، أين جواب إذا؟

وأين جواب «لو» في قوله تعالى: {ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال} [الرعد: ٣١].

وعن مسائل كثيرة، ومع هذا فلا يقطع الكتابة ولا الإملاء، وقال لي: ترجع إلى دمشق، وتجري عليك الجرايات. فقلت: أريد مصر. فقال: السلطان مشغول القلب بأخذ

(١) بهاء الدين بن شداد: صاحب «النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية» توفي في حلب سنة (٦٣٢هـ).

(٢) ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) هو: أبو علي عبد الرحيم بن أبي المجد علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمي، العسقلاني، مجير الدين، كان قاضيًا فاضلاً ومن وزراء السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وكان متقدماً في صناعة الإنشاء، وأستاذ البيان واللسان، له عدة رسائل جمعت في مجلدات منها رسالة في صفة القلعة، ورسالة إلى السلطان صلاح الدين، وله نظم جيد. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١٥٨/٣) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (١٥٦/٦).

الفرنج عكا^(١)، وقتل المسلمين بها. فقلت: لا بد لي من مصر.

فكتب لي ورقة صغيرة إلى وكيله بها، فلما دخلت القاهرة، وجاء وكيله، وكان شيخاً جليل القدر، نافذ الأمر، فأنزلني داراً قد أزيحت عللها، وجاءني بدنانير، وغلة، ثم مضى إلى أرباب الدولة، وقال: هذا ضيف القاضي الفاضل، فدرت الهدايا والصلوات من كل جانب، وكان كل عشرة أيام أو نحوها تصل تذكرة القاضي إلى ديوان مصر بمهمات الدولة، وفيها فصل يؤكد الوصية في حقّي، فأقمت بمسجد الحاجب لؤلؤ^(٢) أقرئ الناس.

وكان قصدي في مصر ثلاث أنفس: ياسين السيميائي، والرئيس موسى بن ميمون^(٣) اليهودي، وأبو القاسم الشارعي^(٤)، وكلهم جاءوني.

(١) عكا - بفتح أوله، وتشديد ثانيه - اسم بلد على ساحل بحر الشام من أعمال الأردن. انظر: معجم البلدان (٤/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) هو: الحاجب لؤلؤ العادلي، حاجب المعتضد بالله، وخادم الناصر صلاح الدين الأيوبي، كان شجاعاً مقداماً، كثير الإنفاق في وجوه الخير، أرميني المولد، ندب لحرب الفرنجة عند الكرك، فهزمهم وأسروهم وقتلهم بالقاهرة، وكانت وفاته بمصر سنة (٥٩٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/ ٣٨٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٤/ ٣٣٦) العبر في خبر من غير للذهبي (٤/ ٣٠٤).

(٣) هو: أبو عمران موسى ميمون الإسرائيلي الأندلسي الطيب، كان أوجد زمانه في علم الطب، والرياضيات، والمنطق، وكان طبيباً للسلطان صلاح الدين الأيوبي وابنه الأفضل، ويقال: إنه قد أسلم ببلاد المغرب، ثم حفظ القرآن الكريم وعمل في تدريس الفقه، ورحل إلى مصر والشام، وكانت وفاته في مصر سنة (٦٠٥هـ)، وقيل: (٦١٠هـ)، وكان له من الكتب تصنيفاً في شرح التلمود والتوراة، كما اختصر ٢١ كتاباً من كتب جالينوس، وهذب كتاب الاستكمال لابن أفلح الأندلسي، وله مقالة في علاج الحدة، ومقالة في السموم وتنقيح الفصول. انظر: فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي (٤/ ١٧٥)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٠٩.

(٤) هو: أبو القاسم قطب الدين عمر بن عوض بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب الشارعي، المعروف

أما ياسين فوجدته محالاً كذاباً، يشهد للشاقاني بالكيمياء، ويشهد له الشاقاني بالسيما^(١) ويقول عنه: إنه يعلم أعمالاً يعجز موسى بن عمران عليه السلام عنها، وأنه يحضر الذهب المضروب متى شاء، وبأي مقدار شاء، وبأي سكة شاء، وأنه يجعل ماء النيل خيمة ويجلس فيها وأصحابه تحتها، وكان ضعيف الحال.

وجاءني موسى فوجدته فاضلاً في الغاية، قد غلب عليه حب الرياسة، وجاءني وخدمة [أرباب]^(٢) الدنيا، وعمل كتاباً في الطب جمعه من «الستة عشر»^(٣) لجالينوس، ومن خمسة كتب أخرى، شرط أن لا يغير فيه حرفاً، إلا أن يكون واو عطف أو فاء وصل، إنما ينقله فصولاً يختارها، وعمل كتاباً لليهود سماه: «كتاب الدلالة»^(٤) ولعن من يكتبه بغير القلم العبراني، ووقفت عليه، فوجدته كتاب سوء يفسد أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصلحها.

وكنت ذات يوم بالمسجد وعندني خلق كثير، فدخل شيخ رث الثياب، نير الطلعة،

بأبن قليلة، كانت وفاته بعد سنة (٧٠٠هـ). انظر: وفيات الوفيات لابن شاکر الکتبی (١٣٧/٣) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانی (٢٥٨/٣).

(١) السيماء: لغة: العلامة. ومصطلحاً كان يراد به محاولة بعض المشعذين وغيرهم تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة.

(٢) في الأصل: أبواب، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) الستة عشر كتاباً لجالينوس؛ وهي: أولها كتابه في فِرْق الطب، ثم كتابه في الأسطقات، ثم كتابه في المزاج، ثم كتابه في الأدوية المفردة، ثم كتابه في الأدوية المركبة، ثم كتابه في العلل والأعراض، ثم كتابه في الأعضاء الآلة، ثم كتابه في حيلة البرء، ثم كتابه في القوى الطبيعية، ثم رسالته إلى أغلوقن، ثم كتابه في اتفاق آراء أبقراط وأفلاطن، ثم كتابه في البحران، ثم كتابه في أيام البحران، ثم كتابه في الحميات، ثم كتابه في أصناف الحميات، ثم كتابه في النبض إلى طوثرنا. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل، تحقيق: فؤاد سيد ص ٤٢.

(٤) يقصد كتاب موسى بن ميمون: دلالة الحائرين.

مقبول الصورة، فهابه الجمع، ورفعوه فوقهم، وأخذت في إتمام كلامي فلما تصرم^(١) المجلس، جاء إمام المسجد وقال: أتعرف هذا الشيخ؟ هذا أبو القاسم الشارعي، فاعتنقته، وقلت: إياك أطلب، فأخذته إلى منزلي، وأكلنا الطعام، وتفاوضنا الحديث، فوجدته كما تشتهي النفس، وتلد الأعين، سيرته سيرة الحكماء العقلاء، وكذا صورته، قد رضي من الدنيا بالقليل، لا يتعلق بشيء منها يشغله عن طلب الفضل، ثم لازمني فوجدته قيماً بكتب القدماء، وكُتب أبي نصر الفارابي ولم يكن لي اعتقاد في هؤلاء لأنني كنت أظن أن الحكمة كلها حازها ابن سينا، وحشاها كتبه، فكنا إذا تفاوضنا الحديث أغلبه بقوة الجدل، وفضل اللسان، ويغلبني بقوة الحجة وظهور المحجة، وأنا لا تلين قناتي لغمزه، ولا أحيذ عن جادة الهوى والتعصب برمزه، فصار يحضرنى شيئاً بعد شيء من كتب أبي نصر، والإسكندر، وثامسطيوس^(٢)، يؤنس بذلك نفاري، ويلين عريكة شماسي، حتى عطف على أقدم رجلاً وأوخر أخرى.

وشاع أن صلاح الدين هادن الفرنج، وعاد إلى القدس، فقادتني الضرورة إلى التوجه إليه، فأخذت من كتب القدماء ما أمكنني، وتوجهت إلى القدس، فرأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة، والقلوب محبة، قريباً بعيداً، سهلاً محبباً، وأصحابه يتشبهون به، يتسابقون إلى المعروف، كما قال الله تعالى: {ونزعنا ما في صدورهم من غل} [الأعراف: ٤٣]. وأول ليلة حضرته، وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم، يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقه في

(١) تصرم: انتهى.

(٢) فيلسوف وحكيم، معنى اسمه: المؤمن بالله، كان يفسر كتب الحكيم اليوناني أرسطوطاليس، وكان كاتباً لليوليانس المرتد إلى مذهب الفلاسفة عن النصرانية، وكان وزيراً لضابيس الملك، وله من الكتب: تفسير كتب أرسطوطاليس، وكتاب ليوليانس في التدبير، وكتاب الرسالة إلى لوليان الملك. انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٧٥، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري

ذلك، ويأتي بكل معنى بديع، وكان مهتمًا في بناء سور المقدس وحفر خندقه، ويتولى ذلك بنفسه، ويحمل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الفقراء والأغنياء، والأقرباء والضعفاء، حتى العماد الكاتب^(١)، والقاضي الفاضل، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر، فيأتي داره، فيمد السباط فيأكل ويستريح، ويركب العصر، ويرجع في المساء، [ويصرف^(٢) أكثر الليل في تدبير^(٣) ما يعمل نهارًا. فكتب لي صلاح الدين ثلاثين دينارًا كل شهر، على ديوان الجامع، وأطلق لي أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار.

ورجعت إلى دمشق وأكبيت على الاشتغال وإقراء الناس بالجامع، وكلما أمعنت في كتب القدماء ازدادت فيها رغبة، وفي كتب ابن سينا زهادة، واطلعت على بطلان الكيمياء، وعرفت حقيقة الحال في وضعها، ومن وضعها، وكذب بها، وما كان قصده في ذلك، وخلصت من ضلالين عظيمين موبقين، وتضاعف شكري لله تعالى على ذلك، فإن

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجا حامد بن محمد بن عبد الله عماد الدين الكاتب الأصبهاني، إمام وفقه، شافعي المذهب، وكان قد طلب العلم صغيرًا، ودرس على كبار علماء بغداد؛ كآبي منصور سعيد بن محمد بن الرزاز، وأبي الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام، وأبي بكر أحمد بن علي بن الأشقر وغيرهم، وكانت له معرفة كبيرة بالأدب والخلاف، وله شعر ورسائل جيدة، ولما أجاد العلم عينه الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة النظر بالبصرة وواسط، وكان مقدمًا عند نور الدين محمود بن زنكي، أمير الموصل والشام، وخدم السلطان صلاح الدين الأيوبي في حلب فترة من الزمن. وله العديد من المؤلفات والكتب منها: خريدة القصر وجريدة العصر، وكتاب البرق الشامي، والفتح المقدسي في الفتح القدسي، والسيل على الذيل، وله أشعار مجموعة في ديوان شعر كبير، وكانت وفاته بعد سنة (٥٦٠هـ). انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١٤٧/٥) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٨/١١) الطبقات الكبرى للسبكي (٩٧/٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣٣٢/٤).

(٢) في عيون الأنباء: المساء.

(٣) ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

أكثر الناس إنما هلكوا بكتب ابن سينا وبالكيمياء.

ثم إن صلاح الدين دخل دمشق، وخرج يودع الحاج، ثم رجع فحُمّ، فقصده من لا خبرة عنده، فخارت القوى، ومات قبل الرابع [عشر]^(١)، ووجد الناس عليه شبيهًا بما يجدونه على الأنبياء، وما رأيت ملكًا حزن الناس لموته سواه؛ لأنه كان محبوبًا، يحبه البرّ والفاجر، والمسلم والكافر، ثم تفرق أولاده وأصحابه أيادي سبأ، ومزقوا في البلاد كل ممزق، وأكثرهم توجه إلى مصر لخصبها، وسعة صدر ملكها.

وأقامت بدمشق وملكها الملك الأفضل^(٢)، وهو أكبر الأولاد في السن، إلى أن جاء الملك العزيز^(٣) بعساكر مصر، يحاصر أخاه بدمشق، فلم ينل منه بغية، ثم تأخر إلى مرج

(١) ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) هو: الملك الأفضل أبو الحسن علي بن الناصر صلاح الدين الأيوبي، ملك دمشق، تولى حكم بلاد دمشق بعد وفاة والده الناصر صلاح الدين فيها لبث أنه قاتله الملك العزيز، ودارت بينهما عدة حروب، اضطر معها الملك الأفضل أن يتعد عن حكم دمشق، ويستقر في صرخد وسميساط ويكتفي بها، وظل الملك الأفضل في سميساط إلى أن توفي بها سنة (٦٢٢هـ) عن عمر يناهز ٥٦ سنة. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/٢٩٤) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠١/٥) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (١٢/٢٣٤).

(٣) هو: الملك العزيز أبو عمر عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر والشام، ولد سنة (٥٦٧هـ) وكان قد تلقى العلم والحديث صغيرًا على أبي طاهر السلفي، وأبي طاهر بن عوف، وعبد الله بن بري النحوي، وكان يروى الحديث، وكان ملكًا شجاعًا عفيفًا، ظريفًا، تولى حكم مصر والشام بعد وفاة والده الملك الناصر، فدخل دمشق وبني بها مدرسته المسماة المدرسة العزيزية، واشتهر بالبناء والتشييد، والعدل، وكانت الرعية تحبه وتجلّه، وكانت وفاته في مصر في منطقة الفيوم، حيث سقط من على ظهر فرسه فشق صدره؛ فمر أسبوعين مات بعدهما، وكان ذلك سنة (٥٩٥هـ). انظر: الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر الدمشقي (١/٣٨٧) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/٢٩٢) العبر في خبر من غير للذهبي (٤/٢٨٦).

الصفري^(١) لقولنج عرض له، فخرجت إليه بعد خلاصه منه، فأذن لي في الرحيل معه، وأجرى عليّ من بيت المال كفايتي وزيادة، وأقمت مع الشيخ أبي القاسم يلازميني صباح مساء إلى أن قضى نحبه، ولما اشتد مرضه وكان ذات الجنب^(٢) عن نزلة من رأسه، وأشرت عليه بدواء، فأنشد: [المديد]

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المرم من ثمره

ثم سأله عن ألمه؟ فقال:

ما لجرح بميت إسلام

وكان سيرتي في هذه المدة أنني أقرئ الناس في الجامع الأزهر إلى نحو الساعة الرابعة، ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره، وآخر النهار أرجع إلى الجامع، فيقرأ قوم آخرون، وفي الليل أشتغل مع نفسي، ولم أزل على ذلك إلى أن توفي الملك العزيز، وكان شاباً كريماً، شجاعاً، كثير الحياء، لا يحسن قول: «لا»، وكان مع حداثة سنه [وشرح]^(٣) وشبابه كامل العفة عن الأموال والفروج.

أقول: ثم إن الشيخ موفق الدين أقام بالقاهرة بعد ذلك بمدة، وله الراتب

(١) مرج الصفري ببلاد الشام، كان يسكنها النصارى ويحكمها الرومان، وفيها وقعت معركة كبيرة بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد في عهد أمير المؤمنين أبي بكر الصديق، وبين جيوش الروم بقيادة الدرنجار، الذي جاء من قبل قيصر الروم لنجدة أهل دمشق خوفاً من سقوطها تحت سيوف المسلمين. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٥٣٥.

(٢) ذات الجنب: وهو نوعان: أحدهما جاف ويدعى البرسام وهو يدعى ذات الجنب الانصبابي، ويحدث غالباً بعد البرسام وإن لم يشف ويحول في حينه يتكون سائل مصلي بين ورقتي غشاء الجنب فينقلب ذات الجنب الجاف إلى الانصبابي، وتختلف كمية السائل من عدة مليمترات إلى لتر أو لترين أو أكثر حسب شدة الالتهاب، ويتصف المرض بحمى عالية وضيق النفس وسعال جاف. انظر: المنصوري في الطب ص ٦٥٦.

(٣) ما بين الحاصرتين في الأصل: شره، والمثبت من عيون الأنبياء.

والجرايات من أولاد الملك الناصر صلاح الدين.

وأتى إلى مصر ذلك الغلاء العظيم، والموت الذي لم يشاهد مثله، وألف الشيخ موفق الدين في ذلك كتاباً ذكر فيه أشياء شاهدها أو سمعها عن عاينها، تذهل العقل، وسمى ذلك الكتاب: «كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر».

ثم لما ملك السلطان العادل سيف الدين^(١) أبو بكر بن أيوب الديار المصرية، [وأكثر الشام]^(٢) والشرق، وتفرقت أولاد أخيه الملك الناصر صلاح الدين، وانتزع ملكهم، وتوجه الشيخ موفق الدين إلى القدس، وأقام به مدة، وكان يتردد إلى الجامع الأقصى، ويشغل الناس عليه بكثير من العلوم، وصنف هنالك كتباً كثيرة، ثم إنه اتجه إلى دمشق، ونزل بالمدرسة العزيزية^(٣)، وذلك في سنة أربع وستائة، وشرع في التدريس

(١) هو: الملك أبو الملك سيف الدين أبو بكر بن نجم الدين أيوب بن شاذي بن حروان بن يعقوب الدويني التكريتي البعلبكي، ولد سنة (٥٣٤هـ) في بعلبك، ونشأ في خدمة نور الدين محمود، ثم أنابه مصر وحلب، والكرك وحران، وكان عاقلاً شجاعاً ذاهية، صائب الرأي حليماً، فيه عفة، مهيباً، قامت بينه وبين أخيه صلاح الدين من الحروب والفتن حتى شتتهم، وقسم البلاد بين أولاده، فخلع الناصر لدين الله، فأقام الإسلام، ومنع الخمر والفواحش من البلاد، وتصدق بكثير من الأموال، توفي سنة (٦١٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١١٥/٢٢) وفيات الأعيان لابن خلكان (٧٤/٥) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٢٣٥/٢).

(٢) في الأصل: وأكثرهم، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) مدرسة بناها الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين بن أيوب، شرقي التربة الصالحية، شمالي الفاضلية بالكلاسة مجاورة المسجد الأموي، ونقل إليها والده، فكانت هذه المدرسة مجتمعة للفضلاء من الأمراء والملوك والرؤساء، ودرس بها العديد من أفاضل العلماء؛ منهم: قاضي القضاة محيي الدين، وجمال الدين بن الحرستاني (عبد الصمد بن محمد)، وسيف الدين (علي بن أبي علي بن محمد بن سالم) الأمدي، وغيرهم، والمدرسة العزيزية في العصر الحديث قد دُرست ولم يبق منها سوى عقد إيوانها، وبعض جدرانها. انظر: الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر الدمشقي (١/٣٨٢).

والاشتغال، وكان يأتيه خلق كثير، يشتغلون عليه، ويقراءون أصنافاً من العلوم، وتميز في صناعة الطب بدمشق، وصنف في هذا الفن كتباً كثيرة، وعرف به، وأما قبل ذلك فإنها كانت شهرته بعلم النحو، وأقام بدمشق مدة وانتفع به الناس، ثم سافر إلى حلب وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة، وكان في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام^(١) صاحب أرزنجان، وكان مكيّاً عنده، عظيم المنزلة، وله منه الجامكية الوفرة، والصلوات المتواترة، وصنف باسمه عدة كتب، وكان هذا الملك عالي الهمة، كثير الحياء، كريم النفس، وقد اشتغل بشيء من العلوم، ولم يزل في خدمته إلى أن استولى على ملكه صاحب أرزن^(٢) الروم، وهو السلطان كيقياد بن كيخسرو^(٣) بن قلع أرسلان، فقبض على صاحب أرزنجان ولم يظهر له خبر.

قال الشيخ موفق الدين عبد اللطيف: ولما كان في سابع عشر ذي الحجة من سنة خمس وعشرين وستمائة توجهت إلى أرزن الروم، وفي حادي عشر صفر من سنة ست وعشرين وستمائة رجعت إلى أرزنجان من أرزن الروم، وفي نصف ربيع الأول توجهت إلى كياخ^(٤)، وفي جمادى الأولى توجهت منها إلى دير زكي^(٥)، وفي رجب توجهت منها إلى

(١) راجع عنه: فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي (٣٨٧/٢).

(٢) أرزن: مدينة بالقرب من مدينة ميفارقين في بلاد الشام، كان عياض بن غنم قد فتحها على صلح الرها، وقيل: على صلح نصيبين، وهي مدينة كثيرة الأسواق والعمران. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٢٦، فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٠٨.

(٣) هو: السلطان علاء الدين كيقياد بن كيخسرو بن قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان السلجوقي، ملك مملكة الروم، كان ملكاً شجاعاً، وقوراً عادلاً، ذا إنصاف للرعية، تولى حكم البلاد بعد أخيه كيكاوس، وتولى رعاية أبناء أخيه، وكانت وفاته سنة (٦٣٤ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٤/٢٣) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١٦٨/٥).

(٤) كياخ: وتكتب أيضاً كمخ - بالفتح ثم السكون -: مدينة بالروم. معجم البلدان (٥٤٤/٤).

(٥) مدينة بالرها، فيه بساين حسنة جميلة، وكان عبد الله بن طاهر قائد الخليفة المأمون ينزل فيه، ويشرب مع أصدقائه هناك. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٢٥٢.

ملطية^(١)، وفي آخر رمضان توجهت منها إلى حلب.

أقول^(٢): وأقام الشيخ موفق الدين بحلب والناس يشتغلون عليه، وكثرت تصانيفه، وكان له من شهاب الدين طغرل الخادم^(٣) أتابك العسكر حلب جار حسن، وهو متخل لتدريس صناعة الطب وغيرها، ويتردد إلى الجامع يسمع الحديث، ويُقرئ العربية، وكان دائم الاشتغال ملازمًا للكتابة والتصنيف.

ولما أقام بحلب، قصدت أن أتوجه إليه، وأجتمع به، فلم يتفق ذلك، وكانت كتبه أبدًا تصل إلينا ومراسلاته، وبعث إليَّ بأشياء من تصانيفه بخطه.

وهذا نسخة كتاب كتبه إليه لما كان بمدينة حلب:

«المملوك يواصل بدعائه وثنائه، وشكره وانتمائه إلى عبودية المجلس السامي،

(١) إحدى المدن الكبرى في ثغور بلاد الشام، وكان الروم قد خربوا بنيانها، فقام أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي سنة (١٣٩هـ) ببناؤها وإحكام الأسوار حولها، وكان حبيب بن سلمة الفهري قد فتحها عنوة قبل عياض بن غنم، فجعلها معاوية بن أبي سفيان مركزًا لشحن جيوش الصوائف؛ لأنها كانت في طريقهم إلى بلاد الروم، وظلت المدينة في تردد بين سيطرة المسلمين عليها وسيطرة الروم، الذين ما لبثوا أن هدموا مبانيها، فبناها أبو جعفر المنصور وعسكر فيها جنوده وبنى بها المساجد، وظلت تحت حكم المسلمين في أمان ورغد عيش حتى سنة (١٣٣هـ) عندما دخلها الروم بقيادة قسطنطين بن الليون، وهدم ما بها من مبانٍ ومساجد ودور للمسلمين، ومع ذلك فقد قاتله المسلمون بها قتالًا شديدًا لم يجعله يستطيع أن يسيطر عليها سيطرة كاملة، مما جعلهم يحاولون إعادة الغارة عليها في عهد هارون الرشيد. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٥٤٥.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء (٤/٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) هو: طغرل بك السلجوقي، وهو أول أمير سلجوقي، استطاع أن يقبض على الملك الرحيم، ملك الديلم، وخلص الخليفة العباسي القائم بأمر الله من الحبس، وأدخله إلى قصره، ودار خلافته، ومشى في ركابه وبين يديه إلى أن وصل عتبة داره، وقبّل يده، فأصبحت سنة بعد ذلك. انظر: وفیات الوفیات لابن شاکر الکتبی (٢/١٥٧).

المولوي، السيدي السندي، الأجلي الكبير، العالمي الفاضلي، موفق الدين سيد العلماء في الغائبين والحاضرين، جامع العلوم المتفرقة في العالمين، ولي أمير المؤمنين، أوضح الله به سبل الهدى والهداية، وأنار ببقائه طرق الدراية، وحقق بحقائق ألفاظه صحيح الولاية، ولا زالت سعادته دائمة البقاء، وسيادته سامية الارتقاء، وتصانيفه في الآفاق قدوة العلماء، وعمدة سائر الأدباء والحكماء.

المملوك يجدد الخدمة، ويهدي من السلام أطيبه، ومن الشكر والثناء أعذبه، وينهى ما يكابده من أليم التطلع إلى مشاهدة أنوار شمس المنيرة، وما يعانيه من الارتياح إلى ملاحظة شريف حضرته الأثيرة، وما تزايد القلق وتعظم عند سماعه قرب الزار من الأرق: [الوافر]

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

ولولا أمل قفول الركاب العالي، ووصول الجناح الموقفي الجلالي، لسارع المملوك إلى الوصول، ولبادر المبادرة بالمثل، ولجاء إلى شريف خدمته، وفاز بالنظر إلى بهي طلعه، فيا سعادة من فاز بالنظر إليه، وبأبشرى من مثل بين يديه، وبأهناء من حظي بوجه إقباله عليه، ومن ورد بحار فضله روي من نميرها، واستضاء بشمس علمه، فسرى في أضواء منيرها، نسأل الله تعالى تقريب الاجتماع وتحصيل الجمع بين مسرقي الأبصار والأسماع، بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى.

ومن مراسلات الشيخ موفق الدين عبد اللطيف، أنه بعث إلى أبي في أول كتاب، وهو يقول فيه عني: «ولد الولد أعز من الولد، وهذا موفق الدين ولد ولدي، وأعز الناس عندي، وما زالت النجاة تتبين لي فيه من الصغر». ووصف وأثنى كثيراً وقال فيه: «لو أمكنني أني آتي إليه بالقصد ليشغل عليّ لفعلت».

وبالجملة فإنه كان قد عزم أن يأتي دمشق، ويقيم بها، ثم خطر له أنه كان يحج قبل

ذلك، ويجعل طريقه على بغداد، وأن يقدم بها للخليفة المستنصر بالله^(١) أشياء من تصانيفه.

ولما وصل إلى بغداد مرض في أثناء ذلك، وتوفي -رحمه الله تعالى- يوم الأحد ثاني عشر المحرم سنة تسع وعشرين وست مائة، ودفن بالوردية عند أبيه، وذلك بعد أن خرج عن بغداد وبقي غائباً عنها خمسة وأربعين عاماً! ثم إن الله تعالى ساقه إليها وأماته بها^(٢).

ومن كلام موفق الدين عبد اللطيف -مما نقلته من خطه^(٣)- قال: «ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة إذا أويت إلى فراشك وتنظر ما اكتسبت في يومك، من حسنة تشكر الله عليها، أو سيئة تستغفر الله منها، وتقلع عنها، وترتب في نفسك ما تعمله من الحسنات، وتسأل الله الإعانة على ذلك».

وقال: «أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب، وإن وثقت من نفسك بقوة الفهم، وعليك بالأستاذين في كل علم تطلب اكتسابه، ولو كان الأستاذ ناقصاً، فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه، وعليك بتعظيمه، وتوجيهه، وإن قدرت أن تفيد من دنيائك فافعل، وإلا بلسانك وثنائك، وإذا قرأت كتاباً فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه، وتوهم أن الكتاب قد عدم، وأنت مستغن عنه، لا تحزن لفقده».

(١) هو: أبو جعفر عبد الله بن الظاهر محمد بن الإمام الناصر أمير المؤمنين، بويع للخلافة وعمره عشرون سنة، وكان ذلك سنة (٥٢٣هـ)، ولقب بالمستنصر بالله، وكان يحب العلم والعلماء، فجدد المدرسة المستنصرية، ووقفها على المذاهب الأربعة، وأوقف عليها الكتب النفيسة، وفي عهده حارب جنود التتار وهزمهم في عدة معارك، وكانت وفاته سنة (٦٣٩هـ). انظر: الجواهر الثمين لابن دقماق (٢١٨/١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٩٣.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٤/ ٢١١-٢٣٦).

(٣) أي مما نقله ابن أبي أصيبعة من خط موفق الدين عبد اللطيف البغدادي. انظر: عيون الأنباء

«وإذا كنت مكبًا على قراءة كتاب وتفهمه، فأياك أن تشتغل بآخر غيره معه، واصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره إليه».

«وإياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة، وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين، أو ما شاء الله، فإذا قضيت وطرك فانتقل إلى علم آخر، ولا تظن أنك إذا حصلت علمًا فقد اكتفيت، بل تحتاج إلى مراعاته [لينمو ولا ينقص]^(١)، ومراعاته تكون بالذاكرة، والتفكير، واشتغال المبتدئ بالتلفظ والتعلم، ومباحثة الأقران، واشتغال العالم بالتعليم، والتصنيف»^(٢).

«وإذا تصديت لتعلم علم، أو للمناظرة فيه، فلا تمزج به غيره من العلوم، فإن كل علم مكتفٍ بنفسه، مستغنٍ عن غيره، فإن استعانتك في علم بعلم عجز عن استيفاء أقسامه، كمن يستعين في لغة بلغة أخرى إذا ضاقت عليه، أو جهل بعضها».

وقال: «وينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ، وأن يطلع على السير، وتجارب الأمم، فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية، وعاصرهم، وعاشرهم، وعرف خيرهم وشرهم».

وقال: «وينبغي أن تكون سيرتك سيرة الصدر الأول، فاقراً سيرة النبي - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم - وتبج أحواله، وأفعاله، واقتفِ آثاره ما أمكنك، وبقدر طاقتك، وإذا وقفت على سيرته في مطعمه، ومشربه، ومناومه، وبقظته، وعمرضه، وتطبيه، وتمتعه وتطيه، ومعاملته مع ربه، ومع أزواجه، وأصحابه، وأفعاله مع أعدائه، وفعلت اليسير من ذلك فأنت السعيد كل السعيد».

قال: «وينبغي أن تكثر اتهامك لنفسك، ولا تحسن الظن بها، وتعرض خواطرك

(١) ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) ما بين الحاصرتين في الأصل: والتنشيف واشتغال العلم بالتعلم.

على العلماء، وعلى تصانيفهم ولا تعجل ولا تعجب، فمع العجب العثار، ومع الاستبداد الزلل، [ومن لم يعرق]^(١) جبينه إلى أبواب العلماء لم يعرق في الفضيلة، ومن لم ينجلوه [لم ييجله]^(٢) الناس، ومن لم ييكتوه لم يسد، ومن لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح.

«وإذا خلوت من التعلم والتفكير فحرك لسانك بذكر الله تعالى، وبتسبيحه، وخاصة عند النوم، فيتشربه لبك، ويتعجن في خيالك، وتتكلم به في منامك».

«وإذا حدث لك فرح أو سرور ببعض أمور الدنيا، فاذكر الموت، وسرعة الزوال، وأصناف المنغصات، وإذا حزبك أمر فاسترجع، وإذا اعترتك غفلة فاستغفر، واجعل الموت نصب عينيك، والعلم والتقوى زادك إلى الآخرة، وإذا طلبت أن تعصي الله فاطلب مكاناً لا يراك فيه! واعلم أن الناس عيون الله على العبد، يريهم خيره وإن أخفاه، وشره وإن ستره، فباطنه مكشوف لله، والله يكشفه لعباده، فعليك أن تجعل باطنك خيراً من ظاهرك، وسرك أصح من علانيتك، ولا تتألم إذا أعرضت عنك الدنيا، فلو عرضت لك لشغلتك عن كسب الفضائل، وقل ما يتعلق في العلم ذو الثروة، وإلا أن يكون شريف الهمة جداً، أو أن يثرى بعد تحصيل العلم، وإني لا أقول إن الدنيا تعرض عن طالب العلم بل هو الذي يعرض عنها؛ لأن همته مصروفة إلى العلم، فلا يبقى له التفات إلى الدنيا، والدنيا إنما تحصل بحرص وفكر في وجودها، فإذا غفل عن أسبابها لم تأته. وأيضاً فإن طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع الرذلة، والمكاسب الدنية، وعن أصناف [التجارات]^(٣)، وعن التذلل لأرباب الدنيا، والوقوف على [أبوابهم]^(٤).

(١) في الأصل: ومن يتردد، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) التصحيح من عيون الأنباء (٢٣٩/٤)، ط. هيئة الكتاب بتحقيقي.

(٤) لتصحيح من عيون الأنباء (٢٣٩/٤)، ط. هيئة الكتاب بتحقيقي.

ولبعض إخواننا بيت شعر: [الكامل].

من جد في طلب العلوم أفاته شرف العلوم دناءة التحصيل

وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج إلى فراغ لها، وحذق فيها، وصرف الزمان إليها، والمشتغل بالعلم لا يسعه شيء من ذلك، وإنما ينتظر أن تأتيه الدنيا بلا سبب، وتطلبه من غير أن يطلبها طلب مثلها، وهذا ظلم منه وعدوان، ولكن إذا تمكن الرجل من العلم، وشهر به، خطب من كل وجه، وعرضت عليه المناصب، وجاءته الدنيا صاغرة، وأخذها وماء وجهه موفور، وعرضه ودينه مصون.

«واعلم أن [للعلم]^(١) عقبة وعرقا ينادي على صاحبه، ونورا وضياء يشرق عليه، ويدل عليه، كتاجر المسك لا يخفى مكانه، ولا تجهل صناعته، وكمن يمشي بمشعل في ليل مدلم^(٢)، والعالم مع هذا محبوب أينما كان، وكيفما كان، لا يجد إلا من يميل إليه، ويؤثر قربيه، ويأنس به، ويرتاح بمداناته».

«واعلم أن العلوم تغور ثم تغور في زمان، بمنزلة النبات أو عيون المياه، وتنتقل من قوم إلى قوم، ومن صقع إلى صقع».

وقال: «وإياك والهذر، والكلام فيما لا يعني، وإياك والسكوت في محل الحاجة، ورجوع النوبة إليك إما لاستخراج حق، أو اجتلاب مودة، أو تنبيه على فضيلة، وإياك والضحك مع كلامك، وكثرة الكلام وتبتيه، بل اجمع كلامك سرداً بسكون ووقار، بحيث يستشعر منك أن وراءه أكثر منه، وأنه عن خيرة سابقة، ونظر متقدم».

وقال: «وإياك والغلظة في الخطاب، والجفاء في المناظرة، فإن ذلك يذهب ببهجة الكلام، ويسقط فائدته، ويعدم جلاوته، ويجلب الضغائن، ويمحق المودات، ويصير

(١) في الأصل: لدين، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) مدلم: أي مظلم.

القائل مستثقلًا، سكوته أشهى إلى السامع من كلامه، ويثير النفوس على معاندته، ويبسط الألسن بمخاشنته، وإذهاب حرمة».

وقال: «لا ترفع بحيث تستثقل، ولا تنازل بحيث تستخس وتستحقّر».

ومن دعائه - رحمه الله تعالى - قال: «اللهم أعذنا من شمس الطبيعة، وجوحر النفس الرديئة، وأسلس لنا مقاد التوفيق، وخذ بنا في سواء الطريق، يا هادي العمى! يا مرشد الضلال! يا محيي القلوب الميتة بالإيمان! يا منير ظلمة الضلالة بنور الإيقان! خذ بأيدينا من مهواة الهلكة، ونجنا من ردغة^(١) الطبيعة، وطهرنا من درن الدنيا الدنية بالإخلاص لك والتقوى، إنك مالك الآخرة والدنيا».

وله تسييح أيضًا: «سبحان من عمَّ بحكمته الوجود، واستحق بكل وجه أن يكون هو المعبود، تلالأت بنور وجهك وجلالك الآفاق، وأشرقت شمس معرفتك على النفوس إشراقًا وأي إشراق!»^(٢).

(١) الردغة: الأوجال والطين.

(٢) انظر: عيون الأنبياء (٤/ ٢٣٦-٢٤٢).

ومنهم:

٢٤- ابن الخوي: أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى الشافعي، شمس الدين، أبو العباس^(١)

قاضي القضاة، أوحد العلماء، مجموع الفضائل، دوحة مجد أخضر فرعها، ودر كالمعصرات ضرعها، ومدّت الأفياء والظلال، وردّت الأحياء والضال، طال على يد المجتنى منعها، وطاب ثمرها المثمر ونبعها، وجاءت له العلياء وفاقاً، وجادت له السحب الرواء دفاقاً، فطنبت شمس على السماء رواقاً، وتطلبت فواضله للنفاق أشواقاً، ثم حلّ لدن المعظم شرف الدين عيسى فحل بيت شرفه، وحل مكاناً في مقاعد غرفه، ثم لم يتحول من أفقه، ولا أضاء له ضوء نهار إلا بين أصيله وشفقه.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان أوحد زمانه في العلوم الحكيمة، وعلامة وقته في [الأمور]^(٢) الشرعية، عارفاً بأصول الطب وغيره، حسن الصورة، كريم النفس، كثير الحياء، محباً لفعل الخير، ملازماً للصلاة والصيام، وقراءة القرآن»^(٣).

اتصل بالملك المعظم عيسى^(٤)، فعرف فضله، وقرر له الراتب، وقرأ عليه الطلبة،

(١) هو: أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخوي الشافعي، قاضي فيلسوف، وعالم في العقليات والجدل، سمع من فخر الدين الرازي، والمؤيد الطوسي، والطاوس، وتعلم عليه المعين القرشي، وابن الصابوني، وابنه قاضي القضاة شهاب الدين محمد، وله من المؤلفات في النحو والأصول والفلسفة، وكانت وفاته سنة (٦٣٧هـ) في دمشق. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٦٤/٢٣) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٦/٣٧٥) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١٨٣/٥).

(٢) في الأصل: العلوم، والثبت من عيون الأنباء.

(٣) عيون الأنباء (٤/١١٤).

(٤) هو: شرف الدين الملك المعظم عيسى بن محمد الحنفي بن الملك العادل، أمير دمشق، ولد سنة

وانتفعوا به، وكان حسن العبارة، قوي البراعة، فصيح اللسان، بليغ البيان، وافر المروءة، ظاهر الفتوة، أخذ عن القطب المصري، وأخذ المصري من الإمام الرازي، ثم ولاه المعظم قضاء الشام، وكان عظيم التواضع، لطيف الكلام، يمشي إلى الجامع الأموي لأداء فرائض الصلوات في أوقاتها، ولم يزل على هذا حتى توفي في سن الشباب، في سبع شعبان سنة تسع وثلاثين وتسعمائة.

قلت: «وحكى لي شيخنا الإمام شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي الكاتب^(١)، قال: لحقت جماعة أدركوا شمس الدين الخوي، أيام قدومه دمشق، وحدثوني أنه قدم في زى فقير صوفي، وكان يلعب ببعض آلات الطرب حتى عُرف بذلك، وكان يُستدعى به لأجل ذلك، والمملك المعظم صاحب دمشق إذ ذاك، فقيل له عنه، فأمر به فأحضر ولعب بين يديه، فأعجبه لعه لإتقان صنعته، فجعله من ندمائه، فلما تردد إليه ظهر له علمه، وتحقق لديه فضله، فاخصمه بالمجالسة، وقرّبه منه، فلما خلا القضاء عينه له، فاستعفاه، فألزمه به حتى وليه، فلما ولي القضاء انقطع عن الملك المعظم، ففقدته في أوقات أنسه،

(٥٧٦هـ) بالقاهرة، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم عليا المذهب الحنفي وبرع فيه، وله ديوان شعر، ومصنف في العروض، وكان يلازم التاج الكندي وأخذ عنه كتاب سيبويه، والحامسة، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وكان يقصده العلماء والفقهاء في طلبهم، وكان شهياً، شجاعاً يمشي بين الناس في الأسواق، توفي سنة (٦٢٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢٠/٢٢) وفيات الأعيان لابن خلكان (٤٩٤/٣) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١١٥/٥).

(١) هو: محمود بن سليمان بن فهد، شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي الحنبلي، إمام حافظ وكاتب بارع، ولد سنة (٦٤٤هـ) في مدينة دمشق، تعلم الفقه صغيراً على ابن النجار، والأدب على ابن مالك، ومجد الدين ابن الظهير، وتقدم علمه وأدبه، فأرسله الوزير شمس الدين بن السلوس إلى مصر، وجلس في ديوانه، ثم عاد إلى دمشق عاملاً في ديوان الإنشاء حتى توفي سنة (٧٢٥هـ) ودفن بها، وله من المؤلفات: مقامة العشاق، ومنازل الأحباب، وحسن التوسل في صناعة الترس، وأسنى المنافع في أسنى المذائح، عدا ما له من شعر جيد. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٨٢/٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٩٦/٦) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٩٢/٥).

فقال له: ما لك انقطعت هذه الليالي؟

فجعل يعتذر، والملك المعظم لا يقبل منه، ويحثه على الملازمة على عادته.

فقال له: مولانا يعلم ما بقي يتعلق بي وبذمتي من أفضية المسلمين وعقودهم، وما يجمل بي أن أظهر العدالة وأبطن الفسق وقد صرت قاضيًا! ومولانا مخير إن شاء تركت القضاء وعدت إلى ما كنت عليه في خدمته، وإن شاء تركني على القضاء وأعفاني لأخلص ذمتي وذمته.

فقال: بل استمر على القضاء، ودع ما سواه. فكان في غاية الخير حتى كأنه لم يكن ذلك.

ومنهم:

٢٥- الرفيع الجيلي: أبو حامد، عبد العزيز بن عبد الواحد

ابن إسماعيل بن عبد الهادي^(١)

شجرة توقدت نارًا، وأوقدت شنارًا^(٢)، فحنظلت ثمراتها، وأبرت سمراتها، طلعتها كأنه رءوس الشياطين، وينعها كأنه تلف لنفوس السلاطين، وذلك أنه والى عدو

(١) هو: أبو حامد عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل الجيلي الشافعي، رفيع الدين، إمام فيلسوف، عالم بعلم الأوائل، رحل في طلب العلم، فدخل دمشق وبعلمك ويغداد وتولى قضاء بعلبك للصالح إسماعيل وقضاء دمشق، وكان الرفيع الجيلي سعي الخلق والعقيدة، دهري المذهب سكير، وظالم، شارك أمين الدولة وزير الصالح إسماعيل في ظلم العباد، وكانت وفاته سنة (٦٤٢هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠٩/٢٣) فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٣٥٢/٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢١٤/٥).

(٢) شنارًا: الشنار: العيب والعار. انظر: مختار الصحاح، مادة (شَر).

الدين، وتبعه في بعض ما يدين، سحب السامرة، ولسجب في أنديتهم أذبال المسامرة^(١)، ولم يكن بزه بالرفيع، ولا زمنه بالربيع، فجد السامري في غيه، ومد له من حبال بغيه، وكان قد اتخذ له منه عجلًا جسدًا واتحد به حتى تفقأ منه حسدًا، حتى سقط في مهواته، وسقى دمه الجبل بل لهواته.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان من الأكابر في الحكمة وأصول الدين، والفقه، والعلم الطبيعي، والطب، وكان فقيهاً بالعدراوية^(٢)، يشتغل بها، ثم ولي القضاء ببلبك، وأقام بها مدة، وكان صديقاً لأمين الدولة وزير الصالح إسماعيل، فلما ملك الصالح^(٣) دمشق وتوفي قاضيها شمس الدين الخوي، ولي عوضه، وارتفعت منزلته وأثرى، ووقع بينه وبين أمين الدولة^(٤)، وكثر تظلم الناس منه، وشكواهم من سوء سيرته، فأنتهى إلى أن

(١) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٢) مدرسة بدمشق بئتها الست عذراء بنت أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب الناصر صلاح الدين، بحارة الغرباء داخل باب النصر والآن في باب السعادة، وهي وقف على الشافعية والخنفية، وممن درس بها من أجلاء العلماء وأفاضلهم: الشيخ عماد الدين عبد العزيز محمد بن عبد القادر بن خليل مقلد الأنصاري المعزوف بآبن الصافغ، وشرف الدين حسين بن سلام، وكمال الدين بن الزملكاني، وزين الدين بن المرحل، وغيرهم. انظر: المدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر الدمشقي (١/٣٧٣).

(٣) هو: الملك الصالح إسماعيل بن محمود بن زنكي ملك الشام والجزيرة، تولى الإمارة بعد موت والده سنة (٥٦٩هـ)، وكان ما زال غلاماً صغيراً فقام على ملكه شمس الدين محمد بن عبد الله بن المقدم، وكان الملك الصالح إسماعيل ضعيفاً في ملكه، استولى أحد الأمراء على الجزيرة منه، واستولى الفرنجة على بعض القلاع، وصالحهم القائم على ملكه بدفع الأموال إليهم، ولكن صلاح الدين الأيوبي ملك مصر، أنكر ذلك، فساءت العلاقات بينه وبين الملك الصالح، فخرج صلاح الدين إلى دمشق، فهزم الصالح إسماعيل إلى حلب وامتنع بها، إلى أن توفي بها سنة (٥٧٧هـ). انظر: تاريخ ابن خلدون (٥/٢٥٣) تحفة ذوي الألباب لابن أليك الصفدي (٢/٨١).

(٤) أمين الدولة أبو الحسن بن غزال بن أبي سعيد وزير الملك الصالح إسماعيل، وزير عالم فاضل حكيم، تولى الوزارة للملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان يحب جمع

قبض عليه، وقتل، وبعث إلى هوة عظيمة قريب بعلبك، لا يعرف لها قرار، تعرف بمغارة آدم^(١)، فكتف ودفع فيها.

وقال بعض الذين كانوا معه: إنه لما دفع في تلك الهوة تحطم في نزوله، وكأنه تعلق في بعض جوانبها. وقال: فبقينا نسمع أنينه نحو ثلاثة أيام، وكلما مر يضعف ويخفى حتى تحققنا موته، ورجعنا عنه^(٢).

قلت: «وقد حكى الثقات أنه كان يفتعل الحجة بشهود زور كان أعدهم على الرجل ذي الجدة واليسار، ويكتبها لمن يطلب الرجل إلى مجلسه، ويدعي بالمبلغ عليه، فإذا أنكر أقام تلك البينة عليه، ثم يلزمه بالمال، فإذا قبض كان للسلطان النصف، وله ولأمين الدولة، وللشهود والمدعي النصف، وجرى على هذا مدة، ثم كان لا ينصف أمين الدولة، ففسد ما بينهما وقالوا: إنه لما كثر فعل مثل هذا من القاضي الرفيع، عرف عليه، فصار ذوو المال يأتونه قبل افتعال الحجج فيقدمون له ما يختص به، فيسكت عنهم، فإذا ذكرهم الأمين الخائن له دافع عنهم فأوغر ذلك صدره، وكدر له ورده وصدره، حتى حالت به الحال، وآل إلى ما آل».

وحكى لي شيخنا الإمام أبو الثناء محمود الحلبي الكاتب قال: «حدثني شيخنا قاضي القضاة ابن خلكان^(٣) قال: كان الرفيع ذا كرم وسخاء، وكان جاريه لا يقوم ببعض

المال في جلّه وحرامه، وكان سئ المعاملة مع أهل البلاد، ويساعده في ذلك رفيع الدين الجيلي، ومع هذا كان مؤلفاً بارعاً، ومن أشهر كتبه: كتاب النهج الواضح في الطب. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٣/ ٣٨٣).

(١) كذا بالأصل، وفي عيون الأنباء: افضه.

(٢) عيون الأنباء (٤/ ١١٧-١١٩).

(٣) هو: أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان شمس الدين الأربلي قاضي القضاة، كان عالماً بالعربية والأدب والشعر، والمذهب، ولد سنة (٦٠٨ هـ) في مدينة إربل، تعلم على كبار علماء عصره منهم: كمال الدين بن يونس، وبهاء الدين بن شداد، والمؤيد الطوسي، وتعلم عليه: البرزالي وغيره، كما كان

كفايته، فكان يتجشم البلايا؛ ولقد ألجأته الضرورة إلى أن باع مرة عمامته، وأنفق ثمنها، فلما أصبح وأراد الركوب إلى موكب السلطان، استعار ما لبسه وركب به.

قلت: «وقد رأيت كتبًا من كتب الأملاك والأوقاف، وفيها إسطوانات على القاضي الرفيع، فلما اتصلت تلك الكتب بمن بعده من القضاة وصلوها إليهم بمن كان قبل الرفيع، وأضربوا عنه، فلم ينفذ له حاكم جاء بعده حكمًا إلا كتابًا واحدًا كان في وقف مدرسة بالمدينة الشريفة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التحية - وأظن أنه إنما سُمح فيه لتيقن براءته من غرض في ذلك؛ إذ كان جهة بر، ولم يكن هو أول من حكم به، ولا أول من نفذ حكم من حكم به، ومع هذا لم أر من كبار أهل هذا الشأن إلا من عجب منه، وأحببت التنبيه على ذلك ليعرف عند الحاجة لثلاثين بتناول المدد».

ومنهم:

٢٦- الشهاب السهروردي^(١) المقتول:

يحيى بن حبش بن أميرك

المقتول، والردي المختول، جاء بها سحر أعين الناس، وحير الألباب، فحير

يرحل في طلب العلم، فدخل حلب، والموصل، ومصر والشام وتولى القضاء بها، وله من المؤلفات كتاب: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، وكتاب سيرة الملك الظاهر، وكان له شعر جيد، وكانت وفاته سنة (٦٨١هـ) ودفن بسفح جبل قاسيون. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (١١٠/١) طبقات الشافعية للسبكي (١٤/٥).

(١) هو: يحيى بن حبش بن أميرك، أبو الفتوح شهاب الدين، وهو من صوفية الاتحاد، ولهذا أفنى العلماء بقتله وإباحة دمه، وله مؤلفات عديدة منها: «هياكل النور»، و«مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم»، و«رسالة في اعتقاد الحكماء»، و«حكمة الإشراف»، و«اللمحات»، و«التلويحات»، و«الأسماء الإدريسية»، سجنه الملك الظاهر غازي، وخنقه في سجنه بقلعة حلب فمات مخنوقًا أو متقولًا عام (٥٨٧هـ). انظر: وفيات الأعيان (٢/٢٦١).

الفتن، وحيز كل الأرض إلى محل الوطن، بخوارق مُحلت على المخاريق، وأحلت دمه للمريق، فأرى ما لا يُرى، وصور ما لم يوجد، وأتى بما ادعاه بعض ذوي العقول من المتصوفة من طي الزمان والمكان، وجاء بما لم يكن في إمكان، فخيّل ما لم يكن، وهون ما لم يكن، وأضلّ جبلاً كثيراً، واستزلّ [خيلاً كبيراً]^(١)، ولو طال لبثه، وخلي ماؤه الآجن حتى يطول مكثه، لأكثر الفساد، وأكبر البلية وساد، لكن الله سلم، وذبحه وكان لو كلم جماً لتكلم.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان أوحّد في العلوم الحكمة»^(٢)، جامعاً للفنون الفلسفية، بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، جيد الفطرة، فصيح العبارة، لم يناظر أحداً إلا بزه، ولم يباحث محصلاً إلا أربى عليه، وكان علمه أكثر من عقله»^(٣).

حدثني الشيخ سديد الدين محمود بن عمر^(٤) قال: «كان شهاب الدين السهروردي قد أتى إلى شيخنا فخر الدين المارديني»^(٥)، وكان [يتردد إليه في أوقات وبينهما صداقة، وكان الشيخ فخر الدين]^(٦) وكان يقول لنا: ما أذكى هذا الشاب

(١) في «ف»: خيلاً كبيراً.

(٢) ذكر ابن أبي أصيبعة أن مؤلفات السهروردي المقتول هي: كتاب التلويحات واللوحيّة والعرشيّة، وكتاب الألواح العبادية، ألفه لعباد الدين أبي بكر بن قرا أرسلان، وكتاب اللحمية، وكتاب المقاومات، وكتاب هياكل النور، وكتاب المعارج، وكتاب المطارحات، وكتاب حكمة الإشراق. (١١٣، ١١٢/٤).

(٣) عيون الأنباء (١٠٣/٤).

(٤) محمود بن عمر، يعرف بابن زقيقة، توفي سنة (٦٣٥ هـ). انظر: الأعلام للزركلي (١٧٨/٧).

(٥) هو: فخر الدين المارديني، الذي كان يسكن مارددين، وكان صديقاً للسهروردي المقتول، وكان بينهما صداقة واجتماعات، وكان فخر الدين يحدث عن السهروردي ويقول: ما أذكى هذا الشاب وأفصحه. انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٨٠.

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

وأفصحته، ولم أجد أحدًا (في مثله زماني)^(١)، إلا أني أخشى عليه لكثرة تهوره [واستهتاره]^(٢)، وقلة تحفظه أن يكون ذلك سببًا لتلافه.

قال: فلما [فارقنا]^(٣) شهاب الدين السهروردي من الشرق، وتوجه إلى الشام، وأتى إلى حلب، وناظر فيها الفقهاء، ولم يجاره أحد فكثرت تشنيعهم عليه، فاستحضره السلطان الملك الظاهر^(٤) غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستحضر الأكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين، ليسمع ما يجري بينهم وبينه من المباحث والكلام، فتكلم معهم بكلام كثير، وبأن له فضل عظيم، وعلم باهر، وحسن موقعه عند الملك الظاهر، وقربه، وصار مكينًا عنده، مختصًا به، فازداد تشنيع أولئك عليه، وعملوا محاضر بكفره، وأرسلوها إلى دمشق، إلى الملك الناصر صلاح الدين، وقالوا: إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر، وكذلك إن أطلق، فهو يفسد كل ناحية كان فيها من البلاد، وزادوا عليه أشياء من ذلك، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتابًا في حقه، بخط القاضي الفاضل، وهو يقول فيه: إن الشهاب السهروردي لا بد من قتله، ولا سبيل أنه يطلق، ولا يبقى بوجه من الوجوه.

ولما بلغ الشهاب الدين السهروردي ذلك وأيقن أنه يقتل، وليس له جهة إلى

(١) في عيون الأنباء: مثله في زماني.

(٢) في الأصل: اشتهاه، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) في الأصل: فارقت، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) هو: الملك الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين الأيوبي سلطان حلب، يلقب بغياث الدين، ولد في مصر سنة (٥٦٨هـ)، وتعلم صغيرًا على كثير من الغلاء؛ كأبي الطاهر بن عوف، وعبد الله بن بري النحوي، والفضل بن البانياس، وغيرهم، وكان ملكًا جوادًا كريمًا ذا عقل ودهاء، يرأس الملوك ويصادقهم، ويحسن إليهم، ويحسنون إليه، ظل ملكًا لدمشق مدة ٣٠ سنة، ومن أهم مبانيه مدرسة العزيزية التي سميت باسمه. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/٢٩٧) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٥/٥٥) وفيات الأعيان لابن خلكان (٦/٤).

الإفراج عنه، اختار أن يقرر^(١) في مكان مفرد، ويمنع من الطعام والشراب إلى أن يلقي الله تعالى، ففعل به ذلك، وكان في أواخر سنة ستة وثمانين وخمسمائة، بقلعة حلب، وكان عمره نحو ست وثلاثين^(٢).

قال الشيخ سديد محمود بن عمر: «لما بلغ شيخنا فخر الدين المارديني قتله قال لنا: أليس كنت قلت لكم عنه هذا من قبل؟ وكنت أخشى عليه منه».

أقول: ويحكى عن شهاب الدين السهروردي أنه كان يعرف علم السيمياء، وله فيه نوادر شوهدت عنه من هذا الفن. ومن ذلك: حدثني الحكيم إبراهيم بن أبي الفضل بن صدقة^(٣) أنه اجتمع به، وشاهد عنه ظاهر باب الفرج، وهم يتمشون إلى ناحية الميدان الكبير، ومعه جماعة من التلاميذ وغيرهم، وجرى ذكر هذا الفن وبدائعها، وما يعرف الشيخ منه، وهو يسمع، فمشى قليلاً وقال: ما أحسن دمشق وهذه المواضع.

قال: فنظرنا وإذا من جهة الشرق جواسق^(٤) عالية متدانية بعضها من بعض، مبيضة، وهي من أحسن ما يكون بناء مزخرفاً، ولها طاقات كبار، وفيها نساء أحسن ما يكون منهن، وأصوات المغاني والملاهي، ورأينا أشجاراً ملتفة بعضها على بعض، وأنهاراً جارية كباراً، ولم تكن نعرف ذلك من قبل، فعجبنا من ذلك وانذهل الجماعة مما رأوا.

قال: فبقي ذلك ساعة، ثم غاب عنا، وعدنا إلى رؤية ما كنا نعرفه من طول

(١) في عيون الأنباء: يترك.

(٢) عيون الأنباء (٤/ ١٠٣-١٠٥).

(٣) هو: إبراهيم بن أحمد بن عبد الله بن صدقة، يكنى بأبي إسحاق السلمي الغرناطي، ويشتهر بابن صدقة، وكان يرحل في طلب العلم، فسمع عن أبي بكر غالب بن عطية، ومن السلفي، والطرطوشي، وغيرهما، وكان يحدث في غرناطة، سمع منه: أبو بكر بن زنين، وأبو القاسم بن سمجون، وكانت وفاته سنة (٥٥٨ هـ). انظر: كتاب المقفى الكبير للمقرئ (١/ ٤٢).

(٤) الجوسق: هو القصر، أصله فارسي. انظر: قصد السبيل للمحبي (١/ ٤٠٩، ٤١٠).

الزمان، قال: إلا أنني في رؤية تلك الحالة العجيبة، أحس في نفسي كأنني في سبته خفيفة لم يكن إدراكي كالحالة التي أتحقّقها مني.

وحدثني بعض الفقهاء العجم قال: «كنا مع الشيخ شهاب الدين عند القابون^(١)، ونحن مسافرون عن دمشق، فوجدنا قطع غنم مع تركمان، فقلنا للشيخ: يا مولانا نريد من هذا الغنم رأساً نأكله.

فقال: معي عشرة دراهم، فخذوها واشتروا بها رأس غنم لكم.

فأخذناها فاشترينا رأساً من التركماني، ومشينا، فلحقنا رفيق التركماني، وقال: ردوا الرأس، وخذوا أضغر منه، فإن هذا ما عرف ببيعكم، يساوي هذا الرأس الذي معكم أكثر من الذي قبض منكم، فتقاولنا نحن وإياه، ولما عرف الشيخ ذلك قال لنا: خذوا الرأس وامشوا، وأنا أقف معه، وأرضيه، فتقدمنا وبقي الشيخ يتحدث معه، ويمنيه، فلما أبعدنا قليلاً، تركه وتبعنا وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به، وهو لا يلتفت إليه، ولما لم يكلمه لحقه بغیظ، وجذب يده اليسرى، وقال: أين تروح، وتحليني؟ وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه، وبقيت في يد التركماني!، ودمه يجري من يده، فبهت التركماني، وتحير من أمره، ورمى اليد، وخاف.

فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى، ولحقنا، وبقي التركماني راجعاً وهو يلتفت إلينا حتى غاب ولما وصل الشيخ إلينا في يده اليمنى منديله لا غير^(٢).

وحدثني صفى الدين خليل بن أبي الفضل الكاتب قال: «حدثنا الشيخ ضياء

(١) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل واحد من طرف القاصد إلى العراق. انظر: معجم البلدان (٢٩٠/٤).

(٢) عن الأبناء (٤/١٠٥-١٠٧).

الدين بن صقر^(١) - رحمه الله تعالى -: أن في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، قدم إلى حلب شهاب الدين السهروردي، ونزل في مدرسة الخلاوية، وكان مدرستها يومئذ الشريف رئيس الحنفية افتخار الدين^(٢) - رحمه الله تعالى - فلما حضر شهاب الدين وبحث مع الفقهاء كان لابس دلق، وهو مجرد بإيريق، وعكاز خشب وما كان أحد يعرفه، فلما بحث، تميز بين الفقهاء، وعلم افتخار الدين أنه فاضل، فأخرج له منديلاً فيه ثوب عتاي، وغلالة، ولباس، وبقيار^(٣)، وقال لولده: تروح إلى هذا الفقير، وتقول له: والدي يسلم عليك، ويقول لك: أنت رجل فقير، وتحضر مجالس الفقهاء في الدرس، وقد أرسل إليك شيئاً تلبسه إذا حضرت.

فلما وصل ولده إلى الشيخ شهاب الدين، وقال له ما أوصاه به، سكت ساعة وقال له: يا ولدي! حط هذا القماش، وتفضل واقض لي حاجة، وأخرج له فص بلخش^(٤) كالبيضة، رماني اللون، ما ملك أحد في قدره ولونه، وقال: تروح إلى السوق، وتنادي على هذا الفص، ومهما جلب لا تطلق بيعه حتى تعرفني.

فلما وصل إلى السوق، قعد عند العريف، ونادى على الفص، فأنتهى ثمنه إلى خمسة وعشرين ألف درهم، فأخذ العريف وطلع إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين،

(١) هو: صقر بن يحيى بن سالم بن يحيى ضياء الدين أبو محمد، الكلبي الحلبي المفتي الشافعي، توفي بحلب سنة (٦٥٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٠٦/٢٣) طبقات الشافعية (١٥٣/٧) العبر (٢١٤/٥).

(٢) هو: الإمام أبو عبد الله جابر بن محمد بن محمد بن عبد العزيز بن يوسف افتخار الدين الخوارزمي الحنفي، إمام فقيه نحوي، ولد سنة (٦٦٧هـ) وطلب الفقه فتعلم على يد خاله أبي المكارم بن أبي المفاخر الخوارزمي، وعلى أبي عاصم الأسفندي، وغيرهما، وكان يدرس في مصر ويفتي، وتولى مشيخة الخانقاه الركنية (ببغداد الجاشنكير بالقاهرة)، وكانت وفاته سنة (٧٤١هـ) بالقاهرة. انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٥٣٢/١) المنهل الصافي لابن تغري بردي (٢٠٤/٤).

(٣) بقيار: البقير والبعير: بُرد يشق فيلبس بلا كمين ولا جيب. لسان العرب، مادة (بقر) (٣٢٤/١).

(٤) نوع من أثباه الياقوت الثمين ينسب إلى بلدة بلخشان من بلاد الترك. معجم البلدان (٣٦٠/١).

وهو يومئذ صاحب حلب، وقال: هذا الفص قد جاب هذا الثمن، فأعجب الملك الظاهر قدره ولونه، وحسنه، فبلغ به إلى ثلاثين ألف درهم.

فقال العريف: حتى أنزل إلى ولد افتخار الدين، وأقول له.

وأخذ الفص ونزل إلى السوق، وأعطاه له، وقال له: تروح تشاور والدك على هذا الثمن، واعتقد العريف أن الفص من عند افتخار الدين، فلما جاء إلى شهاب الدين السهروردي وعرفه بالذي جاب الفص، صعب عليه، وأخذ الفص وجعله على حجر، وضربه بحجر آخر حتى فتنه، وقال لولد افتخار الدين: خذ يا ولدي هذه الأثواب، وارجع إلى والدك، وقبّل يده غني، وقل له: لو أردنا الملبوس ما غلبنا عنه. فمضى إلى والده، وعرفه صورة ما جرى، فبقي حائرًا في قضيته.

وأما الملك الظاهر فإنه طلب العريف وقال له: أريد الفص. فقال له: يا مولانا! أخذه صاحبه ابن الشريف افتخار الدين مدرس الحلاوية. فركب السلطان ونزل إلى المدرسة، فقعده في الإيوان، وطلب افتخار الدين إليه، وقال له: أريد الفص، فعرفه أنه لشخص فقير نازل عنده!

قال: فأفكر السلطان وقال: يا افتخار الدين! إن صدق حدسي فهذا شهاب الدين السهروردي.

ثم قام السلطان واجتمع بشهاب الدين وأخذه معه إلى القلعة^(١)، وصار له شأن

(١) قلعة عظيمة في مدينة حلب ببلاد الشام، وهي قلعة منيعة ليس لها مثيل بين القلاع، وهي قلعة قديمة على رابية عالية، كان إبراهيم عليه السلام يأوي إليها ببعض الغنات يحلبها بها ويتصدق بلبنها فسميت حلب، وللقلعة عدة حصون وأسوار عالية منيعة، بها كثير من ينابيع الماء التي لا تنضب، كثيرة الزروع والثمار، وبها عدة مساجد صغيرة ومسجد جامع، ومدارس وبيمارستان وحمامات جميلة. انظر: الروض المعطار للحميري ص ١٩٦.

عظيم، وبحث مع الفقهاء في سائر المذاهب، وعجزهم، واستطال على أهل حلب، وصار له شأن يكلمهم كلام من هو أعلى منهم قدرًا، فتعصبوا عليه، وأفتوا في دمه حتى قتل.

وقيل: إن الملك الظاهر أرسل إليه من خنقه.

قال: ثم إن الملك الظاهر بعد مدة نقم على الذين أفتوا في دمه، وقبض على جماعة منهم، واعتقلهم، وأهانهم، وأخذ منهم أموالاً عظيمة^(١).

قال العدل بهاء الدين الديلمي: كنت أصحب الشيخ شهاب الدين السهروردي الحكيم بحلب، فلما اعتقل بقلعة حلب كنا نتردد إليه، وكان تحت القلعة شخص جزار، وكان كلما رأنا مترددين إلى الشيخ يسبه ويسبنا، فلما أكثر حكيما أمره للشيخ، فقال: احتالوا على أن تأخذوا طوله وتأتوني به، فاحتلوا لذلك وأحضره إليه، فأمرهم أن يقطعوا عصا على مقدار طوله، فلما حضروها، حز فيها حزًا مثل الرأس، وأمر بعض تلامذته أن يأخذ معه سكينًا، وإذا قال له: اضرب يضرب بها، فقعد الشيخ [وجعل]^(٢) يقرأ شيئًا في نفسه، ثم قال لحامل السكين: اقطع. فقطع من الموضع الذي حزه، وإذا صيحة هائلة تحت القلعة! فسألوا عنها؟ ف قيل: إن الشخص الجزار قد قتل!! أو كما قال.

حدثني سديد الدين محمود بن عمر المعروف بابن زقيقة قال: كان الشيخ شهاب الدين السهروردي لا يلتفت إلى ما يلبسه، ولا له احتفال بأمور الدنيا.

قال: وكنت أنا وإياه نتمشى في جامع ميفارقين، وهو لابس جبة قصيرة مضربة زرقاء، وعلى رأسه فوطة مفتولة، وفي رجله زربول^(٣)، ورآني صديق لي وهو إلى جانبي،

(١) عيون الأنباء (٤/ ١٠٥-١٠٩).

(٢) إضافة من «ف».

(٣) الزربول: ما يلبس في الرجل، عامية مبتذلة. انظر: قصد السبيل للمحبي (٢/ ٨٢).

فقال: ما جئت تماشي إلا هذا الخريندا^(١)؟

فقلت له: اسكت، هذا سيد الوقت شهاب الدين السهروردي، فتعاضم قولي، وتعجب، ومضى.

وحدثني بعض أهل حلب قال: لما توفي شهاب الدين السهروردي - رحمه الله تعالى - ودفن بظاهر مدينة حلب، وجد مكتوباً على قبره، والشعر قديم: [البسيط]
قد كان صاحب هذا القبر جوهرة مكنونة قد براهها الله من شرف
فلم تكن تعرف الأيام قيمته فردها غيرة منه إلى الصدف^(٢)

ومن كلامه: قال في دعاءه: «اللهم يا قيام الوجود، وفائض الجود، ومنزل البركات، ومنتهى الرغبات، منور النور، ومدبر الأمور، وواهب حياة العالمين، امددنا بنورك، ووفقنا لمرضاتك، وألهمنا رشدك، وطهرنا من رجس الظلمات، وخلصنا من غسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك، ومعينة أضوائك، ومجاورة مقربيك، وموافقة سكان ملكوتك، واحشرنا اللهم مع الذين أنعمت عليهم من [الملائكة]^(٣) والصدّيقين، والأنبياء والمرسلين»^(٤).

ومن شعره قوله: [الكامل]

أبداً تحن إليكم الأرواح ووصالكم ریحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشواقكم وإلى لذیذ وصالكم ترتاح

(١) الخريندا: أصله فارسي، وتعني: حارس الحمار.

(٢) عيون الأنبياء (٤/ ١٠٩، ١١٠).

(٣) إضافة من عيون الأنبياء.

(٤) عيون الأنبياء (٤/ ١١٠).

وإذا هم كفّوا تجدّث عنهم
فإلى لقاءكم نفسه مشتاقة
عودوا بنور الوصل من غسق الدجا
وتمتعوا فالوقت طاب لكم وقد
عند الوشاة المدمع [السحاح]^(١)
وإلى رضاكم طرفه طمّاح
فالهجر ليل والوصال صباح
رق الشراب ودارت الأقداح^(٢)

وقوله: [الوافر]

أقول لجارتي والدمع جاري
ذريني أن أسير ولا تنسوحني
فلاني في الظلام رأيت ضوءاً
إلى كم أجعل الحيات صحي
ولم^(٣) أُرّض الإقامة في فلاة
ويأتيني من الجرعاء^(٤) برق
ولي عزم الرحيل عن الديار
فإن الشهب أشرفها^(٥) السواري
كأن الليل زين بالنهار
إلى كم أجعل التين جاري؟
وفوق الفرقدين^(٦) رأيت داري
يذكرني بها قرب الديار^(٧)

(١) في الأصل: السفاح، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) عيون الأنباء (٤/ ١١٠، ١١١):

مترنحاً وهو الغزال الشارد ويخذه الصهباء والتفاح
ويشغره الشهد الشهبي وقد بدا في أحسن الياقوت منه أفاح

(٣) في عيون الأنباء: أشرفها.

(٤) في عيون الأنباء: كم.

(٥) الفرقدين: نجمان قريان من القطب. انظر: مختار الصحاح، مادة (فرقد) ص ٥٠١.

(٦) جرعاء: قيل: هي الرملة السهلة المستوية، وقيل: هي الدّعص لا تنبت شيئاً. لسان العرب. مادة (جرع).

(٧) عيون الأنباء (٤/ ١١١، ١١٢).

وقوله: [الرمل]

قل لأصحاب رأوني ميتاً فبكوني إذا رأوني حزناً
لا تظنونني بأنني ميت ليس ذاك الميت - والله - أنا
أنا عصفور وهذا قفصي طرت عنه فتخلى بدنًا^(١)
وأنا اليوم أنا جبي ملاً وأرى الله عياناً بهنا
فاخلعوا الأنفس من^(٢) أجسادها لتروا للحق حقاً بينا
لا ترعكم سكرة الموت فما هي إلا انتقال من هنا^(٣)

قلت: حدثني شيخنا أبو الشاء الكاتب الحلبي - رحمه الله تعالى - عن أشياخه: أن
الشهاب السهروردي كان لا يقر للملك الظاهر بمعرفة السيمياء، وينكر ذلك، وكان
الملك الظاهر لا يشك في أنه يعرف ذلك، ويجب أن يراه، وكان لا يزال يقول له عن ذلك
وهو ينكره.

فلما كان ذات يوم قال له: بالله يا مولانا! أرني شيئاً من السيمياء.

فقال له: باسم الله، وكان الملك الظاهر واقفاً على بركة يريد أن يغتسل فيها ثم إن
الملك الظاهر نزل فغطس، ثم طلع ومملوكه واقف بيده منشفة، فلما خرج ناوله المنشفة،
فتنشف ثم قال: أين أنا؟

فقال له ذلك المملوك: هنا في دارك ومللك بحلب.

فقال: ويلك! كم لي غائب عنكم سنين؟

(١) في عيون الأنبياء: رهنا.

(٢) في عيون الأنبياء: عن.

(٣) عيون الأنبياء (٤/ ١١٢).

فقال: قدر ما غطست في الماء.

فقال: ويلك أنا غائب عنكم سنين، وغرقت فما طلعت إلا من ساحل بحر عدن^(١)، وتزوجت امرأة هناك بنت خطاب، وأولدتها أولادًا.

فقال المملوك: أعيذك يا خوند^(٢) بالله، وأعيذك عقلك، وكلما قال هذا يغتاظ الملك الظاهر ويقول: ويلك تغالطني، وتدهيني في عقلي؟ والمملوك يعيد قوله، فضحك السهروردي، ففطن الملك الظاهر، وقال له: هذه عملاتك معي!

فقال له السهروردي: لا والله، بل هذه عملاتك أنت مع نفسك.

وأجريت ذكره مرة مع الشيخ العارف جمال الدين الحويزاوي شيخ الشيوخ بالديار المصرية، فقال: كان رجلاً جليل القدر من أفراد العالم، وفضلاء الدهر، وأعيان أهل التصوف، وأخذ نفسه في أول حاله بالتجريد، واجتهد فيه، ولكن غلبت عليه شقاوته وجهل صباه، فقتل بسيف الشرع، ثم أنشد:

وذاك قتيـل لا يطـل له دم

(١) مدينة عدن من كبرى مدن بلاد اليمن العربية، على ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندي، فهي مرسى البحرين، منها تسافر السفن إلى بلاد الهند والسند والصين، وإليها تجلب المعادن ومختلف أنواع التجارات، وكان أهل اليمن قد أعلنوا إسلامهم في بداية الدعوة الإسلامية، فأرسل إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم من يعلمهم أمر دينهم، وجعل عليهم من يأخذ منهم الزكاة وغير ذلك، وخرج من اليمن الأسود العنسي الذي ادّعى النبوة وأراد أن يشاطر الرسول عليه السلام في النبوة فقتله فيروز الديلمي (الصحابي الجليل)، وظلت اليمن تحت سيطرة المسلمين، تعاقبت عليها عدة دول كبرى مثل: الدولة الأموية والعباسية والعثمانية. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤٠٨.

(٢) خوند: أي يا سيدي.

ومنهـم:

٢٧- الخسر وشاهي: عبد الحميد بن عيسى، بن عمرو، بن يونس،

ابن خليل شمس الدين، أبو محمد، التبريزي، الشافعي^(١)نسبة إلى قرية تعرف بـ: خسرو شاه^(٢)، من قرى تبريز^(٣).

سمر حديث مُعَرَّب، وقمر مشرق ومُعَرَّب، قدم الشام فكان أزين له من هشام، وحل في أم بلدانه حلول ابن ذي يزن^(٤) في غمدانه^(٥)، ونزل بالكرك، وأناخ نزوله

(١) هو: عبد الحميد بن عيسى بن عمرو بن يونس بن خليل، شمس الدين الخسر وشاهي، إمام عالم بالأبواب العقلية، وعلم الكلام، تعلم على كبار علماء عصره منهم: فخر الدين ابن خطيب الري، والمؤيد الطوسي، وتعلم على يديه كل من زين العابدين بن المرحل وغيره، وله عدة كتب منها: اختصار كتاب المذهب لأبي إسحاق، وكتاب الشفا لابن سينا، وأكمل كتاب «الآيات البينات» لفخر الدين الرازي، وكان قد ولد سنة (٥٨٠هـ) بخسر وشاه، وتوفي بدمشق سنة (٦٥٢هـ) ودفن بسفح جبل قاسيون. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي (٢/ ٢٥٧) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٣/ ٢٧) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٥/ ٢٥٥) طبقات الشافعية للسبكي (٥/ ٦٠).

(٢) قرية بينها وبين تبريز ستة فراسخ. انظر: معجم البلدان (٢/ ٢٧١).

(٣) تبريز من كبرى مدن إقليم أذربيجان ببلاد فارس، دخلها المسلمون الأوائل في فترة الفتوحات الإسلامية، وتعاقب عليها الحكام المسلمون من قِبَل الدولة الأموية والعباسية والسلاجقة، وغيرهم، وظلت تعيش تحت راية الإسلام والمسلمين حتى سنة (٦١٨هـ) عندما هجم عليها التار، فهادهم الأمير أزيك بن البهلول على مال وهدايا، فرحلوا عن البلاد، ثم تعاقبت عليها الدولة العثمانية في العصر الحديث، وهي الآن ضمن جمهورية إيران الإسلامية. انظر: الروض المعطار للحميري ص ١٤٣.

(٤) واسمه النعمان بن قيس وكان ملكاً على الحبشة، فأتته وفود العرب وشعراؤها تهتنه وتمدحه على توليه العرش، وكان ذلك بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين، وكان من وفد العرب عبد المطلب بن هاشم، وأميه بن عبد شمس، وغيرهم، وبشرهم ابن ذي يزن بمولد النبي صلى الله عليه وسلم وقال لهم: يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه. انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٣٠٥) الروض المعطار للحميري ص ٤٣٠.

(٥) قصبة صنعاء باليمن، وهو حصن عالٍ جداً بناه سيف بن ذي يزن، لما فرغ من أمر الحبشة، وكان

بالشاذياخ^(١) فأسعف وأعان، وذكر المنازل أهلها بين البلقاء^(٢) ومعان^(٣)، وأفاض في تلك المعالم الإحسان فوق آل غسان.

استقدمه الناصر داود^(٤)، وقدمه تقديم الودود، فنشر عَلمَ علمه، وشرع مورد يمه، وجعل حوضه لمن يمتاح، وروضه لمن يرتاح، فغدت حضرته محطاً للركائب، ومحلاً للرغائب، فكثر من عنده الممتار^(٥)، ورجع يشهده المشتار، ونما عدد الفضلاء، وطمى مدد الفضل في ذلك الفضاء، وتزاحمت الملوك على خطبته، واستزارت من خطته، وهو بذروة ذلك الجبل متمتع، ويسير ذلك البلبل مقتنع، ودأبه في زيادة علوم، وإفادة خصوص وعموم، وأيامه بالفضائل مشحونة، ولياليه من الرذائل مصونة.

هذا البناء يجلس عليه ملوك اليمن، ويسرج عليه بالمشاعل، فيرى ذلك من مسيرة عدة أميال، ولما ظهر الإسلام وتولى عثمان بن عفان رضي الله عنه خلافة المسلمين، أمر عماله على اليمن بهدمه. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤٢٩، معجم ما استعجم للبكري (١٠٠٢/٣).

(١) اسم نيسابور فلما خربت الغز نيسابور، صار الشاذياخ مدينة نيسابور. انظر: قصد السيل للمحبي (١٨٠/٢٢).

(٢) البلقاء مدينة من مدن دمشق السورية، سميت باسم البلقاء بن سورية بن بني عييل بن لوط عليه السلام، وبها كانت عملية التحكيم بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- ومعاوية بن أبي سفيان، وذلك باجتماع الحكيم عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٩٦.

(٣) معان: موضع في بلاد الشام، بالطريق بين المدينة المنورة والشام، وكان المسلمون بقيادة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، قد مروا به وهم في طريقهم إلى مؤتة، عندما أرسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٥٥٥.

(٤) هو: السلطان الناصر صلاح الدين داود بن عيسى بن العادل ملك الكرك ونابلس وعجلون والصلت، طلب العلم فأجازه المؤيد الطوسي، وأبو روح الهروي، وأبو الحسن القطيعي، فكان أديباً شاعراً، حسن الشعر والنظم، مشاركاً في العلوم، وكانت وفاته سنة (٦٥٦هـ) بالطاعون. انظر: سير أعلام النبلاء (٣٧٦/٢٣) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢٧٥/٥).

(٥) مَيَّرَ: الميرة: جلب الطعام للبيع. لسان العرب، مادة (مَيَّرَ).

ثم أتاه أجله، وحل عليه من دين البقاء مؤجله، فاتصلت تلك الروم الزكية بعالمها وخلصت من ظلم الدنيا ومظالمها.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): «هو إمام العلماء، وسيد الحكماء، قدوة الأنام، شرف الإسلام، قد تميز في العلوم الحكمية، وحرر الأصول الطيبة، وأتقن الأحكام الشرعية، ولم يزل دائم الاشتغال، جامعاً للفضل والإفضال.

وكان شيخه الإمام فخر الدين ابن خطيب الري، وهو من أجل تلامذته، ومن حين وصل الشام اتصل بخدمة الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم، وأقام عنده بالكرك، وكان عظيم المنزلة عنده، وله من الإحسان الغزير، والإنعام الكثير، ثم أتى دمشق وتوفي بها في شوال سنة اثنين وخمسين وستمائة، ودفن بجبل قاسيون^(٢).

قال: «رأيت يوماً وقد أتاه بعض فقهاء العجم بكتاب دقيق الخط، ثمن البغدادي، معتزلي التقطيع، فلما نظر فيه صار يقبله ويضعه على رأسه، فسألته عن ذلك فقال: هذا خط شيخنا الإمام فخر الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى».

قلت: ولما كان الشيخ شمس الدين الخسر وشاهي عند الملك الناصر داود بالكرك، كان جدي صاحب جمال الدين أبو المآثر فضل الله وزيراً عنده، واتحدت له صحبة بالشيخ، فأخذ معه ولده عمي صاحب شرف الدين أبا محمد عبد الوهاب - رحمه الله

(١) عيون الأنباء (٤/ ١٢٣).

(٢) جبل في دمشق، دفن في سفحه العديد من العلماء مثل: عبد الحميد بن عيسى بن عمويه الخسر وشاهي وغيره كثير مثل: عبد الوهاب السبكي القاضي تاج الدين، ونجم الدين ابن قوام، وجمال الدين ابن الشريشي، وتقي الدين ابن المقصاتي، وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز قد بنى بسفحه رباطاً ليدفن به، وأطلق عليه الرباط الناصري، وقد تولى إدارته الشيخ شرف الدين الفزاري خطيب دمشق، ونجم الدين ابن قوام. انظر: المدارس في تاريخ المدارس للدمشقي (١/ ١١٥) فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (٢/ ٢٥٧).

تعالى - وقدمه للشيخ، وقال: هذا ولدي، وأعز ما أقدر عليه، وقد قدمته لك، فقبله منه قبولاً حسناً، وأقرأه: «الأربعين في أصول الدين»^(١)، وانتفع به.

ثم لما أتى الأمير الكبير الكافل جمال الدين أبو الفتح موسى بن يغمور^(٢) لزيارة الشيخ طلب منه عمي أن يكون عنده، فأثره به، ثم اتصل بالملك الصالح أيوب^(٣) بسببه على ما ذكرت ذلك في ترجمة عمي في «فواصل السمر»^(٤).

ورثي الخسر وشاهي جماعة منهم العز الضير، منها: [الطويل]

بموتك شمس الدين مات الفضائل وأردى بيدر الفضل والبدر كامل
فتى بزكل القائلين بصمته فكيف إذا وافيته وهو قائل
أتدري المنايا من رمت بسهامها وأي فتى أودى وغال الغوائل
رمت أوحد الدنيا وبحر علومها ومن قصرت في الفضائل عنه الأوائل

(١) كتاب الأربعين في أصول الدين للنفخ الرازي من أهم كتبه الكلامية.

(٢) هو: الأمير جمال الدين أبو الفتح موسى بن يغمور الباروقي، المولود سنة (٥٩٩هـ) بصعيد مصر، وهو من أعيان أمرائها، وكان يتولى نيابة مصر ونيابة دمشق من قبل الملك الصالح نجم الدين أيوب، فنزل بدرب الشعارين بدمشق، وظل بها إلى أن توفي سنة (٦٦٣هـ)، وقيل: (٦٦٤هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي (٣/٥١، ٣٧٢، ٣٨٩) (٤/٣٥٣) المدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر الدمشقي (١/٦٤٩).

(٣) هو: الملك الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر، تولى حكمها بعد أخيه الملك العادل سنة (٦٣٧هـ) في شهر ذي الحجة، فضبط أمور البلاد، وأخذ ما سلبه الأمراء من أموال بيت المال، وزاد في بناء القلعة (قلعة الجبل) وعمّر المدارس للقضاة الأربعة، وسلب دمشق من أميرها بعد عدة حروب طويلة، وفي عهده كانت حملة صليبية كبيرة على الديار المصرية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ودارت معركة كبيرة في المنصورة، هزم خلالها الفرنسيين وأسر مليكهم وكانت وفاته سنة (٦٤٧هـ) بالمنصورة. انظر: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقماق (٢/٣٦) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٦/٣٤١) وفيات الأعيان لابن خلكان (٥/٨٦).

(٤) كتاب فواصل السمر في فضائل آل عمر لابن فضل الله العمري.

ولو كان بالفضل الفتى يدفع الردى لما غيت عبد الحميد الجنادل
فبعدك شمس الدين أعوز عالم وأبدى الدعاوى في المحافل جاهل^(١)

ومنهم:

٢٨ - السيف الأمدي: علي بن [أبي] علي بن محمد بن سالم، سيف

الدين أبو الحسن التغلبي الأمدي^(٢)

سيف لا يعرف التقليد، وسيل يشيب لهوله الوليد، توقي كل مناظر حد مضربه،
وعاد كل صادر بريق مشربه، ساحل قطع غمار اللجج، وجادل فقطع حجاج الحجج،
ولم يخل منهله من زحام، ولا تصرفه من زمام، فكم جاءت إليه الأفواج، وتزاحمت في
بحره الأمواج، ونداه يسع، وجداه لا يدع.

وجعل مدينة حماة^(٣) سوقاً لفوائده، ومعدناً لفرائده، وكان قصدها لا يعد إلا في

(١) عيون الأنباء (٤/ ١٢٣، ١٢٤).

(٢) ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) هو: سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي، الأمدي، الشافعي، الإمام العلامة
المنصف، تعلم على عمار الأمدي، وابن فضلان، وكان يقرأ المستصفى، والشامل والشفاء لأبي
المعالي، وقرأ الفلسفة والمنطق بمصر، رحل في طلب العلم في العديد من البلاد الإسلامية مثل:
مصر، وحماة ودمشق وغيرها، وكان له العديد من المؤلفات منها: كتاب أبحار الأفكار، ومنتهى
السؤل في الأصول، وغيرها من المؤلفات والكتب القيمة، وكانت وفاته سنة (٦٣١هـ). انظر: سير
أعلام النبلاء للذهبي (٢٢/ ٣٦٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٥/ ١٤٢) وفيات الأعيان
لابن خلكان (٣/ ٢٩٣) العبر في أخبار من غبر للذهبي (٥/ ١٢٤).

(٤) مدينة من مدن حص ببلاد الشام، يجري بأرضها نهر العاصي، وبها كثير من البساتين والأراضي
الصالحة للزراعة، وتشتهر حماة بالنواير الموجودة على نهر العاصي، وبها كثير من الحمامات والدور،
والجامعات والمدارس، والمساجد. انظر: الروض المعطار للحميري ص ١٩٩.

معالي الرتب، ولا يزال يرحل إليه على كور وقتب، وهو على هذا الازدحام، وكثرة من خلق عليه وحام، لا يودع الحكم غير أهلها، ولا يدع للشفة إلا قدر نهلها، فكان لا يزال لديه شفيع لطالب، ومتوسل بخلائقه الأطايب، فلم يكن مثله سيف لا يزال يخدمه القلم، وينشر لعلمه على جناح الجوزاء العلم.

وكانت ملوك زمانه تحبه، ولو قدرت عرفت من نجاد ممالكها أين تحله، فقد كان سيفاً مشرقياً، ومثقفاً سمهرياً^(١)، طالما طال المفارق والطلا، وطاب معدنه فلم يحتج إلى تنميق الحمايل والحلى، هذا... وليس به فلول من قراع الكتائب، ولا ذهول وبحره جم العجائب.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): «كان أذكى أهل زمانه، وأكثرهم معرفة بالحكمة والشريعة، والمبادئ الطبية، ببي الصورة، فصيح اللسان، جيد التصنيف.

خدم الملك المنصور^(٣) صاحب حماة، وأقام عنده سنين، ورتب له الرواتب السنية، [والإنعام الكثير، وكان من أكابر الخواص عنده، ولم يزل في خدمته]^(٤)، فلما توفي أتى الملك المعظم عيسى فبالغ في الإنعام عليه وإكرامه، وولاه التدريس.

(١) السمهري: الرمح الصلب.

(٢) عيون الأنباء (٤/١٢٦، ١٢٨).

(٣) هو: السلطان محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب الملك المنصور سلطان حماة، كان يحب العلم والعلماء، وكان يسمع الحديث بالإسكندرية من السلفي، وكان يجمع عنده كثير من العلماء والمحدثين والنحاة والفقهاء والأدباء والمنجمين والكتاب، وله كتاب في التاريخ جمعه على السنين، وله كتاب «مضمار الحقائق وسر الخلائق»، وكتاب «طبقات الشعراء»، وله شعر جيد، وكانت وفاته سنة (٦١٧هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٤/١٢) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٤/٢٥٩) شذرات الذهب لابن العماد الحنبل (٥/٧٧).

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

وكانت الناس تتعجب له في المناظرة والبحث، وقلَّ أن كان يشتغل في العلوم
الحكمية، وتشفع العماد السلمي بابن بصاقة^(١) ليقرئه، فكتب إليه: [السيط]
ياسيدًا جل الله الزمان به وأهله من جميع العجم والعرب
العبد يذكر مولاه بما سبقت وعوده لعماد الدين عن كتب
ومثل مولاي من جاءت مواهبه من^(٢) غير وعد وجدواه بلا طلب
فأصف من بحرك الفياض مورده وأغنه من كنوز العلم لا الذهب!
واجعل له نسبًا يدلي إليك به فلحمة العلم تعلو لحمة النسب
ولا تكله إلى كتب تنبئ به فالسيف أصدق أنباء من الكتب^(٣)

(١) هو: فخر القضاة نصر الله بن هبة الله بن محمد بن عبد الباقي ابن بصافة الغفار المصري، شاعر
وكاتب كبير من كتاب المعظم عيسى وابنه الناصر داود، ولد في قوص سنة (٥٧٩هـ)، وكانت وفاته
في دمشق سنة (٦٥٠هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٤/ ١٨٧) شذرات الذهب لابن
العماد الحنبلي (٥/ ٢٥٢).

(٢) في عيون الأنبياء: عن.

(٣) إشارة إلى بيت أبي تمام الشهير:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحدين الجد واللعب

ومنهم:

٢٩- البديع الاضطرابي وهو:
 بديع الزمان أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن
 أحمد البغدادي^(١)

حكيم فاق بتفنن علمه الحكماء، ولم يكف نظره فسيح الأرجاء حتى شق السماء،
 ولم يقنع باستقصاء أمزجة البشر حتى سأل عن أمزجة النجوم، وميز ذوات البشر منها
 والوجوم، وأتقن عمل الاضطراب^(٢) ليقوم تحريكه للعضادة مقام جسده للنفض، ونظره
 لما بين المشارق والمغارب بمحيط ما يجمع الأرض، هذا مع إتقان بقية فنون الحكمة، وما
 في غضون ذلك من الأمور المهمة، على أنه لم يخل الأدب من لطيف نظره، وشريف ذكاء
 وقف به على ما لا تنافر من محاسن كل نفر.

قال ابن أبي أصيبعة فيه: «من الحكماء الفضلاء، والأدباء النبلاء، [طبيب عالم]^(٣)،
 وفيلسوف متكلم، غلبت عليه الحكمة وعلم الكلام، والرياضي، وكان متقناً لعلم
 النجوم والرصد، وكان أواحد أهل زمانه في علم الاضطراب، وعمله، فعرف به»^(٤).

(١) هو: أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن يوسف المشهور بالبديع الاضطرابي، أحد الشعراء
 المشهورين، والأدباء الفضلاء، وعلماء الفلك الأفذاذ، وكان بارعاً في علم الطب والهندسة، وله
 كتاب «درة التاج في شعراء حجاج» جمع فيه شعر ابن الحجاج ورثته، وكان له نظم جيد، وكان بارعاً
 لدى أمير المؤمنين المسترشد بالله، وذكر أنه كان خليعاً ماجناً في شعره، وكانت وفاته سنة (٥٤٣هـ).
 انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٢/٢٠) وفيات الأعيان لابن خلكان (٥٠/٥) شذرات الذهب
 لابن العماد الحنبلي (١٠٣/٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٢٧٥/٥).

(٢) الاضطراب: آلة قديمة لقياس ارتفاعات الأجرام السماوية، وأول من صنعه وكتب عنه هو
 إبراهيم الفزاري المتوفى عام (٧٧٧هـ). انظر: الموسوعة العربية الميسرة ص ١٤٨.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٤) عيون الأنباء (٣١٧/٢).

ومن بديع شعر البديع قوله: [السريع]

قام إلى الشمس بآلاته لينظر السعد من النحس
فقلت: أين الشمس؟ قال الفتى في الثورة قلت: الثور في الشمس^(١)

وقوله: [الخفيف]

قيل لي: قد عشقته أمرد الخد وقد قيل: إنه نكريش
قلت فروخ الطاوس أحسن ما كا ن إذا ما علاه الريش^(٢)

وقوله أيضًا: [مجزوء الكامل]

كن كيف شئت فإني قد صغت قلباً من حديد
وقعدت أنتظر الكسر ف وليس ذلك بالبعيد^(٣)

وقوله في جرع دان^(٤) - وهو الذي يوضع في مجالس الكبراء لصب تكعيب

القدح -: [المنسرح]

إني إذا ما قعدت في ملاء عدت من بعض آلة الفرخ
إذا تصدرت في مجالسهم تنغصوا لي بفاضل القدح^(٥)

وقوله: [السريع]

هل عثرت أقلام خط العذار في مشقها فالخال نقط العثار؟
أم استدار الخط لما غدت نقطته مركز ذاك المدار؟

(١) عيون الأنباء (٢/٣١٨).

(٢) عيون الأنباء (٢/٣١٨).

(٣) عيون الأنباء (٢/٣١٩).

(٤) هو مغسل الشراب.

(٥) عيون الأنباء (٢/٣٢٠).

ومنهم:

٣٠- ابن الشبل البغدادي وهو:

أبو علي الحسين بن عبد الله بن يوسف بن شبل^(١)

حكيم رأى الدنيا بعين الاحتقار، ونظر كل ما فيها بذل الافتقار، وزخرت له
بحار الحكم، فحاض لججها الغمار، وأذكت له سرجها فجنى له من غصونها المهل له
الثمار، وتناهى نظره في المآل فلم يزد بصيرة في الاعتبار، ولم يرد زيادة الاختبار، إلا أنه
كان جريء اللسان، مسعى الإحسان، خرجت به الفلسفة إلى مهامها العريضة، فضل
في فجاجها الفحيح، وضل في ذيل انفراجها الفسيح، ودام يحبط في سماء سمواتها، ويخطب
ولا يلج خطبه أسماع أهل مداوتها، وأغرب مساع نطقه، ومسالك باطله المموه بحقه،
تأدب بأدب الحياء في الوجنات، وذو الإغفاء في المقل السنوات، ولكنه لم يجد أذنًا ولم يلق
من يعير بصيرته فطناً.

قال ابن أبي أصيبعة: «مولده ومنشؤه ببغداد، وكان حكيماً فيلسوفاً متكلماً فاضلاً،
وأديباً بارعاً، وشاعراً مجيداً.

ومن شعره قوله^(٢): [الوافر]

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء ففي إفهامنا عنك انبهار
وفيك نرى الفضاء فهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار؟

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٣٠، ٤٣١) الوافي بالوفيات (٣/ ١١-١٦) عيون الأنبياء (٢/ ٢٦٣، ٢٧٠).

(٢) تنسب هذه القصيدة إلى ابن سينا وليست إلى ابن الشبل البغدادي كما قال ابن أبي أصيبعة (٢/ ٢٦٣).

وعنك ترفع الأرواح أم هل
وموج ذي المجرة أم فرند^(١)
وفيك الشمس رافعة شعاعاً
وطوق للنجوم إذا تبدي
وشهب ذا الخواطف أم ذبال
وترصيع نجومك أم حباب
تمدر قومهم ليلاً
فكم بصقالها صدئ البرايا
تبارى [ثم]^(٢) تخنس راجعات
فبيننا الشرق يقذفها صعوذاً
على ذا ما مضى وعليه يمضي
وأيام تفرقنا مداها
ودهر ينثر الأعمار ثراً
ودنيا كلما وضعت جنيناً
مع الأجسام يدركها البوار؟
على لجج الدروع له أوار
بأجنحة قوادمها قصار
هلالك أم يد فيها سوار؟
عليها المرخ^(٣) يقدح والقفار^(٤)
يؤلف بينه اللجج الغزار؟
وتطوى نهاراً مثلما طوي الإزار
وما يصدا لمصيرها^(٥) غرار^(٦)
وتكنس مثلما كنس الصوار^(٧)
تلقاها من الغرب انحدار
طوال مني وآجال قصار
لها أنفاسنا أبداً شفار
كما للورد في الروض انتشار
غذاه من نوائبها ظؤار

(١) فرند: السيف. وقيل: نوع من الثياب الحريرية.

(٢) المرخ: شجر سريع الاشتعال.

(٣) القفار: نوع من الأشجار.

(٤) في عيون الأنباء: لها أبداً.

(٥) غرار: حد الرمح والسيف والسهم، والغراران شفرتا السيف وكل شيء له حد، فحده غراره. [لسان العرب، مادة غرر].

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٧) الصوار: القطيع من البقر، والعدد أصورة، والجمع صيران. والصوار: وعاء المسك، والرائحة الطيبة. [لسان العرب مادة صرر].

هي العشواء ما خبطت هشيم. هي العجاء ما جرحت جبار
 فمن يوم بلا أمس ليوم. بغير غد إليه ما^(١) يسار
 ومن نفسين في أخذ ورد. لروح المرء في الجسم انتشار
 وكم من بعد ما ألفت نفوس. جسوماً عن مجاثمها تطار
 وتتنظر الرزايا والبلايا. وبعد فبالوعيد لنا انتظار
 ونخرج كارهين كما دخلنا. خروج الضب أخرجه الوجار^(٢)
 ألم تنك بالجوارح أنسات. فكم بالقرب عاد لها نفار
 فإن يك آدم أشقى بنيه. بذنب ما له منه اعتذار
 ولم ينفعه بالأسماء علم. وما ينفع السجود ولا الجوار^(٣)
 فأخرج ثم أهبط ثم أودى. فترب السافيات له شعار
 فأدركه بعلم الله فيه. من الكلمات للذنب اغتفار
 ولكن بعد غفران وعفو. يعير ما تلا ليلاً نهار
 لقد بلغ العدو بنامناه. وحل بآدم وينا الصغار
 (وقفنا تائمين)^(٤) كقوم موسى. ولا عجل أضل ولا خوار
 فيالك لقمة قد كان منها. علينا نقمة وعليه عار
 نعاقب في الظهور وما ولدنا. ويذبح في حشا الأم الحوار^(٥)

(١) في عيون الأنباء: بنا.

(٢) الوجار: حجر الضبع.

(٣) هذه فلسفة تشاؤمية غير صحيحة، فقد تلقى آدم من ربه كلمات علمه إياها فتاب عليه، وهذا يعني أن السجود نفع، والجوار وهو الدعاء بصوت مرتفع قد نفع خلاف ما ذكره الشاعر.

(٤) في عيون الأنباء: وتمنا ضائعين.

(٥) الحوار: ولد السائفة.

فما إذا الامتنان على وجود
وكان وجودنا خيرًا لو أننا
أهذا الداء ليس له دواء
تحير فيه كل دقيق فهم
إذا التكبير غال الشمس عنا
وبدلنا بهذي الأرض أرضًا
وأذهلت المراضع عن بنيتها
وغشى البدر من فرق وذعر
وسيرت الجبال فكن كثرًا
فأين ثبات ذي الأبواب منا
وأين عقول ذي الأفهام مما
وأين يغيب لب كان فينا
وما أرض عصته ولا سماء
وقد وافقه طائفة وكانت
قضاهما سبعة والأرض مهذا
فما لسمو ما أعلى انتهاء
ولكن كل ذا التهويل فيه

لغير الموجدین به الخيار؟
نخير قبله أو نستشار
وهذا الكسر ليس له انجبار؟
وليس لعميق جرحهم انسبار؟
وغال كواكب الأفق انتشار
وطوح بالسموات انفطار
لدهشتها وعطلت العشار
خسوف لتوعد لأسرار
مهيلات وسجرت البحار
وأين مع الرجوم لنا اصطبار؟
يراد بنا وأين الاعتبار؟
ضياؤك من سناه مستعار؟
فقيم يغول أنجمها انكدار؟
دخانًا ما لثأثره؟
دحاها فهي للأموات دار
ولا لسمو ما أرسى قرار
لذي الأبواب وعظ وازدجار

ومنه قوله: [الكامل]

وكانها الإنسان فيه عبرة متلوًا والحسن فيه معار

(١) الانسبار: السبر، التجربة، وسبر الشيء سبرًا حزره وخبره. [لسان العرب مادة سبر].

(٢) في عيون الأنبياء: لفاترة.

متصرفاً وله القضاء مصرف ومكلفاً وكأنه مختار

وقوله: [الكامل]

ثقلت زجاجات أتناف فرغاً حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بها حوت وكذا الجسوم تخف بالأرواح

وقوله: [البيسط]

قالوا القناعة عز العفاف^(١) غنى والذل والعار حرص المرء والطمع
صدقت من رضاه سد جوعته إن لم يصبه بها ذا عنه يقتنع

وقوله: [البيسط]

تلق بالصبر ضيف الهم ترحله فالخطب ما زاد إلا وهو منتقص
إن الهموم ضيوف أكلها المهج فروح النفس بالتعليل ترض به
والأمر ما ضاق إلا وهو منفرج عسى إلى ساعة من ساعة فرج

وقوله: [البيسط]

بنا إلى الدير من درتا صبايات فكم قضيت لبانات الشباب بها
فلا تلمني فما تغني ملاقات ما أمكنت دولة الأفراح
غنماً وكم بقيت عندي بقيات قم فاجل في فلك الظلماء شمس ضـ
فانعم ولد فإن العيش تارات تلوح في أذرع الساقين أسورة
حي بروجها الدهر طاسات وكاسات قد وقّع الدهر سطرًا في صحيفته
تبرًا وفوق نحور الشرب جامات خذ ما تعجل واترك ما وعدت به
لا فارقت شارب الخمر المسرات وكن لبيباً فللتأخير آفات

(١) في عيون الأنباء: الكفاف.

ومنتهم:

٣١- النصير الطوسي: محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين،

أبو عبد الله، الطوسي الفيلسوف^(١)

رجل ما عرف أياماً، ولا تبرقع بالحياء لثاماً، أقدم على خالقه، وحصل من السعي على خافقه، وتجاهر بالفسوق، وتظاهر بالتبضع من السوق، ولم يخف عاقبة التهور، ولا التدلي على الشريعة والتسور، فلم يزل في قبح أحدىثة، وطريق سبيل عهود منكوثة، على توسعه في العلم، ومعرفته بما به يستهم، فقد كان ذا فضائل غزيرة، وفواضل غريرة، واستيلاء على عقول السلاطين، واستخفاء في كيد ولا تبلغه الشياطين، مع كرم عميم، وكراً على مال لا يبقى معه عديم، وتظاهر بفراغ، وطلب فصل رام مثله وراغ، ولكن الله إذا أراد لامرئ أمراً [يسره]^(٢) لفعله وقدره على فعله، ليمضي سابق إرادته، ويقضي بشقاء العبد أو سعادته، ولهذا لجج في عمهه، ولم يبصر، ودام على غيه ولم يقصر، فما أقبل على اعتذار، ولا أسمعته المشيب الإنذار.

كان رأساً في علم الأوائل، لا سيما في الأرصاد، والمجسطي، فإنه فاق الكبار، قرأ

(١) هو: نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، عالم بالرياضة وعلوم الأوائل والأرصاد، وأحد مستشاري هولاكو ملك التتار، وكان ذا رأي مسنوع عنده، تعلم على كمال الدين بن يونس الموصل، ومعين الدين سالم بن بدران، وتعلم على يديه ابنه علي وغيره، وله العديد من الكتب منها: أوصاف الأشراف، ورسالة الإمامة. وتعديل المعيار في نقض تنزيل الأفكار، والخواشي على كليات القانون، وبقاء النفس بعد بوار البدن، وكتاب المتوسطات بين الهندسة والهيئة، والتجريد في المنطق، وقواعد العقائد، وغيرها كثير من المؤلفات، وكانت وفاته ببغداد سنة (٦٧٢هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (٢٤٦/٣) الوافی بالوفیات لابن أیوب الصفدي (١/١٧٩) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٥/٣٣٩).

(٢) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

على المعين سالم بن بدران المصري المعتزلي الرافضي^(١)، وغيره وكان ذا حرمة وافرة، ومنزلة عالية عند هولاء^(٢)، وكان يطيعه فيما يشير به عليه، والأموال في تصرفه، فابتنى في مدينة مراغة^(٣) قبة، ورصدًا عظيمًا، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء، وملاها من الكتب التي نهب من بغداد والشام والجزيرة^(٤) حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد!! وقرر بالرصد المنجمين والفلاسفة، والفضلاء، وجعل لهم الجامكية.

كان سمحًا كريماً، جوادًا حليماً، حسن العشرة، غزير الفضائل، جليل القدر، داهية.

(١) هو: معين الدين سالم بن بدران المصري المعتزلي الرافضي أحد أساتذة نصير الدين الطوسي. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (٣/ ٢٤٦-٢٤٩).

(٢) هو: ملك التار هولاء بن تولي قان بن جنکيز خان التري، طاغية زمانه وحارب المسلمين في كل مكان، وخضعت له البلاد والرقاب، واستولى على خراسان وفارس وأذربيجان، والعراق والشام وبلاد الجزيرة العربية، والروم وديار بكر، وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله وأمراء العراق، وكانت هزيمة جنوده على يد المظفر قطز سلطان مصر في موقعة عين جالوت، وقتل كبير قواده، وكان هولاء شجاعاً حازماً ذا همة عالية، توفي سنة (٦٦٤هـ) بالصرع، وترك ١٧ ذكراً عدا الإناث. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (٤/ ٢٤٠) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٧/ ٢٢٠).

(٣) مراغة: تقع غرب تبريز. انظر: معجم البلدان (٥/ ٩٤).

(٤) هي: الجزيرة الفراتية التي تقع بين نهري دجلة والفرات أو الموصل، وتشتمل على عدة مدن كبرى وقرى عظيمة، وأراضيها فسيحة واسعة، غنية بكثير من الثمار والزروع، وتسكنها قبائل ربيعة، وهي ضمن الجزيرة العربية الكبرى، وكان الفرس والروم يسيطرون عليها لعدة قرون سابقة على ظهور الإسلام، ولكن الإسلام قد سيطر على تلك المناطق عندما بدأت عملية المد الإسلامي الكبرى، وتم القضاء على جيوش الفرس والروم في تلك البلاد، وقام خلفاء بني أمية ومن بعدهم بني العباس بجعل تلك المناطق تحت سيطرتهم، وبسيطرة مطلقة دائمة، ثم بنوا بها كثيراً من المدن الأخرى. انظر: الروض المعطار للحميري.

حكى لي شيخنا الأصفهاني أنه أراد العمل للرصد، فرأى هولاء كثرة ما ينصرف عليه، فقال: هذا العلم المتعلق بالنجوم ما فائدته؟ أيدفع ما قدر أن يكون؟

فقال: أنا أضرب لمنفعته مثلاً: القان^(١) يأمر من يطلع إلى أعلى هذا المكان، ويدع يرمي من أعلاه طست نحاس كبيراً، من غير أن يعلم به أحد، ففعل ذلك.

فلما وقع كانت له وقعة عظيمة هائلة روعت من هناك، وكاد بعضهم يصعق، وأما هو وهولاء فإنيهما ما تغير عليهما شيء، لعلمهما بأن ذلك واقع.

فقال له: هذا العلم النجمي له هذه الفائدة، يعلم المتحدث فيه ما يحدث، فلا يحصل له من الروعة والاكتراث ما يحصل للذاهل الغافل عنه. فقال له: لا بأس بهذا، وأمره بالشروع فيه، أو كما قيل.

ومن دهائه: ما حكى لي شيخنا الأصفهاني أيضًا قال: إنه حصل له غضب على الجويني^(٢) صاحب الديوان، وأظنه قال: علاء الدلالة^(٣)، فأمر بقتله فجاء أخوه إليه، وطلب منه إبطال ذلك. فقال: هذا القان، وهؤلاء القوم إذا أمروا بأمر ما يمكن رده، خصوصاً إذا برز إلى الخارج، فقال له: لا بد من الحيلة في ذلك.

(١) القان: السيد المطاع عند التتار.

(٢) هو عطاء الملك بن محمد بن محمد بن علاء الدين الجويني، صاحب الديوان الخراساني، كان يشارك أخاه الكبير شمس الدين في السيطرة على الدولة أيضًا (ابن هولاء ملك التتار)، وكان ذا منزلة عالية في البلاد، ولكنه ما لبث أن قبض عليه مجد الملك اللجمي وأخذ أمواله وأملكه وعاقب كل خواصه، واختفى علاء الدين الجويني ولكنه ما لبث أن توفي بعد الاختفاء بشهر واحد سنة (٦٨١هـ)، وكان علاء الدين فيه سؤدد وكرم، وخبرة كبيرة بالأمر، وعدل رافة بالريعية، وزاد في عمارة البلاد، وكان يحب العلماء ويجالسهم ويفضلهم في مجالسه ويعطف عليهم. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (٢/٤٥٢).

(٣) في «ف»: علاء الدين.

فتوجه إلى هولاء، ويديه عكاز، وسبحة، واصطرلاب، وخلفه من يحمل مبخرة، والبخور يضرم، فرآه خاصة هولاء الذين على باب المخيم، فلما وصل أخذ يزيد في البخور، ويرفع الاصطرلاب، ينظر فيه ويضعه، ويسأل عن هولاء ويقول: هو سالم هو سالم، يكرر ذلك ويقولون: نعم. فيحمد الله ويسجد، فلما رأوه يفعل ذلك دخلوا إلى هولاء، وأعلموه، وخرجوا إليه، فقالوا: ما الذي أوجب هذا؟ فقال: القان، أين هو؟ قالوا له: جُؤا.

قال: طيب معافي موجود في صحة؟ قالوا: نعم. فسجد شكراً لله تعالى، وقال لهم: هو طيب في نفسه؟ قالوا: نعم. وكرر هذا ومثله، وقال: أريد أرى وجهه بعيني، إلى أن دخلوا إليه وأعلموه بذلك. وكان في وقت لا يجتمع به فيه أحد، فأمر بإدخاله، فلما رآه سجد وأطال السجود. فقال له: ما خبرك؟ قال: اقتضى الطالع في هذا الوقت أن يكون على القان قطع عظيم إلى الغاية، ففقت وعملت هذا، وبخرت هذا البخور، ودعوت بأدعية أعرفها، أسأل الله صرف ذلك عن القان، والطالع يقتضي أن يحقن القان دماء كثيرة، ويفرج عن نفوس كثيرة ليحقن دمه، ويفرج عنه، ويتعين الآن أن القان يكتب إلى سائر ممالكه، ويجهز الألفية في هذه الساعة إليها بإطلاق من في الحبوس والاعتقال، والعفو عمن له جناية أو أمر بقتله، لعل الله أن يصرف هذا الحادث العظيم، ولو لم أر وجه القان ما صدقت. فأمر هولاء في ذلك الوقت بما قال، وأطلق صاحب الديوان في جملة الناس، ولم يذكره النصير الطوسي، وهذا غاية في الدهاء بلغ به مقصده ودفع عن الناس أذاهم، وعن بعض الناس إزهاق أرواحهم.

قال أبو الصفاء: ومن حلمه ما وقفت على ورقة حضرت إليه من شخص من جملة ما يقول فيها: يا كلب، يا ابن الكلب!!

فكان الجواب: وأما قوله كذا وكذا، فليس بصحيح؛ لأن الكلب من ذوات الأربع، وهو نابح طويل الأظفار، وأنا فمتصب القامة، بادي البشرة، عريض الأظفار،

ناطق، ضاحك، فهذه الفصول والخواص غير تلك الفصول والخواص! وأطال في نقض كل ما قاله، هكذا برطوبة وتأنٍ غير منزعج، ولم يقل في الجواب كلمة قبيحة!

ومن تصانيفه: كتاب المتوسطات بين الهندسة والهيئة وهو جيد إلى الغاية، ومقدمة في الهيئة، وكتاب وضعه للنصيرية، وأنا أعتقد أنه ما يعتقد؛ لأن هذا فيلسوف وأولئك يعتقدون ألوهية علي، واختصر «المحصل» للإمام فخر الدين، وهذبه، وزاد فيه، وشرح «الإشارات» ورد فيه على الإمام فخر الدين في شرحه، وقال: هذا جرح وما هو شرح! وقال فيه: إنى حررته في عشرين سنة، وناقض فخر الدين كثيرًا. ولقد ذكره قاضي القضاة جلال الدين القزويني^(١) -رحمه الله- يومًا وأنا حاضر وعظمه -أعني: الشرح- فقلت: يا مولانا! ما عمل شيئًا لأنه أخذ شرح الإمام وكلام سيف الدين الآمدي، وجمع بينهما، وزاد يسيرًا. فقال: ما أعرف للآمدي في الإشارات شيئًا. قلت: نعم، كتاب صنفه وسماه: «كشف التمويهات عن الإشارات والتنبيهات». فقال: هذا ما رأيته.

ومن تصانيفه: «التجريد» في المنطق، و«أوصاف الأشراف»^(٢)، «قواعد العقائد»، و«التخليص في علم الكلام»، و«العروض» بالفارسية، و«شرح الثمرة» لبطليموس، و«كتاب مجسطي»، و«جامع الحساب في التخت والتراب»، و«الكرة والأسطوانة»، و«المعطيات»، و«الظواهرات»، و«الباطن»، و«الليل والنهار»، و«الكرة المتحركة»، و«الطلوع والغروب»، و«تسطيح الكرة»، و«المطالع»، و«تربيع الدائرة»، و«المخروطات»، و«الشكل المعروف بالقطائع»، و«الجواهر»، و«الأسطوانة»، و«الفرائض على مذهب أهل البيت»، و«تعديل المعيار في نقد تنزيل الأفكار»، و«بقاء

(١) هو: القاضي الجليل أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عمر العجلي القزويني، كان يدرس بالمدرسة المسروية، عوضًا عن ركن الدين بن أفتكين، ثم تولى قضاء مصر، فخرج إليها في شهر رجب سنة (٧٢٧هـ) فأرسل ابنه بدر الدين إلى دمشق خطيبًا في المسجد الأموي. انظر: المدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر الدمشقي (١/ ٣٠٧، ٤٥٦).

(٢) الصواب: «أوصاف الأشراف» لا الإشارات.

النفس بعد بوار البدن»، و«الجبر والمقابلة»، و«إثبات العقل الفعال»، و«شرح مسألة العالم»، و«رسالة الإمامة»، و«رسالة إلى النجم الدين دنبران الكاتبي»^(١) في إثبات واجب الوجود»، و«حواشي على كليات القانون»، و«رسالة ثلاثون فصلاً في معرفة التقويم»، وله شعر كثير بالفارسية.

وقال الشمس ابن المؤيد العرضي: أخذ النصير العلم عن الشيخ كمال الدين بن يونس الموصل، والمعين سالم بن بدران المصري، المعتزلي، وغيرهما.

قال: وكان منجماً لأبغاً^(٢) بعد أبيه، وكان يعمل الوزارة هو لاكو من غير أن يدخل يديه في الأموال، واحتوى على عقله حتى إنه لا يركب ولا يسافر إلا في وقت يأمره به، ودخل عليه مرة ومعه كتاب مصور في عمل الدرياق الفاروق، فقرأه عليه وعظمه عنده، وذكر منافعه. وقال: إن كمال منفعته كذت تسحق مفرداته في هاون ذهب، فأمر بثلاثة آلاف دينار لعمل الهاون، وولاه هو لاكو جميع الأوقاف في سائر بلاده، وكان له في كل بلد نائب يستغل الأوقاف، ويأخذ عشرها، ويحمله إليه ليصرفه في جامكيات المقيمين بالرصد، ولما يحتاج إليه من الأعمال بسبب الأرصاد، وكان للمسلمين به نفع خصوصاً الشيعة والعلويين، والحكماء وغيرهم، وكان يبرهم، ويقضي أشغالهم، ويحمي أوقافهم، وكان مع هذا كله [فيه]^(٣) تواضع وحسن ملتقى. قال حسن بن أحمد الحكيم^(٤): سافرت إلى مراغة، وتفرجت في هذا الرصد، ومتولى صدر الدين علي بن خواجا نصير^(٥)، وكان

(١) هو: نجم الدين علي بن عمر بن علي دبران الكياتبي، القزويني المنطقي الحكيم، ولد سنة (٦٠٠هـ)، وتوفي سنة (٦٧٥هـ)، وله من التصانيف والمؤلفات: «العين» في المنطق، و«الشمسية»، و«جامع الدقاق»، و«حكمة العين» وغيرها. انظر: وفیات الوفیات لابن شاکر الکتابي (٥٦/٣).

(٢) أبغاً: هو أبقا خان ابن هو لاكو خان.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٤) انظر: وفیات الوفیات لابن شاکر الکتابي (٢٥٠/٣).

(٥) هو: صدر الدين ابن العلامة نصير الدين الطوسي، وكان قد تولى بعد والده على الرصد في المراغة.

شاباً فاضلاً في التنجيم، والشعر بالفارسية، وصادفت الشمس ابن المؤيد العرضي، والشمس الشرواني، وكمال الدين الأيكي، وحسام الدين الشامي، فرأيت فيه من آلات الرصد شيئاً كثيراً، منها: ذات الحلق، وهو خمس دوائر متخذة من نحاس؛ الأول دائرة نصف النهار، وهي مركوزة على الأرض، ودائرة معدل النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض، ودائرة الميل، رأيت الدوائر الشمسية التي يعرف بها سمت الكواكب، واصطرباً لا يكون سعة قطره ذراعاً، واصطرباً لابات كثيرة، وكتباً كثيرة:

قال: وأخبرني شمس الدين ابن العرضي أن النصير أخذ من هولاء بسبب عمارة هذا الرصد [ما لا يحصىه إلا الله، وأقل ما كان يأخذ بعد فراغ الرصد]^(١) لأجل الآلات وإفراغها وإصلاحها عشرون ألف دينار، خارجاً عن الجوامك للحكماء والقومة^(٢).

وقال الخواجه نصير الدين في «الزيغ الإيلخاني»: إنني جمعت لبناء الرصد جماعة من الحكماء، منهم المؤيد العرضي من دمشق، والفخر المراغي^(٣)، الذي كان بالموصل، والفخر الخلاطي^(٤) الذي كان بتفليس^(٥)، والنجم دبيران القزويني، وابتدأنا ببنائه في

وكان شاباً فاضلاً عاملاً في التنجيم، والشعر باللغة الفارسية، وكان قد تولى كل مناصب والده نصير الدين، فلما توفي تولاهما أخوه أحمد الأصيل. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (٢٥٠/٣).

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) أي: الذين يقومون على أمر الرصد والفلك.

(٣) هو: أحد الحكماء العرب في علم التنجيم والرصد، وكان يغلب عليه العلوم الرياضية، وكان من أهل مدينة الموصل، وكان نصير الدين الطوسي قد أخذه ليعمل في الرصد الذي أقامه. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (٢٥١/٣) تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٩٨.

(٤) هو: أحد حكماء المسلمين من أهل تفليس، كان يغلب عليه علم الطب. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (٢٥١/٣) تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٩٨.

(٥) مدينة تقع على حدود أرمينية، على نهر عظيم بها سوران من طين ومعظم منازلها من الخشب، وأرضها خصبة كثيرة الحمامات والمنازل، شهيرة بالعسل والسم، فتحبها المسمومون وظلت تحت

سنة سبع وخمسين وستائة، في جمادى الأولى بمراغة، و لأرصاد التي بنيت قبلي وعليها كان الاعتماد دون غيرها هو رصد برجيس^(١)، وله مبني ألف وأربعمائة سنة، وبعده رصد بطليموس، وله ألف ومائتا سنة، وخمس وثمانون سنة، وبعده في ملة الإسلام رصد المأمون ببغداد، وله أربعمائة سنة، وثلاثون سنة، والرصد البناني في حدود الشام، والرصد الحاكمي بمصر، ورصد بني الأعلم ببغداد، وأوقفها الرصد الحاكمي ورصد ابن الأعلم^(٢)، ولهما مائتان وخمسون سنة.

وقال الأستاذون: إن أرصاد الكواكب السبعة لا يتم في أقل من ثلاثين سنة؛ لأن فيها يتم دور هذه السبعة. فقال هولاء: اجتهد أن يتم رصد هذه السبعة في اثنتي عشرة سنة. فقلت له: اجتهد في ذلك.

وكان النصير قد قام من مراغة إلى بغداد ومعه جماعة كثيرة من تلامذته، وأصحابه، فأقام بها مدة أشهر ومات، وخلف من أولاده: صدر الدين علي، والأصيل (حسن)^(٣)، والفخر أحمد^(٤).

وولي صدر الدين علي بعد أبيه غالب مناصبه، فلما مات ولي مناصبه أخوه

سيطرتهم حتى دخلها التار سنة (٦١٨هـ) وحرقوا منازلها وقتلوا أهلها. انظر: الروض المعطار للحميري ص ١٣٩.

(١) برجيس: كوكب المشتري.

(٢) هو: علي بن الحسين، أبو القاسم العلوي الشهير بابن الأعلم، طبيب، شريف، وعالم بعلم الهيئة، وكان يخدم عضد الدولة بن بويه، وبعض أيام صمصام الدولة بن بويه وولده القائم بأمر الله، له كتاب الزيج، وهو مشهور به، وكانت وفاته سنة (٣٧٥هـ). انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٥٧.

(٣) راجع عنه: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٢٥١/٤).

(٤) راجع عنه: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٢٥١/٣).

الأصيل، وقدم الشام مع غازان^(١) وحكم تلك الأيام في أوقاف دمشق، وأخذ منها جملة، ورجع مع غازان، وولي ولاية بغداد مديدة، فأساء السيرة، فعزل وصودر، وأهين، فمات غير حميد، وأما أخوهما الفخر أحمد فقتله غازان لكونه أكل أوقاف الروم وظلم.

ومنهم:

٣٢- القطب الشيرازي: (محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي)

رجل يرجع إلى خير، ويتتبع في أول وأخير، فلم يخلُ وأديه من متتبع، ولا بادية من جفل قوم مجتمع، وكان له من بني جنكيز خان محل حلي بالحلل ترائبه، وخلي كمداء الأنواء راتبه، حتى اصطفاه السلطان أحمد^(٢)، فبعثه إلى الحضرة المنصورية رسولاً، وبلغه من تلك المشاهد رسولاً، فحالت الأقدار دون مراده، وأحلت له السهام في مراده، فلم يبلغ الرسالة، ولا سوغ له زمنه الذي أسأله.

وحدثني شيخنا الأصفهاني قال: كان لا يزال بينه وبين خواجا رشيد الوزير^(٣)

(١) هو: الملك محمود بن أرغون المغولي الجنكيز خان، ملك بلاد العراقيين وخراسان وفارس وأذربيجان والروم، وكان ملكاً للنتار فأسلم سنة (٦٦٤هـ) فانتشر الإسلام بين التتار، وكان عاقلًا عفيفًا شجاعًا، سائسًا عالمًا بأمور السياسة وتدير أمور الملك، ذا هبة قوية، إلا أنه كان بخيلًا لا يتورع عن الأموال، وكان قد هجم على بلاد الشام، ومات بالقرب من همدان سنة (٧٠٣هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي، الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٣/ ٢٩٢).

(٢) هو: السلطان أحمد بن هولاكو بن تولي قان بن جنكيز خان. انظر: فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي (٤/ ٢٤١).

(٣) هو: فضل الله بن أبي الخير بن غالي الهمداني، رشيد الدين، الوزير، كان طبيبًا ماهرًا، ثم خدم غازان فاستوزره، فكان يذب ويدافع عن المسلمين ويخدمهم، ويسعى في حقن دماهم، وكان يحب العلماء والصالحين ويذل لهم الأموال، فكان له تفسير القرآن مع بعض الكتب الأخرى، ولكن لم يصلنا

بغضاء تفرق اللحم، وتدب ديبب النار في الفحم، وكان لا يزال ينغص عليه مقره، ولا يريه موارده إلا مكدره، فكانت جدته لا تقوم بتكاليفه، ومواده لا تنهض بمصاريفه، على أنه كان ينسب إلى هنات ومعاييب بينات، على فضل يُتَّاب، وكرم لا يرد بعتاب.

ومنهم:

٣٣- الشيخ صفى الدين الهندي:

(محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي، أبو عبد الله، صفى الدين)^(١)

إمام لم يبق إلا من اعترف بسؤدده، واغترف منه بيده، واشترف به على ما أعيان العيان وأخفى البيان، وقرب البعيد ولم يان، وكان بحرًا يطفح، وقطرًا يسفح، يرجع إلى كرم سجايا، لو قذف بها النار لما اضطربت، أو سجرت بها البحار لما التطمت، إلا أنه كان لا تطيعه العبارة إذا نطق، ولا يجدر صيب سيله إذا اندفق.

أخذ عنه أكابر العلماء بدمشق؛ كابن المرحل^(٢)، -----

منها شيء؛ لأنها احترقت بعد موته، عندما اتهم بقتل الملك خربندا سنة (٧١٦هـ) وقتل وقطع جسده ووزعت أجزاء جسده إلى كل بلد عضو من الأعضاء، وكانت وفاته سنة (٧١٦هـ). انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٣/ ٢٣٢).

(١) هو: صفى الدين محمد بن عبد الرحيم بن محمد صفى الدين الهندي، إمام وفقه شافعي، ولد ببلاد الهند سنة (٦٤٤هـ)، ورحل كثيرًا إلى بلاد اليمن، ومكة وبلاد الروم ومصر، وقيصرية وقونية، وغيرها، ودرس في عدة مدارس منها: المدرسة الرواحية والدولعية والأتابكية، ودرس على السراج الأرموي وغيره، وصنّف كتبًا في أصول الفقه، وكانت وفاته سنة (٧١٥هـ). انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٤/ ١٤) طبقات الشافعية للسبكي (٢/ ٥٣٤) الدارس في تاريخ المدارس للدمشقي (١/ ١٣٠).

(٢) هو: محمد بن عبد الله بن عمر، الشيخ زين الدين ابن المرحل الشافعي، وابن أخي الشيخ صدر الدين، ولد سنة (٦٩٠هـ) وتلقى العلم صغيرًا، وكان فصيحًا عفيقًا، حسن الوجه اختير لقضاء

= وابن الزملكاني^(١)، وبلغوا به فوق الأماني، وحصل به ابن المرحل علوماً كانت نجايا الصدر، وأمن ابن الزملكاني أن يعرف النقص كماله كما يعرفو البدر، ولولاه لما اتسع بالشام مجال الكلام، ولا طلعت للمعقول شمس تمحق الظلام، وكان على تدفق بحره وتأنق سحره لا ينفث سحره في عقد الأقلام، ولا يكتب في نهايته إلا ما لا يرضى به في بدايته من الغلام.

الشام وقضاء مصر بدلاً من أستاذه كمال الدين ابن الزملكاني بعد رحيله إلى حلب، ولكنه كان صغير السن، وكان يدرس في المدرسة الشافعية البرانية في مصر، وكان مقبلاً لدى الناس لفصاحته وجودة إلقائه الدروس في الفقه والأصول، كما تولى نيابة قاضي القضاة علم الدين الأحنائي بدمشق، وكانت وفاته سنة (٧٣٨هـ) بدمشق. انظر: الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر بن محمد الدمشقي (٢٨٣/١) كتاب المقفى الكبير للمقريزي (١/١١٩).

(١) هو: محمد بن علي بن عبد الواحد كمال الدين ابن الزملكاني، قاضي القضاة، الأنصاري الدمشقي، ولد سنة (٦٦٧هـ)، فتلقى العلم على كبار علماء عصره منهم: ابن علان، ابن القواس، وابن الواسطي، وابن مالك، وشهاب الدين الخوي، وبهاء الدين بن الزكي، وصفي الدين الهندي، وغيرهم، وكان يدرس في عدة مدارس منها: المدرسة الشامية البرانية، والظاهرية، والرواحية، تولى ديوان الأقرم، ووكالة بيت المال، كتب في ديوان الإنشاء، وتولى قضاء حلب مدة من الزمن، وله من المؤلفات: رسالة في الرد على ابن تيمية، ورسالة «رابع أربعة»، وشرح جزءاً من كتاب المنهاج لابن تيمية، وكانت وفاته سنة (٧٢٧هـ) في مصر. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٧/٤) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٤/٢١٤) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٤/١٩٢).

ومنهم:

٣٤- علي بن إسماعيل بن يوسف، الإمام العلامة القدوة، العارف ذو الفنون،
 الشيخ علاء الدين، قاضي القضاة، شيخ الشيوخ،
 أبو الحسن القونوي التبريزي^(١)

جمع الطريقتين، ونفع الفريقين، ولي المنصبين، ورعى في جانبيهما المخلصين، فعلا
 على الألى، وأرتقة أهل النقى، وعلا على مجد ما وصل إليه ذو مجد، ودرس في الإقليمين،
 فأعجب، وغرس فيهما كل غرس فأنجب، ولم يرد أهل العلم والصلاح إلا بقيته، ولا
 شهد أهل مصر والشام إلا أولويته، ذُلت له فيهما الرتب، وسهلت عليه الأماني فبلغ
 أقصى علاهما، وطاب به الواديان كلاهما.

ولد سنة ثمان وستين وستمائة، وتوفي بدمشق سنة تسع وعشرين وسبعمائة، في
 ذي القعدة، ودفن بسفح جبل قاسيون، بتربة اشترت له، تفقه وتفنن، وبرع وناظر، قدم
 دمشق أول سنة ثلاث وتسعين وستمائة، فرتب صوفيًا، ثم درس بالإقبالية^(٢)، وسمع من

(١) هو: الإمام القاضي الشيخ علاء الدين أبو الحسن علي بن نور الدين أبي الفداء إسماعيل بن يوسف
 القونوي التبريزي، المولود في مدينة قونية سنة (٦٦٨هـ)، ودخل مدينة دمشق ودرس بها سنة
 (٦٩٣هـ)، وظل بها في التدريس بالمدرسة الإقبالية حتى توفي سنة (٧٢٩هـ)، ودفن بسفح جبل
 قاسيون بمدينة دمشق. انظر: الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر الدمشقي (١/١٦١).

(٢) وتوجد داخل باب الفرج وباب الفراديس بمدينة دمشق السورية، بالقرب من الجامع والمدرسة
 الظاهرية الجوانية، وكان جمال الدولة إقبال عشيق الأميرة ست الشام قد أوقفها عليها، وقيل:
 أنشأها خوجا إقبال خادم نور الدين الشهيد، وخادم السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكانت
 المدرسة دارًا فجعلها مدرسة، ووقف عليها وقفًا، مع المدرسة الأخرى التي تسمى بالإقبالية أيضًا،
 ويطلق على الكبيرة المدرسة الشافعية، والثانية الحنفية، ومن أشهر من درس بها الشيخ علاء الدين
 القونوي، وتاج الدين بن الجواب، وشمس الدين بن سني الدولة، وصدر الدين بن سني الدولة،
 وشهاب الدين بن المعجد، وعماذ الدين الحسيني، وبدر الدين بن الشريش، وغيرهم. انظر: الدارس
 في تاريخ المدارس لعبد القادر الدمشقي (١/١٥٩).

أبي حفص^(١) بن القواص، وأبي الفضل بن عساكر^(٢)، وجماعة بمصر من الأبرقوهي^(٣) وطائفة.

واستوطن مصر، وولي مشيخة سعيد السعداء^(٤)، وأقام عشرين سنة يصلي الصبح ويقعد للاشتغال إلى أذان الظهر، وتخرج به الأصحاب، وانتفع به الطلبة خصوصاً في الأصول، وكان ساكناً وقوراً، حليماً، مليح السمات والوجه، تام الشكل، حسن التعليم، ذكياً، قوي اللغة والعربية، كثير التلاوة والخير.

درس بالشريفية^(٥) بالقاهرة، وبها كان سكنه واشتغاله، ثم لما حضر قاضي

(١) هو: أبو المعالي محمد بن إبراهيم بن أحمد بن عثمان بن عبد الله بن غزير، ولد سنة (٦٥٢هـ)، وهو إمام فقيه، تعلم على الرشيد العطار، وابن عبد الدائم، وأبي عبد الله اليوناني، والمعين الدمشقي، وإسماعيل بن صارم، وكمال الدين ابن الزملاكي، وغيرهم، وكان يحدث بدمشق، وبها توفي سنة (٧٢٠هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٧/٤) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٢٧٨/٣).

(٢) هو: أحمد بن محمد بن الحسن هبة الله بن عساكر، تاج الأمناء أبو الفضل، إمام راوية ومحدث، كان يسمع على أبي القاسم، وكان صديقاً للشيخ تاج الدين الكندي، وأمه أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية، وكانت وفاته يوم الأحد في رجب سنة (٦١٠هـ)، وكان مولده سنة (٥٤٢هـ). انظر: الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر النعماني الدمشقي (٣٠٢/٢).

(٣) هو: أبو المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد بن المؤيد، إمام عالم بالحديث الشريف والقراءات، ولد سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) في مدينة أبرقوه التابعة لإقليم أصبهان ببلاد فارس، ونشأ الأبرقوهي في همدان وبها تلقى العلم، وروى عن علمائها، ثم رحل منها إلى مكة المكرمة، وتوفي ودفن بها سنة (٧٠١هـ/١٣٠٢م). انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٤/٦).

(٤) هي: المدرسة الصالحية أوقفها صلاح الدين الأيوبي على الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة في سنة تسع وستين وخمسمائة.

(٥) ويقع بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية، وقفها الأمير فخر الدين أبو نصر ثعلب بن يعقوب بن مسلم بن أبي جميل وصية بن جعفر بن موسى، في عهد الدولة الأيوبية، وتم بناء هذه المدرسة سنة (٦١٢هـ)، وتبع المذهب الشافعي. انظر: الخطط المقرية للمقريزي (٣٧٣/٢).

القضاة القزويني إلى الديار المصرية عوضاً عن قاضي البقضاء بدر الدين بن جماعة^(١)، عينه السلطان لقضاء قضاء الشام، فأخرج كارهاً، وكان يقول لأصحابه الأخصاء سرّاً: أخلني السلطان كونه لم يولني قضاء الديار المصرية، وليت كان عيني لذلك، وكنت سألته الإعفاء.

ولما خرج إلى الشام حل كتبه على البريد معه، وأظنها كانت وقر خمسة عشر فرساً أو أكثر! وباشر المنصب أحسن مباشرة بصلف زائد، وعفة مفرطة، ولم يكن له نهمة في الأحكام بل رغبته وتطلعه إلى الأشغال والإفادة.

وطلب الإقالة أولاً من السلطان فما أجابه، وكان منصفاً في بحوثه، ريضاً، معظماً للآثار، ولم يغير هيئة التصوف، خرّج له ابن طغريل، وابن كثير^(٢)، ووصلهما

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة، كبير قضاة مصر والشام، ومن كبار علماء عصره في الفقه والحديث، ولد سنة (٦٣٩هـ) في حماة. طلب العلم صغيراً وحفظ القرآن الكريم، وتعلم الفقه واللغة والنحو، وتعلم على كبار علماء عصره؛ منهم: صفى الدين البراذعي، والرشيد بن مسلفة، والرشيد العطار، وشرف الدين السبكي، وابن مالك، وإبراهيم بن جماعة، كما تعلم عليه العديد من كبار العلماء منهم: أبو حيان الأندلسي النحوي، وصلاح الدين الصفدي، وقطب الدين السباطي، وابنه عز الدين بن جماعة، وتاج الدين السبكي، له العديد من المؤلفات منها: تذكرة السامع والمتكلم في آداب العلم والمتعلم، وكتاب غرر البيان فيمن لم يسم في القرآن، وكشف المعاني عن المتشابه من الثاني، وغيرها. وكانت وفاته سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٣م). انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٢٩٧/٣) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (١٨/٢) شذرات الذهب لابن لعماد الحنبلي (١٠٥/٦).

(٢) هو: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القرشي، إمام في التفسير والتاريخ، ولد سنة (٧٠١هـ)، ودرس على كبار علماء عصره في التاريخ والحديث، كما حفظ القرآن الكريم صغيراً، ومن أشهر شيوخه: نجم الدين العسقلاني، وإبراهيم بن عبد الرحمن الفراري، وأبو يعلى حمزة بن مؤيد الدين، وابن الشحنة، وابن قاضي شعبة، ومن أهم كتبه: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم، والاجتهاد في طلب الجهاد، وشمائل الرسول ودلائل نبوته، واختصار السيرة النبوية،

بجملة.

وشرح «الخواوي»^(١) في أربع مجلدات، موجودة، وله: «مختصر المنهاج» للحليمي^(٢)، سماه: «الابتهاج» وله: «التصرف شرح التعرف في التصوف».

وكان يعرف الأصلين، والمنطق^(٣)، وعلوم الحكمة، ويعرف الأدب، وكان مع

وأحاديث التوحيد والرد على الشرك، وجامع المسانيد. انظر: البداية والنهاية لابن كثير - المقدمة، الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (١/ ٣٩٩).

(١) يقصد «الخواوي الصغير» لعبد الغفار القزويني.

(٢) هو: أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم النجاري الشافعي، إمام، قاضي، محدث، ومتكلم، وأحد الأذكياء المعدودين وأديب مشهور، تعلم على أبي بكر القفال، وأبي بكر الأردني، وخلف بن محمد الحيام، وبكر بن محمد المروزي، وغيره، وحديث عنه أبو عبد الله الحاكم، وأبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد النجاري، وغيرهم كثير. وكانت وفاته سنة (٤٠٣ هـ)، وكان قد ولد بجرجان سنة (٣٣٨ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ٢٣٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣/ ١٦٧) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (١٢/ ٣٥١) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ١٣٧).

(٣) المنطق: علم يدرس صور الفكر وطرق الاستدلال السليم، فعرفه المناطقة القدامى بأنه آلة قانونية تمنع مراعاتها الذهن أن يزل في فكره. وأرسطو هو أول من ألف في المنطق بوصفه علماً قائماً بذاته أو تسمى مجموعة بحوثه المنطقية «الأورجانون» أي آلة العلوم. وهناك أسماء عديدة أطلقت على هذا العلم؛ فقد سماه الفارابي في كتابه الأوسط الكبير: (عيار العقل)، وسماه ابن سينا في كتابه منطق الشرقيين (بالعلم الأولي)، وسماه الغزالي: (معيان العلم ومحك النظر) وسماه السهروردي في حكمه الأشراق: (ضوابط الفكر) أو (الآلة الواقية للفكر) وسماه آخرون: فن التفكير وعلم قوانين الاستدلال. وأن مسمى هذه الأسماء واحد عند أصحابها، وتعدد الأسماء لهذا العلم لا يؤثر في وحدة المسمى بأي حال من الأحوال، وأشهر أسماء هذا العلم على الإطلاق تسميته باسم (المنطق). فمفهوم المنطق يطلق على ثلاث إطلاقات:

١ - تطلق على الإدراك الكلي: وهو وصول النفس إلى المعنى حتى تنطبع فيها صورة المعلومات.

٢ - وتطلق على القوة العاقلة التي هي محل ذلك الإدراك.

مخالفته لابن تيمية وتخطته له في أشياء كثيرة يثني عليه ويعظمه، ويذب عنه، إلا أنه لما توجه من مصر إلى دمشق، قال له السلطان:

إذا وصلت، خلّ نائب الشام يفرج عن ابن تيمية.

قال: يا خوند^(١)! على ماذا حبستموه؟

فقال: لأجل ما أفتى به في تلك المسألة.

فقال: إنما حبس للرجوع عنها، فإن كان قد رجع أفرجنا عنه. فكان ذلك سبب

٣- وتطلق على التلفظ الذي يبرز ما يدور في القوة العاقلة من أفكار، وسمي بالمنطق؛ لأن المنطق يطلق على اللفظ وعلى إدراك الكليات وعلم النفس الناطقة، ولما كان هذا الفن يقوى بالأول ويسلك بالثاني مسلك السواء، ويحصل بسببه كمالات الثالث اشتق له اسم منه وهو المنطق.

تعريف المنطق وموضوعه وغايته:

تعريفه: علم بقوانين تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر.

وموضوعه: هي المعلومات التي يبحث في المنطق عن عوارضها الذاتية، والذي يبحث في المنطق عن عوارض الذاتية أمران: المعلوم التصوري والمعلوم التصديقي.

من حيث إنها يوصلان إلى مجهول تصوري أو مجهول تصديقي، أو يتوقف عليهما الإيصال إلى المجهول التصوري أو المجهول التصديقي، وأن الموصل إلى المجهول التصوري هو: المعرف أو القول الشارح، والموصل إلى المجهول التصديقي هو الحجة بأنواعها الثلاثة من: القياس، الاستقراء، التمثيل، والذي يتوقف عليه الإيصال في باب التصورات هو الكليات الخمسة، والذي يتوقف عليه الإيصال إلى المجهول التصديقي هو القضية وأجزاؤها من الموضوع والمحمول.

وغايته: الإصابة في الفكر وحفظ الرأي عن الخطأ في النظر. انظر: المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم، عوض الله حجازي ص ٢١، تسهيل المنطق لعبد الكريم الأتربي ص ٤، توضيح المنطق، محمد شحاته ص ١٠، ١١.

(١) خوند: فارسية بمعنى السيد أو الأمير.

تأخيره في السجن، وكان له ميل إلى محبي الدين بن عربي^(١) إلا أن له ردودًا على أهل الإلحاد.

وكان يتحدث على حديث أبي هريرة^(٢): «كنت سمعه الذي يسمع به»^(٣)، ويشرحه شرحًا، ويبينه بيانًا شافيًا، وكان يكتب مليحًا، قويًا، جاريًا.

(١) هو: محبي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن العربي، إمام علامة، روى كثيرًا من العلم، وكان يروى عن: ابن بشكوال، وزاهر، وابن الحرساني، وغيرهم. وقد اختلف فيه كثير من العلماء من محب له ومؤيد لعلمه، ومن معارض له وكاره لآرائه، بل ذهب البعض إلى كفره وفسقه، وكان كثير الترحال في كل مكان، وله خلوات، وله شعر كثير، وكتب عديدة، منها: الفصوص، وغيره. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٨/٢٣).

(٢) هو: أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر، وقيل: اسمه عبد شمس، وعبد الله، وغير ذلك، وهو إمام فقيه من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمي بأبي هريرة؛ لأنه كان قد أخذ هرة صغيرة دخلت في كفه، فكنى بها، وقيل: اسمه عمير بن عامر بن ذي الشرى بن طريف بن عيان بن أبي صعب بن هنية بن سعد بن ثعلبة بن سليم... ابن نصر بن الأزد. وكان يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا فقد حدثنا عنه كثير من الصحابة وكبار التابعين ومنهم: إبراهيم بن عبد الله بن حنين، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وثابت بن عياض، والحسن البصري، وحيد بن عبد الرحمن الزهري، وحيد بن عبد الرحمن، وزرارة بن أوفى، وزباد بن قيس، وسالم بن أبي الجعد، وسعيد بن مرجانة، وسليمان بن حبيب المحاربي، وسليمان بن يسار، والضحاك بن شريحيل، والضحاك بن عبد الرحمن، وعامر بن سعد بن أبي وقاص، وعامر الشعبي، وعبد الله بن رافع مولى أم سلمة، وعبد الله بن سعد مولى أم المؤمنين عائشة، وعبد الله بن رباح الأنصاري، وعبد الله بن ثعلبة بن صغير، وغيرهم. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٦٢/٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٦٣/١) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (٢٦٢/١٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٣٧٦/١).

(٣) الحديث بلفظ: «من عاد لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...» [صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع].

قال أبو الصفاء: ورأيت يكتب بخطه على ما يقتنيه من الكتب التي فيها مخالفة السنة من اعتزال أو غيره: [الهجج]

عرفت الشر لا للشر ———— لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر ———— من الخير يقع فيه

وكان يترسل جيداً من غير سجع، ويستشهد بالآيات المناسبة والأحاديث والآيات اللائقة بذلك المقام، ومات بورم الدماغ، بقي به أحد عشر، ومات في بستان ضمنه، وتأسف الناس لموته أسفاً كثيراً: [الكامل]

عمت فضائله فعم مصابه ———— فالناس فيه كلهم مأجور

وكتب إلى ناصر الدين شافع وقد طلب منه شيئاً من شعره: [الخفيف]

غمرتني المكارم الغر منكم ———— وتوالت عليّ منها فنون
شرط إحسانكم تحقق عندي ———— ليت شعري الجزاء كيف يكون؟

يقبل اليد الشريفة، لا زالت للمكارم مستديمة، وفي سبل الخيرات مستقيمة، وينهى أن بضاعة المملوك من كل الفنون مزجاة، لا سيما من الأدب فإنه فيه في أدنى الدرجات، وقد وردت عليه إشارة مولانا -حرسه الله تعالى- في طلب شيء من الشعر الذي ليس للملوك منه في غير ولا نفير، ولا حظي منه بنفير ولا قطمير، سوى ما نبذ من الهديان الذي لا يصلح لغير الكتان، ولا يحفظ إلا اللسان، والمسئول من فضل مولانا وكرمه المبدول أن يتم إحساناً إليه بالستر عليه، فإنه وجميع ما لديه من سقط المتاع، ولا يعار لسقطاته ولا لنفاسته ولا يباع، والله يؤيد مولانا ويسعده، ويجرسه بالملائكة ويغضده.

وكتب إليه وقد وقف على كتابه الذي سماه: «مخالفة المرسوم في حل المنثور والمنظوم»: [الطويل]

مخالفة المرسوم وافقت المنى ———— وحازت من الإحسان حصل المفاضل
أثارت على بخل الأثير أثارة ———— من العلم مفتوناً بها كل فاضل

ومنهم:

٣٥- القاضي جلال الدين القزويني، أبو المعالي محمد ابن القاضي سعد الدين

أبي القاسم عبد الرحمن بن عمر بن أحمد الشافعي الدلفي^(١)

قاضي القضاة، خطيب الخطباء، أوجد الأئمة، مفيد العلماء، عمدة الطالبين، لسان المتكلمين.

من ولد أبي دلف^(٢)، ومن دوو^(٣) ذلك السلف، من بيت قضاء وإمامة، وضرائر بحر وغمامة، ولي أبوه وأخوه، وتشبهت النظراء ولم يؤاخوه.

قدم مع أخيه الشام، وناب عنه بمدينة دمشق واستوطنها، وولي الخطابة وسقى

(١) هو: محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن الحسن بن علي بن إبراهيم بن علي بن أحمد بن دلف العجلي القزويني، جلال الدين أبو المعالي، إمام، حافظ، عالم، ولد سنة (٦٦٦هـ)، ورحل إلى طلب العلم فدخل بلاد الروم ودمشق، وسمع من الإربلي والعز الفاروئي، واشتغل بالعربية والبيان والفقه والحديث، وله من المصنفات: كتاب تلخيص المفتاح، والشذر المرجاني، اختصر فيه ديوان الأراجاني، كما تولى عدة مناصب؛ كقضاء الشام والقاهرة وبلاد الروم وهو ما زال دون العشرين سنة. وكانت وفاته سنة (٧٣٩هـ). انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٤/٣).

(٢) هو: القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل بن عميرة، الشهير بأبي دلف العجلي، ودلف هو ابن له، وكان أبو دلف قد ولد في إقليم الجبل الواقع بين العراق وخراسان، وتولى أعمال إقليم الجبل لهارون الرشيد، فكان ذا شأن كبير وهو ما زال حديث السن، وولاه المعتصم بالله على دمشق، وكان له دور كبير في حرب الخرمين (إحدى فرق القرامطة) وعمّر مدينة الكرج الواقعة بين أصفهان وهمدان، ويشتهر أبو دلف بشجاعته وفروسيته، وجوده وكرمه، إلى جانب شاعريته ومعرفته بالغناء والتلحين، ويذكر أن له كتاب البزاة والصيد، وكتاب السلاح، وكتاب سياسة الملوك، وكانت وفاته سنة (٢٢٦هـ)، وقيل: (٢٢٥هـ). انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٢/٤١٦-٤٢٢هـ).

(٣) في «ف»: مدد.

فتنها، ورقى أعواد المنابر وهز غصنها، وكان صدر المحافل إذا عقدت، وصير في المسائل إذا انتقدت، وإذا جمعت المجالس كان لسانها، وإذا نظرت المدارس كان إنسانها، وكان خرق اليدين^(١)، وطلق الكرم وإن كان بالدين.

وكان له من سلطاننا نظرة عناية ترمقه، وتكتب به البحر إذا أشبهه تدفقه، وكذلك كانت له من كافل الممالك تنكز^(٢)، حتى اتخذها في حجه رفيقاً، وجعله له إلى الله طريقاً.

ثم تنكر له بحره، [فكادت تنسفه أمواجه، وتلقيه في مهالكها فجاجه، ودام السلطان له على كرم سجيته]^(٣)، وشيم أريحيته، فكتب إلى تنكز في توليته قضاء القضاء بالشام حين خلا منصبه، وتخلّى له منصبه، فأظهر تنكز له المعاييب، وأساء محضره وهو غائب، فأصر السلطان على ولايته وصمم، وكمل بادي رأيه فيه وتم، وطلبه إلى حضرته مكرماً، وأخذ عنه من نار الثائرة متضرماً، وأوفى عنه ما أثقل إصره من الديون التي اتخذها ذلك المنكر له عيباً، وانتهب له غيباً.

ثم قدم دمشق جامعاً بين الخطابة والقضاء، وتصرف في الإنفاق والإمضاء. ثم لم تطل به المدة حتى طلبه السلطان إلى حضرته ثانياً، وولاه بحضرة القضاء، وأظهر به إذ

(١) خرق اليدين: كناية عن شدة كرمه وعطائه.

(٢) هو: الأمير المعظم تنكز، نائب سلطان بلاد الشام، جُلب إلى الديار المصرية وهو طفل صغير، فاشتره الأمير حسام الدين لاجين، فلما قُتل أصبح من خدم السلطان الناصر، فأمره على عشرة ووجه إلى الكرك، ثم بعثه نائباً على دمشق، فوصلها سنة (٧١٠هـ)، وافتتح ملطية وسيطر على الحكم بدمشق، فهابه الأمراء والرعايا، وكان ذا بطش وشدة في معاملته، وكان كثير الأموال والإقطاعات والإنعامات، وكان قد أنشأ العديد من الحمامات والترب ودور القرآن، وعمر القدس، وساق إليه الماء، وجدد القنوات في دمشق، وعمر كثيراً من المساجد والمدارس، وكان السلطان لا يفعل شيئاً إلا إذا شاوره في أمره. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ٢٥١) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٩/ ١٤٥، ٣٢٧).

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل والمثبت من «ف».

كرهه نائبه الارتضاء، وكان له منه المنزلة الرفيعة، والمكانة التي ما ردت قط شفيعة، حتى حدثت هنات، وجنيت نيات، فأعاده إلى الشام على القضاء، فها لبث حتى حل به صرف القضاء.

وكان ممن قدم وحصل جانباً صالحاً من الفقه واللغة، وعلم المعاني والبيان^(١)، وعلم الكلام، واعتنى به، وبرع فيه، وأتقن علم الحكمة إتقاناً قل فيه من كان يدانيه.

واشتهر بحسن البديهة في المجالس والمدارس، ولم يك مقصراً في شأن، ولا ثانياً من عنان، وتزيد في دمشق إكبابه على الاشتغال وطلب العلم وتحصيله، وقراءة الكتب ومطالعتها، ومذاكرة العلماء ومباحثتهم.

حكى لي أنه كان لشدة حرصه يحضر بعض خزائن الكتب المشهورة الموقوفة، وكان خازنها لا يرى إخراجها إلى عارية أحد، فكان يقنع منه بأن يجلس عنده يومه كله لمطالعة ما يحتاج إليه منها، وأنه دام على هذا سنين كثيرة، وهو من بيت تقدم أوله وتصرفه في القضاء ولوه وهم من أقرباء القاضي ولي الدين قاضي قزوین المبعوث منها هو وابن الصاحب حين إلى حضرته من كوتمرقان لإحضار طائفة لاقتلاع قلاع الإسماعيلية حين عمه صدرهم واستشروا شرهم، فبعث هولاء كون بن تولى فتجاوز الحد وقتل ونسد العد وكاد يبلغ بخيله إلى أقصى المغرب وبعض لأمر فجعله طلب ملك لنفسه.

ولما قدم قاضي القضاة إمام الدين أبو حفص عمر قدم معه أخوه جلال الدين هذا، فلما ولي الحكم بدمشق ناب عنه، وسد خلل أخيه لنقص علم كان فيه، ثم لما ولي ابن صصري^(٢) القضاء استنابه، ثم خاف منه، وقيل له: إنه اتفق هو وجماعة من الفقهاء،

(١) علم البيان: هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي الذي يطابق مقتضى الحال، وعلم البيان هو يعلم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه. انظر: التعريفات ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) هو: أحمد بن محمد بن سالم بن الحافظ أبي المواهب ابن صصري، إمام وقاضي، فقيه، تعلم على

والصاحب أبي يعلى حمزة ابن القلانسي^(١)، وطائفة من الرؤساء بدمشق على عمل محضر عليه يحكم فيه بفسقه، وأنه كتب وهى ليحكم به في صبيحة يومه، فسارع ابن صصري إلى عزله، وعجل إعلامه به مع العدول الثقات، فبطل ما عملوا، وذهب الصباح بما كانوا يبتوا له، وبقي في قلب جلال الدين من هذا ما لم يكن له معه حيلة، إلا أنه اتفق مع ابن الزملكاني على إدامة تبكيته في المجالس، وإظهار جهله، وتزييف كلامه، ودأما على هذا وكان يحتاج إلى أنه لا يزال يداريها، ويصانعهما، ويضيّفهما، ويفقدهما بالعطايا، وهما على ما هما عليه من تتبع عثراته، وتقصد مساوئه.

حكى لي الأمين سليمان الحكيم المتطبب قال: حضرت مرة عنده في بستانه بالسهم وهما عنده في يوم قد أضافهما فيه، واحتفل، فقال لي: أقم اليوم عندنا. فأقمت، فرأيت من تنوع إكرامه لهما ما يتجاوز الوصف، ورأيتهما يتغامزان عليه ويتحدثان فيه -إذا قام- بأنواع القبائح، وينسبان إليه غرائب الفضائح، فلما انصرفا تقدمت إليه وقلت له: قد كان من إكرامك لهذين الرجلين ما لا يحد، وهما يفعلان كذا، ويقولان كذا، فما الذي يحملك على إنفاق مالك على من تكون هذه أفعاله في حقك، وهذا باطنه في أمرك؟

فقال لي: يا أخى! أنا -والله- أعلم منهما ما قلت، وفوق ما قلت، وإنما كيف

الرشيد العطار وابن عبد الدايم، وابن أبي السر، والمسلم بن علان، والشيخ تاج الدين، وعلى شمس الدين الأصفهاني، كان فصيح العبارة، محسنًا لغيره، عابداً، على دين وخلق، وذو حشمة، ووقار، تولى القضاء على العسكر، ومشيجة الشيوخ، ودرس في عدة مدارس منها: المدرسة العادلية، والغزالية، والأمنية، كان قد ولد سنة (٦٥٥هـ)، وتوفي سنة (٧٢٣هـ) في دمشق. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (١/ ١٢٥) الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٨/ ١٦) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (١/ ٢٦٣).

(١) هو: أبو يعلى حمزة بن أسد بن مظفر بن حمزة التيمي الدمشقي، أبو يعلى ابن القلانسي، ولد سنة (٦٤٩هـ)، ولي وكالة السلطان والوزارة بدمشق، توفي سنة (٧٢٩هـ). انظر: الدرر الكامنة (٢/ ٧٥) الدارس لعمد القادر الدمشقي (١/ ٩٦).

عملي؟. هذان رجلان إمامان عالمان، فاضلان، جريّان، وما عندهما تقوى، وهذا ابن القلانسي كما تعرف، وإذا أراد استشهاد كل أهل دمشق بأن النهار ليل، والليل نهار فعل! ولم يعجز، وهذا قاضي القضاة التقي سليمان الحنبلي قاضي بطاش، ويرى ضرري، وضرر أمثالي من الشافعية قرية، ولولا هذا -والله- ما داريتهما، ولكن أحتاج مع وجود هذه البلايا إلى مداراتهما من خلف أذني. قال: فسكت وعلمت عذره.

قلت: فلما مات ابن صصري وولي الزرعي^(١)، خاب أمل جلال الدين، وكان يظن أن المنصب لا يتخطاه، فكان هو وابن الزملكاني وابن القلانسي ممن حسنوا في أمره ما حسنوا، حتى سلقته الألسنة، وتحببت له الذنوب وعزل.

ثم صمم السلطان على ولاية جلال الدين، وتكنز يعيبه، وآخر ما عابه بما عليه من الدين، وبولده عبد الله، وما هو عليه من سوء السيرة، فطلبه السلطان وأوفى دينه، وترك عبد الله مقيمًا بمصر، وأعاد جلال الدين إلى دمشق حاكمًا -كما تقدم- فشرع في معادة الكبراء، وإسقاط قلوب الرؤساء، وراك المدارس بين الفقهاء وطلب الفقهاء بالعرض وبقي يقول للرسول يعرض وإلا يعرض.

وأثناء رجل من الفقهاء بأبيات، فقال: الشعر للمجالس، والفقه للمدارس، وبقي النائب يعجبه وقوع مثل هذا منه ويظهر له الاستحسان له ليغري به الناس، ويملاً عليه الصدور، وكان يريد ذهاب روحه! فبينما هو في هذا إذ سأل قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الإقالة، لكبر سنه وعجزه، فأقبل وصرف إلى بيته مكرماً، وطلب جلال الدين وولي قضاء القضاة بمصر عوضه، وولي ابنه بدر الدين محمد الخطابة بدمشق عوضه،

(١) هو: علي بن عثمان بن أحمد بن عمر بن أحمد بن هرماس البجلي الزرعي الدمشقي، ولد سنة (٦٩١هـ) في دمشق، وتولى قضاء حلب سنة (٧٤٣هـ)، ووكالة بيت المال بدمشق، وقضاء العسكر، ودرس في المدرسة الشامية، وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة (٧٧٦هـ). انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٣/ ٨٢).

مضافاً إلى تدريس المدرسة الشامية الجوانية^(١)، فدخل جلال الدين في عين السلطان، ومساه الحظ من خاطره، وصار يحدث السلطان في كثير من أمور الناس، وقضيت للناس على يده حوائج، ونجحت مطالب وبلغت مآرب، فكثرت ولده عبد الله واقتنى كرائم الخيل الثمينة، وصار يسابق بها الأمراء، وخدام الإدارات السلطانية، ويخالط أولاد الأمراء، ويتوسع في الأبنية، واقتناء الجوارى الحسان، والمطربات، ويتعرض إلى أمور كثيرة، وكان يحمل حب أبيه له، على أنه لا يردده عنها، إلى أن فاض خاطر السلطان، وامتلأ عليه، وطرده ابنه عنه، ثم توسل في إعادته فأعيد، ثم طرده، ثم توسل في إعادته فأعيد، ثم سعى النشور الناظر الخاص، وابن المرواني والي القاهرة^(٢) عليه، وأطلقا فيه ألسنتهما وأوصلا به سعائتهما، وسددا فيه نكائتهما، فعزله السلطان، وأراد تعريضه للهوان، فنهض له فرد

(١) بَنَتْهَا ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان، وكانت هذه المدرسة داراً ثم جعلتها مدرستها، ولكنها الآن قد خربت ولم يبق منها سوى الباب القديم وعتبه فقط، وقد وقف عليها العلماء والأمراء أموالها، منهم فخر الدين محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله الأنصاري المشهور بابن الشيرجي وغيره، وكان هؤلاء يشترطون على من يدرس بالمدرسة من النظر والفقهاء والمدرسين والتلامذة وغيرهم؛ أن يكونوا من أهل الخير والجماعة، وكان من أشهر من درس بالمدرسة الشامية الجوانية: تاج الدين ابن عسرون، وتقي الدين ابن الصلاح، وصدر الدين ابن الوكيل، وغيرهم. انظر: الدارس في تاريخ المدارس للدمشقي (١/٣٠٢).

(٢) القاهرة: مدينة مصر الأولى بناها خلفاء الدولة الفاطمية في مصر، وكان المعز لدين الله الفاطمي هو أول خليفة سكنها، بعد أن قام قائده المغربي جوهر الصقلي ببناء سور عظيم حولها، وبنى بها مسجداً جامعاً كبيراً هو الجامع الأزهر، الذي أصبح فيما بعد قبلة العلم والعلماء في العالم الإسلامي كله، وظل الخلفاء الفاطميون يتعاقبون على حكم مصر وهم مستقرون بالقاهرة، وتركوا بها كثيراً من الآثار الإسلامية التي تشهد على إبداعهم في الفنون والعلوم، وتعاقت عدة دول إسلامية على السيطرة عليها مثل: الدولة الفاطمية والأيوبيّة والإخشيدية والمملوكية، ثم مصر الحديثة في عهد الدولة العثمانية ومحمد علي باشا، والفرنسيون والإنجليز في أيام حكم خلفاء محمد علي باشا، وظلت عاصمة للبلاد المصرية في العصور المتأخرة (المعاصرة) بعد خروج أحفاد محمد علي باشا من مصر وإعلان الجمهورية.

الدهر الأصفهانى، وقام معه قيام مثله من أفراد الدهر، وركب إلى سرياقوس^(١)، وكان السلطان قد خرج إليها بعد أن صرف جلال الدين عن القضاء، وأتى قوصون^(٢)، وكان قوصون لا يرى إلا أنه ولد له، فلما أتاه قام له وأكرمه، وقال له: قد جئت إليكم لأجتمع بالسلطان في مصلحة له، ولكم ما أمكنني إخفاؤها عنكم، فقام قوصون لوقته وعرف السلطان بمجيئه، وبما قال، فأكبر السلطان مجيئه وقال: قل له يعرفنا بالمصلحة التي رآها. فقال له مقال: اعلم أن هذا القاضي جلال الدين قاضي كبير مشهور في الشرق والغرب، وقد زوج بناتكم، وزوجكم، وأثبت كتب أملاككم وأوقافكم، وحكم لكم أحكاماً كثيرة، ومتى عزل هكذا وخلي بلا قضاء مع كونه لم يعجز، ولا بلغ به الكبر، حصل بهذا التطرق إليه، وإذا تطرق إليه انتفض عليكم جميع ما حكم لكم به، وقال له من هذا ومثله ما بلغه إلى السلطان، فقال: صدق الشيخ، ولؤه قضاء الشام كما كان، فأمر له به، وجهزه إليه، فأقام به مدة، وتنكر لا يبش به، ولا يمكنه منعه.

(١) هو: ميدان سرياقوس بمدينة القاهرة بالناحية الشرقية، وبنى به السلطان محمد بن قلاون سنة (٧٢٣هـ)، وبنى به عدة قصور جلييلة، وعدة منازل للأمراء والقواد، وأنشأ به عدة بساتين، نقل إليها كثير من الأشجار والفواكه من دمشق وبلاد الشام، وسكنها معهم، ولما توفي كان أبناءه يزورون هذا الميدان كثيراً بعد انتقالهم إلى قلعة الجبل، وظلوا على ذلك حتى سنة (٧٩٩هـ)، وبعد ذلك كان السلاطين المهاليك والأمراء والقواد يخرجون إلى ناحية سرياقوس للصيد، ولعب الكرة، والاحتفال بأعيادهم. انظر: الخطط المقرزية للمقرزي (٢/ ١٩٩).

(٢) هو: الأمير سيف الدين قوصون، كان غلاماً تاجراً جاء من بلاد بركة في صحبة خوندابنة أزيك زوجة السلطان الناصر محمد بن قلاون، وأخذ يبيع ويتاجر في مصر، حتى رآه السلطان الناصر فاشتراه من نفسه، وجعله في حاشيته وأمره على عشرة، ثم جعله أمير طبلخانة، ثم جعله أمير مائة وظل في الترقي حتى أصبح أميراً، فأرسل إلى إخوته وأهله، وأحضرهم إلى مصر، وأمرهم في البلاد، فلما احتضر السلطان الناصر جعله وصياً على أولاده، فلما توفي السلطان، أخرج ابنه الملك الأشرف من القاهرة ثم قتله وأجلس أخاه الصغير على العرش، وتسلم هو نيابة السلطنة، يتصرف هو فيها كيف يشاء، إلى أن أوغر صدور الأمراء عليه، وأراد أن يتخلص منهم، فحضره في داره ثم قبضوا عليه، وأرسلوه إلى الإسكندرية وقتلوه هناك. انظر: الخطط المقرزية للمقرزي (٢/ ٣٠٨).

ثم حصل له استرخاء وفالج أبطله، فاستتاب ولده الخطيب عنه في كل ما ولاه السلطان، وبقي يراجع في جلائل الأمور إلى أن مات، ودفن بمقابر الصوفية.

وهو ممن أخذت عنه علم المعاني والبيان، وقلت أرثيه، وكتبت بها إلى ولده الخطيب بدر الدين محمد: [الطويل]

أحَقَّأْ بَأَنَ الْبَحْرِ جَفَّ مَعِينِهِ وَأَنْ وَقُورَ الطُّودِ خَفَّ رَزِينِهِ
أحَقَّأْ بَأَنَ السَّيْفِ أَغْمَدَ حَدَّهُ بِطِيفِ كَرَى لَيْسَتْ تَنَامُ جَفُونُهُ
أحَقَّأْ بَأَنَ الشَّمْسِ غَابَ ضِيَاؤُهَا وَقَدْ بَانَ مِنْ بَدْرِ التَّهَامِ جَبِينُهُ
أحَقَّأْ بَأَنَ النَّوَى أَقْلَعَ نَائِيًا وَآلَى يَمِينًا لَا تَجُودُ يَمِينُهُ
أحَقَّأْ بَأَنَ الدَّرِّ أَنْ ابْتَذَالَهُ وَأَهْوَى مِنَ الْجَفْنِ الْقَرِيحِ ثَمِينُهُ
أحَقَّأْ بَأَنَ الْعِلْمِ جَفَّ نَبَاتُهُ وَأَضْحَى فَمَا فَاءَتْ عَلَيْهِ غَصُونُهُ
أحَقَّأْ لَقَدْ غَاضَ النَّدَى بِكَمَالِهِ نَعْمَ وَمَضَى تَحْتَ التَّرَابِ خَدِينُهُ
أحَقَّأْ دَعَا دَاعِيَ الرَّدَى عِلْمَ الْهَدَى أَمْ الدَّهْرِ بِالْعُلْيَاءِ جَنِّ جَنُونُهُ
لَقَدْ خَرَّ فِي الْمَحْرَابِ تَقْوَى مَنِيَّةِ وَفِي صَدْرِ إِسْوَانِ الْقَضَاءِ مَبِينُهُ
مَضَى بِجَلَالِ الدِّينِ كُلِّ فَضِيلَةٍ وَأَعْظَمَهَا عِنْدَ الْمَفَاخِرِ دِينُهُ
مَضَى طَاهِرَ الْأَثْوَابِ مَا شَانَ عَرْضَهُ حُسُودُهُ إِذَا مَا شَاءَ شَيْئًا يَرِيْبُهُ
مَضَى وَهَلَ مَلَأَ الدُّسْتَ صَدْرًا مَعْظَمًا يَطُولُ إِلَيْهِ شَوْقُهُ وَحَنِينُهُ
إِذَا مَا يَرَاغِ الْخَطَّ صَرَّ صَرِيرُهُ فَمَا ذَاكَ إِلَّا لِلْعَوِيلِ أُنِينُهُ
نَعَى بِاسْمِهِ النَّاعِي فَمَا شَكَ سَامِعُ بَأَنَ انْقِضَاءِ الدَّهْرِ قَدْ حَانَ حِينُهُ
تَغْيِيرَ ضَوْءِ الصَّبْحِ يَوْمَ وَفَاتِهِ فَلَمْ يَبْقَ فِي الْآفَاقِ مَنْ يَسْتَيْنُهُ
كَأَنَّ جَلَالَ الدِّينِ مَا كَانَ فِي الْوَرَى إِمَامًا لَهُمْ حَتَّى أَتَتْهُ مَنْوَنُهُ

فتى دُلقي في الأبوة جسده
سقى قبره الوضاح مثل بنانه
يضاحكه بالسفح بارق ليله
فهل بعد هذا اليوم يدخر الفتى
أرى الخطباء اليوم بعدك ألبسوا
أرى منصب الحكم العزيز تضاءلت
أرى المنبر العالي استكن لما به
أرى قلم الإفتاء قد فات وقته
أرى منطق التدريس أخرس نطقه
أرى مجلس التصدير أقوت رحابه
لقد أغلق التصنيف أبواب كتبه
فمن للمرجى خاب ما كان يرتجى
لعمرك ما يجدي الحنين على امرئ
تمهل به يا حامل النعش إنه
وهل يعلم الآتي إلى لحده به

أبو دلف هل شبهه أو قرينه
سكوب الغواصي لا تغيب هتونه^(١)
تغازله تحت الظلام جفونه
بكاء عزيزاً عنده لا يمينه
حداداً عليهم في الملابس جونه^(٢)
معاليه وارفضت عليك متونه
وكان به فوق السها^(٣) مستكينه
وكان نظير الغصن تُجبي فنونه
وأصبح إن قال النهى لا تيننه
ومن يرض إيداع الصدور حنينه
وأغفت لأحداث الزمان عيونه
ومات أريحى كسريم يعينه
تخط بأكتاف القبور ظعونه^(٤)
يقطع أصلاب الرجال شطونه^(٥)
بأن الهلال المستنير دفينه

(١) الهتون: السحب الممطرة.

(٢) الجون: النبات شديد الخضرة فيبدو أسود.

(٣) السها: اسم كوكب.

(٤) الظعون: قال ابن الأثير: الأصل في الظعينة المرأة تكون في هودجها، ثم كثر ذلك حتى سماوا زوجة الرجل ظعينة. [لسان العرب: مادة ظعن].

(٥) الشطون: الشَّطْن: الحبل الطويل الشديد القتل، ويقال للفرس العزيز النَّفس: إنه لينزُو بين سَطْنين، يضرب مثلاً للإنسان الأشد القوي. [لسان العرب: مادة شطن].

لقد عطل الدست الرقيب إمامه
 ووالله إن الموت أكرم نازل
 فهل ساكن في الدهر ليس يسوؤه
 وذو غسرر بالموت ألا تغره
 لتبك المعالي بالدماء سواكبا
 فيأبى الناعسي رويدك إنه
 غلظت أهل قاضي القضاة قضى ردى
 ترفق ولا تبغي العلا بسوفاته
 لعل حزينًا يملك الصبر قلبه
 فيا سائق الأظعان قدام جلق^(١)
 تعمد بنا تلك القبور فلاننا
 وقف بي على ذاك الضريح مسلمًا
 إليك وإلا لا يثن صباية
 تولى ابن إدريس ووليت ذاهبا
 تضعضعت الدنيا فلم يبق مذهب
 فمن بعده هل في الطريقين سالك
 ولولا كرام من بنيه أعزة
 ومن مثل بدر الدين بل ليس مثله
 فما مثل من قد مات في الناس سيد
 وفارقه مأمونه وأمينه
 بحر ولا يقضي عليه غبونه
 ومستأمن للدهر ليس يخونه
 أمانيه في الدنيا، نعم وظنونه
 أباهما ويكي للبكاء حزينه
 يود بمن يُنعى لنالو تكونه
 أم الشام بالزلزال هدت حصونه
 فذكراك ميعاد البكا وضمينه
 يجود بصبر فاضل أستدينه
 وفي التربة الفيحاء يلقي تربيته
 نرود بها روضًا جنيًا جنيته
 فإن فؤادي في التراب رهينه
 كتيب ولا تبدو عليه شئونه
 فما عاد للتدريس حرز يصونه
 لعمرى لقد هز الجبال سكونه
 وهل لاح في الوجهين بشر يزينه
 لأوحش منه سيفه ورضينه
 فما غاض بحر العلم وهو معينه
 ولا مثل هذا الحي تحمي عرينه

(١) جلق: من أسماء مدينة دمشق.

ويعز عليه أن يكتب إلى مولانا معزيًا، أو يسلبه عمن لم يجد هو ولا جميع أهل الدنيا عنه مسليًا، وإنما هي عادة الأيام، وسنة الدين والإسلام، فالله يعظم أجر مولانا، ويرحم ميتة، ويحسن عزاء الإسلام فيمن شيد بجهاده بناءه وثبته، فلقد كان -والله- من حماة الدين بسيفه وقلمه، وكماة الكلام في المدارس والمنابر بعلمه وعلمه، فرحم الله تلك المزايا الكرام، وفتح لها أبواب الجنة، وأدخلها إليها بسلام، والعزاء مشترك، ومن نظر بعين الحقيقة علم أن الدهر أخذ أقل مما ترك.

وتوفي في جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين، عن أربع وسبعين سنة. قلت: ولما ولي كراي المنصوري^(١) كفالة الشام، أتاها وقد هبت به ريح العدو المنتسم، والثغور قد استطار برعب من جاورها قلب بارقها المتبسم، طلب خيل الحجر التي جرت العادة بطلبها معونة من البلاد إذا قدم العدو، وعدم الهدو، ولم يكن الاضطراب قد بلغ إلى حد تطلب فيه المعونة، وتحمل به إلى البلاد المؤونة، وشرع النجم ابن هلال في توزيع ذلك الطلب، وتفرغ ذلك الظلم الذي باء منه بسوء المنقلب، فطلب من جهات الملك والوقف ما كان يكون لها ثمنًا واتخذها له مأكله حتى كاد يتفقأ سمنًا، وكان أخا بطنة، يأكل حتى يكاد يتبعج، وجرة لا يبالي من أي باب منه على النار يتولج.

فاجتمع أهل البلد إلى جلال الدين؛ لأنه إمامهم المتبع، ورأس المصلين في الجماعة

(١) هو: سيف الدين كراي المنصوري نائب سلطان دمشق وصفد، كان أحد مماليك السلطان قلاوون، ثم فرَّ إلى العراق، وأخذ نيابة سلطان دمشق وصفد، ثم أخذ إمارة غزة، ثم دخل دمشق وحلب سنة (٧١١هـ)، فكان يضيق على أهلها بالنفقات الزائدة، ألتي كان يفرضها عليهم، فلما علم السلطان الناصر ملك مصر أرسل إليه من قبض عليه، وأرسله إلى الكرك، وظل معتقلًا في السجن من سنة (٧١١هـ) إلى سنة (٧١٧هـ)، فرحل إلى مصر فاعتقل بها حتى توفي في سجن قلعة الجبل سنة (٧١٩هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (٨٣/٣) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٢٦٦/٣).

وهم له تبع، فقام هو والعلامة مجد الدين أبو بكر التونسي^(١) في درء هذه المظلمة، وإخفاء نجم ابن هلال الطالع في هذه الليلة المظلمة، فجمعوا أهل الجامع الأموي ومن انضم تحت أعلام الخطابة، وأسرع إلى هذه الدعوة المجابة، وخرجوا بالمصحف العثماني والأثر النبوي، وكراي راكب في موكبه، قد شمش العجب بهامته، فحين رآهم سأل عنهم، فلما أخبر الخبر جن جنونه، وظن ظنونه، فأمر الحاجب أن يأتيهم فيأمرهم بالرجوع بالمصحف والأثر، وينقش سواد ذلك الجمع الذي حضر، ثم يأتيه منهم من يعي عنه الخطاب، ويسمع منه الجواب، فأتاه الخطيب والتونسي، وقدا إليه الإنذار، وأغلظا ولا سيما التونسي في الإنكار، فأوماً إلى الخطيب ليضربه بيده، وأمر بالتونسي فرمي، وكشف عن جسده، ثم ضربه ضرباً جاز أدنى الحد في عدده، فخرجوا، والناس تتحرق ولا ماء يطفئ النار، ولا تجدن أنصار، وكان من العجب المقدر وغرائب الاتفاق التي تذكر أن السلطان كان قد أمر بإمساك كراي، وخرج المجهّز لإمساكه، ثم بقي في وثاق الحبس إلى حين هلاكه.

ويقال: إن التونسي كتب في ذلك اليوم له من الحروف ما كان من أسباب ما حل به من الصروف، أتى كراي بخلعة السلطان فركب بها، وجلس في الإيوان، فأحضر محضر ذلك التشريف معه كتاباً قرئ وهو في تلك الحال، وقد ظن أن الدهر عن طباعه قد استحال، فإذا فيه المرسوم إلى الأمراء بإمساكه، فأمسك، وقيد، والخلعة عليه، ما حلت أزرارها، ولا أرتة عينه إلا ما كأنه غرارها، ولا أجده الأيام إلا وفي نفعها ضرارها.

وكان الخطيب قد كتب إلى السلطان كتاباً مضمونه:

«الحمد لله رافع السماء وبانيها، وساطح الأرض وداحيها، ومثبتها بالجبال

(١) هو: مجد الدين، أبو بكر التونسي أحد علماء دمشق، شهد على شهاب الدين الباعري (محمد بن عبد الرحيم) الشيخ الزاهد بالتهاون في الصلاة، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم بلا تعظيم ولا صلاة، فأريق دمه. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي (٣/ ٣٩٨).

وراسيها، ومزيح الملوك عن أسرتها وكراسيها، أرسل سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الخلائق جميعًا دانيها وقاصيها.

وبعد: ذلك لما تقدم المرسوم الشريف العالي، المولوي السلطاني، الملكي الناصري، أدام الله أيامه، وجعل النصر وراءه وأمامه، بأن يستخرج من الأملاك التي بالبلاد الشامية حق أربعة شهور، ولا يعفي عن وقف، ولا عما يكون ليتيم أو مسكين، فأردنا أن ننبه الذي رسم بأن الأوقاف لا تعفى، وأن يؤخذ من الجامع الشريف ما أخفى، فطلعنا في يوم الاثنين، في شهر الاستغفار^(١)، جمع علماء المسلمين، وأئمة الدين، الذين قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم - في حقهم: «علماء أمتي كأنبيا بني إسرائيل»^(٢)، وقد حملنا على رؤوسنا كتاب الله المبين، وأثر سيد الأولين والآخرين، حتى نعلم أن الجامع لا يوجب لأن يؤخذ منه حبة، ولا يتعرض إليه من في قلبه دين، فبدا إلينا حاجب الملك الذي ولاه أمور الدين، وجعله بجهله حاكمًا على المسلمين، ولم يمكننا من الدخول إلى نائب السلطنة المعظمة، حتى نشكو إليه ضرر المساكين، شهد الله العظيم أنهم ما استهابوا، ولا هابوا كلام ذي القوة المتين، إلا جودوا الضرب على الرؤوس والأكتاف والوتين، وقد طلع من كان قبلنا إلى الذي استفتح البلاد، وكان كافرًا بالله العظيم، فنزل عن ظهر جواده، ومشى إليه خاضعًا متذللاً كالمسكين يتذل وهو تذل مستكين، وعفا عن العباد والبلاد، وأوصى جيوشه أن لا يسعوا في الأرض مفسدين؛ احترامًا لكتاب الله، ولأثر سيد الأولين والآخرين - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم - فلما طلعنا ورددنا خائبين، طلب نائب السلطنة إمامًا من أئمة المسلمين، وقد نفخ الشيطان في معاطسه حين خلاه بما يحدث رهينًا أي رهين، وجلد ذلك الإمام، وعمل شيئًا ما سبقه إليه أحد من العالمين، وجعل يقول - بجهله وقلة عقله وقد أمر بقتله -: أحرقتني إن كان لك برهان من البراهين!

(١) شهر الاستغفار: شهر رجب الفرد.

(٢) الحديث موضوع لا أصل له.

فراقب ذلك الإمام مولاه، وناداه في سره ونجواه: «يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه مسائل السائلين، اقضي بالحق على الظالم يا ديان يوم الدين».

أيها العبد الصالح! إنا خشينا عليك أن تفتن كما فتن الذين من قبلك ثم تولوا مدبرين، فإذا حكم رب السماء والأرض ونادى يوم القيامة: أحضروا الظالمين. فكيف ينطق من قد افتري على العلماء والفقهاء وأئمة الدين؟ وما احترام كتاب الله الذي أنزل فيه: {أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم} [المعارج: ٣٨].

فهذا الكتاب يجتمع عليه فقهاء الديار المصرية، ويحكموا فيمن لا خاف يوم تنشر فيه الدواوين، وتحشر فيه الخلائق أجمعين، وينادي منادٍ من قبل الله عز وجل: هذا يوم يجزي الله المتقين، ويخسر فيه الظالمون. وقد علم سيدنا ومولانا السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين - وهو أعلم بمن كان قبله من الملوك والسلاطين - بأن لا يوجب أن يؤخذ من العامة أموالهم، ولا يتعرض إليهم من في قلبه دين، إلا إذا التقت الفتتان، ونودي: هذا يوم لا قبله ولا بعده، وكانت أمراء الدولة قد اضمحل ما عندهم من الأموال والسلاح والخيول، فهناك عمن تخلف عن ذلك اليوم فقد أمسى بها كسبت يده وهو رهين.

واعلم أن ما يسبق أحد من خلق الله إلى الجنة غير المجاهدين، فيجب عليك أن تنصر كتاب الله، وكلام الله، وتأخذ الحق ممن افتري وطغى، فيقف على هذا الكتاب فقهاء الديار المصرية، والسلام».

ومنهم:

٣٦- السيد العبري: برهان الدين عبيد الله بن محمد الشريف الحسيني العبري^(١)

الإمام العلامة، ابن الإمام العلامة، لسان جليل على الكلام، وبيان جعل لكشف الظلام، سل على الباطل حسامه، وجذب من يده خطامه.

ولي القضاء فأرضى، وأقام سنة وفرضاً، وهو - على ما بلغنا - حي يحيا به العوالم، وتحلى به العواتم، وبكف نداء وينهم، ويأمر الدهر فيأتمر، ويقف الجواد دون مدهاء ويستمر. قال الدهلي^(٢): ولد بتبريز، وهو الآن قد جاوز الستين.

إمام في العقلية؛ منطقها، وحكمتها، وطبها، وله قوة عظيمة في الخلافات والجدل، بحاث مناظر في الغاية، لم نرَ أحداً يقدر على التدريس مثله، يلقي الدروس في علوم شتى، أكثر من ثلاثين علماً في مشكلات الكتب لأفاضل الزمان في كل يوم في بيته، ولم يناظره أحد إلا وغلب معه.

وكان فقيهاً في مذهب الإمام أبي حنيفة^(٣) - رحمه الله تعالى - عريقاً في أصوله

(١) هو: أبو عبد الله بن محمد الهاشمي الحسيني، المشهور بالعبري، إمام، عالم، شافعي المذهب، وكان حنفيّاً، ثم تحول عنه إلى المذهب الشافعي، وكان قاضياً مشهوراً، ناصراً للضعفاء والمحتاجين، متواضعاً، عالماً، له كثير من المصنفات منها: شرح مصنفات القاضي البيضاوي، المنهاج، والمطالع، والغاية، والمصباح وشرح المصاييح، وغيرها، وكانت وفاته في تبريز سنة (٧٤٢هـ). انظر: البدر الطالع للشوكاني (١/ ٤١١) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٢/ ٤٣٣).

(٢) هو: سعيد بن عبد الله، نجم الدين أبو الخير الحنبلي الإمام الحافظ، ولد سنة (٧١٢هـ)، وتوفي سنة (٧٤٩هـ). انظر: الدرر الكامنة (٢/ ١٣٤) ذيل الطبقات الحنابلة (٢/ ٤٤٥).

(٣) هو: الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي الكوفي إمام عصره والعصور التالية في الفقه، ولد سنة

وفروعه، مفتيًا لهم، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه^(١)، وحفظ الحاوي على ابن مصنفه جلال الدين محمد، وصار إمامًا في مذهبه، أصلًا وفرعًا، يفتي في المذهبين.

-----= وولي قضاء القضاة بجميع مملكة إيران^(٢)،

(٨٠هـ)، ورأى صفار الصحابة وبدأ حياته تاجرًا، ثم تحول إلى دراسة الفقه والحديث الشريف، فتلقى على كبار علماء عصره؛ ومنهم: عطاء بن أبي رباح، وطاوس، وحامد بن أبي سليمان، وعبد الله بن دينار، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وقتادة، وعمرو بن دينار، وسماك بن حرب، وعطاء بن السائب، وهشام بن عروة، ومحمد بن النكدر، وأبي جعفر الباقر، وابن شهاب الزهري، وغيرهم، وروى عنه كثير من العلماء منهم: أسباط بن محمد، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وحمة الزيات، وعبد الله بن عمرو الرقي، وعيسى بن يونس، والقاسم بن الحكم العري، وعباد بن العوام، والصباح بن محارب، وسلم بن سالم البلخي، وسليمان بن عمرو النخعي، وشعيب بن إسحاق، وابنه حماد بن أبي حنيفة، وأيوب بن هانئ، ووكيع، ويحيى بن بيان، وأبو حمزة السكري، وأبو سعد الصاغانى، والقاضي أبو يوسف، ومحمد بن عبد الله الأنصاري، ومصعب بن المقدام، والنعمان بن عبد السلام الأصبهاني، ونوح بن دارج القاضي، وغيرهم. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٤١٥/٥) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢٢٧/١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣٢٣/١٣).

(١) هو: الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف... إمام عالم محدث، صاحب وإمام المذهب الشافعي، نشأ يتيمًا في غزوة، فرحلت به أمه إلى مكة فتعلم بها على كبار علماء عصره: مسلم بن خالد الزنجي، وداود بن عبد الرحمن العطار، ومحمد بن علي بن شافع، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، وهشام بن يوسف القاضي، وعبد الوهاب الثقفي، وإسماعيل بن علية، وغيرهم، وتعلم عليه: أبو عبيد القاسم بن سلام، والإمام أحمد بن حنبل، وحرملة بن يحيى، وموسى بن أبي الجارود، وحسين بن علي الكرايسي، والحسن بن محمد الزعفراني، وأحمد بن سعيد الهمداني، ومسعود بن سهل المصري، والربيع بن سليمان الجيزي، وبحر بن نصر الخولاني، وغيرهم، وللشافعي مذهب فقهي شهير في مصر وغيرها من الدول الإسلامية، وله العديد من المؤلفات. منها: مسند الشافعي، وكتاب الأم، وكتاب الرمالة، وغيرها. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/١٠) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (٦٣/٩) تاريخ بغداد للبغدادي (٥٦/٢) وفيات الأعيان لابن خلكان (١٦٣/٤).

(٢) إيران: دولة إسلامية آسيوية كبرى، تبلغ مساحتها نحو ١٦٤٨١٩٥ كم^٢، بالقرب من بحر قزوين.

= شرح «الطوابع»^(١)، و«المصباح»^(٢)، في الكلام «المنهاج في أصول الفقه»^(٣)، و«أبلاقي في الطب»، و«نقد الصحائف في الكلام».

وعمل كتابًا في المنطق في يوم، وأخذ العلوم عن القاضي محيي الدين أبي الحسن بن أبي الفضل بن عبد الحميد بن محمد القزويني قاضي القضاة، وأخذ العقليات عن قطب الدين الشيرازي^(٤)، والعبيدي، ووالده، وكان من جملة المحققين، وروى «جامع الأصول» عن القطب الشيرازي، و«شرح السنة»^(٥) عن محيي الدين القزويني.

وتركمانستان وأرمينية وتركيا والعراق وأفغانستان وباكستان، ومعظم أراضي إيران تتكون من سلاسل جبلية كبيرة، ويمر بها أنهار غنية المياه، وتتمتع إيران بتعدد جنسيات السكان؛ فمنهم الأتراك والعرب والفرس، وأكثرهم مسلمين شيعة، ولغتهم الرسمية هي اللغة الفارسية، وتعتمد البلاد على الإنتاج الزراعي والصناعة والتعدين والبتروك في الدخل القومي للبلاد، وكانت إيران مستقر الحضارة البابلية القديمة، وحكمها عدة دول كبرى منها: الساسانيون والأمويون والعباسيون والسامانيون والبويهيون والسلاجقة والأتابكة والإسماعيلية والخوارزميون وغيرهم كثير، كما نبغ فيها كثير من العلماء والساسة ورجال الحكم منهم: أبو الفرج الأصفهاني، والفردوس، وسعد الدين الشيرازي، وابن سينا، وأبو ربحان البيروني، وابن المقفع، وغيرهم.

(١) كتاب «طوابع الأنوار» لليضاوي وهو متن في علم الكلام.

(٢) كتاب «مصباح الأرواح» لليضاوي أيضًا وهو في علم الكلام كذلك.

(٣) كتاب «منهاج الوصول إلى علم الأصول» لليضاوي.

(٤) هو محمد بن مسعود بن مصلح الشيرازي، طبيب كبير، من علماء مدينة شيراز. رحل إلى الروم، بغداد، دمشق، وتبريز، وتولى قضاء مالطية وسيواس، وكان جيد اللعب بالشطرنج، وكان قد تعلم الطب على نصير الدين الطوسي، وله العديد من المؤلفات منها: شرح في بيان الحاجة إلى الطب وآداب الأطباء ووصاياهم، ورسالة في شرح حيات ابن سينا، وشرح كليات القانون لابن سينا، وكانت وفاته سنة (٧١٠هـ/١٢١١م). انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكهال السامرائي (٢/٥٢٢) بغية الوعاة للسيوطي (٤/٣٨٩).

(٥) كتاب شرح السنة للإمام البغوي.

وروى عن أبيه، عن شيوخته، منهم: العلامة سيف الدين البخارزي^(١).

قال: وله نظم مليح، وخط حسن، وجاء عظيم، وحشمة في الغاية، وترجمته عند السلاطين: «أستاذ البشر العقد الحادي عشر»، وله ابن هو: شمس الدين محمد. قال الدهلي: هو المشتهر (ببيرك) فاضل في أكثر العلوم، حسن الجذ والخط والعبارة، ولد سنة عشر وسبعمائة، وأخذ عن السيد أكثر فضلاء الشرق؛ ومنهم: النصير الحلي، وروى المشارق عن الروي عن الصاغاني^(٢).

(١) هو: أبو المعالي سعيد بن المطهر بن سعيد بن علي القائدي البخارزي، إمام، عالم، محدث، ثبت ورع، ولد في باخرز، ورحل إلى مكة، وبغداد، وخراسان، وطلب الحديث وسمع من المؤيد الطوسي، وعلي بن محمد الموصل، وأبي الفتح الحصري، وإبراهيم بن سالار الخوارزمي، وغيرهم، وكانت له مناقب كثيرة منها أنه كان يفخم الخليفة المستعصم للتار فيمنعهم من دخول العراق، فكان الخليفة يرمل إليه التحف من بغداد، مثل مصحف الإمام علي بن أبي طالب، وكان ملك الهند يرأسه وكذلك ملك السند وغيرهم، وكانت وفاته سنة (٦٦٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٦٣/٢٣) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢٩٨/٥) الوافي بالوفيات لابن أيبك الصفدي (٢٦٢/٥).

(٢) هو: الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي رضي الدين الصاغاني، إمام محدث، وفقه، ونحوي، من بلاد ما وراء النهر، كان يرحل في طلب العلم، فرحل إلى اليمن، وبغداد، والهند، وغيرها من البلاد، وله كثير من التصانيف منها: تكملة العزيزي، وجمع البحرين، والعباب الزاخر، والشوارد في اللغات، والتراكيب، وشرح البخاري، وشرح أبيات المفصل، وأسماء الأسد، ومشارك الأنوار في الجمع بين الصحيحين، وغيرها كثير، وكانت وفاته سنة (٦٥٠هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبي (٣٥٨/١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢٥٠/٥) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٨٩/٩).

ومنهم:

٣٧- الشيخ شمس الدين الأصفهاني وهو: محمود بن أبي القاسم بن أحمد، أبو الثناء

الإمام العالم العلامة، قدوة العلماء والحكماء والفقهاء، والفقراء، وإرث العلم والحكمة، واحد الدهر، معلم الوجود.

شمس أضاءت، وسما على الدنيا فاءت، وإمام قدم دمشق وهي تحكي بغداد زمان عمارتها، وقرطبة^(١) حيث استقلت بنو أمية بإمارتها، لكثرة نجوم العلماء الطالعة، وغيوم النعماء الهامعة، وابن تيمية^(٢) ونجاح قمره، وابن الزملكاني ولقيف سمره، والخطيب القزويني والإجماع عليه في المعقول معقود، وحلق المسجد والفقهاء بها قعود، فلم يبق إلا من اعترف بسؤدده، واغترف منه بيده، فحلف في فن الأصول فتنها الرطيب، ونسي به ابن خطيب الري فضلاً عن القزويني الخطيب، ولم يعد يلتفت عليه بعد أن قدم

(١) مدينة كبيرة من مدن الأندلس، وهي قاعدة بلاد الأندلس كلها، وعاصمة الخلافة الأموية، فتحها موسى بن نصير وقائده طارق بن زياد عندما فتح الأندلس، واستقر بها المسلمون ولهم بها آثار رائعة، وأشهر ما بها مسجد الذي شهر كثيراً، وتقع قرطبة على نهر عظيم، وقناطر رائعة، وبها دور عظيمة، وكثر بها العلماء والصالحين والمفتين، والملوك، وظلت عامرة أزماناً طويلة، حتى أتت عليها الأيام والدول، ولما ضعف الإسلام بها، حكمها النصارى بعد هزيمة المسلمين أمامهم وضباع هيتهم في بلادهم. انظر: الروض الماطر للحميري ص ٤٥٦.

(٢) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم محمد بن تيمية، تقي الدين، ولد بخران سنة (٦٦١هـ)، وطلب العلم صغيراً، وتعلم الفقه وأصول الدين، فأفتى، وأصبح شيخ الإسلام، وتعرض للاضطهاد والسجن بسبب آرائه، ومحاولاته للإصلاح، وله العديد من الكتب والمؤلفات منها: منهاج السنة النبوية، الفتاوى، الإبان، وغيرها من المؤلفات. انظر: الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (١٥/٧) كتاب المقفى الكبير للمقرئ (١/٤٥٤) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (١/١٥٤) فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (١/٧٤).

في الأصول حلقة إقراء، ولا شكت الوجاء إليه أقدام القراء.

طلع صباحًا، وسطع مصباحًا، وأتى في زي تاجر جاء بمتاع، فكانت فرائد الدر
أوهن أعلاقه، وكنتم نفسه وضوء الشمس لا تخفي لوامع إشراقه.

نزل بدار ابن هلال، ودارة الهلال أحق بموضعه، وطلع دمشق وأفق السماء أولى
بمطلعه، وترددت إليه العلماء، وسعت إليه العظماء، وأقام ينشر العلوم، ويمد جناح
الفضائل على العموم، ويعلم في علم الأوائل أن القطب عليه دار، وأن الطوسي وإن نشر
جناح الطاوس عجز عنه لما طار، وأن الآمدى امتد معه فقصر في المضمار، وأن الفارابي لم
ينجيه منه إلا الفرار، وأن ابن سينا ما يجيء سينة من حروفه، وهي حمل الفقار.

هذا إلى علوم شرعية، وفهوم لودعية، ومعرفة بالفقه على مذهب الشافعي، يجمع
بين قوله، ووجوه لأصحاب ناظرة إليه، واختلاف في طرف الخراسانيين والعراقيين
تتفرق، وتجتمع عليه مع علم حديث ما ابن شهاب^(١) فيه عنده إلا... كالأعمش^(٢).

(١) هو: أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، إمام محدث فقيه، وأحد أشهر
التابعين بالمدينة المنورة، روى عن كبار التابعين، منهم: مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وسفيان بن
عينة، وعمرو بن دينار، وغيرهم، وكان قد رأى عشرة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم،
وروى عنه كثير من العلماء والمحدثين في عصره، وكان يفد على عبد الملك بن مروان وابنيه الوليد
وسليمان، وكانت وفاته سنة (١٢٤هـ). انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (١٧٧/٤) شذرات
الذهب لابن العماد الحنبلي (١/١٦٢).

(٢) هو: سليمان بن مهران الأعمش يكنى بأبي محمد، من أهل الكوفة، وكان محدثًا ثقة، تعلم على كبار
علماء عصره، منهم: يحيى بن وثاب المقرئ، وتعلم عليه: طلحة بن مصرف، وأبان بن تغلب
النحوي، وأبو عبيدة بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وغيرهم، وكان الأعمش كثير
الرواية والأحاديث، عالمًا بالقرآن الكريم، والفرائض، والسنن، شيوعي المذهب، سني الخلق،
وكانت وفاته سنة (١٤٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢٦/٦) تاريخ الثقات لأبي
الحسن العجلي ص ٢٠٦.

وعربية بما الجاحظ^(١) لديه فيها إلا كالأخفش^(٢)، وحقيقة ما صاحب كل طريقة بالنسبة إليها معه إلا واقف في مجاز، وتبحر في تفسير جاء فيه بالإعجاز، وغير هذا من كرم ما البحر عنده إلا مبخل، ولا السيل المنصب من مكانه العالي إلا مخلخل، ولا الغمام إلا وقد تقطعت عراه، وغمض جفن لأنه كراه، وقيدت إذا هم الليل عن سراه.

كل هذا إلى خلق يتخلق به الأبرار، ويتحقق [به]^(٣) صفات الأخيار، ويدل على ما وراءها من العمل لما فيه نعم عقبى الدار.

(١) هو: أبو عثمان عمرو بن بحر الكنانى، كاتب وأديب عربي كبير، ولد في مدينة البصرة سنة (١٥٩هـ)، وتلقى العلم في الأدب وشتى فروع المعرفة وهو ما زال صغيراً، وروى العلم عن كبار علماء عصره مثل: أبي عبيدة معمر بن المثنى، والأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة، والأصمعي عبد الملك بن قريب، وإبراهيم النظام، وغيرهم، وتلقى عليه أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد، وغيرهم من علماء الأدب العربي، كما كان للجاحظ طريقة خاصة به في الكتابة، وعرف عنه أنه كان معتزلاً في مذهبه، ونسبت إليه فرقة الجاحظية، كما كانت له علاقة وثيقة بكثير من خلفاء دولة بني العباس؛ منهم: المأمون والمعتصم والواثق، وللجاحظ كثير من المؤلفات تبلغ حوالي ثلاثين مؤلفاً في الأدب واللغة وعلم الكلام والتاريخ والسياسة والجغرافيا وغير ذلك؛ منها: كتاب البيان والتبيين، والبخلاء، والحيوان، وكانت وفاته سنة (٢٥٥هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (٢/٤٤٦) (٣/١١٧) سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/٥٢٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٢/٢١٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٦/٧٤) وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٤٧٠) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢/١٢١).

(٢) هو: أبو الحسن علي بن سليمان بن الفضل البغدادي الأخفش إمام النحو واللغة في عصره، وسمي الأخفش لضعف بصره وهو صغير، طلب العلم صغيراً، ورحل في طلبه، فرحل إلى مصر سنة (٢٨٧هـ)، ورحل إلى حلب، ودمشق، وغيرها من البلدان، وتلقى على كبار علماء عصره؛ كثعلب، والمبرد وغيرهما، وروى عنه المعافي الجريري، والمزرباني وغيرهما، وكانت وفاته سنة (٣١٥هـ). انظر: تفسير أعلام النبلاء للذهبي (٨٠/٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٣/٢٤٦) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢/٢٧٠) وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٣٠١).

(٣) [به] إضافة من المحقق.

كان في بلده جليلاً، وفي عدده كثيرًا، ولا يجد مثله إلا قليلاً، صحب السلطان محمد بن خدا بنده^(١)، وكان في سيارته من مدرسي السيارة، وهم جماعة كان يقرر أن يكونوا بالآرد وحيث خيم السلطان.

وكان من أنظار القطب الشيرازي [وأمثاله، وأحسن حالاً منه، عند خواجا رشيد، لما كان يجده في نفسه على الشيرازي]^(٢)، ويرمي به طرفه من الغضاضة، ويتقصد به جناحه من الإهاضة.

وكان يعلي شمس شيخنا الأصبهاني ويرفعه، ويزين به أفق المجالس ويطلعه، وكان يحاضره ويسامره، ويفيده العلم ويذاكره، وكان يجزل له العطاء، ويدبر له الصلات، وينوّه بذكره، وينبه على جلالة قدره.

وقرأ عليه ابنه الوزير الكبير آخر وزراء الشرق بل ملك الرياسة بحكم الحق: أمير محمد بن خواجا رشيد^(٣)، وتخرج به، وحصل.

وقدم الشيخ الأصفهاني دمشق واستوطنها فارغاً من تلك البلاد على عظم مكانته

(١) هو: ملك التار قتل سنة (٧١٦هـ)، واتهم بقتله طيبه فضل الله بن أبي الخير بن غالي الهمداني الوزير، وقيل: أصابته هيمضة قوية، تقياً بسببها قتيلاً شديداً فأعطاه الطيب أدوية قابضة مخشنة، فاحتاج إلى الاستفراغ، فأسقاه دواءً مسهلاً، فأسهل إسهالاً شديداً فمات. انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٣/٢٣٢).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٣) هو: محمد بن فضل الله بن أبي الحسين بن غالي غياث الدين خواجا، الوزير وابن الوزير رشيد الدولة الهمداني، وزير عالم، تولى الوزارة بعد فضل والده، فألقى على عاهله بوسعيد أمور الوزارة كلها، فصار يتصرف بها كيف شاء، فكان راجح العقل، سديد الرأي، حسن الإسلام، صالح بين التار وأهل الإسلام، وظل محمد بن فضل الله وزيراً حتى قتل الملك بوسعيد، فعمل وزيراً خلفه علي باشا خال بوسعيد، فما لبث أن قتل معاً سنة (٧٣٦هـ). انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٤/١٣٥).

فيها، وامتلاء صدور أهلها بتعظيمه، وأقام والطلبة تتسامع به وتتواصل إليه، وتأتيه من كل جهة ومكان، وكان شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية يشي عليه أحسن الثناء، ويصفه بالفضل الوافر والعلوم الجمة.

قال لي: ما قدم البلاد علينا مثل الشيخ الدين الأصفهاني.

ورأيت شيخنا الأصفهاني قد زاره مرة، فقام إليه ومشى خطوات لتلقيه، وعرض عليه أن يجلس مكانه فأبى، وكنا في ذلك الوقت نقرأ عليه، ودخل وأنا أقرأ في «المسح على الخفين من العمدة» في الأحكام الصغرى، فقال ابن تيمية للأصفهاني: ما تكلم وأنت حاضر!

فقال له الأصفهاني: الله، الله يا مولانا، مولانا شيخ السنة، وإمام العلماء.

فقال لي ابن تيمية: ما في هذا اليوم قراءة، اليوم يوم فراخ لسباع فوائد الشيخ. وأشار إلى الأصفهاني، فلبثت ساعة رأيت فيها مجمع البحرين، ومطلع النيرين، فكانا فحلين يتصارعان، وسيفين يتقارعان، ثم تركتهما، وأنا أظن أن مكة قد انطبق أخشابها، وأن المدينة قد تلاقت حراتها، ثم طفقت استثبت هل دمشق قد (اتقع)^(١) شرفاها؟ أو الأرض قد اجتمع طرفاها؟ ثم كنت لا أزال أسمع ابن تيمية يعظمه، وكذلك ابن الزمكاني، وأما الخطيب فإلى غاية لا تبلغ!!

وقال ابن تيمية مرة في تقرير مدرس حضره جلة العلماء، وحضره الأصفهاني، فتكلم رجل من أعيان العلماء فيه، فقال ابن تيمية: اسكتوا لنسمع ما يقول الشيخ. وأشار إلى الأصفهاني.

ثم قال الشيخ شمس الدين بزرگ - والبزرگ هو الكبير باللغة الفارسية -: ثم كان

(١) كلمة غير واضحة ولعلها (اهتزت) لمناسبتها للسياق.

الخطيب لفرط محبته في الحكمة وعلم الكلام يدعو الأصفهاني إليه ويدع من يقرأ بحضوره عليه ليستفيد.

وجرى بينه وبين ابن جملة^(١) مرة نزاع في حديث، وكان الثقل مع الشيخ فيه، فوبخ ابن جملة على تجرئه على مثله، وغاية مثله أن يكون كأحد تلاميذه وطلبته الأخذين عنه.

وأقام الشيخ سنين بدمشق، كأنها هو مرفوع على الرؤوس لإفراط التعظيم والإجلال، ثم لما طلب الخطيب إلى مصر، وولي القضاء بها، كان لا يزال يتشوق ويتشوف إلى مقدمه عليه ومقامه بمصر، فلما طلبني السلطان شركته في ذلك؛ وزدت عليه، واتصل خبره بالسلطان، وطلبه، وأقبل عليه، وأكرم وأدنى منه مجلسه، وبسطه، وأنسه، وأمره بالمقام بحضرته، فأقام وأجرى عليه مرتباً، وأبقى عليه معلوم التصدير بدمشق، مع الإقامة بمصر للاشتغال بها.

ثم كنت يوماً أنا وقاضي القضاة الخطيب القزويني عند السلطان بالدركاه^(٢) داخل باب مسجد رديني بالأدر السلطانية، في عقد عقدٍ لبعض الحرم، فأجري ذكر الشيخ الأصفهاني وكانت المدرسة المعزية^(٣) بمصر المعروفة بمنازل العز قد شغرت، فولأها له، ثم بنى الأمير قوصون^(٤) له الخانقاه^(٥) التي بالقرافة، وكانت ينزل في كل وقت إليه،

(١) هو: الإمام جمال الدين يوسف بن إبراهيم بن جملة الصالح الشافعي، إمام فقيه، كان قد تلقى العلم على الفخر السخاوي، وابن الوكيل، وابن النقيب، تولى التدريس في المدرسة الشامية البرانية سنة (٧٣٨هـ)، وتولى القضاء، ولكنه ما لبث فيه إلا ستين حتى عزل، وكانت وفاته سنة (٧٣٨هـ) بعد توليه التدريس في المدرسة الشامية البرانية بعدة شهور. انظر: الدارس في تاريخ المدارس للدمشقي (١/ ٢٨٤).

(٢) الدركاه: فارسية بمعنى الساحة أو الفناء.

(٣) نسبة إلى منشئها الملك المعز أبيك التركماني.

(٤) كان الأمير قوصون والياً على مصر سنة (٧٤١هـ).

(٥) الخانقاه كلمة فارسية تعني: البيت، أي: الموضع الذي يجلس فيه الملك ويأكل، ثم تطور مدلول

ويقعد قدامه بين يديه، ويقضي كل حوائجه ويبعث بالجمل ليعمل بها أوقات، ويحضرها بنفسه، ويكون فيها مثل أحد تلاميذ الشيخ.

وعظمت منزلة الشيخ عند السلطان، وكبرت مكانته في صدره، حتى أمر قوصون أن يقول له: السلطان يقول لك: أنت عندنا كبير، ومكانتك نعرفها، ونريد أننا لا ترد عليك قط في شيء تطلبه منا، ونحن نوصيك بأنك لا تتحدث في اثنين، ثم مهما أردت قل يسمع منك، وهما: عبد الله ابن القاضي جلال الدين^(١)، وأوحد ابن أخي الشيخ مجد الدين الأقسرائي، شيخ خانقائنا بسرياقوس^(٢)، فإن هذين الاثنين قد ثبت عندنا نحسهما، وما يمكن أن نقبل فيهما شفاعة.

الكلمة في الإسلام اعتبارًا من سنة (٤٠٠هـ) عندما جعلت الخانقاه بيتًا للعبادة والتزهد عن متاع الدنيا، ويجلس فيها الصوفية والعباد لعبادة الله تعالى، وكان أول من استخدمها لهذا الغرض زيد بن صوصان بن صبرة الذي بنى بيتًا لهذا الغرض في البصرة، وجمع لها العباد والزهاد فأسكنهم بها وجعل لهم ما يريدونه، من مأكّل ومشرب ومطعم، ومن أشهر الخوانك في مصر: الظاهرية، والشرابية، ابن غراب، الجاولية، قوصون، الخروبية، يونس، سرياقوس، شيخو، البندقارية. انظر: الخطط المقرزية للمقرزي (٤١٤/٢).

(١) هو: محمد بن محمد بن فخر الدين، جمال الدين الأقسرائي، حفيد فخر الدين الرازي، وهو إمام عالم بالتفسير والطب، من آق سراي بتركياء، له كتاب: حل الموجز، موجز ابن النفيس لكتاب القانون. انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٤٧٨/٢).

(٢) تقع هذه الخانقاة خارج مدينة القاهرة، بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٢٣هـ)، وجعل فيها مائة خلو مائة صوفي، وبنى بجانبها مسجدًا للصلاة الجامعة، وبنى بها حمامًا ومطبخًا، وكمل البناء بها سنة (٧٢٥هـ)، وجعل بها الشيوخ الشافعية يلقون بها الدروس العلمية، وكان أولهم بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي قاضي القضاة، ومنهم: الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الأقسرائي، وقام السلطان الناصر بالخلع على الشيوخ والعلماء وتفرقة الأموال والعطايا على النُّسك مما رغب الناس في السكنى حولها، مما جعلهم يبنون الدور والخوانيت بجانبها، فتكونت بلدة صغيرة تعرف بخانقاه سرياقوس، وتقام بها الأسواق والأعياد والاحتفالات. انظر: الخطط المقرزية للمقرزي (٤٢٢/٢).

قلت: فكان الشيخ لهذا لا يرى الثقيل عند السلطان في شيء لئلا يطلب ما يستثقل به ويقضيه رعاية له.

ثم إن السلطان أبا سعيد بهادر خان بعث كتابًا إلى السلطان يطلب فيه [إنفاذ الشيخ إليه]^(١) لاشتياق الوزير أمير محمد وأهل البلاد إليه، وأكد في طلبه.

وجاء قرينه كتاب من الوزير يقول فيه: إنه من أولاد الشيخ وتلاميذه، وكم يصبر الولد عن والده، والتلميذ عن شيخه؟ وسأل الصدقات السلطانية في تجهيزه. فقال لي السلطان: والله! نحن ما نسمح بالشيخ، ولكن قولوا له: قد بعث أبو سعيد يطلبك هو والوزير، وأهل تلك البلاد، وقد حيوا السلطان بسبك، والسلطان قد جعل الأمر إليك.

فقال الشيخ: لا والله لا أفارق ظل السلطان، ولا أستبدل بهذه البلاد، فأنا ما فارقت تلك البلاد بنية من يعود إليها.

فأعجب السلطان هذا منه كل الإعجاب، ووقع منه أحسن المواقع، وجل في صدره، وعظم في عينه، وعرف محله، وتحقق مكانته في بلاده، وأنه مع ذلك لم يزد إلا حيث استعلت كلمة الإسلام وكانت مباحث الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم -.

ثم لما سعت نبال النيمة في القاضي جلال الدين، وتحتم عزله، وكاد يفضي به الأمر إلى ما أعاذ الله منه نواب شريعته، وعلماء دينه الذي [ارتضى]^(٢)، قام الشيخ في أمره حتى ولي قضاء الشام - على ما تقدم ذكره في ترجمته -.

ولما طلب السلطان أعيان الفقهاء للارتياح بعد جلال الدين لم يفصل رأيًا حتى حضر الشيخ، وأخذ رأيته، وكان هو المعظم في ذلك المجلس، والمقدم عند السلطان على

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

ذلك الجمع الجم، ثم إن السلطان أمسك ابن صورة^(١)، وكان على نظر الأهرء السلطانية^(٢)، وكان الشيخ مزوجاً بابنته، وكان قد اتهم بأخذ مال جليل للسلطان، وقد أمسكه السلطان وشدد عليه في الطلب، فأتى الشيخ بنفسه إلى قوصون بسببه، فاعتذر إليه وقال: هذه ساعة غضب السلطان، ما أقدر أكلمه فيها!

فقال له الشيخ: أنا أتحدث مع السلطان. ثم أتاه وطلب الإذن عليه، فأذن له، فدخل، فلما رآه وقف له، وأكرمه، وأجلسه إلى جانبه، وقال له: في خير؟ ما جاء الشيخ إلا في حاجة؟!

فقال له: نعم. قال: ماهي؟ قال: ابن صورة.

قال: خذه، والله! ما أقدر أردك، ولولاك لكان له حال آخر. فخرج الشيخ فأخذه وانصرف وهو اليوم في مصر لإقراء أنواع العلوم الشرعية والعقلية، وعلم المعاني والبيان والنحو والعربية، والإفتاء، وإفادة الطلبة، والإذن لنهاء الفقهاء بالإفتاء، وإنشاء أهل العلم والتحصيل، حتى كثر عدد العلماء، واخضر به قلم الإفتاء، ولولاه لجف بموت من مات من العلماء؛ لأنه أذن للجماعة بمصر والشام وحلب، وتضرم به وقود الأذهان والتهب.

وهو ممن قرأت عليه أصول الفقه، وعلم المعاني، والبيان، وممن أذن لي وأحسن، وجاد بها أمكن.

(١) هو: ناصر بن علي بن خلف، ابن صورة الكتبي، سمسار الكتب في مصر، كان الأعيان والرؤساء والفضلاء يجلسون عنده ليروا كتبه التي يعرضها للبيع أيام الأحد والأربعاء، وكانت وفاته سنة (٦٠٧هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاكركتبي (١٨٤/٤).

(٢) أي: مخازن الغلال والحبوب التي كان يخزن فيها هذه الغلال، ولا تفتح عادة إلا عند الضرورة وعند الأزمات الاقتصادية.

ولما رحل صاحبنا الشيخ الإمام الفاضل بدر الدين أبو عبد الله محمد الشبلي الحنفي إلى الديار المصرية، كتبت إليه بسببه كتابًا نسخته:

«الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى - ومنهم واحد الدهر وكفى - سيدنا ومولانا، ومبصرنا بمصالح آخرتنا وأولانا، ومتحفنا بما يقصر منه عن شكرنا أولانا: السيد العالم الرباني، المكمل لنقائص الصور والمعاني، المسلك على الطريقة، والمملك لأزمة الحقيقة، قطب الأولياء، وارث الأنبياء، الإمام المجتهد المطلق، والبحر الزيد المطبق، الداعي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والساعي يبلغ من مصالح الأمة في أدنى يوم ما يعجز في سنة، الحجة الواضحة، والمحجة اللائحة، آخر المجتهدين، شمس الدنيا والدين، معلم المتكلمين، إمام المتأخرين والمتقدمين: [البسيط]

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ملء المسامع والأفواه والمقل^(١)

لا زالت البصائر به منورة، والحدائق بسحبه منورة، والحقائق بعلمه مصورة، والشرائع بذبه عن حوزتها مسورة، والبحار الزواجر في مغيض صدره مغورة، وشمس السماء بضياء شمس مكمرة، وأرض القدماء لدى رياضه اليانعة مبورة، ومنابت الخط إذا نظرت إلى ميامن قلمه تشاءمت بكعاب رماحه المدورة، ودول الأيام تسعد بخيالات أيامه المطورة، ولا برحت السيوف تعنو لهممه، والسيوف تعزو النفع إلى كرمه، ولا فتى فتي الدهر وشيخ أبنائه، ولا انفك أنف كل معاند راغمًا بسار أنبائه، ولا كان مكان فوق فرق الفرقد إلا دون أدنى بنائه، حتى يلتحق بالزمرة السعداء، ويلقى الله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، خدم بها المملوك على قصوره وخضوع آيائه التي كان يتناول بها في العلياء إلى شوامخ قصوره، مذكرًا بعبودية قديمة، لا يزال لها في كل حين بارقة على إطلاله، وقائلة في ظلاله، وحائمة على زلاله، ومشوقة في آفاق الأقمار إلى مطلع هلاله، وملتفة إلى ما يغض الأبصار من بديع جلاله، مع وثوقه بأنه إن أغب

(١) هذا البيت للشاعر ابن شرف الجزائمي القيرواني من قصيدة يمدح بها شيخه ابن أبي الرجال.

بتذكاره أو غاب وشكت سعيه أو هدر يطلب رعب، لا يلوي لحظه من سيده مطال
مطالب، ولا يغير عوائد تَعُوده وراب آرب، ولا يبرح له ذكراً لا ينسأه، ومؤانس له
والدهر قليل المواساة، إلا صفوة إخوان بهم يبل الرmq، وقليل ما هم، ويقل القلق وهو
كثير لولاهم، ومنهم السيد الأخ العزيز، الشيخ الجليل، الإمام، العالم، الفاضل، الفقيه،
المحدث، المفنن، [مجموع الفضائل]^(١)، فلان المائل على حضرته المشرفة بها، والخاص
إليها ظلم الليالي لا يبالي بجنح غيبها، وهو على ما هو عليه من التحلي بالوفاء في الزمان
الغادر، والاتصاف بالصفاء في وقت يبدو فيه الكدر، وأوله ما يبدو من الشفق المحمر في
لج الصباح الزاخر، من ذوي الفضل المتعدد، والعلم المتجدد، والذهن الساطع، والرأي
الصائب القاطع، واليد التي لم تقصر به في التصنيف، ولم تعذر بسببه فيها تهب المسامع
التشنيف.

هذا إلى ذهن شفت سرائره، وعرفت أمائره^(٢)، وتقي صلحت مضغة قلبه لتصلح
سائره، وقد أمَّ الآن الديار المصرية المحروسة التي هي الآن فلك شمسه وحضرة قدسه،
وموضع ثمار العلماء ممن غرسه، وقد حمل ظمأه إلى بحره، وشق ظلمه إلى فجره، وجاب
القيافي في طلب العلم لديه، واشتمل ذبول الفجاج لحصول الأشمال عليه، وله أسوة
بالعلماء الذين امتدت شمسه النيرة نجومهم، وقدحت مشكاته المضيئة فهمهم،
وأمرت سحبه الروية علومهم، وأطلق إذنه الشريف قلم فتاويهم، وشرف قدره المنيف
لهمهم معاليهم، ورعى إحسانه المطيف ذمم قصدهم، يقتحمون مناحل أيامهم،
وجحافل ليلاليهم، وهو وإن لم يكن أظهر منهم استحقاقاً، وأكثر الاحتراز الفوائد
استراقاً، فما هو بدون جماعتهم، ولا بأضعفهم طاقة عن جهة استطاعتهم، والمملوك ممن
يثني بين يدي مولانا عليه باستحقاقه، ويصفه بما لا يقدر أحد فيه على شقاقه، وسيظهر له
ما يزكي شهادة المملوك في الثناء على فضله والشكر له، وإن لم يكن المملوك من رجال

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٢) يقصد: إماراته وعلاماته.

هذا المقام، ولا من أهله، وإن لم يكن:

فقف وقفة قدامه تتعلم^(١)

وفي هذا كفاية ومقنع، وغاية وممتع، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، انتهى.

وكنت كتبت على يده نسخة إذن له بالإفتاء، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رفع أقدار العلماء، [ونقع]^(٢) بورد الشرائع غلل الظلماء، ورفع
بصباح الحق المنير دجى الظلماء، ونصب أعلام الأئمة ليُهتدى بهم كنجوم السماء.

نحمده على نعمه التي زينت بمجالس العلماء المعابد، وبينت فضل العلم إذ كان
العالم الواحد أشد على الشيطان من ألف عابد.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تهتز بها الأقلام، وتعتز ألوية
الأئمة الأعلام، وتبتر بأيدي حماها حملة العلم ضوال الإسلام.

ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، الذي هدى به من الأضاليل، وحى من
الآباطيل، وفضله على الأنبياء، وجعل علماء أمته كانباء بني إسرائيل.

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الهدى، وأزمة الندى، وتمة كل خير يبتدأ،

(١) من قصيدة المتنبي وفيها يقول أبو الطيب المتنبي:

إذا منعت منك السياسة نفسها فقف وقفة قدامه تتعلم

(٢) في الأصل: نقد، والمثبت من «ف»، وهو الأوفق للسياق.

صلاة متصلة لا تنتهي إلى مدى، وسلم تسليمًا أبدًا^(١) كثيرًا. وبعد:

فلما كان مراد العلم أخصب ما انتجع، وزمان الطلب أحق ما ييكن على فائته لو ارتجع، وهو الذي تشد إليه الرحال، وتجد إليه الرجال، وتمتطي إليه الهمم، ويخاض الليل وقتير الصباح ما دب في سواد اللمم، وتركب إليه الرياح، وتنحطى إليه الرماح، ولم يزل أهل الطلب [تفارق]^(٢) فيه الكرى، وتشمر الأهداب للسرى، وتنهض وقد أقعد الحرمان أكثر الورى، وتجول في طلبه الآفاق، وتجوب البلاد والنجوم في اللحاق، وتتفاوت في هذا ومثله رتب الطلب، وتتباين قصب العلم والطرب، ولأهل الحديث الشريف النبوي - زاده الله شرفاً - في هذا الوسع مجال، وأنجع ركائب تأتي عليها رجال عجال، ويزداد في توسع ذيل الارتحال، وتوسع أردية الأصل قبل حط الرجال، من تفقه في الدين وتنبه وما له خدين، واشتغل بمذهب أول الأئمة الإمام أبى حنيفة رضي الله عنه حتى ود شقيق الشفق لو نسب إلى نعمائه، ورفيق أول السلف لو تأخر إلى زمانه، وظهر من فضائله ما وضح وضوح النهار، وأظهر فضوح البحر وفي قلبه النار، وجدل الأقران لما ناظر، وعلل السبب في رقة النسيم بلطائفه لما حاضر، وتفتح في هذا المذهب، وأذكى ضرام فهمه فيه فكاد يلتهب، من دله علمه على أن: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(٣)، وسبب السفور لجلاء كل مظلم، إذ كان العلم هو الذي يتماثل في وجوب طلبه المسلمون، ويتفاضل في علو رتبة من قرأ: {هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} [الزمر: ٩].

وفي الحديث: «العلماء ورثة الأنبياء»^(٤).

(١) «ف»: كثيرًا.

(٢) في الأصل: يفارق، والمثبت من «ف» وهو الأقرب للسياق.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط، والبيهقي، وقال السيوطي بصحة الحديث.

(٤) الحديث بلفظ: «العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى

يوم القيامة». انظر: كنز العمال (١٠/ ١٣٥) وضعفه السيوطي.

وقد جاء: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١).

وقال بعض السلف لرجل قال له: إلى متى يحسن بي التعلم؟

قال: ما حسنت بك الحياة.

وطالب العلم هم لا يشبع، ومغتنم لا يقنع، وإناء لا يمتلئ، ومجتهد لا يأتلي، فلما أخذ عن علماء بلده، ونفع بها منهله الغدير ولم يغترف غرفة بيده، يجد ذلك وإن كان البحر الزاخر ناقعاً لأوامه^(٢)، ولا ذلك الخصب الممتد وإن أمرى نافعاً لسوامه، ورأى أن تلك الرحاب الفساح في الطلب لا تسعه، وأن تلك المدد الطوال التي قضاه في التحصيل لا تقنعه، فأم مصر -حرسها الله تعالى- حيث هي المصر الجامع، والأفق الذي تزينه من علمائه النجوم الطوالع، وأتى لا يريد إلا العلم ولقاء أهله، والزيادة منه لو وجد مزيداً في فضله، فلم يدع غمماً يستسقى ولا إماماً عن مثله يتلقى، ولا من يمتاح له من قلب، ولا من يرتاح إليه على بعد فكيف والمزار قريب، حتى كادت ركائبه لا تنهض بها أوسقت، وسحائبه لا تبيض بها سقت، وكان «فلان» هو الذي استفاد وأفاد، وانتقى واستزاد، وضاهى في طلب العلم سرى الغمام، وباهى البدور الكوامل وزاد في التمام، الذي اقتحم الدجى لا ترهبه الأسنة، ولا فح الرياح لا تراحمه الأعنة، وفهم التنزيل فسكنت نفسه المطمئنة، وعلم الحديث فسلك به طريقاً إلى العلم ليسلك الله له به طريقاً إلى الجنة.

طالما رفعت أعلام الدين بجداره الذي يمنع، وخضعت رءوس الخصوم بجلاده الذي لا يمنع، ووضعت الملائكة أجنحتها له؛ لأنه طالب علم رضي بما يصنع، وهو ممن حصل من كل علم غاية أو طرفاً، وحل كل علا وتبوأ غرفاً، وأجاد في علم الفقه

(١) الحديث بلفظه في: سنن الترمذي، كتاب العلم، باب أفضل طلب العلم، رقم (٢٦٤٦).

(٢) الأوام: العطش.

وتوجيهه، وعلم تشعب طرقه ووجوهه، وعرف فيه وجوه الاختلاف ووجوب الائتلاف، ووجود المقتضي للترجيح، والمرضى فيما يفتي به على الصحيح، ومن أين استنبطت الأدلة، وعرف العلول والعلة، وتردد إليّ، وقرأ عليّ، وبحث مع أفاضل العلماء لدي، وناظر بحضوري أمثال الفقهاء، فملاً أذني، وتكرر حضوره عندي، وظهر لي من مدده السحابي أن محلته لا تكدي، ورأيت أهلاً للإفتاء والتدريس، والتصدير، وولاية المدارس، وغير ذلك، مما يتنافس فيه من هذه الرتب العلية المنافس.

وقد استخرت الله، وأذنت له أن يطلق قلمه بالإفتاء، ويلحق بشأ الكهول في سن الفتاء^(١)، وأن يرشد الضلال ويرشف من قلمه الزلال، ويتصدر لإشغال الطلبة ونشر الفقه على ما يوافق في النص والقياس مذهبه، واقفاً فيما يفتي به عند الصحيح الراجح والحق الواضح، والذي عليه نص مذهب إمامه الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وأصحابه مما عليه الفتوى، وعلى ما ترشد إليه.

ومما أوصيه به من التقوى متيقناً أنه - أطال الله عمره - يموت ويبقى ما كتبت يده، وأن الفتيا إذا خرجت من يده ربما وقعت في أيدي عداه، ثم إن الله سيسأله عما كتب، فليعد قبل أن يجيب على الفتوى الجواب، وليعد النظر مما يكتب به فمن أعاد النظر لم يعدم الصواب، والله تعالى يمد له أجلاً يسري به في ليل الشبية حتى يرى صباح المشيب، ومهلاً لا تحف لأنديته ضرع ندي، ولا يحمد لهيب، وأن يقيه خلفاً في الإسلام، وما ذلك من عوائد كرم الله بعجيب، والمسئول من الله أن يوفق ولالة الأمور - أعزهم الله بعز طاعته، وصرف كلاً منهم في الخير وسع استطاعته - لإعلاء قدره، واستجلاء بدره، واستملاء ما يمكنه من العلم الجم في صدره، وأن يكثرُوا به في هذا الزمان عدد القدر^(٢) القليل، ويأثروا منه الأثر الجميل، ويقدموا منه مستحقاً لو أجابوا الفكر لم يجدوا مثله في

(١) يقصد سن الفتوة والشباب.

(٢) في «ف»: الفضل القليل.

هذا الجيل، ليصلوا به حبلاً لولا مثل هذا في كل أوان لانقرض، ويقيموا بنياناً لولا شبه هذا في كل مكان لانتقض، وينظروا لآخر الأمة في مد مدد العلم الذي لولا بقية العلماء - وهذا منهم - لم يخض.

فلما وصلت إليه تلقاها بالقبول، وكتبها بخطه إذناً له بالفتوى، وكتب إليّ جوابه، فأجبت به صورته:

«يقبل الباسط الأشرف، الطاهر، الزكي، المولوي، السيدي، الإمامي، العلامي، العاملي، الفريدي، الأوحدي، الحجي، المسلكي، العارفي، المالكي، المخدومي، الشيعي، الشمسي، علم الأعلام، شيخ مشايخ الإسلام، مفيد أهل مصر والعراق والشام، فرد الوجود، ورد الجود، منشئ العلماء والمفتين، إمام المتكلمين، سيف الحق، ملجأ الخلق، جامع الطرق، شمس الأفق، ولي أمير المؤمنين، لا زالت الأيام رافلة في حبره، والأقلام ناقلة لخبره، والأعلام الشوامخ متضائلة لذي كبره، والكرام تعترف بفضله الذي تعد معه عبرة الغمام من عبره، والأحكام لا تطيع حديد مواضيها إلا من زبره، والسهام لا تقطع آراؤها الصائبة قطع سيوفه، ولا تحز حز إبره، تقبيلاً يؤدي حق شكره، ويوفي بعض نذره، ويولي القبل قبله إحسانه، ويوصي بنيه بأداء ما في ذمته وفرضه، وعجز عن ذكره بلسانه، وينهي ورود المثال العالي، فقام المملوك له ووقف على قدمه، ووقف لديه معرضاً لخدمه، ونظر إليه فبهت، وحاول شكر أدنى معروفه فصمت، واستظل بظل غمامته، واستقل سروراً بسلامته، واستقبل الدهر برفع ملامته، وتأمل كرمه ومد يده إلى مدامته، وأفضى منه إلى فضاء ملؤه الكرم، ورسيله البحر وتلوه الديم^(١)، فترامى المملوك عليه، وكرع في غدير تلك الصحيفة وأمن به، وقد أوجس البرق في نفسه خيفة، وباع مؤديه الرشيد لما رأى لمهدي مهديه خليفة، وقلب وجهه في سماء ذلك السباح، وقلبه في سراء تلك المواهب التي لو جاراها البحر قالت له: إياك والطاح، وجبته في نعماء تلك

النعم التي خطت إليها الرياح وتخطت الرماح، واستبق مضمونه، ولسان محضره في وصف ندي عهده وكرم لم يزل يعد منه يدًا مجدده، وهدى فرق به النحر لما أبصر فرقه، ومعروف ما برحت تعرف به الأعلام، وتصرف بالفتاوى الأعلام، وتشرف القبل بالتهادي إلى مواطن الأقدام، وتلك صدقات مولانا التي شملت من شهد علمه الشريف باستحقاقه، ولهذا أطلق فيه رسن قلمه، ونبه له، وسن طرفه من حلمه، وأذن له في الإفتاء الذي أن لأن يشرق في أفقه بدره الطالع، ويشرق بغصص حسده عدوه الطامع، فجاء مسرورًا من كريم جنبه، محبورًا بإحسانه بعد أن حظي بالمثل في فئائه الرقيب، وأحسن عن المملوك في منابه المولى الشيخ الفقيه، الإمام العالم، الكامل الفاضل، الحافظ المحدث، المتفنن، العلامة، أوجد العلماء، جمال أهل الإفتاء، فخر المحدثين، شمس العصر، بدر الدين الشبلي - زاده الله فضلًا - والله هو من مستحق قدم مولانا منه إمامًا، وأمطر طلبه العلم به غمامًا، وناول قلم الإفتاء وكثر عدد العلماء به وقد قلوا، وأرشد السواد الأعظم بيد الطالع، ولولاه لضلوا، وأهل الصدور والتصدير منه من مطوي علمه المحاريب إحناء ضلوعها، وتجري السماء إذ لم تر مثله أعين دموعها، ووصل ووصف وأراه ما كساه فما ظن إلا أنه عليه من ورق الجنة قد خصف، وذكر وشكر، وما جاء إلا بالمعنى المتداول مما أجمع الناس عليه من إحسان مولانا وهو يظن أنه قد ابتكر، وقال وقال، وهيئات أن تبلغ البلاغة أو تحيط الفكر، وناول المملوك المثال العالي الذي لا مثال له إلا ما كتبه كاتب اليمين، وذهب موقد جهر الشفق وكابت به الدر الثمين، وقبله وسابق نهب اللاثمين، وحلا بما تضمنه وإذا بالبحار الزواجر والرياض الزواهر، والسحب إلا أنها سحب نيسان التي تولد الجواهر، والله الله في مساحه المملوك في قصور هذا التمثيل، وفتور هذا التشبيه الذي كم له مثل لشيء ما له مثل، ولقد وقع هذا الإحسان بموقع من المملوك، وعم سائر القلوب وعد فضل النعم به إلا أنه غير محسوب، وأرى المملوك زمان مثوله بين يدي سيده حيث المزار قريب والزمان عز ولولا هذا لم يكن صنعه الميل بغريب، ولقد رام المذكور على طلاقة لسنه، وامتداد رسنه، وقدرته على الكلام وكثرة حسنه، أن يعرف المملوك بما أولاه من منته

المنوعة فما قدر ولا زاد على أنه اعترف أنه لا يطيق واعتذر، وها هو الآن قد تصدى لما أخذ عن مولانا علمه، وحرك له عزمه، وأحيا الله به أموات هذا المذهب، واستعاد فوات ما لولم يدرك مولانا بقية آخر رmqه بهذا ومثله من العلماء لكاد أن يذهب.

والسنة أهل دمشق كلها بالأدعية لمولانا مولاهم هذه النعمة بسببه ناطقة، وبضائع صنائع مولانا في سوق شكرهم نافقة، والمملوك عنهم المترجم، ولإدلاله قد طال ويقبل تقبيل المتهمج، والمملوك يستعرض المراسم العالية التي هي طوالع السعد لا ما يدعيه المنجم، لا برحت طلبته مثرية المطالب، مورية الهدى في الغياهب^(١)، مجرية الأقلام بالإفتاء، وفي آثارها ولا يلحق زمن الكواكب.

ومن فلاسفة المغاربة، وحكمائهم، ومتكلميها ممن كان بالأندلس:

٣٨- يحيى بن يحيى، أبو بكر، المعروف بابن السمين^(٢)

من أهل قرطبة، أتقن العلم والحساب، وعلم التصور والاكتساب، وعانق الصبر والاحتساب، وعانى مهم الفن حتى أوتي أجره بغير حساب، فمات، وآخر الحياة الموت، ونهاية الدرك الفوت، بعد خيرات أثرها، ومبرات بقيت، وقد أكلت الأيام مؤثرها، وعمل صالح بلا اكتراث، وعلم نافع يبقى إذا انقطع عمل ابن آدم إلا من ثلاث^(٣).

(١) الغياهب: أي الظلمات.

(٢) هو: يحيى بن يحيى أبو بكر ابن السمين، إمام وعالم من أهل الأندلس، من مدينة قرطبة، كان أديباً شاعراً وراوية، وفقياً، وكان له معرفة بالطب وعلم النجوم، رحل إلى الأندلس فأصابه النقرس، فكان يلزم داره، فيقصده الناس بها، وروي عنه كتاب التفسير المنسوب إلى الحسن، وكانت وفاته سنة (٣١٥هـ/٩٢٧م). انظر: تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضي (٢/١٨٥)، طبقات النحويين للزبيدي ص ٣١٤.

(٣) الحديث بلفظ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له». انظر: سنن الترمذي، كتاب الأحكام، باب ٣٦، رقم (١٣٧٦).

قال ابن أبي أصيبعة: «قال القاضي صاعد: إنه كان بصيرًا بالحساب، والنجوم، والطب، متصرفًا في العلوم، متفنتًا في المعارف، بارعًا في [علم النحو]^(١) واللغة والعروض، ومعاني الشعر، والفقه، والحديث، والأخبار، والجدل، ورحل إلى المشرق ثم انصرف»^(٢).

قلت: وقد ذكره ابن المازري^(٣)، وقال: «قدم علينا مصر حاجًا، وتسامع به الناس، فأتوه من كل فج، وقرأوا عليه كتبه، وغيرها، وحبوه بالذهب، وأنواع الحباء، فلم يقبل لأحد شيئًا، وكان متقللاً من الدنيا، زاهدًا في حطامها، لا يزال يذكر الموت وهو المطلع، ويقول: ليت أمني لم تلدني!».

قال: «وكان كثير الصدقة والبر، ولا سيما إذا رأى ذا عجز ظاهر، ملازمًا للصلوات في أوقاتها. نزل في دار قريبة من المسجد الجامع، ليقرب عليه أداء الفرائض في الجماعة، وكان إذا صلى ظهر عليه من الخشوع وفيض الدموع ما يكاد يرحمه به من رآه».

قال: وكان لا يزال ينشد: [الطويل]

إذا نظر الدنيا بصير بحالها	تيقن أن الدهر جم المصائب
فمن عارف تصطاده باقتسارها	وغبر بها تصطاده بالرغائب
فما ماؤها إلا سراب بقية	وما عيشها إلا تحلم كاذب
لح الله مغترًا بها وصروفها	وفي بعضها للمرء كل العجائب

قال ابن المازري: وأظنها له.

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٢) وتكملة النص من عيون الأنباء: وتوفي في سنة خمس عشرة وثلاثمائة. انظر: عيون الأنباء (٣/ ١٨٧).

(٣) هو: محمد بن علي بن عمر التيمي المازري، أبو عبد الله، ولد سنة (٤٥٢هـ)، توفي سنة (٥٣٦هـ)، انظر ترجمته في: وفيات الأعيان (١/ ٤٨٦).

ومنهم:

٣٩- ابن المجريطي: أبو القاسم مسلمة بن أحمد^(١)

من أهل قرطبة. مسح الأفلاك وقسمها خططاً، ووسمها وما سامها شططاً، وكان كأنه بعض كواكبها إشراقاً، وجواربها الكنس إشفاقاً، أشرق إشراق زهرتها، وتدقق تدقق المجرة على زهرها، ونفض على الآفاق صبغة أصلها، وذر في مقلة الصباح زرقة كحلها. وكان بقرطبة حلية لأيام بني مروان، وزينة لذلك الأوان، وأعاد ذاهب زمانهم، والركائب ترد عليهم وترد وجوه النجائب إليهم.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان في زمانهم الحكم»^(٢).

وقال صاعد: «كان إمام الرياضيين بالأندلس في وقته، وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك، وحركات النجوم، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب، وشغف بالمجسطي- كتاب بطليموس- وله عدة كتب، وأنجب له ملاً من التلاميذ الأجلاء، ولم ينجب عالم بالأندلس مثلهم، ومنهم: ابن السمح»^(٣)، -----

(١) هو: أبو القاسم مسلمة بن أحمد الأندلسي، المشهور بالمجريطي، وهو إمام الرياضيين بالأندلس، وعالم الأفلاك وحركات النجوم ورصد الكواكب، وله كتب عديدة، منها: كتاب المعاملات وهو في العدد، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب، من زيج البتاني، ونقل تاريخ محمد بن موسى الخوارزمي من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، ووضع أوساط الكواكب زواد فيه عدة جداول، وكانت وفاته سنة (٣٩٨هـ) بالأندلس. انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢١٤، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٦٢/٣).

(٢) هو: الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله، الخليفة الأموي، ولد بقرطبة، سنة (٣٠٢هـ)، توفي بقرطبة سنة (٣٦٦هـ). انظر: ترجمته في نفح الطيب (١/ ١٨٠).

(٣) هو: أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس الغرناطي، عالم بعلوم العدد والهندسة وعلم

= وابن الصفار^(١)، والزهراوي^(٢)، والكرماني^(٣)، وابن خلدون^(٤).

الهيئة والأفلاك، والنجوم، والطب، له العديد من المؤلفات؛ منها: كتاب المدخل إلى الهندسة، وكتاب المعاملات، وكتاب طبيعة العدد، وكتاب التعريف بصورة صناعة الاسطرلاب، وكتاب في الجداول ورسائل الجداول، وغيرها، وكانت وفاته سنة (٤٢٦هـ)، عن ٥٦ سنة. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٣/ ٦٢).

(١) هو: أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر بن الصفار، عالم بعلوم العدد والهندسة والنجوم، كان له عدة من التلاميذ، منهم: أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي، وابن أخيه محمد، وكان يسكن مدينة قرطبة، ثم ما لبث أن أخرج منها، فاستقر في مدينة دانية على ساحل بحر الأندلس الشرقي، وظل بها إلى أن توفي، ومن مؤلفاته: كتاب الزيج وهو مختصر على مذهب السندهند، وكتاب في العمل بالاسطرلاب. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٣/ ٦٤).

(٢) هو: خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي، أبو القاسم، ولد في الزهراء قرب قرطبة، توفي سنة (٤٢٧هـ). انظر: ترجمته في طبقات الأطباء (٢/ ٥٢).

(٣) هو: عمر بن عبد الرحمن بن زحيد الكرماني، أبو الحكم، ولد سنة (٣٦٨هـ)، توفي (٤٥٨هـ). انظر: ترجمته في طبقات الأطباء (٢/ ٤٠).

(٤) هو: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون إشبيلي تونسي، مالكي المذهب، وهو إمام ومؤرخ، وكتّاب، ومنشئ علم الاجتماع والعمران، نشأ في بلاد تونس بالمغرب العربي، وتلقى بها العلم صغيراً، ثم أخذ في الترحال فسافر إلى هوار، ونزل على إمامها ابن عبدون، واستقبله أبو عثان المريني صاحب تلمسان، ورحل إلى فاس، وسافر إلى الأندلس، ثم إلى مكة، وغيرها من بلدان العالم الإسلامي، واتصل ابن خلدون بكثير من أمراء وسلاطين العالم الإسلامي في عصره؛ منهم شيوخ بني مرين ببلاد المغرب، الذين عيّنوه كاتب السر لديهم، ولما سافر إلى الأندلس أكرمه أبو عبد الله بن بني الأحمر، وقدم على صاحب قشتالة، وأمير قسطنطينية، وتولى منصب كبير الأمناء لصاحب تلمسان، ولما سافر إلى مصر قام في المسجد الأزهر يدرس به الفقه المالكي، وتولى قضاء مصر سنة (٧٨٦هـ) على المذهب المالكي، وظل بها يعمل مدرساً وقاضياً ومؤرخاً وأديباً فترة طويلة من الزمن، ولابن خلدون كثير من المؤلفات العلمية من أهمها: كتابه في التاريخ المسمى «تاريخ ابن خلدون»، ومقدمته التي تعدّ أساس ویدایة علم الاجتماع والعمران وعليها قامت عدّة أبحاث في العالم الإسلامي فيها بعد، وكانت وفاته سنة (٨٠٨هـ) في مصر. انظر: تاريخ فلاسفة الإسلام في

قلت: وقد رأيت اسطرلاباً من عمله عليها اسمه، وكانت غاية في الحسن، للعروض التي عملت لها صفائحها، إلا أن كواكبها كانت تحتاج إلى تحريك لطول المدة منذ عملت، ورأيت له رسالة في «المجنب والآفاقية»، كتبها بخطي لإعجابي بها، ثم غالتها يد الضياع، وغالبت عليها الأيام التي لا تستطيع.

ومنهم:

٤٠- ابن السمع: أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمع
الغرناطي المهندس

حكيم ترفع له المبار، وطبيب تدفع به المضار، قيم بتركيب الأدوية، وتفاضل التفضيل والتسوية، أحيا الله به القوى الحيوانية، وحفظ النفس الإنسانية.

سلك بنظره في الأبدان، وملك ما ليس لأحد به يدان، ونظر في تفاريق العضل، وتفاريح ما كفى من الأغذية وفضل، واستبدال بالنبض على ما وراءه، وعرف دواءه على الحقيقة وداءه، بحدس^(١) صحيح حصر حتى ضيق المجاري واتساعها، وانحطاط الدرجات في الأدوية وارتفاعها، إلى غير ذلك من أسباب في علوم، وحساب، ونجوم، وأمور كان بها يقوم.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان في زمان الحكم».

وقال صاعد: «كان محققاً لعلم [العدد]^(٢)، والهندسة، متقدماً في علم هيئة الأفلاك

الشرق والغرب محمد لطفي جمعة ص ٢٢٥، تاريخ العلوم عند العرب، فروخ ص ٤٤٢-٥١١، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٣/ ٦٥).

(١) الحدس: الظن والتخمين والتوقع.

(٢) ما بين الحاصرتين في الأصل: الأدب، والمثبت من عيون الأنباء (٣/ ١٩٠).

وحرركات النجوم، وكانت له عناية بالطب، وتواليف الحساب.

وقال: «أخبرني تلميذه أبو مروان الناشئ المهندس أنه توفي بغرناطة»^(١).

ومنهم:

٤١- أبو الحكم الكرمانى:

عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي^(٢)

من أهل قرطبة. طيب لا يدق عليه غامض، ولا يشق عليه خفاء وامض، وكان مقدما في التعاليم، ومعظما في الأقاليم، وجامعا من القوى النفسانية التقاسيم، وأجاد الكلام في أحكام الطب، وإحكام ما يحتاج إليه المستطب، وعرف في القوى الطبيعية المخدومة والخدمة، والبداية والخاتمة، إلى أبرز كل خفية، وأحرز قدر الكمية والكيفية، ولم يزل يعود بملاطفته ويعود بعاطفته، حتى انتعشت به الأرواح في أجسامها، وأمنت به من انتهاب الأقسام واقتسامها، وطردت الصحة الأمراض، وقامت جواهر النفوس بالأعراض.

(١) مدينة كبيرة تقع ضمن إقليم البيرة بالأندلس بالقرب من وادي آش، وكان حبوس الصنهاجي قد حصنها وبنى أسوارها ضد هجمات النصارى على الأندلس، وحكمها من بعده بنباديس بن حبوس، وتشتهر غرناطة بالطبيعة الجذابة الرائعة، وكثرة المباني الفاخرة، والزروع والثمار والفواكه والمعادن؛ كالذهب والفضة والحديد والرصاص، وظل المسلمون يحكمونها حتى سقطت في أيدي النصارى وطرده المسلمون منها، وظلت تحت سيطرتهم إلى اليوم، انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤٥.

(٢) هو: أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي الكرمانى القرطبي، إمام في علم العدد والهندسة، والطلب، رحل في طلب العلم، وجاب المشرق والمغرب، فدخل حران وبلاد الجزيرة، ثم عاد إلى الأندلس، واستوطن سرقسطة، وله عدة أعمال طبية، وكانت وفاته سنة (٤٥٨هـ) في سرقسطة عن عمر يناهز ٩٠ سنة. انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٦٢، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٦٤/٣).

قال ابن أبي أصيبعة: «هو أحد الراسخين في الهندسة».

وقال صاعد: «إن تلميذه الحسين بن محمد المهندس المنجم قال: إنه ما ألقى أحدًا يجاريه في علم الهندسة، ولا شق غباره في فك غامضها، وتبين مشكلها واستيفاء أجزائها».

ورحل إلى المشرق، وانتهى إلى حران، وعني هناك بطلب الهندسة [والطب]^(١)، ثم رجع إلى الأندلس، واستوطن ثغر سرقسطة^(٢)، وأدخل معه «رسائل إخوان الصفا»^(٣) [ولا نعلم أحدًا أدخلها الأندلس قبله، وله عناية بالطب]^(٤) ومجربات فاضلة فيه، ونفوذ مشهورة في الكي والقطع، والشق، والبط، وغير ذلك من أعمال الطب، ولم يك بصيرًا بالنجوم ولا بالمنطق^(٥).

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) مدينة أندلسية شهيرة، تشتهر بالسياحة، لإحاطتها بالبحر من كل الجهات، بها حمامات وديار كثيرة، وبها كثير من الأراضي الخصبة الرائعة، فتحها أسد بن الفرات القاضي الفقيه من قبل زيادة الله الأغلب أمير المغرب، في عشرة آلاف جندي ففتحها ولكنه ما لبث أن استشهد بها، ودخلها قائده جعفر بن محمد التميمي، أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن يعقوب سنة (٢٦٤هـ) بعد أن حاصرها، وقتل معظم المقاتلين بها. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٣١٧.

(٣) رسائل إخوان الصفا من تأليف جماعة سرية إسماعيلية، وقد عُرِفَت هذه الرسائل في منتصف القرن السابع الهجري، وعددها إحدى وخمسون رسالة بالإضافة إلى الرسالة الجامعة التي اشتملت على خلاصة ما جاء في هذه الرسائل من أفكار، وقد ظهرت في البصرة، وتنقسم هذه الرسائل إلى أربعة أقسام:

- قسم الرسائل التعليمية والرياضية والمنطقية، ويتكون من أربع عشرة رسالة.
- قسم الرسائل الطبيعية وعلم النفس، ويتكون من سبع عشرة رسالة.
- قسم الرسائل الماورائية، ويتكون من عشر رسائل.
- قسم الرسائل الناموسية الإلهية والفلكية، ويتكون من إحدى عشرة رسالة.

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء لمقتضى السياق.

(٥) عيون الأنبياء (٣/ ١٩٥، ١٩٦).

ومنهـم:

٤٢- ابن وافد^(١)

بيت حكمة، ونبت حشمة، ورئيس طب، ومنية محب، عنيت الدول برفع أخصه، ودفع منتقصه، وقدمته باستحقاقه لأن يكون مقدمًا، ويسدد رأيه ليفوت السمهي مقومًا، فلهذا كان مجاريه لا يقدر له على الحاق، وحاسده -ولو كان البدر- لا يرى إلا في المحاق، بلطف لو سحب رذنه الروض لأبهج زقيقه، أو الأصيل المعتدل لشفاه، وما صح من النسيم سقيم، لم تمد يد إلى مجاذبته، ولا طمع في مجانبته.

قال ابن أبي أصيبعة: «هو الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي، أحد أشراف أهل الأندلس، وذوي السلف الصالح منهم، والسابقة القديمة فيهم، عني عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها، ومطالعة كتب أرسطو وغيره من الفلاسفة وتعلقلها».

قال صاعد: «وغمهر في تعلم الأدوية، وصنّف فيه كتابًا جليلًا لا نظير له، جمع فيه ما قاله ديسقوريدس^(٢) وجالينوس في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب».

(١) هو: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير أو (عبد الكريم) بن وافد بن مهند اللخمي، من أهل قرطبة، طبيب مشهور، ولد سنة (٣٨٩هـ) وتوفي سنة (٤٦٧هـ)، وكان يعتني بقراءة كتب جالينوس وأرسطوطاليس، وغيرهما من الفلاسفة، وكان ماهرًا في علم الأدوية المفردة، كما قام بترتيب كتاب جالينوس في الأدوية المفردة، وله من المؤلفات: كتاب الوسادة في الطب، وكتاب الأدوية المفردة، ومجربات في الطب، وكتاب تدقيق النظر في خلل حالة البصر، ورسالة في الطب، وكتاب المغيث. انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٢/ ٢٦٧)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٥٢، معجم الأطباء لأحمد عيسى ص ٢٦٣، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/ ٥٦٢).

(٢) هو: ديسقوريدس، أو صاحب النفس الزكية، أو الحكيم الحشاشي، طبيب يوناني، من أهل عين زرية، ترجم العديد من كتب أبقرط، وله في الأدوية المفردة عدة كتب منها: الحشاش والنباتات،

قال: «وأخبرني أنه عانى جمعه وترتيبه وتصحيح ما تضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها، وتفصيل قواها، وتحديد درجاتها، نحوًا من عشرين سنة، حتى كمل موافقًا لغرضه، مطابقًا لبغيته، وله في الطب منزع لطيف، ومذهب شريف»^(١).

كان لا يري التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية، أو كان قريبًا منها، ثم إذا اضطر إلى الأدوية لا يرى التداوي بالمركب ما أغنى المفرد، فإن اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب، بل يقتصر على أقل ما يمكنه منه، وله نوادر محفوظة وغرائب مشهورة في الإبراء من العلل الصعبة، والأمراض المخيفة بأيسر العلاج.

واستوطن طليطلة^(٢)، وكان أيام ابن ذي النون^(٣)»^(٤).

كما فسر له ابن جلجل كتابًا في بغداد في عهد الخليفة المتوكل، وترجم له كثير من العلماء الآخرين عدة مقالات نافعة. انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٢٦، طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ٢١.

(١) في عيون الأنباء: نبيل.

(٢) مدينة كبيرة من مدن بلاد الأندلس، وهي تعتبر مركز تجمع بلاد الأندلس كلها، وتقع بالقرب من قرطبة وبلنسية وألمرية، وهي مدينة ذات حصون منيعة؛ لأنها كانت عاصمة ملك الأندلس قبل الفتح الإسلامي لها، وتقع على ضفة نهر كبير، وبها حدائق كثيرة، وقصور وزروع وفيرة، ويكثر بها استخراج المعادن؛ كالذهب والدر والياقوت والفضة، وغيرها من مختلف ألوان المعادن، وكان طارق بن زياد قائد جيوش موسى سنة (٩٣هـ) قد افتتحها من أيدي القوط، وظلت في أيدي المسلمين عدة دهور من الزمن حتى توالى هزائم المسلمين بالأندلس سنة (٤٧٨هـ)، وأخذها النصارى. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٣٩٣.

(٣) هو: الأمير موسى بن ذي النون بن سليمان، أحد أمراء الأندلس بعد وفاة والده ذي النون، وكان أميرًا على بعض نواحي قرطبة، فلما توفي والده، ظهر النفاق في البلاد، وظهرت الثورة وأصاب الأندلس مجاعة كبيرة، وكان الأمير موسى بن ذي النون قد خلع الطاعة للأمير عبد الله بن محمد ملك البلاد ودخل في الفتنة، وقام موسى بن ذي النون بالاستيلاء على طليطلة واستوز عليها، مما أدخله في خطوب كثيرة. انظر: المقتبس من علماء أهل الأندلس لابن حيان القرطبي ص ٣٤١.

(٤) انظر: طبقات الأمم ص ١٩٥، ١٩٦، وعيون الأنباء (٣/ ٢٣١، ٢٣٢).

ومنهم:

٤٣- محمد بن يوسف المنجم^(١)

أديب غلب عليه التنجيم، وعلا قدره فما حصر بالتقويم، وسير الشهب حتى صورها من توليد خاطره، وصيرها على لسانه بدلاً من ناظره، وحيرها حتى وقفت له فأصبحت قريحته منها متخيرة، وأظلمها بالألاء أنواره فظلت متخيرة.

قال ابن رشيق^(٢): «شعره صحيح البناء، ملتئم الأجزاء، ملموم الشواء، يجيء كأنه قطعة واحدة.

(١) هو محمد بن يوسف المنجم، شاعر جيد البناء، يغلب عليه التنجيم كوالده، ومن جيد شعره قوله:

لو طبع الله الحسين بن عسكر على الخلق الفضااض والكرم المحضن
فتى الدهر متلاف لكل ذخيرة سباحاً وجوداً سالم الدين والعرض

أنموذج الزمان لابن رشيق ص ٣٢٧، الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٥/٢٤٨).

(٢) هو: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، أحد أعلام الأدب وعلوم اللغة في القرن الخامس الهجري، ولد في مدينة المحمدية (المسيلة) ببلاد المغرب العربية سنة (٣٩٠هـ)، لأب يعمل في صياغة الذهب، ثم ما لبث أن تحول عنها إلى الأدب وعلوم اللغة، ورحل ابن رشيق القيرواني بالأندلس لتقلي العلم بها، فتعلم على كبار علمائها في ذلك الوقت؛ منهم: أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي، وأبو عبد الله عبد العزيز بن سهل الخشني، وعلى أبي عبد الله محمد بن جعفر النحوي الفزاز، وإبراهيم بن علي بن غنيم، وغيرهم، وكانت له مكانة عالية في ديوان المعز، واستعمله في المراسلات والمكاتبات، وعينه في وظيفة الكاتب المختص بأمور الجيش، وله من الكتب: العمدة، وقراصنة الذهب في نقد أشعار العرب، وكانت وفاته سنة (٤٦٣هـ). انظر: أنموذج الزمان لابن رشيق - المقدمة.

غلب عليه التنجيم كأبيه، وكتب ليعلی بن فرح^(١)، ثم لولده بعده، وامتدح نصير
الدولة مرات، وأورد من شعره: [الطويل]
لعمري لئن كنا حليفي صناعة
فقل للذي استهزا بنا في فعاله
سيغسل عني الماء فعلك كله
تدبّ على الأعضاء منه عقارب
فإن كان ذا عرض تلوح كلومه
ومنهم:

٤٤- أبو بكر ابن باجة: ابن الصايغ^(٢)
واسمه: محمد بن يحيى الأندلسي

أديب رمي من حائق، وبلي بحارق، ولم يقنع صاحب «القلائد»^(٣) بأن يضع عليه

(١) هو: يعلى بن فرح، وقيل: فرح، وليس له ذكر في المصادر كلها، وكان يغلب عليه التنجيم. انظر:
أنموذج الزمان لابن رشيقي القيرواني ص ٣٢٧.

(٢) أرقام: جمع أرقام وهو ذكر الحيات وأجنتها.

(٣) هو: أبو بكر محمد بن يحيى بن الصايغ السرقسطي، فيلسوف وشاعر من فلاسفة الأندلس، كان
يضرّب به المثل في الذكاء، وكان عالماً بالطب والموسيقى، والفلك والرياضيات، وكان ابن باجة
عفيف النفس، حسن الأخلاق، يجيد الضرب على العود، ويهوى الموسيقى ويعزفها جيداً، له العديد
من المؤلفات العلمية؛ منها: كتاب التجربتين، شرح آراء أرسطو، كتاب اختصار الحاوي في الطب
للرازي، كلام في المزاج بما هو طبي، وغير ذلك، وكانت وفاته سنة (٥٢٥هـ / ١١٣٠م). انظر:
مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٢/ ٤٤٣)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي
(٤/ ١٠٣)، الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٢/ ٢٤٠).

(٤) كتاب قلائد العقيان لابن خاقان المتوفى سنة (٥٣٥هـ).

سمة الفاسق، ذكره ويا بشس ما جاء به في سوق النافق! قال فيه: رمد جفن الدين، وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفًا وجنونًا، وهجر مفروضًا ومسنونًا.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان علامة في وقته في العلوم الحكمية، وبلي بمحن كثيرة وشناعات سيئة، وقصدوا هلاكه مرات، [وسلمه الله منهم، وكان متميزًا في العربية والأدب]، وكان حافظًا للقرآن، [ويعد من الأفاضل في صناعة الطب، وكان متقنًا لصناعة الموسيقى، جيد اللعب بالعود]»^(١).

وقال ابن الإمام: «كان ذا ثقابة الذهن، ولطف الغوص على تلك المعاني الشريفة الدقيقة، أعجوبة دهره، ونادرة الفلك في زمانه».

«وكان من أجلّ نظار وقته، ثم أضرب عن النظر ظاهرًا لما لحقه من المطالبات في دمه بسببه، وأقبل على العلوم الشرعية، فرأس فيها وزاحم، لكنه لم يلح عليه ضياء هذه المعارف، ويشبه أنه لم يكن بعد أبي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم، فإذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالي - وهما اللذان فتح عليها بعد أبي نصر بالمشرق في فهم تلك العلوم، ودونها فيها - بان لك الرجحان في أقاويله، وحسن فهمه، والثلاثة أئمة دون ريب».

وأنشد له الفتح في «القلائد»^(٢) قوله: [البسيط]

يا شائقي حيث لا أسطيع أدركه	ولا أقول غداً أغدو فألقاه
أما النهار فليلي ضم شملته	على الصباح فأولاه كأخراه
أغر نفسي بآمال مزخرفة	منها لقاءك والأيام تأباه

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء ول مقتضى السياق.

(٢) كتاب قلائد العقيان، ص ٧٢٦.

وقوله^(١): [الكامل]

خفض عليك فما الزمان وريبه
واذهب بنفس لم تضع لتحالها
يا صاحبي لفظًا ومعنى خلته
دع عنك من معنى الإخاء ثقيله
واسمع وطارحني الحديث فإنه
خذني على أثر الزمان فقد مضى
فعسي أرى ذاك النعيم وربيه
هيهات ساوت بينهم أجداتهم
شيء يدوم ولا الحياة تدوم
حيث احتلت بها وأنت عليم
من قبل حتى بيّن التقسيم
وانبذ بذاك العبد وهو ذميم
ليل كأحداث الزمان بهيم
بؤس على أبنائه ونعيم
مرح ورب البؤس وهو سقيم
وتشابه المحسود والمرحوم

وقوله^(٢): [الطويل]

أقول لنفسي حين قابلها الردى
قري تحمدي بعض الذي تكرهينه
فراغت فرارًا منه يسرى إلى يمني
فقد طال ما اعتدت الفرار إلى الأهنى

(١) الأبيات الستة الأولى من قلائد العقيان لعدم وجودها في المخطوط، انظر: قلائد العقيان

ص ٧٣٣، ٧٣٤.

(٢) انظر: قلائد العقيان، ص ٧٣٧.

وقوله: [الطويل]

أَسْكَانَ نَعْمَانَ الْأَرَاكَ تَيْقَنُوا
وَدُومُوا عَلَى حَفْظِ الْوُدَادِ فَطَالَمَا
سَلُّوا اللَّيْلَ عَنِّي مَذْنَاءَ دِيَارِكُمْ
وَهَلْ جَرَدَتْ أَسْيَافُ بَرْقِ سَمَائِكُمْ
بَأَنْكُمُ فِي رِبْعِ قَلْبِي سَكَّانَ
بَلِينَا بِأَقْوَامٍ إِذَا اسْتَوْثَمُوا خَانُوا
هَلْ اكْتَحَلْتُ لِي فِيهِ بِالنَّوْمِ أَجْفَانُ
فَكَانَتْ لَهَا إِلَّا جَفَوْنِي أَجْفَانُ

ومنهم:

٤٥- المبشر بن فاتك^(١) وهو:

الأمير محمود الدولة أبو الوفاء الآمري

طبيب لو جس نبض البرق لما اختلف، أو لاطف ما ينافر من الطبائع لا تلتف،
أعرف باختلاف الفروق من الخيال بالطروق، وأهدى إلى معالجة الداء الدوي من الطفل
إلى الثدي، لو عالج النار لخمدها، أو البحار لجمدها، أو شكت إليه الفراقد^(٢) طول
السهر لرد عليها غمضها، أو السحب المتصيبة من الرخصاء^(٣) لأزال ممضها.

تيسرت على يديه الممتنعات، وأمنت بحسن طبه التبعات، إلا أن أدواء المنية أعيته،
وطوارق الأجل بيته، فلم يجد لداء منيته طباً، هذا مع ما كان له من أسلاف وإمرة،
وبيت كم لمعتقيه من طواف به وعمره، لكنه لم يدفع عنه زمره، ولا تجلت عنه غمره.

ذكره ابن أبي أصيبعة، قال: «كان من أعيان [أمراء] مصر، وأفاضل علمائها،
[دائم الاشتغال]^(٤) بحب للفضائل، والاجتماع بأهلها، واجتمع بجلّة من الحكماء، وأهل
الطب، وأخذ عنهم، وكانت له خزائن كتب، وكان في أكثر أوقاته إذا نزل من الركوب
لا يفارقها، وليس له دأب إلا المطالعة والتعليق، يرى أن ذلك أهم ما عنده، فلما مات
عمدت زوجته إلى الكتب فألقته في بركة ماء كبيرة كانت في وسط الدار.

(١) انظر: ترجمته في أخبار الحكماء ص ١٧٦، عيون الأنباء (٣/ ٤٠٠، ٤٠١).

(٢) الفراقد: النجوم المتلألئة في السماء التي يستضاء بها.

(٣) الرخصاء: العرق الذي يكون بعد الحمى.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء لمقتضى السياق.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء لمقتضى السياق.

ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها، وإنما فعلت ذلك لحنقها على الكتب، لكونه كان يتشاغل بها عنها»^(١).

ومتهم:

٤٦- الحفيد أبو بكر^(٢) محمد [بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن أبي بكر محمد بن مروان بن زهر الأيادي الأندلسي الإشبيلي]^(٣)

فاضل متميز، وكامل إلى الأطباء متحيز، أخذ من كل علم يحظ وافر، وحق ما الفائز به إلا ظافر، وكان يقيس الأمور بأنظارها، ويجوزها من سائر الأضراف باستحضارها، فأطل على ربواتها، وأطلع على هفواتها، حتى كاد يعرف نبض البرق في اختلافه، ويحيط علمًا بكل موافق وخلافه، هذا إلى آداب ترق، ويهب لطفها النسيم ويسترق، ومات وفي يده أزمة الطب، وذهب هو والمستطب، ولم يدفع عن حوائثه^(٤) تلك

(١) عيون الأنباء (٣/١٠٠، ٤٠١) ذكر ابن أبي أصيبعة أن من كتب المبشر بن فاتك: كتاب الوصايا والأمثال، وكتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم، وكتاب البداية في المنطق، وكتاب في الطب.

(٢) هو: أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الإشبيلي، من أشهر أطباء الأندلس وعلماؤها، تعلم على يد جده، ووالده، وتعلم عليه ابن دحية وغيره، وكان على دراية وعلم بالأدب والشعر واللغة، يجيد لعب الشطرنج، ويحب الرياضة، وحفظ القرآن الكريم صغيرًا، وروى الحديث النبوي الشريف، عاش في بلاد الأمير يعقوب بن يوسف المنصور، أمير الموحدين، وقرّبه منه، حتى حسده الحاسدون، فدسوا له السم فتوفي سنة (٥٩٦هـ/١١٩٩م)، وتنسب له رسالة في علم طب العيون. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١/٣٢٤)، الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٤/٣٩)، مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٢/١٧٨)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٣/١٠٩).

(٣) ما بين الحاصرتين في الأصل: محمد بن زهر، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) حوائثه: الحوب بالضم والحاب بالفتح؛ أي الإثم. مختار الصحاح مادة (حَوَب).

المعارف، ولا زادت من حينه الأجل المشارف، فاستوطن التراب مخلياً للتراب، ومخلياً للسرب، فأها ثم آها، وويلاه لحسرات لا تتناهى، كيف يأفل مثل قمره؟ وكيف ينقضي طيب سمره؟ وكيف يذهب مثله من العلماء، ويذهب من بين نجوم السماء، وطالما جلا الدجى، وأنهج طرق الحجا، وامتدت نحوه أيادي الخلفاء، واعتدت له حسن الوفاء، وثنت العلياء له الوسائد، وأخدمته الأيام والليالي ولائند.

قال ابن أبي أصيبعة فيه: هو الإمام، الوزير، الحكيم، الأديب، الحسيب، الأصيل.

مولده بمدينة إشبيلية^(١)، ونشأ بها، وتميز في العلوم، وأخذ الطب من أبيه وباشر أعمالها، وكبر، ولم يتغير عليه سوى ثقل السمع.

حفظ القرآن الكريم، وسمع الحديث الشريف، واشتغل بالأدب، وأتقن اللغة، وقال الشعر وأجاد في الموشحات، وكان متين الدين، ملازماً للأمور الشرعية، قوي النفس، له جرأة في الكلام، ولم يكن في زمانه أعلم منه بالطب.

لازم عبد الملك الباجي^(٢) سبع سنين يشتغل عليه، وقرأ «المدونة»

(١) مدينة أندلسية قديمة تقع على الجانب الغربي من الأندلس، يحيط بها مملكة غرناطة من الغرب، وقرطبة من الشمال الغربي، ويشرف عليها وادي الشرف، ويقضها نهر الوادي الكبير، وكان الرومان قد بنوا أسوارها وحصنوا حصونها، واستقروا بها فترة من الزمن، حتى هزموا أمام القوط، سنة (٤٤١م)، وأصبحت عاصمة ملك القوط حتى دخلها المسلمون سنة (٩٤هـ/٧١٣م)، على يد القائد المسلم طارق بن زياد من قبل موسى بن نصير القائد الأموي، واستقر المسلمون بها، واتخذها موسى بن نصير عاصمة له، لموقعها القريب من البحر المتوسط، مما يسهل له الاتصال المباشر بإماراته في بلاد المغرب العربي ولقربها من مقر الخلافة الإسلامية. انظر الروض المعطار للحميري ص ٥٨، معجم ما استعجم للبكري (١/١٠٧).

(٢) هو: عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة اللخمي، المعروف بالباجي، ويكنى بأبي مروان، من أهل إشبيلية، إمام محدث، وكان يروي عن أبيه، وعمه أبي عبد الله محمد، وأبي عمر أحمد، ابن عمه أبي محمد عبد الله بن علي بن محمد، وغيرهم،

لسحنون^(١) في مذهب مالك^(٢)، ومسند ابن أبي شيبة^(٣)، و[حدثني أيضًا القاضي أبو مروان الباجي عن أبي بكر بن زهر أنه كان شديد البأس]^(٤) يجذب قوسًا وزنه مائة وخمسون رطلًا بالإشبيلي، ورطلها مائة وستون درهمًا، وكان جيد اللعب الشطرنج.

وخدم المثلثين، والموحدين، وبقي إلى أيام عبد الله الناصر بن المنصور يعقوب،

وكانت وفاته في رجب سنة (٥٣٢هـ)، ومولده سنة (٤٤٦هـ). انظر: كتاب الصلة لابن بشكوال (٣٦٦/٢).

(١) هو: عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه المالكي المعروف، صاحب المدونة في الفقه المالكي (ت ٢٤٠هـ). انظر: وفيات الأعيان (٤٩/٢).

(٢) هو: أبو عبد الله مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث، شيخ الإسلام، صاحب المذهب المالكي في بلاد المغرب العربي، روى الحديث الشريف على ابن شهاب الزهري، وعن والده أنس بن مالك، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وعامر بن عبد الله بن الزبير، وابن المنكدر، وغيرهم، وروى عنه كثير من العلماء والمحدثين ممن لقيه ومن لم يلق؛ منهم: عطاء الخراساني، ومحمد بن أبي بكر بن أبي صعصعة، ومحمد بن يحيى بن حبان، والسرور بن رفاع، وأبو سهيل نافع بن مالك، وهب بن كيسان، وهشام بن عروة، وأبو بكر بن نافع، ويزيد بن أبي زياد والمثنى، وموسى بن عقبة، وقطن بن وهب، وغيرهم كثير، ومن أشهر كتب مالك: الموطأ في علم الحديث. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٨/٨)، تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (٥/١٠)، صفة الصفوة لابن الجوزي (١٧٧/٢).

(٣) هو: الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان بن خواستي، إمام محدث، ومفسر كوفي، طلب العلم صغيرًا، وتعلم على كبار علماء عصره؛ منهم: شريك بن عبد الله القاضي، ويحيى بن معين، وإسحاق بن راهويه، زملاء له، وكذلك أحمد بن حنبل، وروى عنه كثير من كبار العلماء مثل: عبد الله بن المبارك، وجريز بن عبد الحميد، وخلف بن خليفة، وسفيان بن عيينة، وإسماعيل بن عياش، وإسماعيل بن علي، ويحيى القطان، وغيرهم، له من المؤلفات: مسند ابن أبي شيبة، والمصنف، والتفسير. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢٢/١١)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبل (٨٥/٢).

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء (٢٩٣/٣).

ومات بمراكش^(١).

وحُكي أنه كان له صديق يلعبه الشطرنج، فرآه يوماً منقبضاً، فسأله عما به، فأخبره أن له بنتاً زوجها من رجل، وأنه يحتاج في جهازها إلى ثلاثمائة دينار.

فقال له: العبد، وما عليك، فإن عندي ثلاثمائة دينار إلا خمسة، واستدعى بها فأعطاهما له، فلما كان غير بعيد أتاه الرجل بالذهب، فقال له الحفيد ابن زهر: ما هذا؟ قال: بعت زيتوناً لي بسبعمائة دينار، وقد أتيتك منها بثلاثمائة إلا خمسة، عوض ما أقرضتني، وقد بقيت عندي البقية. فقال الحفيد: خذ إليك فإني ما أعطيتك على أني أعود فيه.

فقال له الرجل: لا تفعل فإنني في سعة. وترداداً، فقال له ابن زهر: أنت عدوي أو صديقي؟ قال: بل صديقك، وأحب الناس فيك. فقال: إن الصديقين مالهما واحد، فخذ، فإن لم تفعل عاديتك بسببه. فأخذه وشكر له.

قال القاضي أبو مروان الباجي: وكان المنصور قد قصد أن لا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة باقياً في بلاده، وأباد كثيراً منها بإحراقها بالنار، وشدد في أن لا يرجع أحد يشتغل بشيء منها، وأنه متى وجد أحداً ينظر في العلم، أو وجده عنده شيئاً من الكتب المصنفة فيه فإنه يلحقه ضرر عليه، ولما شرع في ذلك جعل أمره مفوضاً إلى الحفيد أبي بكر بن زهر، وأنه الذي ينظر. وأراد الخليفة أنه إن كان عند ابن زهر شيء من كتب المنطق

(١) من أشهر بلاد المغرب العربي، بناها الأمير يوسف بن تاشفين سنة (٤٧٠هـ)، وتقع في منطقة مستوية من الأرض ليس حولها جبال، بالقرب من مدينة أغمات، وكانت ملك أهلها، فاشتراها منهم الأمير يوسف بن تاشفين، وعندما قُضي على دولة بني تاشفين، حكمها عبد المؤمن بن علي، وظل بها أحفاده حتى قُضي على دولتهم ابن تومرت المريني سنة (٦٩٦هـ)، وكانت مراكش في عهدهم حاضرة بلاد المغرب كلها، كثيرة الأبنية والحدائق، كثيرة التجارة، وداراً للعلم والعلماء والشعراء من كل مكان.

والحكمة لم يظهر، ولا يقال عنه إنه يشتغل بها، ولا يناله مكروه بسببها. ولما نظر ابن زهر في ذلك وامتلأ أمر المنصور في جمع الكتب من عند الكتبيين وغيرهم، وأن لا يبقى شيء منها، وإهانة المشتغلين بها.

كان بإشبيلية رجل من أعيانها يعادي الحفيد ويحسده، وعنده شر عظيم، فعمل محضراً في أن ابن زهر دائم الاشتغال بهذا الفن والنظر فيه، وأن عنده شيئاً كثيراً من كتبه، وجمع فيه شهادات كثيرة، وبعث إلى المنصور، وكان المنصور حينئذ في حصن الفرح، وهو موضع بناه قريباً من إشبيلية، عن ميلين منها صحيح الهواء، بحيث بقيت الحنطة فيه ثمانين سنة لم تتغير من صحته، وكان أبو بكر بن زهر هو الذي أشار أن يبينه المنصور في ذلك الموضع، ويقيم فيه في بعض الأوقات، فلما كان المنصور به، وقد أتاه المحضر نظر إليه، ثم أمر أن يقبض على الذي عمله، وأن يودع السجن، ففعل به ذلك وانهزم جميع الشهود الذين وضعوا خطوطهم فيه. ثم قال المنصور: إني لم أترك ابن زهر في هذا إلا^(١) حتى من لا ينسبه أحد إلى شيء منه، ولا يقال عنه، والله لو أن جميع أهل الأندلس وقفوا قدامي وشهدوا على ابن زهر بما في هذا المحضر لم أقبل قولهم، لما أعرف في ابن زهر من متانة دينه، وعقله.

وحدثني أبو العباس أحمد بن محمد الإشبيلي قال: كان قد أتى إلى الحفيد اثنان يشتغلان عليه بصناعة الطب، فدخلوا عليه يوماً ويبدأ أحدهما كتاب صغير في المنطق، فلما نظر إليه نهض حافياً ليضربهما، وانهزما، وهو يتبعهما، ولم يرجع إلا من مسافة بعيدة، وانقطعاً عنه أياماً، ثم توسلا إليه، واعتذرا، وأظهرا التوبة مما فعلاه، فقبل عذرهما، وأذن لهما في الدخول عليه مستمرين في قراءة الطب على عادتهما، ثم بعد مرة أمرهما بحفظ القرآن، وقراءة التفسير، والحديث، والفقه، وأمرهما بمواظبة الأمور الشرعية، وآدابها وسننها، وعدم الإخلال بذلك حتي بقي ذلك لهما سجية وطبعاً وعادة قد ألفوها، ثم بعد

ذلك أخرج لها الكتاب بعينه، وقال لها: الآن صلحتما لقراءة هذا الكتاب، وغيره من أمثاله، وابتدأ في إشغالها فيه، فتعجبا من فعله - رحمه الله تعالى - وهذا يدل على كمال عقله، وتوفر مروءته.

وحدثني القاضي أبو مروان الباجي قال: كان أبو زيد عبد الرحمن بن برجان - وزير المنصور - يعادي الحفيد، ويحسده لما يرى من علو منزلته، وعلمه، فاختال عليه في سم قدمه إلى الحفيد في بيض، وكانت عنده بنت أخته، وكانت أخته وابنتها هذه عالمتين بصناعة الطب، والمداواة، ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء، وكانتا تدخلان عليساء المنصور، ولا يقبل للمنصور وأهله ولدًا إلا أخت الحفيد أو ابنتها، لما توفيت أمها، فلما أكل الحفيد وبنت أخته ذلك البيض فاتا جميعًا، ولم ينفع فيهما علاج.

قال: ولم يمت أبو زيد عبد الرحمن بن برجان إلا مقتولًا، قتله بعض أقربائه.

ومن شعره يتشوق إلى ولده: [المقارب]

ولي واحد مثل فرخ القطا	صغير تخلف قلبي لـديه
نأت عند داري فيا وحشبي	لذاك الشخصيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته	فيبكي عليّ وأبكي عليه

ومنهم:

٤٧- محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف^(١)

الإمام، العلامة، المتقن، جامع أشاتات الفضائل. لبيب مبصر، لا يخاف منه التخليط، وطبيب مكثّر لا يؤتى عليه من التخليط، أتقن العلم إتقاناً، ودرب العلم^(٢) إذ كان لا يرغب له إتياناً. هذا إلى فضل متسع، وسبق وراه كل متبع.

جد في الطلب حتى كان جذيله المحكك، وعذيقه المرجب لا يشكك.

ركان حين وخط المشيب عارضه، وأسكت معارضه أشد مما كان عارضة وأشد معارضة، فلم يمتد معه لمجادل نفس، ولا رفع رأسه نحو مناظر إلا نكس، لثاقب فكرة حط عنها قناعها، وكثر لكل قريع الخزم قراعها، فتقهقر كل متقدم عن مكانه، وعلم أن دونه ما في إمكانه. لم أر له نظيراً في مجموعته وإتقانه، واستحضاره، وإطلاعه.

كان مجيئاً في الأصول، والحديث، والفقه، والأدب، واللغة، والنحو، والعروض، وأسماء الرجال، والتاريخ، والشعر، يحفظ للعرب والمولدين، والمتأخرين.

غاية في الطب والحكمة، ومعرفة الخطوط - خصوصاً خطوط المغاربة - قد مهر في ذلك وبرع، وإذا تحدث الناس في شيء من ذلك كله، تكلم على دقائقه وغوامضه ونكتته، حتى يظن سامعه إنها أفنى عمره في ذلك الفن!

قال شيخنا العلامة قاضي القضاة أبو الحسن السبكي^(٣) - وهو ما هو -: ما أعرف

(١) انظر: ترجمته في الدرر الكامنة (٤/ ١٨١-١٨٤).

(٢) في «ف»: العمل.

(٣) هو: علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام، أبو الحسن تقي الدين السبكي، والد التاج السبكي صاحب

أحدًا مثل الشيخ ركن الدين، أو كما قال. وقد رأى جماعة ما أتى الزمان لهم بنظير بعدهم مثل الشيخ.

وحكى أبو الفتوح ابن سيد الناس^(١): أنه لما قدم إلى الديار المصرية وهو شاب، حضر سوق الكتب، وابن النحاس شيخ العربية حاضر، وكان مع المنادي ديوان ابن هانئ المغربي، فأخذه الشيخ ركن الدين، وأخذ يترنم بقول ابن هانئ: [الكامل]
فتكات لحظك أم سيوف أبيك وكثوس خمرك أم مراشف فيك

وكسر التاء وفتح الفاء والسين والفاء، فالتفت إليه ابن النحاس، وقال له: ما ذا إلا نصب كثير.

فقال له الشيخ ركن الدين -بتلك الحدة المعروفة منه والنفرة -: أنا ما أعرف الذي تريده أنت من رفع هذه الأشياء، على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة، أي: أهذه فتكات لحظك، أم كذا، أم كذا؟ وأنا الذي أقوله أغزل وأمدح، وتقديره: أأقاسي فتكات لحظك أم أقاسي سيوف أبيك، وأرشف كثوس خمرك أم مراشف فيك. فأخجل ابن النحاس، وقال: يا مولانا! فليَم لا تتصنر وتشغل الناس؟

الطبقات، ولد سنة (٦٨٣هـ) في سبك من أعمال المنوفية في مصر، وولي قضاء الشام سنة (٧٣٩هـ)، وتوفي بالقاهرة سنة (٧٥٦هـ). انظر: ترجمته في طبقات الشافعية (١٤٦/٦).

(١) هو: محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس، إمام عالم وحافظ ومحدث، وأديب بليغ، حسن الترميل، فصيح الألفاظ، كريم الأخلاق، حسن الشكل، سمع من كبار علماء عصره؛ منهم: القاضي شمس الدين محمد بن العماد، وقطب الدين بن القسطلاني، وابن طبرزد، وغيرهم من العلماء، وكانت له كثير من المصنفات العلمية؛ منها: عيون الأثر في فنون المغازي والشهائل والسير، والنفح الشذي في شرح الترمذي، وبشرى اللبيب بذكر الحبيب، وكتاب منح المدح، وله شعر جيد، وكانت وفاته سنة (٧٣٤هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٢٨٧/٣)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٤/٢٣)، الوافي بالوفيات لابن أبيك الصفدي (٢٨٩/١).

فقال -استخفافاً بالنحو، واحتقاراً له-: وأيش هو النحو في الدنيا؟ أو كما قال.

وحكى أيضاً قال: كنت أنا وابن الأكفاني، نأخذ عليه في «المباحث المشرقية»^(١)، فأبيت ليلتي أفكر في الدرس الذي نصبح نأخذه عنه، وأجهد قريحتي، وأعمل بعقلي وفهمي إلى أن يظهر لي فيه شيء أجزم بأن المراد به هذا، فإذا تكلم الشيخ ركن الدين كنت أنا في وادٍ وهو في وادٍ! أو كما قال.

وحكى المراكشي^(٢) قال: قال لي الشيخ ركن الدين: لما أوقفني ابن سيد الناس على «السيرة» التي عملها علمت فيها على مائة وأربعين موضعاً، أو مائة وعشرين -السهو مني- أو كما قال. ولقد رأيته مرات يواقف ابن سيد الناس في أسماء الرجال، ويكشف عليها، فيظهر معه الصواب.

قال أبو الصفاء: وكنت يوماً أنا وهو عند ابن سيد الناس، فقال: قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: عمل ابن الخطيب أصولاً في الدين. الأصول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم {قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد} [الإخلاص: ١-٤] فنفر الشيخ ركن الدين، وقال له: يا عرّة! عمل الناس وصنعوا وأفكروا فيك، ونهض قائماً وولى مغضباً.

قال: «وأخبرني الشيخ فتح الدين قال: جاء إليه إنسان يصحح عليه في «آمال

(١) المباحث المشرقية: أحد كتب الإمام فخر الدين الرازي المعروفة. انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة (١٥٧٧-١٥٧٨).

(٢) هو: تاج الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف بن حامد المراكشي، المولود سنة (٧٠٣هـ)، تلقى العلم على علاء الدين القونوي، وأبي حيان، وكان ضيق الخلق ولا يتحاشى من أحد، ضايقه الشيخ جلال الدين القزويني وأخرجه من مصر إلى الشام، فدرس في المدرسة المسروية، وما زال بها حتى زهد في الدنيا وفي التدريس فخلا بنفسه في منزله حتى توفي سنة (٧٥٢هـ). انظر: الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر الدمشقي (٤٥٧/١).

القالبي^(١) فأخذ الشيخ ركن الدين يسابقه إلى ألفاظ الكتاب، فبهت ذلك الرجل، فقال: لي نحو عشرين سنة ما كررت عليها.

وكان إذا أنشده أحدًا شيئًا في أي معنى كان أنشده فيه جملة للمتقدمين والمتأخرين، كأنه كان يكرر عليه تلك الليلة!

وتولى «نيابة الحكم» للقاضي المالكي بالقاهرة، ثم تركها تدينًا منه.

وقال: يتعذر فيها براءة الذمة، وكانت سيرته فيها حسنة مرضية، وكان يدرس في «المدرسة المنكشمريّة»^(٢) بالقاهرة، ويدرس الطب بالبيهارستان المنصوري^(٣)، وينام أول

(١) هو: أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم بن عبدون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان البغدادي القالي، عالم باللغة والأخبار، ولد في ديار بكر سنة (٢٨٨هـ)، ثم رحل إلى بغداد، والموصل والأندلس، وتعلم على كبار العلماء في عصره؛ منهم: أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، وإبراهيم بن عبد الصمد بن موسى الهاشمي، وأحمد بن إسحاق بن البهلول، وأبو بكر محمد بن أحمد البستبان، وابن قطن الإسكافي، وأبو سعيد الحسن بن علي بن زكريا بن يحيى العدوي، وغيرهم، وتعلم عليه أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، النحوي، وغيره، وله عدة مؤلفات منها: كتاب البارع في اللغة، وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب في الإبل وتاجها وما تصرف معها، وكتاب في حلي الإنسان والخيول وشياتها، وكان أبو علي القالي مقربًا لدى السلطان الناصر عبد الرحمن ملك الأندلس، وصنّف له ولولده عدة تصانيف، وكانت وفاته سنة (٣٥٦هـ). انظر: كتاب المقفي الكبير للمقريزي (١٠٧/٢)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٥/١٦).

(٢) وتقع بالقاهرة في حارة بهاء الدين، بناها الأمير سيف الدين منكوتر حسام الدين أحد ممالك الملك المنصور لاجين، واستكمل البناء بالمدرسة في صفر سنة (٦٩٨هـ)، وعمل بها درسًا للملكية، ودرس بها الشيخ شمس الدين محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام بن جميل التونسي المالكي، وكان بها درسًا للمذهب الحنفي وجعل الأمير منكوتر بالمدرسة خزانة للكتب، ورصد لها وقفًا ببلاد الشام، وتولى نظارتها شيوخ المذهب الحنفي بالقاهرة. انظر: الخطط المقرية للمقريزي (٣٨٧/٢).

(٣) أسسه السلطان المنصور قلاوون فيما بين القصرين، والقاهرة، في قصر للأميرة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله الفاطمي، وكان قد بدأ في إنشاء البيمارسان سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)،

الليل، ثم يستفيق وقد أخذ راحة، وقد أخذ كتاب «الشفاء» لابن سينا ينظر فيه، لا يكاد يخل بذلك.

قال الشيخ فتح الدين: «قلت له يوماً: يا شيخ ركن الدين! إلى متى تنظر في هذا الكتاب؟ فقال: إنما أريد أهتدي».

وكان فيه سامة وملل حتى في لعب الشطرنج، يكون في وسط الدنت وقد نفضه وقطع لذة صاحبه، ويقول: سئمت سئمت.

وكذلك في بعض الأوقات (يكون) في بحث وقد حرر لك المسألة، وكادت تنضج، فيترك الكلام ويمضي!

وكان حسن التودد يتودد إلى الناس ويهنيهم بالشهور والمواسم من غير حاجة إلى أحد؛ لأنه كان معه مال له صورة ما يقارب الخمسين ألف درهم، وكان يتصدق سرّاً على أناس مخصوصين، وكانت لثغته بالراء قبيحة، يجعلها همزة!

وكان إذا رأى أحداً يضر كلباً أو يؤذيه يخاصمه وينهره، ويقول له: لم تفعل هذا؟ أما هو شريكك في الحيوانية؟

وكانت به قاعات لمرضى الحميات، والرمد، والجراحة، وحالات الإسهال، والأمراض النسائية، وزوده بالمطابخ الواسعة لتجهيز الأدوية والمعاجين والأشربة والسفوفات، وعيّن له إداريين وخدم وأطباء وفراشين، وكل ما يلزم من طعام ودواء، وغير ذلك، مثل: صيدلية صرف الدواء، وجعله سبيلاً لكل من يرده من المرضى المساكين، والفقراء، ووقف عليه كثير من الضياع وغير ذلك، ومن أشهر الأطباء الذين عملوا في البيهارستان المنصوري: تقي الدين الكرمانى البغدادى، وعبد الوهاب بن محمد بن محمد بن طريف الشاوى، ومحمد بن يعقوب الشمسى، ومحمد شمس الدين القوصونى، وعلي بن محمد بن محمد بن علي الجراح، ومدين بن عبد الرحمن القوصونى المصرى، وغيرهم كثير. انظر: الخطط القرظية للمقرظى (٤٠٦/٢)، مختصر تاريخ الطب العربى لكمال السامرائى (٧٧/٢).

وكان خطه على وضع المغاربة، وليس بحسن، وسمع بدمشق سنة إحدى وتسعين وستمائة على المسند تقي الدين ابن الواسطي^(١)، واستجزته سنة ثمان وعشرين وسبعمائة بالقاهرة، باستدعاء فيه نثر ونظم، فأجاب وأجاز، وأجاد نثرًا ونظمًا.

أنشدني لنفسه إجازة: [الطويل]

جوى يتلظى في الفؤاد استعاره
ودمع هتون^(٢) لا يكف انهماره
[يحاول هذا برد ذاك بصوبه
ولوعاً بمن حاز الجمال بأسره
كلفت به بدري ما فوق طوقه
ودعصي^(٤) ما يثني عليه إزاره
غزال له صدري كناس ومرتع
ومن حب قلبي شيحه وعراره
من السمر يدي عدي الصبر خده
إذا ما بدا ياقوتة ونضاره
جرى ما بجا ماء الشباب بروضة
فأزهر فيه ورده وبهاره
يشب ضراماً في حشاي نعيمه
فيبدو بأنفاس الصعاد شراره
ويثر دمي منه نظم مؤشر

(١) هو: تقي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الواسطي الدمشقي الحنبلي، إمام فقيه، رحل في طلب العلم صغيراً من دمشق إلى الشام، ودرس لكثير من العلماء منهم كمال الدين ابن الزمكاكي، وتولى كثيراً من الوظائف العليا في البلاد؛ منها توليه مشيخة المدرسة الصاحبية، ودار الحديث الظاهرية وغيرها، وكان رجلاً فاضلاً محباً للخير ورعاً تقياً، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كانت وفاته سنة (٦٩٢هـ) ودفن بالروضة. انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی ص ٧٤، الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر الدمشقي (١/ ٣٥٧).

(٢) دمع هتون: أي غزير.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٤) الدعصي: جزء من الكتبان الرملية.

(٥) الجلتار: زهر الرمال.

يعل بعذب من برود رضابه
ويسهد أجفاني بوسنان ادعج
حكاني ضعفاً أو حكى منه موثقاً
معنى بردف لا ينوء بثقله
تألف من هذا وذا غصن بانه
تجمع فيه كل حسن مفترق
زلال ولكن أين مني وروده
وسلسال راح صد عني كأسه
دنا ونأى فالدار غير بعيدة
وحين درى أن أشد أسرى حبه

ومنها:

خلت ليالي من فقدي النوم يومها
كتمت الهوى لكن بدمعي وزفرتي
ثلاث سجلات عليّ بأنسني
أواري بنظمي في العذار وتارة
وجل الذي أهوى عن الحلبي زينة
أراحة نفسي كيف منك عذابها

كما قد حكى ليلى ظلاماً نهارة
وسقمي تساوى سره وجهارة
أمام غرام قل فيك استتاره
بمن أن تفنى القرط أسفى سنواره
ولما يقارب أن يدب عذاره
وجنة قلبي كيف منك استعاره؟

وتوفى الشيخ ركن الدين - المذكور - بالقاهرة، في تاسع ذي الحجة، سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، واعتل يومين ومضى إلى رحمة ربه الرحيم، ومولده سنة أربع وستين

وستائة، بتونس.

وله من التصانيف التي دونها: «تفسير سورة ق» في مجلدة، ولما تولى الإعبادة في المدرسة الناصرية^(١) عمل درسًا في قوله تعالى: {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مبارك} [آل عمران: ٩٦]، وعلق عليه ما أملاه في ذلك.

وكان - رحمه الله تعالى - قد قرأ النحو علي يحيى بن الفرج بن زيتون، والأصول علي محمد بن عبد الرحمن قاضي تونس.

وقدم مصر عام تسعين وستائة وسمع بدمشق من ابن الواسطي، وابن القواس، وبجدة من المحدث ابن مزيز.

(١) أنشأها الملك الناصر يوسف بن صلاح الدين يوسف بن أيوب داخل بادب الفناديس شمالي الجامع الأموي، وكانت هذه المدرسة تعرف بدار الزكي المعظم، بنيت سنة (٦٥٣ هـ) وبها أثبت ابن الخولي محضراً يتضمن أن يكون تدريس الناصرية للقاضي الشافعي، ومن أشهر من درس بها من الفقهاء والعلماء شمس الدين ابن خلكان، وشمس الدين الفارقي، والقاضي نجم الدين أبو بكر محمد ابن قاضي القضاة صدر الدين ابن سني الدولة، وكمال الدين بن الشيرازي، وابن صصري، ونور الدين الأردبيلي، وأمين الدين بن القلائس، والإمام جمال الدين بن الرهاوي، وشمس الدين الغزي، وغيرهم كثير، انظر: الدارس في تاريخ المدارس لعبد القادر الدمشقي (١/٤٥٩).

ومنهم:

٤٨- محمد بن إبراهيم المتطبب صلاح الدين

المعروف بابن البرهان الجرائحي^(١)

عالم لا يحصر بآمد، ولا يبيح البحر عنده غير ثمذ^(٢)، نظر في علوم الأوائل ووجهه ما تلثم بعذاره، ولا بعد عهده بزمان إعذاره، ففتح أطباق تلك النواويس، حتى استل علومها وسأل عليمها، ونقل إلى حفظه خبايا أسرارها، وخفايا أسفارها، وحيى به ما مات في لحود رمحها، وفات بجمود هممها، واستقل بتلك الأعباء، فحصل ما كان طالبًا، وخسن بإنفاقه ما جاء جالبًا.

قرأ الطب على ابن النفيس^(٣)، وغيره، وقرأ الحكمة، وآخر ما قرأ كتاب «الشفاء»

(١) هو: محمد بن إبراهيم بن عبد الله صلاح الدين بن البرهان الطبيب، طلب العلم صغيرًا وحفظ القرآن الكريم، وتعلم الطب على العماد النابلسي، وابن النفيس، والحديث من الدمياطي، وابن القيم، وغيرهم، وبرع في علم الطب، والنجوم، والكيمياء، والعربية، والأدب، وظل في خدمة الملك الناصر حتى توفي سنة (٧٤٣هـ). انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٣/ ٢٨٨).

(٢) ثمذ: الماء القليل الذي لا مادة له. انظر: مختار الصحاح مادة (ثمذ).

(٣) هو: علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي الخزم القرشي المشهور بابن النفيس، طبيب من أطباء القرن السابع الهجري، من قرية (قرش) من بلاد ما وراء النهر، بآسيا الصغرى، تلقى العلم صغيرًا، وبرع في علم الطب، وعمل في المارستان النوري، ثم عمل في معمل بالقاهرة، في عهد السلطان الكامل الأيوبي، وعمل بالمارستان الناصري بالقاهرة وعمل معه ابن أبي أصيبعة، وكان يتنافس كبار الأطباء في علمه ومعرفته الواسعة التي جعلته مصدر منافسة لكل من يحيط به من الأطباء والعلماء، كما عمل في أواخر حياته في المارستان المنصوري الذي بناه المنصور قلاوون في مصر، وكان ابن النفيس من المؤلفين الذين أجادوا التأليف في علم الطب، وله العديد منها مثل: كتاب الشامل في الطب، وكتاب المذهب في الكحل، وموجز القانون لابن سينا، وكتاب المختار في الأغذية، وكانت وفاته بالقاهرة سنة (٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م). انظر: مائة أوائل من تراثنا: سهيل زكار ص ٥٠٨، معجم الأطباء لأحمد

لابن سينا علي شيخنا الأصفهاني، كان يتردد إليه من القاهرة إلى الخانقاه القوصونية بالقرافة، لا يعنيه إلا القراءة عليه، ولم يزل حتى أكمله قراءة وبحثاً، واستشراحاً.

وكان طبيباً حكيمًا، فاضلاً، متفلسفاً، قائلاً بالروحانيات، له ميل إلى النجامة، ومخاطبات الكواكب، وتطلع إلى الكيمياء يتحدث فيه، ويصحح قول المتقدمين في صحتها، وحكى لي أنه كان يصحب ابن أمير يعرف بابن سنقر الرومي^(١)، وأنه كان يعملها وصحت معه طرف منها.

وكان يحكي عن هذا ابن سنقر الرومي عجائب وغرائب منها أنه عمل له فسقية معقودة في تربة له بالقرافة، لها منافس للهواء، فلما نجرت اتخذ له غذاء مركباً مما يخف مقداره، وتكثر تغذيته، ونزل إلى تلك الفسقية، وأمره بتعهده في كل أسبوع، ويجدد له الماء، وإنه بقي يتعهده كذلك، وكلما أتاه بعد أسبوع، وجده قد تزايد ضعفه عما فارقه عليه، حتى كان رابع أسبوع - قال: أو خامسه، الشك مني - آتيته فوجدته قد غارت عيناه، وخفت حسه حتى ظننت أنه قد مات، فحملته أنا وآخر كان قد أطلعه على حاله معي، وأخرجناه، ونقطنا في فمه نقطاً من الشراب، وأذكيما عنده [أغذية]^(٢) لنغذوه بها، ثم لم نزل نتعهده إلى أن نقطنا مرقة فروج في فمه، فأفاق ولم يكلمنا، ودمنا على هذا حتى كلمنا، وقال لي: لا جزاك الله خيراً! حلت بيني وبين ما حاولته من الانتقال إلى ما كنت أريد الانتقال إليه إلى خير من هذا العالم، ثم قال: أدركني بفاصد. فقلت: والله لا أفعل. فقال: يا أخي! لا تفعل، أدركني به، ولا تدع ينزل من دمي إلا ما قلّ لترى العجب.

(١) هو: أمير رومي، قدم القاهرة رسولاً، فأعلن إسلامه وأقام بالقاهرة، وكان عالماً بالنبات والعقاقير، وعلم الفلك، فعرفه الأمراء والأعيان، فجمع كثيراً من الأموال، فخضه الكامل شعبان بنفسه وظل في خدمته حتى توفي في الطاعون المنتشر في مصر سنة (٧٤٩هـ). انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٢/ ٣٢٤ - ٣٢٥).

(٢) [أغذية] وضعتها بدلاً من كلمة لم أستطع قراءتها بالمخطوط.

فأتيته بفاسد، ففصده، ولم أدعه ينزل من دمه إلا ما قل، ثم شددت يده. فقال: احفظ هذا الدم في زجاجة، وسد رأسها [حتى] لا يفسد بالهواء، ففعلت، ثم قال: ائتني بقرعة وانبيق، فأتيته به، فأداه ثم سكب ذلك الماء عليه، فاستحال فضة بيضاء! فتركه عندي إلى أن عاد إلى معهود صحته، وقويت قواه، ثم خرجنا إلى جهة الخارقانية، وكان له بها تعلق، ثم أمرني أن أذهب إلى بلبيس^(١) لأبيع تلك الفضة، وآتيته من عرضها بمأكل، فذهبت بها إلى صائغ فأريته إياها وأنا خائف وجل، لا يظهر له منها عين، فيظن أن أردت التحويل عليه فأخذها واعتبرها، فلما صحت معه سارع إلى مشتراها مني، فأخذت من الثمن شواء وحلوا وفاكهة، وغير ذلك، وفضل معي ثمان مائة وثلاثون درهما - أو كما قال - فأتيته بذلك فأكلها، ثم قال: خذ الدراهم، ولا جزاك الله خيراً لكونك تسببت في عودتي إلى تعب هذا العالم!

قلت: وكان هذا الطبيب عارفاً بالطب علماً لا عملاً، لا يحسن العلاج، ولا يطول روحه على العليل، كثير النزاقة^(٢)، عديم التلطف، كارهاً لأطباء زمانه، لا يذكر أحداً منهم ولا يذكر له إلا وذمه، وأطلق لسانه في معايبه، وكان يقول: هؤلاء اليهود قد ارتفع رأسهم، وامتثلوا فوق وسعهم على جهلهم، وقلة حاصلهم؛ يعني: «السديد الدمياطي»^(٣) و«فرج الله ابن صغير» ولا يزال يتوقد منها غيظاً وحسداً لرغبة السلطان

(١) مدينة كبيرة في الديار المصرية، بالقرب من فسطاط مصر، كان يسكنها عيسى بن الفيض، وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه قد افتتحها سنة (١٨هـ). انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (٤٧٩/١).

(٢) النزق: صاحب الفظاظة والطباع الجافة.

(٣) هو: عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف، إمام حافظ، نشأ في دمياط وولد بها سنة (٦١٣هـ)، وقيل: في تونة قريبة من تنيس، وطلب العلم صغيراً، فقرأ القرآن الكريم، وطلب علم الحديث، ورحل في طلبه إلى الإسكندرية، والشام، والجزيرة والعراق، وغيرها، وتعلم على كبار علماء عصره؛ منهم: يوسف بن عبد المعطي المخيلي، وابن الصابوني، وابن الجواليقي، وابن المقبر، والرشد بن سلمة، ومكي بن علان، وابن عساكر، وغيرهم، وله العديد من المصنفات؛ منها: كتاب

والأمراء والكبراء فيها أكثر منه، وما كان يحصل لهما من الخلع والإطلاقات، ويصل إليهما من دور السلطان والأمراء لإفراط ميل النساء إلى طبعهما، وملاطفتهما، ثم كان إذ ذمهما يقول لمن يثق به:

«وهذا إبراهيم ابن المغربي^(١) هو مادة عز هؤلاء اليهود، وكنز غناهم، وبه طاروا وحلقوا». وهذه ألفاظه بعينها.

وكان لا يأكل في اليوم واللييلة إلا أكلة واحدة، مؤقتة من الظهر إلى الظهر، وكان يحب لبن الضأن، ويكثر أكله، صحبناه مرة في بلاد الصعيد^(٢) وكان هو قد تقدم مع «طقزدمر»^(٣) إلى يوتيغ الجارية في إقطاعه، وأخبرني أنه لم يأتدم في تلك السفرة على طول أيامها بشيء غير اللبن إلا مرات يسيرة، وقال: هو غذاء صالح، وللجسم به إلف من أول

الخيل، والإسناد في حديث أهل بغداد، والعقد الثمين فيمن اسمه عبد المؤمن وغيرها، وكانت وفاته بالقاهرة سنة (٧٠٥هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي (٢/٤٠٩)، الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٢/٤١٧)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٦/١٢).

(١) هو: إبراهيم بن أبي سعيد بن إبراهيم المغربي العلاني المتطبب، طيب من أعيان القرن السادس الهجري، له كتاب: تقويم الأدوية المفردة فيما اشتهر من الأعشاب والعقاقير، وقيل: كان حيًّا سنة (٥٤٦هـ). انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٢/٤٤١)، فوات الوفيات لابن شاعر الكتبي (١/١٨٥).

(٢) هو: أعالي مصر، وكانت مركز الحضارة الفرعونية القديمة، وكان السكان في مصر القديمة يتركزون بها، ويضم الصعيد عدة من مدن كبيرة؛ منها: أسوان والأقصر، وأسيوط، وقنا، وغيرها من المدن الصغيرة، ويمر خلالها نهر النيل العظيم، وتشتهر منطقة صعيد مصر بخصب التربة ونقاء الماء وعذوبته، وكثرة المعادن بها من حديد وذهب ونحاس وفضة، وغير ذلك، كما تقوم بهذه المنطقة العديد من الصناعات في العصر الحديث منها صناعة الحديد والصلب، وقصب السكر، وصناعة تكرير البترول، ومشتقاته، كما قامت عليها العديد من المشروعات الزراعية. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٣٦١.

(٣) هو نائب قوصون أتابك العسكر في سلطنة المنصور أبي بكر الناصر محمد بن قلاوون.

زمان الرضاع، وكان أنه ينشفه ويلقي فيه طاقات من النعنع والملح ويأكله.

وكان واسع النعمة كثير المال، ومات أخوه وورث منه مالا كثيرا، فازداد ماله ضعفا على ضعفه، وكانت له متاجر إلى إخميم^(١)، وقوص^(٢)، وأسوان^(٣)، وسائر بلاد الصعيد، وكان يرى فينفسه الغضاضة لتقدم ابن المغربي عليه في رئاسة الطب، وينشكى هذا إلى أصحابه، وسأل السلطان في الإعفاء من قطعه الخدمة فقال: لا، ما نفعيك، أنت عندنا عزيز كريم، ونعرف أنه أفضل من إبراهيم -يعني: ابن المغربي- وأحق، ولكن إبراهيم صاحبنا، وله علينا حق خدمة، وطيب قلبه، فاستمر، ورأى أنه لم يبق له إلا مضافة ابن المغربي، فخطب إليه أخته فتزوج بها لقصد الاستصلاح له، لا للزواج.

وكان رجلا مسيكا، مفرط البخل، مقترا على نفسه، مضيقا عليها مع عظيم القدرة

(١) بلد من بلاد صعيد مصر، تقع بمحافظة سوهاج وتشتهر بآثارها القديمة.

(٢) مدينة كبيرة من مدن مصر، تقع في الجزء الجنوبي من الديار المصرية، في الجهة الشرقية من نهر النيل، وهي مدينة كثيرة الأسواق والتجارات والفاكهة، جيدة الهواء والماء، ويسكنها كثير من قبائل العرب مثل: قبيلة ربيعة العربية، وكانت هذه القبائل قد استقرت في مثل هذه المدن بعد الفتح الإسلامي لمصر. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤٨٤.

(٣) مدينة كبيرة في صعيد مصر بالقرب من الحدود الجنوبية بالقرب من بلاد السودان، وبها مدن كبيرة منها مدينة: إدفوا وكوم إمبو، وتقع أسوان على الضفة الشرقية لنهر النيل، وبها كثير من الآثار الفرعونية المصرية، وذلك لأن أسوان كانت مركزا للحضارة الفرعونية القديمة، وكانوا يستخدمون هذه المدينة كسوق كبير واتخذها القراعة مركزا للدفاع عن مصر من ناحية الحدود الجنوبية، ولما بدأت حركت الفتوح الإسلامية جعلها المسلمون سنة (٢١هـ) مركزا لحملاتهم التوسعية في أفريقيا، وعندما بدأت حركة الفتوح الإسلامية في السكون والهدوء قامت عدة قبائل عربية بالاستقرار في أسوان، ومن هذه القبائل: قبيلة ربيعة العربية التي عرفت فيما بعد ببني الكثر، وكانت أسوان موضع اهتمام العديد من حكام وسلاطين مصر؛ كالناصر صلاح الدين الأيوبي، وسلاطين المماليك فيما بعد، ومن أشهر الآثار الفرعونية في أسوان: المسلة الناقصة، ومعبد قديم ومقياس النيل، وغيرها من الآثار. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٥٧.

والإمكان، وكان لا يأكل إلا من الظهر إلى الظهر - كما ذكرناه - أسوأ أكل، ويلبس أردأ ملبوس، ويركب حمير الكراء، ومع هذا كان من المعدلين، يجلس مع الشهود الموقعين تحشماً لا تكسباً، وله وجاهة عند الأمراء والوزراء والكبراء والحكام، معظماً في الصدور ويشار إليه بالأنامل، ولم يصنف مصنفاً، ولا طلع له تلميذ، ولا عرف بغرابة في طبه، وعرف الدولة بما له قبل موته، وخلف أموالاً جمة ورثها السلطان عنه.

قلت: وقد كان - رحمه الله - لنا صديقاً صدوقاً، وصاحباً ملاطفاً، وكان يحدثني بدقيق أمره وجليله، ويطلعني على ما عنده من تقديم الرئيس جمال الدين إبراهيم ابن المغربي عليه، وينسبه إلى أنه يتقصد قتله واغتياله بالسم، والأمر خلاف ما ظنه، وضد ما توهمه.

ولم يكن جمال الدين ممن يخافه لمكانة جمال الدين المكيعة عند السلطان، ولكرم خلائقه وبعده من تقلد دم حرام لا سيما دم مثله، وقد كنت أقول له ليرجع عن سوء رأيه فيه وأوهامه فلا يرجع، ولا يفيد القول، ثم تزوج في آخر عمره بأخت جمال الدين على عدم حاجته بالنساء - كما يقال - وأظهر الصفاء وباطنه على كدره، واعتقد أنه لم يزل على هذا إلى انتهاء عمره.

قلت: وحكى لي أنه جلس يوماً على حانوت العطار الذي كان يجلس عنده، وطلب منه شراباً يشربه، فناولته شراباً مسموماً. قال: فلما شربته أحسست بالسم، وبدأت في علاماته، فأسرعت القيام إلى داري، وأخذت خرزة بازهر حيواني كانت عندي، وسحلتها، ثم أذبت السحالة بهاء ورد على مسن ثم لعقتها، فزالت تلك الأعراض لوقتها، ولم يمض بياض ذلك النهار حتى أكلت طعامي، ولم يُعَيَّن من دس ذلك عليه، وما أراد - والله أعلم - إلا جمال الدين ابن المغربي، وقد تقدم القول في بعد جمال الدين من ذلك.

قلت: وقد كان ابن البرهان دخل اليمن، واتصل بصاحبها الملك المؤيد داود^(١) -رحمه الله- وخدمه مدة، وحصل من جهته مالاً طائلاً، كان منه أصل نعمته، ورأس ماليته، ثم فارقه وعاد إلى مصر، وكانت كتبه لا تنقطع عنه، وصلاته تصل إليه، وكان يعرض الكتب التي ترد عليه على السلطان فيأمره بقضاء حوائجه، وكانت الكتب تتضمن طلب كتب طيبة، وعقاقير مصرية ومغربية، مما يجلب السلطان عن طلب ذلك منه، ويجهز إلى ابن البرهان ذهباً لمشتراه، فكان يتولى ذلك ويقوم في هذه الخدمة بنفسه.

قلت: ولقد قرأت كتاباً منها كله بالخط المؤيدي، ومضمونه بعد البسملة:

«كتابنا هذا إلى عبدنا المغمور ولينا العبد الشكور، الحكيم الفاضل، الجليل، المعتمد، الثقة، صلاح الدين معتمد الملوك والسلاطين، أدام الله توفيقه ومراشده، وأسعد مقاصده، نأمره عنا بتسليم عادة إنعامه من حامله، ومعها مائتا دينار مصرية مع ما معها يرسم مشترى الحوائج المطلوبة من الديار المصرية، وهو ثلاثمائة دينار، وقد اشتملت التذكرة المجهزة طيها على ذكره فيقف عليها وينجز المطلوب ويتخير، ولا يقطع مطالعته عن أبوابنا المعمورة -إن شاء الله-».

هذه صورة الكتاب ولفظه بنصه، وعليه اسمه: داود بن يوسف.

وقد ذكرت ذلك ليعلم، فقد لا يخلو من فائدة.

(١) هو: الملك داود بن يوسف بن عمر بن رسول التركماني، المؤيد هزبر الدين، ملك اليمن، كان قد تلقى العلم، وحفظ كفاية المتحفظ، ومقدمة ابن بابشاذ، وجمع الكتب الكثيرة وسمع من المحب الطبري، ودام ملكه نيلاً وعشرين سنة، وتوفي سنة (٧٢١هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی (١/٤٢٨)، الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (١/٩٩)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٦/٥٥).

ومنه:

٤٩- ابن الأقفاني^(١): محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري،
شمس الدين أبو عبد الله، السنجاري المولد والأصل، المصري الدار

حكيم تكلم في الجواهر والعرض، وعرف أسباب الصحة والمرض، وبرهن على الطب وموضوعاته، والعلاج وتبعاته، دقق في العلم حتى أوضح معالمه الوضعية، وبيّن الفرق في القوى الطبيعية، وجال نظرًا في الشريح، وقال فيه بالصريح، وذكر ترتيب الشريان على المنازل، ومكان الصاعد والنازل، بكلام جلاه وكمال مكن علاه، ولهذا ساد في أهل عصره، وعاد بالظفر من قام بنصره، وأهل مصر يظنون أنه لو لامس الماء لالتهب، أو لمس التراب لأحاله إلى الذهب.

يدّعي أن له علمًا يقلب الأعيان أسرع من إدراك العيان، لعلوم لم يضرب دونها سترًا، وبيان أتقنه: وإن من البيان لسحرا^(٢).

ذكره الفاضل أبو الصفاء الصفدي وقال: «فاضل جمع أشتات العلوم، وبرع في علوم الحكمة، خصوصًا الرياضي، فإنه في الهيئة والهندسة والحساب له في ذلك تصانيف وأوضاع مفيدة».

(١) هو: محمد بن إبراهيم بن ساعد السنجاري المصري المشهور بابن الأقفاني، ولد في سنجار وطلب العلم صغيرًا، فأتقن العلوم الرياضية والحكمة، والتاريخ وأخبار الناس وحفظ الشعر، وكان صاحب تصانيف عظيمة في الطب وغيره، ومن أشهر كتبه: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، وكتاب اللباب في الحساب، وغنية اللبيب عند غيبة الطبيب. انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني (٢/٢٧٩)، سير أعلام النبلاء (١٧/١٥١)، (١١/٥٧٦).

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... إن من البيان لسحرا» أخرجه البخاري.

وقال: «قرأت عليه قطعة جيدة من كتاب «أقليدس» وكان يحل لي فيه ما أقرؤه عليه بلا كلفة كأنها هو ممثل بين عينيه، فإذا ابتدأت في الشكل شرع هو فيسرد باقي الكلام سرّداً، وأخذ الميل، ووضع الشكل في حروفه في الرمل على التختج^(١)، وعبر عنه بعبارة جزلة فصيحة بينة واضحة، كأنه ما يعرف شيئاً غير ذلك الشكل.

وقرأت عليه مقدمة في وضع الأوفاق، فشرحها لي أحسن شرح، وقرأت عليه أول الإشارات، فكان يحل شرح نصير الدين الطوسي بأجل عبارة، وأجلى إشارة، وما سألته عن شيء في وقت من الأوقات عما يتعلق بالحكمة من المنطق والطبيعي، والرياضي، والإلهي، إلا وأجاب بأحسن جواب، كأنها كان البارحة يطالع تلك المسألة طول الليل.

وأما الطب: فإنه إمام عصره، وغالب طبه بن خواص ومفردات يأتي بها وما يعرفها أحد؛ لأنه يُغيّر كفيّتها وصورتها، حتى لا تُعلم، وله إصابات غريبة في علاجه.

وأما الأدب: فإنه فريد فيه، يفهم نُكته، ويذوق غوامضه، ويستحضر من الوقائع والأخبار والوفيات للناس قاطبة جملة كبيرة، ويحفظ من الشعر شيئاً كثيراً إلى الغاية من شعر العرب، والمولدين، والمحدثين، والمتأخرين، وله في الأدب تصانيف، ويعرف العروض والبديع جيّداً، وما رأيت مثل ذهنه توقّد ذكاء بسرعة ما لها روية، وما رأيت - فيمن رأيت - أصح منه ذهنًا، ولا أذكر.

وأما عبارته الفصيحة الموجزة، الخالية من الفضول، فما رأيت مثلها، كان ابن سيد الناس يقول: ما رأيت من يعبر عما في ضميره بعبارة موجزة مثله، انتهى.

قال أبو الصفاء: «لم أر أمتع منه، ولا أفكه من محاضرته، ولا أكثر اطلاعا منه على أحوال الناس وتراجهم، ووقائعهم، ممن تقدمه، ومن عاصره».

(١) التختج: فارسية وهي: التختة أو السبورة التي يُكتب عليها.

وأما أحوال الشرق ومتجددات التتار في بلادهم في أوقاتها: فكأنها كانت القصاد تحيي إليه، والملطفات تتلى عليه؛ بحيث إنني كنت أسمع منه ما لم أطلع عليه من الديوان.

وأما الرقي والعزائم: فيحفظ منها جملاً كثيرة، وله اليد الطولى في الروحانيات، والطلاسم وما يدخل في هذا الباب.

قال: وقرأت غلية من تصانيفه: «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد»، و«اللباب في الحساب»، و«نخب الذخائر في معرفة الجواهر»، و«غنية الليب عند غيبة الطبيب».

ومما لم أقرأه عليه من تصانيفه: «كشف الرين في أمراض العين».

قال: أنشدني لنفسه: [الكامل]

ولقد عجبت لعاكس الكيمياء في طبعه قد جاء بالشنعاء
يلقي على العين النحاس يحيلها في لمحة كالفضة البيضاء

وله تجميل في بيته وملبسه، ومركوبه من الخيل المسومة، والبزة الفاخرة، ثم إنه اقتصر وترك الخيل، وآلى على نفسه أن لا يطب أحداً إلا بيته، أو في المارستان، أو في الطريق، وهو غاية في معرفة الأصناف من الجواهر، والقماش، والآلات، والعقاقير، والحيوانات، وما يحتاج إليه البيمارستان^(١)، ولا يشتري بالبيمارستان المنصوري شيء ولا

(١) البيمارستان: كلمة فارسية الأصل، ومعناها: المستشفى، وهي مستشفى عام يعالج بها المرضى الذين يشكون من جميع الأمراض والعلل؛ كالجراحة والرمم والعقل والأمراض الباطنية، والنفسية وغير ذلك.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من استخدم البيمارستان في الإسلام عندما جعل لسعد بن معاذ خيمة في المسجد بعد إصابته في غزوة الخندق بسهم في (أكحله) وجعل رفيدة تقوم بتمريضه، وقام الوليد بن عبد الملك ببناء بيمارستان وجعل له من الأطباء، وأجرى عليه الأموال، وبدأت البيمارستانات تنتشر بعد ذلك كثيراً في العالم الإسلامي وكان من أشهر أنواعها: البيمارستان الثابت،

يدخل إليه إلا بعد عرضه عليه، فإن أجازته اشتراه الناظر، وإن لم يجزه لم يشتر البتة، وهذا اطلاع كثير وخبرة تامة؛ لأن البيمارستان يريد كل ما في الوجود مما يدخل في الطب، والكحل، والجراح، وغير ذلك.

وأما معرفة الرقيق من الممالك والجواري: فإليه المآل في ذلك، ورأيت المولعين بالصنعة يحضرون إليه ويذكرون له ما وقع لهم من الخلل في أثناء أعمالهم، فيرشداهم إلى الصواب، ويدلهم على إصلاح ذلك الفساد، ولم أره يعوزه شيئاً من كمال الأدوات، غير أن عربيته كانت ضعيفة، وخطه أضعف من مرضى مارستانه، ومع ذلك فله كلام حسن، ومعرفة بأصول الخط المنسوب، والكلام على ذلك. انتهى ما ذكره أبو الصفاء.

قلت: هذا رجل اجتمع بي، وتردد إليّ غير مرة، وجاريت الحديث كرة على كرة، وهو كما ذكره، من الحديث الممتع، المطمع، وقرأت عليه: (...) (١).

ولقد كنت ألتقط من أثناء كلامه ثمرات الحكم، وأستدل له بمجاراته على سعة الاطلاع، ووفور مدد، ورأيت له في هذا ما لم أر لأحد.

والبيمارستان المتنقل، ويشمل الأول قسمين قسم للرجال وآخر للنساء، وتكون فيه قاعة للأمراض الباطنة وأخرى للجراحة وغيرها للكحالة وغيرها للتخدير، وغير ذلك، أما البيمارستان المتنقل فيكون للحالات السريعة التي تكون الإصابة فيها بسيطة، أو أنها تحتاج للسرعة في علاجها قبل نقلها إلى البيمارستان الثابت، وعادة ما يستخدم هذا النوع في الحروب، ومن أشهر البيمارستانات في العالم الإسلامي: البيمارستان المنصوري، وبيمارستان جند يسابور، والبيمارستان العضدي، وبيمارستان القشاشين في مصر، والبيمارستان المؤيدي سنة (٨٢٣هـ)، وبيمارستان بغداد، وبيمارستان السيدة أم المقتدر على نهر دجلة، وبيمارستان ابن الفرات، وزير المقتدر بالله، والبيمارستان المقتدري في بغداد وغيرها. انظر: العلوم العملية في العصور الإسلامية، لعمر رضا كحالة ص ١٠٥-١٢٤، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب: محمد كامل حسين ص ٢٢٧-٢٣٣، مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٢/ ٧٥).

وكان يستجمل الأطباء، ويستبعد طرق معالجتهم، ويستبشع كربه وصفاتهم، ويقول: أنا أعالج المرضى بما لا يستكره، كهذه الأدوية الكريهة التي يصفها الأطباء، وأعطي القدر اليسير مما يستطاب، فيقوم مقام الكثير مما يعطونه مما لا يستطاب، ويكون ما أعطيه من نوع الغذاء وهو يقوم مقام الدواء.

وحكى لي القاضي ضياء الدين يوسف بن الخطيب^(١) أنه احتاج إلى استفراغ، فعرض ما به على الأطباء واستوصفهم، فقالوا: هذا يحتاج إلى خمسة أيام تتقدم قبل استعمال دواء. وشرعوا في وصف دواء يشتمل على عقاقير كثيرة كريهة، فلم أجد لي قابلية على ما قالوه، فقلت لابن الأكفاني، فقال: يحصل القصد، ثم أتاني ببرنية فيها شراب حامض، وقال: كلما أردت قيام مجلس العُق من هذا الشراب لعقة. قال: فلعلقت منه تسع لعقات، فقامت تسعة مجالس، وزال ما كنت أشكوه، ثم كنت في كل حين ألعق من ذلك الشراب، وكلما لعلقت لعقة قمت مجلساً لا يخالف عدد القيام عدد اللعقات، ولم يخرم معي هذا.

وحكى لي الصدر مجد الدين السلامي نحو ذلك، ومع هذا كله، وما لا يجحد من فضله لا يقول أطباء مصر إلا أنه طريقي لا طبيب! وأي حسن ما له من يعيب؟! كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه لذييم

فأما أول من استخرج الطب فرجلان:

لم يعد بعد معها كارع في لجام، ولا بعدهما إلا خالع الأجسام، جَلِّيا كل مبهم، وتجلِّيا كغرة الأدهم، فالأول:

(١) هو: أبو الطاهر الضياء يوسف بن عمر بن يوسف الزبيدي الدمشقي، وهو أبو عماد الدين داود بن عمر بن يوسف الزبيدي أبو المعالي خطيب بيت الأبار، وكانت وفاته سنة (٦٦٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٠٢/٢٣).

٥٠- اسقليبيوس^(١) بن ريوس

متطبب لا يقرن بأهل الجذ إلا إذا هزل، ولا يقرب من مطمح النجم إلا إذا نزل،
يجله من تعقله، ويجهله من ظن أنه مع البحار الزاخرة قد تمقله.

عزت إليه الحكماء طبها، وأعزت خطبها، لما أخذ عنه من علم جليل، كم أعاذ من
مندم، وصان من دم، وبَصَّر أعمى، وأثر نُعمى، وأخذ من نار سوء المزاج العاث ما
تضرَّم، حتى لم يبق جسم نحيل يتوجع، ولا أم عليل تتفجع، طب طب غير عاجز
وعلاج ولاج على العلل بردة جائز، ترفو به الأعداء ملابس صحتها، وترفل بطبه
الأصحاء في مجرور ذيل فسحتها.

قد اتفق كثير من قدماء الفلاسفة والمتطبيين على أنه أول من ذكر من الأطباء،
وأول من تكلم في الطب على طريق التجربة.

وكان يونانيًا، ولليونان جزيرة كانت للحكماء من الروم ينزلونها، فنسبوا إليها.

وقال أبو معشر: «إن بلدة من المغرب كانت تسمى: أرغس، وكان أهلها يسمون
أرغيزا، ثم سميت: أثينا، وسمي أهلها: اليونان، وكان ملكها أحد ملوك الطوائف،
وأول من اجتمع له ملك أيونيا، من ملوك اليونانيين كان اسمه أنوليوس، وكان لقبه:
دقاطر، ووضع لهم سنًا كثيرة مستعملة عندهم».

(١) تلميذ من تلامذة هرمس المصري، ومعنى اسمه البهاء والنور، وكان طبيبًا يسكن أرض الشامات
(الشام)، وكان له تلاميذ كثيرون يتوارثون العلم والطب حتى عصر أبقرط، وكان يرسل معهم إلى
كل مكان حتى وصل إلى الهند، وفارس، وبابل، فلما مرض في آخر عمره أوصى تلاميذه بكل خير.
انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جليل ص ١١، تاريخ الحكماء للشهرزوي ص ٨٠.

وقال أبو سليمان السجستاني^(١): «هو إمام الطب، وأبو أكثر الفلاسفة». قال: وينسب إليه إقليدس، وأفلاطون، وأرسطو، وأبقراط، وأكثر اليونانية. قال: وكان أبقراط هو السادس عشر من أولاده؛ يعني البطن السادس عشر.

وقال: «سولون^(٢) أخوه هو أبو واضعي النواميس».

ويقال: إن اسقليبيوس انكشف له أمور عجيبة من أحوال العلاج بإلهام إلهي، ويحكى أنه وجد علم الطب في هيكل كان لهم برومية، يعرف بهيكل أيلق^(٣)، ثم عرف به،

(١) هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، عالم، إمام، حكيم، كانت له معرفة بالفلسفة وتراجم الرجال، كان من أهل سجستان، ثم رحل إلى بغداد واستقر بها في عهد الدولة البويهية، وطلب العلم حتى أجاد فيه، وتصدر للتدريس، فقصده الرؤساء والعلماء، ويقدمه الأمراء، فكان الأمير البويهي فناخسرو يكرمه ويقدمه لديه، وكان أبو سليمان مقرباً لأبي حيان التوحيدي، وكان يجب مجالسة العلماء، والوزراء والأمراء لولا ما كان به من برص وعور في عينه، وكان يجب الاطلاع على التاريخ وأخبار الأمم البائدة، وله من المؤلفات: صوان الحكمة وهو كتاب تراجم للعلماء والحكماء، ورسالة في مراتب قوى الإنسان، وكانت وفاته سنة (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م). انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٨٥، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٣٠٣، مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٢/ ٤٦٩)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣/ ٢٠٣).

(٢) هو: سولون بن أكسكا سطيديس، حكيم يوناني قديم من أهل أثينا، وهو جد أفلاطون، وأحد الحكماء السبعة الذين كانوا في وقت واحد، وهو واضع الشرائع التي نقض فيها نواميس دراكون المارق، وله كتاب فيه الأشعار التي تحمس لخوض الحروب والتحريض على حرب الأعداء، وقيل: إنه كان لطيف الكلام، ليناً يسمع من العلماء، وسافر إلى مصر وسمع كهنتها، وسمع بها حكماً كثيرة، ويوصف بأنه كان أبيض، أشعر، أزرق العينين، مستطيل اللحية، خفيف العارضين، خيصر البطن، قوي اللسان، وتوفي وعمره ٨٧ سنة، ومن حكمه قوله: «ليكن صديقك من خالفك في الهوى وأطاعك على الرأي»، وقوله: «في العواقب يستفاد علم التجارب». انظر: تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٢٠٩.

(٣) هيكل أيلق: نسبة إلى أيلق صنو اسقليبيوس، قيل: إن أيلق كان أول حكيم تكلم في الطب في بلاد الروم والفرس.

وكان بيتًا يحجون إليه، وحج إليه جالينوس، وما يحقق ذلك أن جالينوس قال في كتابه في فينكس: «إن الله عز اسمه لما خلصني من دُيُّلة^(١) قتالة كانت عرضت لي».

حكى صاحب تاريخ الأطباء: إنه كانت فيه صورة تكلمهم عندما يسألونه.

وقال جالينوس: إن طب اسقليبيوس كان طبًا إلهيًا. وقال: إن قياس الطب الإلهي إلى طبنا قياس طبنا إلى طب الطرقات.

وقال أبقرط: إن اسقليبيوس رفع في عمود من نور. وقيل: إنه كان يستشفى بقبوره. وكان يسرج عليه كل يوم وليلة ألف قنديل، وكان الملوك من نسله، وتدعي له النسوة، وكان أولاده عالمين بالطب.

وقال أبو الوفاء المبرور بن فاتك: إن اسقليبيوس كان تلميذ هرمس، ويزعم أن هرمس هو إدريس عليه السلام. وقيل: بل كان اسقليبيوس تلميذ أغاثاديمون^(٢) المصري، ومعنى اسمه: السعيد الجدد، ويزعم أنه أحد أنبياء اليونانيين. ويقال: إن اسقليبيوس هو البادئ بصناعة الطب في اليونان، وعلم بنيّه، وحظر عليهم أن يعلموها الغرباء.

وقد خالف أبو معشر أهل هذا القول، وقال: إنه لم يكن بالمتأله الأول في صناعة الطب، ولا المبتدئ بها، بل إنه عن غيره أخذ، ولمتهج من قبله سلك، وكان يعلم الطب مشافهة، فلما تضعع الأمر على أبقرط، وقل أهل بيته، لم يأمن أن تتعرض الصناعة، فابتدأ في تأليف الكتب على جهة الإيجاز.

(١) ديلة: خُرَّاج ودُمِّل يظهر في الجوف، وهو داء خطير.

(٢) هو: شيث بن آدم عليه السلام، أو إدريس عليه السلام، وهو أول من أخذ عنه الشريعة والحكمة، وتعترف الصائبة بنبوته، ولهم كتب ينسبونها إليه، ومن أشهر كلامه: السمع والطاعة للملك الرحيم الذي استخلفه الله تعالى في الأرض ومملكه أمر البلاد والعباد.

ومن كلامه:

قوله: «من عرف الأيام لم يمهل الاستعداد».

وقوله: «كم من دهر ذمتموه، فلما صرتم إلى غيره حمدتموه، وكم من أمر أبغضت أوائله ويكي عند أواخره عليه».

وقوله: «المتعب بغير معرفة كحمار الطاحون يدور ولا يبرح».

وقوله: «فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها».

وقوله: «إني لأعجب ممن يحتمي من المآكل الرديئة مخافة الضرر ولا يدع الذنوب مخافة الآخرة».

وقوله: «أكثرنا من الصمت فإنه سلامة من المقت، واستعملوا الصدق فإنه زين النطق».

وقيل له: صف لنا الدنيا. فقال: «أمس أجل، واليوم عمل، وغدا أمل».

وأما الثاني فهو:

٥١- أيلق^(١)

ويقال له: «أيلة»، وهو تلو صاحبه، وصنو صوائبه، ومدرك وفاته، ومستدرك فواته، كم منعنا جسومًا، وقطعا الأدوية حسومًا، ولا يلقي في المجامع بشر تألق وذكر

(١) هو: أبله، وقيل: أبلن الرومي، حكيم طبائعي، وأول من تكلم في علم الطب. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جلدجل ص ١٥، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٥٢.

بالمسامع يتعلق، ولم يقتصر به دون رجاء ياس، ولا ضاق به مدى فتر في قياس.

قال ابن جلجل: «إنه أول حكيم تكلم في الطب ببلد الروم والفرس، وهو أول من استنبط كتاب الإغريقي لهيامس الملك، وتكلم في الطب، وقاسه، وعمل به، وكان بعد موسى عليه السلام، وفي زمان بذاق^(١) الحاكم، وله آثار عظيمة، شنيعة، وهو يعدل في كثرة العجائب مثل اسقليبيوس».

(١) قيل: هو براق، وقيل: بذاق. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ١٥.

ومن هنا نذكر ما وقع عليه قسم كل قسم:

فأما أهل الجانب الشرقي فمنهم حكماء العرب، والسريان^(١)، والعراق^(٢)، وما معه، والعجم، والهند، والشام، ونبدأ بحكماء العرب: أطباء العرب ممن كانوا في أول ظهور الإسلام ومن بعدهم.

فمنهم:

(١) السريان: هم شعب من الكلدانيين، وكانوا يسكنون منطقة الموصل، والنبط، وسواد العراق، والعراق، والجزيرة (ما بين دجلة والفرات) المعروفة بديار بكر وربيعة، ومصر والشام وجزيرة العرب (الحجاز ونجد وتهامة والغور واليمن)، وحضرموت وعمان، ولغتهم اللغة السريانية وهي لسان آدم وإدريس ونوح وإبراهيم عليهم السلام، ومنه خرجت اللغة العبرية والعربية. انظر: طبقات الأمم لصاعد الأندلس ص ٣٧، ٣٨.

(٢) العراق: دولة إسلامية كبرى، سميت العراق؛ لأنه مأخوذ من عراقي الدلو، وقيل: لأن أرض العراق تقع على شاطئ دجلة والفرات، وتتضمن أرض العراق قديماً، من السند إلى الري وخراسان، والديلم، ومنها الكوفة والبصرة والسواد والأهواز، وفارس وداهستان، وكانت العراق قديماً مركزاً للحضارة الفارسية، والسريانية، وكان المسلمون الأوائل قد طردوا الفرس منها، وبنوا بها المدن، وكان أول من سكنها من الخلفاء المسلمين هو الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ثم سكنها خلفاء الدولة العباسية وبنوا بها المدن الجديدة كمدينة سامراء، وجعلوا من بلاد العراق عاصمة ومستقراً لهم، وظلت بغداد العراقية هي عاصمة الدولة العباسية وخلفائها حتى تم القضاء عليها تحت وطأة الجيوش التتارية بقيادة جنكيز خان، سنة (٦٥٦ هـ). انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤١٠، معجم ما استعجم للبكري (٣/ ٩٢٩).

٥٢- الحارث بن كلدة الثقفي^(١)

طبيب العرب، وكانت له معرفة بما يحتاج إليه من مداواتها، وخبرة في طب أمراضها وأدواتها، أئتمن من نوبة البادية غصنه الفينان، وجمع إلى فصاحة العرب حكمة اليونان، ولخصت به تلك العبارات التي لا تفهم، وخلصت خلاص ابن المهلب من الأدهم.

وأخذ يعالج سكان البادية بما لا يبعد من أمزجتها، ولا يعد منه خروج عن محبتها، بما تعهده في ديارها، وتعهد به ملابس غيارها، وعمر مدة في صدر الإسلام، وسطر عدة تحفظ له من حرّ الكلام، وهو الذي تعدّه أمة العرب سابق أطبائها، وسابق أبنائها، وكفاه شكرًا أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أجرى له ذكرًا.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان من الطائف»^(٢)، وسافر في البلاد وتعلم الطب بناحية

(١) هو: أبو وائل الحارث بن كلدة بن عمر بن علاج الثقفي، المشهور بطبيب العرب، كان قد تعلم الطب ببلاد فارس، واليمن وتعلم تركيب الدواء والضرب على العود، وكان من قبيلة ثقيف العربية، فلما ظهرت الرسالة الخاتمة أسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاش في عهده صلى الله عليه وسلم بطبب المسلمين، وكذلك في عهد كل من أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وقيل: إنه توفي سنة (١٣هـ)، ولم يدرك عهد علي بن أبي طالب، وكان سعد بن أبي وقاص قد مرض فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: أين الحارث بن كلدة فإنه رجل يتطبب. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جلدجل ص ٥٤، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١١١، مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١/ ٢٣٣)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٢/ ١٣).

(٢) مدينة بالقرب من مكة، وكان يسكنها أهل ثقيف العربية، وهي إحدى القريتين التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وهي مدينة صغيرة، كثيرة المياه العذبة، وكثيرة الفاكهة، محاطة بسور عظيم يطيف بها، فسميت به، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد توجه إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الإسلام في

فارس^(١)، وتقرن هناك، وعرف الداء والدواء.

وكان يضرب بالعود، تعلمه بفارس واليمن، وبقي أيام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأدرك سلطان معاوية^(٢).

بداية الدعوة الإسلامية، عندما وجد أن أهل مكة قد أغلظوا له ورفضوا الإسلام، ولكن أهل الطائف قابله بالسخرية وأخرجوا سفهاءهم ليضربوه بالحجارة، ولم يتوقف عداءهم، بل عاهدت هوازن على حرب المسلمين بعد فتح مكة، وتقابل الجيشان في وادي حنين، فهُزم الثقفيون وأهل هوازن وسلب المسلمون نساءهم وأولادهم وأموالهم، ولم تلبث ثقيف أن أعلنت إسلامها ودخلت في طاعة خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن بعده خلفاء الأمويين والعباسيين من بعدهم. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٣٧٩.

(١) هي بلاد عظيمة، واسعة البلاد، منها مدن سابور، واصطخر، وأزدشير، وأزجان، وتبريز، وأذربيجان وغيرها من المدن العظيمة، وكان ببلاد فارس أعظم إمبراطوريات الشرق القديم وأكبرها، هي الإمبراطورية الفارسية، التي سيطرت على معظم بلاد الشرق من الصين إلى الجزيرة العربية، وما بها من قبائل حتى بلاد اليمن والحبشة، وبعد أن ظهر الإسلام رفض أهلها الإسلام وحاربوا المسلمين، فوقعت بين الطرفين عدة حروب، انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص، الذي استطاع أن يفرض سيطرة المسلمين على تلك المناطق، مما جعلهم يقبلون على الدين الإسلامي، بعد أن أحسوا ساحة الإسلام، وحسن معاملته لغيره من الأديان الأخرى. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤٣٣.

(٢) هو: أمير المؤمنين أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي، صحابي جليل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتزوج رسول الله بأخته حبيبة بنت أبي سفيان، تولى حكم الشام في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما قتل نادى معاوية بالأخذ بثأره، واستطاع أن يصل لخلافة المسلمين بعد عدة حروب مع الإمام علي - كرم الله وجهه - منها حرب صفين، وكان معاوية حليماً، حسن الشكل، جيد الهيئة، كريماً، اتسع ملكه كثيراً حتى شمل حدود بخارى من الشرق إلى القيران في الغرب، وكانت مدة حكمه كئاثب لبلاد الشام ٢٠ سنة، وخليفة ٢٠ سنة أخرى، وكانت وفاته سنة (٦٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١١٩/٣)، الجواهر الثمين في سير الملوك والسلطين لابن دهاق (٧٣/١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢١٢.

وقال له معاوية: ما الطب؟ قال: «الأزم». يعني: الجوع.

وفي الحديث: «إن عمر رضي الله عنه سأل الحارث بن كلدة: ما الدواء؟ قال: الأزم؛ يعني: الحمية.

وروي عن سعد بن أبي وقاص^(١) رضي الله عنه أنه مرض بمكة^(٢) مرضاً، فعاده رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: «ادعوا له الحارث بن كلدة فإنه رجل يطبب». فلما نظر إليه الحارث قال: «ليس عليه بأس، اتخذوا له فرقة بشيء من تمر عجوة

(١) هو: أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي، صحابي جليل من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحد قادة الإسلام العظام، كان يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروي عن كبار العلماء من الصحابة والتابعين؛ منهم: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأم المؤمنين عائشة، والسائب بن يزيد، وسعيد بن المسيب، والأحنف بن قيس، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وبشر بن سعيد، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وأبو عبد الرحمن السلمي، وغيرهم، وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قائداً من كبار قواد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الذي هزم جيوش فارس في بلاد العراق وفارس، واستطاع أن يحطم جيوشهم في عدة معارك، ومن أشهر معاركه رضي الله عنه في العراق: معركة الجسر، ومعركة القادسية التي أنهت أسطورة الجيوش الفارسية. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٩٢/١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٩٧/٣) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٩٢/١) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١/٦١) أسد الغابة لابن الأثير (٣٦٦/٢).

(٢) مدينة في شبه الجزيرة العربية، تتبع المملكة العربية السعودية في العصر الحديث، وهي اسم وادي بالجزيرة العربية، وقد شرفها الله تعالى ببناء البيت الحرام بها، وبخروج النبي صلى الله عليه وسلم من بين أبنائها، وسكنها إبراهيم عليه السلام وإسماعيل وهاجر عليهما السلام، والتف حولها العرب بعد ذلك، وأطيب ماء بالجزيرة العربية هو ماء زمزم التي نبتت تحت رجلي إسماعيل عليه السلام بها، ثم جعلها الله قبلة حجاج بيت الله الحرام والكعبة المشرفة، ومبعث نبيه صلى الله عليه وسلم. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٩٣.

وحلبة، يطبخان». فتحساها، فبرئ^(١).

وفد على كسرى أنوشروان، فلما وقف بين يديه قال له: من أنت؟

قال: الحارث بن كلدة الثقفي.

قال: ما صناعتك؟

قال: الطب.

قال: أعراي أنت؟

قال: نعم.

قال: فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها، وضعف عقولها، وسوء أغذيتها؟

قال: أيها الملك! إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها، وقيم عوجها، ويسوس أبدانها، ويعدل أمشاجها، فإن العاقل يعرف [ذلك من نفسه، ويميز]^(٢) موضع دائه، ويحترز عن الأدوية [كلها بحسن سياسته لنفسه]^(٣).

قال كسرى: فكيف تعرف ما تورده عليها؟ ولو عرفت الحلم لم تنسب إلى الجهل.

قال الحارث: الطفل يناغي فيداوى، والحية ترقى فتحاوى، ثم قال: أيها الملك!

(١) الحديث بلفظه: عن سعد، قال: مرضت مرضاً أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على فؤادي، فقال: «إنك رجل مفنود اثبت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبب، فلأخذ سبع ثمرات من عجوة المدينة فليعجنهن بنواهن ثم ليدلك بهن». انظر: سنن أبي داود، كتاب الطب، باب في ثمرة العجوة رقم (٣٨٧٥).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

العقل من قسم الله تعالى، قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم، [فكل من قسمته أصاب، وخص بها قوم وزاد]^(١)، فمنهم مثر ومعدم، وجاهل وعالم، وعاجز وحازم، وذلك تقدير العزيز العليم.

فأعجب كسرى من كلامه، ثم قال: فما الذي تحمد من أخلاقها، ويعجبك من مزاهاها وسجاياها؟

قال الحارث: أيها الملك،! لها أنفـس سخية، وقلوب جرية، ولغة فصيحة، وألسن بليغة، وأنساب صحيحة، وأحساب شريفة، يمرق من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرام، أعذب من هواء الربيع، وألين من السلسيل المعين، مطعمو الطعام في الجذب، وضاربو الهام في الحرب، لا يرام عزمهم، ولا يضام جارهم، ولا يستباح حريمهم، ولا يذل كريمهم، ولا يقرون بفضل للأنام إلا للملك الهام الذي لا يقاس به أحد ولا يوازيه سوقيه ولا ملك.

قال: فاستوى كسرى جالساً، وجرى [ماء]^(٢) رياضة الحلم في وجهه، وقال جلسائه: إني وجدته راجحاً، ولقومه مادحاً، ويفضلهم ناطقاً، [وبما يورده من لفظه صادقاً]^(٣)، وكذلك العاقل الذي أحكمته التجارب.

ثم أمره بالجلوس، فجلس. ثم قال: كيف بصرك بالطب؟ قال: ناهيك.

قال: فما أصل الطب؟

قال: الأزم.

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) ما بين الحاصرتين في الأصل: وفي لفظة صادقاً، والمثبت من عيون الأنباء.

قال: فما الأَزم؟

قال: ضبط الشفتين، والرفق باليدين.

قال: أصبت. قال: فما الداء الدوي؟

قال: إدخال الطعام على الطعام، هو الذي يفني البرية، ويهلك السباع في البرية.

قال: أصبت.

قال: فما العلة التي لا تصطلم^(١) منها الأدواء؟

قال: هي التخمّة، إن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحللت أسقمت.

قال: فما تقول في الحجامة^(٢)؟

قال: في نقصان الهلال في يوم صحو لا غيم فيه، والنفس طيبة، والعروق ساكنة، لسرور يفاجئك، وهَمٌّ يباعدك.

قال: فما تقول في دخول الحمام؟

قال: لا تدخله شبعاً، ولا تغشّ أهلَكَ سكراناً، ولا تقم بالليل عرياناً، ولا تقعد على الطعام غضباناً، وأُرفق بنفسك يكن أرخى لبالك، وقلل من مطعمك يكن أهنأ لنومك.

قال: فما تقول في الدواء؟

(١) صَلَمَ: أي استأصل، وصلم الشيء صلماً: أي قطعه من أصله. [لسان العرب: مادة صلَم].

(٢) الحجامة: أصل الحِجْم المص، والمحجَم: الآلة التي يجمع فيها دم الحجامة عند المص، والمحجم أيضاً بشرط الحِجَام. [لسان العرب: مادة حِجْم].

قال: ما لزمك الصحة فاجتنبه، فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه، فإن البدن بمنزلة الأرض إن أصلحتها عمرت، وإن تركتها خربت.

قال: فما تقول في الشراب؟

قال: أطيبه أهنا، وأرقه أمرؤه، وأعذبه أشهاه، لا تشربه صرفاً^(١) فيورثك صداعاً، ويثير عليك من الأدوية أنواعاً.

قال: فأبي اللحم أنفصل؟

قال: الجداء الرضع الفتى، والقديد المالح مهلك للأكل، واجتنب لحم الجزور والبقر.

قال: فما تقول في الفواكه؟

قال: كُلهَا في إقبالها، وحين أوانها، واطركها إذا أدبرت وولت، وانقضى زمانها، وأفضل الفاكهة الرمان والأترج، وأفضل الرياحين الورد والبنفسج، وأفضل البقول الهندباء^(٢) والخس.

قال: فما تقول في شرب الماء؟

قال: هو حياة البدن، وبه قوامه، ينفع ما شرب منه بقدر، وشربه بعد النوم ضرر، وأفضله أمرؤه، وأرقه أصفاه، ومن عظام أنهار البارد الزلال، لا يختلط بهاء الآجام، والآكام، ينزل من صراح^(٣) المسطان، ويتسلسل عن الرضراض^(١) وعظام الحصى في

(١) صرفاً: أي خالصاً من كل شيء.

(٢) الهندباء: بقلة من أحرار البقول.

(٣) صراح: مفردة؛ صردحة، وهي الصحراء التي لا تنبت، وهي غلظ من الأرض مستوي [لسان]

الإيفاع^(٢).

قال: فما طعمه؟

قال: لا يوصف له طعم، إلا أنه مشتق من الحياة.

قال: فما لونه؟

قال: اشتبه على الأبصار لونه؛ لأنه يجلو كل لون يكون فيه.

قال: فأخبرني عن أصل الإنسان ما هو؟

قال: أصله من حيث شرب الماء، يعني رأسه.

قال: فما هذا النور الذي في العينين؟

قال: مركب من ثلاثة أشياء، فالبياض شحم، والسواد ماء، والنظر ريح.

قال: فعلى كم جيل وطبع هذا البدن؟

قال: على أربعة طبائع، المرة السوداء: وهي باردة يابسة. والمرة الصفراء: وهي

خارة يابسة. والدم: وهو حار رطب. والبلغم: وهو بارد رطب.

قال: فلم لم يكن من طبع واحد؟

قال: لو تُخلق من طبع واحد لم يأكل ولم يشرب، ولم يمرض، ولم يهلك.

العرب: مادة صردح[.

(١) الرضراض: صغار الحصى.

(٢) الإيفاع: مادق وصفر من الحصى.

قال: فمن طبيعتين، لو كان اقتصر عليهما؟

قال: لم يجوز؛ لأنها ضدان يقتتلان.

قال: فمن ثلاث؟

قال: لم يصلح! موفقان ومخالف! فالأربع هو الاعتدال والقيام.

قال: فأجمل لي الحار والبارد في أحرف جامعة.

قال: كل حلو حار، وكل حامض بارد، وكل حريف حار، وكل مر معتدل، وفي المر حار وبارد.

قال: فأفضل ما عولج به المرة الصفراء؟

قال: كل بارد ولين.

قال: فالمرة السوداء؟

قال: كل حار لين.

قال: والبلغم؟

قال: كل حار يابس.

قال: والدم؟

قال: إخراجه إذا زاد، وتطفئته إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة.

قال: فالرياح؟

قال: بالحقن اللينة، والأدهان الجارة اللينة.

قال: أفتأمر بالحقنة؟

قال: نعم، قرأت في بعض كتب الحكماء: أن الحقنة تنقي الجوف، وتكسح الأدوية عنه، والعجب لمن احتقن كيف يهرم! أو يعدم الولد! وإن الجهل كل الجهل من أكل ما قد عرف مضرته، ويؤثر شهوته على [راحة]^(١) بدنه!

قال: فما الحمية؟

قال: الاقتصاد في كل شيء، فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها، ويسد مسامها.

قال: فما تقول في النساء، وإتيانهن؟

قال: كثرة غشيانهن رديء، وإياك وإتيان المرأة المسنة، فإنها كالشن^(٢) البالي، تجذب قوتك، وتسقم بدنك، ماؤها سيم قاتل، ونفسها موت عاجل، تأخذ منك الكل، ولا تعطيك البعض، والشابة ماؤها عذب زلال، وعناقها غنج ودلال، فوها بارد، [وريقها عذب]^(٣)، وريحها طيب، وهنها ضيق، تزيدك قوة إلى قوتك، ونشاطاً إلى نشاطك.

قال: فأمين القلب إليها أميل، والعين برؤيتها أسر؟

قال: إذا أصبتها! المديدة القامة، العظيمة الهامة، واسعة الجبين، أفتاة العرنين^(٤)،

(١) في الأصل: نهك، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) الشن: القرية المتهاكة.

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٤) العرنين: الأنف.

كحلأ لعساء^(١)، صافية الخد، عريضة الصدر، مليحة النحر، في خدها رقة، وفي شفثيها لعس، مقرونة الحاجبين، ناهدة الثديين، لطيفة الخصر والقدمين، بيضاء، فرعاء، جعدة، غضة بضة، تحاها في الظلمة بدرا زاهراً تبسم عن أقحوان^(٢)، وعن مبسم كالأرجوان^(٣)، كأنها بيضة مكنونة، ألين من الزبد، وأحلى من الشهد، وأنزه من الفردوس والخلد، وأذكى ريحاً من الياسمين والورد، تفرح بقربك، وتسرك الخلوة معها.

قال: فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه.

قال: ففي أي الأوقات إتيانهن أفضل؟

قال: عند إدبار الليل يكون الجوف أخلى، والنفس أهدأ، والقلب أشهى، والرحم أدفاً، فإن أردت الاستمتاع بها نهائراً تسرح عينيك في جمال وجهها، ويجتني فوك من ثمرات حسننها، ويعي سمعك من حلاوة لفظها، وتسكن الجوارح كلها إليها.

قال كسرى: لله درك من أعرابي!، لقد أعطيت علماً، وخصصت فطنة وفهماً.

وأحسن صلاته، وأمر بتدوين ما نطق به.

وقال الواثق بالله في كتابه المسمى «البستان»: إن الحارث بن كلدة مر بقوم وهم في الشمس، فقال: «عليكم بالظل، فإن الشمس تنهج^(٤) الثوب، وتنقل الريح، وتشحب اللون، وتهيج الداء الدفين».

(١) لعساء: اللعس، سواد يعلو شفة المرأة البيضاء، وقيل: سواد في حمرة وذلك يُستملح. [لسان العرب: مادة لَعَسَ].

(٢) أقحوان: نبت طيب الريح.

(٣) أرجوان: شجر له نور شديد الحمرة.

(٤) تنهج: أي تبليه.

ومن كلام الحارث: «البطنة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وعودوا كل جسد بما اعتاد». وقيل: هو من كلام عبد الملك بن أبجر^(١). وقد نسب قوم هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوله: «المعدة بيت الداء»^(٢) وهو أبلغ من لفظ «البطنة».

وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم وجهه - قال: «من أراد البقاء - ولا بقاء - فليجود الغذاء، وليأكل على نقاء، وليشرب على ظماء، وليقل من شرب الماء، ويتمدد بعد الغذاء، ويتمشى بعد العشاء، ولا يبيت حتى يعرض نفسه على الخلاء، ودخول الحمام على البطنة من شر الداء، ودخلة إلى الحمام في الصيف خير من عشرة في الشتاء، وأكل القديد اليابس في الليل معين على الفناء، ومجاعة العجوز تهدم أعمار الأحياء».

وروي حرب بن محمد قال: حدثنا أبي، قال: قال لي الحارث بن كلدة: «أربعة أشياء تهدم البدن: الغشيان على البطنة، ودخول الحمام على الامتلاء، وأكل القديد، ومجاعة العجوز».

وروي داود بن رشيد^(٣) عن [عمر بن عوف]^(٤) قال: لما احتضر الحارث بن كلدة

(١) هو: عبد الملك بن سعيد بن حيان بن أبجر الهمداني الكوفي، طبيب عالم، في دولة بني مروان، وكان نصرانيًا من العرب، تعلم الطب في مدرسة الإسكندرية، وكان قد اتصل بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، فكان الخليفة يستدعيه إلى أنطاكية، وحران ليأمرس الطب بهما، وكان البعض يرى أن ابن أبجر فيلسوفًا، وكميائيًا بالإضافة إلى أنه كان طبيبًا ماهرًا، ومن أشهر تلاميذه من مدرسة الإسكندرية الراهب ماريانوس، وما يؤثر عنه قوله: المعدة حوض الجسد، والعروق تشرع فيه، ما ورد فيها بصحة صدر بصحة، وما ورد فيها بسقم صدر بسقم. انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١/ ٢٦٥)، المأثور من كلام الأطباء لأحمد عيسى بك ص ٧، طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ٥٩، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٢/ ٢٤).

(٢) حديث: «المعدة بيت الداء» ليس صحيحًا، وهو من كلام الحارث بن كلدة.

(٣) في الأصل: عمر بن معروف، والمثبت من عيون الأنباء.

اجتمع إليه الناس فقالوا له: مرنا بأمر ننتهي إليه من بعدك. فقال: «لا تتزوجوا من النساء إلا شابة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أوان نضوجها، ولا يتعالجن أحدكم ما احتمل بدنه الداء، وعليكم بالنورة»^(١) في كل شهر، فإنها مذهبة للبلغم، مهلكة للمرء، منبئة للحم، وإذا تغدى أحدكم فليتم على أثر غدائه، وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة».

ومن كلام الحارث أيضًا: «دافع بالدواء ما وجدت مدفعًا، ولا تشربه إلا من ضرورة، فإنه لا يصلح شيئًا إلا أفسد مثله».

وقال سليمان بن جلجل: أخبرنا الحسن بن الحسين الأزدي، قال: أخبرنا محمد بن سعيد الأموي، عن عبد الملك بن عمير قال: كان أخوان من ثقيف^(٢) من بني كنه، يتحابان، لم ير قط أحسن ألفة منهما، فخرج الأكبر إلى سفر فأوصى الأصغر بامرأته، ف وقعت عينه عليها يومًا، ولم يعتمد لرؤيتها، فهو بها، وضني وقدم أخوه فجاءه بالأطباء، فلم يعرفوا ما به، إلى أن جاءه بالحارث بن كلدة، فقال: أرى عينين محتجتين، وما أدري

(١) هو أبو الفضل، داود بن رشيد الخوارزمي البغدادي، إمام حافظ ثقة، من موالي بني هاشم، سمع من شعيب بن إسحاق، وبقية بن الوليد، وإسماعيل بن علية، وهشيم بن بشير، ويحيى بن زكريا بن زائدة، وسويد بن عبد العزيز، وغيرهم، وكانت وفاته سنة (٢٣٩هـ). انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/٣٤٩)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢/٩١).

(٢) النورة: حجر الكلس يضاف إليه بعض الأخلاط الدوائية المفيدة.

(٣) قبيلة عربية كبيرة، تقع منازلها في جبال الحجاز بين مكة والطائف، ومن أشهر بطونها: النور، وثيالة، وبو سالم، وعوف، وسفيان، وغيرها، وكانت ثقيف تعبد اللات قبل الإسلام، وكان سدنها آل بني العاص بن أبي يسار بن مالك الثقفي، وقيل: إن أول من سكن الطائف كانوا قومًا من العمالق، ثم عليهم بعض بطون قيس عيلان ثم بنو عامر بن صعصعة، ثم غلبتهم ثقيف، وكانت قبيلة ثقيف قد حاربت النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فهزموا شر هزيمة، كان من أهم نتائجها: سلب المسلمين لأموالهم وسبي نسائهم وأطفالهم، وقتل معظم رجالهم، ومن ينسب لهذه القبيلة من العلماء والساسة: المغيرة بن شعبه، وأمّية بن أبي الصلت، والحارث بن كلدة، والحجاج بن يوسف الثقفي. انظر: عمر كحالة: معجم قبائل العرب (١/١٤٨).

ما هذا الوجع؟ وسأجرب، فاسقوه نبيذاً.

فلما عمل النبيذ فيه قال: [الهرج].

أَلَا رَفَقًا أَلَا رَفَقًا
أَلَا بَسِي إِلَى الْأَبِيَا
غَزَا أَلَا مَارَأَيْتَ الْيَنُو
أَسِيلَ الْخُدْمِ يَبُوب
قَلِيلًا أَلَا أَلَا
ت بِالْخَيْسِفِ أَرْزُهُنَّ
م فِي دُورِ بَنِي كُنَّه
وَفِي مَنَاطِقِهِ غُنَّه

فقالوا له: أنت أطب العرب.

ثم قال: رددوا النبيذ عليه، فلما عمل فيه قال: [بجزوء الخفيف]

أَيَا الْجَيْرَةَ أَسْلَمُوا وَقَفُوا كَيْ تَكْلُمُوا
وَتَقْضُوا الْبَانَةَ وَتَحْبُوا وَتَنْعَمُوا
خَرَجْتَ مَزْنَةً مِنْ الْبَحْرِ رِيَا تَحْمَحُمُ
هَبِي مَآكِنِّي^(١) وَتَزْ عَمِ أَنْسِي لَهَا حَمُ

قال: فطلقها أخوه، ثم قال له: تزوج بها يا أخي! فقال: لا والله! لا تزوجتها، فهايت وما تزوجها.

ومنه:

٥٣- النضر^(١) بن الحارث بن كلفة

وهو ابن خالة النبي صلى الله عليه وسلم.

طبيب أثرت به تلك البلاد المقفرة، وأثر بطبّه في أمزجة تلك الحمر المستنفرة، تبع طريق أبيه، وأضاف إلى تالد والده ظريف تأتیه، ودرب العلاج حتى كاد يبرئ الأكمه، وكان يعرف بضياء الحس، ودرس الحكمة، ولم ينفعه من جهة الأمومة الشريفة النبوية قربه، ولم يمنعه وقد قضى عليه بالبعد ربه قتل بسيف النبوة صبراً، وعُجِّل له مثوى في جهنم يسمى قبراً.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان النضر قد سافر البلاد كأبيه، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها، وعاشر الأخبار والكهنة، واشتغل، وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر، واطلع على علوم الفلسفة، وأجزاء الحكمة، وتعلم من أبيه أيضاً ما كان تعلمه من الطب وغيره».

فكان النضر يؤاتي أبا سفيان في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم لكونه كان ثقيفاً، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «قریش والأنصار حليفان، وبنو أمية

(١) هو: النضر بن الحارث بن كلفة بن عبد مناف بن عبد الدار، طبيب عربي، ابن خالة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان مشركاً يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ويزعم أنه يأتي بأخبار الأكاسرة ومحمد يأتي بأخبار عاد وثمود، وهو ليس ابن الحارث بن كلفة الطبيب المشهور؛ لأن الحارث بن كلفة لم يترك إلا بنتاً فقط، وظل النضر بن الحارث على شركه يحارب الرسول صلى الله عليه وسلم في بدر، وغيرها، حتى أسره المسلمون وقتلوه بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١٩/٢)، مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (٢٤١/١).

وثقيف حليفان»^(١).

وكان النضر كثير الأذى والحسد للنبي صلى الله عليه وسلم ويتكلم فيه بأشياء كثيرة، كما يحط من قدره عند أهل مكة، ويبتل ما أتى به - [بزعمه]^(٢) - ولم يعلم - بشقاوته - أن النبوة أعظم، والسعادة أقدر، والعناية الإلهية أجل، والأمور المقدرة أثبت، وإنما النضر اعتقد أن بمعلوماته وفضائله وحكمته يقاوم النبوة، وأين الثرى من الثريا، والحضيض من الأوج، والشقي من السعيد! وما أحسن ما وجدت حكاية ذكرها أفلاطون في كتاب النواميس، في «أن النبي وما يأتي به لا يصل إليه الحكيم بحكمته، ولا العالم بعلمه».

قال أفلاطون: «وقد كان مارينوس»^(٣) ملك اليونانيين الذي يذكره أوميرس^(٤) الشاعر باسمه وجبروته، وما تهباً لليونانيين في سلطانه، رمي بشدائد في زمانه، وخوارج في سلطانه، ففزع إلى فلاسفة عصره، فتأملوا مصادر أمواله ومواردها، وقالوا له: قد تأملنا أمرك فلم نجد فيه من جهتك شيئاً يدعو إلى ما لحقك، وإنما يعلم الفيلسوف

(١) الحديث بلفظ: «قرش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع، وغفار: موالى ليس لهم مولى دون الله ورسوله». انظر: كنز العمال (٧٠/٢) رقم (٣٤٠٤١).

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٣) هو: مارينوس ملك بلاد اليونان، رمي بكثير من الشدائد في زمانه، مما جعله يفزع إلى فلاسفة عصره، فلما تأملوا أموره، طلبوا منه أن يجمع إليهم نبي عصره ليجمعوا له النبوة والعلم معاً، فأرسلهم إلى النبي اسقلايوس فحدثت بينهم وبينه محاوراة انتهت بتنبؤ النبي بموت مارينوس الملك، فلما عادوا وجدوه كان قد توفي كما قال النبي. انظر: طبقات الأطباء والحكماء لابن جلدجل ص ١٣، ١٤.

(٤) هو: أوميرس الشاعر اليوناني، كان عالماً شاعراً، عارفاً بأنواع المنطق، وأعظم شعراء اليونان، وأكثرهم تأثيراً في الأدب الغربي على مختلف العصور، وكان باعث النهضة الحديثة في شعراء اليونان وخلق منهم أمة قوية تؤمن بدين واحد، ولغة واحدة، ونظم الإلياذة والأوديسا. انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٤٩، تاريخ الحكماء لشمس الدين الشهرزوري ص ٤٠٣.

الإفراطات وسوء النظام الواقعين في الجزء، فأما ماخرج عنه فليس تبحث عنه الفلسفة، وإنما يوقف عليه من جهة النبوة، وأشاروا عليه أن يطلب نبي عصره ليجتمع معهم مع علمهم ما ينبئ به، وقالوا: إنه لا يسكن في البلدان العامرة، وإنما يكون في الأقاليم المقفرة، بين فقراء ذلك العصر، فسألهم ما يجب أن يكون عليه رسله إليه، وما يكون دليلاً لهم عليه؟ فقالوا: اجعل رسلك إليه من لانت سجيته، وظهرت قناعته، وصدقت لهجته، وكان رجوعه إلى الحق أحب إليه من الظفر به، فإن بين من استولى عليه هذا الوصف وبينه وصلة تدلهم عليه».

أقول: ولما كان يوم بدر والتقى المسلمون ومشركو قريش، وكان عدتهم ما بين التسعمائة والألف، والمسلمون يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر، وأيد الله الإسلام، ونصر نبيه عليه الصلاة والسلام، ووقعت الكسرة على المشركين، وقتل من جملتهم صناديد قريش، وأسر جماعة من المشركين، فبعضهم استفكوا أنفسهم، وبعضهم أمر النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بقتلهم، وكان في جملة المأسورين النضر بن الحارث بن كلدة، فقتله عليه الصلاة والسلام بعد منصرفه من بدر.

ومنهم:

٥٤- عبد الملك بن أبجر

وهو من أفاضل الأطباء، وأماثل الألباء، وأهل العلم النافع، والتميز بين المضار والمنافع، لقي حكماء المدن المصرة، واستضاء بتلك الفطن المبصرة، وأقام بين أهل الكتاب الأول، ثم خالط النصارى، وخالل منهم أنصاراً وقدم بينهم في شرائف الرتب ووظائف الحكمة التي عنها يكتب، ولازم الطلب حتى مهر، وداوم الاكتنان بيت التدريس حتى ظهر.

قال ابن أبي أصيبعة -وقد ذكره-: (كان طبيباً، عالماً، ماهراً، وكان أول أمره مقبلاً

بالإسكندرية؛ لأنه كان المتولي على التدريس بها من بعد الإسكندرانيين الذين تقدم ذكرهم. وذلك عندما كانت البلاد في ذلك الوقت لملوك النصارى، ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد، وملكوا الإسكندرية، أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز^(١)، وكان حيثنأ أميراً قبل أن تصل إليه الخلافة، وصحبه، فلما أفضت الخلافة إلى عمر - وذلك في صفر سنة تسع وتسعين للهجرة - نقل التدريس إلى أنطاكية، وحران، وتفرق في البلاد، وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر، ويعتمد عليه في صناعة الطب.

وروي عن ابن أبجر قال: «دع الدواء ما احتمل بدنك الداء». وهذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سر بدائك ما حملك»^(٢).

(١) هو: أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، إمام زاهد عابد قرشي، خالص الخلفاء الراشدين، وزوج ابنة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، كان قد تلقى العلم صغيراً على كبار علماء التابعين؛ ومنهم: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وسهل بن سعد، والسائب بن يزيد، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير بن العوام، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وغيرهم، وروى وحديث عنه كثير من أئمة علم الحديث؛ منهم: رجاء بن حيوة، والزهرى، وابن المنكدر، وحيد الطويل، وعيسى بن أبي عطاء، وعمرو بن مهاجر، ويعقوب بن عتبة بن المغيرة، والوليد بن هشام المعيطي، وعمر بن عبد الملك، وعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز (ابنه)، وصالح بن محمد بن زائدة الليثي، وغيرهم كثير، وكان عمر بن عبد العزيز قد نشأ في بيت إمارة وحكم وعلم وفضل، فهو حفيد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكان يحب الترف والتعليم، فلما تولى إمارة المسلمين بوصية من ابن عمه سليمان بن عبد الملك، أصبح وقد زهد في الدنيا وما فيها من متاع زائد وحكم زائف، وكانت مدة حكمه ما يقرب من العامين وقد ملأ الدنيا عدلاً بعد جور وظلم، وأوقف الحروب خارج البلاد، وأمن الناس على أنفسهم، فكان مثال العدل والورع والتقوى، ونال حب الناس جميعاً، وكانت وفاته سنة (١٠١هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١١٤/٥)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقماق (٩٣/١)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١١٩/١)، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٢٨.

(٢) عيون الأنباء (١/٤٠١-٤٠٥).

ومنهم:

٥٥- ابن أثال^(١)

كتابي ضيَّع أمانته، وباع بدنياه ديانتَه، كان لا يهاب اغتيال النفوس، واختال مهج الرءوس، طريقة خالف فيها شروط الأطباء، وخال أنه يخفيها عن آذان الأبيناء، حتى قيلت فيه ملح الأشعار، ووسمت صيته بشنع العار، وبقيت عليه قبائحها، وذهب المعار.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان طبيباً من الأطباء المتقدمين في دمشق، نصراني الدين، ولما ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه، وأحسن إليه، وكان كثير [الأنفاد]^(٢)، والاعتقاد فيه، والمحادثة معه ليلاً ونهاراً».

وكان ابن أثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، وقواها، وما منها سموم قاتل، وكان معاوية يقربه لذلك كثيراً، ومات في أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس، والأمراء بالسم.

ومن ذلك: ما حدثنا أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادي: أن معاوية لما أراد أن يظهر العقد ليزيد^(٣)، قال لأهل الشام: إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه،

(١) هو: طبيب نصراني درس في مدرسة جند يسابور، ثم عاد إلى دمشق، والتحق في خدمة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، فقربه أمير المؤمنين، وخصه بنفسه وناداه فكان السبب في مقتل العديد من أعداء الخليفة. انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١/ ٢٦٠)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٢/ ٢٤).

(٢) في عيون الأنباء: الافتقاد له.

(٣) هو: أبو خالد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان حرب بن أمية بن عبد شمس، تولى إمارة المسلمين بعد والده معاوية بن أبي سفيان، سنة (٦٠هـ)، على رفض من المسلمين، وعدم رغبة منهم، وقد تضاربت الأقوال فيه، فمنها من ينسبه إلى الفسوق والفجور، ومنهم من ينسبه إلى الورع والتقوى،

ورق جلده، ودق عظمه، واقترب أجله، ويريد أن يستخلف عليكم، فمن ترون؟ فقالوا:
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد^(١).

فسكت وأضمرها، ودس ابن أثال النصراني الطبيب إليه فسقاه سماً، فمات.

ويبلغ ابن أخيه^(٢) خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد خبره وهو بمكة، وكان أسوأ
الناس رأياً في عمه؛ لأن أباه المهاجر كان مع علي - رضي الله عنه وكرم وجهه - بصفين،

والرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب، في عهده أراد أن يجبر ابن بنت رسول الله، الحسين بن علي
بن أبي طالب على البيعة له، ولكنه رفض، فخرج إلى العراق، فبعث إليه بعنوده في ثلاثة آلاف،
فقتلوا الإمام الحسين ومن معه من أفراد أسرته، وبقيت أسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذهبوا
برأسه إليه، وفي عهده ثار عبد الله بن الزبير بن العوام في مكة، ووقعت بين الطرفين معركة معروفة،
فأرسل يزيد جيوشه لمحاربة أهل مكة والمدينة، وقتل كثيراً من صحابة رسول الله في المدينة، ورموا
الكعبة بالمنجنيق والنار، وكانت وفاته سنة (٦٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٣٥)،
الجواهر الثمين لابن دقاق (١/ ٧٧)، تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٢٢٤.

(١) هو: الأمير عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة
المخزومي، أمير شجاع من صغار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان قد رأى رسول الله
وهو صغير حدث، وكان يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان قائداً شجاعاً حارب مع
معاوية بن أبي سفيان، وكان مع والده خالد بن الوليد في معركة اليرموك ضد الروم، ولما آلت
الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان ولاء على قيادة الجيش لمحاربة الروم، ولما كان معاوية بن أبي سفيان
يخاف أن يأخذ الخلافة لنفسه من ولده يزيد بن معاوية، دس طبيبه ابن أثال لعبد الرحمن بن خالد
السم في الطعام، فقتله خالد بن عبد الرحمن قصاصاً منه، وكانت وفاته سنة (٤٦هـ)، وقيل: سنة
(٤٩هـ) بحمص، وقيل: في بلاد الروم.

(٢) هو: خالد بن مهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي، كان يروي الحديث الشريف عن عبد الله بن
عباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن أبي عمرة، وآخرون، وروى عنه الزهري،
وإسماعيل بن رافع، وثور بن يزيد، ومحمد بن أبي يحيى الأسلمي، وكان شاعراً فاضلاً اتهمه معاوية
بقتل عمه عبد الرحمن بن خالد، واتهم هو معاوية بقتله. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي
(٤/ ٣١٥).

وكان عبد الرحمن بن خالد مع معاوية، وكان خالد بن المهاجر على رأي أبيه، هاشمي المذهب، فلما قتل عمه عبد الرحمن مر به عروة^(١) بن الزبير، فقال له: يا خالد! أتدع لابن أثال نقي أوصال عمك بالشام، وأنت بمكة مسبل إزارك تجره وتخطر فيه متخايلاً؟

فحمي خالد، ودعا مولى له، يقال له: نافع، فأعلمه الخبر، وقال له: «لا بد من قتل ابن أثال». وكان نافع جلدًا شهيمًا، فخرجا حتى قدما دمشق، وكان ابن أثال يتمسبى عند معاوية، فجلس له في مسجد دمشق إلى أسطوانة، وجلس غلامه إلى أخرى حتى خرج.

فقال خالد لنافع: «إياك أن تعرض له أنت، فإني أضربه، ولكن احفظ ظهري، واكفني من ورائي، فإن رأيت شيئًا يريدني من ورائي فشأنك».

فلما حاذاه وثب إليه خالد فقتله، وثار إليه من كان معه، فصاح بهم نافع فانفرجوا، ومضى خالد ونافع وتبعهما من كان معه، فلما غشوهما حملا عليهم ففرقوا، حتى دخل خالد ونافع زقاقًا ضيقًا فقاتا الناس.

وبلغ الخبر معاوية رضي الله عنه، فقال: هذا خالد بن المهاجر، انظروا الزقاق الذي

(١) هو: عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، إمام فقيه، وأحد الفقهاء السبعة، كان يحدث عن والده الزبير بن العوام الصحابي الجليل، وعن أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، والحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب، ومحمد بن سلمة، وسفيان بن عبد الله الثقفي، وعلي بن أبي طالب، وأبي هريرة، وعبد الله بن عباس، وزيد بن ثابت، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وغيرهم، وروى عنه الكثير من العلماء والمحدثين؛ منهم: محمد بن المنكدر، وعمر بن عبد الله بن عروة، وابن أخيه محمد بن جعفر بن الزبير، وابن شهاب، وصفوان بن سليم، وسليمان بن يسار، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وصالح بن كيسان، وغيرهم، وكان مولده سنة (٢٣هـ)، ووفاته سنة (٩٣هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/٤٢١)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١/١٠٣)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٢٥٥).

دخل فيه. ففتش عليه وأتى به، فقال له: لا جزاك الله من زائر خير! قتلت طيبي؟

فقال: قتلت المأمور، وبقي الأمر.

فقال: عليك لعنة الله، أما والله لو كان [تشهد]^(١) مرة واحدة لقتلتك به.

أمعك نافع؟ قال: لا. قال: بلي والله ما اجترأت إلا به. ثم أمر بطلبه فوجد، فأُتي به، فضرب مائة سوط، ولم يهج خالداً بشيء أكثر من أن حبسه، وألزم بني غزوم دية ابن أثال، اثني عشر ألف درهم، أدخل بيت المال منها ستة آلاف، وأخذ ستة آلاف، فلم يزل ذلك يجري في دية المعاهد حتى ولي عمر بن عبد العزيز فأبطل الذي يأخذه السلطان، وأثبت الذي يدخل بيت المال.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي^(٢) في كتاب «الأمثال»: إن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كان خاف أن يميل الناس إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فاشتكى عبد الرحمن فسقاه الطبيب شربة عسل فيها سم! فأحرقته.

(١) ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) هو: أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله، إمام حافظ، أديب ولد لأب مملوك رومي سنة (١٥٧هـ) ، وتلقى العلم على كبار العلماء؛ أمثال: شريك بن عبد الله، وسعيد بن عبد الرحمن الجمحي، وعبد الله بن إدريس، وجريز بن عبد الحميد، وعبيد الله الأشجعي، ومروان بن معاوية، وعباد بن العوام، وأبي معاوية الضرير، ويحيى القطان، وأبي الحسن الكسائي، وإسماعيل بن جعفر، وشجاع بن أبي نصر البلخي، وروى عنه كثير من الأئمة والمحدثين والعلماء؛ منهم: أحمد بن يحيى البلاذري، ومحمد بن حبي المزوي، وأبو بكر بن أبي الدنيا، وأحمد بن يوسف الثعلبي، وأبو بكر الصاغاني، وعلي بن عبد العزيز البغوي، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، وغيرهم، وكان له العديد من الكتب والمؤلفات؛ منها: غريب الحديث، وفضائل القرآن، وكتاب الطيور، وكتاب الأموال، وكتاب الغريب في علم اللسان، وغيرها، وكان قد ولي قضاء طرسوس، وتوفي بمكة سنة (٢٢٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/ ٤٩٠)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/ ٦٠) شذارت الذهب لابن العماد الحنبلي (٢/ ٥٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٦/ ٢٥٤).

فعند ذلك قال معاوية رضي الله عنه: لا جد إلا ما أقعص عنك ما نكره.

قال: وقال معاوية رضي الله عنه أيضًا حين بلغه أن الأشتر^(١) سقي شربة عسل فيها سم، فمات: «إن الله جنودًا منها العسل».

ونقلت من تاريخ أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي^(٢) قال: لما كان في سنة ثمان وثلاثين، بعث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم الله وجهه - الأشتر واليًا على مصر بعد قتل محمد بن أبي بكر^(٣)، وبلغ معاوية رضي الله عنه مسيره، فدس إلى دهقان

(١) هو: الأشتر مالك بن الحارث النخعي، أحد أبطال الإسلام وقادة العرب العظام، أسلم وحدث عن عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وكان ممن ألب المسلمين على عثمان بن عفان، وقتله، ولما قتل أمير المؤمنين عثمان، وبويع علي بن أبي طالب، أمره على مصر، وعندما كان في الطريق، حرّض معاوية بن أبي سفيان أحد رجاله فوضع له السم في العسل، وكان فصيحا بليغا، شهما، شجاعا، فقتل عنه يوم اليرموك، وكان يحارب مع علي بن أبي طالب في صفين. انظر: التهذيب لابن حجر (١١/١٠)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢١٣/٦)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤/٤).

(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الأسلمي، إمام مصنف، وأحد أعلام المؤرخين، روى عن ابن جريج، ومعمّر بن راشد، ومالك، والأوزاعي، وابن أبي ذئب، والضحاك بن عثمان، وفليح بن سليمان، وأبي بكر بن أبي سبرة، وغيرهم، وروى عنه محمد بن سعد كاتب الطبقات الكبرى، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأبو بكر الصاغانى، وأحمد بن الخليل البرجلاني، وعبد الله بن الحسن الهاشمي، والحارث بن أبي أسامة، وسليمان بن داود الشاذكوني، وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٥٤/٩)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٣/٣)، معجم الأدباء لياقوت الحموي (٢٧٧/١٨).

(٣) هو: محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأمّه أسماء بنت عميس، كان قد تولى حكم مصر من قبل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولما ثار الثوار في وجه عثمان بن عفان كان محمد بن أبي بكر في مقدمتهم، وكان هو أول من اعتلى الأسوار، ودخل عليه وهو يقرأ القرآن الكريم، وكان هو أول من اعتلى رأس عثمان بن عفان بالسيف فقتله، ولما تولى علي بن أبي طالب إمارة المسلمين أرسله على إمارة مصر، فما لبث أن وقعت الحروب بين معاوية بن أبي سفيان، والإمام علي - كرم الله وجهه - ونشبت عدة حروب بين جنود عمرو بن العاص من قبل معاوية بن أبي سفيان وبين محمد

بالعريش^(١)، فقال: إن قتلت الأشر فلك خراجك عشرين سنة.

فلطف له الدهقان، فقال: أي الشراب أحب إليه؟

فقيل: العسل.

فقال: عندي عسل من عسل برقة، فسمه، وأتاه به، فشربه، فمات.

فبلغ ذلك معاوية، فقال: لليدين وللهم^(٢).

وفي تاريخ الطبري^(٣): أن الحسن^(٤) بن علي رضي الله عنهما، مات مسمومًا في أيام

بن أبي بكر كانت نتيجه أن هزم محمد بن أبي بكر، وقتله معاوية وجعله في جلد حمار ميت وأحرقه. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٨١/٣)، الكامل في التاريخ لابن الأثير (٣/٣٥٢)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٤٨/١).

(١) مدينة عظيمة في الديار المصرية، تقع على ساحل البحر الأحمر، وتقع في منطقة سيناء، وهي أول الديار المصرية من ناحية الجزيرة العربية، بالقرب من مدينة الفرما، وهي مدينة عظيمة الثمار والزروع، وكان عمرو بن العاص قد دخلها عندما أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفتح مصر، وكانت هي أولى المدن المصرية التي دخلها الإسلام. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٤١٠.

(٢) يقصد تعسا لليدين وللهم، وهم مثل يقال للشامت بعده.

(٣) هو: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، إمام عالم، أحد أعلام الكتاب والمؤرخين، ولد في طبرستان سنة (٢٢٤هـ)، وطلب العلم صغيرًا على كبار علماء عصره؛ منهم: إسماعيل بن موسى السدي، وأحمد بن منيع، ومحمد بن عبد الأعلى الصنعاني، وعبد الله الصفار، وعمرو بن علي الفلاس، والعباس بن الوليد العذري، وهارون بن إسحاق الهمداني، وإبراهيم بن سعيد الجوهري، والحسن بن الصباح البزار، وغيرهم، وسمع منه: أحمد بن كامل القاضي، وأبو الفضل محمد بن عبد الله الشيباني، والمعل بن سعيد، وأبو عمرو محمد بن أحمد بن حذان، وأحمد بن القاسم الخشاب، وغيرهم، ومن أشهر تصانيفه: تاريخ الأمم والملوك، وكتاب التفسير، وتهذيب الآثار. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٦٧/١٤)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢/١٦٢)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/١٩١)، تاريخ الأمم والملوك للطبري - المقدمة.

(٤) هو: الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، إمام عالم، وابن

معاوية رضي الله عنه، وكان عند معاوية -كما قيل- دهاء، فدس إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس -وكانت زوجة الحسن رضي الله عنه- شربة، وقال لها: إن قتلت الحسن زوجتك يزيد! فلما توفي الحسن، فبعثت إلى معاوية تطلب قوله! فقال لها في الجواب: أنا أضن بيزيد!

وقال كثير^(١) يرثي الحسن رضي الله عنه: [السريع].

يا جعد! بكّيه ولا تسامي بكاء حق ليس بالباطل
لن تستري البيت على مثله في الناس من حافٍ ومن ناعل

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيد شباب أهل الجنة، كان قد ولد سنة (٣) هجرية، وسمّاه جده صلى الله عليه وسلم، وكان قد سمع الحديث الشريف صغيراً عن جده وعن أبيه الإمام، وأمه فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وروى عنه كثير من المحدثين والتابعين؛ منهم: ابنه الحسين، وأبو الحوراء السعدي، والإمام الشعبي، وسويد بن غفلة، وغيرهم، وكان الحسن رضي الله عنه قد تولى إمارة المسلمين بعد مقتل والده الإمام علي -كرّم الله وجهه- ولكنه ما لبث أن رأى نفاق أهل العراق وعدم ثباتهم معه على الحق، وخداع بعضهم، ورأى كثرة الدماء التي وقعت وأريقَت بين أبيه وبين معاوية بن أبي سفيان، فأراد أن يحقن الدماء، فاتفق مع معاوية على أن يتنازل لمعاوية عن إمارة المسلمين مدة حياته، ثم بعد موت معاوية، يتولى الإمام الحسن بن علي، ولكنه ما لبث أن سقي السم في طعامه فمات. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/٢٤٥)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٦٥)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١/١٣٨)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١/٥٥).

(١) هو: أبو صخر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي، أحد فحول شعراء العرب المشهورين بالحب العذري، ويشتهر بكثير عزة، وهي: بنت جميل بن حفص بن أياس بن عبد العزى، واشتهر كثير بجبها بين قبائل العرب، وله معه حكايات طويلة، ونوادر مشهورة، وكان كثير شيعي المذهب شديد التعصب لآل البيت، ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان ينشد عبد الملك بن مروان شعره، وكانت وفاته سنة (١٠٥هـ) في المدينة المنورة. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٤/١٠٦)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١/١٣١)، معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٥٠.

ومنهـم:

٥٦- أبو الحكم^(١)

وكان من حذاق الحكماء، وسباق أهل الطب القدماء، وله في علمه حقائق، وفي فهمه ما ينفذ مدد الأعمار وما ينتهي منه إلى دقائق، وله في دمشق بقية ورثوا ما خلف من علمه، وحلى لبنيه لا يظلم أحد منهم في قسمه.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان طبيباً نصرانياً، عالماً بأنواع العلاج والأدوية، وله أعمال كثيرة مذكورة، وصفات مشهورة. وكان يستطبه معاوية بن أبي سفيان، ويعتمد عليه في تركيبات أدويته لأغراض قصدها منه.

وعمر أبو حكم هذا عمراً طويلاً حتى تجاوز المائة سنة».

قال يوسف بن إبراهيم^(٢): «وحدثني عيسى بن الحكم^(٣) عن أبيه، أن جده أعلمه

(١) هو: طبيب من أهل دمشق، كان يعمل في بلاد أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، وكان يعمل في تركيب الأدوية، وتحضير السموم، كما خدم بعده يزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، ولم يكن له مؤلفات طبية، وكانت وفاته في عهد الوليد بن عبد الملك وقد عمّر فوق المائة سنة. انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١/٢٥٨)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٦٤، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٢/٢٨).

(٢) هو: أبو الحسن بن الداية من موالي إبراهيم بن المهدي، توفي سنة (٢٦٥هـ). انظر: ترجمته في معجم الأدباء لياقوت الحموي (٢/١٥٧-١٥٩).

(٣) هو: أبو الحسن عيسى بن الحكم الدمشقي المشهور بالمسيح، طبيب مشهور في الدولة العباسية، ويعرف بالراهب، وكان يخدم هارون الشريد وعالج جاريته غضبض، وله من الكتب: كتاب منافع الحيوان، رسالة في الأعشاب والعقاقير، وكانت وفاته سنة (٢٢٥هـ/٨٣٩م) في عهد المعتصم بالله العباسي. انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١/٢٥٩)، أخبار العلماء بأخبار

أنه كان حمى عبد الملك بن مروان^(١) من شرب الماء من علته التي توفي فيها، وأعلمه أنه متى شرب الماء قبل نضج علته توفي. قال: فاحتذى عن الماء يومين وبعض الثالث. قال: فأبني عنده لجالس، وعنده بناته، إذ دخل عليه الوليد^(٢) ابنه، فسأله عن حاله، وهو يتبين في وجه الوليد السرور بموته، فأجابه بأن قال: [الطويل]

ومستخبراً عنا يريد بنا الردى ومستخبرات والدموع سواجم!

وكان استفتاحه النصف الأول وهو مواجه للوليد، ثم واجه البنات عند قوله النصف الثاني، ثم دعا بالماء فشربه، فقضى من ساعته.

الحكام للقفطي ص ١٦٥، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٣٠/٢).
(١) هو: أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم أمير المؤمنين، تولى إمارة المسلمين بعد موت والده مروان بن الحكم في الشام سنة (٦٥هـ)، وفي عهده كانت ثورة عبد الله بن الزبير في المدينة ومكة، وكان استطاع أن يضم إليه بلاد العراق ويولي عليها أخاه مصعب بن الزبير، وولى عبد الملك جيوشه للحجاج بن يوسف الثقفي الذي استطاع هزيمة جيوش الزبير وقتل مصعب وعبد الله ابن الزبير بن العوام، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وفي عهده قام بتعريب الدواوين إلى اللغة العربية بدلاً من الرومية والفارسية، وجعل عليها رجالاً من العرب، وفي عهده توطد حكم الأمويين في ربوع الجزيرة العربية، ولم يعد هناك من يتزعم ضده ثورات بعد مقتل ابن الزبير، وكان عبد الملك رجلاً شجاعاً ديناً يحفظ القرآن الكريم، طويلاً أبيض، رقيق الوجه، أبيض الرأي واللحية، وكانت وفاته سنة (٨٦هـ). انظر: فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٣١/٢)، الجواهر الثمين لابن دقماق ص ٨٤، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٣٤.

(٢) هو: أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أمير المؤمنين، تولى الخلافة بعد وفاة والده عبد الملك بن مروان، وكان فيه عسف وجبروت، وافتتح في عهده كثيراً من البلدان؛ كالهند والأندلس، وغيرها من البقاع، كبلاد الترك، وله غزوات كثيرة في بلاد الروم، وكانت وفاته سنة (٩٦هـ)، وعمره ٥١ سنة. انظر: تحفة ذوي الألباب لابن أبيك الصفدي (١٢٥/١)، سير أعلام النبلاء للذهبي (٣٤٧/٤)، فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٢٥٤/٤)، شذرات الذهب لابن العماد (١١١/١)، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٨٨.

ومنهم:

٥٧- حكم الدمشقي^(١)

مَنْ نَمَى وَرَاثَةَ أَبِيهِ، وَدَمَّى بِفَضْلِهِ قُلُوبَ حَاسِدِيهِ، وَأَمْسَى عَلَى مَنْ نَاوَاهُ شَدِيدُ الشَّكِيمِ، وَأَضْحَى وَهُوَ لَا يَدْعَى إِلَّا الْحُكْمَ الْحَكِيمَ.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): «كَانَ يَلْحَقُ بِأَبِيهِ فِي مَعْرِفَتِهِ بِالْمَدَاوَاةِ وَالْأَعْمَالِ الطَّيِّبَةِ، وَالصِّفَاتِ الْبَدِيعَةِ، وَكَانَ مَقِيمًا بِدَمَشْقَ، وَعَمَّرَ أَيْضًا عَمْرًا طَوِيلًا [كَأَبِيهِ]^(٣)».

قال يوسف بن إبراهيم: حَدَّثَنِي عَيْسَى بْنُ حَكَمٍ أَنَّ وَالِدَهُ تَوَفَّى وَكَانَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ^(٤) بِدَمَشْقَ، فِي سَنَةِ عَشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ سَأَلَهُ عَنْ مَبْلَغِ عَمْرِ أَبِيهِ، فَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ عَمَّرَ مِائَةً وَخَمْسَ سِنِينَ، لَمْ يَتَغَيَّرْ عَقْلُهُ، وَلَمْ يَنْقُصْ عَمَلُهُ!

(١) هو: حكم بن أبي الحكم الدمشقي، طبيب من أهل دمشق، كان دمث الخلق، عاقلًا ذكيًا، أدرك حكم العباسيين وعاش فوق ١٠٥ سنة، وكانت وفاته سنة (٢١٠هـ) في خلافة المأمون العباسي، ولم يترك كتبًا. انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١/٢٥٨)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٢/٣٠).

(٢) عيون الأنباء (١/٤٠٦).

(٣) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٤) هو: أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريعة بن ماهان الخزاعي، أمير في الدولة العباسية، كان شهيدًا شجاعًا، كان المأمون كثير الاعتماد عليه، فولاه على الدنيوري، ثم بعثه إلى خراسان لحرب بابك الخرمي، والخوارج الذين خرجوا على أهل خراسان ونيسابور وأفسدوا في البلاد، وولاه المأمون على الشام فترة، ومصر، وبغداد ثم عزله عنها سنة (٢١١هـ)، فخرج إلى العراق، فظل بها إلى أن توفي سنة (٢٢٨هـ) بمرور. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٨٣)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٩/٤٨٣).

فقال عبد الله: عاش حكم نصف التاريخ!

قال يوسف: وحدثني عيسى أنه ركب مع أبيه حكم بمدينة دمشق، إذ اجتازوا بحانوت حجام، قد وقف عليه بشر كثير، فلما بصر بنا بعض الوقوف، قال: افرجوا، هذا حكم المتطبب، وعيسى ابنه.

وأفرج القوم، فإذا رجل قد فصد الحجام في العرق الباسليق^(١)، وقد فصد فصدًا واسعًا، وكان الباسليق على الشريان، فلم يحسن الحجام تعليق العرق، فأصاب الشريان، ولم يكن عند الحجام حيلة في قطع الدم، واستعملنا الحيلة في قطعه بالرفائد^(٢) ونسج العنكبوت والوبر، فلم ينقطع بذلك، [فسألني]^(٣) والدي عن حيلة، فأعلمته أنه لا حيلة عندي، فدعا بفستقة، فشققها وطرح ما فيها وأخذ أحد نصفي القشر فجعله على موضع الفصد، ثم أخذ حاشية من ثوب كان غليظ، فلف بها موضع الفصد على قشر الفستقة لفاً شديداً، حتى كان يستغيث المقتصد من شدته، ثم شد ذلك بعد اللف شداً شديداً، وأمر بحمل الرجل إلى نهر بردي، وأدخل يده في الماء ووطأ له على شاطئ النهر ونومه عليه وأمر فحسي مَحَات بيض^(٤) نمرشت^(٥)، ووكّل به تلميذاً من تلامذته، وأمره بمنعه من إخراج يده من موضع الفصد من الماء إلا عند وقت الصلاة، أو يتخوف عليه الموت من شدة البرد، فإن تخوف ذلك أذن له في إخراج يده هنيئة، ثم أمره بردها.

ففعل ذلك إلى الليل، ثم أمر بحمله إلى منزله، ونهاه عن تغطية موضع الفصد، وعن حل الشد قبل استتمام أيام ففعل ذلك، إلا أنه صار إليه في اليوم الثالث وقد

(١) الباسليق: هو عرق في الذراع.

(٢) الرفادة: بالكسر خرقه يرفد بها الجرح وغيره. انظر: مختار الصحاح، مادة (رقد).

(٣) في الأصل: فسأله والمثبت من «ف»، وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

(٤) مَحَات البيض: صفار البيض.

(٥) نمرشت: بيض برشت.

ورم عضده وذراعه ورماً شديداً، فنفس من الشد شيئاً يسيراً، وقال للرجل: الورم أسهل من الموت.

فلما كان في اليوم الخامس حل الشداد، فوجدنا قشر الفستقة ملتصقاً بلحم الرجل. فقال والدي للرجل: «بهذا [القشر]»^(١) نجوت من الموت، فإن خلعت هذا القشر قبل انخلاعه وسقوطه من غير فعل منك، تلفت نفسك».

قال عيسى: فسقط القشر في اليوم السابع، وبقي في مكانه دم يابس في خلة الفستقة، فنهاه والدي عن العبث به، أوحك ما حوله، أو حت شيء من ذلك الدم، فلم يزل الدم ينحات حتى انكشف موضع الفصد في أكثر من أربعين ليلة، وبرئ الرجل^(٢).

ومنهم:

٥٨- عيسى بن حكم الدمشقي المعروف بالمسيح^(٣)

عرف بهذا لما ظهرت من الآثار المسيحية على يديه العيسوية، ونقلت العجائب إلا أنها غير النبوية، وكان من فضلاء الأطباء، ونبلاء ذوي الأنباء.

قال ابن أبي أصيبعة: «وهو صاحب «الكناش الكبير»^(٤) الذي يعرف به وينسب إليه».

(١) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف»، وهو يوافق عيون الأنباء.

(٢) عيون الأنباء (١/ ٤٠٦-٤٠٨).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (١/ ٤٠٨-٤٢٠)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٦٥.

(٤) الكناش: لفظة سريانية معناها المجموعة والتذكرة.

قال يوسف بن إبراهيم: وحدثني عيسى بن حكيم أنه عرض لغضيض^(١) أم ولد الرشيد قولنج^(٢)، فأحضرتة، وأحضرت الأبيح^(٣)، والطبري الحاسبين، وسألت عيسى عما يرى معالجتها به؟

قال عيسى: فأعلمتها أن القولنج قد استحکم بها استحکامًا إن [لم]^(٤) تبادره بالحقنة لم يؤمن عليها التلف.

فقال للأبيح والطبري: اختارالي وقتًا أتعالج فيه.

فقال لها الأبيح: علتك هذه ليست من العلل التي يمكن أن يؤخر لها العلاج إلى وقت يحمد المنجمون، وأنا أرى أن تبادري بالعلاج قبل أن تعلمي عملاً، وكذلك يرى عيسى بن حكيم. فسألتنني، فأعلمتها أن الأبيح قد صدقها.

فسألت الطبري عن رأيه؟

فقال: القمر اليوم مع زحل، وهو في غد مع المشتري، وأنا أرى لك أن تؤخري العلاج إلى مقارنة القمر مع المشتري.

(١) هي: غضيض أم ابنة هارون الرشيد حمدونة، وقيل: اسمها مُصَفَّى، وكان هارون الرشيد يقربها إليه وتحظى عنده، وكانت تروي عن مظلومة جارية العباسة بنت المهدي أخت هارون الرشيد، وقد توفيت غضيض في خلافة الرشيد. انظر: نساء الخلفاء لابن السالمي البغدادي ص ٥٣.

(٢) القولنج - بفتح اللام أو كسرهما، وفتح القاف أو ضمها - مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الريح.

(٣) هو: الحسين بن إبراهيم الأبيح، طبيب عالم، خدم المأمون بن هارون الرشيد، وكان له العديد من المؤلفات؛ منها: كتاب المطر، كتاب الموالي، كتاب الاختيارات. انظر: الفهرست لابن النديم ص ٥٥٤.

(٤) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف»، وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

فقال الأبيح: أنا أخاف أن يصير القمر مع المشتري، وقد عمل القولنج عملاً لا يحتاج معه إلى علاج. فتطيرت من ذلك غضيض وابنتها أم محمد، وأمرتا بإخراجه من الدار، وقبلت قول الطبري، فماتت غضيض قبل موافاة القمر المشتري، فلما وافى القمر المشتري قال الأبيح لأم محمد هذا وقت اختيار الطبري للعلاج؛ فأين العليل حتى نعالجه؟ فزادتها رسالته غيظاً عليه، ولم تزل سيئة الرأي فيه حتى توفيت.

قال يوسف: نزلت على عيسى بن حكم في منزله بدمشق سنة خمس وعشرين ومائتين، وبني نزلة صعبة، فكان يغذوني بأغذية طيبة، ويسقيني الثلج، فكنت أنكر ذلك، وأعلمه أن تلك الأغذية مضرّة بالنزلة، [فيعتل عليّ]^(١) بالهواء، ويقول: «أنا أعلم بهواء بلدي منك، هذه الأشياء مضرّة بالعراق، نافعة بالشام».

فكنت أغتذي بما يغذوني به، فلما خرجت عن البلد خرج مشيعاً لي حتى صرنا إلى الموضع المعروف بالراهب، وهو الموضع الذي فارقني فيه، فقال [لي]^(٢): «قد أعددت لك طعاماً يحمل معك، يخالف الأطعمة التي كنت تأكلها، وأنا آمرك أن لا تشرب ماء بارداً، ولا تأكل من مثل الأغذية التي كنت تأكلها في منزلي شيئاً».

فلمته على ما كان يغذوني به، فقال: إنه لا يحسن بالعاقل أن يلزم قوانين الطب مع ضيفه في منزله.

قال يوسف: وتجارت وعيسى يوماً بدمشق ذكر البصل، فأفرط في ذمه، ووصف معايبه. وكان عيسى وسلمويه بن بنان^(٣) يسلكان طريق الرهبان، ولا يحمدان شيئاً مما

(١) بياض بالأصل، والمثبت من عيون الأنباء (٤٩/١).

(٢) ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) طبيب فاضل متقدم، خدم المعتصم بالله، وله كتاب الرسالة الكافية الهارونية، كان قد ألّفها هارون الرشيد وتوجد مخطوطها في باريس أول ٦٤٧٥، الفاتيكان الثالث ٣٠٩، توفي بعد موت المعتصم

يزيد في الباه، ويذكر أن ذلك مما يتلف الأبدان، ويذهب الأنفس، فلم أستجز الاحتجاج عليه بزيادة البصل في الباه، فقلت قد رأيت له في سفري هذا - أعني فيما بين سر من رأى^(١) ودمشق - منفعة.

فسأل عنها، فأعلمته: أي كنت أذوق الماء في بعض المناهل، فأصبت مالحًا، فأكل البصل النقي، ثم أعاود شرب الماء، فأجد ملوحته قد نقصت.

وكان عيسى قليل الضحك، فاستضحك من قولي، ثم رجع إلى إظهار جزع منه، ثم قال: يعز عليّ أن يغلط مثلك هذا الغلط؛ لأنك صرت إلى أسمع نكتة في البصل، وأعيب عيب فيه، فجعلتها مدحًا ثم قال: أليس متى حدث في الدماغ فساد فسدت الحواس حتى ينقص حس الشم والذوق والسمع والبصر؟ فأعلمته أن الأمر كذلك.

فقال لي: إن خاصية البصل إحداث فساد في الدماغ، فإنما قلل حسك بملوحة الماء ما أحدث البصل في دماغك من الفساد!

قال يوسف: وقال لي عيسى وقد شيعني إلى الراهب وهو آخر كلام دار بيني

بالله بفترة صغيرة، وكان معاصرًا ليوحنا بن ماسويه، ومن أشهر كتبه: المختصر في الطب، وتدير الصحة، وشرح منافع الأعضاء لجالينوس. انظر: مختصر الطب العربي للسامرائي (٢/ ٥٠١)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقنطري ص ١٤١، ١٤٢، الفهرست ص ٥٩١.

(١) سامراء: مدينة قديمة من مدن العراق، تقع في الجانب الشرقي لنهر دجلة، بالقرب من العاصمة بغداد، قيل: سميت سامراء؛ لأن الذي بناها هو سام بن نوح عليه السلام، وقيل: كانت سر من رأى، فأطلق الناس عليها سامراء، وكان السامريون قد استولوا عليها سنة (٣٥٠-٣١٠ قبل الميلاد)، ثم حكمها حورابي ملك بابل سنة (١٩٧٢-١٧٥٠ ق. م)، وفي عهد المعتصم بالله خطط لبنائها من جديد سنة (٢٢١هـ) ليقيم بها مع حاشيته وجنوده واستقدم العمال والصُّنَّاع وأصحاب المهن الأخرى، فأسسها وبنى بها مسجدها الجامع وجعلها عاصمة ملكه. انظر: الروض المعطار للحميري ص ٣٠٠، معجم ما استعجم للبكري (٣/ ٧٣٤).

وبينه: إن والدي توفي وهو ابن مائة سنة وخمس سنين، لم يتشج له وجه، ولم ينقص من ماء وجهه، لأشياء كان يفعلها، وأنا الآن مزودكها فاعمل بها، وهى: «لا تذق القديد، ولا تغسل يديك ورجليك عند خروجك من الحمام أبداً إلا بهاء بارد أبرد ما يمكنك، والزم ذلك فإنه ينفعك». فلزمت ما أمرني به^(١).

ومنبهم:

٥٩- تياذوق^(٢)

حكيم ماهر، وعليم علمه ماهر، وحكيم لا تبل به عين صديق، ولا يعمل بخلقه السلسل إلا صَفَوْ رحيق، ولم يزل يجمع سلطان المرض علاجه، ويمنع وجهه الندي مناظراً يثور عجاجه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): «كان طبيباً فاضلاً، وله نوادر وألفاظ مستحسنة في صناعة [الطب]^(٤)، وعمر، وكان في أول دولة بني أمية، ومشهوراً عندهم بالطب، وصحب

(١) عيون الأنباء (١/٤٠٩-٤١٠).

(٢) طيب نصراني فاضل، كان يخدم الحجاج بن يوسف، وله نوادر حسنة، وكانت وفاته في أواسط سنة (٩٠هـ) في عهد أبي جعفر المنصور العباسي، ومن كلامه في وصايته للحجاج: «لا تأكلن حتى تجوع، ولا تتكاهن على الجماع، ولا تحبس البول، وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك»، ومن مؤلفاته: كناس ضخم يشمل عدة أمراض منها أمراض المعدة، والرئة، وذات الجنب، والإيلوس والكبد والطحال والمشيمة وغير ذلك، وكتاب إبدال الأدوية وكيفية دقها وإذابتها، الفضول في الطب، قصيدة في حفظ الصحة ما زالت مخطوطة. انظر: مختصر تاريخ الطب العربي للسامرائي (١/٢٦٠)، أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٧٦، المأثور من كلام الأطباء لأحمد عيسى بك ص ٨، الفهرست ص ٦٠١، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٢/٣٢).

(٣) عيون الأنباء (١/٤١٠-٤١٤).

(٤) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف»، وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

أيضاً الحجاج بن يوسف الثقفي، المتولي من جهة عبد الملك بن مروان، وخدمه بصناعة الطب، وكان يعتمد عليه، ويثق بمداواته، وكان له الجامكية الوافرة، والافتقار الكثير.

ومن كلام تياذوق للحجاج^(١) قال:

«لا تنكح إلا شابة، ولا تأكل من اللحم إلا فتياً نضيجاً، ولا تشرب الدواء إلا من علة، ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها، وأجد مضغ الطعام، وإذا أكلت نهائراً فلا بأس أن تنام، وإذا أكلت ليلاً فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة».

فقال له بعض من حضر: إذا كان الأمر كما تقول، فلمَ هلك بقراط؟ ولمَ هلك جالينوس وغيرهما؟ ولم أرَ واحداً منهم فعل ذلك.

قال: يا بني! قد احتججت فاسمع! إن القوم دبروا أنفسهم بما يملكون، وغلبهم ما لا يملكون - يعني الموت - وما يرد من مخارج كالحر والبرد، والوقوع، والغرق،

(١) هو: الحجاج بن يوسف الثقفي، أمير العراق، كان من أهل الطائف، من قبيلة ثقيف العربية، ولد بالطائف ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم صغيراً، وكان يعلم الصبيان حفظ القرآن الكريم طوال حياته، إلا أنه التحق بخدمة عبد الملك بن مروان، فأثبت شجاعته وكفاءة نادرة في خدمته، فحظي عنده فتدرج في العديد من المناصب القيادية، حتى أنه ولاه إمرة الجيش الذي أرسله إلى حرب عبد الله بن الزبير في مكة والمدينة والعراق، واستطاع الحجاج بن يوسف هزيمة مصعب بن الزبير في العراق وقتله، ثم زحف إلى المدينة ثم إلى مكة وحارب عبد الله بن الزبير بها، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وقتل ابن الزبير سنة (٧٣هـ/ ٦٩٢م)، ولما استتب الأمر لعبد الملك بن مروان في حكم المسلمين أمره على العراق كلها، فأرسل الجيوش لفتح بلاد الصين بقيادة محمد بن أبي القاسم الثقفي، وكان يجرد الكثير من الجيوش للتوسع ونشر الإسلام في بلاد آسيا الوسطى والصين والهند، ومن أشهر الفتن التي حدثت في عهده، ثورة ابن الأشعث التي استطاع أن يجذب إليه العديد من كبار التابعين؛ كالإمام الشعبي والإمام سعيد بن جببر، وانتصر الحجاج بن يوسف في هذه الثورة، واستطاع أن يوطد حكمه في البلاد. انظر: مائة أوائل من تراثنا لسهيل زكار ص ١٥٦، الوافي بالوفيات (٢٣٧/١١) وما بعدها.

والجراح، والغم، وما أشبه ذلك.

وأوصى تياذوق أيضًا الحجاج فقال: «لا تأكلن حتى تجوع، ولا تتكارهن على الجماع، ولا تحبس البول، وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك».

وقال أيضًا للحجاج: «أربعة تهدم العمر - وربما قتلن -: دخول الحمام على البطن، والمجامعة على الامتلاء، وأكل القديد الجاف، وشرب الماء البارد على الريق، وما مجامعة العجوز ببعيدة منهن».

ووجد الحجاج في رأسه صداعًا، فبعث إلى تياذوق، وأحضره، فقال: «اغسل رجلك بماء حار، وادهنهما، وخصي على رأس الحجاج قائم فقال: والله ما رأيت طبيبًا أقل معرفة بالطب منك! شك الأمير الصداع في رأسه، فتصف له دواء في رجله!».

فقال له: إن علامة ما قلت فيك بينة!

قال الخصي: وما هي؟

قال: نزعت خصيتاك، فذهب شعر لحيتك! فضحك الحجاج ومن حضر.

وشكا الحجاج ضعفًا في معدته، وقصورًا في الهضم إلى تياذوق، فقال: «يكون الأمير يحضر بين يديه الفستق الأحمر، القشر البراني، ويكسر ويأكل من له، فإن ذلك يقوي المعدة».

فلما أمسى الحجاج بعث إلى حظاياه، وقال: إن تياذوق وصف لي الفستق، فبعثت إليه كل واحدة منهن صينية فيها قلوب فستق، فأكل من ذلك حتى امتلأ، وأصابته بعقبه هيمضة كادت تأتي على نفسه، فشكا حاله إلى تياذوق، وقال: وصفت لي شيئًا أضرتني، وذكر له ما تناول.

فقال له: إنها قلت لك أن تحضر عندك الفستق بقشره البراني، فتكسر الواحدة بعد الواحدة، وتلوك قشرها البراني وفيه العطرية والقبض، فيكون بذلك تقوية المعدة، وأنت فقد عملت غير ما قلت لك! ودأواه مما عرض له.

قيل: ومن أخباره مع الحجاج: أنه دخل عليه يومًا، فقال له الحجاج: أى شيء دواء أكل الطين؟

فقال: عزيمة مثلك أيها الأمير!

فرمى الحجاج بالطين ولم يعد إليه أبدًا.

وقيل: إن بعض الملوك لما رأى تياذوق، وقد شاخ وكبر سنه، وخشي أن يموت ولا يعتاض عنه؛ لأنه كان أعلم الناس، وأحذق الأمة في وقته بالطب.

فقال له: صف لي ما أعتمد عليه فأسوس به نفسي، وأعمل به أيام حياتي، فلست آمن أن يحدث عليك حدث الموت، ولا أجد مثلك.

فقال تياذوق: «أيها الملك بالخيرات! أقول لك عشرة أبواب، إن عملت بها واجتنبتها لم تعتل مدة حياتك»، وهذه عشر كلمات:

- لا تأكل طعامًا وفي معدتك طعام.

- ولا تأكل ما تضعف أسنانك عن مضغه، فتضعف معدتك عن هضمه.

- ولا تشرب الماء على الطعام حتى تفرغ ساعتين، فإن أصل الداء التخمة، [وأصل^(١) التخمة الماء على الطعام.

(١) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف»، وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

- وعليك بدخول الحمام في كل يومين مرة واحدة، فإنه يخرج من جسدك ما يصل إليه الدواء.

- وأكثر الدم في بدنك تحرس به نفسك.

- وعليك في كل فصل قئمة ومسهلة.

- ولا تحبس البول وإن كنت راكبا.

- واعرض نفسك على الخلاء قبل نومك.

- ولا تكثر الجماع فإنه يقتبس من نار الحياة فليكثر أو يقل.

- ولا تجامع العجوز فإنه يورث الموت فجأة.

فلما سمع الملك أمر كاتبه أن يكتب هذه الألفاظ بالذهب الأحمر، ويضعه في صندوق من ذهب مرصع، وبقي ينظر إليه في كل يوم ويعمل به، فلم يعتل مدة حياته، حتى جاءه الموت الذي لا بد منه، ولا محيص عنه.

وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب قال: قال الحجاج لابنه: يا بني! إن تياذوق الطبيب كان قد أوصاني في تدبير الصحة بوصية كنت أستعملها، فلم أر إلا خيرا.

ولما حضرته الوفاة دخلت عليه أعوده، فقال: الزم ما كنت وصيتك به، وما نسيت منها فلا تنس: «لا تشر بن دواء حتى تحتاج إليه، ولا تأكلن طعاما وفي جوفك طعام، وإذا أكلت فامش أربعين خطوة، وإذا امتلأت من الطعام فقم على جنبك الأيسر، ولا تأكلن الفاكهة وهي مولية، ولا تأكلن من اللحم إلا فتيا، ولا تنكحن عجوزا، وعليك بالسواك، ولا تتبعن اللحم اللحم، فإن إدخال اللحم على اللحم يقتل الأسود في القلوات».

وقال أيضًا إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتاب «أخبار الحجاج»: إن الحجاج لما قتل سعيد بن جبير^(١) - رحمه الله تعالى - وكان من خيار التابعين، وجرى بينهما كلام كثير، وأمر به فذبح بين يديه، وخرج منه دم كثير، أسكثره وهاله.

فقال الحجاج لتياذوق طيبه: ما هذا؟

قال: لا اجتماع نفسه، وإنه لم يجزع من الموت، ولا هاب ما فعلته به، وغيره تقتله وهو مفترق النفس، فيقل دمه لذلك.

ومات تياذوق بعد ما أسن وكبر، وكانت وفاته بواسط في نحو سنة تسعين للهجرة.

(١) هو: الإمام الشهيد أبو عبد الله سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الكوفي، إمام محدث مفسر، تلقى العلم على عبد الله بن عباس، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعدي بن حاتم، وأبي موسى الأشعري، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والضحاك بن قيس، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم، وروى عنه كثير من علماء التابعين؛ منهم: أيوب السخستاني، وحبيب بن أبي ثابت، وسليمان الأعمش، وسماك بن حرب، وسليمان بن أبي المغيرة، وثابت بن عجلان، وعبد الله بن عيسى بن أبي ليلى، وعبد الملك ابن ميسرة، وفرقد السبخي، وهلال بن خباب، وأبو إسحاق السبيعي، والمغيرة بن النعمان، ومالك بن دينار، ومجاهد، ومحمد بن سوقة، وكلثوم بن جبر، ومنصور بن حيان، وغيرهم، وكان سعيد بن جبير رضي الله عنه قد خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث في غزوة في بلاد الصين، ثم أعلن ابن الأشعث رفض الولاء للحجاج بن يوسف الثقفي، وخلع خلافة عبد الملك بن مروان، ودامت الحرب بين الفريقين فترة من الزمن، هزم خلالها ابن الأشعث وقتل، وأسر سعيد بن جبير وجيء به إلى الحجاج فقتله. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/٣٢١)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١/١٠٨)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٣٧١).

ومنهم:

٦٠- زينب طنبية بني أود^(١)

وكانت طبيبة عارفة، لا كما زعم ابن أبي أصيبعة: عالمة حليلة، ولا كما قال ابن سناء الملك^(٢) في موشحته البديعة: تمتع بالعلم فلم تحس فوتاً، ونفعت بطبها الأحياء، وكادت تنعش الموتى، ما عرفها إلا من شكر، ولا أنصفها من قاسها من الحكماء برجل ولا الصارم الذكر.

قال ابن أبي أصيبعة: «كانت عارفة بالأعمال الطبية، خبيرة بالعلاج ومداواة آلام العين والجراحات، مشهورة بين العرب بذلك»^(٣).

قال أبو الفرج الأصفهاني^(٤) في كتاب «الأغاني» الكبير، قال: [أخبرنا محمد بن

(١) هي: زينب بني أود، طبيبة شهيرة من قبيلة كهلان القحطانية، ظهرت في عصر صدر الإسلام، وكانت مشهورة في أعمال الطب الجراحي، وأمراض العين، ولا يُعرف شيء عن حياتها أو ميلادها ووفاتها. انظر: مختصر تاريخ الطب العربي لكمال السامرائي (١/٢٦٧)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (١/٤١٤).

(٢) هو: أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك أبي عبد الله محمد بن هبة الله بن محمد السعدي، كان قاضياً شاعراً، نبلاً، كان قد تلقى الحديث على أبي الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي، وله شعر جيد في ديوان له، وله مختصر روح الحيوان، وله كتاب مصاديد الشوارد، وله رسائل كثيرة كانت متداولة بينه وبين القاضي الفاضل. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٦/٦١) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٩/٢٦٥).

(٣) انظر: عيون الأنباء (١/٤١٤).

(٤) هو: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله بن محمد بن مروان... ابن عبد شمس بن مناف، كاتب وأديب، وأحد أعلام المؤلفين وأئمة الأدب والتاريخ والأنساب والسير في القرن الرابع الهجري، ولد في أصبهان، ونشأ في بغداد، وتلقى بها

خلف المزياني قال: حدثني حماد بن إسحاق عن أبيه^(١)، عن كناسة عن أبيه عن جده، قال: أتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد كان أصابني، فكحنتني ثم قالت لي: اضطجع قليلاً حتى يذوب الدواء في عينيك، فاضطجعت، ثم تمثلت قول الشاعر: [الطويل]

أغترمي ريب المنون ولم أزر طيب بني أود على النأي زينبا

فضحكت ثم قالت: أتدري فيمن قيل هذا الشعر؟ قلت: لا. قالت: في -والله- قيل، أنا زينب التي عنها، وأنا طيبة بني أود، أفتردي من الشاعر؟ قلت: لا. قالت: عمك أبو سمالك الأسدي.

علومه، وظل بها إلى أن توفي -رحمه الله- وكان له العديد من المؤلفات، منها: كتاب الأغاني، وكتاب مقاتل الطالبين، وكتاب آداب الغرباء، وكتاب الحانات، وجمهرة الأنساب، ونسب بني عبد شمس، والإماء الشواعر، والتعديل والإنصاف، وغيرها، وكانت وفاته سنة (٣٥٦هـ). انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣/٣٠٧)، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٤/١٥)، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣/١٩).

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

أطباء السريان الكاثنيين في ابتداء الدولة العباسية

منهم:

٦١- [جورجيس]^(١) بن جبريل (بن بختيشوع)^(٢)

طبيب طالما أصلح بين الصحة والمزاج، وأصبح وعليه لا يحتاج إلى العلاج، رزق من أبي جعفر المنصور^(٣) إقبالاً على تجهمه، وصادف علاجه من قبول على توهمه، وحظي منه بحظوة على قلة من حظي لديه بطائل، وحيي منه بالجزيل - على بخله - بالنائل، وحيي من نزغات غضبه، وما قال هذا عنه سواء قائل.

قال ابن أبي أصيبعة: «كانت له خبرة بصناعة الطب، ومعرفة بالمداداة وأنواع

(١) في الأصل: جرجس، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) هو: جورجيس بن جبريل الطبيب السرياني، رئيس مدرسة جند يسابور، اتصل بالمنصور وخدمه ولاقى عنده الحظوة، وتوفي في حدود الستين ومائة. انظر: الوافي بالوفيات (١١/١٧١)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٧/٢).

(٣) هو: أبو جعفر بن محمد بن محمد بن علي الهاشمي، المعروف بأبي جعفر المنصور، مؤسس الدولة العباسية وموطد حكمها بعد أخيه أبي عبد الله السفاح، وكان قد ولد سنة (٩٥هـ)، وطلب العلم صغيراً، ورحل من أجله وجاب البلاد في طلبه، وكان شجاعاً حاذقاً داهية، كامل العقل، وكانت وفاته سنة (١٥٨هـ)، وهو ثاني خلفاء بني العباس حيث حكم إحدى وعشرين سنة من سنة (٧٥٤-٧٧٥م) حافلة بالحروب والمؤمرات السياسية، وكان معروفاً بدهائه وسياسته، وهو الذي أسس مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/٨٣)، فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي (٢/٢١٦)، تاريخ بغداد (١٠/٥٣)، شذرات الذهب لابن العماد (١/١٨٥).

العلاج، وخدم [بصناعة الطب]^(١) المنصور، وكان حظيًا عنده، ونال من جهته أموالاً جزية، ونقل له كثيراً من كتب اليونان إلى العربي^(٢).

قال فثيون^(٣) الترجمان: كان المنصور قد فسدت معدته، وانقطعت شهوته، وبقي كلما عولج ازداد مرضاً^(٤)، فتقدم إلى الربيع^(٥) بأن يجمع الأطباء لمشاورتهم، فجمعهم، فسألهم عن طبيب ماهر؟ فقالوا: ليس أحد مثل جورجيس رئيس أطباء «جندي سابور»^(٦)، فأنفذ لإحضاره، فاستمعله، فاعتقله، فأتاه المطران، ورؤساء المدينة، وأشاروا عليه بالخروج بعد أن أوصى ابنه بختيشوع بأمر البهارستان، وسائر أموره.

فلما أتى حضرة المنصور، أجلسه، وسأله عن أشياء أجابه عنها بسكون. فقالوا له: قد ظفرت منك بما كنت أحبه، وخلع عليه، وأمر له بمنزل ونفقة، وحدثه بعلته، ثم نظر إلى قارورة الماء، وأشار عليه بتخفيف الغذاء، ولاطفه حتى عوفي.

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) عيون الأنباء (٧/٢).

(٣) فثيون: هو فثيون بن أيوب الترجمان، نقل إلى العربية بعض الأسفار.

(٤) في نص ابن أبي أصيبعة: «وكلما عالج الأطباء ازداد مرضه وهو أصح». عيون الأنباء (٧/٢) بتحقيقي.

(٥) هو: الربيع بن يونس بن محمد بن يونس بن أبي فروة، مولى أبي جعفر المنصور وحاجبه، وتولى الوزارة لأبي جعفر بعد أبي أيوب الرزباني والحجابة للهادي، وتوفي الربيع (١٧٠هـ). انظر: المنتظم (٣٣٢/٨) وما بعدها، شذرات الذهب (٢٧٤/١)، مرآة الجنان (٣٥٩/١)، تاريخ بغداد (٤١٤/٨)، تاريخ دمشق (٩٠-٩١)، سير أعلام النبلاء (٣٣٥/٧)، وفيات الأعيان (٢٩٤/٥).

(٦) جند يسابور: من أعمال خوزستان بين العراق وبلاد فارس، بناها سابور أردشير، وأسكنها سبي الروم، وكانت قد فتحت في عهد عمر بن الخطاب سنة (١٩هـ)، واشتهرت في الدولة الإسلامية بمدرستها الطبية التي أسسها الطبيب النصراني بختيشوع وأولاده، واشتهر بها من العلماء حفص بن عمر القناد وغيره. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (١٩٨/٢).

ثم لما دنا أجله مرض مرضاً ثقیلاً، وأمر به المنصور فحمل إليه حتى رآه، وعرض عليه الإسلام، فأبى!! وسأل أن يحمل إلى بلده ليدفن عند آبائه، فأعطاه عشرة آلاف دينار، ورده بعد أن استخلف لديه تلميذه عيسى بن سهل، فأساء السيرة، وبسط يده في المطارنة، والأساقفة، يأخذ أموالهم لنفسه، حتى إنه كتب لمطران نصيبين^(١) يلتمس منه من آلات البيعة أشياء جليلة المقدار.

وقال في كتابه إلى المطران: ألسنت تعلم أن أمر الملك بيدي إن شئت أمرضته وإن شئت عافيته؟!

فتلطف المطران في الصلة بالربيع، وأقرأه كتاب عيسى بن سهل، فأعلم الربيع المنصور به، فسلبه ما كان حصّله، ثم أمر بنفيه وكتب: «إن كان جرجس حيّاً يحضر، وإن كان قد مات يحضر ابنه»، فصادف جرجيوس وقد وقع من السطح، وضعف ضعفاً عظيماً، فقبل له، فأبى أن يجهز إلا إبراهيم تلميذه، فلما أتى المنصور استخلصه، ولم يزل معه حتى مات المنصور.

(١) مدينة من بلاد الجزيرة بالعراق، على جادة القوافل، من موصل إلى الشام تقع في جانب دجلة الغربي، وصفها ابن حوقل، وقال: هي أجل بقاع الجزيرة وأحسنها وهي من أطيب المدن. انظر: معجم البلدان لياقوت (٥/٢٢٨)، بلدان الخلافة الشرقية ص ١٢٤.

ومنهم:

٦٢- بختيشوع بن جرجس^(١)

كان لا يكفف له ألمعية، ولا تلوذ بعِي له لودعية، ولا تزال [نهاره إليه]^(٢) مبصرة، وسحائب مدده معصرة، ودنا من الخلفاء بحيث لا ترفع الستور، ولا ترتع اللحظات في غابة الليث المصور، ورأس على أقرانه، وانبجس نهرًا لا يضرب الليل دونه بجرائه، وناظر الكبراء، وناظر حتى الأمراء، وسار إمامًا في الأطباء ولولاه لما ركبوا وراء.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): «كان يلحق بأبيه في معرفته بالطب، وخدم الرشيد، وتميز في أيامه».

قال فثيون الترجمان: لما مرض الرشيد حضر بختيشوع من «جندي سابور» وأحضر الأطباء لمناظرته، فقال أبو قريش^(٤) - وكان رأس الأطباء ببغداد -: يا أمير المؤمنين! ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا؛ لأنه هو وأبوه وأهل جنسه فلاسفة!

(١) هو: بختيشوع بن جرجس الطبيب النصراني، رأس الأطباء وابن شيخهم، خدم الرشيد وتقدم في أيامه، وبختيشوع معناه عبد المسيح وهو لفظ سرياني، توفي في حدود التسعين والمائة، وقيل: إنه مات بعد الرشيد، وهو الأصح. انظر: الوافي بالوفيات (٥٥/١٠)، عيون الأنباء (١٢/٢)، تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٠٠.

(٢) في «ف»: إليه نهاره.

(٣) عيون الأنباء (١٢/٢)، (١٣).

(٤) أبو قريش عيسى الصيدلاني، طبيب صيدلاني شهير، كان يخدم الخليفة العباسي المهدي، وكان يزعم أنه يستطيع معرفة حَبَل المرأة من بولها، ويعرف نوع الجنين، وكان يخدم هارون الرشيد بعد موت المهدي. انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٨٠، عيون الأنباء (١٢/٢)، (١٣).

فقال الرشيد لبعض الخدم: أحضر له ماء دابة [لنختبره]^(١)، فأتاه به.

فقال: ليس هذا بول إنسان.

فقال له أبو قريش: كذبت، هذا بول حظية الخليفة.

فقال له بختيشوع: أيها الشيخ الكريم! إنه لم يبل هذا إنسان البتة! وإن كان على ما قلت، فلعلها قد صارت بهيمة!

فقال له الرشيد: من أين علمت هذا؟

قال: لأنه ليس فيه قوام بول الإنسان، ولا لونه، ولا ريحه.

فقال له: فما ترى أن يطعم صاحب هذا الماء؟

قال: الشعير.

فضحك الرشيد ضحكًا شديدًا، وخلع عليه، ووهبه مالا وافرا، وقال: «ليكن رئيس الأطباء، ومروهم فليسمعوا له ويطيعوا».

(١) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

ومنهم:

٦٢- جبريل بن بختيشوع^(١)

يحل أن يقاس بالألفاء، وأن يقال اسمه إلا مع الخلفاء، عظم ثراؤه، وعم جداه أن يماثل به أرسطو ونظراؤه، وخلف ما يتجاوز الحد، ويداني العد، مع نفقاته الموسعة، وصدقاته التي رفلت الأيام في حللها الموسعة، حتى شرقت دونه النفوس بحسراتها، واختنقت القلوب بزفرائها، حتى كانت الخلفاء تركب إلى منزله، وترغب في إكرام نزله، وهو بشمم لا يخضع عرينه، ولا يخشع أنينه، ولا يطلع زهر الروض الجني إلا جنيته.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان مشهوراً بالفضل، جيد التصرف في المداواة، عالي الهمة، سعيد الجدد، حظياً عند الخلفاء، وحصل بهم من الأموال ما لم يحصله أحد من الأطباء»^(٢).

قال الترجان: إن أباه أفرده لجعفر بن يحيى^(٣)، وكان قد اعتل، فعالجه، فبرئ في ثلاثة أيام، فأحبه جعفر مثل حب نفسه، وكان لا يصبر عنه.

(١) هو: جبريل بن بختيشوع الطيب، وكان مشهوراً بالتصرف في المداواة حظياً عند الخلفاء. انظر: ترجمته في عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي (٢٣/٣)، تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٣٢-١٤٦، عيون الأنباء (١٤/٢)، الوافي بالوفيات (٣٩، ٣٨/١١).

(٢) عيون الأنباء (١٥/٢).

(٣) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي من أبرز مشاهير البرامكة، كان وزيراً لهارون الرشيد، ولما حدثت نكبة البرامكة قتلته معهم. انظر: البداية والنهاية (١٩٤/١٠) وما بعدها، شذرات الذهب (٣١١/١)، مرآة الجنان (٤٠٤/١) وما بعدها، تاريخ بغداد (١٥٢/٧) وما بعدها، الوافي بالوفيات (١٢٠/١١) وما بعدها، سير أعلام النبلاء (٥٩/٩) وما بعدها، وفیات الأعيان (٣٢٨/١) وما بعدها.

ثم تمطت حظية الرشيد [ثم لم ترد يدها] ^(١)، ولم يفد فيها طب الأطباء، فذلل جعفر الرشيد على ابن بختيشوع، فأحضره وقال له: ما تعرف من الطب؟

قال: أبرد الحار، وأسخن البارد، وأرطب اليابس، وأيسس الرطب.

فضحك الرشيد وقال: هذا غاية ما تحتاج إليه الجارية، فنبأه نبأ الجارية.

فقال جبرائيل: لها عندي حيلة إن لم يسخط عليَّ أمير المؤمنين.

قال: وما هي؟

قال: تخرج الجارية إلى ههنا بحضرة الجمع، حتى أعمل ما أريده، ويمهل عليَّ ولا يعجل بالسخط.

فأمر بها، فأخرجت، فحين رآها جبرائيل مشى إليها ونكس رأسها، وأمسك ذيلها، كأنه يريد سراويلها، فانزعجت الجارية؛ فاسترسلت أعضاؤها، ويسطت يدها إلى أسفل، وأمسكت ذيلها.

فقال جبرائيل: قد برئت يا أمير المؤمنين.

فقال الرشيد للجارية: أبسطي يديك يمنية ويسرة؛ ففعلت.

فعجب الرشيد ومن حضر، وأمر له بخمسة مائة ألف درهم، وعظمت منزلته عنده، وجعله رئيسًا على سائر الأطباء.

وسئل عن سبب العلة؟ فقال: هذه الجارية انصب على أعضائها وقت الحركة خلط رقيق بالحركة وانتشار الحرارة، ولأجل سكون حركة الجماع بغتة جمدت الفضلة في

(١) في عيون الأنباء: ورفعت يدها فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها.

بطون [جميع الأعصاب]^(١)، وما كان يحلها إلا حركة مثلها؛ [فاختلت]^(٢) حتى انبسطت حرارتها، وانحلت الفضلة.

ولم يزد مكانه من الرشيد إلى أن مرض الرشيد بـ«طوس»^(٣) مرض موته، حبسه واستطب أسقف فارس، فقال له: مرضك كان من خطأ طبيبك - كذباً عليه -.

فأمر الرشيد بقتل جبرائيل، فلم يقبل منه الفضل بن الربيع؛ لأنه كان يئس من حياته، وأصاب تلك الأيام الفضل قولنج^(٤) شديد، فكان جبرائيل يعالجه، فأفاق، ثم [لما]^(٥) صار الأمر إلى الأمين زاد تقريبه، وضاعف مواهبه، وكان لا يأكل ولا يشرب إلا بإذنه.

ثم لما ملك المأمون كتب إلى الحسن بن سهل^(٦) بأن يقبض عليه لكونه بعد الرشيد

(١) إضافة من عيون الأنباء.

(٢) في الأصل، «ف»: فأحببت، والمثبت من عيون الأنباء، وهو يوافق المعنى.

(٣) طوس: هي مدرسة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ، تشتمل على بلدين يقال لإحداها: الطابران، وللأخرى: نوقان، ولها أكثر من ألف قرية، فتحت في أيام عثمان بن عفان، وبها قبر علي بن موسى الرضي، وبها أيضاً قبر هارون الرشيد. انظر: معجم البلدان (٤/ ٤٩) وما بعدها، معجم ما استعجم (٣/ ٨٩٨) وما بعدها.

(٤) القولنج: لفظ معرب أطلقوه بالأصل على التهاب القولون الحاد أو المغص المعوي ثم عمَّ الاسم فأصبح يطلق على كل ألم مغص شديد يحس به الإنسان، سواء أكان ناتجاً عن التهاب الزائدة الدودية أو المصراع الأعور أو التهاب الكلية الحاد أو غير ذلك. انظر: المنصور في الطب (الملحق) ص ٦٦٢.

(٥) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٦) هو: الحسن بن عبد الله، استوزره المأمون بعد موث أخيه الفضل بن سهل وفوض إليه أموره، وتزوج المأمون ابنته يوران بنت الحسن، وأهدى أبوها معها من الأموال شيئاً عظيماً، كان أبوه مجوسياً فأسلم وأسلم ابنه الفضل والحسن زمن الرشيد، وكان كريماً جواداً، حسن السياسة، والتدبير، وجيهاً عند المأمون، عظيم المنزلة عنده، توفي سنة (٢٦٦هـ). انظر: بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم (٥/ ٢٣٨٠)، شذرات الذهب (٢/ ٨٦)، الوافي بالوفيات (١٢/ ٢٦-٢٨)،

أتى الأمين ببغداد، ولم يأت به خراسان، فحبسه ابن سهل، ثم لما مرض ابن سهل فعالجه الأطباء، فلم ينتفع بذلك، فأخرج جبرائيل من الحبس، فعالجه في أيام يسيرة، فبرئ، فوهب له مالاً وافراً، وتلطف له مع المأمون، فصفح عنه، واتخذ ميخائيل صهر جبرائيل بدلاً منه، وأكرمه كياداً لجبرائيل.

. فمرض المأمون مرضاً صعباً، أعيا الأطباء علاجه، فقال أبو عيسى -ابن الرشيد- للمأمون: يا أمير المؤمنين! أحضر جبرائيل، فإنه يعرف أمزجتنا منذ الصبا.

فتغافل عنه، وأحضر يوحنا بن ماسويه^(١)، فلما ضعفت قوة المأمون ذكر بجبرائيل، فأمر بإحضاره، فلما حضر غير تديره كله، فأنصلح بعد يوم، واستقل بعد ثلاثة أيام، ثم بعد أيام يسيرة صلح صلاحاً تاماً، فسرَّ به المأمون، وأمر له بألف ألف درهم، وألف كر^(٢) حنطة، ورد عليه ما كان قبض له، وصار إذا خاطبه يكرمه، ثم انتهى إلى أن كان لا يخرج عامل إلى عمله إلا بعد أن يلقي جبرائيل ويكرمه، وعلا محله، وانحط مَنْ سواه.

وقال إسحاق بن علي الرهاوي^(٣): إن يوحنا بن ماسويه أخبر أن الرشيد قال لجبرائيل بن ميخائيل وهو حاج بمكة: يا جبرائيل! أعلمت أني دعوت لك -والله- في

وفيات الأعيان (٢/ ١٢٠-١٢٤).

(١) هو: يوحنا بن ماسويه، كان طبيباً ذكياً فاضلاً خبيراً بالطب، وله كلام حسن، وتصانيف مشهورة، وكان مبعلاً حظياً عند الخلفاء والملوك، اكتسب من الطب ألف ألف درهم، وكان نصرانياً خدم الرشيد والأمين والمأمون وبقي على ذلك أيام المتوكل، وكان الواثق مشغوقاً به، وكان الرشيد قد أمره بترجمة الكتب القديمة، وتوفي سنة ثلاثة وأربعين ومائتين، وليوحنا من الكتب، كتاب: البرهان، والكهال، والتهام، والمنهج في الصفات، والعلاجات، وغيرها من الكتب. انظر: الوافي بالوفيات ص ٢٩-٣١، عيون الأنباء (٢/ ١٠٣)، الفهرست ص ٤١١.

(٢) الكر: مكيال عراقي حوالي أربعين إردباً.

(٣) هو: إسحاق بن علي الرهاوي، كان طبيباً متميزاً، عالماً بكلام جالينوس، وله أعمال جيدة في صناعة الطب، وله من الكتب كتاب أدب الطبيب. انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٧٣).

الموقف دعاء كثير؟

ثم التفت إلى بني هاشم فقال: هل أنكرتم قولي؟

فقالوا: ذمي هو! فقال: نعم، ولكن صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بصلاحه.

فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين.

وقال ابن بختيشوع: اشتريت ضيعة بسبعمائة ألف درهم، فنقدت بعض الثمن، وتعذر عليّ بعضه، فدخلت على يحيى بن خالد، وعنده ولده، وأنا أفكر. فقال: ما لي أراك مفكرًا؟

فأخبرته، فدعا بالدواة، وكتب: «يعطى جبرائيل سبعمائة ألف درهم». ثم دفع إلى كل واحد من ولده، فوقّع فيه [ثلاثمائة]^(١) ألف درهم. قال: فقلت: جعلت فداك! قد أديت عامة الثمن، وإنما بقي أقله.

قال: اصرف ذلك فيما ينوبك.

ثم صرت إلى دار الرشيد، فلما رأيته قال: ما أبطأ بك؟

فقلت: كنت يا أمير المؤمنين عند أبيك وإخوتك، ففعلوا بي كذا وكذا لخدمتي لك.

قال: فما حالي أنا؟... ثم دعا بدابته، فركب إلى يحيى، ثم قال: يا أبة! أخبرني جبرائيل بما كان، فما كان حالي أنا من بين ولدك؟

(١) في الأصل: ستائة، والمثبت من عيون الأنباء.

فقال: مُر له يا أمير المؤمنين بما شئت يُحمل إليه.

فأمر لي بخمسمائة ألف درهم.

وحكى سعيد بن إسحاق النصراني قال: كنت مع الرشيد بالرقعة^(١)، ومعه ولداه: الأمين والمأمون، وكان رجلاً كثير الأكل والشرب، فأكل في بعض الأيام أشياء خلط فيها ودخل المستراح، فغشي عليه، وأخرج، فقوي عليه الغشي، حتى لم يشك في موته، وأرسل إليّ، فحضرت، وجسست عرقه، فوجدت نبضه خفياً، وكان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاء، وحركة الدم.

فقلت لهم: يموت! إن لم يحتجم الساعة.

فأجاب المأمون إليه، وتقدمت الحجام، وتقدم بإقعاده، فلما وضع المحاجم عليه ومصها، رأيت الموضع قد احمر.

فطابت نفسي، وعلمت أنه حي، فقلت للحجام: اشرط، فشرط، فخرج الدم، فسجدت شكراً لله، وجعل كلما خرج الدم يحرك رأسه ويسفر لونه، إلى أن تكلم، وقال: أين أنا؟ فطينا نفسه، وغذينا صدر دُرّاج^(٢)، وسقينا شراباً، وما زلنا نشمه الروائح الطيبة، ونجعل في أنفه الطيب حتى تراجعت قوته، ودخل الناس عليه، ثم وهب الله له عافيته.

فلما كان بعد أيام، دعا صاحب حرسه، فسأله عن غلته في السنة، فعرفه أنها ثلاث

(١) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده وأصله كل أرض إلى جانب وادٍ ينسبط عليها الماء، وهي مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام، والرقة أيضاً: البستان المقابل للتاج من دار الخلافة ببغداد، وهي الجانب الغربي وهو عظيم جداً جليل القدر. انظر: معجم البلدان (٣/٥٨-٦٠)، معجم ما استعجم (٢/٦٦٦).

(٢) دُرّاج - بالضم والتشديد -: ضرب من الطير ذكرًا كان أو أنثى. انظر: مختار الصحاح مادة (دُرّج).

مائة ألف درهم. فسأل صاحب شرطته؟ فقال: خمسمائة ألف درهم. فسأل حاجبه؟ فقال: ألف ألف درهم.

فقال لي: ما أنصفناك، حيث غلات هؤلاء وهم يحرسونني من الناس على ماذكروا، وأنت تحرسني من الأمراض، وتكون غلتك دونهم! ثم أمر بإقطاعي ألف ألف درهم.

فقلت: يا سيدي! ما لي حاجة إلى الإقطاع، ولكن تهب لي ما أشتري لي به ضياعاً غنتها ألف ألف درهم، فجميع ضياعي أملاك لي، لا إقطاع.

والذي صار إليه في أيام خدمته للخلفاء وهي نحو ثلاثين سنة، جعل كثيرة، وجدته مدرجاً بخط كاتبه، وفيه إصلاحات بخطه.

فأما ما صرفه منه في مدة حياته في نفقاته، فهو: سبعة وعشرون ألف ألف درهم، وستمائة ألف درهم.

وفي ثمن دور وبساتين ومتنزهات، ورقيق، ودواب: سبعون ألف ألف درهم.

وفي عمائر: ثمانية آلاف ألف درهم.

وفي ثمن ضياع: اثنا عشر ألف ألف درهم.

وفي ثمن جواهر، وما أعده للذخائر: خمسمائة ألف دينار، وخمسون ألف ألف درهم.

وفي وجود القرب، وما كفله عن المصادرين: ثلاثة آلاف ألف درهم.

وما جحده أرباب الودائع له: ثلاثة آلاف ألف درهم.

ثم الذي خلفه بعد هذا عند وفاته لابنه بختيشوع، وجعل المأمون الوصي فيه
فسلمه إليه عن آخره، ولم يتعرض إلى شيء منه: فتسعمائة ألف دينار.

وهذا جبرائيل هو الذي عناه أبو نواس بقوله: [مجزوء الوافر]

سألت أخِي أبا عيسى	وجبريسل له عقل
فقلت الراح تعجبني	فقال كثيرها بقتل
فقلت له فقد رلي	فقال وقول له فصل
وجدت طبائع الإنسا	ن أربعة هي الأصل
فأربعة لأربعة	لكل طبيعة رطل ^(١)

وذكر أبو الفرج الأصفهاني في المأمون شعراً قاله في جبرائيل، هو: على الإسلام

والملة [الهزج]

ألا قل للذي ليس	على الإسلام والملة
لجبريل أبي عيسى	أخي الأئذال والسفلة
أفي طبك يا جبريـ	ل ما يشفي دوا العلة
غزال قد سبى عقلي	بلا جرم ولا زلة

قال [أبو الفرج: والشعر للمأمون في جبرائيل بن بختيشوع المتطبب]^(٢)، والغناء

لتيتم، خفيف الرمل.

ومن كلام جبرائيل: «أربعة تهدم العمر: إدخال الطعام على الطعام قبل الانهضام،

(١) الرطل: وزن زنته ثنتا عشرة أوقية بأواقي العرب، والأوقية أربعون درهماً. [لسان العرب: مادة رطل].

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

والشرب على الريق، ونكاح العجوز،، والتمتع في الحمام»^(١).

ومنهم:

٦٤ - بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع^(٢)

عادي الكبار، وعادل البحار، وعاد النجوم في الأقطار، وأناف رتبة على أبيه، وكانت تزاحم الأطواد، وتزاح بها أعذار حساده ابن الزيات^(٣) ابن أبي دؤاد^(٤)، فلهذا قصد مرات بالغوائل، وأرصد تارات لغلق الحبايل، فلم تترك له سوابق المساعي، ويتدرك بالدرياق به سم الأفاعي، لما امتد به طلق نفسه، ولا نفس عنه حلق حبسه، ثم صلح حاله، وقوي محاله، ونطق في مجالس الخلفاء لسانه، وصدق إحسانه، واستعاد أيامه

(١) عيون الأنباء (٢/ ٣٥).

(٢) هو: بختيشوع بن جبريل النصراني صاحب التصانيف، خدم المأمون ومن بعده من الخلفاء ثم نكبه المتوكل مدة ونفاه ثم رده إلى الحبس وقيدته حتى هلك في حدود (٢٦٠هـ). انظر: الوافي بالوفيات (١٠/ ٥٤-٥٥)، أخبار الحكماء للقفطي ص ٧٢-٧٤، عيون الأنباء (٢/ ٣٦-٤٧).

(٣) هو: محمد بن عبد الملك بن أبي مدين حزة الوزير، أبو جعفر ابن الزيات، كان أبوه زياتاً نشأ وقرأ الأدب، وقال الشعر البديع، وتوصل إلى أن وزر للمعتصم والوائق، ثم انقلب عليه المتوكل وقبض عليه ورماه في التنور أربعين يوماً حتى مات سنة ثلاث وثلاثين ومائتين. انظر: الكامل في التاريخ (٦/ ٩٦، ٩٧)، العبر في خبر من غبر (١/ ٤١٤)، المنتظم في التاريخ (١١/ ١٩٨-٢٠٢) تاريخ ابن خلدون (٣/ ٣٤١) وما بعدها، شذرات الذهب (٢/ ٧٨، ٧٩)، مرآة الجنان (٢/ ١١١)، تاريخ بغداد (١/ ٣٤٢-٣٤٤)، الوافي بالوفيات (٤/ ٢٦).

(٤) هو: أحمد بن أبي داود الإيادي المعتزلي، ولد سنة ستين ومائة، ولي القضاء للمعتصم ثم للوائق، وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب ولكنه كان معتزلي المذهب، وهو صاحب فتنة خلق القرآن، واختلف في سنة وفاته؛ فقيل: سنة (٢٣٨)، وقيل: (٢٤٠). انظر: البداية والنهاية (١٠/ ٣١٩) وما بعدها، العبر (١/ ٤٣٢)، الوافي بالوفيات (٧/ ١٨٤) وما بعدها، شذرات الذهب (٢/ ٩٣)، وفیات الأعيان (١/ ١٧٩-١٨١).

الأول أترابًا، وأياماه الحسان - وطلما هزته - إطرابًا.

ذكره ابن أبي أصيبعة^(١) وقال فيه: «كان سريانيًا نبيل القدر، وبلغ من عظم المنزلة والحال، وكثرة المال، ما لم يبلغه أحد من سائر الناس، الذين كانوا في عصره، وكان يضاهي المتوكل في اللباس والفرش».

قال [فيثون]^(٢) الترجمان: «وكان ابن أبي دؤاد وابن الزيات يعاديانه، ويغريان به الواصل^(٣)، فسخط عليه وقبض على أمواله وضياعه، ونفاه إلى «جند يسابور» فلما اعتل الواصل بالاستسقاء^(٤) بعث لإحضاره، ثم عاجل الواصل الموت قبل وصوله، ثم صلحت أيام المتوكل حاله، إلى أن بلغ مبلغًا حسده عليه المتوكل وقبض عليه».

قال: «إن ببختيشوع كان عظيم المنزلة عند المتوكل، فأفرط في الإدلال عليه، فنكبه، وقبض على أملاكه، ونفاه إلى مدينة السلام، ثم عرض للمتوكل قولنج، فاستحضره، واعتذر إليه وعالجه، فبرئ، فأنعم عليه ورضي عنه، وأعاد عليه ما كان له، ثم جرت على ببختيشوع مكيدة أخرى، فنكب، ووجه به إلى البصرة.

ثم رده المستعين إلى وظيفة الخدمة وأحسن إليه إحسانًا كثيرًا، فلما ولي المهدي

(١) عيون الأنباء (٢/٣٦-٤٦).

(٢) ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) هو: أبو عبد الله محمد بن الواصل بن المعتصم بن هارون الرشيد، ولد سنة بضع عشرة ومائتين، ويومع يوم الأربعاء ليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين بعد خلع المعتز نفسه بين يديه حتى عزل سنة ست وخمسين. انظر: المنتظم (١٢/٨٠)، الكامل في التاريخ (٦/٢٢٣) وما بعدها، سمط النجوم العوالي (٣/٤٧٥)، البداية والنهاية (١١/١٧) وما بعدها، سير أعلام النبلاء (١٢/٥٣٥) وما بعدها، شذرات الذهب (٢/١٣٣).

(٤) الاستسقاء: ورم في جميع البدن، أو عظم البطن بسبب تجمع الماء في جوف الجسم أو بين أنسجته. [التنوير للحسن بن نوح القمري ص ٢٦].

جرى مجرى المتوكل في أنسه بالأطباء، وكان بختيشوع لطيف المحل منه، وشكا إليه بختيشوع ما أخذ منه أيام المتوكل، فأمر بأن يدخل الخزائن فكل ما عرفه رُدَّ إليه، فلم يبق له شيء إلا أخذه، وأطلق له كل ما فاته، وكتب برعاية أسبابه.

وقال بختيشوع للمهتدي في آخر عمره: يا أمير المؤمنين! لي أربعون سنة لم أقتصد، ولا شربت دواء، وقد حكم النجمون بأني أموت في هذه السنة، ولست أغتم لموتي، وإنما أغتم لفارقتكم.

فكلَّمه المهتدي بجميل وقال: قلَّ أن يصدق النجم. فلما انصرف كان آخر العهد

به.

وقال إبراهيم بن علي الحصري^(١) في كتاب «نور الطرف ونور الظرف»: تنازع إبراهيم بن المهدي وبختيشوع بين يدي أحمد بن أبي داؤد في عقار بالسواد، فأغلظ عليه إبراهيم فغضب ابن أبي داؤد وقال: يا إبراهيم! إذا تنازعت في مجلس الحكم بحضرتنا أمرًا فليكن قصدك أمّا^(٢)، وطريقك نهجا، وريحك ساكنة، وكلامك معتدلاً، ووفٌّ مجالس الخلافة حقوقها، فإن هذا أليق بك، وأجمل بحسن مذهبك، وشریف محنتك، ولا تعلمجن، فرب عجلة تورث رثيًّا، والله يعصمك من الزلل، وخطئ القول والعمل، ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم.

فقال إبراهيم: أمرت -أصلحك الله- بسداد، وحضضت على الرشاد، ولست

(١) هو: إبراهيم بن علي بن تميم القيرواني الحصري، الشاعر المشهور، من تصانيفه: كتاب زهرة الآداب، وهو مشهور من أمهات كتب الأدب، وكتاب المصون في سر الهوى المكنون، واختلف في سنة وفاته، والأشهر أنها سنة (٤٥٣هـ). انظر: الوافي بالوفيات (٦/ ٤١، ٤٢)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٣٩)، معجم الأدباء (١/ ٢٢٦-٢٢٨)، وفيات الأعيان (١/ ٥٤-٥٦).

(٢) أمّا: أي وسطًا.

بعائد إلى ما يلثم قدرتي عندك [ويسقطني من عينيك]^(١)، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار، فما أنا معتذر إليه من هذه البادرة اعتذار مقرر بذنبه؛ لأن الغضب لا يزال يستفزني بمراده، فيردني مثلك بحلمه، وتلك عادة الله عندك وعندنا فيك، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وقد جعلت حظي من هذا العقار لبختيشوع، وليت ذلك يفي بأرش^(٢) الجناية عليه، ولن يتلف مال أفاد موعظة.

قال أبو محمد بدر بن أبي الإصبع الكاتب: حدثني جدي قال: دخلت على بختيشوع في يوم شديد الحر، وهو جالس في مجلس غيخش عنده طاقات من الخيش، طاقان ريح بينهما طاق أسود، وفي وسطها قبة عليها جلال أسود من قصب مطهر بديقي^(٣)، قد صيغ بهاء الورد والكافور والصندل، وعليه جبة يياني سعيدي مثقلة، ومُطرقة قد التحف به، فعجبت من زيه.

فحين حصلت معه في القبة نالني من البرد أمر عظيم، فضحك وأمر لي بحبة ومُطَرَف^(٤)، وقال: يا غلام! اكشف جوانب القبة فكشفت، فإذا أبواب مفتوحة من جوانب الإيوان إلى مواضع مكبوسة بالثلج، فخرج منه البرد الذي لحقني، ثم دعا بطعامه، فأتي بهائدة في غاية الحسن، عليها كل شيء حسن ظريف، ثم أتي بفراييج مشوية في غاية الحمرة، جاء الطباخ فنفضها كلها فانفضت، وقال: هذه فراييج تعلف اللوز والبزرقطونا^(٥)، وتسقى بهاء الرمان.

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) الأرش: دية الجراحات. انظر مختار الصحاح، مادة (أرش).

(٣) الديقي: ثياب مطرزة كانت تجلب من مصر، وتنسب إلى ديق. انظر: لسان العرب، مادة (دبق).

(٤) المطرف: أدرية من خز مربعة. انظر: مختار الصحاح مادة (طرف).

(٥) البزرقطونا: بذور نبات عشبي سنوي من فصيلة لسان الحمل، ينتب في البراري والأراضي الرملية، لا يتجاوز ارتفاعه قدم ونصف، ساقه متفرعة كل فرع يحمل بحمل رأسيه أو ثلاثة رؤوس كروية الشكل في كل منها بذور صلبة سوداء اللون تشبه البراغيث شكلاً وحباً، وهذه البذور عديمة

ولما كان في صلب الشتاء، دخلت عليه يومًا والبرد شديد، وعليه جبة محشوة، وكساء، وهو جالس في طارمة^(١)، في الدار على بستان في غاية الحسن، وعليها سمور^(٢) قد ظهر به وفوقه جلال حرير مصبغ، ولبود مغربية، وأنطاع آدم يمانية، وبين يديه كانون فضة مذهب مخرق، وخادم يو قد العود الهندي، وعليه غلال قصب في نهاية الرفعة، فلما حصلت معه في الطارمة، وجدت من الحر أمرًا عظيمًا، فضحك وأمر لي بغلالة قصب، وتقدم بكشف جوانب الطارمة، فإذا مواضع لها شبائيك خشب بعد شبائيك حديد، وكوانين^(٣) فيها فحم الغضا^(٤)، وغلان يتفخون ذلك الفحم بالزقاق، وكما يكون للحدادين.

ثم دعا بطعامه، فأحضره ما جرت به العادة من السرور والنظافة، وأحضرت فراريج بيض، شديدة البياض، فبشعتها، وخفت أن تكون غير نضيجة، ووافي الطباخ فنفضها فانتفضت، فسألته عنها؟ فقال: هذه تعلق الجوز المقشر، وتسقى اللبن الحليب.

وكان بختيشوع بن جبرائيل يهدي البخور في درج ومعه درج آخر فيه فحم، يتخذ له من قضبان الأترج^(٥)، والصفصاف، وشنس^(٦) الكرم المرشوش عليه عند إحراقه ماء

الرائحة، طعمها تافه، وإذا مضغت جعلت للعب لزجًا، وإذا وضعت في الماء ألغت بهادة لزجة مخاطية تسمى لعب البزرقطونا.

(١) الطارمة: بيت خشبي، وهو دخيل أعجمي معرب. انظر: لسان العرب، مادة (طرم).

(٢) السمور: دابة يصنع من جلدها فرو ثمين.

(٣) كوانين: جمع كانون، وهو الموقد.

(٤) الغضا: شجر يصنع من خشبه أجود أنواع الفحم.

(٥) الأترج: وهو ما يعرف الآن باسم النارج، ويعرف أيضًا باسم حامض الأترج، وهو من أول

الحمضيات التي عرفها الأقدمون. انظر: المنصوري في الطب (الملحق) ص ٥٧٩، المعتمد في الأدوية

المفردة ص ٤٠٣.

(٦) الشنس: قضيب الشجر.

الورد المخلوط بالمسك والكافور، وماء الخلاف^(١)، والشراب العتيق. ويقول: أنا أكره أن أهدي بخورًا بغير فحم فيفسده فحم العامة، ويقال: هذا عمل بختيشوع!

قال أبو محمد بدر بن أبي الإصبع عن أبيه عن أبي عبد الله محمد بن الجراح، عن أبيه أن المتوكل قال يومًا لبختيشوع: ادعني.

فقال: السمع والطاعة.

فقال: أريد أن يكون ذلك غدًا.

قال: نعم وكرامة. وكان الوقت صائفًا، وحره شديد.

فقال بختيشوع لأنسابه وأصحابه: «أمرنا كله مستقيم إلا الخيش، فإنه ليس لنا منه ما يكفي».

فأحضر وكلاءه وأمرهم بابتیاع كل ما يوجد من الخيش بـ«سر من رأى»^(٢)، ففعلوا ذلك وأحضروا كل من وجدوه من النجادين^(٣)، والصناع، فقطع لداره كلها صحنونها وحجرها، ومجالسها، وبيوتها، ومستراحاتها خيشًا حتى لا يجتاز الخليفة في موضع غير مخيش! وأنه فكر في روائحه التي لا تزول إلا بعد استعماله مدة، فأمر بابتیاع كل ما يقدر عليه بسر من رأى من البطيخ، وأحضر حشمه وغلمانه، وأجلسهم يدلكون الخيش بذلك البطيخ ليلتهم كلها، وأصبح وقد انقطع روائحه، فتقدم إلى

(١) الخلاف: طيب غزال المسك.

(٢) سر من رأى - بضم أوله وثانيه -: وهي مدينة قديمة بناها سام بن نوح عليه السلام، ودعا أن لا يصيب أهلها سوء ثم راق للمعتصم أن يجددها فجدد بناءها عام اثنين وعشرين ومائتين، ونزلها بأترাকে، وهي تقع على نهر دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا. انظر: معجم ما استعجم للبكري (٣/ ٧٣٤)، معجم البلدان (٣/ ١٧٣-١٧٨).

(٣) النجاد: أي المنجد.

فَرَّاشِيهِ فَعَلَقُوا جَمِيعَهُ فِي الْمَوَاضِعِ الْمَذْكُورَةِ، وَأَمَرَ طَبَاخِيهِ بِأَنْ يَعْمَلُوا خَمْسَةَ آلَافِ جُونَةٍ^(١)، فِي كُلِّ جُونَةٍ بَابَ خَبْزِ سَمِيدٍ، وَدَسَتْ رِقَاقَ وَزَنِ الْجَمِيعِ عَشْرُونَ رَطَلًا، وَحَمَلَ مَشْوِيٌّ، وَجَدِي بَارِدٌ، وَفَائِقَةٌ، وَدَجَاجَتَانِ مَصْدَرَتَانِ، وَفَرَخَانِ، وَمَصُوصَانِ^(٢)، وَثَلَاثَةُ أَلْوَانٍ، وَجَامٌ^(٣) حَلَوَاءٌ.

فَلَمَّا وَافَاهُ الْمُتَوَكَّلُ، رَأَى كَثْرَةَ الْخَيْشِ وَجَدْتَهُ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ ذَهَبَ بِرَائِحَتِهِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ حَدِيثَ الْبَطِيخِ، فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ، فَأَكَلَ هُوَ وَبَنُو عَمِّهِ، وَالْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ^(٤) عَلَى مَائِدَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَجْلَسَ الْأَمْرَاءَ وَالْحُجَابَ عَلَى سِهَاطَيْنِ عَظِيمَيْنِ لَمْ يَرِ مِثْلَهُمَا لِأَمْثَالِهِ، وَفَرَّقَ الْجُونَ عَلَى الْعُلَمَاءِ، وَالْخُدَمِ وَالنَّقَبَاءِ، وَالرَّكَابِيَةِ، وَالْفَرَّاشِينَ، وَالْمَلَّاحِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْحَاشِيَةِ، لِكُلِّ وَاحِدٍ جُونَةٌ، وَقَالَ:

«قَدْ أَمَنْتَ ذَمَّهُمْ، لِأَنِّي مَا كُنْتُ آمِنٌ لَوْ أَطْعَمُوا عَلَى مَوَائِدٍ أَنْ يَرْضَى هَذَا، وَيَغْضَبَ الْآخَرُ، وَيَقُولُ: شَبِعْتُ، وَيَقُولُ آخَرٌ: لَمْ أَشْبِعْ، فَإِذَا أُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ جُونَةٌ مِنْ هَذِهِ الْجُونَ، كَفَّتْهُ».

وَاسْتَشَرَفَ الْمُتَوَكَّلُ عَلَى الطَّعَامِ فَاسْتَعْظَمَهُ جَدًّا، وَأَرَادَ النَّوْمَ، فَقَالَ لِبَخْتِشُوعَ: أَرِيدُ أَنْ تَتَوَمَّنِيَ فِي مَوْضِعٍ مُضِيٍّ لَا ذُبَابَ فِيهِ، وَظَنُّهُ أَنَّهُ يَتَعَتَّهُ بِذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ بَخْتِشُوعُ تَقْدِمُ بِأَنْ تَجْعَلَ أَجَاجِينَ الدَّبْسِ فِي سَطُوحِ الدَّارِ، لِيَجْتَمَعَ الذُّبَابُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَقْرُبِ أَسْفَلَ الدَّوَرِ ذُبَابَةً وَاحِدَةً.

(١) الجُونَةُ: سَلِيلَةٌ مُسْتَدِيرَةٌ مَغْشَاةٌ أَدَمًا تَكُونُ مَعَ الْعَطَارِينَ. انْظُرْ: مَخْتَارُ الصَّحَاحِ، مَادَّةُ (جُونِ).

(٢) الْمُصُوصُ: لَوْنٌ مِنَ الْأَطْعَمَةِ عِبَارَةٌ عَنِ لَحْمٍ مَطْبُوخٍ جَيِّدًا.

(٣) الْجَامُ: صَحْنٌ مِنْ زَجَاجٍ أَوْ فِضَّةٍ.

(٤) هُوَ: الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ بْنِ عَرَطُوجَ، أَبُو أَحْمَدَ التَّرْكِي، وَزِيرُ الْمُتَوَكَّلِ وَقُتِلَ مَعَهُ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَكَانَ شَاعِرًا فَصِيحًا مَفُوهًا مُحَسَّنًا، مَوْصُوفًا بِالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ وَالرِّيَادَةِ وَالسُّودْدِ. انْظُرْ: تَارِيخُ دِمَشْقَ (٢٢٥-٢٢٨)، سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (١٢/٨٢، ٨٣)، فَوَاتُ الْوَفِيَّاتِ (٢/٢٠٦، ٢٠٧).

ثم أدخل المتوكل إلى بيت مرتفع كبير، سقفه كله بكواء فيها جامات يضيء البيت منها، وهو مخيش بعد الخيش بالديبقي المصبوغ بهاء الورد والصندل والكافور.

فلما اضطجع للنوم، أقبل يشم روائح في نهاية الطيب، لا يدري ما هي، لأنه لم ير في البيت شيئاً من الروائح والفاكهة والأنوار، ولا خلف الخيش، لا طاقات ولا موضع يجعل فيه شيء من ذلك.

فتعجب وأمر الفتح بن خاقان أن يتتبع حال تلك الروائح، حتى يعرف صورتها.

فخرج يطوف، فوجد حول البيت من خارجه ومن سائر نواحيه وجوانبه أبواباً صغاراً لطاقاً كالطاقات محشوة بصنوف الرياحين والفواكه واللخالنج، والمشام التي فيها التفاح والبطيخ المستخرج ما فيها المحشوة بالنعام^(١)، والحماحم اليماني، المعمول بهاء الورد والخلاف، والكافور، والشراب العتيق، والزعفران الشعر.

ورأى الفتح غلماناً قد وكلوا بتلك الطاقات، مع كل غلام مجمرة فيها ند^(٢) يسجره، ويبخر به البيت من داخله إزار من اسفيداج^(٣) مخرم خروماً صغاراً لا تبين، يخرج منها تلك الروائح الطيبة العجيبة إلى البيت.

فلما عاد الفتح وشرح للمتوكل صورة ما شاهده كثر تعجبه منه، وحسد بخيشنوع على ما رآه من نعمته، وكمال مروءته، وانصرف من داره قبل أن يستتم يومه، وادعى شيئاً وجده من التياث بدنه، وحقد عليه ذلك، فنكبه بعد أيام يسيرة، وأخذ له مالاً كثيراً لا يقدر، ووجد له في جملة كسوته أربعة آلاف سروال ديبقي سفري، في جميعها تكك

(١) النعام: نبت طيب الرائحة. انظر: مختار الصحاح، مادة (نَم).

(٢) الند: العنبر.

(٣) اسفيداج: رماد الرصاصي.

إبريسم^(١) أرمني.

وحضر الحسين بن محمد، فختم على خزائنه، وحمل إلى دار المتوكل. ما صلح منها، وباع شيئاً كثيراً، وبقي بعد ذلك حطب وفحم ونبذ، وتوابل، فاشتراها الحسين بن مخلد بستة آلاف دينار.

وذكر أنه باع من جملة بمبلغ ثمانية آلاف دينار، ثم حسده حمدون، ووشى إلى المتوكل، وبذل فيما بقي في يده ستة آلاف دينار، فأجيب إلى ذلك، وسلم إليه فباعه بأكثر من الضعف، وكان هذا في سنة أربع وأربعين ومائتين.

قال فيثون الترحمان: كان المعتز بالله قد اعتل في أيام المتوكل علة من حرارة، وامتنع منها من أخذ شيء من الأغذية والأدوية، فشق ذلك على المتوكل كثيراً، واغتم به وصار إلى بختيشوع، والأطباء عنده، وهو على حاله في الامتناع، فمأزحه وحادثه فأدخل المعتز يده في كم جبة وشي يمانى مثقلة كانت على بختيشوع، وقال: ما أحسن هذا الثوب!

فقال له بختيشوع: يا سيدي! والله ما له نظير في الحسن، وثمنه على ألف دينار، فكل لي تفاحتين، وخذ الجبة، فدعا بتفاح، فأكل اثنتين، ثم قال له: تحتاج الجبة إلى ثوب يكون معها. وعندي ثوب هو أخ لهذا، فاشرب لي شربة سكنجيين^(٢)، وخذه.

فشرب شربة سكنجيين، ووافق ذلك اندفاع طبيعته، فبرأ المعتز، وأخذ الجبة والثوب، وصلح من مرضه، فكان المتوكل يشكر هذا الفعل أبداً لبختيشوع.

قال ثابت بن قرة بن سنان بن ثابت^(٣): إن المتوكل انتهى في بعض الأوقات

(١) الإبريسم: الحرير.

(٢) السكنجيين: شراب من خل وعسل.

(٣) هو: ثابت بن قرة الحراني الطبيب، ولد سنة إحدى عشرة ومائتين، ولم يكن له نظير في وقته في الطب، وله أرساد حسان، توفي سنة (٢٨٨هـ). انظر: وفيات الأعيان (١/٣١٣، ٣١٤)،

الحارة أن يأكل مع طعامه خردلاً فمنعه من ذلك الأطباء لحدة مزاجه، وحرارة كبده، وغائلة الخردل.

فقال بختيشوع: أنا أطعمك إياه، وإن ضرك عليّ.

فقال: افعل، فأمر بإحضار قرعة، وجعل عليها طيناً، وتركها في تنور، واستخرج ماءها، وأمر بأن يقشر الخردل ويضرب بهاء القرع، وقال: إن الخردل في الدرجة الرابعة من الحرارة، والقرع في الدرجة الرابعة من الرطوبة، فيعتدلان فكلّ شهورتك.

وبات تلك الليلة، ولم يحس بشيء من الأذى، وأصبح كذلك، فأمر بأن يحمل إليه ثلاث مائة ألف درهم، وثلاثون تختاً^(١) من أصناف الثياب.

قال إسحاق بن علي الرهاوي عن عيسى^(٢) بن ماسة قال: رأيت بختيشوع بن جبرائيل وقد اعتل فأمر أمير المؤمنين المتوكل المعتز أن يعوده وهو إذ ذاك ولي عهد، فعاده ومعه محمد بن عبد الله بن طاهر، ووصيف التركي.

قال: وأخبرني إبراهيم بن محمد المعروف بابن المدبر^(٣) أن المتوكل أمر الوزير

الفهرست ص ٣٨٠، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٨٥)، الوافي بالوفيات (١٠/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(١) التخت: صوان يوضع ويصان فيه الثياب.

(٢) عيسى بن ماسة: من أشهر أطباء القرن الثالث الهجري، له مؤلفات؛ منها: كتاب الرؤيا في معالجة الحوامل، وكتاب من لا يحضره الطبيب وقوى الأغذية، وكتاب الجعاع أو وسائل النسل والذريات. انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ١٦٤، الفهرست لابن النديم ص ٥٩٠، مختصر تاريخ الطب العربي (٢٣/ ٥١٧)، عيون الأنباء (٢/ ٢٠).

(٣) هو: إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبر، أبو إسحاق الكاتب، ولد سنة إحدى عشرة ومائتين، كان كاتباً بليغاً شاعراً فاضلاً مترسلاً، روى عنه أبو الحسن الأخفش، وأبو بكر الصولي، وميمون بن هارون وجعفر بن قدامة الكاتب، وخدم المتوكل مدة طويلة، توفي سنة تسع وسبعين ومائتين. انظر: الوافي بالوفيات (٦/ ٧١-٧٣)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٢٤-١٢٦)، فوات الوفيات (١/ ١٠٠-١٠٢).

شفاهًا، وقال: اكتب في ضياع بختيشوع فإنها ضياعي، وملكي، ومحلّه منا محل أرواحنا من أبداننا.

قال عبيد الله بن جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع هذا المذكور: مما يدل على منزلة بختيشوع عند المتوكل وانبساطه معه، قال: من ذلك، ما حدثنا به بعض شيوخنا، أنه دخل بختيشوع يومًا إلى المتوكل وهو جالس على سدة في وسط دار الخاصة، فجلس بختيشوع على عادته معه على السدة، وكان عليه دراعة ديباج رومي، وقد انفتق ذيلها قليلًا، فجعل المتوكل يحدث بختيشوع ويعبث بذلك الفتق، إلى أن بلغ إلى حد النيفق^(١).

ودار بينهما كلام اقتضى أن سأل المتوكل بختيشوع: بماذا يعلم أن المشوش يحتاج إلى الشد والقيادة والوثاق؟

قال: إذا بلغ في فتق دراعة طبيبه إلى حد النيفق، شددناه.

فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره، وأمر له في الحال بخلع سنية، ومال جزيل.

وقال أبو الريحان البيروني^(٢) في كتاب «الجماهر في معرفة الجواهر»: إن المتوكل جلس يومًا لهدايا النيروز، فقدم إليه كل علق نفيس، وكل ظريف فاخر، وأن طبيبه بختيشوع بن جبرائيل دخل، وكان يأنس به، فقال له: ما ترى في هذا اليوم؟

(١) النيفق: نيفق السراويل: الموضع المتسع منه، والعامه تقوله بكسر النون. انظر: مختار الصحاح، مادة (نفق).

(٢) هو: أحمد بن محمد، وفي معجم الأدباء: محمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني - بفتح الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وضم للراء وبعد الواو الساكنة نونًا - الخوارزمي، كان مكبًا على تحصيل العلوم، ومن مصنفاته: القانون المسعودي، وكتاب الجماهر في معرفة الجواهر، توفي أبو إسحاق في عشر الثلاثين والأربعمئة. انظر: الوافي بالوفيات (٨/ ٩١-٩٤)، معجم الأدباء (٥/ ١٢٢-١٣٠).

فقال: مثل الشحاذين؛ إذ ليس قدر، وأقبل على ما معي، ثم أخرج من كمه درج
آبنوس مطلياً بالفضة، وفتحته عن حرير أخضر، انكشف عن ملعقة كبيرة جوهر، لمع منها
شهاب، وضعها بين يديه.

فرأى المتوكل ما لا عهد له بمثله، وقال: من أين هذا؟

قال: من الناس الكرام، ثم حدث أنه صار إلى أبي من أم جعفر زبيدة، في ثلاث
مرات، ثلاث مائة ألف دينار، بثلاث شكايات عاجلها فيها:

واحدتها: أنها شكت عارضاً في حلقها، منذرة بالخناق^(١)، فأشار عليها بالفصد
والتطفية، والتغذي بحشو وصفه، فأحضر على نسخته في غضارة صينية عجيبة الصفة،
وفيها هذه الملعقة، فغمزني أبي على رفعها، ففعلت، ولففتها في طيلساني، وجاذبتها
الخادم.

فقالت له: «لاطفه، ومره بردها، وعوضه منها عشرة آلاف دينار»، فامتنت،
وقال أبي: يا سَيِّ! إن ابني لم يسرق قط، فلا تفضحيه في أول كراته، لئلا ينكسر قلبه.
فضحكت، ووهبتها له.

وسئل عن الآخرين؟ فقال: إنها اشتكت إليه تغير النكهة، بإخبار إحدى بطانتها
إياها، وذكرت أن الموت أسهل عليها من ذلك.

فجوعها إلى العصر وأطعمها سمكاً ممقوراً^(٢)، وأسقاها دُردي^(٣) نبيذ دقل^(٤)

(١) الخناق: لفظ أطلقه القدماء على التهابات شراخ الحنك واللوزتين واللهاة، وما يحيط بفوهة البلعوم،
وأصل الكلمة خناقات (جمع خناق)، وهو أنواع عديدة. انظر: المنصوري في الطب ص ٦٥٤.

(٢) سمك ممقور: يُمَقَّر في ماء وملح؛ أي يُنَقَّع ولا تقل: منقور. انظر: مختار الصحاح، مادة (مقر).

(٣) دردي: دردي وغيره ما يبقى في أسفله. انظر: مختار الصحاح، مادة (درد).

(٤) دقل: من أردأ أنواع التمر.

ياكرهه، فغثيت نفسها، وقذفت، فكرر ذلك عليها ثلاثة أيام.

ثم قال لها: تنكهي في وجه من أخبرك بذلك، واستخبريه: هل زال؟

والثالثة: أنها أشرفت على التلف من فُواق شديد، كان يسمع من خارج الحجرة، فأمر الخادم بإصعاد خوابي إلى سطح الصحن، وتصفيقها حوله على الشفير، وملأها ماء، وجلس خلف كل حِجٍّ^(١) خادم، حتى إذا صفق بيده على الأخرى دفعوها دفعة إلى وسط الدار، ففعلوا، وارتفع لذلك صوت شديد أربعها وزايلها الفواق.

قال أبو علي القيانى: حدثني أبي قال: ودخلت يومًا إلى بختيشوع وكان من أيام الصيف، وجلست فإن هو قد رفع طرفه إلى خادمه، وقال له: هات! فجاء بقدح فيه نحو نصف رطل شراب عتيق، وعلى طرف خلالة ذهب، وشيء أسود، فمضغه، ثم شرب الشراب عليه، وصبر ساعة، فرأيت وجهه يتقد كالنار، ثم دعا بأطباق فيها خوخ جبلي في نهاية الحسن، فأقبل يقطع ويأكل، حتى انتهى وسكن تلهبه، وعاد وجهه إلى حاله.

فقلت له: حدثني بخبرك.

فقال: اشتبهت الخوخ شهوة، وخفت ضرره، فاستعملت الترياق والشراب، حتى نقرت الحجر لي جيد الطحن.

ونقلت من بعض الكتب أن بختيشوع كان يأمر بالحقن والقمر متصل بالذنب، فيحل القولنج من ساعته، ويأمر بشرب الدواء والقمر على مناظرة الزهرة، فيصلح العليل من يومه.

ولما توفي بختيشوع خلف عبيد الله ولده، وخلف معه ثلاث بنات، وكانت الوزراء والنظار يصادرونهم ويطالبونه بالأموال، ففارقوا واختلفوا.

(١) الحب: الخابية فارسي معرب. مختار الصحاح، مادة (حب).

وكان موته يوم الأحد لثمان بقين من صفر، سنة ست وخسين ومائتين.

ومن كلام بختيشوع بن جبرائيل:

«الشراب على الجوع رديء، والأكل على الشبع أردأ منه».

وقال: «أكل القليل مما يضر أصلح من أكل الكثير مما ينفع».

ولبختيشوع من الكتب كتاب «الحجامة» على طريق المسألة والجواب.

ومنهم:

٦٥- جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع^(١)

عالم أتقن علم الطبيعة، وأيقن في براء السقام ربيعه، بخاطر يجري عذبه سلسالاً، ونحيء سحبه أرسالاً، لا تلبث العلل معه، ولا تتشبث منه ببارقة مطعمه، علماً وهبه، وعملاً طفا خرم المزاج وفرق لهبه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): «كان فاضلاً، عالماً، متقناً لصناعة الطب، جيداً في أعمالها، حسن الدراية لها، وله تصانيف جليلة في صناعة الطب، وكانت أجداده في هذه الصناعة كل منهم أوجد زمانه، وعلامة وقته».

قال عبيد الله بن جبريل: كان جدي عبيد الله بن بختيشوع متصرفياً^(٣)، ولما ولي المقتدر استكتبه بحضرته، ثم مات، فقبض المقتدر على ماله، ثم تقلبت بمخلفيه الأمور

(١) انظر: تاريخ الحكماء ص ١٤٦-١٥١، عيون الأنباء (٢/٤٧).

(٢) عيون الأنباء (٢/٤٧-٥٥).

(٣) أي: مسئولاً ممن ينفذ تصرفه في الأمور.

إلى أن دخل جبرائيل بغداد وما معه إلا النزر اليسير، فقصد طبيباً يعرف بـ «ترمرة» وقرأ عليه وكان من أطباء المقتدر وخواصه، وقرأ على يوسف الواسطي، ولازم المارستان، ثم اتصل برسول صاحب فارس، فطار ذكره إلى فارس وكرمان^(١)، وكان سبب خروجه إلى شيراز، واتصل بعضد الدولة، وأهدى إليه رسالة في عصب العين، تكلم فيها بكلام حسن، فحسن موقعه عنده، فقرر له جاريًا عليه، ثم تعرض لزوج خالة عضد الدولة مرض فأنفذ إليه فشفي على يده فأجزل عطاءه ورده منكرًا ثم صحبه إلى بغداد وأجرى عليه رزقين في البيمارستان غير الجارية، ثم عرض لابن عباد مرض صعب في معدته، فجهز له عضد الدولة بما يحتاج إليه، ثم بعث به إليه، فلما أتى الري أحسن ابن عباد ملتقاه، وأكرم نزله، ثم امتحنه، فظهر له فضله، فخلع عليه خلعًا سنّية، ثم أمره بعمل كناش يذكر فيه الأمراض التي تعرض من الرأس إلى القدم، فعمل كناشه الصغير، فحسن موقعه عنده، ثم وصله بما قيمته ألف دينار، ورفع أمره إلى عضد الدولة فزاد موضعه عنده، فلما عاد من الري دخل بغداد بزي جميل وأمر مطاع وغلتمان وحشم، وخدم، وصادف من عضد الدولة ما يسره، واستدعاه حسام الدولة^(٢) إلى الموصل، وكانت له امرأة عليلة بمرض حاد، فأخذ في علاجها، وأشار بحفظ القارورة، فاتفق أن كان عنده وإذا بالجارية قد جاءت بالقارورة، فنظر إلى الماء، وقال لحسام الدولة: هذه المرأة تموت.

فانزعج لذلك وصرخت الجارية، فقال لها: جرى في أمر هذه المرأة شيء لا

(١) كرمان - بالفتح ثم السكون وآخره نون وربما كسرت والفتح أشهر - ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. انظر: معجم ما استعجم (٤/ ١١٢٥)، معجم البلدان (٤/ ٤٥٤) وما بعدها.

(٢) هو: المقلد بن الحبيب بن رافع بن المقلد حسام الدولة، أبو حسان العقيلي، صاحب الموصل، ملك الموصل بعد وفاة أخيه وذلك في سنة ست وثمانين وثلاثمائة حتى قتل سنة (٣٩١هـ). انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٢٦٠) وما بعدها، البداية والنهاية (١١/ ٣٢٩)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٦٠٥).

أعلمه، فحلقت الجارية أنها لم تجاوز التدبير. فقال: لعلكم خضبتموها بالحناء.

قالت: قد كان ذلك، فحرد وقال لحسام الدولة: أبشر بعد ثلاثة أيام تبرأ.

فكان كما قال.

ومنهم:

٦٦- خَصِيبُ النَصْرَانِي^(١)

خصيب لا يرتعي بكنفه المهزول، وطبيب لا يتوقى طبه إلا من هو عن الحياة معزول، عرف باختيان النفوس، وبيع غوالي المهج برخاص الفلوس.

كم اجتث شجرة لو تركت لطالت سُمُراتها، وطابت ثمراتها، لا جرم أن جرمه أوبقه وجره إلى محبسه، ثم ما فتح إلى غير قرارة القبر مطبقة.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال فيه: «[كان نصرانيًا]^(٢) من أهل البصرة، ومقامه بها، وكان فاضلاً في صناعة الطب، جيد المعالجة^(٣)».

قال محمد بن سلام الجمحي: «مرض الحكم بن محمد المازني، فأتوه بخصيب الطبيب يعالجه، فقال فيه: [مجزوء الرمل] ولقد قلت لأهلي إذا أتوني بخصيب

(١) كان طبيباً نصرانياً فاضلاً، مقامه بالبصرة، وكان ماهراً في صناعته جيد المعالجة. الوافي بالوفيات (١٣/١٩٩)، عيون الأنباء (٢/٥٦).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) انظر: عيون الأنباء (٢/٥٦).

ليس والله خـ صيب للذي بي بطبيـ بي
إنما يعرف دائمي من به مثل الذي بي

وقال ابن سلام: «كان خصيب نصرانياً نبيلًا، فسقى محمد بن أبي العباس السفاح شربة دواء، وهو على البصرة، فمرض بها، وحُل إلى بغداد، فمات بها، فاتهم به خصيب، فحبس حتى مات، فنظر في علته إلى مائه، وكان عالمًا، فقال: قال جالينوس: إن صاحب هذه العلة إذا صار ماؤه هكذا لا يعيش.

ف قيل له: إن جالينوس ربما أخطأ.

فقال: ما كنت إلى خطئه قط أحوج مني الآن! ومات من علته».

ومنهم:

٦٧- عيسى المعروف بأبي قريش

عارف لا يعادل في طبه، ولا يعادى معه السقم لخطبه، ولا يؤخر في جدل، ولا يؤرخ زمان به عدل، وكان يرجع إليه فيما التبس، ويكاد يستطلق بتطبيه السحاب إذا احتبس، هذا بالدربة في معرفة قوى العقاقير، ولما سبق له به سعد المقادير.

ذكر ابن أبي أصيبعة^(١)، قال: «قال إسحاق بن علي الرهاوي -فيما نقله- أن أبا قريش كان صيدلانيًا يجلس على موضع بباب قصر الخلافة، وكان دينًا صالحًا، وأن الخيزران^(٢) وجهت بمائها مع جارية لها إلى الطبيب، فلما خرجت، رأت أبا قريش، فأرته

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٥٦-٦٢).

(٢) هي: جارية المهدي، اشتراها فأعتقها وتزوجها فولدت له الهادي والرشد، توفيت سنة (١٧٢هـ).

انظر: البداية والنهاية (١٠/ ١٦٣)، المنتظم (٨/ ٣٤٦-٣٤٨)، الوافي بالوفيات (١٣/ ٢٨٠)،

الماء، فقال لها: هذا ماء امرأة حبلى بغلام.

فرجعت بالبشارة، فقالت لها الخيزران: ارجعي إليه واستقصي المسألة. فرجعت، فقال لها: ما قلت لها إلا الحق. فلما كان بعد أربعين يومًا أحست الخيزران بالحمل، فوجهت إليه ببدره دراهم، وكتمت الخبر عن المهدي، فلما مضت الأيام ولدت موسى الهادي، فأعلمت المهدي، وقالت له: إن طيبًا على الباب أخبر بهذا منذ تسعة أشهر، ويبحث إليه بتحف كثيرة، وبلغ هذا جرجس فأكذبه، ثم حبلت بأخيه هارون الرشيد، فقال جرجس للمهدي: جرب أنت هذا الطيب، فوجه إليه بالماء، فلما رآه قال: هذا ماء ابنتي أم موسى، وهي حبلى بغلام آخر.

فرجعت الرسالة بذلك إلى المهدي، وأثبت اليوم عنده، فلما مضت الأيام، ولدت هارون. فأحضره المهدي ولم يزل يطرح عليه الخلع، وبدر الدراهم والدنانير، حتى علت رأسه، وصير موسى وهارون في حجره، وكنا أبا قريش -أي: أبا العرب- وقال لجورجيس: هذا شيء أنا بنفسني جربته، ثم صار نظير جرجس في الرتبة، ومات أبو قريش وخلف اثنين وعشرين ألف دينار، مع نعمة سنية.

قال يوسف: وحدثني إبراهيم بن المهدي أن لحم عيسى بن جعفر بن المنصور كثر عليه حتى كاد أن يأتي على نفسه.

وإن الرشيد اغتم لذلك غمًا شديدًا أضر به في بدنه، ومنعه لذة المطعم والمشرب، وأمر جميع المتطبيين بمعالجته. فكلهم دفع أن يكون عنده في ذلك حيلة، فزادوا الرشيد غمًا إلى ما كان عليه منه، وأن عيسى المعروف بأبي قريش صار إلى الرشيد سرًا، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن أخاك عيسى بن جعفر رزق معدة صحيحة، وبدنًا قابلاً، ودهراً مسالماً، والأبدان مالم تختلط على أصحابها طبائعهم وأحوالهم، فتناهم العلل في بعض الأوقات،

والصحة في بعضها، والغموم في بعضها، والسرور في بعضها، ورؤية المكاره في بعضها، والمحاب في بعضها، وتدخلها الروعة أحياناً، والفرح أحياناً، لا يؤمن عليهم منها التلف؛ لأن لحمه يزداد حتى تضعف عن حمله العظام، وحتى يغمر فعل النفس، وتبطل قوى الدماغ والكبد، ومتى كان هذا عدت الحياة، وأخوك هذا إن لم تظهر موجدة تجدها عليه، أو عزيز عليه من حرمه، لم تأمن عليه.

فقال: لا حيلة عندي في الموجدة عليه، ولكن احتل أنت.

فذهب إليه ثم جس عرقه، وأعلمه أنه يضطر إلى محنته ثلاثة أيام قبل العلاج، فأمره بذلك، فلما فرغ منه في اليوم الثالث قال له: إن الوصية مباركة وهي غير مقدمة لأجل ولا مؤخرة له، فإن رأى الأمير أن يعهد، فإن لم يحدث حادث قبل أربعين يوماً عاجلته في ذلك بعلاج لا يمضي عليه ثلاثة أيام حتى يبرأ، ونهض وقد امتلأ قلب الرجل من الخوف، فانحط كثير من لحمه، واستتر أبو قريش خوفاً من إفشاء الخبر، فلما كان يوم الأربعين صار إلى الرشيد وقال: لا شك في نقصان بدن عيسى، فركب إليه الرشيد، ودخل عليه، ومعه أبو قريش، فوجدوا لحمه قد نقص نقصاً كبيراً، فقال له عيسى بن جعفر: أطلق لي يا أمير المؤمنين قتل هذا الكافر، فقد قتلتني بها أدخل عليّ من الروع.

فقال له: يا أخي، متعت بك بأبي قريش، ردت إليه الحياة بعد الموت، فاشكر الله، فنعم الحيلة احتال لك، وقد أمرت له بعشرة آلاف دينار، فأوصل أنت إليه مثلها، ففعل، وانصرف أبو قريش إلى منزله بالمال، ولم يرجع إلى أبي عيسى بن جعفر الشحم إلى أن فارق الدنيا.

ومتهم:

٦٨ - ابن اللجلاج^(١)

عارف بالأسباب والعلامات، عالم إذا نعى العلى مات، كأنها حدثته كهانه، وظنه البعيد تمثل له عيانه درب العلاج. حتى عرف بغلبة الظن إلى أن تتناهى الأعمار، وتتبادى مدد البقاء في هذه الدار، وزاد في التقريب، وكان كل شيء منه عنده بمقدار.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): «قال إسماعيل بن أبي سهل^(٣) الطبيب، عن أبيه، قال: ترافقت أنا وابن اللجلاج أيام المنصور في حجة التي حج فيها، فكان إذا نام المنصور تنادمتا، فسألني ابن اللجلاج - وقد عمل فيه النبيذ - عما بقي من عمر المنصور؟

فأعظم أبي ذلك، وقطع النبيذ، وجعل على نفسه أن لا يتادمه، [وهجره ثلاثة أيام]^(٤).

ثم اصطلحا، فلما جلسا على نبيذهما قال ابن اللجلاج لابن أبي سهل: سألتك عن علمك ببعض الأمور، فبخلت به، وهجرتني، ولست أبخل عليك بعلمي، فاسمعه.

ثم قال: إن المنصور رجل محرور، وتزداد ييوسة بدنه كلما أسن، وقد حلق رأسه، وجعل مكان الشعر غالية^(٥)، وهو في هذا الحجاز يداوم الغالية، وما يقبل قولي في تركها،

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٦٢/٢).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٦٢/٢، ٦٣).

(٣) أبو سهل الطبيب، طبيب فارسي الأصل، كان في دار الحكمة زمن هارون الرشيد، ترجم العديد من الكتب من الفارسية إلى العربية.

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء لموافقة السياق.

(٥) الغالية مجموعة عطور تخلط ويصنع منها أحسن الطيب.

ولا أحسبه يبلغ إلى فيد^(١) حتى يحدث في دماغه اليبس ما لا يكون عندي ولا عند أحد من المتطبين حيلة في ترطيه، فليس يبلغ «فيد» - إن بلغها - إلا مريضاً، ولا يبلغ مكة - إن بلغها - وبه حياة.

قال إسماعيل بن أبي سهل: قال لي أبي: فوالله! ما بلغ المنصور «فيد» إلا وهو عليل، ولا وافى مكة إلا وهو ميت، ودفن ببئر^(٢) ميمون.

ومنهم:

٦٩- عبد الله الطيفوري^(٣)

هبت له رياح ثم [سكنت، وتنبهت له عيون رياح]^(٤) ثم وسنت، وانتعش جده الخامل، ثم غلب عليه الخمول، ورنح غصنه المائل ثم عاجله الذبول، وظن أن بارقته ممطرة وقد رأى ركامها، وأمل رهامها^(٥)، فما سقته إلا رشاشاً، ولا أقامته إلا وسقط

(١) فيد: بلدة في نصف طريق مكة من الكوفة، سميت بفيد بن حام وهو أول من نزل بها. انظر: معجم البلدان (٢٨٢/٤، ٢٨٣) معجم ما استعجم (١٠٣٢/٣-١٠٣٥).

(٢) بئر ميمون، بئر بين البيت والحجون بأبطح مكة وهي منسوبة إلى ميمون بن الحضرمي، وكان قد حفرها في الجاهلية، وعندها توفي أبو جعفر المنصور. انظر: معجم ما استعجم (١٢٨٥/٤)، معجم البلدان (٣٠٢/١).

(٣) هو: أحد كبار أطباء الدولة العباسية، وهو جد إسرائيل بن زكريا الطيفوري الطبيب المشهور، خدم هو وأسرته خلفاء الإسلام وكان من كسكر ببلاد ما وراء النهر، وتعلم الطب في جند يسابور، ودخل في خدمة أخيه الخيزران ثم خدم المهدي ومن بعده موسى الهادي، وكان حسن الأخلاق، صادقاً حاذقاً في صناعة الطب. انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٤٨، الفهرست ص ٥٩٢، عيون الأنباء (١٣/٢، ٦٤).

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٥) الرهام الأمطار الخفيفة الضعيفة. انظر: لسان العرب، مادة (رهم).

يتغاشى.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): «كان حسن العقل، طيب الحديث، على لكنة سوادية كانت في لسانه شديدة، وكان مولده في بعض قرى كسكر^(٢)، وكان أحظى خلق الله عند الهادي».

قيل: إنه كان مولى الخيزران، والأصح: أنه كان مطبياً لأخيها طيفور، فنسب إليه، ولما وجه المنصور المهدي إلى الري لمحاربة من بها، حمل معه الخيزران، وهي حامل بموسى، وخرج معها طيفور، والطيفوري معه، ولم تكن الخيزران شعرت بالحمل، فبعثت قارورة لها تريها الأطباء، فأنت الجارية بها أبا قريش الصيدلاني، فقال: هذه قارورة حامل بغلام، فأدت قوله إلى الخيزران، فسرت وأعتقت عدة رقاب، وأعلمت المهدي فأحضره، وسأله، فقال ذلك، فسر أكثر من سرورها، ووصله كل منهما بهال جزيل، وأمره بلزوم الخدمة، وترك خيمته وما كان فيها من متاع الصيادلة.

قال: فأراد طيفور أن ينفعني، فبعث بي إلى الخيزران، وقال: هذا طبيبي، ماهر في الطب، فابعثي إليه بالماء ليراه.

ففعلت ذلك. فقال لي: قل لها كما قال أبو قريش. فقلت: ذلك ما لا أقول؛ لأنني لا أكتسب بالمخرقة! ولكن هذه قارورة حامل، فأمرت لي بألف درهم، فلما وافت الري ولدت الهادي، فضممت إليه ودعيت بطيبه وهو رضيع وفطيم، ثم ولدت أخاه الرشيد، فكان مولده شؤماً على الهادي؛ لأنه فاز بالخطوة دونه، فأضره ذلك في جاهي، فلما أدرك الهادي الخلافة رفع من شأني.

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/٦٤).

(٢) بالفتح ثم السكون، وهي كورة واسعة بين الكوفة والبصرة. انظر: معجم البلدان (٤/٤٦١).

معجم ما استعجم (٤/١١٢٨).

ومنهم:

٧٠- إسرائيل بن زكريا الطيفوري^(١)

طبيب الفتح بن خاقان. كان يدل بتقديمه في فنه، ويدل على هذا غضبه على ملكه، وقد احتجم بغير إذنه لاشتداد أسر معرفته. بقوى الأمزجة، وقدر فاقة الأبدان المالية والمحوجة، وكان حسن الامتزاج، يكاد يصلح بين نافر الاغتدال والمزاج.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال فيه^(٢): «كان مقدماً في صناعة الطب، جليل القدر عند الخلفاء والملوك، وكان مختصاً بابن خاقان، وله من الإنعام الوافر، وكان المتوكل يعتمد عليه، وصار عنده إلى منزلة بختيشوع، وكان متى ركب إلى دار المتوكل في مثل مراكب الأمراء الأجلاء القواد، وأمر المتوكل صقلاب وابن الخيري بالركوب معه، ثم أقطعه قطعة بدسرى من رأى»، ركب فاخترها لنفسه خمسين ألف ذراع، وأعطاه ثلاث مائة ألف درهم لينفقها عليه، فحازها، وضرب المناور عليه».

وحكى الرهاوي أن إسرائيل بن الطيفوري وجد على المتوكل إذا احتجم بغير إذنه فافتدى غضبه بثلاثة آلاف دينار، وضيعة تغل له في السنة خمسين ألف درهم، وهبها له، وسجل له عليها.

وحكى ابن ماسويه قال: رأيت المتوكل وقد عاد إسرائيل وهو مريض قد غشي عليه، فجعل يده تحت رأسه مخدة له، ثم قال للوزير: حياتي معلقة بحياته إن عدمته لا أعيش! ثم كان يبعث سعيد بن صالح - حاجبه - وموسى بن عبد الملك - كاتبه - يعودانه عنه.

(١) هو: إسرائيل بن زكريا الطيفوري، كان طبيب الفتح بن خاقان، جليل القدر عند الخلفاء والملوك، وكان المتوكل يرى له كثيراً ويعتمد عليه. انظر: الوافي بالوفيات (٩/٩)، عيون الأنباء (٧٢/٢).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٧٢/٢).

ومنه:

٧١- يزيد بن [زيد]^(١) بن يوحناابن أبي خالد^(٢)

كان لا يخطئ له صواب، ولا يبطئ به جواب، وكان في طبه [جد المأمون، خدم به...]. ابن المهدي والمأمون؛ لأنه كان لا يتهم، ولا تسري وتدلج إليه التهم، لعلم يقين منه عقد عليه الأنامل، وأقعد لديه كل أمل.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): «كان جيد العلم، حسن المعالجة، موصوفاً بالفضل، خدم المأمون وابن المهدي، وكان له منه العناية الظاهرة، وله عليه الجامكية الوافرة.

قال ابن المهدي: إن أبا عثمان ثمامة العبي صاحب الجبار اعتل عله تناولت به وكان شيخاً كبيراً.

قال ابن المهدي: فسألني الرشيد عن علته، وأين بلغت به؟ فأعلمته، أني لا أعلم له خبراً، فأظهر إنكار القول، ثم قال: رجل غريب من أهل الشرف قد رغب في مصاهرة أهله عبد الملك بن مروان، وقد ولدت أخته خليفتين: الوليد، وسليمان ابني عبد الملك، وقد رغب أبوك في مصاهرته، فتزوج أخته، ورغبت أنا وأخوك في مثل ذلك منه فتزوجت ابنته، وهو مع ذلك صحابي لجدك وأبيك، ولأختك وأخيك، فلا توجب على نفسك عيادته؟

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٧٤).

(٣) مرجع سابق (٢/ ٧٤).

ثم أمرني بالمصير إليه لعبادته، فنهضت، وأخذت معي مُتَطَبِّبِي يزيد، وصرت إليه، فدخلت على رجل توهمت أنه في آخر حشاشة بقيت في نفسه، ولم أر فيه للمسألة موضعًا، فأمر يزيد متطبيبي بإحضار متطبيه، فحضر فسأله عن حاله؟ فأخبر أنه يقوم في اليوم والليلة مائة مجلس.

وأقبل يزيد يسأل المتطبب عن باب باب من الأدوية التي تشرب والسفوفات، والحقن؟

فلم يذكر لذلك المتطبب شيئًا إلا أعلمه أنه قد عالج به، فلم ينجع فيه فوجم عند ذلك يزيد مقدار ساعة، وقال: قد بقي شيء واحد أن أعمل به، رجوت أن ينتفع به، وإن لم ينجع فلا علاج له.

قال أبو إسحاق: فرأيت ثمامة قد قويت نفسه عندما [سمع من يزيد ما] ^(١) سمع، ثم قال: وما ذلك الشيء الذي بقي، متعت بك؟ قال: شربة الأصطمخيقون ^(٢).

فقال ثمامة: أحب أن أرى هذه الشربة حتى أشم رائحتها.

فأخرج يزيد من كفه منديلًا فيه أدوية، وفيه شربة «أصطمخيقون» فأمر بها ثمامة فحلت، ثم أتى بها فرمى بها في فيه، وابتلعها، فوالله ما وصلت إلى جوفه حتى سمعت منه أصواتًا لم أشك في أني لم أبلغ باب داره إلا وقد مات!.

فنهضت ومتطبيبي معي، وما أعقل غمًا، وأمرت خادماً لي يكون يحمل معي الاسطرباب إذا ركبت بالمقام في داره، وتعرف خبر ما كان يكون منه، فتخلف، فوفاني

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف» وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

(٢) الأصطماخيقون: يوناني، وهو نوع من الأدوية المسهلة.

كتاب الخادم بعد الزوال يعلمني أنه قام بعد طلوع الشمس إلى زوالها خمسين مرة.

فقلت: تلفت والله نفس ثامة، ثم وافى كتاب الخادم بعد غروب الشمس أنه قام منذ زوال الشمس إلى غروبها عشرين مجلسًا، ثم صار إلى الغلام مع طلوع الشمس فذكر أنه لم يكن منه منذ غروب الشمس إلى انتصاف الليل إلا ثلاثة مجالس! ولم يكن منه إلى طلوع الفجر شيء.

فركبت إليه بعد أن صليت الغداة، فوجدته نائمًا، وكان لا ينام، فانتبه لي، وسألته عن خبره؟

فأخبرني أنه لم يزل في وجع من جوفه مانع له من النوم والقرار منذ أكثر من أربعين ليلة، حتى أخذ تلك الشربة، فلما انقطع فعل الشربة انقطع عنه الوجع، وأنه لم يشته طعامًا منذ ذلك الوقت، وأنه ما يصبر في وقته من غلبة الجوع عليه، وسأل الإذن في الأكل، فأذن له يزيد في أكل «اسفيداج» قد طبخ في فروج كسكري سمين، ثم إتباعها «زيرباجه»، ففعل ذلك.

وصرت إلى الرشيد فأخبرته بما كان من أمر ثامة! فأحضر المتطبيب، وقال له: ويحك! كيف أقدمت على إسقائه حب الاصطمخيقون؟

فقال: يا أمير المؤمنين! هذا رجل كان في جوفه [كيموس فاسد، فلم يكن يدخل في جوفه]^(١) دواء ولا غذاء إلا أفسده الكيموس، وكان كلما فسد من تلك الأدوية والأغذية صار مادة لذلك الفساد، فكانت العلة لهذا السبب تزداد، فعلمت أنه لا علاج له [إلا]^(٢) بدواء قوي على فعل الكيموس، وكانت أقوى الأشياء التي يمكن أن يسقاها: «الاصطمخيقون»، فقلت له فيه الذي قلت، ولم أقدم أيضًا على القول إنه يبرئه لا محالة،

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

وإنما قلت: بقى شيء واحد، فإن هو لم ينفعه فلا علاج له، وإنما قلت ذلك لأني رأيت الرجل عليلًا قد أضعفته العلة، وأذهبت أكثر قواه، فلم آمن عليه التلف إن شربه، وكنت أرجو له العافية بشربه إياه، وكنت أعلم أنه إن لم يشربه أيضًا تلف.

فاستحسن الرشيد ما كان من قوله، ووصله بعشرة آلاف درهم، ثم عاد الرشيد ثمامة، وقال: لقد أقدمت من شرب ذلك الدواء على أمر عظيم، وخاصة إذا كان المتطبيب لم يصرح لك بأن في شربه العافية.

فقال ثمامة: يا أمير المؤمنين! كنت قد يئست من نفسي، وسمعت المتطبيب يقول: إن شربت هذا الدواء رجوت أن ينفعه، فاخترت المقام على الرجاء ولو لحظة على اليأس من الحياة، فشربته، وكان في ذلك خيرة من الله عظيمة^(١).

ومنهم:

٧٢- عبدوس بن زيد^(٢)

وكان طبيبًا حاذقًا، ومصيبًا لا يزال برأيه موافقًا، وله فضل من السحاب لو جر ذلأله^(٣)، ونبل يتمنى لو كان فيه نقص يشغل عواذله.

قال أبو علي القباني، عن أبيه: إن القاسم بن عبيد الله^(٤) مرض في حياة أبيه مرضًا

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٧٤-٧٧).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٨٧)، الوافي بالوفيات (١٩/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) ذلأله: الذلل ما هو أسفل الجلباب الطويل.

(٤) هو: القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي من الوزراء الكبار، استوزره المعتضد بالله سنة (٢٨٨هـ)، وكان قد ولد سنة (٢٥٨هـ)، وكان هو الذي عقد البيعة للمكتفي بالله بعد موت المعتضد بالله سنة (٢٨٩هـ)، وكانت وفاته سنة (٢٩١هـ). انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٣٦١)،

حاداً في تموز، وحصل به القولنج الصعب، فانفرد بعلاجه عبدوس بن زيد، وسقاه ماء أصول قد طبخ، وطرح فيه أصل الكرفس، والرازيانج^(١)، ودهن الخروع، وجعل فيه شيئاً من أيارج فيقرا^(٢) فحين شربه سكن وجعه، وأجاب طبعه مجلسين، فأفاق ثم أعطاه من غد ذلك اليوم ماء شعير، فاستطرف هذا منه.

وقال أبو علي القباني أيضاً: إن أخاه إسحاق بن علي مرض، وغلبت الحرارة على مزاجه، والتحول على بدنه، حتى أداه إلى الضعف، ورد ما ياكله، فسقاه عبدوس بن زيد هذه الأصول [بالأيارج]^(٣)، ودهن الخروع، في حزيران أربعة عشر يوماً، فعوفي، وصلحت معدته، وقال في مثل هذه الأيام تحم حمى حادة، فإن كنت حياً خلصتك بإذن الله، وإن كنت ميتاً فعلامة عافيتك له دائر سنة، أن تنطلق طبيعتك في اليوم السابع، فإن انطلقت عوفيت، ومع هذا فقد تقوت معدتك بقوى لو طرحت فيها الحجارة لطحنتها.

فلما انقضت السنة، مرض عبدوس، وحى أخيه كما قال، وكان مرضهما في يوم واحد، فما زال عبدوس يراعي أخيه، ويسأل عن خبره إلى أن قيل له: انطلقت طبيعته، فقال: قد تخلص. ومات عبدوس في الغد من ذلك اليوم.

ولعبدوس بن زيد من الكتب: كتاب «التذكرة في الطب».

المنتظم (٤٦/٦)، النجوم الزاهرة (١٣٣/٣)، سير أعلام النبلاء (١٨/١٤).

(١) هو: نبات حشائش عطري يعلو أربعة أقدام، جذره معمر بغلظ الأصبع وأوراقه غشائية صغيرة، وأزهاره صفراء تخلف ثمراً صغيراً، هو عبارة عن بذور متطاولة مغزلية محززة بالطول أصغر من حباب الخنطة. انظر: المنصوري في الطب (الملحق) ص ٦٠٣.

(٢) أيارج: كلمة فارسية معناها دواء مركب سهل، ومعنى كلمة فيقرا: المر ويكنى بها الصبر ويتصف به. فيكون اسم الدواء: الدواء المر الذي فيه مادة الصبر، وهو أشهر الأدوية المسهلة التي استعملها القدماء. انظر: المنصوري في الطب (الملحق) ص ٥٤٣.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

ومنهم:

٧٣- ماسرجويه «طبيب البصرة»^(١)

هو أول من ترجم، وعرب ما أعجم، وكان صلب العود، صعب الجلمود، لا ينقل إلا ما حرره، وفصل كلمه على قدر المعنى وقدره، لا يتجاوز في كلمة يعبر بها عن معنى ما لم يكن دالة عليها بالمطابقة، مقابلة في اللغة الأخرى، لما نظرت به موافقة، وهو على هذا ظريف العبارة، لطيف الحديث إذا سمعت أخباره.

قال ابن أبي أصيبعة: هو الذي نقل كناش «أهرن» من السرياني إلى العربي، وكان سريانياً يهودي الدين، وهو الذي يعنيه الرازي بقوله: «قال اليهودي».

قال ابن جليل: «كان ماسرجويه أيام بني أمية، وعرف كناش أهرن لهم، كان في خزائنهم، فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أخرجه فوضعه على مصلاه، واستخار الله فيه أربعين يوماً، ثم أخرجه إلى المسلمين للانتفاع به».

قال الكسروي: كان أبو نواس يعشق جارية لامرأة من ثقيف تسكن موضعاً يعرف بحكمان من أرض البصرة، يقال لها: «جيان»، وكان أبو عثمان وأبو أمية الثقفيان من أقارب مولاتها، فكان أبو نواس يخرج كل يوم من البصرة يتلقى من يرد من ناحية «حكمان»^(٢) يسألهم عن أخبار «جيان» قال: فخرج يوماً وخرجت معه، فكان أول قادم عليه ماسرجويه، فقال له أبو نواس: كيف خلفت أبا عثمان وأبا أمية؟

فقال له ماسرجويه: جيان صالحة الحال كما تحب! فقال: [الخفيف]

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٨٦)، طبقات الأطباء لابن جليل ص ٦٢، ٦٣.

(٢) حكمان: بالتحريك مثني، اسم لضياح بالبصرة سميت بالحكم بن أبي العاص الثقفي. انظر: معجم

البلدان (٢/ ٢٨٠).

اسأل القادمين من حكام كيف خلفتم أباً عثمان؟
 وأباً أمية المهذب والمأ مول والمرتجي لريب الزمان
 فيقولون لي: جنان كما سرك في حاله فسل عن جنان
 [ما لهم؟ لا يبارك الله فيهم! كيف لم يغن عنهم كتمانني؟]^(١)

وقال: كنت جالساً عند ماسرجويه إذ أتاه رجل فقال: إني بليت بمرض عظيم
 أصبح وبصري عليّ مظلم، وأنا أجد مثل لحس الكلاب في معدتي، ولا أزال هكذا حتى
 أكل، فإذا أكلت سكن عني ما أجد إلى وقت الظهر، ثم يعاودني ما كنت فيه، [فإذا
 عاودت الأكل سكن ما بي إلى وقت العشاء، ثم يعاودني ما كنت فيه]^(٢) حتى أكل.

فقال له ماسرجويه: على هذا المرض غضب الله، فإنه أساء لنفسه الاختيار، إذ لم
 يكن إلا لسفلة مثلك! ووددت لو ابتليت أنا وبنيّ به عوضك، ولو أنه بنصف ما أملك!

فقال له: ما أفهم ما تقول!

فقال له ما سر جويه: هذه صحة لا تستحقها، اسأل الله تعالى نقلها عنك إليّ فإني
 أحق بها منك!.

وقال: شكوت إلى ماسرجويه تعذر الطبيعة؟

فقال لي: أي شيء من الأنبة تشرب؟

فقلت: الدوشاب^(٣) البستاني الكثير الداذي^(٤).

(١) ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف» وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

(٣) الدوشاب: نبيذ التمر.

فأمرني أن أكل في كل يوم من أيام الصيف على الريق قثاء صغيرة، فأكل منه الخمس والست والسبع، فكثرت عليّ الإسهال، فشكوت إليه، فلم يكلمني حتى حقنني بحقنة كثيرة الشحوم، والصموغ، والخطمي، والأرز الفارسي، ثم قال لي: كدت تقتل نفسك بإكثارك من القثاء على الريق؛ لأنه كان يحذر من الصفراء ما يزيد عن الأمعاء من الرطوبات اللاصقة بها ما يمنع الصفراء من سحبها وإحداث «الدوسنطاريا»^(٢).

ومنهم:

٧٤- سلمويه بن بنان «متطبب المعتصم»^(٣)

جل في العيان، وحل في الأعيان، وكان له شأن لا تغص به المآقي، ولا يغض الأيام على لياليه البواقى، وسعد به أخوه، وصعدت رتب النظراء ولم يواخوه!

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال فيه: «لما استخلف المعتصم اختاره لنفسه، وقربه حتى كانت التواقيع في السجلات وغيرها تصدر عن المعتصم بخطه، وولى أخاه ببيت الأموال، وسلمه خاتمه، وكان سلمويه نصرانياً محمود السيرة، وافر العقل».

قال إسحاق بن حنين عن أبيه: إنه كان أعلم أهل زمانه بصناعة الطب، ولما اعتل عاده المعتصم، وبكى عنده، واستشاره فيمن يكون بعده، وكان المعتصم قد أرصده لعرض الخوائج إبراهيم بن المهدي أوقات خلواته.

(١) الداذي: شراب يصنع من نبت الداذي.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٨٦-٨٩).

(٣) هو: سلمويه بن بنان (ت ٢٢٥هـ)، طبيب فاضل، اختاره المعتصم العباسي لنفسه وله معه أخبار، اكتسب من خدمة الخلفاء معرفة بالسياسة، كان من أصدقاء حنين بن إسحاق، ومن الأطباء الذين تخرجوا من مدرسة جند يسابور، ورحلوا إلى بغداد، واستعملوا اللغة العربية. انظر: الفهرست ص ٤١٢، عيون الأنباء (٢/ ٨٩)، الوافي بالوفيات (١٥/ ١٩١، ١٩٢).

ومنهم:

٧٥- إبراهيم بن فزارون^(١)

كان موقراً لا يحل له حبة، ولا تحط له ربوة، ولا تبارى به الثريا إذا لاحت، ولا الحميا^(٢) إذا فاحت.

وكان مقدماً لتطبيب الأرواح، وتطبيب الأوقات بالأفراح، لا يزال ينشر ألوية المدام، ويؤثر أندية الندام، ويسيرها كثوسا تجول أشعتها حول أوانيها، وتحول أقاصي البلاد أدانيها.

قال ابن أبي أصيبعة: كان شيخ بنى فزارون الكتاب، قال يوسف بن إبراهيم: كان إبراهيم بن فزارون قد خرج مع غسان بن عباد^(٣) إلى السند، فحدثني أن غسان بن عباد مكث بأرض السند من يوم النيروز إلى يوم المهرجان، يشتهي أن يأكل قطعة لحم باردة، فما قدر على ذلك. فسألته عن السبب؟ فقال: كنا نطبخه فلا يبرد حتى يروح، فترمي به.

قال يوسف: وأخبرني إبراهيم بن فزارون أنه ما أكل بأرض السند لحماً استطابه إلا لحوم الطواويس، وأنه لم يأكل لحماً قط أطيب من لحم الطواويس ببلاد السند.

قال يوسف: وحدثني إبراهيم بن فزارون أنه رفع إلى غسان بن عباد، أن في النهر المعروف بمهران بأرض السند سمكة تشبه الجدي، وأنها تصاد ثم يطبخ رأسها وجميع بدنها إلى موضع مخرج الثفل، ثم يجعل ما لم يطبخ منها على الجمر، ويمسكها بمسك بيده

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٩٩).

(٢) الحميا: من أساء الخمر.

(٣) هو: غسان بن أبي الفرج، ولي خراسان ثم السند سنة (٢١٣هـ)، توفي سنة (٢١٦هـ). انظر: ترجمته

في الأعلام للزركلي (٥/ ١١٩).

حتى يستوى منها ما كان موضوعاً على الجمر، وينضج ثم يؤكل ما نضج، أو يرمى به، وتلقى السمكة في الماء ما لم ينكسر العظم الذي هو صلب السمكة، فتعيش السمكة، وينبت على عظمها اللحم!! وأن غسان أمر بحفر بركة في داره، وملأها ماء وأمر بامتحان ما بلغه.

قال إبراهيم: فكنا نؤتى كل يوم بعدة من هذا السمك، فنشويه على الحكاية التي ذكرت لنا، ونكسر من بعض عظمه الصلب، ونترك بعضه لا نكسره، فكان ما يكسره عظمه يموت، وما لم يكسر عظمه يسلم، وينبت عليه اللحم، ويستوي الجلد، إلا أن جلدة تلك السمكة تشبه جلدة الجدي الأسود، وما قشرناه من لحوم السمك التي شويناها ورددناها إلى الماء تكون على غير لون الجلدة الأولى؛ لأنه يضرب إلى البياض.

قال يوسف: وسألت إبراهيم بن فزارون عن قول من يزعم أن نهر مهران (هو نهر النيل)، فقال لي: [رأيت نهر مهران]^(١)، وهو يصب في النهر الملح، إلا أن علماء الهند والسند أعلموني أن مخرج النيل ومخرج نهر مهران من عين^(٢) واحدة عظيمة، فنهر مهران يشق أرض السند، حتى يصب في بحرها الملح، والنهر الآخر يشق أرض الهند وجميع أرض السودان حتى يخرج إلى أرض النوبة، ثم يصب باقيه في أرض مصر فيرويه، ثم يصب باقيه في بحر الروم.

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) بالطبع هذه معلومة غير صحيحة، فنهر النيل لا يشق أرض الهند على الإطلاق.

ومنهـم:

٧٦- إبراهيم بن أيوب الأبرش^(١)

كان يعرف كيف تصاد الدراهم، ويعالج جراح الفقير من ضهادات أكياسها المراهـم، بصيرًا بتعديل المزاج بشربها، خيرًا بهذا العلاج بطبها، وصادف وقتًا قابلاً وملكًا يهب، وشفيعًا قائلًا، فجمع ما لم يجمع، وحصل من المال ما لا يرى مثله ولا يسمع.

قال عيسى بن ماسة: رأيت الأبرش وقد عالج إسماعيل -أخا المعتز- فلما برئ كلّمت قبيحة^(٢) -أمه- المتوكل ليهبه.

فقال لها: مهما أعطيتيه، أعطيته مثله!

فأمرت له «قبيحة» ببدره، فأمر له المتوكل بمثلها.

فأمرت ببدره أخرى، فأمر له المتوكل بمثلها، فما زالوا يحضران البدر حتى أحضر كل منهما ست عشرة بدره.

ثم أوامت إلى جاريتها: أن تمسك.

فقال الأبرش: لا تقطعي، وأنا أرد عليك.

فقال له: خذ ما حضر، فإنه لا يملأ عينك شيء.

فقال المتوكل: والله! لو أعطيتيه إلى الصباح لأعطيته مثل ذلك.

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (١٠٢/٢).

(٢) قبيحة: جارية المتوكل، وكانت رومية، وهي أم ولده المعتز، لعبت دورًا في السياسة أيام المتوكل

(ت ٢٦٤هـ).

ثم لما أفضت الخلافة إلى المعتز، كان أخص الأطباء عنده، لمكانه من أمه قبيحة، فلما خلع المعتز قبض عليه صالح بن وصيف.

ومنهم:

٧٧- ماسويه [أبو] ^(١) يوحنا ^(٢)

دخل على الملك من بابه، وتوصل إلى الفلك بأسبابه، وانتقل من خاصة الكحل إلى عامة تدبير الجسد، وتقرير إصلاح ما فسد، ثم لم يزل في مزيد في الصناعة، وتجديد ما ينمي مكاسب البضاعة، إلى أن صار لا يمتري في نفاقه، ولا يمتار إلا من فواضل أسواقه، ولا يتطبب عليل بالطف من شوائب أخلاقه.

ذكره الترجمان كيف تنقل وآخر أمره أنه عالج عين خادم الفضل بن الربيع، فشكا الفضل عينه، فأوصله إليه، فلم يزل يكحله إلى ثلث الليل، ثم سقاه دواء مسهلاً فصلح به، فأجرى عليه رزقاً.

فما مضت إلا أيام حتى اشتكت عين الرشيد، فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين! طبيبي ماسويه من أحذق الناس بالكحل.

فأمر بإحضاره ثم قال له: هل تحسن شيئاً من الطب سوى الكحل؟

فقال: نعم يا أمير المؤمنين! وكيف لا أحسن وقد خدمت المرضى بالبيمارستان؟

فأدناه منه، فنظر في عينيه، فحجمه في ساقه، وقطر في عينيه، فبرأ بعد يومين، فأمر

(١) في الأصل، «ف»: ابن، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (١٠٣/٢)، أدب الطبيب للرهاوي ص ٢٢٤، وما بعدها.

بأن يجري عليه في الشهر ألفا درهم، وعلوفه، ومعونته في السنة عشرون ألف درهم.

ثم اعتلت أخت الرشيد، فعالجها جبرائيل بأنواع العلاج فلم تنتفع، فاغتم بها، فقال الرشيد ذات يوم: قد كان ماسويه ذكر أنه خدم المرضى بالمارستان، وعالج الطبائع، فليدخل إلى عليتنا لعل عنده فرجاً.

فأحضر جبرائيل وماسويه، فقال له ماسويه: عرفني حالها، وجميع ما دربتها به إلى وقتنا هذا؟

فقصَّ عليه. فقال ماسويه: التدبير صالح، والعلاج مستقيم، ولكن أحتاج إلى أن أراها.

فأمر الرشيد بأن يدخل إليها، فلما تأملها، وجس عرقها بحضرة الرشيد وخرجوا من عندها.

وقال ماسويه للرشيد: يكون لك طول العمر والبقاء! هذه تقضي بعد غد ما بين ثلاث ساعات إلى نصف الليل.

فقال جبرائيل: كذب يا أمير المؤمنين! إنها تبرأ وتعيش.

فأمر الرشيد بحبس ماسويه ليسبر ما قاله. وقال: ما رأينا بعلم الشيخ بأساً.

فلما كان الوقت الذي وقَّته ماسويه ماتت، فأمر الرشيد بإخراجه، وصيره نظير جبرائيل في رزقه، ونزله، وعلوفته، ومرتبته، ومرتبته.

ومنهم:

٧٨- يوحنا بن ماسويه^(١)

طبيب على يده الشفاء، ولديه الوفاء، ما جال رأيه إلا فل أفلاطون، وجال فكر جالينوس لعله مثله يكون، وود ابن أثال^(٢) لو نحت من إبلته، وتشوق الحارث للمقبل تحت نخلته، وسر السريان إذ كان منهم معدودًا، وآن لليونان أن يساءوا إذ لم يكن منهم له ولودًا، ولا منه لهم ودودًا.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان طبيبًا ذكيًا، فاضلاً، خبيرًا بصناعة الطب، وله كلام حسن وتصانيف مشهورة، وكان مبعلاً، وكان حظيًا عند الخلفاء والملوك».

قال إسحاق بن علي الرهاوي في كتاب «أدب الطبيب»: عن عيسى بن ماسه الطبيب، قال: أخبرني أبو زكريا يوحنا بن ماسويه أنه اكتسب من صناعة الطب ألف ألف درهم، وعاش بعد قوله هذا ثلاث سنين آخر، وكان الواصل مشغوقًا، ضنينًا به، فشرّب يومًا عنده، فسقاه الساقى شرابًا غير صافٍ ولا لذيق، على ما جرت به العادة، وهذا من عادة السقاة إذا قصر في برهم، فلما شرب القدرح الأول، قال: يا أمير المؤمنين، أما المذاقات فقد عرفتُها وأعددتُها، ومذاقة هذا الشراب خارجة عن طبع المذاقات كلها.

فوجد أمير المؤمنين على السقاة، وقال: تسقون أطبائي وفي مجلسي بمثل هذا الشراب؟ وأمر ليوحنا بهذا السبب وفي ذلك وقت بمائة ألف درهم، ودعا بسمانة الخادم، وقال له: احمل إليه المال الساعة، فلما كان وقت العصر سأل سمانة: هل حمل مال الطبيب

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ١٠٩-١٢٣)، طبقات الأطباء لابن جليل ص ٦٥، الوافي بالوفيات (٢٩/ ٣٠، ٣١).

(٢) سبق ترجمته.

أم لا؟ فقال: لا بعد. فقال: يحمل إليه مائتا ألف درهم الساعة.

فلما صلوا العشاء سأل عن حمل المال؟ فقيل له: لم يحمل بعد، فبدعا سمانة، وقال له: احمل إليه ثلاثمائة ألف درهم، فقال سمانة لخازن بيت المال: احملا مال يوحنا، وإلا لم يبق في بيت المال شيء، فحمل إليه من ساعته.

وقال سليمان بن حسان: كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب، سريانيًا، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة، مما وجد بأنقرة، وعمورية^(١)، وبلاد الروم، حين سبها المسلمون، ووضعه أمينًا على الترجمة، وخدم هارون، والأمين، والمأمون، وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل.

قال: وكانت ملوك بني هاشم لا يتناولون شيئًا من أطعمتهم إلا بحضرته، وكان يقف على رءوسهم ومعه البراني بالجوارشانات^(٢) الهاضمة المسخنة، الطابخة، [المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء، وفي الصيف بالآشربة الباردة والجوارشانات]^(٣).

قال ابن النديم البغدادي الكاتب: إن يوحنا بن ماسويه خدم بصناعة الطب المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل.

قال يوسف بن إبراهيم: كان مجلس يوحنا بن ماسويه أعمر مجلس كنت أراه بمدينة السلام لمططب أو متكلم، أو متفلسف؛ لأنه كان يجتمع به كل صنف من أصناف

(١) عمورية - بفتح أوله وتشديد ثانيه - بلد من بلاد الروم، غزاها المعتصم، قيل: سميت بعمورية بنت الروم. انظر: معجم البلدان (٤/١٥٨).

(٢) ما بين الحاصرتين في الأصل: المقوية للحرارة الغريزية في الصيف، وفي الشتاء بالآشربة الباردة والجوارشانات، والمثبت من «ف»، وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

(٣) الجوارشانات: معجون يساعد على هضم الطعام.

أهل الأدب، وكان [في] ^(١) يوحنا دعابة شديدة، يحضر بعض من يحضر لأجلها، وكان من ضيق الصدر، وشدة الحدة على أكثر ما كان عليه جبريل بن بختيشوع، وكانت الحدة تخرج منه ألفاظاً مضحكة، وكان أطيّب مجلسه في وقت نظره في قوارير الماء، كنت وابن حمدون بن عبد الصمد بن علي الملقب بأبي العيرطرد، وإسحاق بن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الملقب ببيض البغل، قد توكلنا به نحفظ نوادره، وأظهرت له التلمذة في قراءة كتب المنطق عليه، وأظهرا له التلمذة بقراءتهما كتب جالينوس عليه في الطب.

قال يوسف: مما حفظت من نوادره في وقت نظره: أن امرأة أتته فقالت له: إن فلانة وفلانة وفلانة يقرءون عليك السلام.

قال لها: أنا بأسماء أهل قسطنطينية، وعمورية، أعلم مني بأسماء الذين أسميتهم، فاظهري بولك حتى أنظر لك فيه.

قال يوسف: وحفظت عليه أن رجلاً شكاً إليه علة كان شفاؤه منها الفصد، فأشار به عليه.

فقال له: لم أعتد الفصد.

فقال له: ولا أحسب أحداً اعتاده في بطن أمه، وكذلك لم يعتد العلة قبل أن يعتل، وقد حدث بك، فاختر ما شئت من الصبر على ما أحدثت لك الطبيعة من العلة، أو اعتياد الفصد لتسلم منها.

قال يوسف: وشكا إليه رجل بحضرتي جرباً قد أضر به، فأمره بفصد الأكحل من يده اليسرى، فأخبره أنه قد فعل فأمره بشرب المطبوخ، فقال: قد فعلت. فأمره بشرب الاصطمخيون، فأعلمه أنه قد فعل. فأمره بشرب ماء الجبن أسبوعاً، وشرب مخيض

(١) ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

البقر أسبوعين، فأعلمه أنه قد فعل.

فقال له: إنه لم يبق شيء مما أمر به المتطبيون إلا وقد ذكرت أنك قد عملته، وقد بقي شيء لم يذكره أبقراط ولا جالينوس، وقد رأيناه يعمل على التجربة كثيراً، فاستعمله، فإني أرجو أن ينجح علاجك إن شاء الله، فسأله ما هو؟

فقال: اتبع زوجي قراطيس، وقطعها رقاعاً صغاراً، واكتب في كل رقعة: «رحم الله من دعا لمبتلى بالعافية» والتق نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام، والنصف الآخر في المسجد الغربي، وفرقها في المجالس يوم الجمعة، فإني أرجو أن ينفعك الله بالدعاء إذا لم ينفعك العلاج.

قال يوسف: وصار إليه -وأنا أحاضر- قسيس الكنيسة التي يتقرب فيها يوحنا، وقال له: فسدت عليّ معدتي.

فقال له: استعمل جوارشن الخوزي^(١)، فقال: قد فعلت. فقال: استعمل الكموني، قال: قد أكلت منه أرطالاً. فأمره باستعمال المقداذيقون، فقال: قد شربت منه جرة. فقال: استعمل المروسيا، فقال: قد فعلت وأكثر. فغضب وقال له: إن أردت أن تبرأ فأسلم فإن الإسلام يصلح المعدة.

قال يوسف: واشتدت على يوحنا علة كان فيها حتى يش منه أهله، ومن عادة

(١) وأصل كلمة جوارشن، وهو اسم أعجمي معناه الهاضم، ولكن الكلمة عُرِّبت، ولفظها العرب جوارشاً ثم أصبحت جوارشن، ثم أطلقوها على خلط مركب من مجموعة مفردات دوائية تكون على هيئة شراب مكثف أو بشكل معجون أو أقراص مجففة مختلفة الأحجام والأوزان، وقد استعمل لشتى الأغراض بالنسبة لمفرداتها، فمنه المسهل والقابض والهاضم، وقد تفنن الأطباء القدماء في تركيبه وأصبح لكل منهم تراكيبه وأوزانه ونسبه الخاصة التي تدخل في تركيب الجوارشن. انظر: المنصوري في الطب (الملحق) ص ٥٤٧.

النصارى إحصار من يئس منه أهله جماعة من الرهبان والقسيسين، والشمامسة يقرءون حوله، ففعل مثل ذلك ييوحنا.

فأفاق والرهبان حوله يقرءون، فقال لهم: يا أولاد الفسق ما تصنعون في بيتي؟ فقالوا: كنا ندعو ربنا ليتفضل عليك بالعافية.

فقال لهم يوحنا: قرص ورد أفضل من صلوات جميع أهل النصرانية منذ كانت إلى يوم القيامة، اخرجوا من منزلي فخرجوا.

قال يوسف: وشكا بحضرتي إلى يوحنا رجل من التجار جرباً به في أيام الشتاء.

فقال: ليست هذه أيام من أيام علاج ما تجدد وإنما علاج دائك هذا في أيام الربيع فتتكب أكل المعفونات كلها وطري السمك ومالحه صغار ذلك وكباره، وكل حريف من الأبراز والبقول وما يخرج من الضرع.

فقال له الرجل: هذه الأشياء ما أطيق عنها صبراً.

فقال يوحنا: فإن كان الأمر على ما ذكرت فأدمن أكلها، وحك بدنك فلو نزل المسيح لك خاصة لما انتفعت بدعائه لما تصف به نفسك من الشر.

قال يوسف: وعاتبه النصارى على اتخاذ الجوارى وقالوا له: خالفت ديننا وأنت شماس، فإما أن كنت على سنتنا واقتضت على امرأة واحدة وكنت شماساً لنا، وإما أخرجت نفسك من الشمامسة وأخذت ما بدا لك من الجوارى.

فقال: إنما أمرنا في موضع واحد أن لا نتخذ امرأتين ولا ثوين، فمن جعل «الجائليق» العاض بظر أمه أولى أن يتخذ عشرين ثوباً من يوحنا الشقي في اتخاذ أربع جوارى، فقولوا لجائليقكم: أن يلزم قانون دينه حتى نلزمه معه وإن خالفه خالفناه.

قال يوسف: وكان بختيشوع بن جبرائيل يداعب يوحنا كثيرًا، فقال له يومًا في مجلس أبي إسحاق ونحن في عسكر المعتصم بالمدائن^(١) سنة عشرين ومائتين: أنت يا زكرياء أخي لأبي.

فقال يوحنا لأبي إسحاق: اشهد أيها الأمير على إقراره، فوالله لأقاسمته ميراثه من أبيه.

فقال له بختيشوع: إن أولاد الزنا لا يرثون ولا يورثون، وقد حكم دين الإسلام للعاهر بالخنجر، فانقطع يوحنا ولم يجر جوابًا.

قال يوسف: وكانت دار الطيفوري في دار الروم من الجانب الشرقي من مدينة السلام لصقة دار يوحنا بن ماسويه، وكان للطيفوري ابن قد علم الطب علمًا، يقال له: دانييل ثم ترهب بعد ذلك فكان يدخل مدينة السلام عند تأدي الخبر إليه بعلقة والده أو ما أشبه ذلك، وكان ليوحنا طاوس كان يقف على الحائط الذي فيما بين داره ودار الطيفوري، فقدم دانييل مدينة السلام ليلاً في الشهر المعروف بـ«آب» وهو شهر شديد الحر كثير الرمذ، فكان الطاوس كلما اشتد عليه الحر صاح فأنبه دانييل وهو في ثياب ضوف من ثياب الرهبان، فطرده مرات فلم ينفع ذلك، ثم رفع مرزبته فضرب بها رأس الطاوس فوقع ميتًا.

واستتر الخبر عن يوحنا إلى أن ركب ورجع فصادف عند منصرفه طاوسه ميتًا على باب داره، فأقبل يقذف بالجدود من قتله فخرج إليه دانييل فقال: لا تشتم من قتله، فإني قتلته ولك على مكانه عدة طواويس.

(١) المدائن: هي قاعدة ملك الأكاسرة، وسماها العرب المدائن؛ لأنها سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة، وآثارها وأساؤها باقية، وقد فتحت المدائن كلها على يد سعد بن أبي وقاص في صفر سنة (١٦ هـ) في أيام عمر بن الخطاب. انظر: معجم البلدان (٥/٧٤، ٧٥).

فقال له يوحنا -بحضرتي-: ليس يعجبني راهب له سنام وطول ذكر إلا أنه قال ذلك بفحش.

قال له دانييل: وكذلك ليس يعجبني شماس له عدة نساء واسم رئيسة نسائه «قراطيس»، وهو اسم رومي لا عربي، ومعنى «القراطيس» عند الروم: قرنانة، وليس تكون المرأة قرنانة حتى تنكح غير بعلمها، فخرج يوحنا ودخل منزله مفعولاً.

قال يوسف: وحدثني بمصر أحمد بن هارون الشراي أن المتوكل على الله حدثه في خلافة الواثق أن يوحنا بن ماسويه كان من الواثق على دكان كان للواثق في دجلة، ومع الواثق قسبة فيها شخص^(١) وقد ألقاها في دجلة ليصيد بها السمك، فحرم الصيد فالتفت إلى يوحنا -وكان على يمينه- فقال: قم يا مشثوم عن يميني. فقال له يوحنا: يا أمير المؤمنين! لا تتكلم بمحال يوحنا بن ماسويه الخوزي وأمه: رسالة الصقلية المتبعة بشهائنة درهم أقبلت به السعادة إلى أن صار نديم اخلفاء وسميرهم وعشيرتهم، وحتى غمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله، فمن أعظم المحال أن يكون هذا مشثوماً، ولكن إن أحب أمير المؤمنين أن أخبره بالمشثوم من هو؟ أخبرته.

فقال: ومن هو؟

فقال: من ولدته أربع خلفاء، ثم ساق الله إليه الخلافة فترك الخلافة وقصورها وبساتينها وقعد في دكان مقدار عشرين ذراعاً في مثلها في وسط دجلة لا يأمن عصف الرياح عليه فيغرقه ثم يتشبه بأفقر قوم في الدنيا وشرهم وهم صيادو السمك.

قال لي أحمد بن هارون: قال لي المتوكل: فرأيت الكلام قد أنجع فيه إلا أنه أمسك لمكاني.

(١) الشَّص: أداة لصيد السمك.

قال يوسف: وحدثني أحمد بن هارون أن الواثق قال في هذا اليوم ليوحنا وهو على هذه الدكان: يا يوحنا! ألا أعجبك من خلة؟ قال وما هي؟

قال: إن الصياد يطلب السمك مقدار ساعة فيصيد السمكة تساوي الدينار أو ما أشبه ذلك، وأنا أقعد منذ غدوة إلى الليل فلا أصيد ما يساوي درهما!

فقال له يوحنا: وضع أمير المؤمنين التعجب في غير موضعه إن الله تعالى جعل رزق الصياد من صيد السمك فرزقه يأتيه؛ لأنه قوته وقوت عياله، ورزق أمير المؤمنين بالخلافة فهو^(١) غني عن أن يرزق بشيء من السمك ولو كان رزقه جعل في الصيد لوفاه رزقه منه مثل ما يوافي الصياد.

قال يوسف: وحدثني إبراهيم بن علي متطبب أحمد بن طولون: إنه كان في دهليز يوحنا بن ماسويه ينتظر رجوع يوحنا من دار السلطان، فانصرف وقد أسلم في ذلك اليوم عيسى بن إبراهيم نوح كاتب الفتح بن خاقان.

قال إبراهيم: فقممت إليه وجماعة الرهبان، فقال لنا: اخرجوا يا أولاد الزنا من دارني، واذهبوا وأسلموا، فقد أسلم المسيح الساعة على يدي المتوكل!

قال يوسف: وقدم جرجه بن زكريا عظيم النوبة، في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين إلى «سُر من رأى»، وأهدى إلى المعتصم هدايا فيها قردة! فإني عند يوحنا في اليوم الثاني من شوال من هذه السنة، وأنا أعاتبه على تخلفه عن حضور الدار في ذلك الوقت؛ لأنني رأيت سلمويه وبختيشوع والحريش المتطبيين، وقد وصلوا إذ دخل علينا غلام من الأتراك الخاصة ومعه قرد من القروود التي أهداها ملك النوبة، لا أذكر أنني رأيت أكبر منه جثة، وقال له: يقول لك أمير المؤمنين: زوّج هذا القرد من «حاحم» قردتك! وكان ليوحنا قردة يسميها «حاحم» كان لا يصبر عنها ساعة!.

فوجم لذلك، ثم قال للرسول: قل لأمر المؤمنين: اتخاذي لهذه القردة غير ما توهمه أمير المؤمنين، وإنما دبرت تشريحها لأجل وضع كتاب على ما وضع جالينوس في التشريح يكون وضعي إياه لأمر المؤمنين! وكان في جسمها ضعف فخفت أن تكون العروق فيها والأوراد والعصب دقاقاً، فلا أطيق في إيضاح الأمر فيها مثل إيضاحها فيما عظم جسمه، فتركتها لتكبر ويغلظ جسمها، فأما إذا قد وافى هذا القرد فسيعلم أمير المؤمنين أنني سأضع له كتاباً لم يوضع في الإسلام مثله.

ثم فعل ذلك بالقرد فظهر له منه كتاب حسن استحسنته أعداؤه فضلاً عن أصدقائه.

قال يوسف: واعتل محمد بن سليمان بن الهادي والمعروف بأبي مشغوف علة تطاولت به، وكان أبو العباس ابن الرشيد يلزم يوحنا تعاهده، وكان محمد بن سليمان ربما يزيد في الحديث أشياء لا يخيل باطلها على سامعها، فدخل إليه يوماً وأنا عنده فاستشاره فيما يأخذه؟

فقال يوحنا: كنت أشير عليك بها تأخذ في كل يوم، وأنا أحسبك تحب الصحة والعافية، فأما إذا صح عندي أنك تكره العافية وتحب العلة!

فقال له يوحنا: أنت والبرهان على ذلك، أن العافية في العالم تشبه الحق، والسقم يشبه الكذب، وأنت تتكلم أكثر دهرك بالكذب فيكون مادة لسقمك، فمتى تبرأ أنت من علة متطاوله وأنت تمدّها أكثر دهرك بالكذب الزائد فيها فالزم الصدق ثلاثة أيام ولا تكذب فيها، فيوحنا بريء من المسيح إن لم تخرج من هذه العلة قبل ثلاثة أيام.

ونقلت من كتاب الهدايا والتحف لأبي بكر وأبي عثمان الخالدين قالاً: حدثنا أبو يحيى قال: اقتصد المتوكل فقال لخاصته وندمائه: اهدوا إليّ يوم فصدي.

فاحتفل كل واحد منهم في هديته وأهدى إليه الفتح بن خاقان جارية لم ير الرءاؤون

مثلها حسنًا وظرفًا وكما لا.

فدخلت إليه ومعها جام ذهب في نهاية الحسن ودن بلور لم ير مثله، فيه شراب ورقة فيها مكتوب: [الوافر]

إذا خرج الإمام من الدواء وأعقبه بالسلامة والشفاء
فليس له دواء غير شرب بهذا الجام من هذا الطلاء
وفض الخاتم المهدى إليه فهذا صالح بعد الدواء

فاستطرف المتوكل ذلك واستحسنه، وكان بحضرة يوحنا بن ماسويه فقال: يا أمير المؤمنين! الفتح - والله - أطب مني فلا تخالف ما أشار به.

قال: ومن نوادر يوحنا بن ماسويه: أن المتوكل قال له يومًا: بعث بيتي بقصرين، فقال له آخر: الغداء يا أمير المؤمنين، أراد المتوكل تعشيت فضرني لأنه تصحيفها، فأجابه ابن ماسويه بما تضمن العلاج.

وعتب ابن حمدون النديم ابن ماسويه بحضرة المتوكل، فقال له ابن ماسويه: لو أن مكان ما فيك من الجهل عقلاً ثم قسم على مائة خنفساء لكانت كل واحدة منها أعقل من أرسطوطاليس!

ووجدت في كتاب «جرباب الدولة» قال: دخل ماسويه الطبيب إلى المتوكل، فقال المتوكل لخدامه له: خذ بول فلان في قارورة وآت به إليّ بين يدي ابن ماسويه، فأتى به، فلما نظر إليه: هذا بول بغل لا محالة! فقال المتوكل: كيف علمت أنه بغل؟

قال ابن ماسويه: أحضر لي صاحبه حتى أراه ويتبين كذبي من صدقي.

فقال المتوكل: هاتوا الغلام، فلما مثّل بين يديه قال له ابن ماسويه: أيش أكلت البارحة؟ قال: خبز شعير وماء قراح. فقال ابن ماسويه: هذا والله! طعام حماري اليوم.

نقلت من خط المختار بن الحسن بن بطلان^(١) أن أبا عثمان الجاحظ ويوحنا بن ماسويه قال: اجتمعا بغالب ظني على مائدة إسماعيل بن بلبل الوزير، وكان من جملة ما قدّم مضيرة بعد سمك فامتنع يوحنا من الجمع بينهما.

قال له أبو عثمان: أيها الشيخ، لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاده، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له، وإن كان طبعاً واحداً فلنحسب أن قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا، فقال يوحنا: والله ما لي خبرة بالكلام، ولكن كُلْ يا أبا عثمان وانظر ما يكون في غد؟

فأكل أبو عثمان نصرة لدعواه ففلج في ليلته فقال: هذه والله نتيجة المحال من القياس، والذي ضلل أبا عثمان اعتقاده أن السمك من طبع اللبن، ولو ساءحناه في أنها من طبع واحد لكان امتزاجها قوة ليست في أحدهما.

وحديث الصولي^(٢) في كتاب الأوراق قال: كان المأمون نازلاً «على الرندون» نهر من أعمال طرطوس، فجلس يوماً وأخوه المعتصم وجعلا أرجلهما فيه استبراداً له، وكان أبرد الماء وأرقه وألذه، فقال المأمون للمعتصم: أحببت الساعة من أزاذ^(٣) العراق آكله وأشرب عليه من هذا الماء البارد.

وسمع صوت حلقة البريد وأجراسه فقليل: هذا يزيد بن مقبل بريد العراق

(١) هو: المختار بن عبدون بن بطلان أبو الحسن، طبيب من أهل بغداد، توفي سنة (٤٥٨هـ).

(٢) هو: محمد بن يحيى البغدادي الأديب الإخباري العلامة، صاحب التصانيف، أخذ الأدب عن المبرد وثعلب، وروى عن أبي داود السجستاني وطائفة، وروى عنه الدارقطني وغيره، ونادم غير واحد من الخلفاء. انظر: الفهرست ص ٢١٥-١٢٦، الوافي بالوفيات (١٢٥/٥، ١٢٦)، معجم الأدباء (٥/٤٧٨، ٤٧٩)، سير أعلام النبلاء (٣٠١/١٥-٣٠٣)، وفيات الأعيان (٤/٣٥٦-٣٦٠)، شذرات الذهب (٢/٣٣٩-٣٤٢).

(٣) أزاذ: صنف من التمر.

فأحضر طبقاً من فضة فيه رطب أزاذا! فعجب من تمنيه، وما تم له، فأكلا وشربا من الماء ونهضا، وتودع المأمون وأقال، ثم نهض محمومًا وفصد فظهرت في رقبته نفخة كانت تعتاده، ويراعىها الطبيب إلى أن تنضج وتفتح فتبرأ.

فقال المعتصم للطبيب وهو ابن ماسويه: ما أطرف ما نحن فيه تكون الطبيب المفرد الوحيد في صناعتك وهذه النفخة تعتاد أمير المؤمنين ولا تزيلها عنه، وتتلطف في حسم مادتها حتى لا ترجع إليه؟ والله لئن عادت هذه العلة عليه لأضربن عنقك.

فاستطرق ابن ماسويه لقول المعتصم وانصرف فحدث به بعض من يثق به ويأنس منه فقال: تدري ما قصد المعتصم؟ قال: لا. قال: قد أمرك بقتله! حتى لا تعود النفخة إليه وإلا فهو يعلم أن الطبيب لا يقدر على دفع الأمراض عن الجسام، وإنما قال: لا تدعه يعيش ليعود المرض إليه!

فتعالم ابن ماسويه وأمر تلميذًا له بمشاهدة النفخة والتردد إلى المأمون نيابة عنه والتلميذ يجيئه كل يوم ويعرف حال المأمون وما تجدد له، فأمره بفتح النفخة فقال: أعيدك بالله، ما احمرت ولا بلغت حد الجراح!

فقال له: امض وافتحها كما أقول لك ولا تراجعني، فمضى وفتحها ومات المأمون رحمة الله عليه.

أقول^(١): إنها فعل ابن ماسويه ذلك لكونه كان عديم المروءة عديم الدين والأمانة، وكان على غير ملة الإسلام، ولا تمسك بدينه أيضًا كما حكى عنه يوسف بن إبراهيم في أخباره المتقدمة، ومن ليس له دين يتمسك به ويعتقد فيه فالواجب أن لا يدانيه عاقل ولا يركن إليه حازم.

(١) أي: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء (٢/ ١٢٢).

وكانت وفاة يوحنا بن ماسويه بـ«سر من رأى» يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين ومائتين في خلافة المتوكل.

ومن كلام يوحنا بن ماسويه سئل عن الخير الذي لا شر معه؟ فقال: «القليل من الشراب الصافي».

ثم سئل عن الشر الذي لا خير معه؟ فقال: «نكاح العجوز».

وقال: «أكل التفاح يرد النفس».

وقال: «عليك من الطعام بما حدث ومن الشراب بما عتق»^(١).

ومنهم:

٧٩ - ميخائيل بن ماسويه^(٢)

طبيب المأمون وريب ذلك الفضل المبتون، نفق على ذلك الفاضل، ودفع كل مناضل، لا يكذب يقينه منية الصدوق، ولا يلز جواده السبوق فطما مع ذلك البحر المحيط، وحج إليه الوفد وأول ما نزع المخيط.

قال يوسف بن إبراهيم مولى إبراهيم بن المهدي: حضر ابن ماسويه دار ابن المهدي مع جماعة من وجوه الأطباء وكانت أمه «شكلة» عليلة، فنظروا إلى مائها وجسوا عرقها ثم عادوا في اليوم الثاني، فقالوا كلهم: "إنها أصبحت سالحة لا يشكون في إفراقها"، فلما نهضوا اتبعتهم فسألت واحداً واحداً عما عنده فيها؟ فكلهم قال مثل مقالته إلا ابن

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/١٢٣).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/١٢٦-١٢٨).

سلمويه فإنه قال: «هي اليوم أصعب حالاً من أمس».

وقال لي ميخائيل: إنه قد ظهر بالأمس بالقرب من قلبها مرض ورم لم نره في يومنا هذا، أفترى ذلك الورم ساخ في الأرض أو ارتفع إلى السماء؟ انصرف فأعد لهذه المرأة جهازها فليست تبيت من الأحياء، فتوفيت وقت صلاة العشاء.

ومنهم:

٨٠- حنين بن إسحاق العبادي^(١)

أبو زيد، والعباد -بالفتح-: قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية بالخير.

كان من أبناء الصيارف، وأتى إلا إنباء المعارف، تعلق بالعلم يطلب تحصيله، وتيقن تأصيله^(٢) يغادي إليه أيامه ويكر، ويهاجر منامه ولا يهجر، وكان لا يرفع له علم قدر، ولا يوسع له أكرم صدر لمهنة آبائه الوضيعة وأهنة أماناتهم المضیعة ونفسه تأنف له أن يرى بعين هضيعة، أو يراقب بمعاملة مضیمة، فنهض نهضة ثائرة، وقام قومة سائر، ودخل بلاد الروم فتخلق بأخلاقهم، وجاء على وفاقهم حتى كان كأحد علمائهم وأوحد حكمائهم.

ثم خرج متنكراً لا يعرف من الأعياص عيصه^(٣)، ولا من أي المصايد قنيصه^(٤)،

(١) انظر: ترجمته في الفهرست ص ٤٠٩، طبقات الأطباء لابن جلجل ص ٦٨، ٦٩، عيون الأنباء (٢/ ١٢٨-١٥٨)، تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ١٦-١٨، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٩٢)، وفيات الأعيان (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) ذكر ابن أبي أصيبعة في كتاب عيون الأنباء (٢/ ١٥٠-١٥٨) مؤلفات حنين بن إسحاق.

(٣) العيص: الأصل، والوعيص: منبت خيار الشجر، والعيص أيضاً: أصول الشجر. [لسان العرب: مادة عيص].

حتى أجله من كان لا يحلّه، وقلّ لديه من كان يستقله.

ذكر يوسف بن إبراهيم في سبب ظهوره ما مختصرة: «إن حنين العبادي كان يقرأ على ابن ماسويه، ورهط ابن ماسويه من أهل «جند يسابور» ويكرهون أهل الحيرة، فكره ذات يوم من العبادي كثرة سؤاله، فطرده، وقال له: شأنك أن تكون صيرفيًا!».

فخرج من عنده وآلى أن يتعلم لغة يونان كأحسن ما يكون، فجمعني به مجلس فإذا بإنسان له شعرة قد جللته، وقد ستر وجهه عني ببعضها، وطفق ينشد شعراً بالرومية لـ «أوميرس» رئيس شعراء الروم، فعرفته بنعمته، وكان عهدي به بعيداً، فاستكتمني حاله، وسألني الستر عليه، فبقيت أكثر من ثلاث سنين أو أربعاً لم أره، ثم إني دخلت على ابن بختيشوع، وقد انحدر من معسكر المأمون، فوجدته عنده، وقد ترجم له أقساماً قسمها بعض الروم في كتاب من كتب جالينوس، وهو يخاطبه بالإنجيل ويقول له: يا زين حنين يعني: أيها المعلم! فأعظمت ما رأيت، وتبين ذلك جبرائيل في وجهي فقال: لا تستنكرن ما ترى من تبجيلي في هذا الفتى، فوالله إن مدد له في العمر ليقضحن الأول، ثم خرج حنين وتبعته فوجدته ينتظرنني، فسلم عليّ، وقال: كنت سألتك ستر خبري، والآن أسألك إظهاره، وإظهار ما سمعت من جبرائيل يقوله فيّ، فقلت: إني مسود وجه ابن ما سويه بما سمعته، فقال: تمام سواد وجهه أن تدفع إليه هذه النسخة، ولا تعلمه من نقلها، فإذا اشتد عجبه بها أعلمه أنها إخراجي، ففعلت ذلك من يومي، [وقبل انتهائي إلى منزلي]^(١).

فلما قرأ ابن ماسويه تلك الفصول، وهي التي يسميها اليونان: «الفاعلات»، قال: «أترى المسيح أوحى في دهرنا هذا إلى أحد؟» فقلت له: ما أوحى في هذا الدهر ولا في غيره إلى أحد، ولا كان المسيح إلا أحد من يوحى إليه، فقال له: دعني ليس هذا

(١) القنيص: المصيد.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

[الإخراج]^(١) إلا إخراج مؤيد بروح القدس، فقلت له: هذا إخراج حنين بن إسحاق الذي طرده، وأمرته أن يعمل الصيارف، فقال: هذا محال، ثم صدق القول، وسألني التلطف في إصلاح ما بينهما، ففعلت، وأفضل عليه [إفضالاً كثيرة]^(٢) ولم يزل مبعلاً له، ثم لازم ابن ماسويه وأخذ عنه صناعة الطب، ونقل له كتباً كثيرة، ثم لما رأى المأمون في منامه كأن شيخاً بهياً جالساً على منبر، وهو يخطب، ويقول: «أنا أرسطوطاليس»، أحضر حنين بن إسحاق، وسأله عنه؟ فأخبره، فأمره بنقل كتب الحكماء إلى اللغة العربية، وبذل له أموالاً جمة، وقيل للخليفة: إن ملك الروم ربما دسَّ عليك، فكان لا يأخذ بقوله بمفرده، ثم أراد اختباره، فخلع عليه وأعطاه خمسين ألف درهم، ثم قال له: إني أريدك تصف لي دواء أقتل به عدواً لي سراً، فقال: إني لم أتعلَّم إلا إلا الأدوية النافعة، وما علمت يا أمير المؤمنين يُطلب مني غيرها، فإن أحبَّ أن أمضي وأتعلَّم فعلت ذلك.

فقال: هذا شيء يطول، ورغبه ورهبه وهو لا يزيد على قوله، فحبسه في بعض القلاع ووكل من يأتيه بأخباره، فمكث سنة غير مكترث بما هو فيه، دأبه النقل والتفسير والتصنيف ثم أحضره وأحضر له أموالاً وغيرها وسيفاً ونطعاً^(٣) يرهبه به وهو على قوله، فقال له: إني أقتلك! فقال: إن لي رباً يأخذ بحقي، فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل، فتبسم له وقال: طب نفساً فإنما أردت أن أمتحنك لنتفع بعلمك، فقَبِلَ حنين الأرض وشكر له، فقال له الخليفة: ما منعك يا حنين من الإجابة مع ما رأيت منا في الحاليين؟ فقال: شيثان، قال: ما هما؟ قال: الدين والصناعة، فخلع عليه وحمل المال بين يديه وخرج وهو أحسن عنده حالاً.

قال الصقلي: كان حنين من رفقة سيبويه في الاشتغال في النحو على الخليل بن أحمد.

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) النطع: بساط من الأديم يستخدم عادة في حالة القتل. انظر: لسان العرب، مادة (نطع).

وخدم حنين المتوكل وحظي في أيامه وكان يلبس زنازا^(١)

قال [القباني]^(٢): كان حنين في كل يوم عند نزوله من الركوب يدخل الحمام يصب عليه الماء ويخرج، فيلتف بقطيفة وقد أعد له هباب من فضة فيه رطل من شراب وكعكة مثرودة فيه، فيأكلها ويشرب الشراب وي طرح نفسه حتى يستوفي في عرقه، وربما نام، ثم يقوم ويتبخر ويقدم له طعامه وهو فروج كبير مسمن قد طبخ بزيرباج^(٣) ورغيف فيه مائتا درهم، فيحسو المرق ثم يأكل الفروج والخبز ثم ينام، فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شراباً عتيقاً ولم يذق غير هذا طول عمره، فإذا انتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والرمان والسفرجل.

وعمل عليه أعداؤه حتى مات غمّاً في ليلة واحدة^(٤).

ومنهم:

٨١- إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي أبو يعقوب^(٥)

رجل ما نهه في طلب، ولا نبه له جفناً من طرب، ولم يضع نصيبه من كل صالحة، وتصويبه إلى صوت كل صائحة، حتى لا يخل تقييده لشاردة، ولا تعديده لوارده، إلا أنه كان أميل إلى الحكمة المطلقة من مفرد الطب، وهي لديه أثر ما يحب، ولم يخل من أدب

(١) الزنار: وهو ما على وسط النصارى والمجوس. انظر: تاج العروس، مادة (زنر).

(٢) في الأصل، «ف»: العتاب، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) زيرباج: طعام يجهز من لحم طير وكمون وخل.

(٤) انظر: عيون الأنباء (٢/ ١٣٠، ١٤٩).

(٥) انظر: ترجمته في تاريخ الحكماء للقفطي ص ٨٠، عيون الأنباء (٢/ ١٥٨-١٦٠)، وفيات الأعيان

(١/ ٨٥) تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ص ١٨، ١٩، البداية والنهاية (١١/ ١١٦)، الوافي بالوفيات

(٨/ ٢٦٦، ٢٦٧).

راح يسوقه، وأرض يسوقه.

قال ابن أبي أصيبعة: كان يلحق بأبيه في النقل ومعرفة اللغات إلا أن نقله لكتب الطب قليل جداً بالنسبة إلى نقله لكتب أرسطو، وخدم إسحاق من خدم أبوه من الخلفاء والرؤساء، وكان منقطعاً إلى القاسم بن عبد الله وزير المعتضد وخصيصاً به ومتقدماً عنده يفضي إليه بأسراره، وله حكايات مستطرفة ونوادر، وتوفي أيام المقتدر.

ومن كلامه: «قليل الراح»^(١) صديق الروح وكثيرها عدو الجسم.

وشرب دواء مسهلاً، فكتب إليه القاسم بن عبيد الله الوزير مداعباً:

أبـنـ لي كـيـف أـمـسـيت؟ وكم كان من الحال؟
وكم سارت بك الدقة نحو المنزل الخالي؟

فكتب إليه حنين بن إسحاق:

بخـير كـنت مـسـروراً رضي الحال والبـال
فأما السـير والناقـة نحو المنزل الخـبـالي
فأجـلـالك أنـسـانيـه يا غايـة آمـالـي

ومتهم:

٨٢- يوحنا بن بختيشوع^(٢)

كان له جاهه شفيعاً، وعلمه يُحِلُّه محلاً رفيعاً حتى كان بدرًا في منازل الخلافة

(١) الراح: الخمر، وهي محرمة في الشريعة الإسلامية.

(٢) انظر: الوافي بالوفيات (٢٩/ ٣٠)، عيون الأنباء (٢/ ١٦٠، ١٦١).

طالعا، ونديا دواعي السلافة طائعا.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان طبييا متميزا خيرا باليونانية والسريانية، ونقل كتبًا كثيرة، وخدم الموفق بالله طلحة بن جعفر المتوكل، وكان يعتمد عليه ويسميه «مفرج كربى»».

قال ابن طومار: كان الموفق إذا جلس للشرب تقدم بين يديه ضيئة من ذهب ومغسل من ذهب وخرداذي بلور وكوز بلور ويجلس يوحنا بن بختيشوع عن يمينه ويقدم إليه مثل ذلك، وكذلك بين يدي أبي غالب الطيب ويقدم إلى جميع الجلساء صواني مدهون وقناني زجاج وغير ذلك، وكان ابنه بختيشوع بمكانه من المقتدر بالله وإقطاعات، ثم كان عند الراضى كذلك»^(١).

ومنهم:

٨٣ - ثابت بن قرة الحراني، أبو الحسن^(٢)

ساء لا تصدأ مرآتها، وورقاء لا تزال تطرب ملهاتها، وكوكب أفق درى كيف تسير الثواقب وتصير المناقب، وتسور خود الثريا بالهلال، ويخسأ رقيب العواء المراقب. ظهر له من قوة الحدس ما كاد يعد كرامة، ويرد به البقاء، وقد كان الهلك رامة.

قال ابن أبي أصيبعة: كان من الصابئين المقيمين بحران، وتعلم على محمد بن موسى بن شاكر فوصله بالمعتضد فأدخله في جملة المنجمين، وهو أصل من كان ببغداد

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ١٦٠).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ١٩٦)، وفيات الأعيان (١/ ٣١٣-٣١٥)، تاريخ الحكماء للقفطي ص ١١٥-١٢٢، الوافي بالوفيات (١٠/ ٤٦٦، ٤٦٧)، البداية والنهاية (١١/ ٨٥)، العبر (٢/ ٣٣٦)، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٨٥).

من الصائبة، ولم يكن في زمانه من يئاثله في الطب ولا في غيره من أجزاء الفلسفة، وله تصانيف مشهورة بالجودة، وكذلك جاء جماعة من ذريته، وله أرصاد حسان للشمس تولاها ببغداد، وكان يدخل إلى المعتضد إلى الحبس في كل يوم ثلاث مرات يحدثه ويؤنسه ويسليه فشغف به، فلما خرج من معتقله قال لغلامه بدر: يا بدر! أي رجل أفدنا بعدك؟ فقال: من هو يا سيدي؟ قال: ثابت بن قرة.

ثم أقطعه جليلاً، وكان يجلسه بيد يديه [كثيراً بحضرة العام والخاص، ويكون بدر الغلام الأمير قائماً والوزير وهو جالس بين يدي الخليفة]^(١).

وحكى أبو إسحاق الصابئ أن ثابت بن قرة بينما هو ماشٍ مع المعتضد [في الفردوس وقد اتكأ المعتضد]^(٢) على يده إذ نثر يده بشدة ففزع ثابت؛ لأن المعتضد كان مهيباً، ثم لما نثرها قال له: يا أبا الحسن - وكان يكنى في الخلوة [وفى الملاء يسميه]^(٣) - سهوت ووضعت يدي على يدك وما هكذا يجب؛ لأن العلماء يعلون ولا يُعلون.

وحكى أنه اجتاز يوماً إلى دار الخلافة فسمع صياحاً وعويلاً فقال: من هذا؟ قالوا: مات القصاب الذي كان هنا فجأة، فأتى إليه وأمر النساء بالسكوت وأن يعلموا مزورة^(٤) وأمر بعض غلمانه أن يضرب القصاب على كعبه بالعصا، وجعل يده مجسة وما زال ذلك يضرب كعبه إلى أن قال: حسبك، ثم استدعى بقدرج وأخرج من كفه دواء فذافه في القدح بقليل ماء وفتح فم القصاب وسقاه إياه، فأساغه ووقعت الصيحة في الدار والشارع بأن الطبيب قد أحيا الميت، فتقدم ثابت يغلق الباب وفتح القصاب عينيه وأطعمه المزورة وأجلسه وقعد عنده ساعة وإذ برسل الخليفة يدعونه، فلما مثل بين يديه

(١) ما بين الحاصرتين في الأصل، «ف»: والوزير وبدر فوق، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٤) المزورة: مرقة خفيفة تصنع للمريض.

قال له: يا ثابت! ما هذه المسيحية التي بلغتنا عنك؟

فقال: يا مولاي، كنت أجتاز بهذا القصاب وأراه يشرح الكبد وي طرح عليها الملح ويأكلها، وكنت أعلم أن سيلحقه سكتة، فأعددت له هذا الدواء، فلما قيل لي اليوم: إنه مات فجأة البارحة، علمت أن السكتة قد لحقته، فدخلت إليه فلم أجد له نبضاً فضربته إلى أن حركت نبضه، وسقيته الدواء ففتح عينيه وأطعمته مزورة، والليلة يأكل رغيفاً بندراج، وفي غد يخرج من بيته.

ومن كلامه: «ليس على الشيخ أضر أن يكون له طباخ حاذق، وجارية حسنة، فيستكثر من الطعام فيسقم، ومن الجماع فيهرم».

ولما مات ابن قرّة رثاه ابن المنجم القديم بقصيدة منها: [الطويل]

نعينا العلوم الفلسفيات كلها	خبنا نورها إذ قيل قد مات ثابت
ولما أتاه لم يغن طبه	ولا ناطق مما حواه وصامت
فلو أنه استطاع للموت مدفع	لدافعه عنه حماة مصالت ^(١)
أأمل أن تجلى عن الحق شبهة	وشخصك مقبور وصوتك خافت
وقد كان يجلو حسن تبييتك العمى	وكل قنول حين تنطق ساكت
كأنك مسنول من البحر غارف	ومستبدئ نطقاً من الضخر ناحت
فلم يتفقدي من العلم واحد	هراق إناء العلم بعدك كابت
عجبت لأرض غيبتك ولم يكن	ليثبت فيها مثلك الدهر ثابت
وأحسنحت حتى لم يكن لك مبغض	ولا يك لما اغتالك الموت شامت
مضى علم العلم الذي كان مقنعاً	فلم يبق إلا مخطئ متهافت

ومنهـم:

٨٤- سنان بن ثابت بن قرة^(١)

أبو سعيد، مقرب كل بعيد، وتعرض سبب كل بعيد، ما صحب صعباً إلا دثت شيمته، ولين شكيمته، ودلّه على كرم الأخلاق، ودل عليه وثوب عرضه لا يمزقه إلا خراق^(٢).

قال ابن أبي أصيبعة: كان يلحق بأبيه في معرفته بالعلوم، وله قوة بالغة في علم الهيئة، وخدم المقتدر والراضي، وأرداه القاهر^(٣) على الإسلام فهرب إلى خراسان، ثم عاد وتوفي ببغداد مسلماً، وكان على البهارستان، وكانت توابع الوزير عيسى بن علي تأتيه بقرب فينفذها؛ منها: تفقد المحابيس وأهل السواد بالأطباء والأدوية والأغذية، حتى كتب يستأذنه في أهل الذمة، فكتب إليه الوزير: أكرمك الله! ليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهايم صواب، ولكن الذي يجب تقديمه والعمل عليه معالجة الناس قبل البهايم، والمسلمين قبل أهل الذمة، فاعمل على ذلك، وكتب إلى أصحابك به، ووصهم بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية،

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٢٠٩-٢١٤)، الوافي بالوفيات (١٥/ ٢٨٠-٢٨٢)، معجم الأدباء (٣/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٢) خَرَّاق: التخرق لغة في التخلق من الكذب. انظر: مختار الصحاح مادة (خَرَق).

(٣) هو: محمد بن المعتض بالله أحمد بن طلحة بن جعفر المتوكل، أبو منصور العباسي، كان ربيعة، أسمر، أصهب الشعر، طويل الأنف، بويج بالخلافة في شوال سنة عشرين وثلاثمائة، خلع وسملت عيناه، وتوفي في جمادى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة. انظر: البداية والنهاية (١١/ ٢٢٣، ٢٢٤)، العبر (٢/ ٢٥٦، ٢٥٧)، سمط النجوم العوالي (٣/ ٤٩٠، ٤٩١)، شذرات الذهب (٢/ ٣٤٦) وفيه أنه توفي سنة (٣٤٩-٣٥٠)، تاريخ الخلفاء ص ٣٨٦-٣٩٠.

واستجّد في زمانه ببيارستان السيدة^(١) بسوق يحيى والمارستان المقتدري.

ثم خدم بعد الراضي «بحكم»^(٢) فريّض أخلاقه، وسكن سورة غضبه، وكان قد شكّا إليه ما يجده، فقال له كلامًا زبدته أنت قادر متى شئت على الانتقام، فإذا أردت نقمة بأحد أخرها إلى الغد لو ثوقك بقدرتك، فالغضب كالسكر إذ بات زال.

ومنهم:

٨٥ - ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني^(٣)

كان يتكلم بالحديث الصحيح على كل مغيب، ويتقدم عند ملوك قریش على كل أخلافي ومتطيّب، لم يبالغ في وصفه من تعدى، ولا ذكر معجز عجائبه إلا من ظن أنه بها يتحدى.

ذكره ابن أبي أصيبعة فقال: كان طبيبًا فاضلاً، كثير الدراية، وافر العلم، بارعاً في الصناعة، موفقاً في المعالجة، مطلعاً على أسرار الطب، وكان مع ذلك ضئيلاً بما يحسن.

نقلت من خط ابن بطلان^(٤) قال: كان قد أسكت أبو طاهر^(٥) ابن بقية في داره

(١) وهو بيارستان السيدة أم المقتدر ببغداد، افتتح سنة ست وثلاثمائة، وكان مبلغ النفقة فيه في العام سبعة آلاف دينار. انظر: النجوم (٣/١٩٣).

(٢) هو: بحكم أبو الخير الأمير التركي، كان أمير الأمراء، توفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. انظر: الوافي بالوفيات (٤٩، ٤٨/١٠).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/٢١٩-٢٢٣)، الوافي بالوفيات (١٠/٤٦٥)، وفيات الأعيان (١٠٠/١).

(٤) لا زال الذي يتحدث هو ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء (٢/٢١٩).

(٥) هو الوزير أبو طاهر بن بقية.

الشاطئة على الجسر ببغداد، وقد حضر الأمير عز الدولة^(١) بختيار، والأطباء مجتمعون على أنه قد مات، فتقدم أبو الحسن الحراني وكنت أصحابه يومئذ فقال: أيها الأمير، إذا كان قد مات فلن يضره الفصاد، فهل تأذن لي في فصده؟

قال له: اذعل يا أبا الحسن! ففصده فرشح منه دم يسير، ثم لم يزل يقوى الرشح إلى أن صار الدم يجري فأفاق الوزير.

فلما خلوت به سألته عن الحال وكان ضئيلاً بما يقول؟

فقال: إن من عادة الوزير أن يستفرغ في كل فصل ربيع دماً كثيراً من عروق المعدة، وفي هذا الفصل انقطع عنه، فلما فصدته ثابت القوة من خناقها.

قال عبيد الله بن جبرائيل: لما دخل عضد الدولة - رحمه الله - إلى بغداد إذ كان أول من لقيه من الأطباء أبو الحسن الحراني وكان شيخاً مسناً، وسان وفان أصغر من أبي الحسن وكانا عالمين فاضلين، وكان جميعاً يسعران^(٢) المرضى ويمضيان إلى دار السلطان، فحسن ثناؤه عليهم، ولما دخلا على عضد الدولة قال: مَنْ هؤلاء؟ قالوا: الأطباء. قال: نحن في عافية وما بنا حاجة إليهم، فانصرفنا خجلين، فلما خرجا إلى الدهليز قال سنان لأبي الحسن: يجمل أن ندخل إلى هذا الأسد ونحن شيخان فيفترسنا.

قال له أبو الحسن: فما الحيلة؟ قال: نرجع إليه وأنا أقول ما عندي وننظر إيش الجواب؟ قال: افعل، فاستأذنا ودخلا فقال سنان: أطال الله بقاء مولانا، موضوع

(١) هو: أبو منصور بختيار الملقب عز الدولة ابن الملك معز الدولة أحد بن بويه الديلمي، ولي عز الدولة مملكة أبيه بعد موته، وكان شديد القوى يمسك الثور العظيم بقرنيه فيصرعه. انظر: البداية والنهاية (١١/٢٩١، ٢٩٢)، شذرات الذهب (٣/٥٩)، الوافي بالوفيات (١٠/٥٣، ٥٤)، سير أعلام النبلاء (١٦/٢٣١، ٢٣٢)، وفيات الأعيان (١/٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) يسعران: أي يمران على المرضى لمعرفة ما بهم.

صناعتنا حفظ الصحة لا مداواة الأمراض والملك أحوج الناس إليه .

فقال له عضد الدولة: صدقت، وقرر لها الجاري السني وصارا ينوبان مع أطبائه.

قال عبيد الله بن جبرائيل: ولهما أحاديث كثيرة حسنة منها: حديث قلاء الكبود: وذلك أنه كان بباب الأزج إنسان يقلي الكبود، فكانا إذا اجتازا عليه دعا لهما وشكرهما وقام حتى ينصرفا.

فلما كان في بعض الأيام اجتازا فلم يرياه، فظنا أنه قد شغل عنهما ومن غد سألا عنه؟ فقيل لهما: إنه قد مات، ففجبا من ذلك وقال أحدهما للآخر: له علينا حق يوجب علينا قصده ومشاهدته، فمضيا جميعًا وشاهدها، فلما نظراه وشاورا في قصده وسألا أهله أن يؤخروه ساعة واحدة ليفكروا في أمره، ففعلوا ذلك، وأحضروا فاصدًا فقصده فصدة واسعة، فخرج منها دم غليظ، وكان كلما خرج الدم خف عنه حتى تكلم، وسقياه ما يصلح، وانصرفا عنه.

ولما كان اليوم الثالث خرج إلى دكانه، فكان هذا من المعجز لهما، فستلا عن ذلك فقالا: سببه أنه كان إذا قلى الكبد يأكل منها ويدنه يمتلئ دما غليظًا وهو لا يحس حتى فاض من العروق إلى الأوعية، وغمر الحرارة الغريزية وخنقها كما يخنق الزيت الكثير الفتيلة التي تكون في السراج، فلما بدروه بالفصد نقص الدم وخف عن القوة الحمل الثقيل وانتشرت الحرارة وعاد الجسم إلى الصحة، وهذا الامتلاء قد يكون من البلغم أيضًا، وقد ذكر أسبابه الفاضل «جالينوس» في كتابه في تحريم الدفن قبل أربع وعشرين ساعة.

قال عبيد الله بن جبرائيل: ومن أحسن ما سمعت عن أبي الحسن الحراني: أنه دخل إلى قرابة الشريف الجليل محمد بن عمر - رحمه الله تعالى - وكان إنسانا نبيل القدر قد

عارضه ضيق نفس شديد صعب، فأخذ نبضة وأشار بها يستعمله، فشاوره في الفصد فقال له: لا أراه وإن كان يخفف المرض تخفيفاً بيئاً، وانصرف وجاءه أبو موسى المعروف ببقّة الطبيب وأبصر نبضه وقارورته، وأشار بالفصد فقال له الشريف: قد كان عندي أبو الحسن الحراني الساعة وشاورته في الفصد فذكر أنه لا يراه صواباً.

فقال بقّة: أبو الحسن أعرف وانصرف، فجاءه بعض الأطباء الذين هم دون هذه الطبقة، فقال: يفصد سيدنا الساعة، فإنه في الحال يسكن، وقوي عزمه على الفصد، ولم يبرح حتى فصده فعندما خف عنه ما كان يجده خفّاً بيئاً ونام وسكن عنه واعتدى وهو في عافية، فعاد إليه أبو الحسن الحراني آخر النهار فوجده ساكناً قارّاً، فلما رآه على تلك الحال قال له: قد فصدت؟

فقال: كيف كنت أفعل ما لم تأمرني به؟ قال: ما هو هذا السكون إلا للفصد.

قال له الشريف: لما علمت بهذا لم لا تفصدي؟

فقال له أبو الحسن الحراني: إذ فصد سيدنا فليشر بحمى ربع سبعين دور، ولو أن بقراط وجالينوس عنده ما تخلص إلا بعد انقضائها.

واستدعى دواة ودرجاً ورتب تدبيره لسبعين نوبة ودفعه إليه وقال: هذا تدبيرك، فإذا انقضى ذلك جئت إليك وانصرف، فما مضى أيام حتى جاءت الحمى وبقيت كما قال، فما خالف تدبيره حتى برأ.

قال عبيد الله بن جبريل: ومن أخباره لأنه كان للحاجب الكبير غلام، وكان مشغوقاً به، واتفق أن الحاجب صنع دعوة كبيرة كان فيها أجلاء الدولة، ولما اشتغل بأمر الدعوة حُمّ الغلام حمى حادة، فورد على قلب الحاجب من ذلك مورداً عظيماً، وقلق قلقاً كثيراً، واستدعى أبا الحسن الحراني فقال له: يا أبا الحسن! أريد الغلام يخدمني في غداة، اعمل كل ما تقدر عليه وأنا أكافئك بما يضاهاى فعلك، فقال له: يا حاجب! إن تركت

الغلام يستوفي أيام مرضه عاش وإلا فيمكنني من ملازمته أن يقوم في غد لخدمتك، ولكن إذا كان العام المقبل في مثل هذا اليوم يحم حمى حادة، ولو كان من كان عنده من الأطباء لم ينجع فيه مداواته، ويموت إما في البحران الأول أو الثاني، فانظر أيها أحب إليك؟

فقال له الحاجب: أريد أن يخدمني من غد وإلى العام المقبل فرج -ظناً منه أن هذا القول من الأحاديث المدفوعة- ولازمه أبو الحسن، ولما كان في غد أفاق وأقام في الخدمة، وأعطى الحاجب لأبي الحسن خلعة سنية ومالاً كثيراً، وصار يكرمه غاية الإكرام.

فلما كان في العام المقبل في مثل اليوم الذي حُمَّ فيه الغلام عاودته الحمى، فأقام محموراً سبعة أيام ومات، فعظم في نفس الحاجب وجماعة من الناس قوله، وكبر لديهم محله، وكان هذا منه كالمعجز^(١).

ومنهم:

٨٦- ابن وصيف الصابي^(٣)

كان يصبو إليه كل حكيم، ويصيب لديه غرضه كل عليم، لا تُرَضُّ له صخره، ولا يرضى لغيره فخره، ولا يزال بعده كل عليل لصعب الدواء ذخره.

قال ابن أبي أصيبعة فيه: «كان طبيباً عالمًا بعلاج أمراض العين، ولم يكن في زمانه

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٢٠-٢٢٣).

(٢) قال ابن أبي أصيبعة: توفي أبو الحسن في الحادي عشر من ذي القعدة سنة خمس وستين وثلاثمائة للهجرة، ولأبي حسن الحراني من الكتب: إصلاح مقالات من كناش يوحنا بن سراييون، وجوابات مسائل سئل عنها.

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٢٢٣، ٢٢٤).

أعلم منه في ذلك ولا أكثر مزاوله.

قال سليمان^(١): حدثني أحمد بن يونس الحراني قال: حضرت بين يدي أحمد بن وصيف الحراني وقد أحضر سبعة أنفس لقدح أعينهم وفي جملتهم رجل من أهل خراسان أقعده بين يديه ونظر إلى عينيه فرأى ماء متهياً للقدح، فسامه على ذلك، فطلب إليه فيه واتفق معه على ثمانين درهماً، وحلف أنه لا يملك غيرها، فلما حلف له الرجل اطمأن وضمه إلى نفسه، ورفع يديه على عضده فوجد بها نطاقاً صغيراً فيه دنانير، فقال له ابن وصيف: ما هذا؟ فتلون الخراساني، فقال ابن وصيف: حلفت بالله حانثاً وأنت ترجو رجوع بصرك إليك، والله لا عاجلتك إذ خاعدت ربك، فطلب إليه فأبى أن يقده، وصرف إليه الثمانين درهماً ولم يقده عينه^(٢).

ومنهم:

٨٧- غالب «طبيب المعتضد»^(٣)

ما عاد مريضاً فعاد مهيضاً، ولا زار عليلاً فشكا غليلاً، ولا أتى لقي بقلبه الضني إلا نهض من مضجعه، ونهى عن الضراء به توجهه، نفق في مثل سوق المعتضد، ووافق منه ظن المعتقد، وكان منه حيث لا يقر قرار المعتمد.

قال ابن أبي أصيبعة: كان يخدم الموفق أيام أبيه المتوكل، وخوله ونوله، وكان يغلفه بيده ويناديه، ثم خدم المعتضد بعد أبيه الموفق، وعالج الموفق من سهم أصابه فبرأ فأعطاه مالا كثيراً، وقال لغلمانه: من أراد إكرامي فليكرمه، فبعث إليه مسرور بعشرة آلاف دينار

(١) يقصد سليمان بن حسان.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٢٤).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٢٢٤).

ومائة ثوب، وبعث إليه سائر الغلمان ما لا يحصى، وأقطعه مرة زيادة على رزقه ضياعاً تغل سبعة آلاف دينار، وأتى المعتضد وهو بآمد خبر موته فكان هو المبتدئ لابنه سعيد بالعزاء فيه، ثم بعث إليه الوزير وسائر أرباب الدولة لتعزيتة، وبعث إليه بخون الطعام، ثم خلع وأجرى عليه كل ما كان لأبيه^(١).

ومنهم:

٨٨- صاعد بن بشر بن عبدوس، أبو منصور^(٢)

فطن لكثير من الغلط، وبيّن في أمور منها ما اختلط، حتى تلافى تلف الأبدان، ووافى بها لم يكن للحكماء القدماء به يدان، ونقل الأمزجة إلى ما يلائمها، وأجمع على هذا آراءه وقد كثر لائمها، ثم قفى من بعده على آثاره الحكماء، وحفظ تدبيره ونسيت القدماء.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال: «كان فاصداً بالبيهارستان ببغداد، ثم اشتغل بصناعة الطب حتى صار من أكابر أهلها، قال: وهو أول من فطن لنقل أكثر الأمراض التي كانت تداوى بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد كالفالج والاسترخاء واللقوة، وخالف مسطور القدماء أخذ المرضى بالفصد والتبريد، ومنع المرضى من الغذاء فأنجح تدبيره، وتقدم وانتهت الرئاسة إليه، وعوّل الملوك عليه، فرفع عن البيهارستان المعاجين الحارة والأدوية الحادة، ونقل تدبير المرضى إلى ماء الشعير ومياه البزور، فأظهر من المداواة عجائب، ومن ذلك ما حكاه لي «بميافارقين» الرئيس أبو يحيى ولد الوزير أبي القاسم المغربي قال: عرض للوزير بالأنبار قولنج صعب أقام لأجله في الحمام، واحتقن عدة حقن، وشرب عدة شربات فلم يرَ صلاحاً، فأنفذنا رسولاً إلى صاعد، فلما جاء ورآه على

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٢٢٦)، الوافي بالوفيات (١٦/ ١٣٧-١٣٩).

تلك الحال، ولسانه قد قصر من العطش وشرب الماء الحار والسكر، وجسمه يتوقد من ملازمة الحمام ومداومة المعاجين الحارة والحقن الحارة استدعى، كوز ماء مثلوج فأعطاه الوزير، فتوقف عن شربه ثم إنه جمع بين الشهوة وترك المخالفة وشربه فرويت في الحال نفسه، ثم استدعى [في الحال]^(١) فاصداً، ففصده وأخرج له دماً كثير المقدار، وسقاه ماء البزور ولعاباً وسكنجين، ونقله من حجرة الحمام إلى الخيش وقال له: إن الوزير -أدام الله عافيته- سينام بعد الفصد ويعرق وينتبه فيقوم عدة مجالس، وقد تفضل الله بعافيته، ثم تقدم بصرف الخدم لينام، فقام الوزير إلى مرقدته وقد وجد خفة بعد الفصد فنام مقدار خمس ساعات، وانتبه يصيح بالفراشين، فقال صاعد للفراش: إذا قام من الصبيحة فقل له يعاود النوم حتى لا ينقطع العرق، فلما خرج الفراش من عنده قال: وجدت ثيابه كأنها قد صبعت بياء الزعفران، وقد قام مجلساً ونام، ثم لا زال الوزير يتبرد دفعات إلى آخر النهار مجالس عدة، ومن بعد هذا غذاه بمزورة وسقاه ثلاثة أيام ماء الشعير فبرأ برءاً تاماً، فكان الوزير أبداً يقول: طوبى لمن سكن بغداد داراً شاطئه، وكان طبيبه أبو منصور، وكتابه أبو علي بن موصلايا، فبلغه الله أمانيه فيما طلب^(٢).

ونقلت^(٣) أيضًا من خط ابن بطلان: أن صاعد الطبيب عالج الأجل المرتضي رضي الله عنه من لسعة عقرب بأن [ضمد المكان]^(٤) بكافور فسكن عنه الألم في الحال.

ونقلت من خط أبي سعيد الحسن بن أحمد بن علي في كتاب «ورطة الأجلاء من هفوة الأطباء» قال: كان الوزير علي بن بلبل ببغداد [وكان له ابن أخت فلحقته سكتة دموية وخفي حاله على جميع الأطباء]^(٥) وكان بينهم صاعد بن بشر حاضرًا، فسكت

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٢٦-٢٢٩).

(٣) أي: ابن أبي أصيبعة (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

حتى أقر جميع الأطباء بموته، ووقع اليأس من حياته، وتقدم الوزير في تجهيزه، واجتمع الخلق في العزاء والناس في اللطم والنياح، ولم يبرح صاعد بن بشر من مجلس الوزير، فعند ذلك قال الوزير لصاعد بن بشر الطبيب: هل لك حاجة؟ فقال له: نعم يا مولانا! إن رسمت يا مولانا وأذنت لي ذكرت ذلك. قال: تقدم وقل ما يلج في صدرك، فقال صاعد: هذه سكتة دموية ولا مضرة في إرسال مبضع واحد وننظر فإن نجح كان المراد، وإن تكن الأخرى فلا مضر فيه.

ففرح الوزير وتقدم بإبعاد النساء، وأحضر ما وجب من التمرخ^(١) والنطول^(٢) والبخور والنشوق، واستعمل ما يجب من شد عضد المريض وأقعده في حضن بعض الحاضرين، وأرسل المبضع بعد التعليق على الواجب من حاله، فخرج الدم ووقعت البشائر في الدار، ولم يزل يخرج الدم حتى استتم ثلاث مائة درهم من الدم، فانفتحت العين ولم ينطق، فشد اليد الأخرى ونشقه ما وجب تنشيقه، ثم فصله ثانيًا وأخرج مثلها من الدم وأكثر، فتكلم ثم أسقي وأطعم ما وجب، فبرئ من ذلك وصح جسمه، وركب في الرابع إلى الجامع، ومنه إلى ديوان الخليفة، فدعا له ونثر عليه من الدراهم والدنانير الكثيرة، وحصل لصاعد بن بشر الطبيب مال عظيم، وحشّمه الخليفة والوزير، وقدمه وزكاه، وتقدم على جميع من كان في زمانه.

ووجدت صاعد بن بشر قد ذكر في مقالته في مرض المراقيا ما عاينه في ذلك الزمان من أهوال وجدها ومخاوف شاهدها، ما هذا نصه: «وإنه عرض لنا من تضايق الزمان علينا والتشاغل بالتماس الأمر الضروري، ولما قد شملنا من الخوف والحذر والفرع واختلاف السلاطين، وما قد بلينا به مع ذلك من التنقل في المواضع غريبها وشرقيها، ولما قد أظلنا من الأمور المذعرة المخوفة التي لا نرجو في كشفها إلا الله -تقدس اسمه-».

(١) التمرخ: لون من ألوان التدليك وهو المساج.

(٢) النطول: هو كل ماء غليت فيه الأدوية، أو كان ماء قراحًا صافيًا وصب على العضو فاترًا، أو غمس فيه شيء من صوف ونحوه، ووضع على العضو. [التنوير، للحسن بن نوح القمري ص ٤٧].

هذا ما ذكره في أيامه إلا اختلاف ملوك الإسلام بعضهم مع بعض، وكان الناس سالمين في أنفسهم آمنين من القتل والسبي، فكيف لو شاهدنا ونظر ما نظرنا في زماننا من التتر الذين أهلكوا العباد، وخرّبوا البلاد، وكوّنهم إذا أتوا إلى مدينة فما لهم إلا قتل جميع من فيها من الرجال وسبي الأولاد والنساء، ونهب الأموال وتخريب القلاع والمدن - لكان استصغر ما ذكره، واستقل ما عاينه وحقره، ولكن ما طامة إلا وفوقها طامة أعظم منها، ولا حادثة إلا وغيرها يكبر عنها، والله الحمد على الإسلام والعافية^(١).

ومنهم:

٨٩- ديلم^(٢)

وكان من الأطباء المهرة والألباء أهل الخبرة، تقدم في جيله، وقُدّم لتبجيله، وحبى بحب لم يمح من الضمائر، ولم يلح عليه أمر ليد لم يقصر به باعها، ولم تمدّ لجس نبض إلا وأيدى الأطباء أتباعها.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال: «كان من الأطباء المذكورين ببغداد المتقدمين في صناعة الطب، وكان يتردد إلى الحسن بن مخلد وزير المعتمد ويخدمه، ووجدت في بعض التواريخ أن المعتمد على الله وهو أحمد بن المتوكل أراد أن يفتصد فقال للحسن بن مخلد: اكتب لي جميع من في خدمتنا من الأطباء حتى نتقدم بأن تصل كل واحد منهم على قدره.

فكتب الأسماء وأدخل فيها اسم: ديلم المتطبب، وكان ديلم يخدم الحسن بن مخلد فوقّع تحت الأسماء بالصلات، فقال ديلم: إني جالس في منزلي وقد وافى رسول بيت

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) هو: داود بن ديلم، كان من الأطباء المتميزين ببغداد المجيدين في المعالجة، واختص بالمعتضد، وكانت وفاته سنة تسع وعشرين وثلاثمائة. انظر: الوافي بالوفيات (١٣/ ٢٩٤).

المال، ومعه كيس فيه ألف دينار، فسلمه إليّ وانصرف، فلم أدر ما السبب فيه، فبادرت بالركوب إلى الحسن بن مخلد وهو حينئذ الوزير فعرفته ذلك فقال: افتصد أمير المؤمنين وأمر أن أكتب أسماء الأطباء ليتقدم بصلاتهم، فأدخلت اسمك معهم فخرج لك ألف دينار^(١).

ومنهم:

٩٠- فنون المتطبيب^(٢)

طبيب بختيار، وليب عرف بحسن الاختيار، أتقن الحكمة علماً وعملاً وعزماً وأملاً، وحاز الفضائل معرفة ما ونت، ومعالجة ما دعت صحة إلا دنت.

قال ابن جبريل: «ومن أخباره مع بختيار: أنه رمدت عين بختيار في بعض الأوقات، فقال له: يا أبا نصر، ليس والله تبرح من عندي أو تبرأ عيني وأريدها تبرأ إلى يوم واحد وأبرمه، قال: فسمعت أبا نصر يتحدث أنه قال له: إن أنت أردت أن تبرأ فتقدم إلى الغلمان والفراشين أن يأتمروني دونك في هذا اليوم وما منهم من يخالفني في أمري إلا قتلته، ففعل بختيار ذلك، فأمر أبو نصر أن يحضر أجانة مملوءة عسل الطبرزد، فلما حضر غمس يدي بختيار فيه، ثم بدأ يداوي عينيه بالشياف^(٣) الأبيض، وما يصلح الرمد، وجعل بختيار يصيح بالغلمان فلا يجيبه أحد، ولم يزل كذلك يكحله إلى آخر النهار فبرئ، وكان هو السفير بين بختيار والخليفة، وإذا خرجت الخلع فعلى يديه تخرج، وله منها النصيب الأوفر^(٤)».

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٣٠).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٢٣٩).

(٣) الشياف: قطرة للعين، وشاف الشيء: أي جلاه، مختار الصحاح مادة (شَوَف).

(٤) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٣٩، ٢٤٠).

ومتهم:

٩١- نظيف «القس الرومي»^(١)

كان كريم العلاج إلا أنه يتلاءم، مبارك اليد إلا من رآه يتشائم، لو رأى إبليس طلعة وجهة قال: فديت من لا يفلح، أو أرسطوطاليس لأفسد كل ما كان يُصلح، طار عليه طائر هذه السمعة القبيحة، والشنعة التي ليس منها ثوب الفضيحة، وكان فاضلاً لا يعوز، ويتضاءل لديه البحر الذي يعجز.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان خبيراً باللغات والنقل، فاضلاً في الطب، وكان عضد الدولة يتطير منه، وكان الناس يولعون به إذا دخل إلى مريض، حتى حكى في بعض الأوقات أن عضد الدولة أنقذه إلى بعض القواد في مرض كان عرض له، فلما خرج من عند القائد استدعى ثقته وأنقذه إلى حاجب عضد الدولة، يستعلم منه نية الملك فيه؟ ويقول: إن كان ثم تغير نية فليأخذ له الإذن في الانصراف والبعد، فقد قلق لما جرى، فسأل الحاجب عن ذلك وسببه فقال الغلام: ما أعرف أكثر من أنه جاءه نظيف الطبيب وقال له: يا مولانا الملك! أنفذني لعيادتك. فمضى الحاجب وأعاد بحضرة الملك عضد الدولة هذا الحديث، فضحك وأمره أن يمضي إليه ويعلمه بحسن نيته فيه، وإن ذلك لشغل قلبه به أنفذه إليه ليعوده، وحملت إليه خلع سنيّة سكنت بها نفسه، وزال عنه ما كان أضمره من شغل القلب، وكان دائماً يولع به بسببها»^(٢).

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٢٤٠).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٤١).

ومنهم:

٩٢- ابن بطلان، أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون

ابن سعدون بن بطلان النصراني^(١)

طبيب مكمل، وأريب مؤمل، وأديب يدل عليه شعره من يتأمل، رشق الكلام، شرق الضياء في الظلام، شرق عدوه بوائه، وصفق وما أفاق إلا بأسائه، وكان على إصراره على نصرانيته التي انتصر لخذلانها، وهصر الإخاء لخلانها، معروفاً بمروءة طال به جلبابها، واتسع لكل طالب علم وندى بابها.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان قد اشتغل على ابن الطيب وقرأ عليه كثيراً من كتب الحكمة وغيرها، ولازم ابن زهرون واشتغل عليه، وكان معاصراً لابن رضوان الطيب المصري، وكانت بينهما مراسلات عجيبة وكتب غريبة، ولم يؤلف واحد منهما كتاباً ولا ابتدع رأياً إلا رد الآخر عليه وسفه رأيه فيه!

وسافر ابن بطلان يريد مصر ليرى ابن رضوان، فمر في طريقه بحلب فأكرمه صاحبها معز الدولة ثمال بن صالح، ثم أتى دولة مصر في دولة المستنصر وجرت بين ابن بطلان وابن رضوان وقائع كثيرة ونوادر ظريفة.

قال: وألف كل منهما كتاباً في الرد على الآخر، وكلام ابن بطلان أعذب ألفاظاً وأكثر ظرفاً وأميز بالأدب، ومما يدل على تسميته له بتمساح الجن، وكان ابن رضوان أسود قبيح الصورة، وفيه يقول: [الطويل]
ولما تبدى للقوابل وجهه
نكصن على أعقابهم من الندم

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/٢٤٧-٢٥٢).

وقلن وأخفين الكلام تسترا ألا ليتنا كنا تركناه في الرحم

ثم سافر ابن بطلان من مصر إلى القسطنطينية^(١) وعرضت في زمانه أبواب كثيرة، وله في هذا رسالة معروفة، وله أشعار كثيرة جدًا^(٢).

ومنهم:

٩٣ - أحمد بن أبي الأشعث^(٣)

طبيب يلثم الشعث ويضم السقام من تفريق الأعضاء إذا انبعث، لا يغالب طبه النافع، ولا يغالط دواؤه بمدافع، تحال هيئة اسقليبيوس صفته، وتخطى معالجة جالينوس ولا تخطى وصفته.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال: «كان وافر العقل، كثير السكينة والوقار، متفقهًا في الدين، وعمرًا طويلاً، وكان لا يفعل إلا جميلاً، وكان فاضلاً في العلوم الحكيمة، وله تصانيف كثيرة مفضلة تدل على العلم وعلو المنزلة، ومصنفاً في الطب لا نظير له في الجودة.

وكان أصله من فارس، وكان متصرفاً ثم صودر، فخرج من بلده هارباً ودخل الموصل بحال سيئة، ووافق أن كان لصاحبها ناصر الدولة ولد عليل بقيام الدم، لا يزداد بمعالجة الأطباء إلا مرضاً، فقال لأمه: أنا عاجله، وأراها غلط الأطباء في التدبير، فسكنت

(١) القسطنطينية: ويقال لها: قسطنطينية بإسقاط ياء النسبة، وكانت دار ملك الروم، عمرها ملك من

ملوك الروم يقال له: قسطنطين فسميت باسمه. انظر: معجم البلدان (٤/٣٤٧، ٣٤٨).

(٢) انظر: عيون الأنباء (١/٢٤٨، ٢٤٩).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/٢٥٩).

إليه فعالحه، فبرأ، فأجزل عطاؤه وأحسن إليه، وأقام بالموصل إلى آخر عمره»^(٢١).

ومنهم:

٩٤- أبو سهيل النيلي وهو: سعيد بن عبد العزيز^(٢٢)

طبيب خاذق في العلاج، صادق الحدس في معرفة المزاج، لم يزر مريضاً إلا أخذ بيده من الفراش، واستوقف السقم وقد جرى في المشاش، وطرد عنه وسواس حمى تنهافت به في النار تنهافت الفراش.

قال ابن أبي أصيبعة فيه: «مشهور بالفضل، عالم بالطب، جيد التصنيف، متفنن في الأدب، بارع في الشعر، ومن قوله: [الخفيف]

استقني الراح تشفٍ لوعة قلب بات مذ يتّ للهموم سميرا
هي في الكأس خمرة فإذا ما أفرغت في الحشا استحالت سرورا^(٢٣)

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٥٩).

(٢) له كتاب في العلم الإلهي في نهاية الجودة، كتاب الأدوية المفردة ثلاث مقالات، كتاب الحيوان، كتاب في العلم الإلهي مقالتان، كتاب في الجدري والحصبة مقالتان، كتاب في السراسم والبرسام ومداواتها، كتاب في البرص والبهق ومداواتها مقالتان، كتاب في الصرع، وكتاب آخر في الصرع، كتاب في الاستسقاء، كتاب في ظهور الدم، كتاب الماخوليا، كتاب تركيب الأدوية، مقالة في النوم واليقظة، كتاب الغازي والمغتذي مقالتان، كتاب أمراض المعدة ومداواتها، شرح كتاب الفرق جالينوس مقالتان. انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٦٠-٢٦٢).

(٣) هو: سعيد بن عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد المؤمن بن طيفور بن أبي سهل النيلي النيسابوري، كان أديباً نحويّاً فقيهاً، توفي سنة عشرين وأربعمائة، وله من الكتب: اختصار المسائل لحنين، وتلخيص شرح جالينوس لكتاب الفصول مع نكت من شرح الرازي. انظر: الوافي بالوفيات (١٥٠/ ١٥)، عيون الأنباء (٢/ ٢٧٢)، معجم الأدباء (٣/ ٣٧٨، ٣٧٩).

(٤) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٧٢، ٢٧٣).

ومنهـم:

٩٥- ابن الواسطي «طبيب المستظهر»^(١)

كان مقبول الكلمة، مأمول الشفاعة عند الظلمة، مع نفس متسعة، وفضل ينفق منه سعة، وكرم يكر على أمواله ليشتها، وعلى آماله ليثبتها، وكانت له من المستظهر كرامة لا يهان قدرها، ولا يهاب إلا إذا ضاق في مرماها الفسيخ فقرها.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان رفيع المنزلة، وكان ابن المعوج صاحب الديوان قد استقرت عليه قرية بثلاثة آلاف دينار، قام منها بألفين وسأل إنظاره بالألف المتأخرة إلى أوان الغلة، فلم يتحصل، فأشار عليه حاجبه ابن الداوي أن يأتي ابن الواسطي ليستعمل له المستظهر، فأتاه فأكبر مجيئه، وأخلى له المجلس، فعرفه الصورة، وأنه قد رهن كتب داره على خمسمائة دينار، فلما كان من الغد بعث حاجبه يتقاضاه، فأعطاه خط الخليفة بالخمسمائة دينار، وكتب ملكه واستقبل له من ماله، وألبس الحاجب خلعة، وبعث معه إلى ابن المعوج دسب ثياب فاخر [وخمسمائة]^(٢) دينار للنفقة فقبل ذلك منه وشكره»^(٣).

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٢٧٧).

(٢) في الأصل، «ف»: خمسين، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٧٧، ٢٧٨).

ومنهم:

٩٦- أبو طاهر البرخشي: أحمد بن محمد بن العباس^(١)

من أهل واسط، وطبيب فيما أهل له من العلم قاسط، قاس على ما صح من قديم
التجريب وعميم النظر الذي يحقق رأي الأريب بملاطفة كأنها يعاني بها مقبولة ما
برحت، أو يعاين مقبولة بين المحاسن سنحت.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال: «فاضل في الطب، كامل في الأدب، كان في أيام
المسترشد بالله، قال: وكان يعالج بواسط مريضاً به أحد أنواع الاستسقاء ولم ينجع فيه
علاج، وتجاوز حد الحمية فسهل له في أكل ما أراد، فاجتاز به رجل يبيع الجراد مسلوفاً،
فاشترى منه وأكل فعرض له منه إسهال مفرط، ثم انقطع الإسهال وأخذ مزاجه في
الصلاح إلى أن عوفي، فلما علم أبو طاهر بعافيته وكان قد يش منه أتاه وسأله: بم وجد
الراحة؟ فقص عليه خبر الجراد فأفكر وقال: ليس هذا من فعل الجراد ولا خاصيته،
فتقضى عن بائعه حتى عرفه فقال له: أتعرف الموضع الذي صدت منه الجراد الذي أكله
هذا؟ قال: نعم. قال: فامض بنا إليه. فلما أتاه رأى حشيشة هناك يرعاها الجراد فكان
يداوي بها من الاستسقاء، وأبرأ بها جماعة من هذا المرض»^(٢).

قال ابن أبي أصيبعة: «وهذه حكاية قديمة قد جرى ذكرها، وأن تلك الحشيشة هي
المازريون»^(٣)، وقد ذكرها التنوخي في كتاب: «الفرج بعد الشدة»، وأنشد له قوله في غلام

(١) هو: أحمد بن محمد بن العباس، موفق الدين أبو طاهر، ويعرف بالبرخش، طبيب من أهل واسط.
انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٢٧٨-٢٨٠).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٣) المازريون: نبات من نبات الزينة، شجرة كالزيتون، وهو من النباتات الطبية المفيدة في علاج
الاستسقاء كما يسهل ورقه البلغم.

غلام ناوله خلالاً: [الطويل].

وناولني من كفه مثل خصره ومثل محب ذاب من طول هجره
وقال: خلالي قلت: كل حميدة سوى قتل صاب حار فيك بأسره^(١)

ومنهم:

٩٧- أبو غالب ابن صفية^(٢) النصراني

أسقطته ديانتته، وأرهقته خيانتته، وأترع بيده كأس الموت لنفسه، وهياً لمصرعه
حفرة رمسه، وأتى عليه من حيث ظن أنه ينتفع، وسقط من يديه من حيث توهم أنه
يرتفع، ومن حاول قتل الأسد الضرغامه، وختل الصل الهامة، ودرأ بكفه متن
الهنداواني^(٣)، وقل بإصبعه باب اليماني، لا يعجب له من إسراع التلف، ولا من إسراف ما
ينفق من عمره الذاهب بلا خلف.

حكى أنه كان يشي بأسرار المستنجد^(٤) إلى قايباز^(٥) مقدم الأمراء اذ ذاك، وكان

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٢٢٤).

(٣) الهنداواني: السيف المصنوع في الهند، ويسمى المهند.

(٤) هو: المستنجد بالله بن يوسف أحد بن عبد الله بن محمد، بويج بالخلافة بعد وفاة أبيه في صبيحة يوم
الأحد ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسة، وعمره يومئذ خمس وأربعون سنة، وتوفي في
ثامن ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسة. انظر: الكامل (٩/ ٤٣٨-٤٤٠)، البداية والنهاية
(١٢/ ٢٤١)، سمط النجوم العوالي (٣/ ٥٠٧-٥٠٩)، شذرات الذهب (٤/ ٢١٨، ٢١٩)، تاريخ
الخلفاء ص ٤٤٢-٤٤٤، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١٢-٤١٨)، فوات الوفيات (٢/ ٦٦٥، ٦٦٦).

(٥) هو: قايباز بن عبد الله الزيني، أبو منصور مجاهد الدين الخادم، عتيق زين الدين أبي سعيد علي بن

المستنجد يريد قبض قايماز، فاعتل المستنجد فدسوه عليه حتى وصف له الحمام، وكان لا يصلح له، وعرف المستنجد أن قوته لا تقوى على الحمام، فدخل عليه قايماز والأمرأ حوله وألزموه بدخوله، وكانوا قد سجّروه ثلاثة أيام بلياليهن، فلما دخلوا إليه ردوا عليه بابه فمات، وباعوا ابنه المستضيء^(١) بعد أيان حلفوه عليها، فأقام مدة وفي نفسه من فعلتهم بأبيه، فشرع في العمل عليهم، وابن صفية على ما هو عليه من نقل خبره، فطلبه المستضيء ليلاً وطلب منه ترتيب دواء قتال ليقتل به عدوًّا له، فعمله واجتهد فيه، فلما أحضره قال له: استف منه حتى نجرب فعله! فتلوى من ذلك وقال: الله الله فيّ، فقال له: الطبيب من تجاوز حده فليس له إلا هذا أو السيف. فاستف ذلك الدواء ففر من الهلاك إلى الهلاك، ثم خرج من الدار وكتب إلى قايماز بما كان، وقال له: «والانتقال من أمري إلى أمركم» ثم هلك، وعزم قايماز على الإيقاع بالخليفة، فردّه الله وهرب إلى الموصل، فمرض في الطريق، ثم دخل الموصل فمات بها.

بكتكين والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل، توفي في منتصف شهر ربيع الأول، وقيل: في سادسه في تاريخ إربل في صفر سنة خمس وأربعين وخمسة بقلعة الموصل. انظر: وفيات الأعيان (٨٢/٤-٨٤).

(١) هو: المستضيء بأمر الله، أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتني محمد بن المستظهر أحمد، بويع بالخلافة بعد أبيه في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسة بعد وفاة أبيه، توفي في ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسة. انظر: شذرات الذهب (٢٥٠/٤، ٢٥١).

ومتهم:

٩٨- أمين الدولة ابن التلميذ^(١)

كان فرد قرانه، وند أقرانه، وبلغ بعلمه مبالغ الأشراف، ووصل في فهمه إلى حد الإشراف، وكان يتكلم في مجالس الخلفاء متبسطاً، ويتقدم في مجال السؤال للضعفاء متوسطاً، لسابقة خدمه وباسقة صنعه في بيت الإمامة دون باقي خدمه، ولما تحلت به شيمه من مآثر، وحلت باديه مما لا يقدر عليه مكائثر، حتى كان يناظر جلة الفقهاء، وجلة أهل العلم سوى السفهاء، ويفترس الأدباء، ويفترش لمواطيه الأطباء، ويضرب بقلمه عصا ابن البواب^(٢) ويطرف طرف طرسه مقلة ابن مقلة^(٣)، وهو على دينه المخالف، وتعود ملته في الخوالب، يكره الصدور وتخبر خبره البدور.

قال ابن أبي أصيبعة: «هو الأجل موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن أبي

(١) هو: هبة الله بن صاعد بن هبة الله بن إبراهيم، أمين الدولة أبو الحسن بن التلميذ النصرائي البغدادي؛ شيخ الطب ببغداد، مات في ربيع الأول سنة ستين وخمسمائة. انظر: العبر (١٧٢/٤)، سير أعلام النبلاء (٣٥٤/٢٠)، وفيات الأعيان (٩٦/٦)، الوافي بالوفيات (١٦٥-١٦٨/٢٧)، شذرات الذهب (١٩٠/٤)، وانظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢٨٤-٢٩٠/٢).

(٢) هو: علي بن هلال، أبو الحسن بن البواب، صاحب الخط المنسوب، توفي في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة. انظر: وفيات الأعيان (٣٤٢-٣٤٤/٣)، العبر (١١٥/٣)، سير أعلام النبلاء (٣٢٠-٣١٥/١٧)، البداية والنهاية (١٤/١٢)، الوافي بالوفيات (١٧٩-١٨٣/٢٢)، شذرات الذهب (١٩٩/٣).

(٣) هو: محمد بن علي بن الحسن بن عبد الله، أبو علي المعروف بابن مقلة الوزير، وكان في أول عمره ضعيف الحال، قليل المال، ثم آل به الحال إلى أن ولي الوزارة لثلاثة من الخلفاء؛ المقتدر والقاهر، والراضي، وعزل ثلاث مرات، وقُطعت يده ولسانه في آخر عمره، وحبس إلى أن توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة. انظر: البداية والنهاية (١١/١٩٥)، مرآة الجنان (١٢/٢٩١-٢٩٤)، الوافي بالوفيات (٨٣، ٨٢/٤)، سير أعلام النبلاء (٢٢٤-٢٢٩/١٥)، وفيات الأعيان (١١٣-١١٧/٥).

العلاء صاعد بن إبراهيم بن التلميذ، أوجد زمانه في صناعة الطب ومباشرة أعمالها، وكان في أول أمره قد سافر إلى بلاد العجم وبقي بها سنين كثيرة في الخدمة، وكان جيد الخط يكتب المنسوب في نهاية الحسن والصحة، وكان عارفاً بالسرياني والفارسي، متبحراً في العربية، وله شعر مستظرف وهو من بيت كتابة، وكان هو وأوحد الزمان [أبو البركات] ^(١) يخدمان المستضيء، وكان أوحد الزمان أبصر بالحكمة، وابن التلميذ أبصر بالطب، وكان بينهما شنان ^(٢) إلا أن ابن التلميذ كان أعقلهما وخيرهما فعلاً، وسعى أوحد الزمان عليه حتى كاد يرديه، ثم رد عليه كيده فوهب ماله ودمه لابن التلميذ فعفا عنه، وإن قال فيه: [البسيط]

لنسا صديق يهودي حماقته إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه

وقد قيل فيهما:

أبو الحسن الطيب ومقتفيه أبو البركات في طرفي نقيض
فهذا بالتواضع في الثريا وهذا بالتكبر في الخضيض

قال عبد اللطيف البغدادي: كان أمين الدولة حسن العشرة، كريم الأخلاق، وعنده سخاء ومروءة وأعمال في الطب مشهورة، وحدوس ^(٣) صائبة منها: أنه أحضرت إليه امرأة محمولة لا يعرف أهلها في الحياة هي أم في الممات؟ وكان الزمان شتاء، فأمر

(١) هو: هبة الله بن علي بن ملكا، أبو البركات الطيب الفاضل، كان يهودياً، وسكن بغداد وأسلم في آخر عمره وخدم المستنجد، قال عنه البيهقي: إنه فيلسوف العراقيين، توفي سنة (٥٤٧هـ)، انظر: تاريخ حكماء الإسلام ص ١٥٢، الوافي بالوفيات (٢٧/١٧٨)، سير أعلام النبلاء (٢٠/٤١٩)، وفيات الأعيان (٢/١٥٨)، (٦/٧٤، ٧٥)، (٧/٣٤٢)، عيون الأنباء (٢/٣١٣-٣١٦).

(٢) شنان: كراهية وعداوة.

(٣) الحدوس: جمع حدس، والحدس هو الظن والتخمين. انظر: تاج العروس، مادة (حَدَسَ).

بتجريدتها وصب الماء المبرد عليها صبًّا متتابعًا كثيرًا، ثم بنقلها إلى مجلس دافئ قد بخر بالعود والند ودرت بأصناف الفراء ساعة، فعطست وقعدت وخرجت ماشية مع أهلها إلى منزلها.

قال: ودخل إليه رجل مترف يعرق دمًا في زمن الصيف، فسأل تلاميذه وكانوا خمسين نفسًا، فلم يعرفوا المرض، فأمره أن يأكل خبز شعير مع باذنجان مشوى، ففعل ذلك ثلاثة أيام؛ فبرأ، فسأله أصحابه عن العلة؟ فقال: إن دمه قد رقَّ، ومسامه قد تفتحت، وهذا الدواء من شأنه تغليظ وتكثيف المسام.

قال: ومن مروءته أن ظهر داره كان يلي النظامية^(١)، فإذا مرض فقيه نقله إليه وقام في مرضه عليه، فإذا برأ وهب له دينارين وصرفه.

مما حكاها أيضًا عن أمين عن أمين الدولة وكان قد تجاوز في هذه الحكاية قال: وكان أمين الدولة لا يقبل عطية إلا من خليفة أو سلطان، فعرض لبعض الملوك النائية داره مرض مزمن، ف قيل له: ليس لك إلا ابن التلميذ وهو لا يقصد أحدًا، فقال: أنا أتوجه إليه، فلما وصل أفرد له ولغلمانه دورًا أفاض عليه من الجرايات قدر الكفاية، ولبث مدة فبرئ الملك وتوجه إلى بلاده وأرسل إليه مع بعض التجار أربعة آلاف دينار وأربعة نخوت عتابي وأربعة ممالك وأربعة أفراس فامتنع من قبولها وقال: لما حلفت ما استثنيت، وأقام شهرًا يراوده ولا يزيد إلا إباء.

فقال له عند الوداع: ها أنا أسافر ولا أرجع إلى صاحبي، وأتمتع بالمال، فتتقلد منه وتفوتك منفعته، ولا يعلم أحد بأنك رددته! فقال: ألسنت أعلم في نفسي أنني لم أقبله؟ فنفسى تشرف بذلك، علم الناس أو جهلوا.

(١) المدرسة النظامية: أمر ببنائها الوزير نظام الملك سنة سبع وخمسين وأربعمائة ببغداد، وفرغ من عمارتها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة. انظر: ابن خلدون (٣/ ٥٨٠).

وحدثنا الحكيم مذهب الدين عبد الرحيم^(١) بن علي قال: حدثني الشيخ موفق الدين أسعد بن إلياس بن المطران، قال: حدثني أبي قال: حدثني أبو الفرج بن توما، وأبو الفرج المسيحي قالا: كان الأجل أمين الدولة ابن التلميذ جالساً ونحن بين يديه: استأذنت عليه امرأة ومعهما صبي صغير، فأدخلت عليه فحين رآها بدرها فقال: إن صبيك هذا به حرقة البول، وهو يبول الرمل. فقالت: نعم، فقال: فيستعمل كذا وكذا، وانصرفت. قالا: فسألناه عن العلامة الدالة على أن به ذلك، وأنه لو أن الآفة في الكبد أو الطحال لكان اللون من الاستدلال مطابقاً. فقال: حين دخل رأيت يولع بإحليله ويحكه، ووجدت أنامل يديه مشققة قاحلة، فعلمت أن الحكمة من الرمل، وأن تلك المادة الحادة الموجبة للحكة والحرقة ربما لامست أنامله عند ولوعه بالقضيب فتقحل وتشقق، فحكمت بذلك، وكان موافقاً.

ومن نوادر أمين الدولة وحسن إشارته، أنه كان يوماً عند المستضيء بالله وقد أسنَّ أمين الدولة، فلما نهض للقيام توكأ على ركبتيه، فقال له الخليفة: كبرت يا أمين الدولة؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وتكسرت قواريري. ففكر الخليفة في قول أمين الدولة، وعلم أنه لم يقله إلا لمعنى قد قصده، وسأل عن ذلك، فقليل له: إن الإمام المستنجد بالله كان قد وهبه ضيعة تسمى قوارير وبقيت في يده زماناً، ثم من مدة ثلاث سنين حط الوزير يده عليها، فتعجب الخليفة من حسن أدب أمين الدولة، وأنه لم ينه أمرها إليه ولا عرض

(١) هو: مذهب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد الدخوار، طبيب كحال، تعلم على كبار العلماء في عصره، منهم: والده علي بن حامد، ورضي الدين الرحبي، وعبد اللطيف البغدادي، وابن المطران، وفخر الدين المارديني، وغيرهم، ودرس في البيمارستان النوري في دمشق، وعمل في خدمة العادل أبي بكر الأيوبي الذي جعله رئيس الأطباء في مصر، ودرس عليه من كبار الأطباء كل من: ابن أبي أصيبعة وابن النفيس، وموفق الدين عبد السلام وغيرهم، وله كثير من الكتب؛ منها: اختصار كتاب الحاوي في الطب للرازي، ومقالة في الاستفراغ، وكتاب الرد على شرح ابن أبي صادق لمسائل حنين وغيرها، وكانت وفاته بدمشق سنة (٦٢٨هـ). انظر: ترجمته في النجوم الزاهرة (٦/٢٧٧)، فوات الوفيات (١/٥٦٣)، سير أعلام النبلاء (٢٢/٣١٦)، عيون الأنباء (٢/٢٨٦).

بطلبها، ثم أمر الخليفة بإعادة الضيعة إلى أمين الدولة، وأن لا يعارض في شيء من ملكه^(١).

ومن شعره قوله في ولده وكان غابة في الدين: [المنسرح]

أشكو إلى الله صاحباً شكساً تسعفه النفس وهو يسعفها
فنحن كالشمس والهلال معاً تكسبه النور وهو يكسفها

وقوله: [المتقارب]

إذا وجد الشيخ في نفسه نشاطاً فذلك موت خفي
ألست ترى أن ضوء السراج له لهب قبل أن ينطفئ

وقوله: [مجزوء الكامل]

قال الأنعام وقد رأوه مع الحداثة قد تصدر
من ذا المجاوز قد دره؟ قلت المقدم بالمؤخر

وقوله: [مجزوء الكامل]

قد قلت للشيخ الجليل الأريحي أبي المظفر
ذكر فلان الدين بي قال لا يُذكر

وقوله: [الكامل]

العلم للرجل اللبيب زيادة ونقيصه للأحمق الطيش
مثل النهار يزيد أبصار الوري نوراً ويغشى أعين الخفاش

وقوله: [الوافر]

أجذك إن من شيم الليالي العنيفة أن تجوز على اللهيف
كمثل اللحظ أغلب ما تراه يصب أذاه في العضو الضعيف

وقوله: [البسيط]

لا تحسن سواد الخال عن خلل من الطبيعة أو إحداثه غلطا
وإنما قلم التصوير حين جرى بنون حاجبه في خده نقطاً

وقوله: [الطويل]

براني الهوى بري المدى فأذابني صدودك حتى صرت أنحل من أمس
ولست أرى حتى أراك وإنما يبين هباء الذرف في أفق الشمس

وقوله مما يكتب على حصير: [الكامل]

أفرشت خدي للضيوف ولم يزل خلفي التواضع لليب الأكيس
فتواضعي أعلى مكانسي بينهم طوراً فصرت أجل صدر المجلس

وقوله: [المتقارب]

وحقك إنني مذ بنت عنك قلبي حزين ودمعي هتون
فلله أيامنا الخاليات لورد سالف الدهر حنين
وإني لأرعى عهد الصفا ويكلؤها لك ود دفين
ولم لا يكسون ونحن اليدا ن أنت بفضلك منها اليمين^(١)

ومنهم:

٩٩- معتمد الملك^(١) وهو:

أبو الفرج يحيى بن صاعد بن يحيى بن التلميذ

بحر حكمة تطفو لآليه^(٢)، وتغفو مقل النجوم في كرى لياليه، مع ملاطفة في العلاج ملأ طيفها الجفون، ثنائي وفي المزاج ما عدا الجفون إلى دأب بلل الطفل طررها، وأثل الفضل سررها.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): كان متعياً في العلوم الحكمية، متفتناً في صناعة الطب، متحلياً بالأدب، بالغاً فيه أعلى الرتب.

وله شعر منه -ملغزا في الإبرة- قوله^(٤): [الوافر]

وفاغرة فمًا في الرجل منها	لكن لا تسيع به طعاما
ومخطفة الحشا في الرأس منها	لسان لا تطيق به كلاما
تصنول بشوكة تبدو وسم	وما من ذاقه يرد الحماما
تجر وراءها رسنًا طويلاً	كما قادت يد الحادي الزماما

(١) هو: يحيى بن صاعد بن يحيى، معتمد الدولة أبو الفرج بن التلميذ، كان حكيماً عالماً فاضلاً حاذقاً في صناعة الطب، أديباً شاعراً، وكان مقبياً بأصبهان مقرّباً عند الأمراء والأعيان، توفي سنة تسع وخسين وخمسة. انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٣١١-٣١٣)، معجم الأدباء (٥/ ٦٢٥).

(٢) يقصد: تطفو لآلته.

(٣) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٣١١، ٣١٢).

(٤) قال ابن أبي أصيبعة: «نقلت من كتاب زينة الدهر لعلي بن يوسف بن أبي المعالي سعيد بن علي الخطيري، قال: وجدت بخط الأجل الحكيم، معتمد الملك (يحيى بن التلميذ) لنفسه لغزاً في الإبرة» عيون الأنباء (٢/ ٣١٢).

منيعاً ذا قوى لكن تراه بقبضتها ذليلاً مستضاماً
فتلقيه بمحبسها مقيماً طوال الدهر لا يأبى المقاماً
أيا عجباً لها سوداء خلقاً تريك خلثاً ييضاً كراماً
غدت عريانة من كل لبس وفاضل ذيلها يكسو الأناماً

وقوله - في دار جديدة وقعت فيها نار يوم فراغها^(١) -: [الكامل]

يا بانيّاً دار العلاء متهنيّاً لتزيدها شرفاً على كيوان
علمت بأنك إنما شيدتها للمجد والإفضاء والإحسان
فقفت عوائدك الكرام وسابقت تستقبل الأضياف بالنيران

وقال أيضاً: [الكامل]

علق الفؤاد على خلوجيها علق الذبالة في الحشا المصباح
لا يستطاع الدهر فرقة بينهم إلا حين تفرق الشباح

وقوله: [المتقارب]

فراقك عندي فراق الحياة فلا تجهزن على مدنف
علقتك كالنار في شمعهما فما أن تفارق أو تنطفئ

وقوله: [السريع]

بدا إلينا أرج القمام فبرد الغلة حللائم
روح عن قلبي على نأيه وقد يلذ الطيف للحالم

ومنهم:

١٠٠- أوحده الزمان وهو: أبو البركات هبة الله بن علي

ابن ملكا البلدي ثم البغدادي

طبيب لو رام الصخر الجلمد لتفجّر، أو إمساك الماء السائل لتحجر، بمداومة نظر
لو صابرت الزمان لتضجر، أو فرعت حصا الدهناء لتشجر، بعلم أوسع امتداداً من
المشرقين، وأجمع مدى مما بين الخافقين، كان يصون وديعة العلم ويحفظها ويغيظ بكتماها
صدور الرجال ويخفضها، ونسيمه تهب خافقته وشميمه تفتت عنبر الغمام بارقته.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان يهودياً وأسلم وخدم المستنجد، وتصانيفه في النهاية^(٢)،
وكان له اهتمام بالغ في العلوم ونظره فائق فيها.

بدأ بالطب على أبي الحسن سعيد بن هبة الله وكان لا يقرئ يهودياً ولا نصرانياً،
فثقل عليه أبو البركات بالناس ليقرئه، فلم يفعل، فصحب بواب دراه ليتوصل به إلى
غرضه، وكان يقعد في الدهليز فيسمع جميع ما يُقرأ عليه، وما يجري معه من البحث، وهو
كلما فهم شيئاً وتعقله علقه عنده.

فلما مضت سنة أو نحوها جرت مسألة عند الشيخ ويحثوا فيها فلم يتجه لهم عنها
جواب، فدخل أبو البركات وخدم وقال للشيخ: عن أمر مولانا أتكلم في هذه المسألة؟

فقال: قل، فأجاب عنها بشيء من كلام جالينوس ثم قال: وهذا كان بحثكم في
اليوم الفلاني في ميعاد فلان!!

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٣١٤-٣١٦).

(٢) ذكر ابن أبي أصيبعة أن من مؤلفات أبي البركات البغدادي: كتاب المعبر وهو من أجل كتبه وأشهرها
في الحكمة، مقالة في سبب ظهور الكواكب ليلاً واختفائها نهاراً، اختصار الشريح، كتاب
الأقرباذين، مقالة في الدواء الذي ألفه المسمى برشعت استقصى فيه صفته وشرح أدويته، مقالة في
معجون آخر ألفه وسماه أمين الأرواح، رسالة في العقل وماهيته. انظر: عيون الأنباء (٢/ ٣١٦).

فعجب الشيخ منه ومن حرصه فقال: من يكون هكذا ما يستحل أن نمنعه، فصار من أجل تلامذته.

ومن نوادره أن مريضاً عرض له الماليخوليا، وكان يعتقد أن على رأسه دُناً وأنه لا يفارقه أبداً، وكان كلما مشى يتحايد المواضع التي سقوفها قصيرة، ويمشى برفق، ولا يترك أحداً يدنو منه حتى لا يميل الدُّن^(١) أو يقع على رأسه، وبقي هذا المرض مدة طويلة وهو في شدة منه، وعالجته جماعة من الأطباء ولم يحصل بمعالجتهم تأثير ينتفع به، وأنهى أمره إلى أوحـد الزمان ففكر أنه ما بقي شيء يمكنه أن يبرأ به إلا بالأمر الوهمية.

فقال لأهله: إذا كنتُ في الدار فأتوني به.

ثم إن أوحـد الزمان أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض إذا دخل عليهم وشرع في الكلام وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما أنه يسارع بخشبة كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه، كأنه يريد كسر الدن الذي يزعم أنه على رأسه، وأوصى غلاماً آخر وكان قد أعدَّ معه دُناً في أعلى السطح، أنه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس صاحب الماليخوليا أن يرمي الدن الذي معه بسرعة إلى الأرض.

ولما كان أوحـد الزمان في داره، وأتاه من غير علم المريض، فأقبل عليه وقال: لا بد أن أكسر هذا الدن وأريحك منه.

ثم أدار تلك الخشبة التي معه وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع، وعند ذلك رمى الغلام الدن من أعلى السطح فكانت له وجبة^(٢) عظيمة، وكسر قطعاً كبيراً، فلما عاين المريض ما فعل به ورأى الدن المتكسر تأوه لكسرهم إياه، ولم يشك أنه هو الذي كان على

(١) الدن: واحد، والجمع دنان وهي الحباب، والحباب هي الحيات. انظر: مختار الصحاح مادة (دَنَنَ)، ومادة (حَبَبَ).

(٢) الوجبة: من وَجَبَ، والمقصود بالوجبة الصوت القوي الذي أحدثه سقوط الدن من أعلى.

رأسه بزعمه، وأثر فيه الوهم أثراً بريئ به من علته تلك.

وهذا باب عظيم في المداواة، وقد جرى أمثال ذلك من المتقدمين مثل جالينوس وغيره في مداواتهم بالأمور الوهمية.

وحكى أبو الفضل تلميذ أبي البركات المعروف بأوحد الزمان قال: كنا في خدمة أبي الزمان في عسكر السلطان، ففي بعض الأيام جاءه رجل به داحس^(١) إلا أن الورم كان ناقصاً وكان يسيل منه صديد، قال: فحين رأى ذلك أوحد الزمان بادر إلى سلامة إصبعه فقطعها.

قال: فقلنا له: يا سيدي لقد أجحفت في المداواة، وكان يغنيك أن تدأويه بما يدأوى به غيرك، وتبقى إصبعه، ولمناه وهو لا ينطق بحرف.

قال: ومضى ذلك اليوم وجاءه اليوم الثاني رجل آخر مثل ذلك سواء، فأوماً إلينا بمداواته وقال: افعلوا في هذا ما ترونه صواباً.

قال: فدأويناه بما يدأوى به الداحس، فأتسع المكان وذهب الظفر وتعدى الأمر إلى ذهاب السلامة الأولى من سلاميات الأصابع، وما تركنا دواء إلا دأويناه به، ولا علاجاً إلا عاجلناه، ولا لطوخاً^(٢) إلا لطحناه به، ولا مسهلاً إلا وسقيناه، وهو مع ذلك يزيد ويأكل الإصبع أسرع أكل، وآل أمره إلى القطع، فعلمنا أن {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف: ٧٦].

(١) الداحس: وهو التهاب حاد في النسيج الخلوي المحيط بالأظفار، وينشأ عن دخول مواد عفنة إلى النسيج من وخز أو جرح أو سحجة، فترتفع بشرة الجلد وترق، وتأخذ لوناً أبيض ويخرج منه سائل، هذا إذا كان الداحس سطحيًا، أما إن كان عميقاً فإنه يتصف بألم بالغ الشدة يزداد عند أقل ضغط ويحصل انتفاخ في اليد وتقيح وورم. انظر: المنصوري في الطب (الملحق) ص ٦٥٥.

(٢) اللطوخ: اللطخ: كل شيء تُسطَّح بغير لونه. [لسان العرب: مادة لطخ].

قال: فشاع هذه المرض في تلك السنة وغفل جماعة منهم عن القطع، فتأدى أمر بعضهم إلى هلاك اليد، وبعضهم هلاك أنفسهم.

ونقلت من خط الشيخ موفق الدين عبد اللطيف البغدادي فيما ذكره عن ابن الدهان المنجم، قال: كان الشيخ أبو البركات قد عمي في آخر عمره، وكان يملي على جمال الدين بن فضلان، وعلى ابن الدهان المنجم، وعلى يوسف والد الشيخ موفق الدين عبد اللطيف، وعلى المهذب ابن النقاش كتاب المعبر.

وقيل: إن أوحد الزمان كان سبب إسلامه أنه دخل يوماً إلى الخليفة فقام جميع من حضر إلا القاضي، فإنه كان حاضراً ولم ير أنه يقوم مع الجماعة لذمي، فقال أوحد الزمان: يا أمير المؤمنين، كأن القاضي لم يقم مع الجماعة لكونه يرى أني على غير ملته، فأنا أسلم بين يدي مولانا، ولا أتركه ينتقصني بهذا! وأسلم.

قال: وكان لأوحد الزمان ثلاث بنات، ولم يخلف ولداً ذكراً وعاش نحو ثمانين سنة.

قال: وكان بين أوحد الزمان وأمين الدولة ابن التلميذ معاداة، وكان أوحد الزمان لما أسلم يتنصل من اليهود ويلعنهم ويسبهم، فلما كان في بعض الأيام في مجلس بعض الأعيان الأكابر وعنده جماعة وفيهم أمين الدولة ابن التلميذ، وجرى ذكر اليهود فقال أوحد الزمان: لعن الله اليهود.

فقال أمين الدولة: نعم! وأبناء اليهود.

فوجم لها أوحد الزمان وعرف أنه أشار إليه وعناه ولم يتكلم.

ومنهم:

١٠١- أبو القاسم هبة الله بن الفضل البغدادي^(١)

علم طب وبيان، وإمام فضل ملء سماع وعيان، فأتى بها غلا، ومات مديحًا وغزلًا، وجاء بضرب الضرب، وغريب الحكمة التي لا ألسنة اليونان وألسنة العرب، وكان الطب عليه أغلب، والسبب إليه أجلب، فكان به ارتفاقه، ومنه إنفاقه، وكان له هجو يجرع المهجو سم الأسود^(٢)، وسقمًا كلما قيل برأ منه يعاود.

هذا إلى ملح أظرف من غرائب البحار، وألطف من النسيم إذا عبث بأعطاف الأشجار.

قال ابن أبي أصيبعة: كان يعاني صناعة الطب، ويأشر أعمالها، ويعد من الموصوفين فيها، إلا أن الشعر غلب عليه، وكان كثير النوادر، وبينه وبين الحيص بيص^(٣) شأن وتهاتر، وكانا قد يصطلحان وقتًا ثم يعودان إلى ما كانا عليه، وهو الذي ألصق بالحيص بيص هذا اللقب؛ وذلك لأن السلطان السلجوقي لما قدم بغداد في أيام المقتفي وهم عسكرها بالخروج إليه، وكان الناس من ذلك في حديث كثير وحركة زائدة، فقال: ما لي أرى الناس في حيص بيص؟ فألصق به هذا اللقب.

قلت: كان الحيص بيص على ما هو منه معروف، فخرج يتمشى ليلاً حيث لا يقدم

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٣٢١-٣٣٣).

(٢) الأسود: الحيات الضخمة شديدة السمية.

(٣) هو: سعد بن محمد بن سعد، شهاب الدين، أبو الفوارس المعروف بالحيص بيص، توفي سنة أربع وسبعين وخمسة. انظر: البداية والنهاية (١٢/ ٣٠١، ٣٠٢)، شذرات الذهب (٤/ ٢٤٧)، الوافي بالوفيات (١٥/ ١٠٣-١٠٥)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٦١، ٦٢)، معجم الأدباء (٣/ ٣٦٨-٣٧٣)، وفيات الأعيان (١/ ٢٠٢).

إلا الأبطال، ولا يمشي إلا من قصر عنده باع الخوف وطال، فمريكلبة مجرية^(١) رآها، فما خافها وهي تسطو بأنياب وأظفار وتهول مثل الليل بلا أسفار، فنجب عليه نباحا ظن به أن الجبال قد أطبقت أو الجيوش به قد أهدقت، فامتشق سيفه وخطا إليها وقدم قدمه وأقدم عليها، ثم دهش للخوف من بأسها فأضلها، وإنما أصاب بالسيف جروا لها.

فقال أبو القاسم: [البيسط]

يا معشر الناس إن الحيص بيص أتى	بفعلته أورثته الخزي في البلد
هو الجبان الذي أبدى شجاعته	على جري ضعيف البطش والجلد
فأنشدت أمه من بعد ما احتبست	دم الأيلق عند الواحد الصمد
أقول للنفس تأسء وتعزية	إحدى يدي أصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه	هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

وكان المقتفي حين بويع شيخا قد علت سنه واحدودب غصنه، ووزيره ابن الهيرة^(٢) من علم زهاده ومداومة درس وعباده، وكان أبو القاسم يستطيل مدتها ويكره بأسها الذي لا يلين وشدتها، فجلس يوما المقتفي وابن هيرة واقف أمامه ومصرف زمانه هذا، وقد استقل أبو القاسم طول أيامها وامتداد دوامها فقال: [السريع]

يا معشر الناس النفير النفير قد جلس الهردب^(٣) فوق السرير

(١) مجرية: الجري: الكلب الصغير والجمع جراء.

(٢) هو: الوزير عون الدين، أبو المظفر يحيى بن محمد بن هيرة بن سعيد الشيباني وزير المقتفي، ولد سنة تسع وتسعين وأربع مائة بالسواد، مات مسموما في جمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة. انظر: العبر في خبر من غبر (٤/١٧٢)، شذرات الذهب (٤/١٩١-١٩٧)، سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٢٦-٤٣٢).

(٣) الهردب: هو الجبان الضخم، المنتفخ الجوف الذي لا فؤاد له. انظر: لسان العرب، مادة (هردب).

وصار فينا أمراً ناهياً
[فكلما قلت قذى ينجلي
وكننت أرجو أنه لا يصير
وظلمة عما قليل تنير]^(١)
الدولة والشيخ الوزير الوزير
فتحت عيني فإذا الدولة

وقال يهجو البديع الاسطرلابي وكان قد حج: [مجزوء الكامل]
لا غرو أن دهني الحجيج
وإن رممنا منه بنكبة
وفتاه فانظر أي عصابة؟
علق وقواد وقجبة!
خج البديع وعورسه
فتلاثة من منزل

وقال: [السريع]
يا خائف الهجر على نفسه
كنت في أمان الله من مسه
أنت بهذا العرض بين الورى
مثل الخرا يمنع من نفسه

وقال: [السريع]
أمدحه طوراً وأهدى به
طورا ولا أطمع في رفده
مثل إمام بين أهل القرى
صلى بهم والزيت من عنده!

وأورد له ابن سعيد، ومن ذا الذي يسمع الحسن ولا يستعيد؟ وذلك قوله:
[الكامل]

خطرت فكاد الورق يسجع فوقها
إن الحمام لمغرم بالبان
من معشر نشروا على هام الرى
للطارقين ذوائب النيران^(٢)

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٢/ ٣٣٠، ٣٣٣).

ومنهم:

١٠٢- فخر الدين المارديني^(١)

الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد الساتر الأنصاري، رجل من أسرة الأنصار، ومن سُرّة أهل المدينة إذا عدت بيوت الأمصار في مزايا ذوي الهبات في المنن وبقايا ذوي الهيئات من يمن.

وكان من علماء الحكماء، ونبلأ الفضلاء، وأحبار الأنام، وأخيار من لا يُرى مثله إلا في المنام.

قال ابن أبي أصيبعة: كان علامة وقته في الحكمة، قوي الذكاء، فاضل النفس، محباً للخير، متقناً للغة والنحو.

[وأجداده]^(٢) من أهل القدس، قرأ الطب على ابن التلميذ، وقرأ ابن التلميذ عليه المنطق، وقدم دمشق وأقرأ بها الطب، وكان له مجلس عام للتدريس، ومن قرأ عليه: المهذب عبد الرحيم بن علي، وطلب منه الملك الظاهر أن يقيم عنده بحلب، وأنعم عليه بال طائل فأقام عنده سنتين ثم عاد إلى ماردين، ووقف كتبه في المدرسة بها، وآخر ما قاله عند موته: «اللهم إني آمنت بك وبرسولك الصادق محمد صلى الله عليه وسلم، إن الله يستحي من عذاب الشيخ»^(٣).

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٣٤٨-٣٥١).

(٢) في الأصل، «ف»: أخذه، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢/ ٣٥٠، ٣٥١).

ومنه:

٣٠١- أبو نصر المسيحي^(١)

وهو سعيد بن أبي الحسن بن [أبي الخير]^(٢) بن عيسى، طبيب عرف به علمه، وفرع كل علاج لم يحظ فيه حكمه، طالما أبرأت العلل هذه المسيحية بمسحها، وأبدلت بياض ثوب العافية سواد مسحها، واحتاج إليه كل متطبب، وكان طبه الباعث للصحة أو المسبب.

قال ابن أبي أصيبعة: من المتميزين في صناعة الطب الأفاضل من أهلها والعيان من أربابها.

ومرض الناصر لدين الله^(٣) بالرمل وعرضت له في المئانة حصاة كبيرة مفرطة في الكبر، واشتد به الألم وطال المرض، وضجر من العلاج، فأشير عليه بأن يشق المئانة لإخراج الحصاة، فسأل عن جرائحي حاذق؟ فقبل له: ابن عكاشة، فأحضر وشاهد العضو العليل وأمر ببطه فقال: احتاج أن أشاور مشايخ الأطباء هذا.

فقال له: فمن تعرف من صالحهم؟

(١) هو: سعيد بن الحسن بن عيسى، أبو نصر الطبيب، كان من المتميزين في صناعة الطب. انظر: الوافي بالوفيات (١٣١/١٥، ١٣٢)، عيون الأنباء (٣٥١/٢).

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

(٣) هو: أحمد بن يوسف بن محمد بن أحمد، الناصر لدين الله، أبو العباس بن المستضيء بأمر الله بن المقتفي لأمر الله، ولد ببغداد سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، ويبيع له بالخلافة بعد موت أبيه سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وتوفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكانت مدة خلافته سبعة وأربعين سنة إلا شهراً. انظر: البداية والنهاية (١٣/١٠٦، ١٠٧)، العبر في خبر من غبر (٨٧/٥، ٨٨)، شذرات الذهب (٩٧/٥-٩٩)، تاريخ الخلفاء ص ٤٤٨ وما بعدها، سير أعلام النبلاء (٢٢/١٩٢-٢٤٣).

قال: أبو نصر المسيحي، فإنه ليس في البلاد بأسرها من يئأله، فطلبه فلما حضر قال له: اجلس ساعة ولم يكلمه.

ثم قال له الناصر: يا أبا نصر! مثل نفسك أنك دخلت إلى البيمارستان وأنت تباشر به مريضاً قد ورد من بعض الضياع، وأريد أن تباشر مداواي وتعالجني من هذا المرض كما تفعل بمن هذه صفته.

فقال: السمع والطاعة، ولكني أريد أن أعرف من هذا الطبيب المتقدم مبادئ المرض وأحواله وتغيراته، وما عالج به منذ أول المرض وإلى الآن.

فأحضر الشيخ أبو الخير وأخذ يذكر ابتداءات المرض وتغير أحواله، وما عالج به أول المرض وإلى آخر الوقت.

فقال: التدبير صالح والعلاج مستقيم.

فقال الخليفة: هذا الشيخ أخطأ ولا بد لي من صلبه!

فقام أبو نصر المسيحي وقبّل الأرض وقال: يا مولاي! بحق الله عليك وبمن مضى من أسلافك الطاهرين لا تسن على الأطباء هذه السنة، وأما الرجل فلم يخطئ في التدبير، ولكن بسوء حظه لم ينته المرض.

فقال: قد عفوت عنه، ولكن لا يعود يدخل عليّ فأنصرف.

ثم أخذ أبو نصر في مداواته فسقاه ودهن العضو بالأدهان والمليّنات وقال له: إن أمكن أنا نلاطف الأمر بحيث تخرج هذه الحصاة من غير بطّ فهو المراد، وإن لم تخرج فذلك لا يفوتنا.

ولم يزل كذلك يومين وفي ليلة اليوم الثالث رمى الحصاة، فقيل: إنه كان وزنها

سبعة مثاقيل، وقيل: خمس، وقيل: إنها كانت مقدار أكبر من نواة تكون من نوى الزيتون.

وتتابع الشفاء ودخل الحمام، فأمر بأن يدخل أبو نصر إلى دار الضرب، ويحمل من الذهب ما يقدر عليه، ففعل به ذلك، ثم أتمته الخلع والدنانير من أم الخليفة ومن ولديه الأميرين محمد وعلي، والوزير نصير الدين بن مهدي العلوي الرازي ومن سائر كبار الأمراء بالدولة، فأما أم الخليفة وأولاده والوزير والشرابي نجاح فكانت الدنانير من كل واحد ألف دينار وكذلك من أكابر الأمراء والباقيين على قدر أحوالهم، فأخبرت أنه حصّل من الذهب العين: عشرين ألف دينار، ومن الثياب والخلع: جملة وافرة وألزم الخدمة، وأفرطوا له الجامكية السنوية والراتب والإقامة، ولم يزل مستمرًا في الخدمة إلى أن مات الناصر لدين الله.

قال: وحدثني بعض الأطباء أن ابن عكاشة الجرائحي كان نذر عليه أن يتصدق في بيعة سوق الثلاثاء بالربع مما يحصل، وأنه حمل إلى البيعة مائتين وخمسين دينارًا، وصُرف أبو الخير المسيحي من الخدمة وقد كانت منزلته قبل ذلك جليلة عنده، ومحلّه مرتفعًا، ووصله هبات وصلات عظيمة فمن جملتها: أنه أعطاه خزانة كتب الأجل أمين الدولة ابن التلميذ، وكان قد مرض الناصر مرارًا وبرأ على يديه فحصل له جملة وافرة.

ثم توفي الشيخ أبو الخير في أيام الناصر فقيل له: إنه قد توفي وترك ولدًا [متخلفًا]^(١) وعنده جملة عظيمة من المال.

فقال: لا يعترض ولده فيما ورثه من أبيه، فما خرج عندنا لا يعود إلينا.

(١) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف» وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

ومنهـم:

١٠٤- أبو الفرج بن توما^(١)

وهو: صاعد بن هبة الله بن توما النصراني البغدادي.

توصل بنجاح فنجح، ومثَّ بصلات عمله فنجح، وعدل بالآباء فرجح، وملك رئاسة الأطباء فنجح، وورث ببلاده العراق بخت بختيشوعها، وحاز ما جر جرجيس إليه من مدد ينبوعها، وأبقى له يعقوب بن إسحاق أخو كندة ما كان أبقاه ليوسفه، وخلي له أحمد بن الطيب فتى سرخس ما خص نصيبه من طيب مخلفه.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان من أكابر الأطباء، وخدم نجاح الشراي، ثم صار وزيره وكاتبه، ثم دخل إلى الناصر وكان يشارك أطباءه في معالجته، ثم حظي عنده الخطوة التامة، وسلم إليه عدة جهات يخدم بها، وكان فيها عدة دواوين وكتاب.

وقتلـه بعض الجند المرتزقين تحت يده، وقيل للخليفة فنكبه، وأبقى أملاكه وعروضه لولده، وحمل ما حلفه من المال العين إلى الخزانة، وكان ثمانمائة ألف وثلاثة عشر ألف ديناراً!

قال ابن القفطي - وقد ذكره وأثنى عليه -: إنه كان قد تقدم في أيام الناصر إلى أن كان بمنزلة الوزراء والأمراء، واستوثقه على حفظ أمواله وأموال خواصه، وكان يودعها عنده، وكان يظهر له في كل وقت ويرسله في أمور خفية إلى وزرائه، وكان جميل المحضر حسن التوسط، قضيت على يده حوائج، وكفيت شرور، ولم ير له غير شاكر ناشر^(٢).

(١) انظر: ترجمته في فوات الوفيات (١/ ١٩١)، عيون الأنباء (٢/ ٣٥٤-٣٥٦).

(٢) انظر: المرجع السابق (٢/ ٣٥٤-٣٥٦).

طبقات الأطباء ببلاد العجم

ومنهم:

١٠٥- تياذورس^(١)

إمام الحكماء في دولة الفرس، والماضي فيهم زمانه المضيء كأنه ليلة العرس، وكان على كونه ذمة فيهم ومواليًا أمة تنافهم، تكرمه ملوك آل ساسان، وتطعمه من جنى جنايتهم ثمر الإحسان، وكان يتقرب إليهم بما يلائم. ويقرب لديهم كل منى كان لا يطمح بها منهم نائم.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان نصرانيًا وله معرفة جيدة بصناعة الطب، وبنى له سابور ذو الأكتاف^(٢) البيع^(٣) في بلاده، وكان عالمًا بالصناعة، موسومًا بها، متميزًا في زمانه، فاضلًا في علوم الفرس والهند، وهو الذي جلب كتاب كليلة ودمنة إلى أنوشروان^(٤) وترجمه له».

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٧/٣).

(٢) هو: سابور بن هرمز بن نرس بن بهرام بن بهرام بن هور بن سابور بن أردشير بن بابك. انظر: الكامل في التاريخ (٣٠١/١) وما بعدها، وقال ابن أبي أصيبعة: ويقال: إن الذي بنى له البيع بهرام جور. انظر: عيون الأنباء (٧/٢).

(٣) البيع: جمع «بيعة» وهي كنيسة للنصارى، وقيل: كنيسة اليهود. انظر: لسان العرب، مادة (بيع).

(٤) هو أنوشروان بن قياذ بن فيروز، تولى الملك بعد أبيه وعمره ثمان عشرة سنة. انظر: الكامل في التاريخ (٣٣٦/١) وما بعدها، سياات نامه (٦٧/١) وما بعدها.

ومنهم:

١٠٦- ربن الطبري^(١)

لاءم الفرس طبه، وقاوم حب أنفسهم حبه، وكانوا يرونه زين مجالسهم، وعين مجانسهم، هذا وما هو من أهل معتقدهم، ولا يمين محل مثله في معيهم، ولم يحاول عملاً إلا كان به بصيراً، ولا علماً إلا وانقلب الطرف إليه لا خاسئاً ولا حسيراً.

. قال ابن أبي أصيبعة: «كان يهودياً، طبيباً منجماً من أهل طبرستان، وكان متميزاً في الطب، عالماً بالهندسة وأنواع الرياضة، وحل كتباً حكومية من لغة إلى لغة أخرى، وكان له تقدم في علم اليهود والربن والراب - أسماء لمقدمي اليهود»^(٢).

ومنهم:

١٠٧- علي بن سهيل بن ربن الطبري، أبو الحسن^(٣)

قوي المشاركة، قوي الجدد في الطرق السالكة، يجلي نوره الظلم، ويطفئ تدبيره الضرم، ويقوم الأبدان، ويقوم طبه مقام الشمس في برء البلدان، ولم يعدم ومضه إلى أدب بدت له تضياء لمعانها، ويحيى بمسود اللمم ريعانها، ويدنو مداها ويبعد مكانها.

قال ابن النديم: «علي بن ربل - باللام - كان يكتب للمازيار»^(٤) بن قارن، فلما أسلم

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٧/٣) ..

(٢) مرجع سابق (٧/٣).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/١٠، ١١).

(٤) هو: المازيار بن قارن بن يزداهرمز. راجع عنه: البداية والنهاية (٢٨٩/١٠) وما بعدها، الوافي

بالوفيات (٢٤٠/٤).

على يد المعتصم قربه، وظهر فضله، وأدخله المتوكل في ندمائه، وكان بموضع من الأدب، وهو الذي علم [الرازي]^(١) صناعة الطب، وكان مولده ومنتشه بطبرستان.

ومن كلامه: الطبيب الجاهل مستحق الموت^(٢).

ومنهم:

٨٠١ - أحمد بن محمد الطبري^(٣)

أبو الحسن. تقدم بتقديم المعرفة، وتقدم إلى الداء فصرفه مع إتقان لتشريع الأعضاء، واتقاء لغير صريح الارتضاء، بفهم يحسن الاستنباط، وعلم يحسب في معرفة ما بين القصب والرباط، هذا إلى استقصاء الأعراض والدلائل والأمراض بسبب من خارج أو داخل، لم يعد الصواب حدسه، ولا عُدَّ في ذوي الخطأ حسه، حتى قيل: إنه لو أراد لأطال شعر الأجفان، وأقام الأموات من الأكفان، بتلطف يكاد يمسك به رفق النهار، ويرم في الصباح صبغة الليل الشايب.

قال ابن أبي أصيبعة: «فاضل عالم بصناعة الطب، وكان طبيب ركن الدولة، وله الكناش المعروف بـ (المعالجات البقرائية) وهو من أجل الكتب وأنفعها، يحتوي على مقالات كثيرة، وقد استقصى فيه ذكر الأمراض ومداواتها على أتم ما يكون»^(٤).

(١) في الأصل، «ف»: العين زري، والمثبت من عيون الأنباء، وهو الصحيح؛ إذ إن «عين زري توفي في ثمان وأربعين وخمسةائة.

(٢) عيون الأنباء (٣/ ١٠).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٥٠).

(٤) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٥٠).

ومنهم:

٩٠١- أبو منصور: الحسن بن نوح القمري^(١)

قمر سماء، ورقم عذار، ظل في وجنة ماء، ونوء حكمة ما تقشع سحابها ولا توشع
بغير مطرف الفضائل سحابها، أتى مجلس الرئيس ابن سينا وحضره وشاهد سيبا سمته
ونظره، وكان يعده فيمن أدركه، ويعد من العلم له ما تركه، ويطوي في حفظه من علمه
البارع ما نشره، ويأخذ منه إلا أنه أخذ شره، ولم يكن مثله في تعديل قوى ممتزجة،
وملاطفة بعلاج موافق لا تنفر منه الأمزجة.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان سيد وقته وأوحد زمانه، مشهورًا بالجودة في صناعة
الطب، محمود الطريقة في أعمالها، فاضلاً فيها، حسن المعالجة، جيد المداواة، متميزاً عند
الملوك، وحكي عن الخسرو شاهي أن ابن سينا لحق أبا منصور وهو شيخ كبير، وكان
يحضر مجلسه ويلازم دروسه، وانتفع به في علم الطب»^(٢).

ومنهم:

١٠١- أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني

له في الطب يد بيضاء كليمية^(٣)، وفي إطفاء نار الحمى آية غراء إبراهيمية، مسحت
بطبه الأدواء، وصلحت اللاواء، وصحت الأجسام، وصحت الأسقام، وسخت
السحب بمطر الاتعاش، وتهللت وجوه البرق الوسام، وحسبه أن ابن سينا من جملة

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٦٦).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٦٦).

(٣) كليمية نسبة إلى كليم الله موسى بن عمران عليه السلام.

علمه إذا زخر، ومن عزمه إذا فخر.

وكان من بعض فضلاء المتأخرين المتبحرين يفضله على ابن سينا، ويجعل له عليه السنا، ويثني عليهما، وإنما يوفر له الثناء.

قال ابن أبي أصيبعة: «هو طبيب فاضل، بارع في صناعة الطب علمها وعملها، فصيح العبارة، جيد التصنيف، صحيح الكتابة، متقنًا للعربية. قال: وقد رأيت بخطه كتابه في «إظهار حكمة الله في خلق الإنسان» وهو في نهاية الصحة والإتقان والإعراب والضبط، وهو يدل على فضل باهر وعلم غزير.

قال: وقيل: إن المسيحي هو معلم ابن سينا صناعة الطب، وقال عبيد الله بن جبريل: إن المسيحي كان بخرسان وكان مقدمًا عند سلطانها وإنه مات عن أربعين سنة.

ومن كلامه: نومة بالنهار بعد أكلة خير من شربة دواء نافع»^(١) انتهى.

ومنتهم:

١١١ - السيد أبو عبد الله محمد بن يوسف الإيلقي^(٢)

رجع بنسبه إلى والد شريف، وبحسبه إلى تالد وطريف، فقليل في ظل علم متكاثف الشجر، متراكم السحب، هطّال المطر، سرت النوافح بأعطافه، وسُرّت بالطفاه، وصيرت ثمرة في أوان قطافه.

قال ابن أبي أصيبعة: هو شريف النسب، فاضل في نفسه، خير بصناعة الطب

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/٦٧، ٦٨).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/١١٨).

والعلوم الحكمية، وهو ممن أخذ عن الرئيس ابن سينا، واختصر «القانون» وأجاد تأليفه، وله كتاب «الأسباب والعلامات في الطب»^(١).

ومنهم:

١١٢- أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني^(٢)

ذكي يفوح عقب ريحانه، ويكرم أرج عنبره بامتحانه، تكلم على الكواكب ورسومها وحدودها، والنجوم ونحوسها وسعودها، وناظر الفحول، وناضل التصول، وله حكمة تلمع مشارق أنوارها، و[تصدع حصباء الفجر سابق نوارها]^(٣).

قال ابن أبي أصيبعة: «هو منسوب إلى بيرون، من مدن السند، وكان مشغلاً بالعلوم الحكمية، فاضلاً في الهيئة والنجوم، وكان معاصراً للرئيس ابن سينا وبينهما بحوث ومراسلات، وقد ذكر الرئيس أجوبة مسائل سأله البيروني عنها مفيدة في الحكمة»^(٤).

ومنهم:

١١٣- أحمد بن عبد الرحمن بن مدويه الأصبهاني، أبو علي^(٥)

من دار ملك لا يقعد به بلده، وابن أب لا يستحي منه ولده، تحلل بالمنقب التي ما

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ١١٨).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ١١٩).

(٣) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٤) انظر: عيون الأنباء (٣/ ١١٩).

(٥) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ١٢١).

ضاقَت به ملبسها، ولا دنت لغيره ملامسها، وفاضت به ينابيع الحكم، وسهلت له صعايبها التي كم رامها غيره وكم.

قال ابن أبي أصيبعة: هو من الأطباء المذكورين في بلاد العجم، وخدم جماعة من ملوكها ورؤسائها، وكانت له أعمال مشهورة في صناعة الطب، وكان من ذوي البيوتات الاجلاء بأصبهان، وكان أبوه فاضلاً في علم الأدب وأمر الدين، وله أشعار حسنة منها:
ويمسي المرء ذا أجل قريب وفي الدنيا له أمل طويل
ويعجل بالرحيل وليس يدري إلى ماذا يقربسه الرحيل

ولأبي علي هذا كتب كثيرة ذكرها ابن أبي أصيبعة في كتابه «بغية الألباء في تاريخ الأطباء»^(١).

ومنهم:

١٤ - ابن أبي صادق، هو: أبو القاسم عبد الرحمن بن علي^(٢)

ابن أحمد بن أبي صادق النيسابوري

وكان صادق الطلب، صانع الليل، سرى بحسن المتطلب مُنقِباً عن الحكمة يستثيرها من أماكنها، ويستديرها سرجاً من مساكنها، ويستميرها أقواتاً، ويستميلها قصباً تميل إليه انعطافاً وظباء تحسن إليه التفاتاً.

قال ابن أبي أصيبعة: «هو طبيب فاضل بارع في العلوم الحكيمة، كثير الدراية في الصناعة الطبية، له حرص بالغ في التطلع إلى كتب جالينوس، وما أودعه فيها من

(١) عيون الأنباء (٣/ ١٢١-١٢٥).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ١٢٦).

غوامض الطب وأسرار العلم، شديد الفحص عنها، وكان فصيحاً، بليغ الكلام، وما فسرهُ من كتب جالينوس في نهاية الجودة والإتقان كما فعل في كتاب منافع الأعضاء لجالينوس، فإنه أجهَد نفسه فيه وأجاد في تلخيص معانيه.

وقد قال في أوله: وأما نحن فقد حررنا معاني هذا الكتاب شرحاً للعويص، وحذفاً للزائد، ونظماً للتشتيت وإضافة إليه.

قال صاحب بغية الألباء^(١): وحدثني بعض الأطباء أن ابن أبي صادق اجتمع بابن سينا وقرأ عليه، وكان ممن تتلمذ له وأخذ عنه، قال: وكان هذا لا أستبعده بل هو أقرب إلى الصحة؛ لأن ابن أبي صادق لحق زمانه - أي زمان ابن سينا - وكان ببلاد العجم، ولا شك أنه سمع بسمعه ابن سينا، وكانت عظيمة، وكان أكبر من ابن أبي صادق قدرًا، ثم ذكر تأليفاته^(٢)^(٣).

ومنهم:

١١٥ - السموعل بن يحيى بن عباس^(٤)

المغربي الأصل، البغدادي الدار، العادي حيث السحاب الهطال دار، الماد يد البدار، الماد يد الاقتدار، ذو الذكاء الذي يضيء للمقتدح، ويضع في مهامه مهام الطلب منه المقترح، طلاع كل نية، وطلاب كل حنية، خرق العادة في ذكائه الفرط، ووقائه بالعلم

(١) يقصد عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة.

(٢) ذكر ابن أبي أصيبعة مؤلفاته فقال: ولابن أبي صادق من الكتب: شرح كتاب المسائل في الطب لحنين بن إسحاق، اختصار شرحه الكبير لكتاب المسائل لحنين، شرح كتاب الفصول لأبقراط، شرح كتاب تقدة المعرفة لأبقراط، شرح كتاب منافع الأعضاء لجالينوس.

(٣) انظر: عيون الأنباء (٣/ ١٢٦).

(٤) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ١٥٤).

الذي لا يقبل الغلط، على أنه لم يخل بإبداع فن ولا أبدع حفظه علم يعرف بحقيقة أو ظن.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان فاضلاً في العلوم الرياضية، عالماً بصناعة الطب، وأصله من بلاد المغرب وسكن بغداد مدة ثم انتقل إلى بلاد العجم، ولم يزل بها إلى آخر عمره.

قال عبد اللطيف البغدادي: هذا السمفوع شاب بغدادي كان يهودياً وأسلم، ومات شاباً بمراغة، وبلغ في العدديات مبلغاً لم يصله أحد في زمانه، وكان حاد الذهن جداً، بلغ في الصناعة الجبرية الغاية القصوى، وأقام بديار بكر^(١) وأذربيجان^(٢)، وله رسائل في الجبر والمقابلة رد فيها على ابن الخشاب^(٣) النحوي وكان معاصره، وكانت له في هذا العلم يد^(٤).

(١) ديار بكر: بلاد واسعة، تقع الآن بتركيا، وينسب إلى أبي بكر بن وائل، وتضم العديد من المدن الكبرى؛ منها: مينا فارقين، وحصن كيفا، ودجلة وحيزان، وغيرها، وينسب إليها كثير من العلماء؛ منهم: عمر بن علي بن الحسن الديار بكرى المحدث. انظر: معجم البلدان (٢/ ٥٦١)، عيون الأنباء (١٧٢/ ٢).

(٢) أذربيجان: وتقع في الإقليم الخامس، طولها ثلاث وسبعون درجة، وعرضها أربعون درجة، وحدها من بلاد بزدعة شرقاً إلى أذربيجان مغرباً، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، ومن أشهر مدنها: تبريز، وأرمية، وأردبيل. انظر: معجم البلدان (١/ ١٥٦، ١٥٧).

(٣) هو: عبد الله بن أحمد بن أحمد البغدادي، أبو محمد الخشاب، ولد سنة (٤٩٢هـ)، وسمع من علي بن الحسين الربيعي ابن الحصين وطبقته، وأخذ العربية من ابن الشجري وابن الجواليقي، وتوفي في رمضان سنة (٥٦٧هـ). انظر: مرآة الجنان (٣/ ٣٨١، ٣٨٢)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٢٤-٥٢٨)، العبر في خير من غير (٤/ ١٩٦، ١٩٧)، الوافي بالوفيات (١٧/ ١١، ١٢)، شذرات الذهب (٤/ ٢٢٠-٢٢٢).

(٤) انظر: عيون الأنباء (٣/ ١٥٤، ١٥٥).

ومنهـم:

١١٦- الشريف شرف الدين إسماعيل^(١)

كـمـل شـرف قـديـمـه بـحـديثـه، ووصل واني سـراـه بـخـبـيـثـه، وعـرف بأكـمـل أدوات العلوم ومداواة العموم، وتحلى بمفاخر الطلب لعلم يتيقنه، وجسم بصالح الطب يقيه. وصل من الدولة الخوارزمية العظيمة الشأن ما عُدَّ مثله لها من عظمتها، وامتد ثرى ماله من نعمتها، وجرى في طلق آماله إلى غاية همتها.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان طبيباً عالي القدر، وافر العلم، وجيهاً في الدولة، وكان في خدمة السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه، وله منه الأنعام الوافرة، والمرتبة المكيّنة، وكان له مقرر على السلطان مبلغه ألف دينار في كل شهر، وكانت له معالجات بديعة وآثار حسنة في صناعة الطب. وتوفى في أيام خوارزم شاه بعد أن عمّر، وله عدة مصنفات كلها بالفارسي»^(٢).

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/١٥٨).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/١٥٨)، وذكر ابن أبي أصيبعة أن من مؤلفاته، هي: كتاب الذخيرة الخوارزم شاهية في الطب، كتاب الأغراض في الطب.

أطباء الهند

ومنهم:

١١٧- شاناك الهندي^(١)

هو ذو الحكم اللوامع، والكلم الجوامع، والتنبيهات الموقظة، والتمويهات المحفظة، والتشبيهات التي أخذت بأطراف الموعظة، نطق بها عن خاطر صفا، فلم يكدر، ووفى فلم يغدر، فجاءت سوانح، وجادت موانح، وحلت من القلوب محلاً منذ دخلته سكنت به وأخلته.

قال ابن أبي أصيبعة: «كانت له معالجات وتجارب كثيرة في الطب، وتفنن في العلوم الحكمية، وما قاله في كتابه الذي سماه «منتحل الجواهر»:

أيها الوالي! اتقِ عثرات الزمان، واخشَ تسلط الأيام ولوعة الدهر، واعلم أن للأعمال جزاء فائق العواقب فإن لها غدرات، فكن منها على حذر، والأقدار مغيبات فاستعد لها، والزمان متقلب فاحذر دولته، لثيم الكثرة فخف سطوته، سريع الغرة فلا تأمن سطوته.

واعلم أنه من لم يداوِ نفسه من سقام الآثام في أيام حياته فما أبعد من الشفاء في دار لا دواء لها، ومن أذل حواسه واستبعدها فيما يقدم من خير بان فضله، وظهر نبهه، ومن لم يضبط نفسه وهي واحدة لم يضبط حواسه وهي خمس، فإن لم يضبط حواسه مع قلتها ونفسه مع ذلتها صعب عليه ضبط الأعوان مع كثرتهم وخشونة جانبهم، وكان

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنبياء (٣/١٦٢، ١٦٣).

عامة الرعية في أقاصي البلاد وأطراف المملكة أبعد من الضبط»^(١).

ومنهم:

١١٨ - منكه الهندي^(٢)

طبيب توفى به الأجسام، وتوفى بسببه خير الأقسام، لو عاد الهرم لأعاد عليه ثوب شبابه، وبذل كفن المشيب بجلبابه، فأقر الأرواح في أجسادها، وعاد بالصلاح على فسادها، فقرت استقرارًا، وأزالت ضرارًا، وصالحت الأبدان فلم تعد إلى منافرتها، ولم تبعد من مضافته، فأماطت عقابيل السقم، وجذبت بأعقاب الداء العليا، وقد التقم فوجدت به الصحة وقد عز لقيها، وطالت المدة وقد يش من بقيها.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): «كان علامًا بالطب، حسن المعالجة، لطيف التدبير، فيلسوفًا من المشار إليهم في العلم، متقنًا للغة الهند ولغة الفرس، وهو الذي نقل كتاب «شانا» في السموم إلى الفارسية، وكان زمان الرشيد، وأتى العراق في أيامه ثم عرف العربية فكان ينقل إليها.

ومن أخبار الخلفاء أن الرشيد اعتلّ علة صعبة لم يجد فيها طب الأطباء، فقال له أبو عمر الأعجمي: يا أمير المؤمنين! بالهند طبيب يقال له: منكه هو أوحدهم وفلاسفتهم، فلو بعثت إليه لعل الله يهلك الشفاء على يده.

فجهز من وصله صلة تعينه على سفره وحمله إليه، فعالجه فبرأ فأجرى عليه رزقًا

(١) انظر: عيون الأنباء (٢/ ١٦٢).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ١٦٤).

(٣) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٢٤٣).

واسعاً، وأموالاً كافية، ثم بينما هو مار بالخلد^(١) إذا هو برجل قد بسط كساءه وألقى عليه عقاقير كثيرة وقام يصف دواء معجوتاً، فقال: هذا دواء لكذا وكذا، وعدد أسقاماً كثيرة وأدواء مختلفة حتى لم يدع عارضاً إلا ذكر أن ذلك الدواء شفاؤه، فتبسم منك ثم قال: على كل حال ملك العرب جاهل؛ لأنه أن كان الأمر على ما يقول هذا فما الذي حمله على أن حملني من بلادتي إليه، وأبعدني عن أهلي، وتكلف الكثير من مؤونتي، وهو يجد هذا نصب عينيه وإزاء ناظره؟

وإن كان على غير ما يقول فلم لا يقتله لأن الشريعة قد أباحت دم هذا ومن أشبهه؛ لأنه إن قُتل إنما هي نفس يحيا بموتها أنفس، وإن ترك وهذا الجهل قتل كل يوم أنفساً، وهذا فساد في الذهن، ووهن في الملك^(٢).

ومنهم:

١١٩ - صالح بن بهلة الهندي^(٣)

طبيب يّين الانحراف والاعتدال، والصحة والاعتلال، حدس ما حدث، وبر وما حث، اطلع على كل سبب من الأسباب، وجمع بين طرفي الإيجار والإسهاب، ورتب لكل ذي سن ما يليق به من المداواة وما لا يطبق معرفته سواه، وشفع هذا بفضائل أخرى اجتال بها فخراً فحوى محاسن لا تعد كثره، ولا يزول لها أثره، وطالما حكيت عن طبه عجائب ومحاسن ما فيها قول لعائب.

(١) الخلد: اسم قصره، شيده المنصور ببغداد. انظر: معجم البلدان (٢/ ٣٨٢).

(٢) ولتكنه من الكتب: كتاب النموذار في الأعمار، وكتاب أسرار المواليد، كتاب القرائات الكبير، كتاب القرائات الصغير، كتاب الطب وهو يجري مجرى كناش، كتاب في التوهم.

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ١٦٧).

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان من علماء الهند خبيرًا بالمعالجات التي لهم، وله قوة وإنذارات في تقدم المعرفة، وكان بالعراق على عهد الرشيد.

قال يوسف الخاسب المعروف بابن الداية عن مولى سلام الأبرش: إن مولاه حدثه أن الموائد قُدمت بين يدي الرشيد يومًا وابن بختيشوع غائب فطلبه في كل مكان فلم يجده، فطفق يلعنه وإذا به قد دخل والرشيد يلعنه، فقال: لو اشتغل أمير المؤمنين بالبكاء على ابن عمه إبراهيم بن صالح كان أشبه به من تناولي^(٢).

فقال له: وما خبره؟ فأعلمه أنه خلفه ومعه رمق ينقضي آخره وقت صلاة العتمة^(٣).

فاشتد جزع الرشيد عليه وأمر برفع الموائد، فقال جعفر بن يحيى: إن طب بختيشوع رومي وطب ابن بهلة هندي، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضاره ليعرف ما عنده؟ فأمر بمصيره إليه، فجلس عرقه ثم قال: لا أخبر الخبر إلا أمير المؤمنين، فأخبر الرشيد فأدخل عليه ابن بهلة فلما مثَّل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين! أنت الإمام وعاقده ألوية القضاء للحكام، ومهما حكمت به لم يجوز لحاكم فسخه، ولا لمعقب بعدك نسخه، وأنا أشهدك عليّ وأشهد من حضرك أن إبراهيم بن صالح إن مات في هذه الليلة بل في هذه العلة يكون كل مملوك لصالح بن بهلة حرًّا لوجه الله، وكل دابة له تكون حبسًا في سبيل الله، ويكون كل ما يملكه صدقة على الفقراء، وتكون كل امرأة له طالقًا ثلاثًا بتاتًا.

فقال الرشيد: حلفت ويلك! يا صالح على غيب.

فقال صالح: كلا يا أمير المؤمنين! إنما الغيب ما لا علم لأحد به ولا دليل عليه،

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ١٦٧-١٧٢).

(٢) أي: تناوله باللعن والإساءة.

(٣) يقصد: صلاة العشاء.

ولم أقل ما قلت إلا بدليل واضح وعلامات بينة.

قال: فسرَّ الرشيد بقوله، وأحضر الطعام فأكل وشرب، فلما كان وقت صلاة العتمة أتى الخبر بوفاة إبراهيم بن صالح! فاستقبل الرشيد ورجع يلعن ابن بهلة وطب الهند ثم بكر إلى دار إبراهيم، فأتى ابن بهلة فوقف بين يديه، فلم يناطقه إلى أن سطعت روائح المجامر، وقد غُسل إبراهيم وكُفَّن، فصاح به ابن بهلة عند ذلك: يا أمير المؤمنين! الله الله أن تحكم عليَّ بطلاق زوجتي وخروجي من نعمتي، وتدفن ابن عمك حيًّا، فوالله ما مات، فأطلق له الدخول عليه والنظر إليه، ثم خرج وهو يكبر، ثم قال: قم يا أمير المؤمنين حتى أريك عجبًا.

فقام معه ثم أخرج ابن بهلة إبرة كانت معه فأدخلها بين ظفر إبهام يد إبراهيم اليسرى ولحمه فجذب إبراهيم يده! فقال ابن بهلة: يا أمير المؤمنين! هل يحس الميت بالوجع؟ فقال له: لا، فقال ابن بهلة: لو شئت أن أعدده يكلم أمير المؤمنين الساعة لفعلت، ولكن أخاف إن عاجلته وأفاق وهو في كفن فيه رائحة الحنوط أن يتصدع قلبه فيموت موتًا حقيقيًّا، ولكن يأمر أمير المؤمنين بتجريده من الكفن ورده إلى المغتسل وإعادة الغسل عليه حتى تزول رائحة الحنوط عنه، ثم يلبس مثل ثيابه التي كانت عليه، ويحوّل إلى فراش من فرشه التي كان يجلس عليها حتى أعالجه فيكلمه من ساعته.

فأمر بذلك، ففعل ثم دعا ابن بهلة بكُنْدَس^(١) ومنفحة، ونفخ الكندس في أنفه فمكث قدر سدس ساعة ثم اضطرب جسده وعطس وجلس قدام الرشيد وقبّل يده، فسأله الرشيد عن حالة؟ فذكر أنه كان نائمًا نومًا لا يذكر أنه نام مثله قط طيبًا إلا أنه رأى في منامه كلبًا عضَّ إبهام يده اليسرى عضّة يجذ وجعها، وأراه إبهامه الذي أدخل فيه الإبرة، وعاش بعد ذلك دهرًا طويلًا، ثم تزوج بالعباسة بنت المهدي، وولي مصر وفلسطين، وتوفي بمصر وقبر بها.

(١) الكندس: العقيق. انظر: لسان العرب، مادة (كندس).

أطباء الشام

منهم:

١٢٠- أبو الفرج جرجس بن توما بن سهل بن إبراهيم^(١)

من النصاري اليعاقبة، رجل اهتم لسعادته، وتكلم فأصاب فما خرج عن عادته، شكر من الأطباء وذكر الألباء، انتقل إلى الحاضرة، واشتغل بالمعالجة الحاضرة، وكان إذا دعي لطبيب العلل طيبها بما يقل لبثها، ويقلل بثها، ويعجل للأجسام بإعادة صحتها، ويرخص لها ما يسام من عادة منحتها، فينهض من جدها العاثر، ويؤثر فيها ما يشاء الأثر، ولم يتعود طول العيادة، ولا غرابة الدواء خلاف العادة.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان فاضلاً في صناعة الطب، عالماً بأصولها وفروعها، معدوداً من جملة الأكابر من أهلها، والتميزين في أربابها، دائم الاشتغال، محباً للعلم^(٣)، مؤثراً للفضيلة.

حدثني شرف الدين ابن عنين^(٤) -رحمة الله تعالى- أن اليرودي كان لا يمل من

(١) انظر ترجمته في عيون الأنباء (٤/ ٣٣).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٤/ ٣٣-٤٢).

(٣) ذكر ابن أبي أصيبعة أن له مقالة في أن الفرخ أبرد من الفروج، وله نقض كلام ابن الموفقي في مسائل ترددت فيما بينهم في النبض. انظر: عيون الأنباء (٢/ ٤٢).

(٤) هو: محمد بن نصر الله بن مكارم بن حسن، شرف الدين أبو المحاسن ابن عنين الأنصاري الدمشقي الأديب، توفي في ربيع الأول سنة (٦٣٠هـ)، وله إحدى وثلاثون سنة. انظر: وفيات الأعيان (٥/ ١٤-١٩)، سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٦٣)، العبر (٥/ ١٢٢)، الوافي بالوفيات (٥/ ٨٣-٨٧)، شذرات الذهب (٥/ ١١٥).

الاشتغال ولا يسأم منه. قال: وكان أبدًا في سائر أوقاته لا يوجد إلا ومعه كتاب ينظر فيه.

وحدثني بعض النصارى بدمشق و[هو السني البعلبكي الطبيب]^(١) قال: كان مولد البيرودي ومنشؤه ببيروت، وهي ضيعة كبيرة من صيدنايا^(٢)، وبها نصارى كثيرون، وكان البيرودي بها كسائر أهل النصارى من معاناتهم الفلاحة، وما يصنعه الفلاحون، وكان أيضا يجمع الشيخ من نواحي دمشق القريبة من جهته، ويحمله على دابة، ويأتي به إلى داخل دمشق يبيعه للذين يقدونه بالأفران وغيرها، وأنه لما كان في بعض المرات وقد عبر من باب توما، ومعه حمل شيخ، رأى شيخًا من المتطبين وهو يفصد إنسانًا قد حصل له رعاف شديد من الناحية المسامته للموضع الذي ينبعث منه الدم، فوقف ينظر إليه وقال له: لم تفصد هذا دمه يجري بأكثر مما يحتاج إليه؟

فعرفه أنه إنما فعله لينقطع عنه الدم الذي ينبعث من أنفه لكونه يجذبه إلى مسامته الجهة التي ينبعث منها.

فقال له: إذا كان الأمر هكذا فإننا في مواضعنا قد اعتدنا أنه متى كان نهر جارٍ، وأردنا أن نقطع الماء عنه، فإننا نجعل له مسيلًا إلى ناحية أخرى غير مسامته، فينقطع من ذلك الموضع ويعود إلى الموضع الآخر، فأنت لم لا تفعل هكذا، وتفصده من الناحية الأخرى؟

ففعل ذلك وانقطع الرعاف عن الرجل، وقال ذلك الطبيب للبيرودي: لو أنك تشغل بصناعة الطب جاء منك طبيب حاذق.

فقال البيرودي إلى قوله، وتاقت نفسه إلى العلم، وبقي مترددًا إلى الشيخ في أوقات وهو يعرفه، ويريه أشياء من المداواة، ثم أنه ترك بيروت وما كان يعانيه، وأقام بدمشق

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

(٢) صيدنايا: بلد من أعمال دمشق، مشهورة بكثرة الكروم والخمر. انظر: معجم البلدان (٣/ ٤٩٧).

يتعلم أشياء من المداواة، وصناعة الطب، فلما تبصر في أشياء منها، وصارت له معرفة بالقوانين العلمية، وحاول مداواة المرضى، ورأى اختلاف الأمراض وأسبابها، وعلاماتها، وتيقن علاجاتها، سال عمّن هو أمام في وقته بمعرفة صناعة الطب جيداً؟

فذكروا له أن ببغداد أبا الفرج ابن الطيب كاتب الجائليق، وأنه فيلسوف متفنن، وله خبرة وفضل في صناعة الطب، وفي غيرها من الصنائع الحكيمة، فتأهب للسفر، وأخذ سواراً كان لأمه لينفق، وتوجه إلى بغداد، وصار ينفق عليه ما يقوم بأوده، ويشغل على ابن الطيب إلى أن مهر في صناعته، وصارت له مباحثات جيدة، ودرية فاضلة في هذه الصناعة، واشتغل أيضاً بشيء من المنطق والعلوم الحكيمة، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها.

ونقلت هذه الحكاية المتقدمة أو قريباً منها، وإن كانت الرواية مختلفة عن شيخنا الحكيم مهذب الدين إسعد بن إلياس ابن المطران، قال: حدثني أبي، قال: حدثني أبو الفرج ابن الحديد، قال: إن بدمشق فاصداً يقال له: أبو الخير، ولم يكن من المهرة، وكان من أمره أنه فصد شاباً، فوقعت الفصدة في الشريان، فتحير وتبلد، وطلب قطع الدم، فلم يقدر على ذلك، فاجتمع الناس عليه، ففي أثناء ذلك طلع صبي عليه وقال: يا عمها! افصده في اليد الأخرى!

فقال: شدّ الفصد الأول. فشده ووضع عليه لازوقاً كان عنده، وشده، فوقف جري الدم، ثم مسك الأخرى فوقف الدم وانقطع الجميع.

ووجد الصبي بالسوق معه دابة عليها حمل شبح، فتشبث به، وقال: من أين لك ما أعلمتني به؟

قال: إن أبي في وقت سقي الكرم إذا انتفح شق من النهر وخرج الماء منه بحدة لا يقدر على إمساكه دون أن يفتح فتحاً آخر ينقص منه الماء الأول الواصل إلى ذلك الشق، ثم يسده بعد ذلك.

قال: فمنعه الجرائحي من بيع الشيخ واقتطعه، وعلمه الطب، وكان منه اليرودي، وهو من مشاهير الأطباء الفضلاء.

وكان لليبرودي مراسلات إلى ابن رضوان بمصر، وإلى غيره من الأطباء المصريين، وله إليهم مسائل عدة طبية، ومباحث دقيقة، وكتب بخطه شيئاً كثيراً من الطب، ولا سيما من كتب جالينوس، وشروحها، وجوامعها.

وحدثني السني البعلبكي: أن اليرودي عبر يوماً في سوق جيرون بدمشق، فرأى إنساناً وقد بايع على أن يأكل أرطالا من لحم الفرس مسلوقة، مما يباع في السوق، فلما رآه وقد أمعن في أكله بأكثر مما تحمله قوته، ثم شرب بعده فقاعاً^(١) كثيراً، وماء بثلج، واضطربت أحواله، ففهرس فيه أنه لا بد أن يغشى عليه، وأن يكون في حالة أقرب إلى الموت، إن لم يتلاحق، فتبعه إلى المنزل الذي له، واستشرف إلى ماذا يثول أمره، فلم يكن إلا أيسر وقت وأهله يصيحون ويضجون بالبكاء، ويزعمون أنه قد مات فأتى إليهم، وقال: أنا أبرئه، وما عليه بأس، ثم إنه أخذه إلى حمام قريب من ذلك، وفتح فكيه كرهًا، ثم سكب في حلقه ماء حارًا، وقد أضاف إليه أدوية مقوية للقيء، وقيًا برفق، ثم عاجله، وتلطف في مداواته حتى أفاق وعاد إلى صحته، فتعجب الناس منه في ذلك الفعل، وحسن تأتبه إلى مداواة ذلك الرجل، واشتهرت عنه هذه القضية، وتميز بعدها.

وهذه الحكاية التي قصد اليرودي أن يتتبع أحوال الرجل فيها، ويشاهد ما يكون من أمره أن يكون عنده معرفة بالأعراض التي تحدث له، وأن ينقذه أيضًا مما وقع إن أمكنه معالجته.

ومثل ذلك أيضًا ما حكاه أبو جعفر أحمد بن محمد بن الأشعث في كتاب الغاذي والمغتذي وذلك أنه قال: إن إنساناً رأيته يوماً وقد بايع أن يأكل جزراً قدره بحد ما،

(١) فقاع: شراب يتخذ من الشعير سمي به لما يعلوه من الزيد. انظر: لسان العرب، مادة (فقع).

فحضرت أكله لأرى ما يكون من حاله لا رغبة مني لمجالسة من هذه حالته، ولا لي بذلك عادة والحمد لله، بل لأرى إيراد الغذاء على المعدة قسراً إلى ماذا يكون هذا الفعل، فرأيت أنه يأكل من حائط ليرى من حوله ويضاحكهم، حتى إذا مر على الكثير مما كان بين يديه، فرأيت الجزر ممضوغاً قد خرج من حلقة ملتقاً متحبلاً، متعجباً بريقه، وقد جمحت عيناه، وانقطع نفسه، واحمر لونه، ودرت أوداجه وعروق رأسه، وازيد، وكمد وجهه، وعرض له من التهوع أكثر مما عرض له من القذف، حتى رمى من ذلك الذي أكله شيئاً كثيراً، فركنت أن انقطاع نفسه لدفع المعدة حجابها إلى نحو الفم، ومنعها إياه من الرجوع إلى الانبساط إلى النفس، وأما ما عرض إلى لونه من الاحمرار، ودرور وداجيه وعروقه، فركنت^(١) أنه لإقبال الطبيعة نحو رأسه، كما يعرض لمن شديده للفصد، أن تقبل الطبيعة نحو الجهة التي استتهضت نحوها.

فأما ما عرض لوجهه من الإربداد^(٢) والكهوبة^(٣)، فرأيت أيضاً أنه لسوء مزاج قلبه، وأنه لو لم يخرج ما خرج، ودافعت المعدة حجابها هذه المدافعة التي قد عاقته آلتها من التنفس، عرض له الموت بالاختناق، كما قد رأينا ذلك في عدد كثير ماتوا بعقب القذف، فركنت من ذلك أن التهوع^(٤) لشدة اضطراب في ذلك الفصل، وحسن تأنيبه، ونقي المعدة.

قال ابن أبي الأشعث بعد ذلك: إن الغذاء إذا حصل في المعدة وهو كثير الكمية تمددت تمعدداً يسط سائر غصونها، كما رأيت ذلك في سبع شريحته حياً بحضرة الأمير الغضنفر، وقد استصغر بعض الحاضرين معدته، فتقدمت بصب الماء في فيه، فما زلنا نصب الماء في حلقة دورقاً بعد أخرى، حتى عددنا من الدوايق عدداً كان مقدراً ما حوته

(١) الزكن: هو الفطنة والحدس الصادق. انظر: لسان العرب، مادة (زكن).

(٢) الإربداد: الرُبْدَة لون يعيل إلى الغبرة والسواد. انظر: لسان العرب، مادة (ريد).

(٣) الكهوبة: غبرة مشربة سواداً. انظر: لسان العرب مادة (كهب).

(٤) التهوع: التقيؤ.

معدته نحو أربعين رطلاً ماء، فنظرت إذ ذاك إلى الطبقة الداخلية وقد امتدت حتى صارت له سطحاً مستوياً ليس بدون استواء الخارج، ثم شققته، فعندما اجتمعت عند خروج الماء منها عاد غضون الداخلية والتوت يشهد الله في جميع ذلك، لا يرسل نفسه.

وحدثني الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي قال: حدثني موفق الدين ابن أسعد بن إلياس ابن المطران قال: حدثني أبي عن خالي أبي الفرج بن حيان، قال: حدثني أبو الكرم الطبيب قال: كنت يوماً أساير الشيخ أبا الفرج البيرودي، إذ اعترضه رجل فقال: يا سيدي كنت في صناعتي هذه في الحمام، وحلقت رأسي، وأجد الآن في وجهي كله انتفاخاً وحرارة عظيمة. قال: فنظرنا إلى وجهه يربو ويتنفخ، وتزيد حرته بغير توقف ولا تدريج.

قال: فأمره أن يكشف رأسه ويلقي به الماء الجاري من قناة كانت بين يديه، وكان الزمان إذ ذاك صميم الشتاء، وغاية البرد، ثم لم يزل واقفاً حتى بلغ ما أراد مما أمر به، ثم أمر الرجل بالانصراف، وأشار إليه بالأوفق، وهو تلطيف التدبير واستعمال النقع الحامض مبرداً، وقطع الزفر، قال: فامتنع أن يحدث له شر ما.

وقال الطرطوشي^(١) في كتاب «سراج الملوك»: حدثني بعض الشاميين أن رجلاً خبازاً بينما هو يجبز في تنوره بدمشق، إذ عبر عليه رجل يبيع المشمش، فاشترى منه، وجعل يأكله بالخبز [الحار]^(٢)، فلما فرغ سقط مغشياً عليه، فنظروا فإذا هو ميت، فجعلوا يترصون به، ويحملون له الأطباء، فيلتمسون دلائله، ومواضع الحياة منه، فلم يجدوا،

(١) هو: أبو بكر محمد بن الوليد القرشي الأندلسي، ولد سنة (٤٥٠هـ)، وصحب أبا الوليد الباجي وأخذ عنه مسائل الخلاف، وقرأ الأدب على أبي محمد بن حزم، وتفقه على أبي بكر الشاشي، توفي سنة (٥٢٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/٤٩٦-٤٩٠)، الديباج المذهب (١/٢٧٦-٢٨٩)، مرآة الجنان (٣/٢٢٦، ٢٢٧)، شذرات الذهب (٤/٦٢-٦٤).

(٢) ساقط من الأصل، والمثبت من «ف».

فقصوا بموته، فغسل وكفن، وصُلِّي عليه وخرجوا به إلى الجبانة، فبينما هم في الطريق إلى باب البلد إذ استقبلهم رجل طيب يقال له: البيرودي، وكان طبيباً ماهراً حاذقاً، فاضلاً عارفاً بالطب، فسمع الناس يلهجون بقضيته، فقال: خطوه حتى أراه.

فوضعوه وجعل يقلبه، وينظر في أمارات الحياة التي يعرفها، ثم فتح فمه وسقاه شيئاً، أو قال: حقته، فاندفع هناك، فإذا الرجل قد فتح عينيه، وتكلم وعاد إلى حانوته كما كان.

وحدثني الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي عن موفق الدين أسعد بن إلياس ابن المطران قال: حدثني أبي قال: حدثني عبد الله بن رجاء بن يعقوب، قال: بلغني أن أبا الفرج جرجس بن يوحنا أن البيرودي لما توفي ظهر في تركته ثلاث مائة مقطع رومي، وخمس مائة قطعة فضة، ألطفها ثلاث مائة درهم.

قال موفق الدين ابن المطران: وليس ذلك بكثير؛ لأن الشخص متى تحققت أعماله، وصفت نيته، وطلب الحق، وعامل بالصحيح، واجتهد في معرفة صناعته، كان حقاً على الله أن يرزقه، ومتى كان بالضد عاش فقيراً، ومات بائساً^(١).

ومنهم:

٢١- ظافر بن جابر السكري، أبو الحكم^(٢)

حظيَّ كان معانده يتلظى، وحاسده يتشظى، نهض للطلب أول ما قام على ساق، وتم لهلاله اتساق، ولم يَمَلْ سعياً ولا أخل وعياً، ولا خلى زمانه سقياً له ورعياً، حتى شذا

(١) انظر: عيون الأنباء (٤/ ٣٤-٤٢).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/ ٤٣).

من كل علم يتعلمه منه طرفاً، وخلف من كان يتقدمه وراء القفا، فصفت مناهله، وصمت مباهله، ولم يستتم غصنه الورق، ولا اشتد مجلسه بالكلية وانتطق، حتى عد من العلامات، وتاكدت الأسباب له بالعلامات.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان مسلماً فاضلاً في الصناعة الطبية، متقناً للعلوم الحكيمة، متحلياً بالفضائل وعلم الأدب، محباً في الاشتغال والتطلع في العلوم، كان قد لقي أبا الفرج ابن الطيب ببغداد، واجتمع به واشتغل عليه ومعه، وكان ظافر بن جابر موجوداً في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، وهو موصل، وإننا انتقل من الموصل إلى مدينة حلب، وأقام بها إلى آخر عمره.

ومن شعره: [الكامل]

ما زلت أعلم أولاً في أول حتى علمت بأنني لا علم لي
ومن العجائب أن أكون جاهلاً من حيث كوني أنني لا أجهل^(١)

ومنهم:

٢٢-١ أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي^(٢)

أبو الحكم، وأخو الحكم.

علم الفضلاء، وعصم أهل الولاء، إلا أنه كان للأعداء سهاماً، وللإعداء هماماً، وكان كثيراً ما يهيج للمباهلة، ويهاجي ولا يخاف، ونسبه من باهلة.

أتى دمشق فرتع في جنانها، وغاص في غياض أفنانها، وبات قرى جفونها المراض

(١) انظر: عيون الأنباء (٤/٤٣).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/٥٤)، وفيات الأعيان (١/٣٤٤، ٣٤٥).

وجفانها، وآب إلى أندية سيادتها، فأناخ في ذلك الذرى واستطاب المناخ والقرى.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان فاضلاً في الحكمة والطب، معتنياً بالأدب، كثير المجون، محباً للشراب، فإذا طرب خرج في بابة^(١) الخيال، وكان يضرب بالعود، وله مدائح في آبق^(٢)، وبني الصوفي، كان يهاجي الشعراء، وفي هجائه يقول عرقلة^(٣): [السريع]

لنا طيب شاعبر أشتر أراحنا من شخصه الله
ما عاد في صبحه يوم فتى إلا وفي باقيه رثاه

ومن شعره قوله: [الوافر]

ألا يام من لصب مستهام
مُعْنَى لا يفيق من الغرام
وكيف يفيق محزون كئيب
أضر بجسمه طول السقام؟

وقوله: [المنسرح]

ويح المحبين ليت لا خلّفوا
ما برحوا في العذاب مذ عشقوا
ولا رجوا راحة ولا فرحاً
إلا وسدّ عليهم الطرق

(١) بابة: الغاية والمنهاج.

(٢) هو: أبو سعيد آبق بن محمد بن بوري بن ظهير الدين طغتكين، مجير الدين، صاحب دمشق، كان أتابك الملك دقاق بن تنش، وكان الملك نور الدين محمود قد حاصر دمشق وصاحبها مجير الدين، فنزل له عنها، فعوضه عنها نور الدين بمدينة حمص، ثم أخذها منه، وعوّضه عنها ببالس، وكانت وفاته سنة (٥٦٤هـ) ببغداد ودفن بداره. انظر: وفيات الأعيان (٥/ ١٨٤-١٨٨).

(٣) عرقلة: حسن بن عجل، أبو الندى الكلبي الدمشقي الشاعر الخليلي، (ت سنة ٥٦٧هـ). انظر: الوافي بالوفيات (١١/ ٢٨١-٢٨٤).

ومنه:

١٢٣- ابنه: أبو المجد بن أبي الحكم، أفضل الدولة^(١)

متقن لكل رياضي، ومعمن في كل سماء وأرضي، رمى كل أفق بنظره، وغلب كل شارق بنيره، وخلف وراءه الأقران، وألقى في ذروة السؤدد الجران^(٢).

والتفت إليه السلطان بوجه الإقبال، وحباه حتى أمن الإقلال، فتأخر نظراؤه، وتقدم إمامًا، ورد نوءهم وسحَّ غمامًا، وجدل ذوي الجدال إذ جد اهتمامًا.

قال ابن أبي أصيبعة: «من الحكماء المشهورين، والعلماء المذكورين، والأفاضل في الطب، والهندسة، والنجوم، والموسيقى، ويجيد الغناء والإيقاع، والزمر، وسائر الآلات، وعمل الأرغن، وبالغ في إتقانه، وكان العادل نور الدين محمود زنكي^(٣) يرى له ويحترمه، وجعل له الأمر في مارستانه بدمشق، وكان يقرأ عليه الطب في إيوان المارستان، وتقدم في زمانه».

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/ ٧١).

(٢) الجران: باطن العنق، وقيل: مقدم العنق من مذبج البعير إلى منحره، وقيل: الجران هي: جلدة

تضطرب على باطن العنق من ثغرة النحر إلى منتهى العنق في الرأس. انظر لسان العرب، مادة (جرن).

(٣) هو: الملك العادل أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آن سنقر التركي يلقب بنور الدين،

صاحب بلاد الشام، ولد في شهر شوال سنة (٥١١هـ)، وكان يخدم والده، فلما قتل والده عند فتحه

لجعبير سنة (٥٤١هـ) تولى إمارة بلاد الشام، وفتح حلب، وكان صلاح الدين الأيوبي يخدمه فأعطاه

وزارة مصر، وكان نور الدين محمود كثير الجهاد في سبيل الله، فتح كثيرًا من الحصون، وكان شجاعًا

فارسًا، بنى كثيرًا من المدارس في دمشق، وحماة وحمص وبلبك ومنبج والرحبة والموصل، وكانت

وفاته في شوال سنة (٥٦٩هـ) بقلعة دمشق. انظر: وفيات الأعيان (٥/ ١٨٤)، سير أعلام النبلاء

(٢٠/ ٥٣١)، شذرات الذهب (٤/ ٢٢٨).

ومنهـم:

١٢٤- [ابن البذوخ]^(١): أبو جعفر بن موسى بن علي القلعي

كان من أعلام أهل الفضائل، وأواخر من لحقه السلف من الأوائل، جنى يده الأدوية وركبها، وعرف مقادير رتبها ورتبها، إلى سوى هذا مما قضى. فيه أيام عمره، وذهب وقد أبقى للناس من ثمره، وكان كأنه ما مات، ولا أكلت أنواره الظلمات، ومضى وهذا أثره، وبقي ذباب السيف وهو أكثره.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان عارفاً بالأدوية المفردة والمركبة، وله حواشي على كتاب القانون، وله اعتناء بعلم الحديث، والشعر، وعمّر عمراً طويلاً، وضعف الحركة، ثم عمى في آخر عمره بهاء نزل في عينيه»^(٢).

ومنهـم:

١٢٥- حكيم الزمان، أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان

الغساني الجلياني^(٣)

حسنة من إحسان، وبقيّة من آل غسان، طلع من المغرب، وسمع منه المطرب، ولا عجب أن سمي حكيم الزمان، ولقط منه تنظيم، وتلقته الملوك واصطفته، وناصفته في مجالسها وأنصفته، ومذ أنس بفطنه لم يستوحش لوطنه، ولا ظهر عليه كشف البين، ولا عرف له في بشر إلا حسن أثر وعين.

(١) في الأصل: ابن الفرج، والمثبت من «ف» وهو يوافق ما ورد في عيون الأنباء.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٧٤/٤).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٧٧-٨٨/٤).

قال ابن أبي أصيبعة: كان علامة زمانه في الطب والكحل، بارعاً في الأدب والشعر، أتى من الأندلس إلى الشام، وأقام بدمشق، وعمرَ عمرًا طويلاً، وله في السلطان صلاح الدين مديح كثيرة، وصنّف له كتباً، وكان له منه الإحسان الجزيل، والإنعام الكثير.

ثم خدم بصناعة الكحل الملك الأشرف أبا الفتح [موسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب]^(١)، وتوفي بالرها سنة نيف وعشرين ومائة.

ومن شعره قوله: [الطويل]

على فرط شوقي تستقل الركائب	عن صون دمعي تستهل السحائب
وما البرق إلا من حنبني نابض	وما الرعد إلا من أنيني نادب
نأيتم فلا صبر من القلب حاضر	لدي ولا قلب عن الذكر غائب
فيا ليت شعري بعدنا من صحبتهم	فما بعدكم غير الهوى لي صاحب

وقوله: [البسيط]

قالوا نرى نفراً عند الملوك سموا	وما لهم همّة تسمو ولا وروا
قد يكرم القرد إعجاباً بخسته	وقد يهان لفرط النخوة السبع

(١) ما بين الحاصرتين في الأصل، «ف»: شاه أرمن، والمثبت من عيون الأنباء إذ عنه ينقل.

ومنهم:

٢٦- المهذب ابن النقاش^(١)

أبو الحسن علي بن عيسى بن هبة الله، طبيب لو أخذ عن جالينوس لأتاه العلم بمنصوصه، أو لزم ابن سيناء لأقبل عليه على خصوصه، أو سبق ابن عربي لاستبقى بقية من نقشه لفصوصه^(٢).

: وكان لا يقصر في طلب، ولا يقص النسر له جناحًا إذا طلع أو غرب، فلم يلم به ملل، ولا كان له في العلم أمل.

قال ابن أبي أصيبعة: كان مولده ومنشؤه ببغداد، وكان عالمًا بالعربية والأدب، وقرأ الطب على أمين الدولة ابن التلميذ، ولازمه مدة، واشتغل بعلم الحديث على ابن الحصين^(٣)، وحدث معه، وسمع منه القاضي عمر بن القرشي^(٤).

وقال الأصفهاني في الخريدة: أنشدني مهذب الدين ابن النقاش لوالده: [المتقارب]

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/ ٩٠)، الوافي بالوفيات (٢١/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٢) يقصد كتاب فصوص الحِكم لمحيي الدين بن عربي.

(٣) هو: أبو القاسم هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن الحصين الشيباني البغدادي، ولد في ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وأربعمئة، وسمع من ابن غيلان والحسن بن المقتدر والتنوخي، توفي في شوال سنة خمس وعشرين وخمسائة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٣٦-٥٣٩)، العبر في خبر من غير (٤/ ٦٦)، شذرات الذهب (٤/ ٧٧).

(٤) هو: أبو المحاسن عمر بن علي بن الخضر القرشي الزبيري الدمشقي القاضي، سمع من أبي الدرياقوت وطائفة بدمش، ومن أبي الوقت ببغداد، وصحب أبا النجيب السهروردي، توفي في ذي الحجة سنة خمس وسبعين وخمسائة. انظر: سير أعلام النبلاء (٣١/ ١٠٥، ١٠٦)، العبر (٤/ ٢٢٤)، شذرات الذهب (٤/ ٢٥٢).

إذا وجد الشيخ في نفسه نشاطاً فذلك موت خفي
ألست ترى أن ضوء السراج له لهب عندما ينطفئ؟

قال ابن أبي أصيبعة: «لما وصل المهذب ابن النقاش إلى دمشق، طبَّ بها، وكان له مجلس عام للمشتغلين عليه، ثم توجه إلى مصر، وأقام بالقاهرة مدة، ثم رجع إلى دمشق وخدم نور الدين بالطب، وكان له منه إحسان، وتوفي يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة أربع وسبعين وخمسة، ودفن بجبل قاسيون»^(١).

ومنهم:

١٢٧- سكرة اليهودي الحلبي^(٢)

حكيم فضائله غير منكورة، وطبيب حلا وصفه فقيـل سكره، وكانت له همم تواتيه، وله شمم ما خرج به من التيه، انقاد له الحظ وأتاه بأدنى فكرة ولفظ، وأنجبت له ذرية أسلموا بعده وسُلموا ولايات عدة، وذلك بعد أن رفع عليهم علم الإسلام، ودان لهم قلم الكتابة بسلام.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان له درية بالعلاج وتصرف في المداواة، حكى أنه كان لنور الدين بقلعة حلب حظية يميل إليها فمرضت مرضة أعيت على الأطباء، فأحضر إليها سكرة الحكيم فوجدها قليلة الأكل، متغيرة المواجه، فسألها عن جنسها؟ فأخبرته بأنها علانية، ثم سألها عما كانت تأكل في بلادهم؟ فقالت: لحم البقر، فسألها عما كانت تشرب؟ فقالت: الخمر.

(١) انظر: عيون الأنباء (٤/ ٩٠-٩٣).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/ ٩٥).

فقال لها: أبشري بالعافية، ثم ذهب فاشترى عجلاً وسلق من لحمه ثم عمل معه شيئاً من لبن وثوم وأخذ معه خمرًا وأتى به إليها، فأطعمها وأكلت منه بنهمة كبيرة، ثم سقاها، فطلبت النوم فنامت وغطيت بدثار فعرقت عرقاً كثيراً، وأصبحت في عافية، ولازمها بمثل ما عاجلها به حتى برئت، فبعثت إليه بصينية مملوءة من الحلبي ثم كتبت إلى نور الدين تعلمه بعجز الأطباء عنها وأن عافيتها كانت على يده، فلما قرأ الكتاب طلبه وعرفه بما قالت، ثم مناه فسأله عشرة أفدنة في قرأتي «صمع وعيدان» فكتبها له ملكاً، ثم عاد إلى حلب وكثرت أمواله، ولم يزل في نعمة طائلة هو وبنوه^(١).

ومنهم:

٢٨١- أسعد بن إلياس ابن المطران الموفق^(٢)

طبيب على نصرانيته وتدينه بدينه، قد تحلّى بمحاسن الشيم، وحل الغاية لولا الشمم، ودنا من الملوك مجلساً، وترك حاسده المضمونك مُبلساً، وأطالت النعم رياشه، ونقضت على فائض النوء رشاشه، وأثرى بالحضرة الصلاحية حتى ابتل عوده في الثرى، وشمخ هرم ماله إلى الذراء، وكان على هذا الوفرة والحظ الذي ما ذُهب بمثله سفر، يتجنى على السلطان والذنب ذنبه، ويتناوم عليه ولا يهدأ جنبه.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان للسلطان صلاح الدين - رحمه الله تعالى - فيه اعتقاد، وأسلم في أيامه، وكان يغلب على ابن المطران الكبرياء، حتى على الملوك، كان يعلم صلاح الدين ذلك منه.

حكى عنه من كان معه في بعض غزواته أن صلاح الدين كان ينصب له في أوقات حروبه خيمة حمراء، بدهيلز أحمر، وميضأة حمراء، فيينا هو راكب وإذا به قد نظر إلى خيمة

(١) انظر: عيون الأنباء (٤/ ٩٥-٩٧).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/ ١٣١-١٥١).

حمراء ظنّها خيمته، فسأل: لمن هي؟ فقيل له: لابن المطران الطيب. فضحك وقال: والله قد عرفت هذا من حماقته. ثم قال: ما بنا إلا أن يعبر أحد من الرسل، فيعتقد أنها خيمة أحد الملوك، وإذا كان لا بد فليغير ميضاتها.

فصعب هذا على ابن المطران، وبقي يومين لا يأتي الخدمة حتى ترضاه صلاح الدين، وأعطاه مالا.

وشكا أبو الفرج النطروي الطيب إلى صلاح الدين ضرره بنات له يريد تجهيزهن، فأمره أن يكتب ورقة بما يحتاج إليه، فكتب شيئا بنحو ثلاثين ألف درهم، فأمر له بما تضمنته ورقته، فبلغ ذلك ابن المطران، فقصر في الخدمة، وتبين لصلاح الدين هذا من تغير وجهه، فأمر بأن يحسب جملة ثمن ما اشترى به جهاز بنات أبي الفرج ويعطي ابن المطران نظيره.

وحكى المذهب عبد الرحيم بن علي أن أسد الدين شيركوه صاحب حمص طلب ابن المطران، قال: فتوجه وأنا معه، فبينما نحن في بعض الطريق، وإذا رجل مجذوم قد استقبله، وكان المرض قد قوي به حتى تغيرت خلقته، وتشوهت صورته، فاستوصف منه ما يتناوله، ويتداوى به، فبقي كالمتبرم به، ثم قال له: كُلْ لحوم الأفاعي، فعاوده، فقال: كُلْ لحوم الأفاعي، فلأنك تبرأ، يكررها عليه ثم مضينا إلى حمص، وأقمنا بها نعالج المريض الذي طلب لأجله، إلى أن صلح، ثم رجعنا، فلما كنا في الطريق وإذا شاب حسن الصورة، كامل الصحة، قد سلّم عليه، وقبّل يده، فقال له: من أنت؟ فقال له: أنا صاحب ذلك المرض الذي كنت شكوت إليك، وإنني استعملت ما وصفت لي، فصلحت من غير أن أحتاج معه إلى دواء آخر.

وتوفي ابن المطران في ربيع الأول سنة تسع وخمسمائة، بدمشق^(١).

ومنهم:

٢٩- ابن اللبودي: يحيى بن محمد بن عبدان بن عبد الواحد

الصاحب نجم الدين، أبو زكريا^(١)

مشيد بيت، ومحبي فضل غير ميت، وإلى الآن بقيته، وكان وما هانت بليته، وترقى إلى أن وزر، واتشح برداء الكبرياء واتزر، إلا أنه لدى ملك لم يفخر لديه خديم، ولا أثرى بندي يديه عديم، لضيق نطاقه، وعدم رواج الفضل عنده ونفاقه، لصغر بلده، وقلة ذات يده.

قال ابن أبي أصيبعة: أوحّد في الطب، قدوة في الحكم، مفرط الذكاء، فصيح اللفظ، شديد الحرص في العلوم، متقن في الآداب، فما يدانيه في شعره لبيد، ولا في ترسله عبد الحميد^(٢): [الطويل]

ولما رأيت الناس دون محله تيقنت أن الدهر للناس ناقد

مولده بحلب سنة سبع وستائة، وأتى دمشق وقرأ على المذهب عبد الرحيم، وخدم المنصور إبراهيم صاحب حمص، وكان يعتمد عليه، وأحواله تزداد لديه حتى استوزره، واعتمد عليه بكليته، فلما توفي المنصور بعد كسره الخوارزمية^(٣)، توجه إلى الخدمة الصالحية النجمية بمصر، فأكرم وجعل له كل شهر ثلاثة آلاف درهم، وبقي على

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/١٦٥).

(٢) هو: عبد الحميد يحيى بن سعد، أبو يحيى الكاتب مولى عامر بن لؤي، وكان كاتباً لمرwan بن محمد بن مروان بن الحكم، قتله السفاح سنة اثنتين وثلاثين ومائة. انظر: وفيات الأعيان (٣/٢٢٨-٢٣٢)، تاريخ دمشق (٣٤/٩٢-٩٥)، سير أعلام النبلاء (٥/٤٦٢، ٤٦٣)، الوافي بالوفيات (١٨/٥٢، ٥٣).

(٣) يقصد الدولة الخوارزمية.

ذلك مدة، ثم وجهه إلى الشام ناظرًا على الديوان، بجميع الممالك الشامية، وله نشر، منه قوله: وقف الخادم على المشرفة الكريمة أدام الله نعمة المنعم بما أودعها من النعم الجسام، واقتضته من الاريجية التي أرى فيها على كل من تقدمه من الكرام، وأبان فيها عما يقضي على الخادم بالاسترقاق، وللدولة -خلدها الله تعالى- بمزايا الاستحقاق، وكلما أشار المولى إليه هو كما نص عليه، لكنه يعلم بسعادته أن الفرص تمر مر السحاب، [وأن الأمور المعينة في الأوقات المحدودة تحتاج إلى تلافي الأسباب]^(١)، وقد ضاق الوقت بحيث لا يحتمل التأخير، والمولى يعلم أن المصلحة تقديم النظر في هذا المهم على جميع أنواع التدبير. وما الخادم مع المولى في هذا إلا كسهم: والمولى مسدده، والسيف: والمولى مجرده، فالله الله في العجلة، والبدار البدار، فقد ظهرت مخايل السعادة والانتصار، والحذر الحذر من التأخير والإهمال، فيفوت -والعياذ بالله- الأوقات التي ترجو فيها بلوغ الآمال، والمستول من كرم الله تعالى أن ينهض المملوك في خدمة السلطان بما يبيض وجه أمله، ويكون ذلك على يد المولى وبقوله وعمله.

ومن شعره قوله يمدح سيدنا الخليل -على نبينا وعليه الصلاة والسلام-:

[الكامل]

هذي المهابة الجلال الهائل	بهراً فماذا أن يقسول القائل
وبك اقتدى جُلّ النبيين الألى	ولديك أضحت حجة ودلائل
أظهرت إبراهيم أعلام الهدى	والخير والمعروف جودك عامل
شيدت أركان الشريعة معلناً	ومقررًا أن الإله النافع
ما زلت تنقل للنبوّة سرها	حتى غدا بمحمد هو واصل
وقد التجأت إلى جنابك خاضعاً	متوسلاً وأنا الفقير السائل

(١) ساقط من الأصل، «ف»، والإضافة من عيون الأنباء لمناسبة السياق.

ومنهم:

١٣٠- الرضي الرحبي

يوسف بن حيدرة بن الحسن أبو الحجاج^(١)

حكيم لو استجارت به الأرواح لكلاها، أو أملى المسامع لملاها، كم شكيت إليه الأسقام فأبرأها، وتوالت الأيام قرَدَ أجرأها، مذ وكلت به رعاية الأبدان حرست، ومذ أترست به الأعضاء رأست، شد البناء وشد الأبناء، فقامت به الأجسام، وكانت تن له سقمًا، وتدافع ضعفًا، فتح لها فمه ملتقمًا، فتمت به محاسن الوجوه الوسام، وترضى الأرواح للأجسام، فخص بالحباء وزيادة الاحباء، فأقبل المال يتدفق عليه تدفق السيل، ويفيض عنده على الميزان والكيل.

قال ابن أبي أصيبعة فيه: «من الأكابر في صناعة الطب، والمتقدمين من أهلها، وله الذكر الشائع، ولم يزل مبعلاً عند الملوك، وكان عالي الهمة كبير النفس، كثير التحقيق، شديد الاجتهاد في مداواة المرضى، ما عرف منه أنه أذى أحدًا، ولا تكلم فيه بسوء، وكان لابنه نظر في الطب، إلا أن صناعة الكحل كانت أغلب عليه، وبها عرف، وولد ابنه الرضي بالجزيرة في جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، ونشأ بها، وأقام بنصيبين، ثم الرحبة^(٢)، ثم سافر إلى بغداد وغيرها، واشتغل في علم الطب، وتميز فيه، ثم أتى مصر واجتمع بالمرقى بن جميع المصري، وانتفع به، وكان قدومه دمشق في الأيام النورية، فرأى ابن النقاش وأخذ عنه، ولزمه، فنوّه بذكره، وقدر له بالثول الحضرة الصلاحية، فحسن

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/١٨٨-١٩٥).

(٢) الرحبة: اسم أطلق على العديد من المناطق في الجزيرة العربية منها: الرحبة، قرية بالقادسية على مرحلة من الكوفة، والرحبة ناحية بين المدينة والشام، ورحبة خالد بدمشق، ورحبة خنيس بالكوفة، ورحبة دمشق، ورحبة صنعاء، ورحبة مالك بن طوق بالقرب من دمشق، ورحبة الهدار باليامة، ورحبة يعقوب ببغداد. انظر: معجم البلدان (٣/٣٧-٤٠).

موقعه إليها، ورثب في المارستان النوري، وأطلق له أدرار سلطاني، ودام على أيام المعظم، وأشغل خلقًا كثيرًا صاروا شيوخ إقراء، حتى كان لو اعتبر أطباء الشام لم يوجد منهم إلا من قرأ عليه أو على من قرأ عليه، ومن قرأ عليه المهذب: عبد الرحيم بن علي، وكان لا يرى أن يقرئ ذميًّا ولا عادم أهلية.

وكان يلزم في طبه قوانين حفظ الصحة الموجودة، وكان يتوقى صعود السلام، ويقول: السلم منشار العمر^(١).

ومن نوادره في طبه: أن ابن مرزوق ذكر أن صاحب ابن شكر كان يلزم أكل الدجاج، فلحقه شحوب، فشكاه إلى الأطباء، فوصفوا له أنواعًا من الأشربة وغيرها، فلما شكا إلى الرحبي قال: يحضر الجواب، ثم نهض فأحضر له قطعة من صدر دجاجة، وقطعة حمراء من لحم ضأن، ثم قال له: أنت تلازم أكل لحم الدجاج، فلا يأتي الدم المتولد منه إلا شبيهه، ولو أكلت من لحم الضأن لأنى الدم المتولد منه يشبهه، فاترك لحم الدجاج، ولازم لحم الضأن، وما تحتاج إلى علاج. ففعل ذلك، فزال شحوبه، وصلاح لونه^(٢).

وتوفي يوم عاشوراء سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ودفن بقاسيون.

(١) الحقيقة أن هذه معلومة طبية غير صحيحة؛ لأن بعض الأطباء ينصحون -حتى- مرضى القلب بصعود درجات السلم.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٤/ ١٩٠-١٩٤).

ومنهم ابنه:

٣١- الشرف علي شرف الدين أبو الحسن^(١)

حكيم أئنع في جرثومة الطب عذقه^(٢)، وصح في نظر المستطب حذقه، لم تحط تجاربه، ولم تحف مآربه، أحسن طبه علاج الأمراض، وقوم مزاج الأعراض، وعرف منه ما لم يخف على أحد، ولا عرف أن أحدا له جحد، وكان طبه شافيا للأسقام، وكان كافيا في الداء العقام، ولم تمس يده مريضا إلا مسح بيده سقمه، وسله من فم دائه الذي التقمه، وكان لهذا يرغب في تطيبه، ويرى من استطب غيره سقامه من طبيبه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): سلك حذو أبيه، واقتفى ما كان يقتفيه، وأشبهه خلقا وخلقا وطريقة وحذا، ولم يزل منذ نشأ متوفرا على قراءة الكتب وتحصيلها، نفسه تشرب إلى طلب الفضائل وتفصيلها.

قرأ على أبيه، وعلى الموفق عبد اللطيف البغدادي، وأخذ عن السخاوي وغيره، وأجاد إتقان الأدب، وكان يحب التخلي للقراءة والدرس، والاطلاع على آثار القدماء، والانتفاع بتصانيف الحكماء^(٤).

ولد بدمشق سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

(١) انظر: ترجمته في الوافي بالوفيات (٢٢/٣٥١).

(٢) العذق: كل غصن له شعب. انظر: لسان العرب، مادة (عذق).

(٣) انظر: عيون الأنباء (٣/١٩٦-١٩٨).

(٤) ذكر ابن أبي أصيبعة أن لشرف الدين من الكتب: كتاب في خلق الإنسان وهيئة أعضائه ومنفعتاتها، حواشي على كتاب القانون لابن سينا، حواشي على شرح «ابن أبي صادق» لمسائل «حنين بن إسحاق».

وحكي أنه قبل مرض موته بمدة كان يخبر أنه بعد قليل يموت، ويقول: وذلك عند قران الكوكبين، ثم يقول: قولوا هذا للناس حتى يعرفوا مقدار علمي في حياتي، وفي وقت موتي، فكان كما قال.

وتوفي بذات الجنب، حادي عشر المحرم، سنة سبع وستين وست مائة، ودفن بقاسيون.

ومن شعره قوله: [الطويل]

سهم المنايا في السورى ليس تمنع
فقل للذي قد عاش بعد قرينه
فتباً لدنيا ما تزال تعلننا
أفتق وانظر الدنيا بعين بصيرة
فكلّ له يومًا - وإن عاش - مصرعُ
إلى مثلها عما قليل ستدفع
أفأويق كأس مرة ليس تقنع
تجد كل ما فيها ودائع رَجْعُ

وقوله: [الطويل]

تساق بنو الدنيا إلى الحتف سرعة
كأنهم الأنعام في جهل بعضها
ولا يشعر الباقي بحالة من يمضي
بما تم من سفك الدماء على بعض
ومنهم:

١٣٢- عمران الإسرائيلي^(١)

واسم أبيه: صدقة ويُلقب بالأوحد.

حكيم حكم له على نظرائه، وحتم بصواب آرائه، لنظر كان له أثقب من نظر

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/ ٢٥٥).

الغراب، وأحدَّ من السيف عند الضراب، حتى ظهر ظهور الشمس، واشتهر اشتهاً ما كان في أمس، فاستدعته الملوك إلى مجالسها، وأدنته إدناء مجالسها، فأخذ منها بحظ أزلف له الغدق^(١)، وأشرف له على أبعد مشترف، وقدمه لديهم لفضل طار به محلّقاً، وأطال باعه محققاً، وعُرف بحسن التدريب، وصحة التجريب، فأجزلت له الجوائز حتى كان يأخذها آلافاً، ويعجل لها إتلافاً وإخلاقاً، وهلك بعد السرف، وكثرة ما صرف، وأمواله قد زادت على القياس، واقيت الجبال شدّاً على الأكياس.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): «كان أبوه طبيباً مشهوراً، واشتغل هو على الرضي الرحي، وتميز في الطب، وحظي عند الملوك، واعتمدوا عليه في المداواة والمعالجة، ونال من جتهم الأموال الجسيمة والنعم ما يفوق الوصف، وحصل من الكتب الطبية وغيرها ما لا يكاد يوجد عند غيره، ولم يخدم عند أحد من الملوك في الصحة، ولا تقيد معهم في سفر، وإنما كان كل منهم إذا عرض له مرض أو لم يعز عليه طلبه، ولم يزل يعالجه ويطيبه بالطف علاجاً وأحسن تدبير إلى أن يفرغ من مداواته، ولقد حرص الملك العادل أبو بكر بن أيوب بأن يستخدمه في الصحة فأبى، وكذلك غيره من الملوك.

وحدثني^(٣) الأمير صارم الدين التبنيني - رحمه الله -: أنه لما كان بالكرك وصاحبه الملك الناصر داود بن الملك المعظم، وكان الملك الناصر قد توعك مزاجه، واستدعى الحكيم عمران إليه من دمشق، فأقام عنده مُدبّدة، وعالجه، حتى صلح، فخلع عليه، ووهب له ما لا كثيراً، ورتب له جامكية في كل شهر ألف وخمسة درهم ناصرية، ويكون في خدمته، وأن يسلف منها عن سنة ونصف: سبعة وعشرين ألف درهم.

(١) الغدق: القوم في غداً من معيشتهم؛ أي في نعمة وسعة، واغتدق فلان من فلانة اغتداقاً: إذا أخذ منه شيئاً كثيراً. [لسان العرب: مادة غدق].

(٢) انظر: عيون الأنباء (٤/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٣) المتحدث هو ابن أبي أصيبعة (٤/ ٢٥٥).

أقول^(١): وكان السلطان الملك العادل لا يزال يصله بالإنعام الكثير، وله منه الجامكية الوافرة، والجراية، وهو مقيم بدمشق، ويتردد إلى خدمة الدور السلطانية، والقلعة، وكذلك في أيام الملك المعظم، وكان قد أطلق له أيضا جامكية وجراية تصل إليه، ويتردد إلى البيمارستان الكبير، ويعالج المرضى به، وكان قد أطلق له أيضًا في ذلك الوقت شيخنا مهذب الدين عبد الرحيم بن علي - رحمه الله - وكان يظهر من اجتماعهما كل فضيلة، وتهيأ للمرضى من المداواة كل خير، وكنت في ذلك الوقت أتدرب معها في أعمال الطب، ولقد رأيت من حسن تأتي عمران في المعالجة وتحقيقه للأمراض ما يتعجب منه، ومن ذلك: أنه كان يومًا قد أتى إلى البيمارستان وبه مفلوج^(٢)، والاطباء قد ألحوا عليه باستعمال المغالي وغيرها من صفاتهم، فلما رآه وصف له في ذلك اليوم تديرًا يستعمله، ثم بعد ذلك أمر بفصده، ولما فصد، وعالجه، صلح وبرئ برءًا تامًا، وكذلك رأيت له أشياء كثيرة من صفات مزاوير، وألوان كان يصفها للمرضى على سبيل شهواتهم، ولا يخرج عن مقتضى المداواة، فينتفعون بها، وهذا باب عظيم في العلاج، ورأيت أيضًا وقد عالج أمراضًا كثيرة مزمنة، كان أصحابها قد سئموا الحياة، ويشس الأطباء من برئهم، فبرءوا على يديه بأدوية غريبة يصفها ومعالجات بديعة قد عرفها، وقد ذكرت من ذلك جملًا في كتاب التجارب والفوائد^(٣).

توفي الحكيم المذكور في مدينة حمص، في جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وست مائة، وقد استدعاه صاحبها لمداواته.

(١) لا زال الحديث والقول لابن أبي أصيبعة (٤/٢٥٤).

(٢) مفلوج: الفلج: الشلل.

(٣) انظر: عيون الأنباء (٤/٢٥٦).

ومنهم:

١٣٣- يعقوب بن صقلاب النصراني^(١)

حكيم أطاح طبه رداء السبقم، وأطار عن الأعضاء لوثة السأم، فقامت به الأجسام كأنها نشطت من عقال، أو حودثت بعد صدأ الأسقام بصقال، فحظي عند الملوك حظوة زادت في أنسه، وقضى بها يعقوبه حاجة كانت في نفسه، هذا إلى علم بصناعة الطب، حفظت له فيه دروس، ونشأت له به غروس، وكان كأنها خلق من طينة أفلاطون، وجالس جالينوس، حتى اخترمته المنون.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): كان أعلم أهل زمانه بكتب جالينوس ومعرفتها، دائم الاستحضار لها، كأنها مصورة بين عينيه، لا ينقل إلا عنه، وكان يشرح كتب أبقرات، ويورد نص ما قاله جالينوس في شرحه، وكان يجتمع هو والمهذب عبد الرحيم بدمشق بدار السلطان، ويجري بينهما مباحث، وكان المهذب أفصح عبارة، وأقوى براعة، واحسن بحثًا، وابن صقلاب أكثر سكينه، وأبين قولًا، وأوسع نقلًا.

وكان في معالجاته غاية في الجودة والنجح؛ لأنه كان لا يداوي حتى يجيد تحقيق المرض، وكان المعظم يشكر هذا من فعله، ويصفه به، ويقول: لو لم يكن في الحكيم يعقوب إلا استقصاء الأمراض ليعالجها على الصواب ولا يشتبه عليه شيء من أمرها لكفاه.

وكان متقنًا للسان الرومي، ونقل كتاب «حيلة البرء» وغير ذلك من كتب جالينوس، منها إلى العربي.

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/٢٥٦-٢٦١).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٤/٢٥٦).

قال: كان مولده بالقدس، وأخذ الطبيعي والهندسة والحساب والنجوم عن فيلسوف كان قد ترهب بها في دير السيق. قال: وكانت له في النجامة^(١) أحكام صحيحة، وإنذارات عجيبة، وعلت مكانته عند المعظم حتى أراد أن يولييه بعض تدبير دولته، فامتنع، وكان قد عرض له نقرس في رجليه، فكان المعظم إذا سافر أخذه معه في محفة. وقال له يوماً: يا حكيم، لم لا تداوي هذا المرض الذي في رجليك؟ فقال له: الخشب إذا سوس ما يبقى في إصلاحه حيلة. وأدرك الناصر داود بعد أبيه.

وولد بدمشق سنة إحدى وستين وخمسمائة، وتوفي بها يوم فصح النصارى سنة خمس وعشرين وستمائة.

ومنهم:

١٣٤- رشيد الدين الصوري

أبو المنصور بن أبي الفضل بن علي^(٢)

رجل تهادته الملوك، وهادته الأيام لحسن السلوك، وكان الحظ معه حيثما خيم، والسعد قرينه أينما يمم، وهو من بيت تعدد معه رجال، وتمتع الدهر بهم إلى آجال، وطالما زهت بهم الأيام الخوالي، وحسنت بهم الليالي الحوالي، وكان هو آخرهم، الذي كان لمسكهم ختاماً، وضرب لهم حول قباب الجوزاء خياماً.

قال ابن أبي أصيبعة^(٣): اشتمل على جملة من الصناعة الطبية، واطلع على محاسنها الجليلة والخفية، وكان فريداً في الأدوية المفردة ومآهياتها، واختلاف أسماؤها وصفاتها،

(١) النجامة: يقصد أحكام النجوم.

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/٢٦٣).

(٣) انظر: عيون الأنباء (٤/٢٦٣).

وتحقيق خواصها وتأثيراتها، اشتغل على عبد اللطيف البغدادي بالقدس سنتين، وصحب الجياني، وكان عارفاً بالأدوية المفردة، فانتفع به، واشتغل بها مع ما هو عليه من المروءة التي لا مزيد عليها، والعصية التي لم يسبق إليها، والمعرفة المذكورة، والشجاعة المشهورة، وخدم بالطب: العادل، ثم صار إلى المعظم، وحضر معه دمياط^(١)، ثم صار إلى الناصر داود، فلما توجه إلى الكرك أقام الرشيد بدمشق، وكان يشتغل بها.

ولأبي نصر المذهب الحلبي^(٢) فيه مديح، منه: [الطويل]

سرى طيفها والكاشحون^(٣) هجود فبات قـريـباً والمزار بعيد
وتالله ما عاد الخيال وإنما تخيله الأفكار لي فيعود
فيا لائمي كف الملام ولا تزد فما فوق وجدي والغرام مزيد
ألا في سبيل الحب من مات صوبة ومن قتلته الغيد فهو شهيد
ولم تر عيني مثل أسماء حلة تضن بوصلسي والخيال يجود
وبت وجنح الليل مرخ سدوله أضـم غصون البان وهي تذود

(١) مدينة كبيرة قديمة بمصر على نهر النيل بالقرب من البحر الأبيض المتوسط، وكانت من كبرى ثغور مصر من ناحية الشمال، وقد فتحها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقد تعرضت لكثير من هجمات الفرنجة على مصر؛ منها هجوم النصارى عليها سنة (٢٣٨هـ) في ولاية عنبسة بن إسحاق الضبي وسبوا منها النساء والأطفال، وقتلوا الرجال، وهربوا منها سريعاً، فأمر المتوكل العباسي ببناء حصن كبير حولها، كما هاجمها الفرنجة سنة (٦١٥هـ)، ولكنهم هزموا هزيمة منكرة أمام المماليك في المتصورة. انظر: معجم البلدان (٢/٥٣٧).

(٢) هو: محمد بن محمد بن إبراهيم بن الخضر، أبو نصر الحلبي الحاسب، ويعرف بالسطيل، ولد بحلب سنة ثمانين وخمسائة، وكان فاضلاً أدبياً له تأليف مفيدة، وصنف زيجاً ومقدمة في الحساب، توفي في صرخد في ذي الحجة سنة خمس وخمسين وستمائة. انظر: الوافي بالوفيات (١/١٤٧).

(٣) الكاشحون: جمع كاشح، والكاشح هو الذي يُضمر لك العداوة، يقال: كشح له بالعداوة من باب قطع. مختار الصحاح، مادة (كَشَحَ).

إلى أن تبدى الصبح غير مذمم. وزال ظلام الليل وهو حميد
وكيف أذم الصبح أو لا أوده وإن ريس مودود به وودود
وكل صباح فيه للعين حظوة بوجه رشيد الدين وهو سعيد
فقل لبني الصوري قد سدتم الوري وما الناس إلا سيد ومسود
وما حزنتم إرث العلاء عن كلاله كذلك آباء لكم وجسدود
ومن بأبي المنصور أصبح لائذا فقد قاربت به بالنجاح سعدود
فيا كعبة الآمال يا ديمة^(١) الندى ويا من به روض الرجاء مجود
ومن عنده يوم السباحة حاتم كما عند مدحي في علاه عبيد
أياديك عندي لا أقوم بشكرها فما فوق ما أولت يداك مزيد

ولد سنة ثلاثة وتسعين وخمسة بصر، ونشأ بها، وتوفي بدمشق يوم الأحد غرة
رجب سنة تسع وثلاثين [وستائة]^(٢).

ومنهم:

٣٥-١- سديد الدين بن رقيقة، أبو الثناء

محمود بن عمر بن محمد بن إبراهيم، ابن شجاع الحانوي^(٣)

طبيب كان كالنسيم في لطف العلاج، وال صباح الوسيم عند الانبلاج، وكان لا
يبارى في خفة يد، ولعب أنامل في جد، مع ما تقدم له مما تقدم به في ذوي الحظوظ،

(١) الديمة: المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق، أقله ثلث النهار أو ثلث الليل، وأكثره ما بلغ من العدة،
والجمع: دُيم. مختار الصحاح مادة (ديم).

(٢) في الأصل، «ف»: وخمسة، وهو خطأ، والمثبت من عيون الأنباء وهو الصحيح.

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء، (٤/ ٢٧١).

وعرف أنه يعين الحظ محظوظ، فما قاوى جدول تياره، ولا طاولت الحباحب ناره، وكان يستحق هذا من أيامه الزاهية، وفي زمانه وعطايا إنعامه الواهبة.

ذكره ابن أبي أصيبعة فقال: ذو النفس الفاضلة، والمروءة الكاملة، جمع من الطب ما فاق به أقوال المتقدمين، وتميز على جميع نظرائه من الحكماء والمتطبيين، هذا مع الفطرة الفائقة، والألفاظ الرائقة، والنظم البليغ، والترسل البديع، ولازم ابن عبد السلام المارديني، وأخذ عنه الطب والحكمة، وكانت لابن رقيقة يد طولى في الكحل والجراح، وعمل الحديد، وداوى أمراض العين، وقذح الماء النازل، وأنجب عمله، كان المقدح الذي له مجوفاً، وله عطفة ليتمكن وقت القذح من امتصاص الماء، ويكون العلاج به أبلغ.

واشتغل بعلم النجوم، ونظر في حيل بني موسى^(١)، وعمل فيها أشياء مستظرفة.

ولد الحانوي سنة أربع وستين وخمس مائة، وعالج صاحبها الأرمني^(٢) من مرض في عينيه، فرأى سريعاً، وكان إذ ذاك دون العشرين، فاستخدمه عنده، ثم خدّم المنصور صاحب «حماء» مدة، ثم سافر إلى «خلاط»^(٣)، وكان صاحبها الأوحّد أيوب ابن العادل، فخدمه، وخدم صهره صلاح الدين ابن يا غيسان، وكان زوج ابنة الأوحّد، وكانت بنت الأوحّد محسنة إليه، ثم خدم بعده الأشرف ملكشاه أرمني، ثم أتى إليه إلى دمشق، فأكرمه، واستخدمه للحرم، وفي البيمارستان، ولم يزل بها إلى أن توفي سنة خمس وثلاثين وست مائة.

(١) أبناء موسى بن شاكر، هم: أحمد، ومحمد، والحسن، كان الغالب عليهم علم الهندسة، والحيل في جر الأثقال والموسيقى والنجوم، ولهم في الحيل كتاب عجيب.

(٢) هو نور الدين بن جمال الدين الأرمني.

(٣) هي: بلدة عامرة شهيرة من أعمال أرمينية وقصبتها، تقع في الإقليم الخامس، كثيرة الفاكهة، غزيرة المياه، باردة في الشتاء، وكان عياض بن غنم قد فتحها في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. انظر:

معجم البلدان (٢/ ٤٣٥).

وله شعر منه: [الكامل]

يا ملبسي بالنطق ثوب كرامة
خذني إذا أجلي تناهى وانقضى
فقد اجتويت ثوأي ثم ومن يكن
دار يغادر بؤسها وشقاءها
لا ترتضى الدنيا الدنية موطنًا
فتشاهدي ما ليس يدرك كنهه
وتجاوري الأبرار في مستوطن
يأبى المغرور شبت ولم تعد
لا تحسبن الشيب فيك لعله
لكن شبابك كان شيطانًا ومن
والشيب إشراق الحجا وضياؤه
يا جابر العظم الكسير وغافر
مالي إليك وسيلة وذريعة

وقوله: [الخفيف]

لا تكن ناظرًا إلى قائل القو
وخذ القول حين تلقيه معقو
فنباح الكلاب مع خسة فيها
وكذاك النضار معدنه الأر

ومكملني جودًا به ومقومي
عمري على خط إليك مقوم
دار الغرور له محلاً يسأم
من حلها وكأنه لم ينعم
تعلي على رتب السواري الأنجم
بالفكر أو يتوهم المتوهم
لا دائر البقيا^(١) ولا متهدم
عما لهجت به ولم تتندم
عرضت ولا لتلج في البلغم
يك ماردًا بالشهب حقًا يرجم
فأهن هواك وإن شيبك بكرم
الجرم الكبير لكل عبد مجرم
أنجوها إلا اعتقاد المسلم

ل بل انظر إليه ماذا يقول
لأولوقاله غيبي جهول
على منزل الكريم دليل
ض ولكنه الخطير الجليل

(١) في عيون الأنباء: أبدًا.

ومنههم:

٣٦- صدقة السامري: صدقة بن منجا بن صدقة^(١)

رأس حكمة وأدب، وحلف همه لم يقصر في دأب، لم يلف مثله سامرياً، ولا مضطلعاً سام رياً، ورد على الغمام حياضها، وراد في جنبات المجرة رياضها، طالما سهر الليالي الطوال، وأكثر في طلب العلم السؤال، إلى أن جمع على الفضائل رذنه، واتخذ كرم الفعائل خدنه، إلا أنه لم ينزع حب دينه، ولا جفا ما جف في طينه.

قال ابن أبي أصيبعة فيه: من الأكابر في صناعة الطب، المميزين من أهلها، والأماثل من أربابها، وافر العلم، جيد الفهم، قويّاً في الفلسفة، وكان يدرس في الطب وله فيه وفي الحكمة تصانيف، وخدم الأشرف شاه أرمن، وكان يحترمه غاية الاحترام، ويكرمه كل الإكرام، ويعتمد عليه، وتوفي بحرّان فيما ينيف على سنة عشرين وستمائة، وخلف مالا جزيلاً، ولم يخلف ولداً.

ومن كلامه قوله: «الصوم منع البدن من الغذاء، وكف الحواس عن الخطاء، والجوارح عن الآثام، وهو كف الجميع عما يلهي عن ذكر الله».

وقال: «[اعلم أن جميع الطاعات ترى إلا الصوم لا يراه إلا الله، فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرد]^(٢)، وللصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وهو كف البطن والفرج، وصوم الخصوص، وهو كف السمع والبصر واللسان، وصوم خصوص الخصوص، فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنياوية».

(١) انظر: ترجمته في الوافي بالوفيات (١٤/١٧)، عيون الأنباء (٤/٢٩٦).

(٢) ساقط من الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء.

وقوله: «ما كان من الرطوبات الخارجة من الباطن ليس مستحيلاً ولا له مقر فهو ظاهر، كالدمع والعرق، واللعب، والمخاط، وأما ما له مقر وهو مستحيل فهو نجس كالبول، والروث».

ومن شعره قوله: [خلع البسيط]

يا وارثاً عن أب وجد	فضيلة الطب والسداد
وضامناً رد كل روح	همت عن الجسم بالبعاد
اقسم لو كان طب دهرًا	لعاد كوثاً بلا فساد ^(١)

وقوله: [السريع]

مهندس في طول أيامه	مع قصره يتلغ السارية
مثلث يدعمه قائم	لأنه منفرج الزاوية

ومنهم:

١٣٧- المذهب يوسف بن أبي سعيد بن خلف السامري^(٢)

سامري لم يخفر ذمته، ولم تقصر في طلب العليا همته، حتى داني الغاية على قلة ناصريه، وكثرة حُساده في معاصريه، ولم تزل العداوة تشب اللهب، وتجلل الرماد الذهب، فألصقت به العيوب، وخرقت إليه أستار الغيوب، ولم تزل تزعزعه العواصف إلى أن زحزح، وتكشف غماره حتى صحصح.

قال ابن أبي أصيبعة: أتقن الطب والحكمة، واشتغل بعلم الأدب، وبلغ في

(١) هذه من مبالغات الشعراء التي ظاهرها الكفر، فالكون والفساد شيان متلازمان.

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/ ٣٠٢).

الفضائل أعلى الرتب، وكان كثير الإحسان، غزير الامتنان، فاضل النفس، صائب الخدس، قرأ في الخدمة الصلاحية، على شمس الحكماء إبراهيم السامري، وعلى اسماعيل بن أبي الوقار الطيب، وعلى أبي اليمن الكندي، والمهذب ابن النقاش، وتميز في الطب، واشتهر بحسن العلاج، وعالج ست الشام^(١) بنت أيوب من دوسنطاريا كبدية، بالكافور القيصوري^(٢)، بحليب بزر بقله محمصة، وشراب رمان، وصندل فسارعهما الدم، ثم لطفها حتى برأت.

وخدم فرخشا^(٣) بن أيوب، ثم خدم ابنه الملك الأحمـد، وأقام عنده يعلبك، وحظي عنده، وكان يستشير به ويعتمد عليه ثم اسنوزره، وحصل بسببه الأموال.

وقال فيه فتيان^(٤): [المنسرح]

(١) هي: ست الشام بنت أيوب بن شاذي، أخت السلاطين، وعمـة أولادهم، كان لها من الملوك والمحارم ٣٥ ملكاً، وكانت زوجة لابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، وكانت كثيرة الصدقة والإحسان والبر على الفقراء والمساكين، وتعمل في دارها كل سنة أدوية وأشربة وعقاقير، تفرقها على الناس، وهي واقفة المدرسة الشامية البرانية والشامية الجوانية، وكانت وفاتها آخر نهار ٢٦ من شهر ذي القعدة سنة (٦١٦هـ). انظر: الدارس في تاريخ المدارس للدمشقي (١/٢٧٧)، سير أعلام النبلاء (٢٢/٧٨)، شذرات الذهب (٥/٦٧).

(٢) القيصوري: صنف من أصناف الكافور ينسب إلى قيصور.

(٣) هو: الملك أبو سعيد فروخشا بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، الملك المنصور ابن أخي صلاح الدين صاحب بعلبك، كان عمه صلاح الدين قد جعله في دمشق عند عودته إلى مصر، فقام بضبط وإصلاح الأحوال بها، وكان نبيلاً شريفاً جليل القدر، وكانت وفاته في آخر شهر جمادى الأولى سنة (٥٧٨هـ) بدمشق. انظر: وفيات الأعيان (٢/٤٥٢)، سير أعلام النبلاء (٢١/٨٩).

(٤) هو: الأديب الأوحـد، شاعر دمشق شهاب الدين فتـيان بن علي بن فتـيان الدمشقي الشاغوري، أحدث عن أبي القاسم بن عساكر، مات في المحرم سنة خمس عشرة وستائة. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/١٤٣، ١٤٤).

الملك الأجد الذي شهدته له جميع الملوك بالفضل
أصبح في السامري معتقداً ما اعتقد السامري في العجل

قال ابن أبي أصيبعة: «ولم يزل المذهب على علو منزلته حتى كثرت الشكاوى من أقاربه السامرة، وما كثر منهم من العسف والظلم وأكل الأموال وإفساد الحريم، ولامت الملوك الملك الأجد عليه، فقبضه وقبض على أقاربه، واستصفى منهم أموالاً كثيرة، واعتقله ثم أطلقه، فأتى دمشق وأقام بها في داره.

ومن شعره قوله:

إن ساءني الدهر يوماً فإنه سردهرا
وإن دهانني بمال فقد تعوضت أجرا
الله أغنى وأقنى والحمد لله شكراً^(١)

ومنهم:

١٣٨ - أمين الدولة، أبو الحسن بن غزال بن أبي سعد السامري^(٢)

وزير الصالح إسماعيل، كان سامرياً وأسلم ولُقّب كمال الدين، وكان المذهب السامري عمه، وكان لا يطمع في معاضلته ولا يقدر على مناضلته، إلا أنه قتل نفسه بحمقه، وتبرد بالنار من حرقة، ولم يزل منذ أخذ في الطلب يترقى ويبرز بين المعامل ولا يتوقى حتى تسنم ذرى الوزارة، وغلط طيفها في غفلة الحلم وزاره، فتصدى للأموال حتى صادها، وأقام على الأعيان أرصادها، إلا أنها فرت من شبابه وأنفت أن تستقر في

(١) انظر: عيون الأنباء (٤/٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٤/٣٠٦).

أملاكه، ثم كان آخر ما حمله عليه الهوج، وطلب به استقامة حالة من العوج، أنه أقيم من الدست الذي لم يقدمه أحد إلى صدره، ولا جرى به طول الحبس على عاقبة صبره، ثم أخذ وشنق، وكان قد أبرم بيده حبل سعادته فخنق.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): كان له الذكاء الذي لا مزيد عليه، والعلم الذي لا يصل سواء إليه، والإنعام العام، والإحسان التام، والهمم العالية، والآلاء المتوالية، قد بلغ من صناعة الطب إلى غاياتها وانتهى إلى نهاياتها، وفاز بمحصولها، وأتقن علم فروعها وأصولها، حتى قلَّ له المائل، وقصر عن معانيه كل فاضل.

كان أولاً عند الأئمة صاحب بعلبك طبيياً، فلما توفي بدمشق استقل أمين الدولة بالوزارة العمادية فساس أحسن السياسة وبلغ التدبير نهاية الرياسة، وثبت قواعد الملك وأبدها، ورفع مباني الفضل وأيدها، وجدد معالم العلم والعلماء، وأوجد من الفضائل ما لم يكن لأحد من القدماء، ولم يزل عالي القدر، نافذ الأمر، مطاع الكلمة، كثير العظمة إلى أن ملك دمشق الملك الصالح أيوب وجعل نائبه بها [معين الدين]^(٢) ابن شيخ الشيوخ، وأعطى الصالح إسماعيل بعلبك فانتقل إليها وبقي وزيره بدمشق، وقد جمع له ولصاحبه أموالاً عظيمة جداً أخذها من أهل دمشق بموافقة القاضي الرفيع الجلي، فاتفق ابن شيخ الشيوخ والصاحب ابن مطروح^(٣) على مكيدة عملت وهو أنها طلبا أمين الدولة، فلما

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٣٠٦-٣١٧).

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء للتوضيح.

(٣) هو: أبو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحسن بن مطروح، يلقب بجهال الدين، خادم الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولد بصعيد مصر يوم الاثنين ٨ من شهر رجب سنة (٥٩٢هـ)، ونشأ بها وأقام بقوص ثم خدم أمراء الولايات حتى وصل إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي جعله ناظر الخزانة في أوائل سنة (٦٣٩هـ) ثم جعله وزيراً له سنة (٦٤٦هـ)، وظل في خدمته له إلى أن توفي الملك الصالح بالمتصورة ورحل ابن مطروح إلى القاهرة، فلابد من داره إلى أن توفي ليلة الأربعاء في مستهل شهر شعبان سنة (٦٤٦هـ). انظر: وفيات الأعيان

أتى قاما له، وقالوا له: إن أردت الإقامة بدمشق فابق على حالك، وإن أردت أن تلحق صاحبك فتقيم عنده فافعل، فقال: لا والله بل ألحق مخدومي وأكون عنده ثم أنه خرج بجميع أمواله وذخائره وأحواله وخواصه وجميع ما يملكه حتى أثاث بيته وحصر دوره، فلما صار ظاهر دمشق بها معه قبض عليه وأخذ جميع ما كان جمعه وأحيط على أملاكه واعتقل ثم حمل إلى القاهرة فأودع السجن بقلعة الجبل مع جماعة آخر من الحاشية العمادية، فلما أتى الملك الناصر يوسف بن العزيز من حلب إلى دمشق وملكها صار معه الصالح إسماعيل وسائر ملوك الشام، ثم توجه يريد مصر فخرجت إليه عساكر المعز أيك، وكان قد ملك بعد مولاه الصالح أيوب، فلما التقوا كانت الكسرة أولاً على العسكر المصري ثم دارت الدائرة لهم على العسكر الشامي وقبض على الصالح إسماعيل وجماعة من الملوك والأمراء وحبسوا بمصر، ثم أطلق بعضهم، وأما الصالح إسماعيل فكان آخر العهد به، [وقيل: إنه خنق بوتر]^(١).

وحكي أن أمين الدولة لما سمع بما كان من ظهور العسكر الشامي على المصريين على ما كان أولاً وعد المتحدث في القلعة عند طلوع الملوك بمواعيد أطمعته، فأخرج من كان عنده وكانوا ثلاثة: أمين الدولة، وناصر الدين ابن يغمور، وأمير كردي، يقال له: سيف الدين، فقال الكردي: يا قوم، لا تستعجلوا واقعدوا مكانكم، فإن كان الأمر صحيحاً فاستاذنا يخرجنا ويحسن إلينا، وإن كان غير صحيح ففقدونا أصلح لنا.

فلم يلتفت أمين الدولة وابن يغمور إليه وخرجوا وتأخر هو وقعد الوزير أمين الدولة وابن يغمور في القلعة، وأمروا ونهوا، فلما جاءت الأخبار المؤكدة بعكس ما طار إليهم به أول الخبر أمر المعز بقتل ابن يغمور وشنق أمين الدولة وإطلاق الكردي.

(٦/٢٥٨)، سير أعلام النبلاء (٢٣/٢٧٣)، شذرات الذهب لابن العماد (٥/٢٤٧).

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من عيون الأنباء.

قال ابن أبي أصيبعة: «وحكى لي من رآه لما شفق وعليه قندورة»^(١) عتاي خضراء، وفي رجله سرموزة»^(٢). قال: ومن العجائب أن أمين الدولة لما حبس أرسل إلى منجم بمصر كانت له إصابات لا تحرم، وسأله عما كان وما يكون من حاله؟! فأخذ طالع الوقت ورسمه ثم قال: يخلص هذا من الحبس ويخرج منه فرحاً مسروراً، ويبقى له أمر مطاع يمثل فيه أمره ونهيه، وفرح، فلما جاءه ذلك الخبر ظن أنه يبقى وزيراً بمصر، فتم له ما ذكره المنجم في يوم خروجه ثم لم يعلم ما يجري له بعده، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً»^(٣).

ومنهم:

٣٩-١- المذهب الداخوار: أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد^(٤)

طبيب نهض به طيب العناصر، ونهى علمه أن يعقد على غيره الخناصر، كان في الحكماء علماً، وفي إثبات الحكم قلماً، عز وجوده وقل ما فاض إناءه، وآض^(٥) اجتناؤه، وكان لفروع الطب شجرة يكاد زيتها يضيء، ويقال في ظلها وفيء، كأنها جالس أرسطاطاليس وجال مع تلك الجماعة في تقرير تلك النوامس، ولهذا اشتهر وملأ العيون وبهر، وكان ممن يستصح برأيه ويستصبح بذكائه، هذا إلى خط أوتيه، وحظ كان يواتيه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٦): «إليه انتهت رياضة صناعة الطب ومعرفتها على ما ينبغي،

(١) قندورة: فوطة.

(٢) سرموزة: نعل.

(٣) انظر: عيون الأنباء (٤/٣٠٦-٣١٧).

(٤) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/٣١٨).

(٥) آضى: بمعنى رجع، وقيل: بمعنى صار. انظر: لسان العرب، مادة (أض).

(٦) انظر: عيون الأنباء (٤/٣١٨-٣٣٧).

ولم يكن في اجتهاده من يجاريه ولا في علمه من يماثله، أتعب نفسه في الاشتغال، وكد خاطره في تحصيل العلم حتى فاق أهل زمانه، وحظي عند الملوك ونال من جهتهم من المال والجاء ما لم ينله غيره من الأطباء، وكان في مبتدأ أمره كحالا، وكذلك كان أخوه حامد بن علي، وكان الداخوار يكتب خطأ منسوبا ونسخ الكثير، وقرأ النحو على الكندي، والطب على الرضي الرحبي، ثم لازم الموفق ابن المطران، ثم أخذ عن الفخر المارديني^(١) لما قدم وخدم الملك العادل بن أيوب، ثم لم يزل تسمو منزلته عنده حتى صار جلسيه وصاحب مشورته، وظهرت له منه نواذر في تقدم المعرفة؛ منها: أن العادل عرض له مرض وأشار الداخوار عليه بالفصد فلم يوافقه بقية الأطباء على ذلك، فقال لهم: والله إن لم يخرج دمًا، وإلا خرج من غير اختياره، فلما مضى أيسر وقت حتى طفر الدم من أنفه ورعف رعاقا كثيرا، وصلح فعلم أنه ليس في الكل مثله.

ومنه: أنه كان يوما على باب دار السلطان في جماعة من الأطباء، إذ خرج خادم ومعه قارورة جارية يستوصف لها لشيء شكت منه، فلما رأوها وصفوا لها ما حضرهم، فقال الداخوار: إن هذا الذي شكت منه ما يوجب صبغ الماء هكذا، ويوشك أنه من حناء اختضبت به، فقال له الخادم: نعم تخضبت بحناء، فأخبر العادل بذلك فتزايد حسن اعتقاده فيه.

ومن أحسن ما يؤثر عنه أن الملك العادل كان قد غضب على قاضي القضاة محيي الدين بن زكي الدين^(٢) لأمر نقمه عليه، وأمر باعتقاله بقلعة دمشق، ورسم عليه أن يزن

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن، الأنصاري المارديني، طبيب ماهر، ولد في مدينة ماردين حيث كان والده قاضيا بها ثم انتقل إلى بغداد فدرس بها الطب على أمين الدولة، ورحل إلى شمال ما بين النهرين ودمشق سنة (٥٨٧هـ)، وتعلم عليه مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الداخوار، وغيره، وكانت وفاته سنة (٥٩٤هـ). انظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٨٩، فوات الوفيات لابن شاکر (٢/٣١٦).

(٢) هو: محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن عبد العزيز، أبو المعالي، محيي الدين، كان هو وأبوه وجده وجد

عشرة آلاف دينار مصرية، وشدّد عليه، فأقام في السجن والمطالبة، ووزن البعض وعجز عن البقية، وقال السلطان: إن لم يزن وإلا عذبتّه، فتحرّر القاضي وباع جميع موجوده وأثاث بيته، حتى الكتب التي له، وتوسّل إلى السلطان بكثير من الأمراء والخواصّ المسامحة أو التقيّط، فلم يقبل، فأتى الداخوار إليه ليتفقده لمودة قديمة بينهما، فشكا إليه حاله وما قد تمّ عليه، فوعده بالمساعدة بحسب الطاقة، ثم قام فدخل على أم الصالح اسماعيل بن العادل، وكانت ممرضة، فلما دخل عليها عرفها بحديث القاضي وأنه مظلوم وسألها في أمره فقالت: كيف أحدث السلطان في أمر من لا أعرفه؟ ولو كان طبيباً يدخل علينا أو تاجرًا نعامله لأمكن الكلام فيه. فقال لها: فثمّ طريق آخر يحصل به القصد. قالت: وما هو؟ قال: في وقت يكون السلطان نائمًا عندك تظهرين له أنك رأيت منامًا يقتضي أن القاضي مظلوم، وعرفها ما تقول. فقالت: هذا يمكن، فلما عوفيت أتاها الملك العادل، فنام عندها وهي إلى جانبه، فلما كان آخر الليل انتبهت وأظهرت أنها مرعوبة، وأمسكت فؤادها وبقيت ترتعد وتبكي، فانتبه السلطان وقال لها: ما لك؟ وكان يحبها حبًّا كثيرًا، ثم جعل يرش عليها من ماء الورد وقال لها: ما الذي بك؟ فقالت: رأيت منامًا عظيمًا هالني وكدت أموت منه، وهو أنني رأيت كأن القيامة قد قامت في بهو عظيم وبها خلق عظيم ونيران كثيرة تشعل، وناس يقولون: هذه للملك العادل لكونه ظلم القاضي!! ثم قالت: هل فعلت قط بالقاضي شيئًا؟ فما شك في قولها وانزعج ثم قام لوقته وطلب الخدام وقال: امضوا إلى القاضي وطيبوا قلبه وسلموا عليه عني، وقولوا له يجمعني في حلٍّ مما تمّ له، وإن جميع ما وزنه يعود إليه وما أطلبه بشيء، ثم لما أصبح أمر له بخلعة كاملة وبغلة، وأعادته إلى رتبته وأعاد إليه جميع ما وزنه، واسترد له ما باعه.

وقال: مرض العادل بالشرق مرضًا صعبًا، وولي علاجه الداخوار إلى أن برئ، فلما عوفي حصل له نحو سبعة آلاف دينار، وبعث له أولاد العادل وسائر ملوك الشرق

وأكابر الأمراء الخلع والبغال بأطواق الذهب وغير ذلك.

ومرض الكامل فعالجه، فلما برأ حصل له نحو اثني عشر ألف دينار وأربع عشرة بغلة بأطواق الذهب، وخلع كثيرة من الأطلس وغيره، وولي ذلك الوقت رئاسة الأطباء.

وخدم مرة الأشرف وأعطاه إقطاعاً جليلاً، ووقف داره بدمشق بالمناخلين^(١) مدرسة على الطب ووقف عليها عقارات له^(٢).

ومنهم:

٤٠- الرشيد علي بن حليقة بن يونس بن أبي القاسم

ابن خليقة الأنصاري الخزرجي^(٣)

من ولد سعد بن عبادة^(٤) رضى الله عنه.

(١) المناخلين: أحد أسواق دمشق القديمة.

(٢) ذكر ابن أبي أصيبعة أن من مؤلفات الدخوار: اختصار كتاب الحاوي في الطب للرازي، اختصار كتاب الأغاني الكبير لأبي الفرج الأصبهاني، مقالة في الاستفراغ، تعاليق ومسائل في الطب، وشكوك طبية، ورداً على أجوبتها له، كتاب الرد على شرح ابن أبي صادق لمسائل حنين، مقالة يرد فيها على رسالة أبي الحجاج يوسف الإسماعيلي في ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة وتناولها. انظر: عيون الأنباء (٣٣٧/٤).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣٣٨/٤).

(٤) هو: أبو ثابت سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة، صحابي جليل ونقيب بن ساعدة روى عنه سعيد بن المسيب وغيره، وكان قد شهد المشاهد كلها مع رسول الله، وكان صاحب رايه الأنصار في هذه المشاهد، وقد سكن الشام بعد وفاة رسول الله، وأقام بحوران إلى أن توفي بها سنة (١٥هـ)، وقيل: سنة (١١هـ). انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة (٣٥٦/٢)، سير أعلام النبلاء (١/ ٢٧٠)، شذرات الذهب (٢٨/١).

طبيب لو شكنا إليه البرق اختلاف نبضه لأبراه، أو حاول منه الرعد ما في صحف
النهر لأقراه.

من أسرة سارت بهم الأمثال، وسراة أسفا على عقدهم كيف انثال، أراق الكرى
عن كنوس أجفانه، وجعل طوارق السهاد من ضيفانه، همه يقظ، وعزمه محتفظ، حل بها
أجل الرتب، وجلاها عن الجسم الريب، وكان لا يفقد السبات، ولا يخرج إلى حد
الإعانة، لعلاجها بالملائم واحتجاجه بها يكفي الملائم، هذا إلى تفنن في علوم آخر،
وفضائل كأنها البحر إذا زخر، ومحاسن لو أراد بها لفخر.

قال ابن أبي أصيبعة: إنه عمه، وأنه ولد بحلب سنة تسع وتسعين وخمسمائة وقال:
إن جده معروف بابن أبي أصيبعة، وكان قد توجه إلى مصر إذ استقلت بها الدولة
الصلاحية، وإن الشهاب يوسف الكحال، وابن أبي الحوافر^(١) كانا من أصدقائه، فلما أتيا
مصر أشارا عليه بإشغال ولديه في الطب، يعني المؤرخ عمه هذا وأباه، فأمرهما بملازمة
دينك الرجلين، وأن أباه أكثر الأخذ عن الشهاب يوسف، ثم قرأ على الرئيس موسى
وأهل طبقتهم، وإن همه كان، أو اشتغاله على أبي التقي صالح بن أحمد المقدسي، ثم لازم
ابن أبي الحوافر وكان إذ ذاك رئيس الأطباء في أيام العزيز، ثم باشر المرضى بالمارستان، ثم
أخذ صناعة الكحل عن النفيس بن الزبير، وقرأ على عبد اللطيف البغدادي، وكان
يشتغل بالسديد المنطقي، واشتغل بعلم النجوم، وأخذ الموسيقى عن ابن الديجور المصري
وعلى ابن التبان، ثم اجتمع بأعيان المصنفين فيه، ثم لما عاد أبوه إلى الشام انتقل معه
واجتمع بمن به من المتعينين، وباشر المارستان النوري، ثم خدم الأجد صاحب بعلبك،
ثم خدم العادل، ثم المعظم، ثم الناصر ابنه، وتوفي في الثاني والعشرين من ربيع الآخر
سنة ست عشرة وستمائة، ودفن بمقبرة باب الفراءيس.

(١) هو: أحمد بن عقيل بن محمد بن علي بن أحمد بن رافع، أبو الفتح بن أبي الفضل المعروف بابن أبي
الحوافر الدمشقي، سمع أباه وعبد العزيز بن أحمد الكتاني والفقهاء نصر بن إبراهيم المقدسي، توفي سنة
إحدى وثلاثين وخمسمائة. انظر: الوافي بالوفيات (٧/ ١٢٣).

ومن كلامه قوله: «ما أحسن الصبر لولا أن النفقة عليه من العمر».

وقوله: «الأصدقاء كنفس واحدة في أجساد متفرقة».

وقوله: «المال مغناطيس أنفوس الجهلاء، والعلم مغناطيس أنفوس العقلاء».

وقوله: «القانع مساعد على بلوغ مآربه».

ومن شعره: [الكامل]

يا صاحبي سلا الهوى وذرائي	كُفَّ الملام عن المحب العاني
لا تسألاه عن الفراق وطعمه	إن الفراق هو الممات الثاني
نادى الحداة دنا الرحيل فودعوا	ففجعت في قلبي وفي خلاني
وبكيت وجداً بعد ذاك فلم يفد	أنى وقد صار اللقاء أمانى

وقوله: [الكامل]

أرأيته يا صاحبي فستى تذل	له الأسود تذلة الغزلان
ما كنت ممن يسترق فؤاده	عشق ولكن الهوى سلطان

ومنهم:

٤١- ابن قاضي بعلبك: المظفر بن عبد الرحمن بن إبراهيم

الحكيم الفاضل، الملائف بدر الدين أبو التأييد.

فاق في علم وقراءة وفهم تقدم به الناس وراءه، قدمه فضله واستحقاقه، وتبله الذي ضرب على ربي المجرة رواقه، ولحق في أوانه بجلة الرؤساء، وحل من أئمة زمانه محلة الجلوس، وسبق أهل جيله حيث لا يلاحقه إحضار، وخلق مع أبناء جنسه إلا أن

طينته جبلت من معدن النضار، ولم يعالج عليلاً ثم أصبح ببقائه ليس ينتفع، ولا دافع
مطل إلا ثم أضحى بملاطفته لا ينتفع، وكان لا يطب إلا بالأهون على العليل والأحب
إليه، وإن كان النفع به من القليل على أنه البحر الذي لا يشق له عباب، والوقوف عليه
إذا لم يوجد باب، وألقيت عليه من الله محبة لم يره إلا من شغف بحبه، وشغل بطبه وفضله
على كل نكرة ومعروف، وكل ذي طب يسرح نظرًا بإحسان ويمسك يداً بمعروف، ولم
ألق أحدًا من الكبراء وأهل العلم إلا من كان يحسن عليه الثناء، ويحلو بأوصافه
الحسنة.

قال لي عمي الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب - رحمه الله تعالى -: هو
آخر الأطباء الذين رأتهم عيني.

وسألت عنه شيخنا شهاب الدين أبا الثناء الحلبي فقال: كان يقال: هو
جالينوس وقته، ثم أخذ في وصفه، وذكر ما عليه من حسن الملاطفة وإحسان العلاج.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان أبوه مجد الدين قاضيًا بعلبك، ونشأ هو بدمشق
واشتغل بها في الطب على المذهب عبد الرحيم بن علي، وجمع له العلم الغزير والذكاء
المفرط والمروءة التامة، وكانت له همة عالية في الاشتغال، ونفس جامعة لمحاسن الخلال،
وكان لا يخلو له وقت من التزيد في العلم والعناية بالمطالعة والفهم، وكان قد توجه
صحبة المذهب لما طلبه الملك الأشرف وخدم بالمارستان بالرقّة، وصنف مقالة حسنة في
الرقّة، واشتغل بها في الحكمة على الزين الأعمى - رحمه الله - وكان إمامًا في العلوم
الحكمية».

ثم عاد ابن قاضي بعلبك إلى دمشق، فلما طلبها الجواد يونس^(١) حظي عنده وتمكن

(١) هو: يونس بن مودود بن محمد بن أيوب، السلطان الملك الجواد مظفر الدين ابن الأمير مظفر الدين
ابن الملك العادل أبي بكر، كان في خدمة عمه الكامل فوقع بينهما فساد إلى عمه المعظم فأقبل عليه، فلما

في دولته، واعتمد عليه في صناعته، وولاه الرياسة على الأطباء والكحالين والجراحية، وكتب له توقيعاً بذلك، فجدد من محاسن الطب ما درس، وأعاد من الفضائل ما دثر، ولم يزل مجتهداً حتى اشترى أدراراً كثيرة جوار المارستان وهذمها وبنائها وأضافها إليه.

ثم خدم الصالح أيوب وأرصد لمعالجة الحرم، وجدد له توقيعاً بالرياسة على أطباء الشام، ثم خدم من بعده من الملوك ولم يغير عليه عادة مستمرة له، ثم تجرد لعلم الفقه وسكن بيتاً بمدرسة ابن قليج^(١) وكانت جوار داره، وتصدى لحفظ القرآن الكريم ومعرفة القراءات والتفسير وقراءة الفقه وفنون الأدب، ولازم أبا شامة ودأب في العبادة والدين.

قلت: قال لي والدي - رحمه الله -: كان ابن قاضي بعلبك مختصاً بصحبتنا، وكان يعود من مرض منا، ويتولى معالجته، وكان لا يرى التعمق في الوصف ولا المداواة بالكرية.

ويقول: «ما ينتفع المريض بالكرية بقدر ما يتضرر به لكرهيته له».

ويقول: «ما لم يكن من المريض إقبال على الدواء لا تقبله أعضاؤه».

ويقول: «ربما صار الدرياق سماً والدواء داء بإفراط كراهية المريض».

مات الكامل تملك الجواد دمشق، وكان جواداً كلقبه، توفي سنة إحدى وأربعين وستمائة. انظر: فوات الوفيات (٢/ ٦٩٣، ٦٩٤).

(١) هي المدرسة القليجية: أوصى بها الأمير سيف الدين علي بن قليج النوري إلى قاضي القضاة صدر الدين بن سني الدولة الشافعي، وهي تقع بدمشق قبلي الجامع الأموي، شالي الصدرية، ومن درس بها من العلماء: شمس الدين علي ابن قاضي العسكر، وفخر الدين إبراهيم بن خليفة البصري، وتقي الدين أحمد ابن قاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي، وبهاء الدين ابن النحاس، وعلاء الدين علي بن محمود بن حميد القونوي، وغيرهم. انظر: الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٥٦٩).

قال والدي - رحمه الله تعالى - وقد ذكره يوماً: رحم الله ابن قاضي بعلبك لم يكن في زمانه مثله في حسن شكله وسمته، وحسن حديثه، وصحة صحبته، ولطف علاجه، وتبرك الأعلاء بمقدمه لرفقه بهم وعدم إكراهه لهم على الكرية.

وقال: دخل علينا يوماً ونحن نأكل طعاماً فيه باذنجان قد قلي بدهن الإلية، فقعد فأكل وكان أكثر أكله منه، فقلت له: يا حكيم.. الباذنجان مولد للأخلاق السوداوية كما يقال.

فقال: ذلك الباذنجان الأسود الشديد الحرافة، فأما هذا الأبيض باذنجان دمشق المقلو بدهن الإلية فلو رآه جالينوس لجعله دواء للسوداء. ومنهم:

٤٢-١- العماد الدئيسري^(١): محمد بن العباس بن أحمد ابن عبيد الربيعي، أبو عبد الله

رجل يرجع إلى كرم خيم، وينفع فيه كثرة التفخيم، تفنن في فضائل، وتيقن أن كل عظيم عنده متضائل، بعزم أطل على النجوم في آفاقها، وعلم استخدام السعود بأوقافها، ولطف ذات وظرف أدوات، وكمال محاسن بجده بلغها، وأخذ مع توسع حظه بلغها، وقد كان للزمان روحاً، وإلى الغايات طموحاً، وكانت به الأيام سوافر، ومنه حظ للناس وافر، إلى أن عشتت المنايا في هامته، وصرعته من قامته، ووسدته التراب، وأفسدته على الأثراب، وخرس منه لسان كان يجادل، وسكن منه محرك تحت حصي وجنادل.

ذكره ابن أبي أصيبعة: ولُقِّبَ أباه بالقاضي الخطيب تقي الدين، وقال في عماد الدين: هو ذو الأريحية التامة، والعوارف العامة، مولده بدئيسر سنة خمس وستائة، ونشأ

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/ ٣٩٨).

بها واشتغل بالطب إشغالاً برع به.

قال: واجتمعت به فوجدت له نفساً حاتمة، وشنشة أخزمية، وخُلُقاً لطف من النسيم، ولفظاً أحلى من مزاج التسليم، وأسمعني من شعره البديع معناه، والبعيد مرماه، وهو في علم الطب قد تميز على الأوائل والأواخر، وفي الأدب قد عجز كل ناظم ونائر، وكان قد سافر من دنيسر إلى مصر، ثم رجع إلى الشام وأقام بدمشق وخدم الأجر الناصرية اليوسفية بقلعة دمشق والمارستان النوري.

ومن شعره: [الطويل]

نعم فليقل من شاء عني فإنني
كلفت بذاك الحال والمقلة الكحلا
فلا تعذلوني في هواه فإنني
حلفت بذاك الوجه لا أسمع العذلا

وقوله: [السريع]

عذارك المخضر يا منيتي
لما بدا في الخد ثم استدار
فكان في ذاك لنا آية
إذ جمع الليل معاً والنهار

وقوله: [الطويل]

حلفت له لا حلت عن وهى به
وقلبي على ما قد حلفت له حلف
إذ باعني منه الوصال لمهجتي
شريت وها قلبي أقدمه سلف

وقوله: [الكامل]

وحياة ناظره وعامل قده
روحى بعارض خده متململة
هب أنني متجنن في حبه
فعذاره في خده من سلسله

وقوله: [المتقارب]

إذا رفع العود تكبيره ونبأدي على الراح داعي الفرح
رأيت سجودي لها دائماً ولكن عقيب ركوب القلح^(١)

ومنهم:

٤٣-١- العز السويدي: إبراهيم بن محمد الأنصاري الأوسي،

عز الدين أبو إسحاق^(٢)

من ولد سعد بن معاذ رضى الله عنه.

طبيب تؤخذ عنه الصناعة، وإمام يُقدَّم على الجماعة، بذَّ النظراء وشأها، وأبعد
القرفاء وأناها.

تقدم في عصره تقدم استحقاق، وعرف علم الطب والطبيعة وما ناسبه معها، ولم
يكن مثله في علا ولا شبهه فيمن خلا، فشفيت به الأجساد، وأمنت مما يعرض للكون من
الفساد، ورأيت من خطه ما كأنه ريش الطاوس، أو عذار الغلام وسالفة العروس، لا
يقاس به خط قابوس، ولا على صحائف النهر أشعة الشمس.

قال ابن أبي أصيبعة: مولده سنة ست مائة بدمشق، ونشأ بها وهو علامة أوانه وأوحد
زمانه، مجموع الفضائل، كريم الأبوة، غزير الفتوة، وافر السخاء، حافظ الإخاء، اشتغل

(١) انظر: عيون الأنباء (٤/٣٩٨-٤٠٦).

(٢) ذكر ابن أبي أصيبعة أن لعماد الدين البُنيسري من الكتب: المقالة المرشدة في درج الأدوية المفردة،
أرجوزة في الترياق الفاروق، أرجوزة في المبرود ويطوس، أرجوزة في مقدمة المعرفة لأبقراط. انظر:
عيون الأنباء (٤/٤٠٦).

(٣) انظر: ترجمته في الوافي بالوفيات (٥/٨١، ٨٢)، المنهل الصافي (١/١٢٤-١٢٧) عيون الأنباء
(٤/٣٩٣-٣٩٧).

بالطب حتى أتقنه، ولم يصل أحد من أربابه إلى ما وصل إليه، أخذ عن أكابر الحكماء كالمهذب عبد الرحيم وغيره، وقرأ في علم الأدب وهو أسرع الناس بديهة، وكان أبوه تاجرًا من السويداء^(١) بحوران حسن الأخلاق، طيب الأعراق.

وقال الحكيم عز الدين: هو أجل الأطباء قدرًا وأفضلهم ذكرًا، وأعرف مداواة وأعرف مداراه، وأنجح علاجًا وأوضح منهاجًا، ودرس بالدخوارية^(٢) وخدم السلطان والمارستان، وكتب خطأ منسوبًا لطريقة ابن البواب، وخطأ يشبه مولد الكوفين، وكل خط أحسن من الرياض المونقة، وأنور من الشمس المشرقة.

ومن شعره قوله: [السريع]

وناسك باطنه فاتك يا ويح من يصغي إلى مينه
منزله أخرج من صدره وخلقه أضيق من عينه

وتوفي بدمشق في [يوم الثلاثاء ثالث شهر شعبان سنة تسعين وستمائة]^(٣) ودفن جوار الشبلية بالسهم الأعلى بتربة أعدها لنفسه.

ومنهم:

٤٤-١- الموفق السامري، وهو يوسف يعقوب بن غنايم^(٤)

بحر طب لم يبق إلا من ملأ من قلبه^(١)، ولم يبعد يدًا من قريبه، وأنته الطلبة حتى

(١) مدينة بيلاد الشام مشهورة، قرب حوران، أهلها من النصاري، وينسب إليها جماعة من العلماء؛ منهم:

أبو محمد عامر الحوراني السويدي. انظر: معجم البلدان (٣/ ٣٢٥).

(٢) المدرسة الدخوارية: نسبة إلى صاحبها مهذب الدين بن الرحيم بن علي الدخوار.

(٣) ما بين الحاصرتين بياض في الأصل، «ف»، والمثبت من عيون الأنباء (٤/ ٣٩٧).

(٤) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/ ٤٠٧).

ملاً كل سقائه، وكان لا يعدم من متنباً ولا يدع مرتاباً، ولا يسمح أن يكون أحد عنده. معتاباً، فسعد بمحضره جلساؤه، ووضح الصباح وجلاؤه، وكان في مثل هذا موفقاً، وفي نقل الطب موثقاً.

قال ابن أبي أصيبعة: «رئيس زمانه، وعلامة أوانه، مولده ومنشؤه بدمشق، بارع في الصناعة الطبية، جامعاً لعلوم الحكمة، قد أتقن صناعة الطب علماً وعملاً، واحتوى على معرفتها تفصيلاً وجلاً، وكان محمود المداواة، مشكور المداواة، متعيناً على معرفتها عند الأعيان، متميزاً في كل مكان، مؤيداً في اجتلاب الصحة وحفظها على الأبدان واشتغل عليه جماعة المتطبين وانتفعوا بفضل المبين، وله التصانيف الصحيحة العبارة، الفصيحة الإشارة، قوية المباني، بليغة المعاني، وعددها»^(١).

ومنهم:

٤٥١- أبو الفرج يعقوب بن اسحاق بن القف النصراني^(٢)

بيعة قوم توقد نبراسها، ودوحة علم مثمرة غفل حراسها، فاق بطب له بالأبدان امتزاج ويدان في تعديل كل مزاج، فطب كل داء، ولاطف لطف الأدوية، وكان ذا فهم

(١) القلب: البئر، الجمع: قُلب وأقلية، المعجم الوسيط مادة (قلب).

(٢) ذكر ابن أبي أصيبعة أن يعقوب السامري من الكتب: شرح الكليات من كتاب القانون لابن سينا، وقد جمع فيه ما قاله ابن خطيب الري في شرحه للكليات، وكذلك ما قاله القطب المصري في شرحه لها، وما قاله غيرهما، وحرر ما في أقوالهم من المباحث، وقد أجاد في تأليفه وبالغ في تصنيفه، حل شكوك نجم الدين بن النفاح، على الكليات، كتاب المدخل إلى علم المنطق، والطبيعي والإلهي. انظر: عيون الأنباء (٤/٤٠٨).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/٤٠٩-٤١١).

كأنما كشفت له السَّجَف^(١)، وعلم هو البثر الذي لا ينزح وأبوه القف، ولم يزل على وثبات تقدمه وثبات قدمه حتى قيدت الختوف خطاه، وأثقلت المنون مطاه، فما استقلت له قدم، ولا شبع للموت به قرم.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال: مولده بالكرك لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاثين وستائة، وكان أبوه الموفق يعقوب صديقاً لي مستمراً على أكيد مودته، حافظاً لها طول أيامه ودهره يستحلي نفائس مجالسته، وتستجلي عرائس مؤانسته، ألمعي أوانه، وأصمعي زمانه، مجيداً في حفظ الأشعار، علّامة في نقل التواريخ والأخبار، متقدماً في علم العربية، فاضلاً في الفنون الأدبية، اشتمل في الكتابة على أصولها وفروعها، وبلغ الغاية من بعيدها وبديعها، وله الخط المنسوب الذي هو نزهة الأبصار، والعناية التي لا تلحق في جميع الأقطار والأمصار، وكان في أيام [ابن العزيز]^(٢) كاتباً بصرخد^(٣) والنجابة تلوح على ولده أبي الفرج من صغره كما تحقق منه في كبره، وافر الذكاء، محباً للعلماء، فسألني أبوه في تعليمه، وقرأ عليّ ما عرف به أقسام الأسقام وحسم العلل، ثم انتقل أبوه إلى دمشق وخدم بها وسافر معه ولده، ولقي العلماء ولازم الفضلاء، وقرأ الحكمة على الخسرو شاهي، والغنوي الضرير، وقرأ الطب على بن المنفاخ والموفق السامري، وقرأ إقليدس على المؤيدي العرضي، وفهمه فهماً فتح به مقفل أقفاله، وحل به مشكل إشكاله، ثم خدم بقلعة عجلون، ثم عاد إلى دمشق وخدم السلطان بها.

وذكر الجزري في تاريخه قال: سألت أبا الفرج ابن القف عن مرض قاضي القضاة عز الدين ابن الصايغ؟ فقال: يموت بعد مدة عينها، وعن نفسه أنه يموت بعده بمدة عينها، فقلت له: أيش سبب ذلك؟

(١) السَّجَف: الستر.

(٢) في الأصل: ابن المعتز، والمثبت من «ف».

(٣) صرخد: مدينة بالشام تلاصق حوران، وهي من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة واسعة. انظر:

معجم البلدان (٣/ ٤٥٥).

فقال: القاضي كذب عليه فحصل له مراقيا سودادية^(١) غارت إلى قلبه فقتلته سريعاً، غير أنني أشرب الخمر فأظهره الشراب إلى ظاهري، فأورثني الصفرة في جميع البدن، فأنا أبقي بعده مدة عينها، فاعتبرت قوله فكان كما قال، وقلت له: أنت من كبار الفضلاء، ولك تصانيف في الطب ما تدفع عنك! فقال: علة ما لها دواء. وكان يتحسر على نفسه.

قلت: وأنشدني القاسم بن المظفر بن محمود بن عساكر لنفسه إجازة في مرض الحكيم ابن القف المذكور: [الخفيف]

قيل إن ابن القف أشفى على المو	ت ولم يبق منه غير رسيس ^(٢)
مانرى طبه أفاد ولا رد	د الردى عنه قول جالينوس
قلت كفوا أما سمعتم بما قيل	وسارت به حدة العيس
لونجا الطب فاضلاً كان بـقـراط	ولم يعث الردا بالرئيس
إنما غاية الطيب مع العلة	تحفيف ضررها المحسوس
والليالي لا سـعود يعفى	بعد خير أو عاجلاً بالنعوس

قال الجزري: توفي ابن القف في سنة خمس وثمانين وستمائة^{(٣)(٤)}.

(١) المراقيا السودادية: هي مرض اليرقان يجعل جسم الإنسان أصفرًا، وقد يصيب النبات والحيوان، فهو مرض فيسيولوجي يصيب النبات فيصفر، وحالة مرضية تمنع الصفراء من بلوغ المعى بسهولة، فتختلط بالدم فتصفر بسبب ذلك أنسجة الحيوان. المعجم الوسيط، مادة (يرقان).

(٢) رسيس: أي أن الموت أبعد.

(٣) قال ابن أبي أصيبعة: توفي في جمادى الأولى سنة خمس وثمانين وستمائة، والله أعلم. مرجع سابق (٤/٤١١).

(٤) انظر: عيون الأنباء (٣/٤٠١-٤١١).

ومنهم:

١٤٦- المهذب يوسف كاتب الزردكاش

والناس فيه وفي النفيس على خلاف، ولكل واحد منهما فريق يتعصب له ويقطع بتفضيله، والإنصاف أن النفيس كان أقعد بالعمليات، والمهذب كان أقعد بالعلميات لكونه كان يشغله خدمة الأمراء عن المباشرة، وكان رأس أهل زمانه في التعليم والتقريب إلى الأفهام، وكان جامعاً للطب، بارعاً في فنونه، مفترعاً لأبكاره وعونه، وكان يربأ بنفسه عن التمحض للاسترزاق بالطب، وكانت الدولة له بلالة من الرزق تعله، وقليل من متاع الدنيا يغنيه فله، ونشأت له عدة وافرة من التلاميذ وتقدموا واشتهروا باسمه، ويانتسابهم إليه وإلى اشتغالهم عليه، وهو والد الحكيم الفاضل غنائم الآتي ذكره، والوافي كما يجب شكره.

ومنهم:

١٤٧- النفيس أبو الفرج ابن إسحاق بن أبي الخير السامري

طبيب جرى في مجالس جالينوس، وتقدم وإن جاء بعد اسقليبيوس، لو رآه الدخوار لخار، أو الرئيس صاحب الدلالة لхар، وابن التلميذ لتلميذ لطبه، أو الرحبي لرحب به، وفقد حاسة بصره لا بصيرته، وحناء الكبر وهو على وثيرته، ولم يبق في وقته من أكابر الأطباء إلا من كان يحسده على فضله، ولا يسعه إلا الاعتراف، فإذا أراد التنقص به لا يجد سبيلاً أكثر من أنه يقول: إنه فقد حاسة البصر، وبها كان يرى السحنة التي يستدل بها، ويرى بها العلامات، وكان جل زمانه للإقراء والاشتغال في علم الطب وفروعه، والتوقيف على دقائقه، والإجادة في حسن التعليم والتفهم، والتوقيف والتثقيف، فأنشأ أهل ذلك الجيل، وتخرجوا عليه حتى تأهلوا وبرعوا في الطب وزكوا،

وأذن لهم في الطب والتصرف وكلهم من عذبه الزلال استقوا، ومن شعبة ذي الأطلال ارتقوا، وكان النفيس رِيّض الأخلاق، طويل الروح، كثير الاحتمال، كان للأمين سليمان رئيس الأطباء بمصر لفتات عليه، ويتقص به ويسمعه القبيح ويفاجئه بالصريح، وهو لا يتأثر ولا يتقلل بكلامه ولا يتكثر، وعلماء الدهر وفضلاء العصر كلهم على خلاف قول الأمين سليمان فيه، ويصفه بالفضل كل طبيب فاضل وفقه، ولما كسر انحنى ظهره وتأطر رجمه، فلما احدودب كان يقال له: صندوق العلم يسميه بهذا عامة الناس ويعتقد فيه الفضل، ويشهد له جمهور الخلق من عرفه منهم ومن لم يعرفه بالتقدم في الطب والتبريز على كل معاصر، وكان له تقفه في الطب وآراء في المداواة، وتفنن في العلاج، ولم يزل مشاراً إليه إلى أن هلك، ومتبوعاً في الطب أين سلك.

ومنهم:

٤٨-١- الأمين سليمان الحكيم، وهو سليمان بن داود

أمين الدولة أبو الربيع رئيس الأطباء بالشام، لحق بالأوائل وعرف العلم بالدلائل، لو عالج المعتذر لأزاح علله، أو شاء إصلاح ما بين الأفقين لسد خلله، لم يتقدمه جالينوس إلا بالزمان، ولا ابن سنا إلا بكثرة الإدمان، نُسي به كل من تقدم، ونُسب إليهم من الفضل ما قدّم.

قرأ على العماد الدينسري والعز السويدي والموفق السامري، وأخذ عن تلك الطبقة إلا أنه كان إلى الدينسري أشد انقطاعاً وإليه صارت كتبه، وعليه وقف أملاكه، وكان وارث علمه وماله وخلفه في كل أحواله، وكان منه أصل ثروته وما حصله وأثره وأثله، وكان من أبناء النصارى.

وحكى لي من رآه في حال صباه وغصنه رطيب، ومفرقه كله مسك وطيب، وخده مصقول السوالف، وطرفه إما ساحر أو سائف، ولأهل بلده به فتون، وفي كمد

فتون، والدنيسري قد اعتقله وخيل إليه دوام الحياة بقربه فاعتنقه. قال: وكان على هذا لا يخلو منه للحكماء ملعب، ولا للعلماء ندى فضل من يستوعب، فلما صارت إليه الرياسة، وسارت به النفاسة، قال بعض حساده: [الكامل]

يا معشر الحكماء لا تتسخطوا لعظيم ما قد تم في ذا العالم
هذا سليمان بن داود الذي نال الرياسة دونكم بالخطام

قلت: وإنما نيح القمر وعارض أدنى البحر، وهيئات أن تعطى السماء بالسحاء أو يضار في رؤيته ذو نظر، فلقد كان فردًا في الزمان منقطع القرين، معدوم النظير، شارك في الحكمة وبرز في علم الطب، وصار علمًا فيه، وتقدم باستحقاق، وألقي عليه القبول، ومال إليه الحقير والجليل، واقتصرت على طبه الأكابر، ومالت إليه العلماء، وأثنى عية شيخنا ابن الزملكاني، وحصلت بينه وبين ابن الوكيل منافرة ثم اتفق لابن الوكيل أن ركب للأفرم نائب الشام سفوفًا^(١) يعينه على الهضم ويسهله، فلما أخذ منه الأفرم أفرط به الإسهال، ووثب ممالك الأفرم بابن الوكيل ليقتلوه، فأتى الأمين سليمان وكفهم عنه ثم دخل على الأفرم، واعتبر إعراضه، ثم أعطاه أمراق الفراريج، وشرع في إعطاء المسهلات له، واستفرغه حتى كمل إخراج تلك المادة التي اندفعت، ثم أعطاه المقبضات والممسكات فبرأ وأفاق.

قلت: إنما أعطاه أولاً المسهلات مع وجود الإسهال؛ لأنه رأى السفوف قد هييج مادة ردية ولم يتم اندفاعها، وإن انحباس بقيتها مفسد للبدن، فاستعمل استفرغ تلك المادة الردية، ثم أمسك ما سواها، وهذا من محاسن العلاج، وله غير هذا من الغرائب والعجائب في صناعة الطب؛ منها: أن بعض بني صصري كان يشكو نزلة متقدمة به، لا تزال تعاوده ويلتاث جسمه ببقاياها فشكا إليه ما يجده منها، فأمره بالحمية وتعهده الحمام

(١) السفوف: هو ما يسفه الإنسان من دواء، والسفوف: كل دواء يابس غير معجون. معجم الوسيط، مادة: (سفف).

حتى لطف أخلاطه، ثم أخرجه من الحمام وكشف رأسه عقيب خروجه منه حتى نزلت به نزلة أخرى، ثم استمر به على الحمية وشرع في معالجته وأعطاه المسهلات حتى استفرغ مواد تلك النزلة واندفعت معها مواد النزلة القديمة، وبرأ الرجل وأفاق.

ومنها: ما حكاه لي الشيخ أحمد بن براق قال: كنت عند الأمين سليمان فأتي رجل قد حصل له ورم في وجهه، وقد تلون بالحمرة والزرقة، فلما رمى عمامته عن رأسه، وكانت عمامة كبيرة وبقي الرجل يخاف من البرد، وسليمان يقول له ارمها بلا نشاز، ثم أمر بسطل من الماء البارد فصبه على رأسه، وكان الفصل شتاء ثم نقله إلى المارستان وشرع في معالجته، وسئل عن هذا فقال: كانت قد تحركت مادة في دماغه أردت أن أجدها قبل أن تنصب جملة واحدة.

قلت: وقد تقدم مثل هذا عمن تقدم، وله كل معالجة طائفة، وحدث صحيح، وتجربة محققة، ولما مرض الكرجي وهو في نيابة طرابلس حارت فيه الأطباء، فاستدعاه واستطبه فبرأ بقدرة الله على يده، فغمره بالإحسان، وحصل له منه ومن حاشيته نحو أربعين ألف درهم، ما هو دراهم وقماش وغير ذلك، ثم عاوده المرض فاستدعاه وطببه وبرأ فحصل له منه نحو عشرين ألف درهم.

وحكي لي: أنه كان أقل ما يدخر في كل يوم دينار من الذهب بعد كلفه وسائر نفقته، وأنه على هذا منذ بلغ عشرين سنة من العمر وإلى آخر وقت.

وكان صحيح الإسلام، حسن المعتقد، جميل اليقين، وحج مرات إلى البيت الحرام، وزار النبي -صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم- وكان إذا أتى المدينة الشريفة لزم المسجد وأكثر الصلاة.

ولم يزل على رتبته ومكانته حتى سعى عليه عند تنكيز نائب الشام وغيره عليه خاطره هذا إلى ما كرهه منه من قوة النفس وكثرة الجرأة والإقدام، فعزله عن الرياسة

وحطه عن رتبته وأغرى بذمته والتنقص به، وقام عبد المولى اليهودي لعباده وربما سليمان بالبرص، وكشف فلم يصح قوله فيه، وولي عوضه جمال الدين محمد ابن الشهاب الكحال فجرت بينهم عواصف، وتمت بينهم مع تعمد الظلم مناصف، ونامت على بغضاء تنكز له الأيام والليالي ثم عطفته عليه عاطفة الرضا فأقبل عليه كل الإقبال، واستصحبه في سفرة كنت فيها إلى جهة غزة، وأتينا بأنواع من الطعام فيها من السمك واللبن، فقلنا له: من أيهما نأكل؟ فقال: أنا طيبكم وكلوا مما آكل. ثم أكل من السمك وأكلنا معه حتى كاد يشبع ثم ثرد خبزاً في اللبن وأكل منه بالملاعق وأكلنا معه، ثم قال: علينا بالمصلح. فقلنا: ما هو؟ فقال: العسل، فأتينا به فلحق منه لعقاً كثيراً ولعقنا معه ثم مكث ساعات، ثم أمر فعملنا شرباً من السكر والليمون، فشرب وشربنا معه ثم قال: عملنا اليوم بطب الهند، قالوا: إما أن يكون أحدهما أبرد من الآخر، أو هما سواء في الدرجة، فإن كان أحدهما أبرد من الآخر فالآخر مصلح له، فإن كانا سواء في الدرجة كنا كمن أكل من شيء واحد واستكثر منه.

ثم طلب الأمين سليمان إلى باب السلطان ولحق به لتطبيب القاضي علاء الدين ابن الأثير كاتب السر - رحمه الله تعالى - من فالج أصابه، فجاء وطببه فلم ينجع، وسعفي أمر فما أنجع، ولم يقع من السلطان بموقع، ولا لقي أطباء الحضرة بما يجب، فتقهقر وذهم وأعيد إلى دمشق مبرقع الوجه بالخشجل، خائب الظنة والأمل، ثم عقد له مجلس بحضرة تنكز لدواء وصفه لابنه وكان قد جمد اللبن في معدته، فوصف له أفحة الجداي فأنكرت الأطباء ذلك فادعى الصواب، وحضر المجلس المعقود له أعيان الفقهاء والحكماء وطولب بالنقل، فأحضره فلم ينهض بصدق دعواه، وعلى هذا فلم ينقم عليه تنكز كراهيته له وتوفي في سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة من الهجرة.

ومنهم:

١٤٩- أحمد بن شهاب الدين أبو محمد الكحال الجرائحي

ذو يد في صناعته ولسان، وأسى لأعمال يديه وإحسان، جرى ممتد الأرسان، واتخذ يداً عند كل يد، وصنيعه عند كل إنسان، وكان رب علم يدرس وينسخ، وعمل يقطع لأجل ميل منه مائة فرسخ^(١)، فطالما بصر من عمى، وحقق دماً إذ أراق دماً، بعلاج كم جبر من كسر، وأطلق من أسر، وظهر بأشتات من المحاسن جمع منها عديداً، وجعل سيف النظر بالجلء مجوهراً وكان حديداً، هذا إلى خبرة بمفردات الأكحال وترتيبها، ومجمعات أجزائها وتركيبها، فكم سوى منها ما خلق، وداوى رمد العين، وقد خلق الإنسان من علق.

ومنهم:

١٥٠- الفتح السامري: هو ابن يوسف بن إسحاق بن مسلم

من سبط يوسف - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - وهو آخر من بقي في الإقليمين، وصلاح للتعليمين، برع في الحكمة على إطلاقها، وأعرف عن بدائع أخلاقها، وأتقن فروع الطب حتى أصبحت به فروعها مثمرة، وأغصانها على أصول الحكمة نضرة، وقرأ جانباً من النجوم أقام به أود اللسان، وقام به في جدد الإحسان، وكتب خطأ كما حشى عنبر الأصداغ، وسلك طرقاً من العبارة لها من نصف القلوب مساع.

قرأ الطب على النفيس السامري وغيره، وتخرج مع سلف الأطباء، وزاحم بقايا تلك القنن، وطبب وعالج وظهر حسن أثره وعرف يمن علاجه، وأثنى عليه الأفاضل،

(١) الفرسخ: ثلاثة أميال.

وشهدت له الأطباء بالإجادة، وكان شيخنا ابن الزملكاني يقول: ما رأيت في المسلمين أصح من ذهن البرهان الزرعي، وفي غير المسلمين من أبي الفتح السامري، قلت له مرة: فأيهما أصح ذهناً؟ قال: أبو الفتح، وكان - رحمه الله - يدع مشاهير الأطباء في زمانه، ومنهم الأمين سليمان وهو أصدق صديق له، وأصبح صاحب يعتمد عليه، ويطلب الحكيم أبا الفتح ويستطبه، وإذا حضر هو وغيره من الأطباء وهم كهول وهو شاب ترك أقوالهم واتبع قوله، وجعل عمدة طبه عليه.

وحكى لي ولده تقي الدين عبد الرحمن قال: مرض أبي مرضة استشعر في مبادئها أنها ستطول به مدتها وتثقل عليه، فطلبني وقال: يا بني، أنا ما أعتمد في الطب إلا على أبي الفتح السامري، فإن ثقل بي المرض وغاب ذهني عني بالحمى أو غير ذلك لا تعدل بي عن طبه ومعالجته، وإياك أن تغتر وعميل إلى قول سواه، فإن أبا الفتح صحيح الحدس في معرفة المرض، وعليه رتب المداواة.

قال: وكان كثير الثناء عليه، ولما كنا بحلب كان يقول إذا ذكر دمشق وحسنها يقول: كيف لا أتأسف على دمشق وفيها ربيت ونشأت؟ وفيها مثل أبي الفتح، وكان لا يزال يشناق إليه ويتأسف عليه.

قلت: والحكيم أبو الفتح هو اليوم واحد زمانه، منقطع القرين، ما له نظير في معرفة علم الطب وحسن العلاج، ولطف المداواة، إلى حسن الوجه، والشكل والعبارة والخط، وما عليه من القبول مع إذعان كل حكماء زمانه وأطباء دهره له بالتقدم والتفرد وحده في الرتبة والمكان، وما خلا الوقت ومثله موجود في الزمان.

ومنهم:

٥١- غنائم السامري، وهو ابن المذهب يوسف كاتب الزردكاش

ملاطف ملا طيف كل جفن من كرى، وعدل مزاج الزمان لم يدع منكراً، أبطل

ذكر ابن بطلان، وأسخط على علي بن رضوان، وأتى بها لورآه ابن ماسويه لمسّه الإعجاب، أو حنين بن إسحاق لما وسعه إلا أن يتستر بها طال من الثياب.

قرأ على أبيه المهذب وأخذ عن النفيس، وأذن له في الطب وتصرف وطب، واشتهر بالعلم والاستحضار للنقل والمفردات والعلاج الحسن والملاطفة التامة وغرائب مداواة، وهو ممن تزهو به دمشق وتستطيل في الفخار، مع ما طبع عليه من أناة ورفق وتودد وحسن تبصر ومعرفة لا تقصر، ورأيت من يرجحه على أبيه، ويصفه ويبالغ فيه، والناس فيه وفي الحكيم أبي الفتح على قرلين، وعلى الجملة فأين مثلها أين؟

فأما أطباء الغرب بما وقع في جانبه من مصر والإسكندرية فمنهم:

٥٢-١- إسحق بن عمران^(١)

خلق تخليق العقاب، وحل حيث لا يعاب، وافى ديار مصر فكان زلّالاً، وأتى المغرب هلالاً، فطاب به الوديان، وكان كقاب قوسين منه الواليان، واستوطن أفق المغرب وشمسه ما أذنت بأفول، وشبهه ما آن لقلائصها قفول، ثم كان يتشوق العراق ويرد نسيمه، وورد تسنيمه، ولكن لم تدن له الأمانى، ولم تدن لسعيه المتواني، ولم يتمناها إلا حين لا أوان، وحيث دنت وقد حيل بين العير والنزوان.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان طبيباً مشهوراً، وعالمًا مذكورًا ويعرف بسم^(٢) ساعة، قال ابن جليجل: كان مسلم الدين بغدادى الأصل، بعث إليه ابن الأغلب^(٣) ألف دينار وراحلة وكتاب أمان بخط يده أنه متى أحب الانصراف إلى وطنه انصرف، واستجلبه حتى دخل أفريقية^(٤) على شروط ثلاثة لم يف له بواحد منها.

قال: وبه ظهر الطب في الغرب، وعرفت الفلسفة، وكان خبيرًا بتأليف الأدوية المركبة، بصيرًا بترقة العلل، أشبه الأوائل في علمه وجودة قريحته، استوطن القيروان حينًا وألف سكنه وألف فيه كتبًا منها: كتابه في داء الما ليخوليا^(٥) لم يسبق إليه، ثم توحش له ابن الأغلب فصلبه، وكان السبب أن ابن الأغلب وكان نهبًا، وكان إسحق يمنعه من

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ١٧٣).

(٢) الأصح: يعرف باسم ساعة. انظر عيون الأنباء (٣/ ١٧٣).

(٣) ابن الأغلب: هو زيادة الله بن الأغلب التميمي الذي أنشأ جامع القيروان، وأحد ملوك الأغالبة البارزين.

(٤) أفريقية: تونس.

(٥) الما ليخوليا: اختلاط العقل، وهو نوع من الجنون والوسواس السوداوي.

كثير من المأكّل، فقدم عليه حدث يهودي من الأندلس، فكان يخالف إسحق فيما يشير به على ابن الأغلب، فقدم إليه يومًا لبن وكان يشكو ضيق نفس، فنهاه إسحق عن أكله وهونه اليهودي عليه فأكله فعرض له في الليل ما أشرف منه على الهلاك، فأرسل يقول لإسحاق: هل عندك علاج؟ فقال: لا. فقبل له: هذه خمس مائة دينار وعالجه فأبى، فلم يزل حتى أوصل إلى ألف دينار فأخذها وأطمعه الثلج حتى امتلأ ثم قيأه فخرج جميع اللبن، وقد تحبب ببرد الثلج، فقال له إسحاق: أيها الأمير، لو دخل هذا اللبن أنابيب رثتيك ولج فيها أهلكك بضيق النفس، لكنني أجهدته وأخرجته قبل وصوله، فقال ابن الأغلب: باع والله إسحق روعي في البدء، اقطعوا رزقه، فخرج إسحق إلى مكان من رحاب القيروان، وصار يكتب الصفات^(١) كل يوم بدنانير كثيرة، فقبل لابن الأغلب: طردت إسحاق أو دلتته على الغنى؟ فسجنه، فنبهه الناس إلى السجن يستوصفونه، فأخرجه ليلاً، ثم كانت له معه حكايات ومعاتبات أحققت عليه، ففصده في ذراعيه حتى مات، ومكث حتى عشنش في جوفه الطير^(٢).

ومهم:

٥٢- إسحق بن سليمان الإسرائيلي أبو يعقوب^(٣)

المعروف المشهور، والمألوف طبه المشكور، طالما وهب الكواكب إيقاظ نومه، ومنح الغياهب أنقاض يومه، ودانى العلياء لو حفظ لسانه، ولفظ إلا إحسانه، لم يسلم من عثرات لا تقال، وتحفظ ولا تقال، لعجلة كانت له خلُقًا، وكالت بالمكايل عليه الشقاء، فلم يخل من ملام، وكلام مثل كلام.

(١) أي: الوصفات العلاجية.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/ ١٧٣-١٧٦).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ١٧٨-١٨١).

قال ابن أبي أصيبعة: «كان طبيباً فاضلاً، بليغاً عالماً، مشهوراً بالحدق والمعرفة، جيد التصنيف، عالي الهمة، وهو الذي شاع ذكره وانتشرت معرفته بالإسرائيلي، وهو من أهل مصر، وكان يكحل في أوليته، ثم سكن القيروان، ولازم إسحاق بن عمران، وتلمذ له، وخدم المهدي عبيد الله بالطب، وعمر إلى أن نيف على مائة سنة، ولم يتزوج امرأة، ولا ولد ولدًا، وقيل له: ايسرك أن تخلف ولدًا؟ فقال: أما إذا بقي بعدي كتاب «الحميات» فلا، يعني: أن بقاء ذكره بهذا الكتاب الذي صنفه أكثر من بقاء ذكره بالولد.

ويروى أنه قال: لي أربعة كتب تحيي ذكري أكثر من الولد.

وحكى قال: لما قدمت من مصر على ابن الأغلب، بعث إليّ بخمسة مائة دينار، قويت بها على السفر، فلما وصلت أدخلت عليه ساعة وصولي، فسلمت عليه بالإمرة، وفعلت ما يجب أن يفعل للملوك من التعبد، فرأيت مجلسه قليل الوقار، والغالب عليه حب اللهو، فابتدأني بالكلام، فقال ابن حبيش المعروف باليوناني: تقول: إن الملوحة تحلو؟ قلت: نعم. قال: فالخلاوة إذاً هي الملوحة، والملوحة هي الخلاوة، فقلت: إن الخلاوة تحلو بلطف وملائمة، والملوحة تحلو بعنف. وتمادى على المكابرة، وأحب المغالطة، فلما رأيت ذلك منه قلت له: أنت حي؟ قال: نعم. قلت: والكلب حي؟ قال: نعم. قلت: فأنت الكلب، والكلب أنت، فضحك ضحكاً شديداً، فعملت أن رغبته في الهزل أكثر من الجد.

قال: فلما وصل داعي المهدي إلى «رقادة» (١) أدناني وقرني، وكانت به حصاة في الكلى، فعالجته بدواء فيه العقارب المحرقة، فجلست ذات يوم مع قوم من كنانة، فسألوني عن صنوف من العلل، وبيقت كلما أجبتهم لا يفقهون قولي، فقلت لهم: إنما أنتم بقر، فبلغ الخبر داعي المهدي، فقال لي: أتقابل إخواننا المؤمنين بما لا يجب وتالله الكريم لولا أنني أعذكرك بأنك جاهل بحقهم، وبما صار إليهم من معرفة الحق وأهله لأضربن عنقك» (٢).

(١) مدينة تقع جنوب القيروان.

(٢) انظر: عيون الأنباء، (٣/ ١٧٩، ١٨٠).

ومنه:

١٥٤- أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد المعروف:

بابن الجزار القيرواني أبو جعفر^(١)

طبيب كان في فعله محمودًا، وعلى فضله محسودًا، يكاد طبه يدافع الآجال، ويضيق على جالينوس المجال، إلى دقائق أخرى، وحقائق أبقت له إلى الأخرى، مع رتبة لو أنها للنجوم لتقرط بأشنافها، أو بالعلوم لما كانت إلا لأشرافها، وكان لا يشمخ الكبر بعربيته^(٢)، ولا يطمع البر في دخول عربيته، وإنما يتحلى بالاتضاع، ولا يروع بفصال له من رضاع، ثم سكن الترب مضجعًا، وساء شامتًا ومتوجعًا، وأمسى رهين عمله، وضمن اليأس لانقطاع أمله.

قال ابن أبي أصيبعة: «طبيب ابن طبيب، ممن أخذ عن إسحاق بن سليمان، وكان من أهل الحفظ والتطلع، والدراسة في الطب وسائر العلوم، حسن الفهم لها^(٣).

قال ابن جليل: كان قد أخذ لنفسه مأخذًا في سمته وهديه وتعددته، ولم تحفظ له زلة، ولا أخلد إلى لذة، وكان يشهد الجنائز والأعراس، ولا يركب إلا إلى المهدي عبيد الله، وإلى عمه أبي طالب، فإنه كان له صديقًا حميمًا، وأليفًا قديمًا، وكان يأتيه في كل يوم جمعة، وكان ينهض في كل عام إلى رباط البحر فيكون طول مدة القيظ، وعالج ولد

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ١٨٢-١٨٦).

(٢) العربيين: أول كل شيء، والعربيين: ما صلب من غظم الأنف حيث يكون من الشمم. [المعجم الوسيط].

(٣) ذكر ابن أبي أصيبعة أن لابن الجزار من الكتب: التعريف لصحيح التاريخ، زاد المسافر في الطب، رسالة في النفس، رسالة في النوم والبقظة، رسالة في الزكام، رسالة في الجذام، نصائح الأبرار، كتاب الأسباب المولدة للوباء في مصر والحيلة في دفع ذلك، رسالة في استهانة الموت، والأدوية المفردة.

النعمان القاضي، فبعث إليه بمنديل مملوءة بكسوة وثلاثمائة دينار، فلم يأخذ شيئاً، فقيل له: رزق ساقه الله إليك. فقال: والله لا كان لرجال معد قبلي نعمة.

وعاش نيفاً وثمانين سنة، وترك أربعة وعشرين ألف دينار، وخمسة وعشرين قنطاراً من كتب طبية وغيرها^(١).

٥٥ - حمدون أنا^(٢)

شفى المرض بطبّه، وهوّ عن المريض همّ خطبه، وأحسن علاجاً، وأحسن في ليل المساء انبلاجاً، وسلك من طرق القدماء أحسنها، وأحل من رمق الذماء^(٣) أحسنها، وكان لا يكره على مر الدواء، ولا يضيق في علاج الداء، لمعرفته بالأبدال، وقدرته إذا جد الجدل، فلم يزل محظياً، ولم يبرح في قومه رضىً.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان في أيام محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وكان حاذقاً مجرباً، وكان صهر بني خالد، وله بقرطبة أصول ومكاسب، وكان لا يركب الدواب إلا من نتاجه، ولا يأكل إلا من زرعه، ولا يلبس إلا من كتان ضيعته، ولا يستخدم ببلاده إلا من أبناء عبيده»^(٤).

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ١٨٣، ١٨٥).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء، (٣/ ١٩٨).

(٣) الذماء: ذمى المذبوح؛ أي بقيت فيه حركة، وذمى المريض: أخذه النزاع فطال احتضاره. [المعجم الروميط].

(٤) انظر: عيون الأنباء (٣/ ١٩٨).

ومنهم:

١٥٦- يحيى بن إسحاق^(١)

حكيم لم يكذب صدق حدسه، ولا يخفى غامض على حسه، كان بصره منورًا، ونظره لخفايا البواطن متصورًا، ولهذا قرطس سهمه، وقرط بالثريا اسمه، وسبق ذكره النجوم وقطعها، وسار في جميع الأرض كأنه أقطعها، وكان أهل زمانها يتهادونه تهادي الرياحين، ويظنون أنهم يحيون به إلى حين، وهيئات فيم يفتخرون، وهيئات إذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون.

ذكره ابن أبي أصيبعة وقال: «كان طبيبًا بصيرًا بالعلاج، صانعًا بيده، وكان في صدر دولة عبد الرحمن الناصر، بمكان الثقة، وكان يطلعه على الكرائم والخدم، وكان قد أسلم.

قال ابن جلعجل عن رجل كان بباب داره إذا أتى بدوي على حمار وهو يصيح، فخرج إليه وقال له: ما بالك يا هذا؟ فقال: أيها الوزير، ورم في إحليلي منعني من النوم منذ أيام كثيرة، فقال له: اكشف عنه. فكشف فإذا هو ورم، فقال لرجل كان مع العليل: اطلب له حجرًا أملس، فأتاه به، فقال: ضعه على كفك، وضع عليه الإحليل [ففعّل، فلما تمكن إحليل الرجل من الحجر، جمع الوزير يده وضرب على الإحليل] ^(٢) ضربة عُثِي على الرجل منها، وجرى من الإحليل صديد الدم إلى أن نزف، ثم فتح عينيه، وبال البول، فقال له: اذهب فقد برئت، وأنت كنت قد عشت فأنتت بهيمة في دبرها فصادفت شعيرة من علفها، فلجّت في عين الإحليل، فورم لها، وقد خرجت الآن في الصديد.

(١) انظر: ترجمته في تاريخ الحكماء للقنطري ص ٣٥٩-٣٩٠، طبقات الأطباء لابن جلعجل ص ١٠٠، عيون الأنباء (٣/٢٠٧-٢٠٩).

(٢) ساقط من الأصل.

فقال الرجل: قد كان ذلك مني، وأقر بفعلته»^(١).

ومنهم:

٥٧: أبو داود بن جليل^(٢) وهو سليمان

ابن حسان المعروف بابن جليل

حكيم فاض بحره التيار، وفات سرى الكواكب ذكره السيار، وحام على المجرة
ووردها، وجفا بطبه بنات نعش ووأدها، ولج على عارض الحرارة وأطفا موقدها، وحل
مجالس الملوك وحل عقدها، وخزى به المرض واكتأب، وحصل بصناعته الأموال
واكتسب، ولم يكن ممن يتهور في إقدام، ولا يتصور أن ينقل إلى ذي سفالة أقدام، فكان
مدة حياته موقراً، ولا يظاً إخصه إلا حريراً وعبقراً.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان خبيراً بالمعالجات، جيد الصرف في صناعة الطب، وكان
في أيام هشام المؤيد^(٣)، وخدمه، وله اعتناء بقوى الأدوية، وفسر أسماء الأدوية المفردة من
كتاب ديسقوريدس العين زربي، وأفصح عن مكنونها، وأوضح مستغلق مضمونها،
وهذا الكتاب ترجمه اسطفان^(٤) أيام المتوكل، وفسر من مفرداته ما عرف له اسم في اللغة
العربية، وأبقى اسم ما لم يعرف له اسم.

قال: وأهدى أومانوس صاحب القسطنطينية إلى عبد الرحمن الناصر هدايا جليلة

(١) انظر: عيون الأنباء (٢٠٨/٣).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٢٢٣/٣).

(٣) هو: هشام بن الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، المؤيد بالله، ولد في

جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وتولى الحكم بكرة يوم الاثنين لخمس خلون من صفر سنة

(٣٣٦هـ). انظر: الوافي بالوفيات (٢٧/٢٠٤)، سير أعلام النبلاء (٨/٢٧١).

(٤) اسطفان المترجم: أحد المترجمين المشهورين في زمن المتوكل.

عظيمة المقدار؛ منها كتاب ديسقوريدس. مكتوبًا بالإغريقي، وهو اليوناني، مصورًا بالتصوير الرومي العجيب، وكتب إلى الناصر يقول له: إن هذا الكتاب لا يجتني فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني، ويعرف أشخاص الأدوية، فإن كان في بلدك من يحسن هذا، فزت بفائدة هذا الكتاب، فبقي في خزانة الناصر، ثم بعث أرمانوس إلى الناصر راهبًا اسمه نقولا، ففسر من أسماء عقاقيره ما كان مجهولًا، وهو أول من عمل بقرطبة درياق الفاروق^(١).

قال ابن جلجل: واجتمع أطباء قرطبة مع نقولا على معرفة أشخاص الأدوية المذكورة في كتاب ديسقوريدس، قال: وأدركت نقولا الراهب ومن اجتمع معه في أيام المستنصر الحكم، في صدر دولته، وصحبته فصيح يبحث هؤلاء الوقوف على أشخاص هذه العقاقير بمدينة قرطبة، وتصحيح أسائها إلا القليل الذي لا بال به ولا خطر له، وذلك يكون في مثل عشرة أدوية^{(٢)(٣)}.

(١) درياق الفاروق: هو ترياق الأفاعي، وهو دواء ضد السموم.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٢٢٣-٢٢٧).

(٣) ذكر ابن أبي أصيبعة: أن لابن جلجل من الكتب: كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس، مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس، كتاب فيها يستعمل في صناعة الطب وينتفع به وما لا يستعمل لكيلا يغفل ذكره، رسالة التبيين فيها غلط فيه بعض المتطبيين، كتاب يتضمن ذكر شيء من أخيار الأطباء الفلاسفة.

ومنهم:

٥٨- أبو جعفر يوسف بن أحمد^(١) بن حسداي^(٢)

حكيم جلّ قدره، وجلا الظلماء بدره، تصدى طبه للأدواء فحسمها، وشدها ببناء الأعضاء وقد حطمها، وسرى علاجه في العلل الجسام سري الأرواح في الأجسام، وبهذا ثبت زلزالها وردّها إلى مصاحبة الجسوم وقد نوت اعتزالها، وفعل في هذا الغاية بلفظ مداراته، وكف ما لم يقدر الثوب على مواراته، ثم لم يغن عنه طبه إذ حان حينه، وقرب ما بينه وبين الموت بينه.

قال ابن أبي أصيبعة فيه: «من الفضلاء في صناعة الطب، وله اعتناء بالغ بالاطلاع على كتب أبقرات، وجاليونس، وفهمها، وكان قد سافر من الأندلس إلى مصر، واشتهر بها ذكره في أيام الأمر^(٣)، وكان خصيصًا بالمأمون الأمري الوزير، وكان قد أمره المأمون شرح كتاب الإيوان لأبقرات، فشرحه، وكان مدمناً للشراب، وعنده دعابة ونوادر، حكى أنه كان قد رافق بعض الصوفية في سفرة سافرها من الإسكندرية إلى القاهرة، فقال له الصوفي: أين تنزل في القاهرة حتى أكون أراك؟

فقال: ما في نيتي أنزل إلا في الخمار وأشرب، فغضب الصوفي عليه، فلما أتيا القاهرة تفرقا، فلما كان في بعض الأيام مر ابن حسداي في السوق، وإذا بأفواج الناس مزدحمة، وبينهم صوفي يعزر، فنظر إليه فإذا هو صاحبه قد أمسك وهو سكران، فقال له ابن حسداي: والله ما قتلك إلا الناموس».

(١) في الأصل: محمد، والمثبت من عيون الأنباء (٣/٢٣٩).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/٢٣٩).

(٣) هو: منصور بن أحمد بن معد، أبو علي الأمر بأحكام الله بن المستعلي بن المستنصر، كان متظاهراً بالكر واللمه والجبروت، ولي الحكم وهو صغير، وقتل الأفضل أمير الجيوش ثم المأمون البطاحي. انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/١٩٧-١٩٩)، وفيات الأعيان (٥/٢٩٩-٣٠٢).

ومنهم:

١٥٩- الغافقي: وهو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سند

رسا في العلم ورسخ، وأنسى ما في كتب القدماء ونسخ، وطلع في حالات الأهله، وأراع علالات العله، وناسب ما يلائم النفوس وصفًا، وورد مثل رزق النطاق وأصفي، ولم يُعد مريضًا إلا كشف غماء المرض، وكف إياء المرض، وكان يتبرك بعيادته، ويتمن تيمنا كان سببًا لسيادته، إلا أنه بمعرفة قوى الأدوية أدرب، وحده فيها أغرب، وكلامه فيها كلام من رأى وجرب.

قال ابن أبي أصيبعة فيه: «إمام فاضل، وحكيم عالم، ويعد من الأكابر، وكان أعرف أهل زمانه بقوى الأدوية المفردة، [وكتابه في الأدوية المفردة]^(١) لا نظير له في الجودة، ولا شبيه له، وقد استقصى فيه ما ذكره ديمقوريدس والفاضل جالينوس بأوجز لفظ، وأتم معنى، ثم ذكر ما تجدد للمتأخرين فيها من الكلام، وما لم به كل واحد منهم، فجاء كتابه جامعًا لما قاله الأفاضل فيها، ودستورًا يرجع إليه فيما يحتاج إلى تصحيحه منها»^(٢).

ومنهم:

١٦٠- أبو بكر عتيق بن تمام بن أبي البون الأزدي

طبيب أبرأ الاسقام، ورأيت له من الفضل أوفر الأقسام، جرى في طلق الوفاء، وجرب منه مطلق الشفاء، هذا وهو شاعر لا يذعر له جنان، ولا يسعر إلا وفي فيه سنان، يبعث سهام الأرقم، ويجرع الحمام في كأس العلقم.

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من النسخ، والمثبت من عيون الأنباء.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٢٤٥).

قال ابن رشيق^(١): غلب عليه اسم الطب، فعرف به لحذقه فيه، ومكان أبيه منه، وهو شاعر حاذق، مفتوق اللسان، حاضر الخاطر، لم أر قط أسهل من الشعر عليه، يكاد لا يتكلم إلا به، وأكثر تأدبه بالأندلس، لقي بها ناسًا وملوكًا، وأخذ الجوائز، وقارع فحول الشعراء.

ومما أنشده قوله: [الطويل]

فلم أنسها كالشمس أسبل فوقها من الشعر الوحف^(٢) الأثيث عذوق
فلو ذاب ذا أو سال جريال^(٣) خدها جرى سيج منه وسال عقيق

قال: فأنت ترى الطبع كيف حل هذا المعنى، كما تحمل الأرواح الأجسام، ولو وضع بين قسطاط المحرزين، وحل على مذاهب المتعصبين، لرأيت أنه أثقل من العذل، وأقتل من الجهل؛ لأن التصنع تكلف، والتكلف مغصوب مكره، غير أن القسم الآخر منقول بذاته من شعر ابن هانئ في وصف فرس.

ومن أبيات ابن أبي البون: [الطويل]

فمت تسترح يا قلب إن كنت عاشقًا فإنسك فيهما بالمهات خليق
ومن لم يمت في إثر ألف مودع فليس له بالعاشقين لحوق

(١) أبو علي الحسن بن رشيق، أحد الأفاضل البلغاء، قيل: ولد سنة تسعين وثلاثمائة بالمهديّة، قرأ الأدب والشعر واشتهر به، وصنف فيه التصانيف الحسنة؛ منها: كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده وعبويه، وكتاب الأنموذج والرسائل الفائقة، قيل: مات في سنة ست وخسين وأربعمائة، وقيل: مات في سنة ثلاث وستين وأربعمائة وهو الأصح. انظر: شذرات الذهب (٣/٢٩٧، ٢٩٨)، الوافي بالوفيات (١٢/٩-١١)، وفيات الأعيان (٢/٨٥-٨٩).

(٢) الوحف: غزارة الشعر وشدة اسوداده. [المعجم الوسيط].

(٣) الجريال: من أسماء الخمر.

وعما أنشد له أيضًا قوله: [البسيط]

يحملُ المرهقين الطائعين له
حتى إذا انكشفت عن عارض حسن
أراه ضربًا يريه أهله معه
تركت أهلي وأوطاني لقصد فتى
على الماجد الحر الجواد ومن
ومن إذا استمطر العافون راحته
ومن حوى ربًا لم يحوها بشر
والفرع عن جده ينمى ومحتده
تجري النجاة طبعًا في شأئله

وقوله: [السريع]

يا قائدًا ما مثله قائد
وواحدًا ما إن له مشبه
ومن غدا بأبيه والدا
إن قلت كالبحر عطاء فإ
أو قلت كالقطر سماحًا فإ
أو قلت كالقدر فقد ين
هذا على واحد للعلى
أنا الفتى الشاكر إحسانه

يشكره القائم والقاعد
وماجد ما فوقه ماجد
برًا لمن ليس له والد
ن البحر لا يشكره السوار
ن القطر مع كثرته نافد
قص البدر وهذا أبدًا زايد
أوحده في عصره الواحد
والله الله أبدًا شاكر^(١)

(١) شاكر: من شكك وهو العطاء بلا جزاء. [المعجم الوسيط].

ومنهم:

١٦١- أبو محمد المصري^(١)

الحكيم لا يقصر في حكمه، ولا يعجز أن ينطق من تهادى في بكمه، جرى الأدب بقلمه، وسرى نفس في كلمه، وحظي بقبول كان يتلقاه حيث حل، ويحله أكرم محل، ويتحفه بحباء الملوك بما ينعم به بالآ، ويعم حساده وبالآ، وكان لا يحب دعوة الصلاح، ولا يستطيع سلوة عن الحلاج، قد أوثقت الحديق النجل جراحًا، وأوبقت الذوائب فلا يجد سراحًا، وكان كالخمر في سلب العقول، وكالسحر في الخلب بما يقول، حاذقًا بصيد الدراهم، واستخراج خبايا الحبوب، ولو زُرَّت بحديق الأراقم.

قال ابن بسام^(٢) فيه: شيخ الفتيان، وأبدة الزمان، وخاتمة أصحاب السلطان، وكان رحل إلى مصر واسمه خامل، وسماؤه عاطل، فلم ينشب أن طرأ على الأندلس، وقد نشأ خلقًا جديدًا، وأجرى إلى النباهة طلقًا بعيدًا، فتهادته الدول، وانتهت إليه التفاصيل والجمل، وكلما طرأ على ملك فكانه معه ولد، وإياه قصد، فجرى مع كل أحد، وتمول في كل بلد، وتلون في العلوم بلون الزمان، وتلاعب بالملوك بأفقهها تلاعب الريح بالأغصان، حتى ظفر به ابن ذي النون، فشد عليه يد الضنين، فوجد كنفًا سهلاً، وسلطانًا غفلاً، فسر وساء، وارتسم في أي الدواوين شاء.

وكان بالطب أكلف، وعليه أوقف، فتعلق بسببه حتى اشتهر به، وكان حسن البيان، مليح المجلس، حاضر الجواب، كثير النادر، راوية للشعر والمثل السائر، نسبة للمفاخر، عارفًا بالمثالب والمناقب، وكان بالجملة روضة أدب، وهيهات أن يأتي الدهر

(١) انظر: ترجمته في المغرب (١/١٢٨).

(٢) هو: علي بن بسام، أبو الحسن الشتريني، صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. انظر: الوافي بالوفيات (٢٠/١٦٢).

بمثله، وتحيز إلى إشيلية فأنس المعتمد^(١) بمكانه، وجعل له حظاً من سلطانه، ثم بقي بعده على حاله، مشتملاً بفضل إقباله، ممتعاً مقبلاً على لذاته.

ومما أنشد له قوله: [البسيط]

قال الوشاة ودمع العين ينحدر ودمعة فوق روض الورد قد حارا
النار يحرقها قلبي بزفرته من العجيب فؤاد يحرق النارا

وقوله:

ظلك أضحى لي بلا مـرية مؤثراً في خـدك الناضـر
ما أرفق الله بأهل المـوى إذ صيّر الجور على الجائر

وقوله: [الطويل]

ومن أصبحت فيه المكارم جوهرًا بلا عرض فالمدح فيه قبيح
ولكن رأيت الشعر يثبت ذكره فلا غرو أن يهدي إليك مديح

وقوله وهو معنى قول أبي نواس ولكنه نقله: [الوافر]

وما يحتاج يوم الحرب جيشًا فإن عنده كالزراع الحطيم
وإن أبقى لهم فرعون سحرًا ففي يده عصا موسى الكليم

وقوله في مهر قتله تغالب الفحول عليه: [البسيط]

يا يوسف الخيل يا مقتول إخوته قلبي لفقدك بين الحزب والحزب
إن كان يعقوب لم يقنع بكذبهم إني لأقنع منهم بالدم الكذب

(١) هو: محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن قريش اللخمي، ولد سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وتوفي سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة. انظر: ترجمته في وفيات الأعيان (٢١/٥-٣٩)، سير أعلام النبلاء (٥٨/١٩)، الوافي بالوفيات (١٥١-١٥٥)، شذرات الذهب (٢٨٦-٣٩١).

وما التناسب في القربى بنافعة إن لم تكن أنفـس القربى ذوي نسب

وقوله يصف قصر طليطلة: [الكامل]

قصر يقصر عن مداه الفرقد^(١) عذبت مصادره وطاب المسورد
وكانها الأقداح في أرجائه دار جهاد ذاب فيه العسجد

وقوله يصف القبة: [الكامل]

شمسية الأنساب بدريـة بحـار فـي نسبـتها الخاطر
كانها المأمون بدر الدجى وهي عليه الفلك الدائر

وقوله: [خلع البسيط]

أي هلال أطـل فينا مطلعـه الطوق والجـيوب
يقودنا كيف شاء طوعاً لأن أعـوانه القلـوب

ومنهم:

٦٢-١- أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الداني^(٢)

رجل يرتع في حديقته، ويرجع الفضل إلى حقيقته، لا يقف سيف ذهنه عند حد، ولا يخرج ما سمع في حافظته من لجد حسياً في الطلب، لا ينال باللمس، ونسباً في الأدب إلا أن أمية بن عبد العزيز لا يقاس به أمية بن عبد شمس.

(١) الفرقد: نجم من القطب الشالي ثابت الموقع تقريباً، ولذا يُتدى به، وهو المسمى «النجم القطبي».
[المعجم الوسيط].

(٢) انظر: ترجمته في وفيات الأعيان (١/٢٤٣)، معجم الأدباء (٧/٥٢-٧٠)، عيون الأنباء (٣/٢٤٧).

قال ابن خلكان: «كان فاضلاً في علوم الآداب، صنف كتابه الذي سماه: الحديقة، على أسلوب يتيمة الدهر للشعالبي، وكان عارفاً بفن الحكمة، وكان يقال له الأديب الحكيم، وكان ماهراً في علوم الأوائل، وانتقل من الأندلس، وسكن الإسكندرية، ثم انتقل إلى المهديّة، فمات بها، وذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه».

وذكره ابن أبي أصيبعة وقال: وهو من الأكابر الفضلاء في الطب وغيره، وبلغ في الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء، وحصل من الأدب ما لم يدركه كثير من الأدباء، وكان فريداً في علم الرياضي، مجيداً في صنعة الموسيقى، جيد اللعب بالعود، لطيف النادرة، فصيح اللسان، جيد المعاني، لشعره رونق، وأتى مصر وأقام مدة بالقاهرة، ثم عاد إلى الأندلس، وحبس بالإسكندرية؛ لأنه كان قد غرق بها مركب فيه أموال جليلة، فالتزم بعمل آلات يخرج بها المركب بها فيه، وشرع في عمل الآلة بحبال الإبريسم، تنطوي على دواليب، ليرفع بها المركب الغارق، فعزم عليها جملة طائلة، فلما ظهر المركب الغارق وقارب الخارج، ثقل على الحبال، فقطعها وسقط إلى قعر البحر، فغضب الوالي عليه، وحبسه، فكتب إلى ابن الصيرفي يستشفع به، وبعث إليه بقصيدتين، يمدح بها الأفضل ابن أمير الجيوش.

وأول الأولى: [مجزوء الكامل]

الشمس دونك في المحل والطيب ذكرك بل أجل

وأول الثانية: [الكامل]

نسخت غرائب مدحك التشييبا وكفى بها غزلاً ونسيبا

فأجابه بجواب وهو: [الطويل]

لئن سترتك الجدر عنا فربما رأينا جلايب السحاب على الشمس

وردتني رقعة مولاي فأخذت في تقيلها كأنني ظفرت بيد مصدرها، أو تمكنت من

أنامل مسطرها، ووقفت على ما تضمنته من الفضل الباهر، وما أودعته من الجواهر التي
قذف بها فيض خاطر: [الطويل]

نكرر طوراً من قراءة فصوله فإن نحن أتمنا قراءته عدنا
إذا ما نشرنا فكالمسك نشره نطويه ولا طي السامة بل ضنا

فأما ما اشتملت عليه من الرضا فحكم الدهر ضرورة، وكون ما اتفق عارض
بتحقيق ذهابه، ومروره ثقة بعواطف السلطان ومراحه، وسكونا إلى ما جلبت النفوس
عليه من معرفة فواضله ومكارمه، فهذا قول مثله ممن طهر الله دينه ونزهه من الشكوك
ضميره وبقينه: [الكامل]

لا يؤيسنك من تفرج كربة خطب رماك به الزمان الأنكد
صبراً فإن اليوم يتبعه غد ويد الخلافة لا تطاولها يد

وأما ما أشار إليه من أن الذي منى به من تمحيص أوزار سبقت، وتنقيص ذنوب
اتفقت، فقد حاشاه الله من الدنايا، وبرأه من الآثام والخطايا، بل ذلك اختبار لتوكله
وثقته كما يتلى المؤمنون الأتقياء، ويمتحن البررة الأولياء، والله يدبره بأحسن التدبير،
ويقضي له بتسهيل كل عسير، وقد اجتمعت فلان فأعلمني أنه تحت وعده، وأنه ينتظر
فرصة من التذكار يتهزها ويغتنمها، ويرتقب فرجة للتقاضي يتولجها ويفتحها، والله
يعينه على ما يضم من ذلك وينويه، ويوفقه فيما يحاوله ويبغيه، وأما القصيدتان فما
عرفت أحسن منهما مطلعاً، ولا أجود متصرفاً ومتقطعاً، ولا أملك للقلوب والأسماع،
ولا أجمع للإغراب والإبداع، ولا أكمل في فصاحة الألفاظ وتمكن القوافي، ولا أكثر
تناسباً على كثرة ما في الأشعار من التباين والتناهي، ووجدتها يزدادان حسناً في التكرير
والترديد، وتفاءلت فيهما بترتيب قصيدة الإطلاق بعد قصيدة التقييد، والله يحقق رجائي
في ذلك وأمني، ويقرب ما أتوقعه، فمعظم السعادة فيه لي، ثم أطلق سراحه.

ومن شعره: قوله في حالي نجم الثريا مشرقاً ومغرباً وطالعا: [المتقارب]

رأيت الثريالها حالتان منظرها فيهما معجب
لها عند مشرقها صورة يريك مخالفها المغرب
فتطلع كالكأس إذ تستحث وتغرب كالكأس إذ يشرب

وقوله في الموضع المعروف ببركة الحبش بمصر: [المنسرح]

لله يومي ببركة الحبش والأفق بين الضياء والغيش
ونحن في روضة مفوقة دبج بالنور عطفها ووشى
قد نسجتها يد الربيع لنا فنحن من نسجها على فرش
وأثقل الناس كلهم رجل دعاه داعي الصبا فلم يطش
فعاطني الراح إن تاركها من سؤرة الهم غير منتعش
وأسقني بالكبار مترعة فتلك أروى لشدة العطش

وقوله: [الكامل]

وارحمناه لمعذب يشكو الجوى بمنعم يشكو فراغ البال
نشوان من خمرة خمر زجاجة غبث بمقلعة وخمر دلال
لا يستفيق وهل يفيت لحاله من ريق فيه سلافة الجريال
علم العدو بما لقيت فرقاً لي ورأى الحسود بليتني فرثى لي

وقوله: [الطويل]

إذ كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين أقارب
ولا بد لي أن أسأل العيس حاجة تشق على شم الذرى والغوارب

وقوله: [الكامل]

دب العذار بخده ثم اثنى عن لثم مبسمه البرود الأشنب

لا غرو إن خشى الردى في لثمه فالريق سم قاتل للعقرب

وقوله: [الكامل]

كيف لا تبلى غلائله وهو بدر وهي كتان!

وقوله يصف فرساً أشهب:

وأشهب كالشهاب أضحى يجو ل في مذهب الجلال
من أنجم الصبح بالثريا وأسرج السبرق بالهلال

وقوله في طيب اسمه شعبان: [الرملة]

يا طيباً ضجر العا لم منه وتبرم
فيك شهران من العا م إذا العمام تصرم
أنت شعبان ولكن قتلك الناس محرم

وقوله: [الطويل]

يقولون لي صبراً وإني لصابر على نائبات الدهر وهي فواجع
سأصبر حتى يقضي الله ما قضى وإن أنا لم أصبر فما أنا صانع

وقوله: [السريع]

ساد صغار الناس في عصرنا لا دام من عصر ولا كانا
كالدست مهما هم أن ينقضي عاد به اليدق فرزاننا

وقوله وقد رأى مليحاً أبيض قد قام فجاء قبيح أسود قعد مكانه: [الطويل]

مضت جنة المأوى وجاءت جهنم فقد صرت أشقى بعدما كنت أنعم
وما هي إلا الشمس حان أفولها وأعقبها قطع من الليل مظلم

وقوله: [الطويل]

وقائلة ما بال مثلك خاملاً
فقلت لها: ذنبي إلى القوم أنسي
وما فاتني شيء سوى سوء الحظ وحده

وقوله: [الرجز]

جد بقلبي وعي
واحرباً من شادن
يقتل من شاء بعيني
فأبي ود لم يخن

وقوله: [الكامل]

ومهفف تركت محاسن وجهه
ففعالها في مقلتيه ولونها

وقوله:

عجبت من طرفك في ضعفه
يفعل فينا وهو في غمده

وقوله: [البسيط]

وقمت إذ قعد الأملاك كلهم
بالبيض تسقط فوق البيض أنجمها
بيض إذا خطبت بالنصر ألسنها
وذبل من رماح الخط مشرعة

أأنت ضعيف الرأي أم أنت عاجز؟
لما لم يحوزوه من المجد حائز
وأما المعالي فهي عندي غرائز

ثم مضى وما اكترث
في عقد الصبر نفث
— ومن شاء بعث
وأبي عهد ما نكت؟

ما مجَّه الكأس من إبريقه
من وجتيه وطعمها من ريقه

كيف بصيد البطل الأسيدي
ما يفغل إذا جردا

تذب عنه وتحميه وتتصر
والسمر تحت ظلال النقع تشتجر
فمن منابرها الأكباد والقصر
في طولهن لأعمار العدا قصر

تغشى به غمرات الموت أسد شرى
مستلمين إذا سلوا سيوفهم
ترتاح أنفسهم نحو الوغى طرباً
الله زان بك الأيام من ملك
وللعجاج على صم القنا طلل
إذ يرجع السيف بيدي خده علقا
أما يهولك ما لاقيت من عدد
فاضرب بسيفك من ناواك منتقماً
ما كل وقت ترى الأملاك صافحة
ومن ذوي البغي من لا يستهان به
إن الرماح غصون يستظل بها
أضحى شهنشاه^(١) غيثاً للندى غدقاً
الطاعن الإلف إلا أنها نسق
ملك تبوأ فوق النجم مقعده
يرجى نداءه ويخشى عند سطوته
ولا سمعت ولا حدثت عن أحد
ولا بصرت بشمس قبل غرته
ولم أطلها بأني جد معترف

من الكفاة إذا ما استنجدوا وابتدروا
شبهتها خلجاً مدت بها غدر
كأنها الدم راح والظبي زهر
لك الخجول من الأيام والغرر
هى السدخان وأطراف القنا سرر
كصفحة البكر أدمى خدها الخفر
سيان عندك قلل القوم أو كثروا
إن السيوف لأهل البغي تسدخروا
عن الجزائر تعفو حين تقتدر
وفي الذنوب ذنوب ليس تغتفر
وما هن سوى هام العدا ثمر
كل السبلاد إلى سقياه تفتقر
والواهب الألف إلا أنها يدُر
فكيف تطمع في غاياته البشر؟
كالدهر يوجد فيه النفع والضرر
من قبله يهب الدنيا ويعتذر
إذا تجلى سناها أغدق المطر
بأن كل طويل فيه مختصر

وأورد ابن سعيد قوله في الرقص لمن جاد عليه قبل مديحه: [الكامل]

(١) شهنشاه: فارسية معناها ملك الملوك.

لا غرو إن سبقت يدك مدائحى فتدفقت جدواك ملء إنائها
يكسى القصيب ولم تجن أثباره وتطوق الورقاء قبل غنائها

ومنهم بنو زهر فمنهم:

٦٢-١ أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر

الإيادي الأشبيلي^(١)

حكيم دافع قوى الضراء، وتابع صواب الآراء، فراد الأسقام ومانع الداء، وقد فتح فاه للالتقام على لطف في علاجه وتسكين لثوائر المرض وعجاجه، ورفق زانه في تأنيه، وزاده في تأنيه، فكان يعد فردًا ويعد من أم مشربه وردًا، ثم لم يخلف له موعد، ولا يخاف معه من سحابه مرض مرعد، لكنه لم تغن عنه حيلة، ولم يكن له بد أن يأتيه أجله.

قال صاعد: «إنه دخل القيروان ومصر وتطبب بها زمانًا طويلًا ثم رجع إلى الأندلس وقصد مدينة دانية، واتصل بمجاهد ملكها، وأمره أن يقيم عنده فحظي واشتهر بالتقدم في الطب، وشاع ذكره منها في الأقطار، وله في صناعته إرشاد منه بمنعه من الحمام لاعتقاده فيه أنه يعفن الأجسام، ويفسد تركيب الأمزجة. قال: وهذا رأي يخالفه فيه الأوائل، ويشهد بخطئه فيه الخواص والعوام، بل إذا استعمل على الترتيب الذي يجب بالتدريج الذي ينبغي كان رياضة فاضلة، ومهنة نافعة لتفتيحه للمسام، وتطريقه للفضول وتلطيفه لما غلظ من الكيموسات»^(٢).

قال ابن أبي أصيبعة: «وأقول: إنه انتقل إلى إشبيلية ولم يزل بها إلى أن مات، وخلف

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٤/٢٧٨).

(٢) الكيموس: يقال للهامة: إنها تولد كيموسًا رديئًا أو جيدًا؛ يعني ما تولده هذه المادة في البدن من الغذاء.

أموالاً جزيلة ونظيرها من الرياع والضياح»^(١).

ومنهم:

١٦٤- أبو العلاء زهر بن عبد الملك^(٢)

فرد في بني آدم، وواحد ما أتى بمثله وقد تقادم، ابن أبيه وفوق كل ما يليه، لم يقف سيف ذهنه عند حده، ولا جارى البرق وقد أضمر له نار حقه، وأمسى وهو أبو العلاء وأخو النجم في الاعتلاء، ربي في حجر العلم ربيّاً، وأصبح منذ كان في سن الوليد حبيباً، فطلع بدرّاً كامل الأنوار، وطمى بحرّاً يتمسك له بجوار حتى استهل سحاباً، واستقل انسكاباً، وكان لبيته تقف عليه زمر، وركباً يحج إليه ويعتمر.

قال ابن أبي أصيبعة: مشهور بالحذق والمعرفة، وله علاجات مختارة تدل على قوته في الصناعة، واطلاعه على دقائقها، وكانت له في هذا نوادر ومعرفة بأحوال المرضى من غير أن يسخرهم بل لمجرد جسده لعروقتهم، ونظره إلى قواريرهم، وحظي في دولة المرابطين.

وقال ابن جميع^(٣): إن رجلاً من التجار جلب نسخة فائقة من كتاب القانون إلى الأندلس فأتحف أبا العلاء بن زهر به تقريباً إليه، ولم يكن وقف عليه، فلما تأمله ذمه واطرحه ولم يدخله خزانة كتبه، ثم جعل يقطع من طرزه ويكتب فيها نسخ الأدوية للمرضى.

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٢٨٠-٢٨٥).

(٣) قال ابن أبي أصيبعة: «قال ابن جميع المصري في كتاب التصريح بالمكنون في تنقيح القانون... (٣/ ٢٨٠).

وقال أبو يحيى اليسع بن حزم^(١): إن أبا العلاء زهر كان مع صغر سنه تصرخ النجاة بذكره، وتخطب المعارف بشكره، ولم يزل يطالع كتب الأوائل متفهمًا، ويلقي جلة الشيوخ متعلمًا، حتى برز في الطب إلى غاية عجز الطلب عن مرامها، وصرف الفهم عن إبرامها إلى أن خرجت عن قانون الصناعة إلى ضروب الشناعة، يخبر فيصيب، ويضرب في كل ما يتحلله بأوفى نصيب، ويستغرق المدى، ويغبر في وجوه سوابق الفضلاء علمًا ومحدثًا، ويفوق الجلة سباحة لا توصف وندي لولا بذاذة لسان، وعجلة ركب عليها الإنسان، وأي الرجال تكمل خصاله وتتناسب أوصاله؟!

قال ابن أبي أصيبعة: توفي بإشبيلية ودفن بها.

ومما أنشد له قوله: [البسيط]

يا راشقي بسهام ما لها غرض إلا الفؤاد وما لها منه عوض
امن ولو بخيال منك يطرقي فقد يسد مسد الجواهر العرض

ومنهم:

٦٥ ١- ابنه أبو مروان ابن أبي العلاء، واسمه عبد الملك^(٢)

شيخ الجلالة، وفتى العلم الذي ما ورثه عن كلاله، ارتقى الذروة والغارب، وفاض على المشارق والمغارب، جنى من الفضل غصنه، وختم ختامه وفضه، مهّدت له المضاجع ليالي اشتغاله فأقضها، وزفت عليه المعالي أبكارًا فافتضها، فلم يستدر لتام عارضه، ولا تمت أيام رائضه إلا وهو معنى الجملة رأس الأكابر الجلة، ثم لم يصد شيء

(١) قال ابن أبي أصيبعة: وقال أبو يحيى اليسع بن عيسى بن حزم بن اليسع في كتاب «المغرب في محاسن أهل المغرب...» (٣/٢٨١).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/٢٨٦-٢٩١).

عن حائثات الحجام، ولا رثاء إلا نائحات الحجام.

قال ابن أبي أصيبعة: «لحق بأبيه في المعالجة، وشاع ذكره في الأندلس وغيرها، وعطف الأطباء على مصنفاته، ولم يكن في زمانه من يائله في صفاته، وله حكايات كثيرة في حسن العلاج، مما لم يسبق مثله، وخدم المثلثين وحصل من جهتهم النعم، وفي وقته الذي كان فيه دخل ابن تومرت^(١) الأندلس ومعه صاحبه عبد المؤمن^(٢)، وشرع في بث الدعوة له دونه وقرب عبد المؤمن ابن زهر هذا، واعتمد عليه في الطب وأناله فوق أمنيته، وله ألف «الدرياق السبعين»، واختصره عشاريًا ثم اختصره سباعيًا ويعرف بدرياق الأنتلة.

واحتاج عبد المؤمن إلى شرب دواء مسهل، وكان يكره الدواء، فعمد ابن زهر إلى كرمة في بستانه، وجعل الماء الذي يسقيها به ماء قد أكسبه قوة الأدوية المسهلة التي أرادها لإسهاله فطلع فيها العنب وفيه تلك القوى، فحمى عبد المؤمن وأتاه بعنقود منها وقال له: كُلْ منه، وكان حسن الاعتقاد فيه، فلما أكل منه وهو ينظر إليه قال له: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد أكلت عشر حبات من العنب وهي تخدملك عدد هذه الحبات (عشر) مجالس فقام العدة التي ذكرها، ووجد الراحة، واستحسن منه فعله، وتزايدت به منزلته عنده.

وكان يجرد في مروره إلى دار الخلافة مريضًا به سوء قبه، وقد كبر جوفه واصفرَّ لونه، فلما كان في بعض الأيام، وقف عنده ونظر إليه، فوجد عند رأسه إبريقًا عتيقًا يشرب منه الماء، فقال له: اكسر هذا الإبريق فإنه سبب مرضك، فقال له: لا بالله يا

(١) هو: محمد بن عبد الله بن تومرت، أبو عبد الله المهدي المصمودي البربري، صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن ملك المغرب، ولد سنة (٤٨٥هـ)، توفي سنة (٥٢٤هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/٥٣٩-٥٥٢)، العبر (٤/٥٧-٧٢)، الوافي بالوفيات (٣/٢٦١-٢٦٤)، شذرات الذهب (٤/٧٢-٧٠).

(٢) هو: أبو محمد بن عبد المؤمن بن علي بن علي القيسي المغربي، مولده بأعمال تلمسان، توفي سنة (٥٥٨هـ). انظر: وفيات الأعيان (٣/٢٣٧)، سير أعلام النبلاء (٢٠/٣٦٦-٣٧٥)، العبر (٤/١٦٥)، شذرات الذهب (٤/١٨٣)، الوافي بالوفيات (١٩/١٥٠-١٥٨).

سیدی، فإنه ما لي غيره، فأمر بعض خدمه بأن يكسره فكسره، فطلع منه ضفدع، وقد كبر مما له فيه من طول الزمان، فقال له زهر: خلصت يا هذا من المرض.

وحُكي أنه كان ياشبيلية حكيم فاضل في الطب، يعرف بالفار، صنّف كتابًا في الأدوية المفردة، كان يرى ابن زهر كثيرًا يأكل التين الأخضر، وكان الفار لا يأكله إلا نادرًا، فكان يقول لابن زهر: لا بد أن يعرض لك بمداومة أكل التين علة الثعلة وهي الدبيلة^(١)، فقال له ابن زهر: وأنت لكثرة حيتك لا بد أن يعرض لك علة التشنج، فلم يمت ابن زهر إلا بدبيلة في جنبه، ولا مات الفار إلا بعلّة التشنج، قال: وكان ابن زهر يداوي دبيلته فيقول له: لو زدت هذا الدواء كذا أو أبدلته بكذا أو عملت كذا فكان يقول له: يا بني، إذا أراد الله تغيير هذه البنية فإنه لا يقدر لي أن أستعمل إلا ما تتم به مشيئته^(٢).

ومنهم:

٦٦- أبو محمد ابن الحفيد أبي بكر بن زهر^(٣)

نير في سماء، وكوثر في غذب الماء من بيت زاحم الإيوان، وأزاح عن رتبته كيوان^(٤)، وأسس على خيط المجرة بيت علاه، ولبس من حلية الشفق والأصيل حلاه، ولم يزل منذ سن اللبون وصول صولة البزل^(٥) القناعيس^(٦)، ولا يقنع إلا أن يكون في أول

(١) الدبيلة: والدبلة: دُمِل في الجوف فيقضي على صاحبه غالبًا.

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٢٨٨، ٢٩٠).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٢٩٢).

(٤) كيوان: كوكب زحل.

(٥) البزل: البازل من الإبل: مَنْ أتم ثمان سنين ودخل في التاسعة، وبزل البعير: أي طلع نابه. [المعجم الوسيط: مادة بزل].

(٦) القناعيس: جمع قنعاس؛ وهو العظيم من الإبل.

العيس^(١)، فطلما حصل الفوائد الغزار، وحلل الفراقد وقد سلبت من جفنه الغرار. وبات الليالي في طلب العلم، لم يطعم غمضًا، ولا شام لغير سنا الصباح إلى الصباح ومضًا.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان جيد الفطرة، حسن الرأي، جميل الصورة، مفرط الذكاء، محمود الطريقة، معتنيًا بالطب، اشتغل على أبيه وأطلعته على كثير من أسرار هذه الصناعة وعملها، وكان الناصر أبو عبد الله يرى له ويحترمه، ويعرف مقدار علمه ويثق به».

وروي أنه لما خرج إلى حضرة مراکش احتاج في نفقة سفره إلى عشرة آلاف دينار، فلما حضر لدى الناصر شكر سالف إحسانه وإحسان سلفه إليه وإلى سلفه، ثم قال: ويدي عما سلف ووصل إلى أبي من إنعامكم ما يغنيني مدة حياتي، وإنما أتيت لأكون في الخدمة كما كان أبي، وأجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه بين يدي أمير المؤمنين، فأكرمه كثيرًا، وأطلق له مالًا جزيلاً، وخوله في النعم الجمّة، وأجلسه في مجلس أبيه وكان قريبًا منه.

حكى القاضي أبو مروان الباجي عنه قال: كنت يومًا معه وإذا به قد قال: إنني رأيت البارحة -أي في النوم- أختي وكانت أخته قد ماتت. قال: فقلت لها: بالله عرفيني كم يكون عمري؟ فقالت: طابيتين ونصف! والطابية هي الخشب يطون طولها عشر أشبار تتخذ للبناء. قال: فقلت لها: أنا أقول لك الجد وأنت تجيبيني بالهزاء! فقالت: لا والله ما قلت إلا جدًا، وإنما أنت ما فهمت! أليس في الطيبة عشرة أشبار، فانظر إلى الطابيتين ونصف خمسة وعشرين شبرًا فيكون عمرك خمسًا وعشرين سنة!

قال القاضي أبو مروان: فقلت له: لا تتوهم من هذا، فلعله أضغاث أحلام، قال:

(١) العيس: الأيس من الإبل الذي يخالط بياضه شقرة، والأعيس: الكريم منها. [نعمجم الوسيط].

فلم تكمل تلك السنة إلا وقد مات! فكان عمره كما قال لم يزد ولم ينقص.

وخلف ولدين كل واحد منها فاضل في نفسه، كريم في أبناء جنسه، وهما: عبد الملك وأبو العلاء، ولأبي العلاء نظر جيد في كتب جالينوس وصناعة الطب، وكانا بإشبيلية^(١).

قلت: كان علمي طرازها وأيتي إعجازها على سن شببية ووقت اشتغال بحبيب أو حبيب.

ومنهم:

١٦٧- أبو جعفر بن الغزال^(٢)

من أهل المرية^(٣) تغرب عن الأوطان حتى تقرب إلى السلطان، وباشر في الخدم من أجلها وحصل من النعم جلها، فكان واسطة العقد، ولاقطة المنهل العد، وحل محل الثقة من خليفته، وكان مكان المقة^(٤) في وظيفته، لفصائلته التي ثبتت عند إمامه، وأوجبت له أن يتسلم عقد زمانه، فعلا رتبته، وامتدت إليه الأيدي رغبة.

ذكره ابن أبي أصيبعة: «قرأ على الحفيد ابن زهر وعلى غيره، وأتقن الطب وخدم المنصور به، وكان خبيرًا بالمفردات، وكان المنصور يعتمد عليه في الأدوية المفردة والمعاجين ويتناولها منه، وكان المنصور قد أبطل الخمر وشدد فيه، ثم إنه أمر ابن الغزال

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٢٩٢-٣١٦).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٣٣٣).

(٣) المرية: قال ابن أبي أصيبعة: مولده بفتح جيرة من أعمال المرية، والمرية مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس.

(٤) المقة: من ومق، ومقة: أحبه فهو وامق، وهي وامقة. [المعجم الوسيط].

أن يجمع حوائط الدرياق ويركبه، فجمعها ثم أعوزه الخمر لعجنه فأنهى ذلك إلى المنصور فقال: تطلبه من كل ناحية، وانظر لعله أن يكون عند أحد منه ولو شيء يسير، فتطلبه فلم يجد شيئاً منه، فأعلم المنصور فقال: والله ما كان بي تركيب الدرياق في هذا الوقت إلا لأعتبر هل بقي عند أحد من الخمر شيء أم لا؟^(١)

ومنهم:

٦٨-١ أبو العباس ابن الرومية وهو:

أحمد بن محمد بن مفرج النباتي^(٢)

من أهل إشبيلية، جوال في كل تنوفة^(٣)، وجواب لكل مخوفة، نزل بكل أرض مخيمًا، وراء أيما عشب واثمًا، وطالما جنى النبات وجاء منها بالينان، وشخصها بأشخاصها ويّين ما بين عامها وخاصها، فعلا محلاً، وطاف كالسحاب فلم يدع محلاً.

قال ابن أبي أصيبعة: «من أهل إشبيلية ومن أعيان علمائها وأكابر فضلائها، قد أتقن علم النبات ومعرفة أشخاص الأدوية وقواها ومنافعها واختلاف أوصافها وتباين مواطنها، وله الذكر الشائع وحسن الوصف الجامع، قد شرف نفسه بالفضائل وسمع الحديث، وانتفع الناس به، وأتى مصر والشام، وعاین فيها نباتًا كثيرًا لا ينبت بالمغرب، وشاهد أشخاصها في منابتها ونظرها في مواضعها، ولما قدم الإسكندرية كان الملك العادل بن أيوب بالقاهرة، فاستدعاه وأكرم ملتقاه، وأراد على الإقامة عنده، فقال: إنما أتيت لأحج ثم أعود إلي بلدي وأهلي وولدي ثم قضى فريضة حجه وعاد»^(٤).

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٣٣٤).

(٢) انظر: ترجمته في نفح الطيب (١/ ٦٢٤، ٦٢٥)، عيون الأنباء (٣/ ٣٣٩).

(٣) التنوفة: الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس. [المعجم الوسيط].

(٤) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٣٣٩، ٣٤٠).

ومنهم:

٦٩- ابن الأصم^(١)

وهو ابن الأصم إلا أنه كان أسمع وانعقد عليه التفضيل وأجمع، وكان يكرم أبا ويعد منه والدًا، لو كان من المشهور لكان رجبا، إلى طب طالما صاد به المنون، وصاد ما لم تجله الظنون، وانتاش مهجة لم يبق منها إلا آخر الدماء^(٢)، وردَّ مرضًا لم يطل زاهر الدماء، وكانت إشيلية به في حلل الفاخر تحتال وتكف بأس من يغتال، وتيه بنسبته إليها، وسمته التي دلت دليل نسيم السحر عليها.

قال ابن أبي أصيبعة: «هو من الأطباء المشهورين بإشيلية، وله قوة نظر في الاستدلال على الأمراض ومداواتها، وله حكايات مشهورة ونوادير في معرفته بالقوارير، وإخباره عندما يراها بجملة حال المريض، وما يشكوه وما قد تناوله من الأغذية. حدثني أبو عبد الله المعري قال: كنت يومًا عند ابن الأصم وإذا بجماعة قد أقبلوا إليه ومعهم رجل وفي فمه حية قد دخل بعضها مع رأسها في حلقة وبقيتها ظاهر، وهي مربوطة بخيط قنب إلى ذراع الرجل، فقال لهم: ما شأن هذا؟ فقالوا له: إنَّ من عادته أن ينام وفمه مفتوح، وكان قد أكل لبنًا ونام، فلما جاءت هذه الحية لعقت من فيه ودخلته وهو نائم فأحسَّت بمن أتى، فخافت وانساب بعضها في حلقة وأدركناها فربطناها بهذا الخيط لئلا تدخل في حلقة، وقد أتينا به إليك. فلما نظر إلى ذلك الرجل وجده وهو في الموت من الخوف، فقال: لا بأس عليك، كدتم تهلكون الرجل، ثم قطع الخيط فانسابت الحية وبلغت إلى جوفه واستقرت، فقال له: الآن تبرأ وأمره أن لا يتحرك، وأخذ أدوية وعقاقير فأغلاها في الماء جيدًا وجعل ذلك الماء في إبريق وسقاه الرجل وهو حار فشربه، وصار

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٣٤١).

(٢) الحركة.

يحبس معدته حتى قال: ماتت الحية، ثم سقاه ماء آخر مغلياً فيه حوائج وقال: هذه تحري الحية مع هضم المعدة، وصبر مقدار ساعتين وسقاه ماء قد أغلى فيه أدوية مقيئة فجاشت نفس الرجل وذرعه القيء، فعصب عينيه وبقي يتقيأ في طست فوجدنا تلك الحية هي قطع وهو يأمره بكثرة القيء حتى تنظفت معدته وخرجت بقايا الحية، وقال له: طب نفسك فقد تعافيت، وذهب الرجل مطمئناً صحيحاً بعد أن كان في حالة الموت^(١).

أما من أطباء مصر:

فمنهم:

١٧٠- بليطيان

وهو رجل مشهور في النصارى معروف بينهم معدود في بطاركتهم، طيب تدارك النفوس وسيوف المنايا تنوشها ومواقيت الآمال قد قامت لها نعوشها، رأس في ملته، وكان رئيس محله لخلال حمدت وأفضال شعله ما خمدت، وكان من الأئمة العيسوية وذوي القسمة بالسوية، إلى صحة حدس، وذكاء نفس، وكرم عشيرة بالتقليل مشيرة.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان نصرانيًا من الملكية، عالمًا بشريعة النصارى، وجعل بطرك الإسكندرية، حكي أنه كان للرشييد جارية مصرية كان يحبها، فاعتلت علة عظيمة، فعالجها الأطباء فلم تنتفع بشيء، فقبل له: أوبعثت إلى عاملك بمصر ليعث إليك بليطيان، وكان طبيبًا عارفًا حاذقًا، فأخذ معه من كعك مصر والصير المعمول بها، فلما أتى بغداد ودخل على الجارية أطعمها من الكعك والصير فرجعت إلى طبعها، وزالت عنها العلة، ووهب له الرشييد مالًا جزيلاً، وكتب له منشورًا بإعادة كل كنيسة تغلب اليعاقبة فيها على الملكية، ثم أمر بأن يكون يحمل مثل هذا الكعك والصير إلى خزانة السلطان في كل وقت، فكان ذلك لا يزال يحمل موظفًا فيما يحمل إليها إلى آخر أيام المتوكل».

ومنهـم:

١٧١- سعيد بن توفيل^(١)

جمرة تشتعل توقدًا، وجملة لا يضم إليها إلا فرقدًا، سعى للعلم سعيًا، وأوعاه وعيه، حظي بالخدم، وحل حيث لا تنصب الخيم، إلا أن الأيام قلبت له ظهر المجن، وحققت له خلاف ما ظن، فأفلتت رداءه، وأشمتت به أعداءه، ولم يحج ذنبًا سوى نصحه الذي حمل على الغش، وقتل عقابًا به جانبه عليه ولم يعش.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان طبيبًا نصرانيًا يخدم ابن طولون ولا يفارقه، فلما أدركت ابن طولون الميضة التي مات بها طلبه فلم يجده إلا بعد يومين فعنفه ثم قال له: ما الصواب؟ قال: أن لا تقرب غذاء. قال: أنا والله جائع وما أصبر. فقال له: هذا جوع كذاب لبرد المعدة، فلما نصف الليل استدعى بشيء يأكله، فجيء بفراريج كردناج حارة، وجدي بارد، فأكل منها فانقطع الإسهال عنه، فخرج نسيم الخادم وسعيد في الدار فقال له: أكل الأمير! فخف عنه القيام، فقال سعيد: الله المستعان، ضعفت قوته الدافعة بقهر الغذاء لها، وستتحرك حركة منكرة، فما وافى السحر حتى قام قيامًا كثيرًا وخرج من أنطاكية وعلته تتزايد ثم أتى مصر على عجلة تجر بالرجال، فلما أتى الفرما شكوا انزعاجًا، فركب الماء إلى القسطاط وضربت له بالميدان قبة نزل فيها، ثم ظهرت منه لسعيد بن توفيل نبوة، وشكاه إلى كاتبه إسحق بن إبراهيم، فأخذ يلوم ابن توفيل فقال: والله ما خدمتي له إلا خدمة الفار للسنور والسخلة للذئب. قال نسيم الخادم: وكان ابن توفيل آيسًا من حياته؛ لأن ابن طولون امتنع من مشاورته، ويعتقد فيه أنه فرط من أول أمره، وجيء بفاكهة من الشام فقال له: ما تقول في السفرجل؟ فقال: تمص منه على خلو المعدة.

(١) انظر ترجمته في: عيون الأنباء، (٣/ ٣٤٧).

فلما خرج سعيد من عنده أكل سفرجلًا عقيب عصيدة كان قد أكلها على غير رأي سعيد، فعصرها فتدافع الإسهال، فدعا به ثم قال: يابن الفاعلة! قلت: إن السفرجل نافع لي وقد عاد الإسهال. فقام فنظر المادة ورجع إليه، فقال: هذه العصيدة التي حمدتها وقلت: إني غلظت في منعها عصرها السفرجل، وأنا ما أطلقت لك السفرجل وإنما أشرت بمصه، فقال: يابن الفاعلة! تريد تحجني وأنت صحيح سوي، وأنا عليل مدنف؟ ثم ضربه مائتي سوط وطاف به على جمل ونودي عليه: هذا جزاء من أوثمن فخان، وأمر بيته فنهب، ثم لم يعيش سعيد بعد ذلك إلا يومين ومات^(١).

ومنهم:

١٧٢- سعيد بن البطريق^(٢)

طبيب طالما خلص الأجسام من دائها، واستل النفوس من أعدائها، مع علم بشريعته وعمل حسن في شيعته، إلا أنه لم تصف له موارد الأيام، ولم ينصف على عوائد الأنام، وبُلي باختلاف قومه، وما برحوا في شقاق ولا صحوا من سكرة إشفاق، ولم يزل عودهم معه في التواء، وعودهم إليه بغير استواء، هذا ولم يكن غرًا ولا رأى وجوه التجارب إلا غرًا، مع سعة اطلاع كأنها أشرف عليه من عالي التلاع، واضطلاع قل أن حنيت عليه حنايا أضلاع، ويد ما قصرت في ضبط ولا غرب عنها ما في قط قط، ولكنها الأيام وعاداتها ومواهبها واستعداداتها.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان من أهل مصر، وكان طبيبًا نصرانيًا مشهورًا عارفًا بعلم صناعة الطب وعملها، وكانت له دراية بعلوم النصراني ومذاهبها، ثم صير في أول يوم خلافة القاهرة بطرك الإسكندرية، وكان في زمانه شقاق عظيم، وشر متصل بينه وبين

(١) ذكر ابن أبي أصيبعة أنه قيل: إن سعيد بن توفيل مات سنة تسع وسبعين ومائتين (٣٥٣/٣).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣٥٨/٣).

شيعة، وله تصانيف كثيرة وتواريخ محررة، ولحقه إسهال مات به بالإسكندرية^(١).

ومنهم:

٧٢ ١- التميمي: وهو أبو عبد الله محمد بن سعيد^(٢)

جادة إحسان، ومادة بقاء الإنسان، عرف الأدوية لطول ما ألفها، وركب مفرداتها وألفها وجناها من رءوس الشجر ومما يعرثون، ويسطون من الأرض ويفرثون، إلى اتقان لقواعد الطب وأصوله، وعوائد المستطب في العام وفصوله، حتى إنه إليه المرجع وعليه الاعتماد في كل دواء ينجع.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان مقامه أولاً بالقدس ونواحيه، وله معرفة جيدة بالنبات وماهياته، وكان مميّزاً في صناعة الطب والاطلاع على دقائقها، وله خبرة بتركيب المعاجين والأدوية المفردة، واستقصى معرفة الدرياق الكبير الفاروق وتركيبه، وركب منها شيئاً كثيراً على أتم ما يكون من حسن الصنعة، وانتقل إلى مصر وأقام بها حتى مات».

قال ابن القفطي^(٣): إن التميمي هو الذي أكمل الدرياق الفاروقي بما زاده من المفردات، وكان خصيصاً بالحسن بن عبد الله بن طنج صاحب الرملة، وعمل له معاجين ولخالغ^(٤) طبية، وأنواع دخن دافعة للوباء وركب سفوف الرجفان الحادث عن المرة السوداء المحترقة، وكان يذكر أنه نقله عن راهب كان بالقدس فاجلاً في الحكمة والطب، وأدرك الدولة العلوية بمصر، وصحب يعقوب بن كلس وزير المعز والعزیز، ولقي

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٣٥٩).

(٢) انظر ترجمته في: تاريخ الحكماء لابن القفطي ص ١٠٥، عيون الأنباء (٣/ ٣٦١-٣٦٦).

(٣) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٣٦٢) وما بعدها.

(٤) لخالغ: معاجين طبية.

الأطباء بمصر وناظرهم، وحكى عن أبيه أنه سكر مرة سكرًا مفرطًا غلب على عقله، فسقط في بعض الخانات من موضع عالٍ إلى أسفل الخان وهو لا يعقل، فحمله صاحب الخان وخدمه، حتى أدخله الحجرة التي كان ساكنها، فلما أصبح قام وهو يجد وجعًا ووهنًا في مواضع من جسده ولا يعرف لذلك سببًا، فركب وتصرف في بعض أموره إلى إن تعالى النهار ثم رجع فقال لصاحب الخان: إني وجدت في جسدي وجعًا وتوهنًا شديدًا لست أدري ما سببه. فقال صاحب الخان: ينبغي أن تحمد الله على سلامتك. قال: فلماذا؟ قال: أو ما علمت ما نالك البارحة؟ قال: لا. قال: فإنك سقطت من أعلى الخان إلى أسفل وأنت سكران. قال: ومن أي موضع؟ فأراه الموضع. فلما رآه حدث له للوقت من الوجع والضربان ما لم يجد معه سبيلًا إلى الصبر، وأقبل يصيح ويتأوه إلى أن جاءوه بطبيب ففصده، وشد على مفاصله المتوهنة جبارًا، وأقام أيامًا كثيرة إلى أن برأ وذهب عنه الوجع.

أقول: وما يناسب هذه الحكاية أن بعض الناس كان في بعض أسفاره في مفازة ومعه رفقة له فنام في منزلة نزلها في الطريق ورفقته جلوس، فخرجت حية من بعض النواحي فصادفت رجلًا فنهشته فيها وذهبت، وانتبه مرعوبًا من الألم، وبقي يمسك رجله ويتأوه منها، فقال له بعضهم: ما عليك، مددت رجلك بسرعة وقد صادفت رجلك شوكة في هذا الموضع الذي يوجعك وأظهر له أنه أخرج الشوكة، وقال: ما بقي عليك بأس، وسكن عنه الألم بعد ذلك ورحلوا، فلما كان بعد عودهم بمدة وقد نزلوا في تلك المنزلة قال له صاحبه: أتدري ذلك الوجع الذي عرض لك في هذا الموضع من أي شيء كان؟ فقال: لا، فقال: إن حية ضربتك في رجلك ورأيناها وما أعلمناك، فعرض له في الوقت ضربان قوي في رجله وسرى بدنه إلى أن قرب من قلبه وعرض به غشي ثم تزايد به إلى أن مات، وكان السبب في ذلك أن الأوهام والأحداث تؤثر في البدن تأثيرًا قويًا، فلما تحقق أن الآفة التي عرضت له كانت من نهشة الحية تأثر ذلك وسرى ما كان في ذلك الموضع من بقايا السم في بدنه ولما وصل إلى قلبه أهلكه.

قلت: ومن نسبة ما حكى عن أبيه ما شاهدته بعيني سنة ست وسبع مائة وذلك أنه كان عندنا صغير في سطح الدار يلعب وييده تفاحة فجعل يلقيها من يده ثم يجري وراءها ويأخذها، وألقاها مرة فتدحرجت وجرى خلفها فوقعت من طاقة في السطح معدة لرمي الثلج ترمي إلى الطريق علوها عن الأرض يقارب عشرين ذراعاً، واستمر هو جاريًا خلف التفاحة ليأخذها فوقع من ذلك العلو إلى الأرض قائماً على قدميه، واستمر جاريًا خلف التفاحة حتى أخذها ولم يضره شيء البتة، وكان سداسي السن، وكنت قريباً من سنة، وأنا أشاهده وأنا على باب الدار، ف سبحان الله اللطيف بخلقه.

ومنهم:

١٧٤- ابن الهيثم: وهو أبو علي محمد بن الحسين بن الهيثم البصري

ثم المصري^(١)

رجل أخذ الفرائد فنظمها، والفوائد فأجلها قدرًا في الصدور وعظمها، بطرف طموح وطرف تحت عقد بيانه جوج، فأثبت الغرر، وأثبت الدرر، وصاغ النجوم وأشباهاها، وتبجس فحكى الغيوم وأمواهاها، لفضائل حصلها من الصغر، وورد منها أصفى المناهل، ولم يعرف الصدر فبقيت كتبه قدورة للمتأمل، وجلوة مثل الصباح المتهلل.

قال ابن أبي أصيبعة: «أصله من البصرة ثم انتقل إلى مصر فأقام بها إلى آخر عمره، وكان فاضل النفس، قوي الذكاء، مفتناً في العلوم، وكان كثير التصنيف^(٢)، ظاهر الزهد،

(١) انظر: ترجمته في تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٦٥-١٦٨، عيون التواريخ لابن شاعر الكتبي (١٣/١٨٤-١٨٦)، عيون الأنباء، (٣/٣٧٢).

(٢) ذكر ابن أبي أصيبعة أن كتب ابن الهيثم كما أشار ابن الهيثم نفسه إليها بقوله: «إن في صنفته من العلوم الرياضية خمسة وعشرين كتاباً ثم ذكر سائر مؤلفاته». انظر: عيون الأنباء (٣/٣٨١-٣٩٩).

ولخص كثيرًا من كتب أرسطو وجالينوس، وشرح العويص، وكان حسن الخط جيد العربية.

حكى أنه كان قد وزر بالبصرة ونواحيها فمنعته عن النظر، فأثر التجرد ليتوفر على العلم، فأظهر خيالًا في عقله وتغيرًا في تصوره، حتى تمكن من مراده، ثم أتى مصر وأقام بالجامع الأزهر، ثم كان يكتب «إقليدس والمجسطي» ويقوت بالثمن.

وقيل: إنه بلغ الحاكم أنه يقول: لو كنت بمصر لعملت في النيل عملاً يحصل به النفع في كل حال من حالاته من زيادة ونقص، فاستدعاه ومشى إليه، فلم يجد أنه يتم ما أراده، فعاد خجلًا واعتذر إلى الحاكم بما قبل منه ظاهره، ثم أنه ولَّاه بعض الدواوين فوليها رهبة لا رغبة، ثم تحقق غلطة إذ قيل لكثرة استحالة الحاكم وإقدامه على سفك الدماء، فلم يجد طريقًا إلا معاودة الجنون فاحتيط على موجوده وقيد، ووكل به من يخدمه ويقوم بمصالحه، فلما مات الحاكم أظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه وأعيد ماله، فاستوطن قبة على باب جامع الأزهر ملازمًا وظائف الاشتغال والإفادة والتصنيف حتى مات^(١).

ومنهم:

١٧٥ - علي بن رضوان^(٢)

رجل كان جهال إيوان، وكمال ديوان، ورئيس قوم، ورأس ذكر باقي إلى اليوم، طالما أخليت له المجالس، وخلت الصدور له ولمن يجالس، فطال في الدولة الفاطمية ذيلاً،

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٣٧٣-٣٨٠).

(٢) انظر: ترجمته في تاريخ الحكماء للقفطي ص ٤٤٣، ٤٤٤، النجوم الزاهرة (٥/ ٦٩)، عيون الأنباء (٣/ ٤٠٢-٤١٣).

ومال الدهر ميلاً، وحصل من أولئك الكرام المرام، وبلغ لديهم غاية الاحترام، وفضائله تقول: هل من مزيد، وتتدفق فوق بردي ويزيد حتى أن يخلق رداء مفاخرة، وينتهي كل شيء إلى آخره^(١).

قال ابن أبي أصيبعة: «مولده ومنشؤه بمصر، وبها تعلم الطب، وحكي عنه أنه قال: أخذت في تعلم الطب ولم يكن لي مال أنفق منه، فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة. قال: إنه ولد بالجيزة وكان أبوه فراناً ولم يزل ملازماً للاشتغال والنظر في العلم^(٢) إلى أن تميز وصار له الذكر الحسن والسمعة العظيمة، ثم أخذت يتيمة كان قد رباها مالا جليلاً كان له نحو عشرين ألف دينار وهربت به فاختل عقله».

ومتهم:

٧٦-١- أفرانيم الإسرائيلي^(٣)

طبيب صفت له المشارب، وصحت معه التجارب، واتصل بالدولة الفاطمية اتصال اليد بالعنان، وطال بها طول الرمح بالسنان، وكان منها مكان الشجاعة من الجنان، وقر لديها استقرار الخاتم في البنان فأخرج البيوت باحران، وطاول الجبل أو وزن، ثم جاءت منه منيته وقرعت بصفا اللحد ثنيته.

قال ابن أبي أصيبعة: «وهو من الأطباء المشهورين بديار مصر وخدم الخلفاء الذين كان في زمانهم، وحصل من جهتهم من الأموال والنعم شيئاً كثيراً، وكان قد قرأ صناعة الطب على أبي الحسن علي بن رضوان، وهو من أجل تلامذته، وكانت له همة عالية في

(١) ذكر ابن أبي أصيبعة أن علي بن رضوان توفي في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة بمصر (٣/ ٤١١).

(٢) ذكر ابن أبي أصيبعة لعلي بن رضوان العديد من الكتب. انظر: عيون الأنباء (٣/ ٤١٣-٤٢٠).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٤٢١).

تحصيل الكتب^(١) وفي استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها، وكانت أبداً عنده النساخ يكتبون، ولهم ما يقوم بكفائتهم منه، ومن جملتهم: محمد بن سعيد بن هشام الحجري وهو المعروف بابن ملساق، ووجدت بخط هذا عدة كتب وعليها خط أفرائيم.

وحدثني أبي أن رجلاً من العراق وكان قد أتى إلى مصر ليشتري كتباً ويتوجه بها، وأنه اجتمع بأفرائيم واتفق الحال فيما بينهما أن أباعه أفرائيم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلدة، وكان ذلك في أيام الأفضل ابن أمير الجيوش، فلما سمع بذلك أراد أن تلك الكتب تبقى بالديار المصرية، ولا تنتقل إلى موضع آخر، فبعث إلى أفرائيم والعراقي عليها، ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل، وكتب عليها ألقابه، ثم خلف من الكتب ما يزيد على عشرين ألف أخرى، ومن الأموال والنعم شيئاً كثيراً جداً^(٢).

ومنهم:

٧٧- سلامة بن رحمون أبو الخير^(٣)

قرن لا يمل المصاع^(٤)، ولا يكايل بالمد والصاع، فكان لو عوّقه في طريقه جبل لاقتلعه، أو أشرقه بريقه أسد لا يتلعه، إلا كُدية عرضت له فلم يستطع صعود ذروتها، ولا بدر على ارتقاء صفائها ولا مروتها، فباء بخجلته وبقي تحت مذلة مضلته.

قال ابن أبي أصيبعة: كان يهودياً له أعمال حسنة، واطلاع على كتب جالينوس،

(١) ذكر ابن أبي أصيبعة لأفرائيم العديد من الكتب. انظر: عيون الأنباء (٣/ ٤٢٢).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٤٢١، ٤٢٢).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٤٢٣-٤٢٥).

(٤) المصاع: ما صغ قرنه: أي جالده بالسيف ونحوه. [المعجم الوسيط].

والبحث عن غوامضها، ولما وصل أبو الصلت إلى مصر اجتمع به وجرت بينهما مباحث ومشاعات، وقد ذكر أبو الصلت في رسالته المصرية قال: وأشبه من رأيته منهم وأدخله في عداد الاطباء رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة بن رحون، فإنه لقي أبا الوفاء المبشر بن فاتك، وأخذ عنه شيئاً من صناعة المنطق، تخصص بها، وتميز على أضرابه، وأدرك أبا كثير بن الزفان^(١) تلميذ أبي الحسن بن رضوان، فقرأ عليه بعض كتب جالينوس، ثم نصب نفسه لتدريس جميع المنطق، وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية، وشرح بزعمه، وفسر، ولخص^(٢)، ولم يكن هناك في تلخيصه وتحقيقه واستقصائه عن لطيف العلم ودقيقه، بل كان يكثر كلامه فيضل، ويسرع جوابه فيزل، ولقد سألت أول لقاائي له واجتماعي به عن مسائل استفتحت مباحثاته بها مما يمكن أن يفهمها من لم يكن يمتد في العلم بابعه، ولم يكثر تبخره واتساعه، فأجاب عنها بما أبان عن تقصيره ونطق بعجزه، وأعرب عن سوء تصوره وفهمه، وكان مثله في عظم دعاويه وقصوره عن أيسر ما هو متعاطيه، كقول الشاعر: [المقارب]

يشمر للرجع عن ساقه . ويغمر الموج في الساحل

أو كما قال الآخر: [المقارب]

تمنيتم مائتي فارس . فتردكم فارس واحد

قال أبو الصلت: وكان بمصر طبيب من أهل أنطاكية يسمى جرجس، ويلقب بالفيلسوف على ما قيل في الغراب أبي البيضاء، وفي اللديغ سليم، قد تفرغ بالتولع بابن رحون والإزراء عليه، وكان يزور فصولاً طبية وفلسفية، يقرررها. في معارض ألفاظ

(١) يقصد أفرائيم بن الزفان الإسرائيلي تلميذ علي بن رضوان.

(٢) قال ابن أبي أصيبعة: لسلامة بن رحون من الكتب: كتاب نظام الموجودات، مقالة في السبب الموجب لقلة المطر بمصر، مقالة في العلم الإلهي، مقالة في خصب أبدان النساء بمصر عند تناهي الشباب. انظر: عيون الأنباء (٣/ ٤٢٥).

القوم وهي محال لا معنى لها، وفارغة لا فائدة فيها، ثم أنه ينفذها إلى من يسأله عن معانيها، ويستوضحه أغراضها، فيتكلم عليها ويشرحها بزعمه، دون تيقظ ولا تحفظ بل باسترسال واستعجال، وقلة اكتراث واهتبال، فيوجد فيها عنه ما يضحك منه، وأنشدت لجرجس هذا عنه وهو أحسن ما سمعته: [السريع]

إن أبا الخير على جهاله	يخف في كفته الفاضل
عليه المسكين من شؤمه	في بحر هلك ماله ساحل
ثلاثة تدخل في دفعة	طلعت والغاشل

ومنهم:

٧٨- بن بلمظفر بن معرف: وهو أبو المظفر نصر بن محمود بن المعرف^(١)

عالم بأسرار الطبيعة، وعارف بأخبار الشريعة، وفاضل كاد يحوز الفضل جميعه، وكان محباً لكثرة الثراء، ومبلاً بشرى تربته الخضراء، لا يعدل شيء عنده نعمة الغنى، ولا يصرف إلى غيرها همة المنى، وعانى الصنعة فلم يبتل له منها عود بهاء، ولا حصل لها صاد الصديق ولا كاف الكيمياء، مهما أنفق من مال، وأخفق من مآل.

ذكره ابن أبي أصيبعة وأثنى على فضله، وقال: كان مغرمًا بصناعة الكيمياء والاجتماع لأهلها، وكتب بخطه كثيرًا من الكتب التي صنفت فيها، وفي الطب والحكمة، وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب وقراءتها، قال: ومن أعجب شيء منه أنه كان قد ملك ألوفًا كثيرة من الكتب في كل فن، ولا يوجد شيء منها إلا وقد كتب على ظهره ملحًا ونوادر مما يتعلق بالعلم الذي صنّف ذلك الكتاب فيه، وقد رأيت كتبًا كثيرة من كتب الطب وغيرها كانت له وعليها اسمه، وما منها شيء إلا وعليه تعاليق حسنة وفوائد

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٤٣٠).

متفرقة^(١).

وأشد من شعره قوله: [المقارب]

وقالوا الطبيعة مبدأ الكيان
أقادرة طبعت نفسها
فيا ليت شعري ما ذا الطبيعة؟
على ذاك أم ليس بالمستطعية؟

وقوله: [المقارب]

وقالوا الطبيعة معلومنا
ولم يعرفوا الآن ما قبلها
ونحن نبين ما أحدها
فكيف يرومون ما بعدها؟^(٢)

ومتهم: أولاد أبي الخوافر

وكلهم أفاضل أطباء، وأمائل ألباء، خدموا الملوك، وأحسنوا السلوك، ولاطفوا
الأمزجة، وشارفوا في العلم أعلى درجة، لو استسقى بهم الحظ العليل لبرأ، أو سكن بهم
عاصف الريح العقيم لما درأ.

ومتهم:

١٧٩- أبو عمرو عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل

القيسي جمال الدين^(٣)

هو الذي شيد بناء البيت، ومهد لمشاهيره الحي منهم والميت.

(١) ذكر ابن أبي أصيبعة أن لابن مظفر من الكتب: تعاليق في الكيمياء، كتاب في علم النحو، مختارات في الطب. [عيون الأنباء (٣/ ٤٣١)].

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٤٣١).

(٣) انظر ترجمته في: عيون الأنباء، (٣/ ٤٦٥).

قال ابن أبي أصيبعة فيه: «أفضل الأطباء، وسيد العلماء، وله اشتغال بالأدب، وشعره صحيح المباني، بديع المعاني، خدم العزيز بن صلاح الدين، ودام حتى خدم الكامل»^(١).

ومنهم:

٨٠-١- ابنه الفتح (فتح الدين بن جمال الدين بن أبي الحوافر)^(٢)

كان مثل أبيه، وإن لم يكن مثله فيدانيه.

قال ابن أبي أصيبعة فيه: «كان نزيه النفس، صائب الخدس، حسن المداواة، لطيف المداواة، فصيح اللسان، كثير الإحسان، خدم الكامل والصالح، وفي أيامه توفي بالقاهرة».

ومنهم:

٨١-١- ابنه المهذب (شهاب الدين ابن فتح الدين)^(٣)

زاد على أبيه فضله، وزان علا سلفه نبه.

وقال ابن أبي أصيبعة فيه: «جمع بين الفضائل، وتميز على الأواخر والأوائل، علامة وقته في حفظ الصحة ومراعاتها، وإزالة الأمراض وعلاجاتها، اقتفى سيرة آبائه، وفاق نظراءه في همته وإبائه»: [الكامل]

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٤٦٥).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٤٦٧).

(٣) انظر: ترجمته في عيون الأنباء، (٣/ ٤٦٧).

ورث المكارم عن أبيه وجده . كالرمح أنبؤا على أنبوب

فأما من سواهم: فمنهم:

٨٢ ١- الخونجي: محمد بن ناماوار أفضل الدين أبو عبد الله^(١)

قاضي القضاة، تمام الأفاضل، وإمام كل فاضل، ولهذا لُقّب بأفعل التفضيل، ولقي الود من كل فضيل، إلى علوم شرعية، وعلو قدر لرتبة مرعية، هذا إلى وفور إحسان، وظهور أياد حسان، مع سلامة صدر، وسداجة مفرطة بلا قدر، فلم يكن مثل بزه الرفيع الساذج، ومهزه الرطب عند قضاء الحوائج.

قال ابن أبي أصيبعة فيه: «اجتمعت به ووجدته الغاية القصوى في سائر العلوم، وكان يعرض له إنشدها خاطر لكثرة انصباب ذهنه إلى العلم، وتوفر فكره عليه، وولي قضاء القضاة بمصر وأعمالها»^(٢).

ومنهم: بنو فانه

أهل بيت تنسقوا في الفضائل، وتناسبوا في كرم الشئائل، وتناسلوا لا تكذب فيهم المخايل، كأنما توالدوا من ظهور إقليدوس، أو تعاقدوا على حل مشكلات جالينوس، لو جلسوا في رواق أرسطو لسطا بهم في النظر، وسأ بهم إلا أنه يرضى جنب القمر.

(١) انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٣/٢٧٨)، حسن المحاضرة (١/٣١٢، ٣١٣)، عيون الأنباء (٤٦٩/٣).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/٤٦٩، ٤٧٠).

وأولهم:

٨٣-١- أبو سليمان داود بن أبي المنى ابن فانة^(١)

وكان في أهل ملته يأوي إلى جناب منيع، ويهني بسحاب لا يجحد له حسن الصنيع، وهذا إلى فهم ثاقب، وعزم لا يوني في طلب المناقب.

قال ابن أبي أصيبعة: «كان طبيباً نصرانياً من أهل القدس، حظياً عند الخلفاء، فاضلاً من فضلاء الأطباء، وأخذَه الملك ماري من مصر إلى القدس ليقيم عنده به، ولما وقع الفقيه عيسى عنده في الأسر مرض مرضاً أشفى منه، فأمر ماري ابن فانة بمعالجته، فلما رآه مثقلاً بالحديد في قعر الجب قال للماري: هذا رجل ذو نعمة، ولو سقيته ماء الحياة على مثل هذه الحال لم ينتفع به، فأطلقه من الحديد والجب، وأكرمه فإن ذلك كان كافٍ في علاجه.

فقال له: هذا عليه قطيعة كثيرة، وأخاف أن يهرب. فقال ابن فانة: أيها الملك سلمه إليّ وضمانه عليّ.

فقال له: تسلمه، فإذا جاءت قطيعته لك فيها ألف دينار، ثم أخذه إليه وفك حديدَه وأخلى له موضعاً من داره، وبالع في إكرامه، فلما مضت ستة أشهر، أمره ماري بإحضاره، فأحضره، فوجد قطيعته قد جاءت في أكياس، فأعطى ابن فانة منها كيساً فيه ألف دينار كما وعده، وأطلق سراح الفقيه عيسى، فقال ابن فانة: أيها الملك هذه الألف دينار قد صارت لي، وأتصرف فيها تصرف الملاك في أملاكهم، قال له: نعم، فأعطاه للفقيه لوقته، وقال له: أنا أعرف أن هذه القطيعة ما جاءت وقد تركت خلك شيئاً، وربما استدانوا لك فيها، فاقبل مني هذه في نفقة الطريق، فقبلها منه، وكان ابن فانة عارفاً

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/ ٤٧١).

بالنجامة، ورأى أن صلاح الدين سيدخل القدس من باب الرحمة، فبعث ولده أبا الخير إليه مبشراً بذلك، فأجازه جائزة سنية، وأعطاه علماً أصفر، ونشابة لأمانه، فلما دخل صلاح الدين إلى القدس دخل الفقيه عيسى داره وحماها أن تنال بسوء هي وجميع ما جاورها»^(١).

ومنهم:

٨٤-١- ابنه: الموفق أبو شاکر موفق الدين

لم يقف عند غاية أبيه وهي نائية، ولم يقف آثاره والسحب وراءها غير متوانية، تشرف بالإسلام وتعرف بالهدى وعداه الملام، وحظي بمن خدمهم من الملوك بما لم يحظ به من مخدوم وغلّام، وقف له مثل العادة في نهجه، وأمطاه من مراكبه ما ركب منه في غير سرجه.

قال ابن أبي أصيبعة^(٢): «قرأ على أخيه أبي سعيد، ثم تميز واشتهر، وحظي عند الكامل، وأقطعه ضياعاً وغيرها، وكان يتفقده بالهبات الوافرة والصلات المتواترة، وكان يدخل في جميع قلاع راکبا لا ينزل، ثم أسكنه عنده بقلعة الجبل، وركبه العادل مرة بغلته التي كانت قد شدت في النوبة له، وركب ووقف بين القصرين ينتظره حتى جاء ثم أخذه بيده وجعل يتحدث معه إلى أن أتيا دار الوزارة، وكان العادل يسكنها وهو معه راکب، والأمراء ومن سواهم مشاة في الخدمة»^(٣).

(١) انظر: عيون الأنباء (٤٧١-٤٧٣).

(٢) انظر: عيون الأنباء (٣/٤٧٥، ٤٧٦)، وقد ذكره ابن أبي أصيبعة تحت اسم «أبو بكر بن أبي سليمان» ثم عرف به موفق الدين أبو شاکر بن أبي سليمان.

(٣) ذكر ابن أبي أصيبعة أن الموفق توفي بالقاهرة في سنة ثلاث عشرة وستمائة، ودن بدير الخندق عند القرافة (٣/٤٧٦).

وفيه يقول ابن منقذ: [المتقارب]

رأيت الحكيم أباشاكر كثير المحب مع الشاكر
خليفة بقراط في عـصرنا وثانيه في علمه الباهر

ومنهم:

٨٥-١- الرشيد أبو حليقة: وهو أبو الوحش ابن الفارس ابن أبي الخير بن أبي سليمان داود ابن أبي المنى ابن فانة^(١)

وسبب تسميته بأبي حليقة لأن أباه كان لا يعيش له ولد، فقيل لأمه: لو عملت في أذنه حلقة لعاش، فعملتها. والملك الكامل هو الذي سمى بهذا الاسم لأنه طلبه مع غلام فقال له: من هو من الأطباء؟ فقال: هو أبو حليقة، فعُرف بذلك، وكان مذ كان منقطع القرين، مهيباً لا يقتحم له عرين، معظماً في النفوس، متمماً لمحاسن أهل الشمس، تجله الملوك وتحله حيث لا يصل إليه سلول.

قال ابن أبي أصيبعة بعد الثناء الجميل عليه بالعلم والدين المروءة: «إنه ربي بجعبر، وكان أبوه يلبسه زي الجند، فدخل الملك الكامل مرة الحمام قريباً من داره، فبعث إليه أبوه معه ماء ورد، وأطباق فاكهة، فقبلها الأمير وملاً أطباقه تفاصيل سنية، ثم دخل به على ابنه الملك العادل فلما رآه قال: هذا ابن الفارس؛ لأنه عرفه بالشبه، فقال له: نعم. فالتفت إلى أبيه وكان قائماً في الخدمة وقال له: ولدك هذا ذكي لا تعلمه الخدمة، فالجند عندنا كثير وأنتم أهل بيت تبركنا بطبكم، فسيره إلى عمه أبي سعيد إلى دمشق ليقرئه الطب، ففعل، فمهر، ثم رحل إلى القاهرة وخدم الكامل وحظي لديه، وأقطعه ثم خدم من بعده إلى الملك الظاهر بيبرس على أجهل العوائد.

(١) انظر: ترجمته في عيون الأنباء (٣/٤٧٧-٤٩٣).

قال: وكانت له نوادر في العلاج؛ منها: أنه كان يعالج حظية الكامل كانت معه بالعباسية، ثم عرض للرشيد شغل دخل لأجله إلى القاهرة، وأقام بها ثمانية عشر يومًا، ثم عاد فوجد الأطباء قد ترددوا إليها، فلما حضر باشر معهم، فقالوا له: إن هذه على موت، والمصلحة أن نُعلم السلطان بهذا قبل أن يفجأه أمرها بغتة، فقال لهم: الذي عندي أن هذه ما هي في مرض الموت. فقال له شيخ منهم: أنا باشرت المرضى أكثر منك. فطالع السلطان فلم يوافق، فأجمع الأطباء على المطالعة بهذا إلا هو، فكتبوا إلى السلطان بموتها، فأرسل إليهم رسولاً ومعه نجار ليعمل لها تابوتًا تحمل فيه، فأتيا والأطباء جلوس، فقال له الرشيد: ما هذا؟

فأخبره بما أتيا له، فقال للرسول: أتضعها في التابوت وهي في الحياة؟ فقال: لا، ولكن بعد موتها، فقال له: ارجع بهذا التابوت وقل للسلطان عني خاصة إنها لا تموت في هذه المرضة، فرجع وأخبره بذلك، فلما كان الليل استدعاه وقال له: أنت منعت عمل التابوت؟ قال له: نعم. قال له: بما عرفت ذلك دون الأطباء؟ قال: بمعرفتي بمزاجها دونهم. فقال له: امض فطبيبها، فطبيبها فعوفيت.

ومنها: أن الكامل لفَّ مرة يده وأخرجها من أيدي الحرم وهو يحبس الأيدي، فلما انتهى إلى نبض الكامل قال: هذا نبض مولانا السلطان، وهو صحيح بحمد الله.

ومنها: أنه جاءته امرأة من الريف ومعها ولدها شاب غلب عليه النحول لترى إياه، واتفق أنها جاءت به إليه بالغداة، والوقت بارد، فجلس نبضه، وبينما هو يحبس نبضه، إذ قال لغلامه: ادخل ناولني الفرجية لألبسها، فتغير نبض الشاب عند قوله تغيرًا كثيرًا، فحدس أن يكون عاشقًا، ثم جس نبضه بعد ذلك فتساكن، وعندما خرج الغلام وقال له: هذه الفرجية جس نبضه أيضًا فوجده قد تغير.

فقال لوالدته: إن ابنك هذا عاشق، والذي يهواها اسمها فرجية.

فقالت: أي والله يا مولاي هو يجب واحدة اسمها فرجية، وقد عجزت مما أعذله فيها، وتعجبت من قوله لها غاية العجب، ومن اطلاعه على اسم المرأة من غير معرفة متقدمة له بذلك.

أقول: مثل هذه الحكاية كانت عرضت لجالينوس لما عرف المرأة العاشقة، وذلك أنه كان استدعى امرأة جلييلة القدر وكان المرض قد طال بها، وحبس أنها عاشقة، فتردد إليها، ولما كان عندها وهو يحس نبضها، وكانت الأجناد قد ركبوا في الميدان وهم يلعبون، فحكى بعض الحاضرين ما كانوا فيه، وأن فلاناً تبينت له فروسية ولعب جيد، فعند ذلك لما سمعت باسم ذلك الرجل تغير نبضها واختلف، ثم جسها بعد ذلك فوجده قد تساكّن إلى إن عاد إلى حاله، ثم إن جالينوس أشار إلى الحاكي سراً أن يعيد قوله، فلما أعاده وجس نبضها وجده أيضاً قد تغير فتحقق من حالها أنها تعشق ذلك الرجل، وهذا مما يدل على وفور العلم وحسن النظر في تقدم المعرفة^(١).

ومنهم:

٨٦-١ ابنه المذهب: أبو سعيد محمد بن أبي حليقة^(٢)

وأي الرجال المذهب؟ وأي الأصا عصره المذهب، وكان له أي مجلس مغشي، وأنس أضوا من مصابيح العشي، ويُعشى إلى ضوء ناره، ويُعزى الفضل إلى ساكن داره، ويوصف بخلائق تتكفل بري الظماء، وتلذ لذة العسل بالماء، ولم يزل فجره يتزيد في إنارته، وبدره لا يخرج من دارته، حتى طما على روضته سيل المنون، وطحنه تحت ضرسه المنجنون^(٣).

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٤١١).

(٢) انظر: ترجمته في عيون الأنباء، (٣/ ٤٩٣، ٤٩٥).

(٣) المنجنون: الجمع مناجين؛ وهو الدولاب الذي يستقي عليه الإبل.

قال ابن أبي أصيبعة: «أوحد العلماء، وأكمل الحكماء، ولد بالقاهرة وسمي محمدا لما أسلم أيام الظاهر، منحه الله من العقل أكمله، ومن الأدب أفضله، ومن الذكاء أغزره، ومن العلم أكثره، أتقن الطب وعرف الحكمة، ولا أحد يدانيه فيما يعانيه، ولا يصل إلى الخلائق الجميلة التي أجمعت عليه»^(١).

وانتهى ذكرهم.

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٤٩٤، ٤٩٥).

فأما من سواهم، فمَنهم:

٨٧-١- الرشيد أبو سعيد بن موفق الدين يعقوب^(١)

ويُلقب بالموفق، وكان في فعله موفقًا، وفي نقله موثقًا، يصيب شاكلة الرمي، ويتلقى عدو المرض تلقى الكمي^(٢)، وله علاج يقوم بالأبدان، ويدوم تهاديه في البلدان، وينقل من خبره ما يكون أرجًا للمجالس، وحرَجًا للمنافس، وطالما طال أمثاله في البيع، وكانوا له كالتبع، ثم خدم السلطان فتم مشند الأشطوان حتى شجب بعلته، وأشجى بالبكاء عليه أهل ملته.

قال ابن أبي أصيبعة: «هو من نصارى القدس، وكان خيرًا في الطب علمًا وعملاً، حاد الذهن، وخدم الكامل ثم ابنه الصالح، وعالجه وهو بدمشق من أكلة كانت في فخذه، وكانت بينه وبين الرشيد أبي حليقة منافسة، فقال أبو سعيد: إن معالجة أبي حليقة على غير الصواب، فنظر الصالح إلى أبي حليقة نظرة غضب، فقام من بين يديه وقعد بباب الدار، ثم عرض أبو سعيد إليه مرة أخرى في مجلس السلطان، فعرض له فالج وبقي ملقى قدامه فأمر السلطان بحمله إلى داره، فمات بها بعد أربعة أيام، ثم عاد الصالح إلى مصر بعلته وبها مات»^(٣).

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٤٩٦، ٤٩٧).

(٢) الكمي: أي الشجاع المقدام الجريء، كان عليه سلاح أو لم يكن. [المعجم الوسيط].

(٣) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٤٩٧).

ومنهم:

٨٨-١ ابن البيطار: عبد الله بن أحمد المالقي النباتي، ضياء الدين

أبو محمد^(١)

سحاب أتى سيله فطم على القرى، وسحب ذيله فتم نسج العبقري، وكأنها كان بأسرار الأدوية مناجى، أو أوتي أجزل من ابن جزلة منهاجاً، لعلم بالعقاقير وأشخاصها، وعموم منافعها واختصاصها، مع حسن جمع وإتقان ما يلج في سمع، وعرف فيها مقالات الحكماء وحرزها، وألف فيها المطولات وحبّرها، وكان نسيج وحده، ووشيج جفان بأسده، تقلب في البلاد وجلب ما يبقى على الأباد، ثم مات والله في خلقه أمر، وجناها على نفسه وقال: بيدي لا بيد عمر.

قال ابن أبي أصيبعة: أوجد زمانه، وعلامة أوانه، في معرفة النبات وتحقيقه واختباره ومواضع نباته، ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها، سافر إلى بلاد الأغارقة^(٢)، وأقصى بلاد الروم، ووجد جماعة ممن يعاني هذا الفن، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير وعائنه في مواضعه، واجتمع أيضاً في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات، وعائنه نباته وتحقيق ماهيته، وأتقن دراية كتاب ديسقوريدس إتقاناً بلغ فيه إلى أن لا يكاد يوجد من يجاريه فيها هو فيه، وذلك أنني وجدت عنده من الذكاء والفطنة والدراية في النبات وفي نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيه ما يتعجب منه. أول اجتماعي به كان بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وست مائة، ورأيت أيضاً من حسن عشرته، وكمال مروءته، وطيب أعراقه، وجودة أخلاقه، وكرم نفسه ما يفوق الوصف، ويتعجب منه، ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه، وقرأت عليه أيضاً

(١) انظر: عيون الأنباء (٣/ ٥٠٠-٥٠٢).

(٢) بلاد الأغارقة: الإغريق: اليونان.

تفسيره لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس، فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئاً كثيراً، وكنت أحضر لدينا عدة من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة، مثل: كتاب ديسقوريدس وجالينوس، والغافقي، وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن، فكان يذكر أولاً ما قاله ديسقوريدس من نعتة وصفته وأفعاله، ويذكر أيضاً ما قاله جالينوس فيه من نعتة وأفعاله ومزاجه وما يتعلق بذلك، ويذكر أيضاً ما قاله المتأخرون وما اختلفوا، ومواضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعتة، فكنت أراجع تلك الكتب معه، ولا يغادر شيئاً بما فيها، وأعجب من ذلك أيضاً أنه كان ما يذكر دواء إلا ويعين في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس، وفي أي عدد هو من جملة الأدوية المذكورة، وفي تلك المقالة.

وكان في خدمة الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، وكان يعتمد عليه في الأدوية المفردة، والحشائش، وجعله في الديار المصرية رئيساً على سائر العشابين، وأصحاب البسطات، ولم يزل في خدمته إلى أن توفي الملك الكامل - رحمه الله - بدمشق، وبعد ذلك توجه إلى القاهرة ثم خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، وكان حظياً عنده، مُقَدِّماً في أيامه، وكانت وفاة ضياء الدين العشاب - رحمه الله - بدمشق في شهر شعبان سنة ست وأربعين وستمائة. وكتابه الجامع في الأدوية المفردة لا يوجد كتاب في الأدوية أجل ولا أجود منه، وصنفه للملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل.

قلت: ويحكى أنه سمَّ نفسه فهاث.

حدثني الحكيم أمين الدين سليمان بن داود المتطبب قال: كان الملك الصالح قد أعطى ابن البيطار ألف دينار لينفقها على أثمان أدوية دعت إليها حاجته، واجتناء حشائش شامية ورومية، فلما أتى بيت المقدس رأى امرأة نصرانية اسمها مريم، فأحبها وأنفق عليها ذلك المال حتى أنفده وأهمل حاجة الملك الصالح، فلما قدم الملك الصالح

إما قال: القدس، أو قال: دمشق، لم يكن لابن البيطار دأب ليله، أراد الصالح يدخل البلد في صباحها إلا أنه أحضر النصرانية، وبات معها في أكل وشرب واستماع غناء واستمتاع حتى كان الثلث الآخر، فأخرج حشيشة معه فسحقها في هون ثم استفها ونام، وقال: غطوني، ثم إذا أصبحتم لا تسحقوا شيئاً في الهون حتى تجيدوا غسله فإنه قد صار مسموماً، فلم يفهموا مقاله إلى أن أصبحوا فرأوه ميتاً، ففهموا ما كان قاله، وغسلوا الهون، فلما دخل السلطان سأل عنه فحكيت إليه القصة، فقال: لقد أساء بنا الظن، وأين مثله لأشتره بشطر ملكي، والله لو علمت لأعطيته عشرة آلاف دينار يصرفها في لذته، وكان أمتعنا بنفسه.

قلت: ويحكى أنه ترك عقاقير كثيرة ومفردات عدة لم يذكرها في كتابه الجامع ضناً بها، وبخلاً على غيره بمعرفتها. قال لي الحكيم صلاح الدين ابن البرهان: كان ابن البيطار يعرف مما يدخل في علم الكيمياء أشياء لم يذكرها في جامعه.

قلت: وابن البرهان كان مغرباً بالكيمياء، مصداقاً بعلمها، وإن كان لا يعملها بيده، ولهذا أظنه قال ما قال. [الوافر]

وكلُّ يدعي وصلاً بليل . وليل لا تقر لهم بذلك

ومنهم:

٨٩-١ علي بن أبي الحزم، هو الإمام الفاضل الحكيم العلامة علاء

الدين ابن النفيس القرشي الدمشقي^(١)

فرد الدهر وواحد، وأخو كل علم ووالده، إمام الفضائل، وتمام الأوائل، والجبل الذي لا يرقى علاه بالسلام، والحبل الذي لا يعلق به إلا الغريق السالم، لم يبق إلا من

(١) انظر: ترجمته في الوافي بالوفيات (١٢/ ٢١، ٢٢)، النجوم الزاهرة (٧/ ٣٧٧).

اغترف منه غرفة بيده، وأخذ منه حلية لقلده، حل مصر في محل ملكها، ونسخت ليالها بإشرافه صبغة حلكتها، وقرأ عليه بها الأعيان وكلاً فضله وأعان، ولم يكن على علم واحد بمقتصر، ولا شبهه بالبحر إلا مختصر، هذا إلى حسب غير مرءوس، وحسب مثل جناح الطاوس، وشرف قرشي لا يحل معه في بطحائه، ولا يحث في اليد قلاص بطائه، زكا محتداً، وزها بيتاً لم يضرب غير متوسط السماء وتداً، وكمل ذاته بكرم وخير، ومجد في لأول وأخير، ومزايا استحقاق سجايا كحواشي النسيم الرقاق، ومحاسن كطوالع النجوم ما فيها شقاق.

قال ابن أبي أصيبعة^(١): نشأ بدمشق واشتغل بها في الطب على المذهب الدخوار، وكان المذهب الدخوار منجباً، تخرج عليه جماعة منهم: الرضي وابن قاضي بعلبك، والشمس الكلي، وكان علاء الدين إماماً في علم الطب لا يضاهى في ذلك ولا يدانى، استحضاراً واستنباطاً، واشتغل على كبر، وله فيه التصانيف الفائقة والتواليف الرائقة.

صنّف كتاب «الشامل» في الطب، تدل فهرسته على أنه يكون في ثلاث مائة سفر، هكذا ذكر بعض أصحابه، وبيض منها ثمانين سفرًا، وهي الآن وقف بالبيهارستان المنصوري بالقاهرة، وكتاب المذهب في الكحل، وشرح القانون لابن سينا، في عدة أسفار، وغير ذلك في الطب، وهو كان الغالب عليه.

وأخبرني شيخنا أبو الثناء محمود أنه كان يكتب إذا صنّف من صدره، من غير مراجعة حالة التصنيف، وله معرفة بالمنطق، وصنّف فيه مختصرًا، وشرح الهداية لابن سينا في المنطق، وكان لا يميل في هذا الفن إلا إلى طريقة المتقدمين كأبي نصر، وابن سينا، ويكره طريقة الأفضل الخوننجي، والأثير الأبهري، وصنّف في أصول الفقه، والعربية، والحديث، وعلم البيان، وغير ذلك، ولم يكن في هذه العلوم بالمتقدم إنها كان له مشاركة

(١) لم أجد ترجمة لابن النفيس في عيون الأنباء، وأثناء تحقيقي لمخطوطات الكتاب كنت أتعجب عن غياب ترجمة ابن النفيس مع أنه كان معاصرًا لابن أبي أصيبعة.

ما، وقد أحضر من تصنيفه في العربية كتابًا في سفرين أبدى فيه علماً تخالف كلام أهل الفن، ولم يكن قرأ في هذا الفن سوى الأنموذج للزخشي، قرأه على ابن النحاس، وتجاسر به أن صنف في هذا العلم، وعليه، وعلى العماد النابلسي تخرج الأطباء بمصر والقاهرة، وكان شيخاً طوالاً، أسيل الحدين، نحيفاً، ذا مروءة.

وحُكي أنه في علته التي توفي فيها أشار عليه بعض أصحابه الأطباء بتناول شيء من الخمر، إذا كان صالحاً لعلته على ما زعموا، فأبى أن يتناول شيئاً منه، وقال: لا ألقى الله تعالى وفي باطني شيء من الخمر.

وكان قد ابتنى داراً بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى إيوانها، ومارأيت إيواناً مرخماً في غير هذا الدار، ولم يكن مزوجاً، ووقف داره وكتبه على البهارستان المنصوري، وكان يغض من كلام جالينوس، ويصفه بالعي والإسهاب الذي ليس تحته طائل، وهذا بخلاف النابلسي فإنه كان يعظمه ويحث على قراءة كلام جالينوس.

وكان علاء الدين قد نزل يدرس بالمسروية^(١) بالقاهرة في الفقه، وذكروا أنه شرح في أول التنبيه إلى باب السهو شرحاً حسناً، ومرض - رحمه الله تعالى - ستة أيام أولها يوم الأحد، وتوفي سحر يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وستمائة بالقاهرة.

قال أبو الصفاء: أخبرني الإمام العلامة الشيخ برهان الدين الرشيد خطيب جامع أمير حسين بالقاهرة قال: كان العلاء ابن النفيس إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبرية، ويدير وجهه إلى الحائط ويأخذ في التصنيف إملاء من خاطره، ويكتب

(١) هذه المدرسة بالقاهرة داخل درب شمس الدولة، كانت دار الطواشي الأمير شمس الخواصي مسرور أحد خُدَّام القصر، فجعلت مدرسة بعد وفاته بوصيته، وأن يوقف الفندق الصغير عليها، وكان بناؤها من ثمن ضيعة بالشام كانت بيده أبيع بعد موته، وتولى ذلك القاضي كمال الدين خضر ودرس بها. انظر: الخطط المقرزية (٤/ ٥٠٤).

مثل السيل إذا تحدر، وإذا كل القلم وحفي رمى به وتناول غيره لثلا يضيع عليه الزمان في بري القلم.

قلت: وبهذا حدثني شيخنا أبو الثناء محمود، قال أبو الصفاء: وأخبرني شيخنا نجم الدين الصفدي أن ابن النحاس كان يقول: لا أرضى بكلام أحد في القاهرة في النحو غير كلام ابن النفيس، أو كما قال.

وقد رأيت له كتابًا صغيرًا عارض به رسالة حي بن يقظان لابن سينا، ووسمه بكتاب: «فاضل بن ناطق»، وانتصر فيه لمذهب أهل الاسلام وآرائهم في النبوات والشرائع، والبعث الجسماني، وخراب العالم، ولعمري لقد أبدع فيها ودل ذلك على قدرته وصحة ذهنه، وتمكنه من العلوم العقلية.

وأخبرني السيد الدمياطي الحكيم بالقاهرة، وكان من تلاميذه قال: اجتمع ليلة هو وابن واصل^(١) وأنا نائم عندهما، فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة شرعا في البحث وانتقلا من علم إلى علم، والشيخ علاء الدين كل ذلك يبحث بريضة ولا انزعاج، وأما القاضي جمال الدين فإنه ينزعج ويعلو صوته، وتحمر عيناه، وتتفخ عروق رقبته، ولم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبح، فلما انفصل الحال قال القاضي جمال الدين: يا شيخ علاء الدين، أما نحن فعندنا مسائل ونكت وقواعد، وأما أنت فعندك خزائن علوم.

قال أبو الصفاء: قال السيد أيضا: قلت: يا سيدي لو شرحت «الشفاء» لابن سينا، كان خيرًا من شرح «القانون» لضرورة الناس إلى ذلك: فقال: الشفاء عليّ فيه مواضع تريد أيتها؟ قلت: يريد أنه ما فهم تلك المواضع لأن عبارة الرئيس في الشفاء

(١) ولد سنة أربع وستائة، وكان إمامًا عالمًا بعلوم كثيرة خصوصًا التعليقات، مفرطًا في الذكاء، وصنّف تصانيف كثيرة في الأصول والحكمة والمنطق والعروض والطب والأدبيات، ومن مصنفاته: مفرج الكروب في دولة بني أيوب، توفي بحجة يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال سنة سبع وتسعين وستائة. انظر: الوافي بالوفيات (٣/ ٧١، ٧٢)، شذرات الذهب (٥/ ٤٣٨، ٤٣٩).

غلقه.

قال: وأخبرني آخر قال: دخل الشيخ علاء الدين مرة إلى الحمام التي في باب الزهومة، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مسلخ الحمام وإستدعى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقاله في النبض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودخل الحمام وكمل تغسيله.

وقيل: إنه قال: لو لم أعلم أن تصانيفي تبقى بعدي عشرة آلاف سنة ما وضعتها، والعهد في ذلك على من نقله عنه.

وعلى الجملة كان إمامًا عظيمًا، وكبيرًا من الأفاضل جسيمًا، وكان يُقال: هو ابن سينا الثاني.

قال: ونقلت من ترجمته في مكان لا أعرف من هو الذي وضعه، قال: شرح «القانون» في عشرين مجلدًا شرحًا حلَّ فيه المواضع الحكمية، ورُتب فيه القياسات المنطقية، وبيّن فيه الإشكالات الطبية، ولم يسبق إلى هذا الشرح لأن قصارى كل من شرحه أن يقتصر على الكليات إلى نبض الحبالى، ولا يجري فيه ذكر الطب إلا نادرًا، وشرح كتب بقراط كلها، ولأكثرها شرحان؛ مطول ومختصر، وشرح الإشارات، وكان يحفظ «كليات القانون» ويُعظّم كلام بقراط، ولا يشير على مشغل بغير القانون، وهو الذي جَسَّر الناس على هذا الكتاب، وكان لا يحجب نفسه عن الإفادة ليلاً ولا نهارًا، وكان يحضر مجلسه في داره جماعة من الأمراء، والمهذب ابن أبي حليقة رئيس الأطباء، وشرف الدين ابن صغير، وأكابر الأطباء، ويجلس الناس في طبقاتهم، ومن تلاميذه الأعيان: البدر حسن الرئيس، وأمين الدولة ابن القف، والسديد الدمياطي، وأبو الفرج الإسكندري، وأبو الفرج ابن صغير.

وحدثني عنه غير واحد منهم شيخنا أبو الفتح البعمري قال: كان ابن النفيس على وفور علمه بالطب وإتقانه لفروعه وأصوله قليل البصر بالعلاج، فإذا وصف لا يخرج

بأحد عن مألوفه، ولا يصف دواء ما أمكنه أن يصف غذاء، ولا مركبًا ما أمكنه الاستغناء بمفرد، وكان ربما وصف القمحية لمن شكا القرحة، والتطاح لمن شكا هواء، والخروب والقضامة لمن شكا إسهالًا، ومن هذا ومثله، ولكل بما يلائم مأكله ويشاكلها، حتى قال له العطار الشرابي الذي كان يجلس عنده: إذا أردت أنك تصف مثل هذه الوصفات اقعد على دكان اللحام، وأما إذا قعدت عندي فلا تصف إلا السكر والشراب والأدوية.

وحكى لي شيخنا أبو الثناء الحلبي الكاتب قال: شكوت إلى ابن النفيس عقلاً في يدي، فقال لي: وأنا والله بي عقال، فقلت له: فبأي شيء أداويه؟ فقال لي: والله ما أعرف بأي شيء أداويه، ثم لم يزدني على هذا.

ومنهم:

١٩٠- أحمد المغربي

شهاب الدين والد الرئيس جمال الدين إبراهيم ابن المغربي رئيس الأطباء بمصر والشام، وإليه انتهت الحشمة والاحتشام، كوكب الفضائل الطالع نيرًا، والمشرق قمرًا منورًا.

أخذ من كل العلوم الحكيمة بنصيب موفر الأجزاء، موفر الجناح، يعزى إليه بالاعتزاء.

قدم مصر واستوطنها، وقطع بفضلها من قطنها، وكان فريدًا في أنواع العلم، إلا أنه عرف بالطب أكثر من بقية ما عرف به من المعارف، وحصل على التالد والطارف، وخدم السلطان وتقدم الزهط، وتفرد في جماعة الأطباء، وأقرأ العلم وأفاد، وياشر المرضى وأحسن العلاج، وعدل منحرف كل مزاج، وكان وافر الحظ من السلطان والأمراء والوزراء، وسائر الكبراء، وكان بصيرًا بالنجامة، متقدمًا في علمها، وكان يتكلم فيها مع السلطان وأرباب الدولة، وحصل النعم الجمّة، والأموال الجزيلة، وخدم بنوه السلطان،

وتقدموا في الخدم، وصحب ابنه جمال الدين السلطان حين هم بالحج أيام سلطنته الثانية، فلما أقام بالكرك أقام معه، وترك أسبابه وراءه بمصر منقطعة، فرعى له السلطان حق انقطاعه، وزاد في قدر إقطاعه، وولاه الرياسة حتى تجاوز قدر الرؤساء، وقربه حتى كان من أخصاء الجلساء، وكان لا يزال يفاوضه في كل حديث ويطلعه على أكثر الأمور، ورفع إليه يومًا الصلاح بن البرهان قصة يسأل فيها الإعفاء من وظيفته في الطب بالخدمة، وكنت سفيره فيه، فقال لي السلطان: هذا الصلاح أفضل من إبراهيم -يعني: ابن المغربي- وما يطلب ترك الخدمة إلا لأجله، لكونه مقدمًا عندنا عليه، فقل له: نحن نعرف فضيلتك وكبر قدرك، وأنت أفضل من إبراهيم وأكبر، ولكن إبراهيم له علينا حق الخدمة من وقت كنا في الكرك، وهو صاحبنا ما هو طيب عندنا، فبلغته الرسالة بنصها، فسكت على مضض.

قلت: هذا قول السلطان، وأما الرئيس جمال الدين إبراهيم فإنه من أعيان الأطباء، وأهل الفضل، والتقدم في العلم والعمل في الطب وصناعته، والاجتهاد دائمًا في توفير بضاعته، ولهذا اكتفيت عن إفراده بترجمة.

ومنهم:

٩١ - السيد الدمياطي^(١)

اليهودي، يعرف بابن كوجك، وبنو كوجك وبنو صغير أهل بيت واحد، وهم من يهود بلاد العجم، وكلهم كانوا لا يعرفون إلا ببني كوجك، وكوجك باللغة العربية: صغير، فلما قدموا مصر عرّب فريق منهم اسم جدهم المنسوبين إليه وبقي فريق على اسمه الأعجمي، وكان «السديد» شديد المقال، مديد المجال، جالينوس زمانه في الطب الذي لم

(١) انظر: ترجمته في الوافي بالوفيات (١٥/١٢٧).

يبلغ، والعلم الذي لم يدرك.

قرأ على ابن النفيس، والناقلي، وعلى ابن النفيس أكثر، ومن مدده استكثر.

أتقن الحكمة والطب، وأخذ من كل فن بطرف، وأذن كل فاضل له واعترف، وكان يحفظ غالب ديوان أبي الطيب المتنبي، بل كله، وينشد منه، ويستشهد به في موضعه إذا تكلم، وخدم السلطان، وتقرر لديه فضله، واستقر في كل خاطر أنه لا نظير له في الدهر، وتنافست الأمراء وأكابر الدولة في معالجته، وكانت الأطباء إذا اختلفت في حدى مرض أو وصف دواء عادوا إلى رأيه، ورجعوا إلى قوله، فإذا قال سكت كل قائل، وسلم كل منازع، وكانوا إذا عرض للسلطان مرض وحضروا عنده تقدم السيد فأمسك يد السلطان وجس نبضه قبل الرئيس، وقبل كل أحد، وكان الرئيس هو السائل عن الأعراض بحضوره، ثم تحصل الشورى بينهم على ما يوصف، ويكون مدار الكل على كلام السيد، واعتماد السلطان عليه دون الكل.

وكان السيد رجلاً عاقلاً ساكناً لا يكاد يتكلم، حتى إذا تكلم كان البحر الزاخر، والسيل المنحدر، والضرام المتقد، والأسد الصئول، إلى نقول يستحضرها، وبحوث يحررها، وتجارب يذكرها.

وكانت له يد في علم الموسيقى والطرب، ورأيت ابن كر^(١) يصفه ويشي على علمه وينصفه، وكان على هذا الفضل الغزير والمدد الوافر لا يتوسع في الوصف ولا يخرج عن الجادة، ولا يعدل عن المعهود، ولا يرى التفقه في الطب كما كان عليه فرج الله بن صغير، وكان السيد اجتهداً لنفسه، وفرج الله اجتهداً للعليل، على أن السيد كان إذا لم

(١) هو: محمد بن عيسى بن حسن بن كر، شمس الدين أبو عبد الله بن حسام الدين الحنبلي، ولد ربيع عشر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وستمائة، وكان إمام أهل عصره في الموسيقى، ووضع كتاباً في فن الموسيقى سماه «غاية المطلوب في علم الأنغام والطروب». انظر: الوافي بالوفيات (٤/ ٢١٤، ٢١٥).

يشاركه طبيب آخر يطبب تطبيقاً مستقصى، وإن لم يتوسع، فأما إذا شورك سكت وجمد واكتفى بقول المشارك له، وإن كان عنده في الباطن خلافه، وبالجملية كان من الأفراد، ومن يقدم إذا حضرت الأفاضل بالأعداد.

ومنهم:

١٩٢- فرج الله بن صغير

طبيب لو حضر معه ابن ماسويه لما مس العلاج، أو أبو قريش لما أقر له ابن اللجلاج، أو استشعر به حنين بن إسحق لحن إلى لقاءه، أو كان في زمانه ابن الأشعث للممّ شعثه ببقائه، لنفع لو كان للمطبخ لأكّل جديه الحنيد، أو لأمين الدولة لكان عنده ابن التلميذ، وصدق ودّ لو أنه لابن كلدة لوكل إليه الوفاء، أو لسنى لابن سيناء لنسب إليه دون الشفاء، ولم يكن شرواه^(١) في مداواة سقام، ومدافعة سهام، بملاطفة ما حظي بها النسيم، ولا عبث بشبهها في ملاعبه عطف الروض النسيم.

قال لي: إنه قرأ على أبيه وعلى ابن النفيس، وتلك الطبقة، واقتصر على علم الطب وحققه، وأذن له في الكحل ثم في الطب، وجلس للتطبيب، وعاد المرضى، وظهر أثر علمه، وكثر النفع به، وبرء المرضى علي يده.

وخدم السلطان وأطلق له المعلوم الوافر، والراتب الكامل، وتفرد بخدمة بكتمر الساقى^(٢)، وكان يعتمد عليه دون سائر الأطباء، ويعمل بقوله في معالجته ومعالجة ولده

(١) الشّروى: المثل، وهو لا يملك شروى نقيض: أي مُعَدَم. [المعجم الوسيط].

(٢) هو: الأمير سيف الدين بكتمر الساقى، كان أولاً من ممالك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، ثم انتقل إلى السلطان الملك الناصر وجعله ساقياً، عظمت مكانته عند السلطان وزادت محبته له حتى عظم شأنه في المملكة، توفي في طريق الحجاز عائداً سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة، وكان قد خلف من الأموال والجواهر والأصناف والأمتعة والقماش ما يزيد عن الحد، انظر: الوافي بالوفيات

وحريمه، وخواصه، وأعزائه، وكان سلطاننا الملك الناصر يثق به وأفرده بعد بكتمر الساقى لخدمة الدور السلطانية والنساء والحرم، مع مشاركة الجماعة في مباشرة طبه والحضور عنده، ولم يزل موثر الحظ من الإكرام، وكانت بيننا وبينه صحبة، وله بنا خصوصية، وله من حسن الملاحظة في العلاج ما لم يكن لأحد سواه، وكان في هذا غاية.

جرى ذكره عند الحكيم الفاضل ناصر الدين محمد بن صغير، وهو عليل بدمشق، فقال: من كان مثل الحكيم فرج الله؟ وأخذ في وصفه ووصف فضيلته والثناء عليه، وبالف في هذا وأطنب فيه، فقال له بعض من حضر: فكيف كان السيد الديماطي؟ فقال: كان السيد يعمل في ما يصفه مصلحته، وفرج الله يعمل مصلحة المريض.

قلت: والأمر هو على ما قاله، فإن السيد قل أن كان يخوض الغمرات في الوصف، وفرج الله يخوض الغمرات في الوصف، ويود لو نزع من جسده ثوب العافية وألبسه المريض، وإذا كره المريض أو من حضره غذاء أو دواء أبدله بغيره، فإن كرهوا أبدله بغيره، يفعل هكذا حتى يصيب موافقة من رضاهم أو مقاربه، وكان يرى أن هذا أجدى فينفع المريض، وكانت له معالجات موافقة، وإصابات في تقدم المعرفة خارقة.

حكى لي غير واحد من جيراننا بالقاهرة أنه كان معودًا بمعالجة رجل بسويقة صاحب، وقد عرف مزاجه ودربه، فمر به ذات يوم وهو راكب على حماره قد نزل من القلعة على بيته، فرأى ذلك الرجل جالسًا على باب المدرسة الصاحبية^(١)، فوقف فرج الله

(١٠/١٢٢-١٢٤)، الدرر الكامنة (٢/٢١-٢٣) وفيها أنه مات سنة (٧٣٦هـ)، شذرات الذهب (٦/١٠٤، ١٠٥).

(١) هذه المدرسة بالقاهرة في سويقة صاحب، كان موضعها من جملة دار الوزير يعقوب ابن كلس، ومن جملة دار الديباج، أنشأها صاحب صفى الدين عيد الله بن علي بن شكر وجعلها وقفًا على المالكية، وبها درس نخو وخزانة كتب، فلما كان في شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة جدد عمارتها القاضي علم الدين إبراهيم بن عبد اللطيف بن إبراهيم المعروف بابن الزبير ناظر الدولة في أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون، واستجد فيها منبرًا. انظر: الخطط المقرئية (٤/٤٧٦، ٤٧٧).

قدامه، وذلك الرجل لا يشعر به، وأطال فرج الله النظر إليه، والتأمل في سحته، وهو صحيح سوي، لا يشكو مرضاً ولا عرضاً، ثم قال له: يا فلان، هل عضك في هذه الأيام كلب قط؟ فقال له: نعم، من أيام قلائل. فقال له: قم اقعد في بيتك والحق نفسك بالمداواة، ثم ساق حماره وأتى إلى أهل بيت الرجل، وقال لهم: اعملوا أنني رأيت صاحبكم ورأيت عليه علائم الكلب، فسألته: إن كان عضه كلب؟ فقال: نعم. فأمرته بأن يقعد في بيته، يلحق نفسه بالمداواة والطب، فالحق الله فيه والله الله في أنفسكم، فإنه قد كلب ويوشك أن يجفل من الماء بعد كذا وكذا يوم، ثم يموت بعد كذا وكذا. فكان الأمر كما ذكره لم يخرم في شيء منه.

ولما اعتل والدي - رحمه الله - العلة التي مات فيها كان أولها انصباب مادة بلغمية إلى يده، فورمت منها يده، وهو ونحن لا نكثر بذلك ولا يهمننا، والأطباء تتردد إليه في كل صباح ومساء لمعالجته، وفرج الله منهم، فأصبح ذات يوم وقد تصرف الورم بجملته في يده وأصبح بارئاً لا يشك في ذلك نحن ولا الأطباء، وكان منهم ابن البرهان، والسديد الدمياطي، فلما انصرفوا قال لي فرج الله: اعلم أن هذه المادة لم تتصرف، وإنما انصبت بجملتها إلى مكان استضعفته من الأعضاء الباطنة، وأكبر ظني أن تكون انصبت إلى قصبة الرئة، ولئن كان كذلك ليعرضن له آخر هذا اليوم ضيق نفس، ثم قل أن تنجح معالجته مع ما بلغه من هذا السن، فلم يأت آخر ذلك اليوم إلا وقد عرض له مبادي ضيق نفس، ثم لم يزل يتزايد إلى أن أتى عليه يوم لم نشك أنه لا يخرج عنه، فلما أتاه ورأى ماء واستقرى أعراضه، ووصف له ما وصف وقام، وذلك يوم نصف شعبان، قلت له: تقول يمسي عليه المساء؟ قال: نعم، ويمسك إلى آخر هذا الشهر، إلى خمسة، ستة أيام أخرى في شهر رمضان، فكان الأمر كما ذكره لم يخرم. قلت: وقل أن وصف لي دواء إلا وبين أثره ليومه، ثم حدثت عاقبته فيما بعد.

وعرض لي مرة دوار صفراوي، فأمر بهاء فأسخن فوق الإسخان المستطاب، ثم شد قدمي بأشوطة من فوق الكعبين، وأمر بتدليتهما في ذلك الماء، وتعجيل حل

الأنشودة عند تدليتها في الماء، ففعل ذلك، ثم أمر باطالة اللبث، ثم حكمها بالحجر الخشن والملح النخالة، فلم يكن بأسرع من زوال ذلك الدوار لانعكاس المادة، وتفتح المسام في سفلى القدم، وأثر ذلك لساعته.

ولما أردت الحج في حجتي الثالثة كان الزمان صيفاً، والحر شديداً إلى غاية، فسألته عما اعتمدته؟ فقال لي: إذا خفت الحر لثَّ بزرقطونا^(١) بماء، ثم أضف إليه شيئاً من الخل الحاذق الثقيف، وضمد به صدرك ورقبتك، فإنك لا تبالي بالحر، فوالله لقد كنت أنا ومن معي نعمله ونركب في الهواجر المتقدة والقيظ المضطرم، ونحن نظن أن على صدورنا قطع الثلج، لا نحس ما الحر، وما ندرى ما السموم، إلى غير هذا مما كان فيه من الفضائل، وما فاق به الأنظار وفاق الأمثال، فليت الشمس لو أبقتة قليلاً، ووا أسفاً على مثله كيف مات على اليهودية.

ومنهم:

١٩٣- محمد بن صغير، ناصر الدين

طبيب جامع، وليبب تشرق كلماته في المسامع، وفاضل لم يقصر في نوع من الفضائل على كثرة تشعبها، مع أخلاق لو تحلقت بها المدام لما قطب شاربها، ولما قدر أن يذكرها عائبها، إلى فضائل شريفة، وشئائل ظريفة، وأخوة صحيحة الإخاء، صريحة الانتحاء، وقول جزم أنه قد أصبح اليوم فرداً واحداً لما جمع من شتى المحاسن، وكمال الأوصاف.

قرأ العلم واشتغل به، وخيّم السلطان، وباشر المارستان، وقرأ النحو والأدب،

(١) بزرقطونا: نوع من البقل ينبت في أول الربيع، وربما ينبت في الشتاء، ورقه يشبه ورق الكتان إلا أنها أعرض وأطول. انظر: عمدة اللبيب في معرفة النبات (١/ ١٠٠).

وتطبع به حتى صار خُلِقًا له، وله في حسن العلاج يد طويلة، وآثار جميلة، وأفعال حسنة مشكورة، وهو يرى لطف التدبير في معالجة المرضى، وعدم الإقدام عليهم بالأدوية، وكان السلطان يشكره ويثني على نشأته الحسنة، إلى غير هذا مما يتفكَّه به من جنى الألسنة.

آخر الجزء الثامن من كتاب: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار».

ويتلوه إن شاء الله تعالى: ومن يعد مع الحكماء: أهل علم الموسيقى.

والحمد لله رب العالمين

فهرس

فهرس

٣	مقدمة
٥	المبحث الأول: العمري: حياته ومؤلفاته
١٣	المبحث الثاني: كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
٥٧	١- هرمس الأول
٥٨	٢- هرمس الثاني
٦١	٣- هرمس الثالث
٦٤	٤- فيثاغورث
٦٧	٥- سقراط
٧٢	٦- أفلاطون
٧٥	٧- أرسطوطاليس
٨٣	٨- يعقوب بن إسحاق الكندي
٨٩	٩- أحمد بن الطيب السرخسي
٩١	١٠- كنهه الهندي
٩٢	١١- صنجهل الهندي
٩٣	١٢- أبو نصر الفارابي
١٠٥	١٣- يحيى بن عدي
١٠٧	١٤- أبو بكر محمد بن زكرياء الرازي
١١٢	١٥- أبو سليمان السجستاني
١١٤	١٦- ابن الحنّار
١١٧	١٧- أبو الفرج بن هندو
١٢٢	١٨- الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن علي بن سينا
١٥٣	١٩- أبو الفرج عبد الله بن الطيب

- ٢٠- [أبو المؤيد] محمد بن محمد بن المجلي الجزري ١٥٥
- ٢١- ابن الخطيب الرازي، ابن خطيب الري ١٦١
- ٢٢- القطب المصري ١٧٧
- ٢٣- عبد اللطيف البغدادي ١٧٩
- ٢٤- ابن الحوتّي ٢١٠
- ٢٥- الرفيع الجيلي ٢١٢
- ٢٦- الشهاب السهروردي ٢١٥
- ٢٧- الخسروشاهي ٢٢٧
- ٢٨- السيف الأمدى ٢٣١
- ٢٩- البديع الاضطرابي ٢٣٤
- ٣٠- ابن الشبل البغدادي ٢٣٦
- ٣١- النصير الطوسي ٢٤١
- ٣٢- القطب الشيرازي ٢٤٩
- ٣٣- الشيخ صفى الدين الهندي ٢٥٠
- ٣٤- أبو الحسن القونوي التبريزي ٢٥٢
- ٣٥- القاضي جلال الدين القزويني ٢٥٩
- ٣٦- السيد العبري ٢٧٣
- ٣٧- الشيخ شمس الدين الأصفهاني ٢٧٧
- ومن فلاسفة المغاربة، وحكّائها، ومتكلميها ممن كان بالأندلس
- ٣٨- يحيى بن يحيى، أبو بكر، المعروف بابن السمينة ٢٩٤
- ٣٩- ابن المجريطي ٢٩٦
- ٤٠- ابن السمح ٢٩٨
- ٤١- أبو الحكم الكرمانى ٢٩٩
- ٤٢- ابن وافد ٣٠١

- ٤٣- محمد بن يوسف المنجم ٣٠٣
- ٤٤- أبو بكر ابن باجة: ابن الصايغ ٣٠٤
- ٤٥- المبشر بن فاتك ٣٠٧
- ٤٦- الحفيد أبو بكر محمد الأيادي الأندلسي الإشبيلي ٣٠٨
- ٤٧- محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن يوسف ٣١٤
- ٤٨- ابن البرهان الجرائحي ٣٢٢
- ٤٩- ابن الأكفاني ٣٢٩
- ٥٠- اسقليبيوس بن ريوس ٣٣٤
- ٥١- أيلق ٣٣٧
- ٥٢- الحارث بن كلدة الثقفي ٣٤٠
- ٥٣- النضر بن الحارث بن كلدة ٣٥٤
- ٥٤- عبد الملك بن أبجر ٣٥٦
- ٥٥- ابن أثال ٣٥٨
- ٥٦- أبو الحكم ٣٦٥
- ٥٧- حكم الدمشقي ٣٦٧
- ٥٨- عيسى بن حكم الدمشقي المعروف بالمسيح ٣٦٩
- ٥٩- تياذوق ٣٧٣
- ٦٠- زينب طيبة بني أود ٣٧٩
- أطباء السريان الكاثنين في ابتداء الدولة العباسية ٣٨١
- ٦١- [جورجيس] ابن جبريل (بن بختيشوع) ٣٨١
- ٦٢- بختيشوع بن جرجس ٣٨٤
- ٦٣- جبريل بن بختيشوع ٣٨٦
- ٦٤- بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع ٣٩٤
- ٦٥- جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع ٤٠٧

- ٦٦- خُصَّيب النصراني ٤٠٩
- ٦٧- عيسى المعروف بأبي قريش ٤١٠
- ٦٨- ابن اللجلج ٤١٣
- ٦٩- عبد الله الطيفوري ٤١٤
- ٧٠- إسرائيل بن زكريا الطيفوري ٤١٦
- ٧١- يزيد بن [زيد] بن يوحنا ٤١٧
- ابن أبي خالد ٤١٧
- ٧٢- عبدوس بن زيد ٤٢٠
- ٧٣- ماسرجويه «طبيب البصرة» ٤٢٢
- ٧٤- سلمويه بن بنان «متطبب المعتصم» ٤٢٤
- ٧٥- إبراهيم بن فزارون ٤٢٥
- ٧٦- إبراهيم بن أيوب الأبرش ٤٢٧
- ٧٧- ماسويه [أبو] يوحنا ٤٢٨
- ٧٨- يوحنا بن ماسويه ٤٣٠
- ٧٩- ميخائيل بن ماسويه ٤٤٢
- ٨٠- حنين بن إسحاق العبادي ٤٤٣
- ٨١- إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي أبو يعقوب ٤٤٦
- ٨٢- يوحنا بن بختيشوع ٤٤٧
- ٨٣- ثابت بن قرّة الحراني، أبو الحسن ٤٤٨
- ٨٤- سنان بن ثابت بن قرّة ٤٥١
- ٨٥- ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني ٤٥٢
- ٨٦- ابن وصيف الصابي ٤٥٦
- ٨٧- غالب «طبيب المعتضد» ٤٥٧
- ٨٨- صاعد بن بشر بن عبدوس، أبو منصور ٤٥٨

- ٨٩- ديلم ٤٦١
- ٩٠- فنون المتطبب ٤٦٢
- ٩١- نظيف «القس الرومي» ٤٦٣
- ٩٢- ابن بطلان النصراني ٤٦٤
- ٩٣- أحمد بن أبي الأشعث ٤٦٥
- ٩٤- أبو سهيل النيلي ٤٦٦
- ٩٥- ابن الواسطي «طبيب المستظهر» ٤٦٧
- ٩٦- أبو طاهر البرخشي ٤٦٨
- ٩٧- أبو غالب ابن صفية النصراني ٤٦٩
- ٩٨- أمين الدولة ابن التلميذ ٤٧١
- ٩٩- معتمد الملك ٤٧٧
- ١٠٠- أوحّد الزمان ابن ملكا البلدي البغدادي ٤٧٩
- ١٠١- أبو القاسم هبة الله بن الفضل البغدادي ٤٨٣
- ١٠٢- فخر الدين المارديني ٤٨٦
- ١٠٣- أبو نصر المسيحي ٤٨٧
- ١٠٤- أبو الفرج بن توما ٤٩٠
- طبقات الأطباء ببلاد العجم ٤٩١
- ١٠٥- تياذورس ٤٩١
- ١٠٦- ربن الطبري ٤٩٢
- ١٠٧- علي بن سهيل بن ربن الطبري، أبو الحسن ٤٩٢
- ١٠٨- أحمد بن محمد الطبري ٤٩٣
- ١٠٩- أبو منصور: الحسن بن نوح القمري ٤٩٤
- ١١٠- أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني ٤٩٤
- ١١١- السيد أبو عبد الله محمد بن يوسف الإيلاقي ٤٩٥

- ١١٢- أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ٤٩٦
- ١١٣- أحمد بن عبد الرحمن بن مدويه الأصبهاني ٤٩٦
- ١١٤- ابن أبي صادق النيسابوري ٤٩٧
- ١١٥- السموءل بن يحيى بن عباس ٤٩٨
- ١١٦- الشريف شرف الدين إسماعيل ٥٠٠
- أطباء الهند
- ١١٧- شاناق الهندي ٥٠١
- ١١٨- منكه الهندي ٥٠٢
- ١١٩- صالح بن بهلة الهندي ٥٠٣
- أطباء الشام
- ١٢٠- أبو الفرج جرجس بن توما بن سهل بن إبراهيم ٥٠٦
- ١٢١- ظافر بن جابر السكري ٥١٢
- ١٢٢- أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي ٥١٣
- ١٢٣- ابنه: أبو المجد بن أبي الحكم، أفضل الدولة ٥١٥
- ١٢٤- ابن البذوخ ٥١٦
- ١٢٥- حكيم الزمان أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغساني
- الجلياني ٥١٦
- ١٢٦- المهذب ابن النقاش ٥١٨
- ١٢٧- سكرة اليهودي الحلبي ٥١٩
- ١٢٨- أسعد بن إلياس ابن المطران الموفق ٥٢٠
- ١٢٩- ابن اللبودي ٥٢٢
- ١٣٠- الرضي الرحبي ٥٢٤
- ١٣١- الشرف علي شرف الدين أبو الحسن ٥٢٦
- ١٣٢- عمران الإسرائيلي ٥٢٧

- ١٣٣- يعقوب بن صقلاب النصراني ٥٣٠
- ١٣٤- رشيد الدين الصوري ٥٣١
- ١٣٥- سديد الدين بن رقيقة ٥٣٣
- ١٣٦- صدقة السامري ٥٣٦
- ١٣٧- المهذب يوسف بن أبي سعيد بن خلف السامري ٥٣٧
- ١٣٨- أمين الدولة، أبو الحسن بن غزال بن أبي سعد السامري ٥٣٩
- ١٣٩- المهذب الداخوار ٥٤٢
- ١٤٠- الرشيد علي بن حليقة الأنصاري الخزرجي^٥ ٥٤٥
- ١٤١- ابن قاضي بعلبك ٥٤٧
- ١٤٢- العماد الدنيسري ٥٥٠
- ١٤٣- العز السويدي ٥٥٢
- ١٤٤- الموفق السامري، وهو يوسف يعقوب بن غنائم ٥٥٣
- ١٤٥- أبو الفرج يعقوب بن اسحاق بن القف النصراني ٥٥٤
- ١٤٦- المهذب يوسف كاتب الزردكاش ٥٥٧
- ١٤٧- النفيس أبو الفرج ابن إسحاق بن أبي الخير السامري ٥٥٧
- ١٤٨- الأمين سليمان الحكيم ٥٥٨
- ١٤٩- أحمد بن شهاب الدين أبو محمد الكحال الجرائحي ٥٦٢
- ١٥٠- الفتح السامري ٥٦٢
- ١٥١- غنائم السامري ٥٦٣
- ١٥٢- إسحق بن عمران ٥٦٥
- ١٥٣- إسحق بن سليمان الإسرائيلي أبو يعقوب ٥٦٦
- ١٥٤- ابن الجزار القيرواني ٥٦٨
- ١٥٥- حمدون أثا ٥٦٩
- ١٥٦- يحيى بن إسحاق ٥٧٠

- ١٥٧: أبو داود بن جليجل ٥٧١
- ١٥٨- أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداي ٥٧٣
- ١٥٩- الغافقي ٥٧٤
- ١٦٠- أبو بكر عتيق بن تمام بن أبي البون الأزدي ٥٧٤
- ١٦١- أبو محمد المصري ٥٧٧
- ١٦٢- أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الداني ٥٧٩
- ١٦٣- أبو مروان عبد الملك الإيادي الأشبيلي^٥ ٥٨٦
- ١٦٤- أبو العلاء زهر بن عبد الملك ٥٨٧
- ١٦٥- ابنه أبو مروان ابن أبي العلاء، واسمه عبد الملك ٥٨٨
- ١٦٦- أبو محمد ابن الحفيد أبي بكر بن زهر ٥٩٠
- ١٦٧- أبو جعفر بن الغزال ٥٩٢
- ١٦٨- أبو العباس ابن الرومية ٥٩٣
- ١٦٩- ابن الأصم ٥٩٤
- ١٧٠- بليطيان ٥٩٦
- ١٧١- سعيد بن توفيل ٥٩٧
- ١٧٢- سعيد بن البطريق ٥٩٨
- ١٧٣- التميمي ٥٩٩
- ١٧٤- ابن الهيثم البصري المصري ٦٠١
- ١٧٥- علي بن رضوان ٦٠٢
- ١٧٦- أفرائيم الإسرائيلي ٦٠٣
- ١٧٧- سلامة بن رحمون أبو الخير ٦٠٤
- ١٧٨- بن بلمظفر بن معرف ٦٠٦
- ١٧٩- أبو عمرو عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل ٦٠٧
- ١٨٠- ابنه الفتح (فتح الدين بن جمال الدين بن أبي الحوافر) ٦٠٨

obeikandi.com